شرح كتاب التوحيد

تفريغ **الدرس الأول**

نسخة (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا .

أما بعد .

نسأله عز وجل أن يسلك بنا وبكم هذا الطريق إلى أن نلقاه ، فهو طريق عظيم ، وهو طريق الجنة كما ثبت في ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة المخرج في ((**مسلم**)) ومن حديث أبي الدرداء في ((**السنن**)) « **من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة** » .

ولا يخفاكم ما للعلم من فضل وما له من أثر ، وما للأمة من حاجة ماسة إليه .

العلم يقبض في آخر الزمان كما ثبت في ذلك الحديث عن رسول الله ﷺ « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من صدور الرجال ؛ ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبقَ عالم اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا** » . قال ابن مسعود رضي الله عنه : اطلبوا العلم قبل قبضه ، وقبضه بموت أهله ، وإياكم والتنطع والتعمق والبدع ، وعليكم بالعتيق ، العتيق القديم ، العلم الأصيل الخالص ، لذا يتأكد على المقبل على طالب العلم أن يحرص غاية الحرص أن يستمر في هذا الطريق ويجاهد نفسه ، قد يجد مشقة في البداية ، كل شيء يقرؤه يراه جديدًا عليه ؛ لكن مع مضي الوقت يسهل الطريق

ويهون ، ومع مضيه ومضيه يجد الإنسان لذته وحلاوته حتى يرى أنه لا شيء في الدنيا ألذ من طلب العلم ، ومن عبادة الله عز وجل وإن كثرت الملذات وفضول المباحات .

ومن أهم الأمور استعانة العبد بربه عز وجل أن يعينه ويثبته على هذا الطريق ، لهذا لم يأمر النبي ﷺ أن يتزود من شيء إلا من العلم في قول الله عز وجل : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

ولما دعا النبي ﷺ لابن عباس وكان شابًّا يافعًا توفي النبي ﷺ وعمره زهاء أربع عشرة سنة ، قال له : « **اللهم فقه في الدين وعلمه الكتاب** » . وفي رواية : « **والحكمة** » . وفي رواية : « **والتأويل** » . فغدى بهذه الدعوة من رسول الله حبر الأمة وترجمان القرآن رضي الله عنه وأرضاه .

فادعوا الله لأنفسكم بالعلم النافع ، والعمل الصالح دائمًا وأبدًا واسألوه الثبات ، واعلموا أنكم لن تعدموا من العلم خيرًا قد يكثر لبعض الناس وقد يقل ؛ لكن بركة العلم عظيمة ، لهذا أُثر عن بعض السلف قوله : كن عالمًا أو متعلمًا أو سامعًا أو محبًّا ولا تكن الخامسة فتهلك .

بعض الناس يرى أنه إن لم يحصل من العلم أكثره لم يحصل شيئًا وبالتالي يمل ويترك الطريق ، لا ، لا تترك الطريق ما دمت حيًّا فهو طريق عظيم وهو طريق الجنة كما ذكر ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها .

اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا ، وزدنا وارزقنا علمًا ينفعنا ، اللهم فقهنا في الدين وعلمنا الكتاب والحكمة والتأويل ، رب زدنا علمًا رب ، زدنا علمًا ، رب زدنا علمًا .

الكتاب الذي بين أيدينا كتاب جليل القدر ، عظيم الفائدة ، وهو كتاب معروف يعرفه القاصي والداني .

الطريقة فيه : تعليق على ما فيه ، فقد أشبعه العلماء دراسة وبحثًا وشرحًا في الكتب وفي الدروس .

والمقصود أن لا يخرج الواحد منا إلا بفائدة ، ولهذا الطريقة التي أريد منكم أن تلزموا أنفسكم بها ، هي أن نحفظ الدرس عندما ننتهي منه ، وقد أطالب البعض بالتسميع في الدرس القادم ، نريد أن نحفظه ؛ لأن أحسن طريقة في العلم أن تجمع الأمرين : الحفظ ، والفهم .

بعض الناس يميل للحفظ فقط ، لا ، والفهم ، والفهم عظيم ولذة العلم في فهمه ، فلنحرص على أن نحفظ وأن نفهم ما حفظنا ، وبالتالي يحصل العلم الإنسان علمًا .

اليوم علم وغدًا مثله ** من نخب العلم ما تلتقط

يحصل المرء فيه حكمة ** وإنما السيل اجتماع النقط

نقطة ونقطة حتى يسيل الوادي بالماء الغزير ، قال الزهري لأحد تلاميذه يونس بن يزيد : لا تكابر – وفي رواية لا تكاثر – العلم ، فإن من رامه جملة تركه جملة ولكن مع الليالي والأيام .

ولهذا كان الصبر في طلب العلم أمرًا مهمًا جدًّا مع الاستعانة بالله على الطريق والثبوت عليه ، فنجمع الأمرين نحفظ ونفهم ونراجع ، وفي نية من يفتح الله عليه أن يعلم غدًا ، هذا المنهج الذي عاشت عليه الأمة لقرون ، أجيال يأخذ بعضها عن بعض ، فيأخذ اللاحق عن السابق ثم ينقله إلى من بعده وهكذا ، وهذه

طريقة الربانيين في العلم كما قال ربنا عز وجل : ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

مؤلف هذا الكتاب علم من أعلام الأمة ، وعالم من علمائها غني عن التعريف ؛ لكن لا بأس أن نأخذ نبذة يسيرة عنها .

فهو كما لا يخفاكم شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي .

ولد في بلد العيينة وحفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره ، تتلمذ على والده ، وكان والده عالمًا وجده من العلماء البارزين ، ثم سافر بعد ذلك إلى مكة وإلى المدينة وإلى البصرة لطلب العلم ، وبدأ في تأليف كتابه في البصرة لما رأى ما عليه الأمة من غربة في التوحيد وانتشار للبدع والخرافات ، المظاهر التي هي بعيدة غاية البعد عن نقاء هذا الدين وصفائه ، فألف هذا الكتاب وبدأ بدعوته رحمه الله رحمةً واسعة .

وألف في هذا المجال جملة من الكتب من ((**الأصول الثلاثة**)) ولا تخفاكم وأدلتها ((**كشف شبهات**)) ، ((**مسائل الجاهلية**)) وكتب عديدة ألفها رحمه الله تعالى رحمةً واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرًا .

استمر في هذه الدعوة إلى أن توفي ودفن في درعية رحمه الله رحمة واسعة سنة ست ومائتين وألف ، وكان مولده سنة خمسة عشر ومائة وألفٍ رحمه الله رحمةً واسعة وأجزل له المثوبة والعطاء .

(**كتاب التوحيد**)

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣]) .

قال رحمه الله : (**كتاب التوحيد**) .

التوحيد مصدر وَحَّدَ يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا ، والتوحيد أي جعله واحدًا في اللغة ، وفي الاصطلاح : إفراد الله عز وجل بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فربوبيته تعالى توحيده بأفعاله ، مثل الخلق والملك والتدبير ، وما يتبعها من الرِّزق وإنزال المطر وإحياء الموتى وما أشبه ذلك .

وتوحيد الإلهية توحيده تعالى بأفعال العباد من : الصلاة والصيام والزكاة والحج والدعاء والنذر والاستغاثة والاستعانة والاستعاذة والذبح وما أشبه ذلك .

وتوحيد الأسماء والصفات ، وهي أن يسمى الله تعالى ويوصف بما سمى ووصف به نفسه ، وما سماه ووصفه رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تمثيل ولا تعطيل ولا تكييف .

وهذه أنواع التوحيد الثلاثة ، وإن شئت فقل أنواع التوحيد نوعان :

- توحيد في المعرفة والإثبات ، ويندرج تحته توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات .

- وتوحيد في القصد والطلب ، ويشمل توحيد الإلهية .

والعلاقة بين أنواع التوحيد:

- أن الإقرار بتوحيد الربوبية يستلزم الإقرار بتوحيد الألوهية ولهذا وبخ الله المشركين إذ أقروا بتوحيد الربوبية ولم يقروا بلازمه وهو توحيد الألوهية.
- وأيضا توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسيلتان إلى توحيد الألوهية ، فهما وسيلة وتوحيد الألوهية غاية ، ووجه ذلك أن من عرف أن الله هو الخالق لما خلق والمدبر لما ملك سبحانه كان ذلك وسيلة إلى معرفته ربه عز وجل ، كذلك من عرف الله بأسمائه وصفاته عرفه ربه عز وجل وبالتالي عبده.

والشيخ قدس الله روحه بحث في هذا الكتاب توحيد الإلهية أكثر ؛ لأن الحاجة ملحة إليه ، حاجة الناس جميعًا ، ولكثرة ما وقع الناس فيه من خلاف ، لهذا عقد هذا الكتاب وأكثر من الحديث عن هذا النوع ، ربما أشار إشارات إلى توحيد الأسماء والصفات أو الربوبية ؛ لكن الأصل هذا التوحيد .

وهذا التوحيد كما تعلمون بعث الله من أجله الرسل ، وأُنزِلت الكتب ، وشُرِع الجهاد في سبيل الله .

وتوحيد الإلهية يسمى توحيد العبادة ، وتوحيد الإرادة ، وتوحيد القصد ، وتوحيد العمل .

وتعريفه كما ذكر لكم إفراد الله بالعبادة ، بمعنى أن يوحد الله عز وجل ، ولا يشرك معه غيره أيًّا كان ذلك الشريك صنمًا أو شجرًا أو حجرًا أو رجلاً صالحًا أو ملكًا أو نبيًّا .

وهذا التوحيد هو أول واجب ، أول ما يجب على العبد توحيد الله عز وجل ، لا النظر أو القصد إلى النظر أو الشك عياذًا بالله كما هي مناهج المتكلمين .

فأول ما يجب على العبد شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله:

- قال تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ [محمد : ١٩].
- ولما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له : « **فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** » . وفي رواية : « **إلى أن يوحدوا الله** » .
- وفي الحديث المخرج في ((**الصحيحين**)) « **بني الإسلام على خمس** » ، وذكر أولها « **شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله** » .
- وفي الحديث الآخر أيضًا المخرج في ((**الصحيح**)) « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله** » .

المقصود : أن هذا التوحيد هو أول ما يجب على العبد ، لذلك بقي النبي ﷺ يدعوا إليه مذ أمره الله تعالى بالدعوة في قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر : ١ ، ٢] . إلى أن توفاه الله عز وجل ، وهو كما تقول عائشة : لما نُزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها وقال وهو كذلك : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

من آخر ما قال عليه الصلاة والسلام خوفه من محدثات الأمور ومبتدعاتها في العقيدة فظل يدعو صلوات الله وسلامه عليه طيلة حياته ، بل ودعا عشر سنين أول ما بعث إلى التوحيد بخاصة ، ما أُمر الناس بصلاة ولا صيام ولا غيرها من الواجبات الكبار وأركان الإسلام ، وإنما فرضت الصلاة في السنة العاشرة ، والصيام والزكاة في السنة الثانية ، والحج في السنة التاسعة في أحد القولين وأرجح قولي أهل العلم .

المقصود : أن هذه المدة الطويلة والتي مكث النبي ﷺ وهو يقول للناس فيها : « **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » . ما يدل على أهمية الدعوة إلى التوحيد في كل زمان ومكان ، ولأنه لا يصح عمل الإنسان إلا بالتوحيد ، فلو أن الإنسان صلى وصام وتصدق وحج ، وعمل الأعمال كلها دون أن يقول : لا إله إلا الله . لا تقبل منه أعماله ، فهذه المسألة الكبيرة العظيمة عليها مدار الأعمال كلها ، ولهذا يتأكد على كل داعٍ إلى الله عز وجل أن يعتني بهذا الأمر ، فكيف يدعوا الناس إلى أمور وإن كانت كبيرة ويترك أكبر الأمور وأهمها وأعظمها وهو توحيد الله عز وجل وإخلاصه في العباد .

كان العرب في الجاهلية لديهم بقايا من دين إبراهيم ، كانوا يصومون ، وكانوا يحجون ، وكانوا يعتمرون ، وكان ينذرون ، ومنهم من يؤمن بأسماء الله وصفاته ، ومنهم من يؤمن بالقضاء والقدر ، وأشعارهم في هذا معروفة ، بل منهم من يعتكف ، ما الدليل ؟ حديث عمر في ((**الصحيحين**)) نذرت أن أعتكف ليلة في الجاهلية .

ومع ذلك لم تغنِ هذه الأعمال شيئًا ، والسبب ما خالطها من الشرك بالله عز وجل ، والسبب الإخلال بـ لا إله إلا الله وبتوحيد الله عز وجل ، فدل على عظم هذه المسألة وأهميتها وأهمية العناية بها ، وأهمية تنشئة ناشئة الصغار عليها منذ الصغر ، نعلمهم هذه الكلمات ونحفظهم هذه الكلمات من ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ ما أركان دينك ؟ حتى إذا تعرض على غفلة منا لمؤثرات ولا يخفاكم الواقع في هذا الزمان يكون لديه لعل الله يحفظه بسببه ويدفعه عنه به .

تلحظون الشيخ رحمه الله ما ذكر مقدمة ، وسلفه بذلك البخاري رحمه الله في الصحيح لم يذكر مقدمة له ، ولعل مقصود الشيخ الذي كان يمكن أن يوضحه في مقدمته وجدها في هذا الكتاب ، بل وفي أوله ، فكان من الأدب أن لا يبدأ كتابه إلا بقال الله وقال رسوله ، وهذا هو النهج الذي سار عليه . وستلحظون أنه في الأبواب لا يذكر كلامًا له رحمه الله ، إلا في المسائل التي يذكرها بعد ذلك .

لكن ذكر حفيده الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمة الله أنه وقع إلى نسخة ذكر فيها الشيخ مقدمة بدأ فيها بالحمد والثناء على الله عز وجل وعلى كل حال إن كان الشيخ ترك المقدمة فله أسوة بالبخاري كما ذكر ثم غايته ذكر هذا المقصود وهو التوحيد وذكر التوحيد وذكر مسائل عظيمة في هذا الباب.

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]

الآية الأولى آية عظيمة ، وتعني كل مسلم ، ويتأكد أن يوجه هذا السؤال لكل شخص ، صغير وكبير ، لأي شيء خلقك الله ؟

الجواب : لعبادته .

الحمد لله هذا السؤال يكاد يكون معلوم حتى لدى صغارنا ، وهذا ولله الحمد من اهتمام الناس بالتوحيد في بلادنا ، ولربما تسأل شخصًا كبيرًا في جهة من الجهات لا يعرف لأي شيء خُلق ، بل ربما تسأل طالب علمٍ عن هذا السؤال فيجيبك بأجوبة غاية في العجب ، وربنا يقول : (﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾) . ما خلقهم إلا لهذا الأمر العظيم ، وهو عبادة الله عز وجل .

وقوله : (﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾) . استثناء يفيد الحصر ، ما خلقهم ليتقوى بهم ولا ليستغني بهم ولا ليستكثر بهم ، ولهذا قال بعدها : ﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٧] .

واللام هنا للتعليل ، (﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾) والتعليل هنا تعليل غاية ، ويسميه بعض العلماء بالحكمة . وهذا المعلول قد يقع وقد لا يقع ، فمن الناس من يعبد الله ، ومنهم من لا يعبده عياذاً بالله ؛ ولكن الله ما خلقهم إلا لهذا الأمر ، إلا ليعبدوه ويوحدوه بالعبادة . والعبادة مرادفة للتوحيد كما مر بكم في حديث معاذ ، والتوحيد بهذا اللفظ ورد في النصوص:

- في حديث جابر لما استوى النبي ﷺ على ناقته يوم أحرم في حجة الوداع قال جابر : وأَهَلَّ رسول الله ﷺ بالتوحيد . وما إهلال التوحيد ؟ لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . هذه العبارة الكبيرة العظيمة والتي تشمل أنواع التوحيد الثلاثة :
    - الربوبية : النعمة والملك .
    - الأسماء والصفات : الحمد .

▪ الألوهية : وهو الظاهر البين فيها .

فما خُلِق الناس إلا ليعبدوا الله عز وجل .

والعبادة مشهور تعريفها وهي : التذلل لله عز وجل محبةً وتعظيمًا .

ما يكفي التذلل ، نعم التذلل تعبد ، ولهذا عندما يُذَلَّلُ الطريق ماذا نقول عنه ؟ طريق معبد .

يقول طرفة :

إلى أن تحامتني العشيرة كلها ** وأفردت إفراد البعير المعبد

البعير المعبد المذلل للركوب .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] .

ثم ذكر الآية الثانية وهي قوله تعالى : (﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾) .

يعني كأن سائلاً سأل قال : إذا خلقنا لعبادة الله فهل تركنا هكذا ؟

الجواب : كلا ما خلقنا عبثًا ، وما تركنا سدًى ، بل خلقنا لعبادته وأرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأقام الحجة على الناس أجمعين بإرسال الرسل إليهم ، فقال : (﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا ﴾) .

(وَلَقَدْ) (اللام) هنا ما إعرابها عند النحويين ؟ يقولون : موطئة للقسم ، يعني كأن فيه قسم .

(﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾) أرسلنا (﴿ فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾) يعني في كل جيل وطائفة من الناس (﴿ رَسُولًا ﴾) ، والرسول هو من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه في قومٍ

مخالفين ، كما أرسل محمد إلى قريش ، وخلافهم معروف ، وأرسل موسى إلى فرعون ، وجميع رسل الله أرسلوا إلى أناس مخالفين .

وأما النبي فهو الذي يبعث إلى قومٍ موافقين ، ولهذا انظر إلى أنبياء بني إسرائيل من لدن إسحاق عليه السلام ويعقوب ، وبقية أنبياء بني إسرائيل كانوا يبعثون فيهم ، وهم موافقون لهم في الجملة ، وإن خالفوهم في أمور ، لكن موافقون لهم .

والغاية من بعث الرسل : (**أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ**) ، وهذه الغاية من بعثهم وهذه غاية اتفقوا عليها جميعًا ، كلهم يدعون إلى عبادة الله عز وجل ، ولهذا كان الرسل متفقين في الدعوة إلى التوحيد وإلى العبادة ، فكلهم يقول لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . وتأملوا آيات القرآن ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ، ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . حتى قال الله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . فهم متفقون على هذه الكلمة كلمة التوحيد وإن اختلفت الشرائع والمنهاج كما قال : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] ، وأما التوحيد فلا يختلفون فيه أبدًا ، ولهذا قال عليه السلام : « **الأنبياء إخوة أولاد علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد** » .

من هم إخوة العلات ؟ الإخوة لأب .

لِمَ سُموا علات ؟ قالوا : لأن الرجل نهل بالأولى وعلَّ بالثانية .

والناس أدركناهم إلى وقت إذا أراد أن ## امرأة ثانية قال عَلَّه أو عِلة ، فالإخوة لأب أولاد علات ، والإخوة الأشقاء يقال : إخوة أعيان . والإخوة لأم يقولون : إخوة أخياف .

ما وجه تشبيه الأنبياء بإخوة العلات ؟ اتفاقهم في الأصل في التوحيد ، واختلافهم في الشرائع والمناهج ، ولهذا شبهوا بالإخوة لأب .

وقوله : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣])

هذه آيات عظيمة ، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها ثماني عشرة مسألة ، من قوله عز وجل : ﴿ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ [الإسراء : ٢٢] . إلى قوله عز وجل : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ [الإسراء : ٣٩] . في أول الآية قال : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾ . ليدل على عظم هذه الوصايا ، بدأها بالنهي عن الشرك والأمر بالتوحيد ، وختمها بالنهي عن الشرك .

وكونه تعالى يبدأ الأمر بعبادته وتوحيده والنهي عن عبادة غيره قبل هذه المسائل الكبار يدل على أن أوجب الواجبات توحيد الله وعبادته ، وأعظم المحرمات الشرك به سبحانه وبحمده .

﴿ وَقَضَى ﴾: قضى معناها أمر ووصى ،

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ ﴾: ما نوع الربوبية هنا ؟ الخطاب للنبي ﷺ ولأمته ، فالربوبية خاصة .

(﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾) وكثيرًا ما يقرن الله سبحانه وتعالى الإحسان بالوالدين برهما بعبادته في آيات كثيرة وسيأتي بعضها .

وهذا القضاء قضاء ديني شرعي ، فإن القضاء نوعان :

- قضاء كوني قدري .

- وقضاء ديني شرعي .

والقضاء الديني الشرعي يلزم منه المحبة ، محبة الله له ، وقد يقع وقد لا يقع . أما القضاء الكوني فلا يلزم منه المحبة ، قد يكون محبوبًا وقد لا يكون ، ولا بد أن يقع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ ﴾ [الإسراء : ٤] .

ثم قال عز وجل : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [النساء : ٣٦] .

هذه الآية يسمونها آية الحقوق العشرة ؛ لأنها تضمنت عشرة حقوق ، وهي من جوامع الآيات في كتاب الله عز وجل ، ابتدأها الله كما تلاحظون بالأمر بالعبادة ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ ﴾ ، والنهي عن الشرك .

قد يقول قائل : ما يكفي الأمر بالعبادة فقط ؟

لا ما يكفي ، فقد يَعبد الله ويعبد غيره بالتالي يقع الشرك ، وهاتان الكلمتان العظيمتان ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا ﴾ هو معنى لا إله إلا الله ، كقوله : (﴿ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾) . فأمر بعبادته أولاً ثم نهى عن الشرك به ، وقال : ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . وشيئًا نكرة في سياق النهي فتفيد العموم ، عموم النهي عن أي شرك وعن أي مُشركٍ به .

ثم ثنى بذكر الوالدين فقال : ﴿ **وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ ولعظم حقهما يذكرهما الله عز وجل دائمًا بعد ذكر حقه .

ثم قال : ﴿ **وَبِذِي الْقُرْبَى** ﴾ . فالأقارب أولى وأحق من غيرهم بالصلة أيًّا كانت هذه الصلة ، وفي الحديث « **الصدقة على القريب صدقة وصلة** » على البعيد صدقة .

﴿ **وَالْيَتَامَى** ﴾ من هو اليتيم ؟ من مات أبوه قبل أن يبلغ ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا ﴾ [النساء : ٦] . فدل على أنهم ما بلغوا .

﴿ **وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ المسكين إذا ذكر وحده دخل فيه الفقير ، فإن ذكر مع الفقير فهو أحسن حالاً منه ، قال تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف : ٧٩] مساكين وعندهم سفينة .

وسمي مسكينًا لأنه أسكنه الفقر وأذله .

﴿ **وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى** ﴾ الجار القريب نسبًا ، ﴿ **وَالْجَارِ الْجُنُبِ** ﴾ جار لكنه بعيد من حيث النسب ، وعلى كل حال فالجار القريب له حق ، سواء كان قريب النسب أو لا ؛ لكن إذا كان قريبًا نسبًا فقد اجتمع فيه جواران :

- جوار الدار .

- وجوار النسب .

فهو أحق من غيره إذًا .

﴿ **وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ** ﴾ قيل : الصاحب في السفر .

وقيل : الزوجة .

وقيل : الصاحب مطلقًا ، وهذا القول ينتظم الأقوال السابقة .

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ المسافر المنقطع في سفره ، رجل مسافر انقطع به سفره وليس معه ما يوصله إلى بلده ، فهذا يُعطى حتى من الزكاة .

﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ المراد بهم المماليك ، أو المملوكين فيشمل المماليك من البشر ، ويشمل المملوك حتى من البهائم ، الإنسان مطالب أن يُحسن إليها وأن لا يضيعها وإن كان المتبادر المماليك من البشر قال ﷺ فيهم : « **إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من ما يطعم ، ويلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يشق عليهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم** » .

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ اختتمت الآية بهذه الخاتمة البديعة . والفرق بين المختال والفخور:

- المختال في هيئته ، في مشيته .
- والفخور في قوله .

وقد يجمع الأمرين عياذاً بالله ، والغالب أنه يجمعهما إن كان مختال في مشيته أيضًا حتى يفخر في كلامه ، من اتصف بهذين الوصفين السيئين الغالب أنه ما يحصل منه إحسان ولا قوة إلا بالله ، ولهذا وصلها بقوله : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ [النساء : ٣٧] . أي جمع عياذًا بالله الخيالة والفخر والبخل ، ﴿ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ أيضًا والله المستعان .

المقصود : أن هذه الآية وهي التي تسمى آية الحقوق العشرة صدرها الله سبحانه وتعالى بالأمر بعبادته والنهي عن الشرك به والذي هو من معنى كلمة لا إله إلا الله .

وقوله : (وقوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

هؤلاء الآيات الثلاث أيضًا آيات عظيمة ، اشتملت على جملة من الوصايا ، ولهذا ختمها الله عز وجل بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ .

وهذه الآيات تسمى آيات الوصايا العشر لاحظوا التي قبلها الحقوق ، وهنا الوصايا ولأن كل آية كما ذكر ختمت بقوله : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ ﴾ . فقال تعالى : (﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾) .

(تَعَالَوْا) هلموا وأقبلوا ،

(أَتْلُ) اقرأ عليكم ،

(مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) ، فهو تعالى الذي بيده التحريم والتحليل.

(أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) : و(أَنْ) هنا لا يصلح أن تكون مصدرية ؛ لأن القاعدة في إن المصدرية إذا وَلِيَها الفعل المضارع أنها تؤول مع الفعل بمصدر ، تقول : يعجبني أن تطلب العلم ، (أَنْ) حرف مصدري ونصب ، (تطلب) فعل مضارع منصوب بـ (أَنْ) ، و(أَنْ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر فاعل ، يعجبني طلبُكَ العلمَ .

ولو قلنا: (أَنْ) في الآية مصدرية نقع في محظور ، ولهذا العلماء رحمهم الله يقولون : (أَنْ) هنا تفسيرية ، يعني تفسير لما أجمل ، (أتل ما حرم ربكم عليكم) والذي حرم ربكم عليكم (ألا تشركوا به شيئًا) ؛ لأنه لو أَوَّلْناها بالمصدر ماذا يكون المعنى مع وجود النفي ؟ حرم عدم الشرك به ، وهذا عياذًا بالله معنى لا يصح بحال ، انظروا إلى دقة اللغة ، فقالوا : (أَنْ) هنا تفسيرية .

وفيها كلام كثير ، لكن هذا المشهور فيها أنها تكون تفسيرية ، ولا يصح أن تكون مصدرية .

(أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) كما مر فهذه الوصايا عشر ، وصدرها بالنهي عن الشرك ، والنهي عن الشرك يستلزم الأمر بالتوحيد ، أو يستدعي الأمر بالتوحيد كما سيأتي في حديث معاذ .

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) أيضًا ذكر إحسان الوالدين .

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ) هذه الوصية الثالثة .

(مِنْ إِمْلَاقٍ) والإملاق الفقر .

(نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) لا تقتلوهم خشية الفقر فرزقهم على الله ، وقد كتب رزقه وهو في بطن أمه ، « **فيؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله** » . إلى آخره .

في آية الإسراء قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الإسراء : ٣١] . لاحظوا عظمة هذا الكتاب في الحروف ، فما الفرق ؟

هنا قال : (مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ) فذكر ضمير الخطاب ، وفي الإسراء ذكر ضمير الغيبة ما الفرق ؟

في الآية الأولى الفقر واقع . إذًا الآباء يخافون من الفقر لأنه واقع ، ولهذا بدأ بهم ، فالأمر لا شك مسهم وأصابهم ؛ لكن في آية الإسراء الفقر متوقع ، قال : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ يتوقعون أن يأتي فقر بسبب الأولاد ، ولهذا بدأ الله بالأولاد ، أي لا تخشوا فقرًا من هؤلاء الأولاد فسيأتي رزقهم معهم .

الوصية الرابعة : (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا) الفاحشة ما فحش وغلظ من قول أو فعل .

يتبادر إلى الذهن أن الفاحشة هي الفاحشة الكبيرة الزنا وغيره ، ولا ريب أن هذه من الفواحش الكبار ومن أكبرها ؛ لكنها ليست مقصورة عليها ، بل كل ما فحش من قولٍ أو فعلٍ فهو من الفواحش .

وقوله : ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ ما كان ظاهرًا للناس عيانًا ، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان خفيًّا .

قيل : ﴿مَا ظَهَرَ﴾ ما كان بين الإنسان وبين الناس ، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما كان بينه وبين الله عز وجل .

قيل : ﴿مَا ظَهَرَ﴾ ما عظم وغلظ وكبر ، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ ما خفي .

والمقصود : النهي عن اقتراب الفواحش الظاهرة والباطنة بكل هذه المعاني .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ والنفس التي حرمها الله :

أولاً : المسلم ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ما تُوعِّد بعقوبة أشد من هذه العقوبة ولا قوة إلا بالله .

ثانيا: الذمي ، وهو الذي بينه وبين المسلمين عقد ذمة ، مقيم في بلده بين المسلمين فدمه معصوم وقتله لا يجوز بحالٍ من الأحوال .

الثالث : المعاهَد والذي يأتي إلى بلاد المسلمين وبين بلاده وبلاد المسلمين عهد ، قد ثبت في ((**الصحيح**)) أن النبي ﷺ قال : « **من قتل معاهدًا فلم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين سنة** » . أو كما قال ﷺ .

الرابع: المستأمن.

(**إِلَّا بِالْحَقِّ**) ، وأما الحق الذي أبيح به الدم هو المذكور في الحديث الثابت عنه ﷺ أنه قال : « **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » .

(**ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) أتى باسم الإشارة (ذلكم) الدال على البعد ، ليدل على تشريف وتعظيم هذه المسائل .

ثم جاء بالأمر بها بلفظ الوصية ، ولفظ الوصية يدل على التأكد ، الوصية هي الأمر المؤكد شرعًا .

وقال : (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) ولعل من الله اختلف فيها على قولين ، أما منا فمعناها الرجاء ، تقول : لعل زيدًا يأتي . يعني أرجو أن يأتي ، أما ربنا فما يرجو أحد حاشا ؛ لكن اختلف العلماء فيها على قولين :

القول الأول : أنها للتعليل ، وهذا يرجحه جمع من أهل العلم ، ويميل إليه الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ، أي ذلكم وصاكم به لأجل أن تعقلوا ، وإذا عقلوا انعَقَلوا ، ولهذا سمي العقل عقلاً لأنه يعقل صاحبه عما يضره ؛ ولأنه يعقل به الأمور ويدركها .

القول الثاني : (**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**) ترجية للمخاطب ، ليست رجاءً من ربنا كما ذكر وحاشا ؛ لكن المخاطب يُرَّجى أن يعقل إن هو التزم بهذه الوصايا ؛ لكن الأول أشهر .

الوصية الثالثة : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [الأنعام : ١٥٢] .

نهى عن اقتراب مال اليتيم ، في آيات نهى عن أكله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ﴾ [النساء : ١٠] . هنا ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا ﴾ وهذه أبلغ في النهي ، فلا يقترب مجرد اقتراب ، والآية دليل على مسألة سد الذرائع ، على الإنسان أن يبتعد عن الذريعة والوسيلة التي توصله إلى أكل مال اليتيم .

﴿ **إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ يعني يعمل على إصلاحه ، تنميته والاتجار به ، حتى لا تأكله الصدقة ويبقى هكذا .

﴿ **حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ** ﴾ وبلوغ الأشد هنا يراد به البلوغ مع الرشد وزوال السفه ، قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء : ٦] . ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا ﴾ حتى لو بلغ وهو سفيه لا يعطى شيئًا من ماله .

﴿ **وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا** ﴾ ما الفرق بين الكيل والميزان ؟ آية تمر بنا كثيرًا في كتاب الله ، يوم كان الناس يستخدمونها كلٌّ يعرفها ، الكيل خاصة والآن لا يكاد الكيل يستعمل.

الكيل هو : القياس بالحجم ، وهذا يكون في الزمن الماضي - ويمكن قل الآن جدًّا- بالصاع ، وهل الصاع معروف ؟ يمكن تدخل الإنترنت وتراه ؛ لكن هذه أمور شرعية ولا بد أن يعلمها الإنسان ، ابن عمر يقول : (فرض النبي ﷺ صدقة الفطر صاعًا من تمر إلى آخره) ، فالصاع وحدة قياس ، ويختلف أهل العلم في تقديرها بالوزن الآن ؛ لكن ما بين كيلوين وأربعين جرام إلى ثلاثة كيلو تقريبًا .

وأما الميزان فهو الوزن المعروف .

يأمر تعالى بالوفاء بالمكاييل والموازين ، وهذا أمر عظيم ووسيلة للتطفيف وتطفيفها وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل ، وكثيرًا ما يحصل هذا في ضعفاء الإيمان ، ينقص الكيل وينقص الوزن ويأكل أموال الناس بالباطل ، وقد أهلك الله أمة من الأمم بسبب شركهم وبسبب عدم وفائهم بالمكاييل والموازين وهم قوم شعيب عليه السلام .

﴿ **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ قد يتحرج بعض الناس من الوزن والكيل ، يقول : قد يزيد قليلاً ، قد ينقص قليل ، والناس يتفاوتون بعضهم يغلب عليه الحرص ويزيد عليه الحرص فقال الله : ﴿ **لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ إذا حصل شيء ما أراده الإنسان ولا قصد إليه فإن الله سبحانه وتعالى غفورٌ رحيم ، وما كلف الناس إلا بمقدار ما يطيقون .

الوصية الثامنة : ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا** ﴾ ، وهذا أمرٌ بالعدل في الأقوال بعد الأمر بالعدل في الأفعال ، يعدل الإنسان حتى في قوله .

والإنسان في قوله:

- إما أن يجني ويظلم .
- وإما ما شاء الله أن يتفضل ويتكرم بالكلام الطيب الحسن امتثالاً لأمر ربه ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] .
- وإما أن يعدل في قوله فيقول حقًّا ويقول صدقًا .

فأمر الإنسان حتى بالعدل في الكلام بحيث لا يجني ولا يظلم ، واللسان أمره خطير وآفاته كثيرة ، ولما أمر النبي ﷺ معاذ بأمور كبار قال : « **ألا أدلك على ملاك ذلك** » ؟ قال : نعم . قال : « **أمسك عليك هذا** » . وأشار إلى لسانه ﷺ ،

قال : يا رسول الله وهل نحن محاسبون بما نتكلم ؟ قال : « **ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس على وجوههم** » . أو قال : « **على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم** »

والسر في المسألة : أن ضبط اللسان ليس بالأمر السهل ، فكم من الناس يحاول أن يضبط لسانه لكن ينفلت لسانه ، ويقول أحيانًا قولاً ما كان يتمنى أن يقوله ، ولهذا يقولون : العاقل من يسبق عقله لسانه ، والجاهل من يسبق لسانه عقله .

العاقل يعرض الكلام على عقله ثم بعد ذلك يأذن للسان أن يتكلم أو لا يتكلم ، والكلمة قبل أن تقولها تملكها ، فإذا قلتها ملكتك كما يقال .

ثم قال : ﴿ **وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا** ﴾ . هذه الوصية التاسعة بالعهد الذي بينكم وبين الله عز وجل أوفوا ، ويلحظ من الوصايا الآخيرة هذه وصايا عامة تنتظم أمورًا كثيرة .

والعهد الذي بيننا وبين الله عز وجل هو الذي أخذه علينا كما في قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] . إما أنه أخذه منهم حين أخرجهم من ظهر أبيهم آدم على قول ، أو بما أقام ونصب من الأدلة في الآفاق وفي الأنفس الدالة على عظمته سبحانه وتعالى وعبادته وتوحيده وما غرز فيهم من الفطر المقتضية للإيمان به سبحانه وبحمده .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ [المائدة : ١٢] . هذا الميثاق الذي أخذ على بني إسرائيل بخاصة أم للناس كافة ؟ بل هو للناس كافة ، فهذه عهود أخذها الله تعالى على الخلق جميعًا فأمرهم بالمبادرة إلى الوفاء بها ثم قال : ﴿ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال عز وجل في الوصية الأخيرة : ﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ . هذه الوصية تنتظم الوصايا السابقة كلها .

﴿ **وَأَنَّ هَذَا** ﴾ الإشارة إلى ما تقدم ، ﴿ **صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا** ﴾ واضحًا جليًّا بينًا ، ﴿ **فَاتَّبِعُوهُ** ﴾ هذا الصراط المستقيم ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] .

﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ** ﴾ جمع سبيل . والسبل إذا جمع ولم يضف فالغالب أنه يطلق على سبل الشر ، أما إذا أضيف فإنه يطلق على سبل الخير ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، ﴿ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ [المائدة : ١٦] . لكن هنا قال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ فإذا جمعت الغالب إطلاقها على سبل الشر ، خط النبي ﷺ خطًّا وخط إلى جانبه خططًا صغار ، وقال : « **هذا صراط الله المستقيم ، وهذه السبل ، على رأس كل سبيل منها شيطان** » . يعني وأنت تسير على هذا الصراط المستقيم عن يمينك وعن يسارك سبل . ابن مسعود رضي الله عنه له كلام ، يقول : تركنا رسول الله في أدناه وطرفه الجنة ، وعن يمينه جواد – الجواد

جمع جادة ، الجادة الطريق السكة - وعن يساره جواد . فمن أخذ بالطريق انتهى به إلى الجنة . وقد ذكر شيخنا الشيخ عبد الله بن جبرين رحمه الله وأسكنه فسيح جناته مثلاً لبعض مشايخه ، قال : مثّل هذا الصراط المستقيم بجريد النخل . جريد النخل عسيب النخلة ، والذي يكتنفه السعف أو الخوص يمين وشمال . قال : فجاءت دويبة - هكذا يقول الشيخ ، أو قل طير - فحط على العود المتين ، فإن هو مشى على العود المتين الذي هو وسط الجريدة وصل إلى الثمر وأكل من التمر وطار وقد أكل ونال مطلوبه ، وإن زلت قدمه إلى السعفات يمين ويسار ماذا يحصل له ؟ يطيح ويتكسر ويموت ، كذا والإنسان يسير على الطريق يجب أن يكون على حذر ، أن يتمسك بالطريق المستقيم وأن ينتبه لنفسه عن الجواد والتي كثرت في هذا الزمان كثرة مخيفة ولا قوة إلا بالله ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾: لبعض أهل العلم لطيفة جميلة حول ختم هذه الآيات قال : إذا عقلتم تذكرتم ، وإذا تذكرتم اتقيتم . إذا حصل التعقل يتذكر الإنسان ، وإذا تذكر اتعظ واعتبر واتقى بعد ذلك .

(قال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات)

هذا من فقه ابن مسعود رضي الله عنه ، إنما قال هذا لما قال ابن عباس : إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين أن يكتب لنا ﷺ وصية . يقول مصيبة كبيرة أن الرسول ما كتب لنا وصية . قال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد أن ينظر إلى وصية محمد وكأنه كتبها وكأنه ختم عليها فليقرأ هذه الآيات ، فهذه آيات وصايا الله ، ووصايا الله وصايا أيضًا لرسوله ﷺ .

قال رحمه الله : (**وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي : « يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا » . قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟ قال : « لا تبشِّرهم فيتكلوا » . أخرجاه في ((الصحيحين))**) .

في لفظ في ((**الصحيح**)): كنت رديف النبي ﷺ بيني وبينه مؤخرة الرحل فقال : « **يا معاذ** » . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة وقال : « **يا معاذ بن جبل** » . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك . ثم سار ساعة وقال : « **يا معاذ بن جبل** » . قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك .

كم مرة ؟ ثلاث مرات وهو يناديه .

ثم قال : « **أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله** » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** » . في كل مرة يقول : « **يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد** » ؟ فيقول : الله ورسوله أعلم . ثم يسير ساعة ثم يجري السؤال مرة ثانية « **أتدري ما حق الله على العباد** » ؟ ثم يقول : الله ورسوله أعلم . ثم يسير ساعة ثلاث مرات ، ثم أعطاه الجواب « **حق الله العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** » . ثم قال : « **أتدري ما حق العباد على الله** » ؟ ثم سار ساعة ثم قال : « **أتدري ما حق العباد على الله** » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « **حق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا** » .

أولاً : توجيه السؤال بطريق السؤال دون أن يلقيه هكذا لماذا ؟ للتشويق ، وفي حديث المسيء في صلاته ردده ثلاث مرات « **ارجع فصل فإنك لم تصل** » ، حتى سأل هو ، ولذلك أن العلم إذا ألقي هكذا قد يستقبله المتلقي وقد يفوته ؛ لكن إذا جاء هو حريصًا عليه وسأل عنه فإنه يكون أكثر استعداد ، ولهذا وجه له السؤال « **يا معاذ** » لبيك وسعديك ، « **أتدري ما حق الله** » ثم يعطيه الجواب ، فيكون متشوقًا لمعرفة الجواب .

فقال : (**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا**) . هذا معنى ما تقدم في الآيات ، فهو حق أوجبه هو عز وجل عليهم .

(**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**) وهذا حقٌّ أحقه الله على نفسه لعباده، وبعض أهل العلم يقول : أوجبه الله على نفسه . وبعضهم يقول : أحقه ، لا يريد أن يطلق أوجب ، وإن كان الله تعالى هو الذي أوجبه على نفسه .

هنا قال : (**وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**) . ولم يقل : من يعبده :

- أولاً لأنه ذكره في مقابل حقه عليهم (أن يعبده ولا يشرك به شيئًا) ، فيفهم منه أن حقهم عليه أن لا يعذبهم إن هم عبدوه ولم يشركوا به شيئًا .
- ثم يفهم من كونهم عبادًا لله عز وجل ذلك الأمر ، إذ كيف يكونوا عبادًا وهم لا يعبدونه ؟!

حتى لا يقول قائل : أنه قال أن لا يشركوا به شيئا ، فيكفي أن لا يشركوا فقط ، لا ، بل لا بد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا .

- أما قوله : (**أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا**) . يقولون : يدل على العبادة بالاقتضاء ، دلالة الاقتضاء المعروف عند الأصوليين أنها من أنواع دلالات اللزوم ، إذا كان صحة الكلام وصدقه يتوقف على شيء مقدر محذوف ، كما يقال : من توضأ صحت صلاته . يعني من توضأ وصلى ، ولا بد ، ما يمكن يقول أحد من توضأ تصح صلاته وإن لم يصلِّ ، لا يمكن ، فصحة الصلاة تقتضي وجودها . ذلك قوله : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ . أي مريض وأي مسافر يقضي ؟ لا ، فأفطر .

فاستقامة الكلام وصحته تتوقف على مقدر ، كذا هنا (**أن لا يعذب من لا يشرك**) ، أي أن لا يعذب من يعبده ولا يشرك به ، ذكره الحافظ رحمه الله تعالى .

يقول معاذ : (**قلت : يا رسول الله ، أفلا أبشر الناس ؟**) والبشارة الخبر السار ، وسميت بشارة لأن البشرة تتأثر ، تتفاعل مع الخبر السار .

(**قال : « لا تبشِّرهم فيتكلوا »**) نهاه النبي ﷺ عن البشارة خوفًا أن يتكل الناس على هذه البشارة ويتركوا التنافس في الأعمال الصالحة ؛ لكن هل بشر معاذ ؟ أكيد بشر ، علمنا بالحديث ، فلماذا بشر معاذ وقد نهاه النبي ﷺ عن ذلك ؟ قال أنس في رواية في هذا الحديث : أخبر به تأثمًا . يعني في آخر حياته ، ومعنى

تأثم يعني خوفًا من الإثم ، خوفًا من كتمان العلم ، قال ﷺ : « **من سئل عن علمٍ فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار** » فخوفًا من كتمان العلم أخبر به .

وفي الحديث فوائد جليلة أشار الشيخ إليها ، لعلنا نأخذ طرفًا منها الآن .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : الحكمة في خلق الجن والإنس) .

واضحة ، الحكمة ما هي ؟ ليعبدوه .

(**الثانية : أن العبادة هي التوحيد ، لأن الخصومة فيه**) .

العبادة هي التوحيد ، ما تصح عبادة إلا بتوحيد الله عز وجل ، فمن عبد الله وعبد غيره كان مشركًا .

(**الثالثة : أن من لم يأتِ به لم يعبد الله ، ففيه معنى قوله : ﴿ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ .**

الرابعة : الحكمة في إرسال الرسل) .

هذه كلها واضحة .

(**الخامسة : أن الرسالة عمت كل أمة .**

السادسة : أن دين الأنبياء واحد) .

مر بنا أيضًا .

(**السابعة : المسألة الكبيرة : أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت**) .

عبادة الله ما تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ، قال تعالى : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

ولا يمكن أن يكون الإنسان مؤمنًا حتى يكفر بالطاغوت ، والطاغوت قال عمر : هو الشيطان .

(الثامنة : أن الطاغوت عام في كل ما عُبد من دون الله) .

وهذا كلام أثر عن بعض السلف عن مالك وغيره ، الطاغوت يقول عمر : هو الشيطان . يقول جابر : الطواغيت كهان ، كان ينزل عليهم من الشياطين في كل حيٍّ من أحياء العرب واحد .

وقيل : الطاغوت ما عبد من دون الله . ولابن القيم كلام مشهور : ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع .

(التاسعة : عظم شأن ثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف ، وفيها عشر مسائل :

أولها : النهي عن الشرك .

العاشرة : الآيات المحكمات في سورة الإسراء ، وفيها ثمانية عشر مسألة بدأها الله بقوله : ﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴾ . وختمها بقوله : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾ .

ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله : ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾.

الحادية عشرة : آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة ، بدأها الله عز وجل بقوله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ .

الثانية عشرة : التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة : معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة : معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقه .

الخامسة عشرة : أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة) .

أكثر الصحابة قبل أن يتكلم بها معاذ لا شك ، النبي ﷺ قال : « **لا تبشرهم** » .

لكن لمّا أخبر بها معاذ علموها رضي الله عنهم وأرضاهم .

(السادسة عشرة : جواز كتمان العلم للمصلحة .

السابعة عشرة : استحباب بشارة المسلم بما يسره) .

يجوز أن يكتم العلم أحيانًا إذا كان فيه مصلحة ، فأحيانًا ما ينبغي أن يقال كل شيء عند الناس ، وفي أثر علي حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟

وأثر ابن مسعود ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة .

وكان بعض مشايخنا يرحمه الله يفتي الشخص أحيانًا وحده لا يريد أن تكون الفتوى للعموم ، لأن بعض الناس قد يتهاون ويتساهل ويتوسع في بعض الأمور .

(الثامنة عشرة : الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .

التاسعة عشرة : قول المسؤول عما لا يعلم : الله ورسوله أعلم) .

هذه مهمة طالب العلم الشاب انتبهوا لها حتى لا يقع الإنسان في زلة أو يفتي أحدًا بفتوى تكون خاطئة ، فليتق الإنسان ربه أن لا يتكلم إلا بشيء يكون متأكدًا منه تمام التأكد .

(العشرون : جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض .

الحادية والعشرون : تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه .

الثانية والعشرون : جواز الإرداف على الدابة إذا كانت تطيق ذلك .

الثالثة والعشرون : فضيلة معاذ بن جبل .

الرابعة والعشرون : عظم شأن هذه المسألة) .

ما أحسن ختم الشيخ بهذه الفائدة ، أتى بفوائد عظيمة ونافعة ؛ لكن ختمها بهذه (**عظم شأن هذه المسألة**) وهي معرفة الإنسان حق الله سبحانه وتعالى عليه ، فإذا هو عرف حق الله عليه وعبادته وعدم الشرك به فليسأل الله سبحانه وتعالى من فضله فإن الله أكرم الأكرمين وأجود الأجودين سبحانه وبحمده .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المؤلف : (باب فضل التوحيد وما يُكَفِّر من الذنوب) .

لما ذكر المؤلف رحمه الله في الباب السابق التوحيد وبين حكمه ، وأن التوحيد أوجب الواجبات ، والشرك أعظم المحرمات ، لما بين التوحيد وحكمه تاقت النفوس إلى معرفة فضل هذا العلم العظيم ، فناسب أن يذكر المؤلف رحمه الله تعالى فضله حثًّا وترغيبًا فيه ، فإن التوحيد كما يقول الشيخ محمد - رحمه الله - بن عثيمين : أعظم دعامة للعمل .

نعم الموحد المخلص يعمل بإخلاص ، وغير الموحد يعمل بهوى ، ما يمليه هواه يعمله ، وما يراه غير ملائم له لا يعمله ؛ لكن من يعمله مخلصًا لله عز وجل لا شك يجد نشاطًا ورغبةً في العمل .

(**باب فضل التوحيد**) (باب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا باب ، أو هذا بيان التوحيد .

(**وما يُكَفِّر من الذنوب**) ، (ما) هنا الأقرب أنها مصدرية ، و(ما) إذا كانت مصدرية تؤول وما بعدها بمصدر ، فيكون المعنى باب فضل التوحيد وتكفيره للذنوب ، من أين أتيتم بكلمة تكفيره ؟ سبكت (ما) مع الفعل فتكوّن المصدر ، ولهذا يسمونها مصدرية .

قال تعالى : (﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾) .

هذا أول فضل ذكره المؤلف رحمه الله تعالى أخذًا من هذه الآية ، وهو حصول الأمن والاهتداء .

إذًا عندنا فضلان هنا من التوحيد ، مع أن فضائل كلمة التوحيد كلمة لا إله إلا الله وحقائقها وموقعها والكلام شيخ الإسلام يقول : لا يصفه الواصفون ولا يعرفه العارفون ، فهي رأس الأمر .

وإذا قلنا : توحيد . إنما نعني بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة ، والذي هو معنى كلمة لا إله إلا الله .

والشيخ رحمه الله ما أراد الحصر هنا بفضائل التوحيد ؛ ولكنه أورد جملة من الفضائل أخذًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

فالفضل الأول : الأمن ، الأمن متى ؟ يوم يفزع الناس ، قال تعالى : ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ [النمل : ٨٩] . يوم القيامة ، يوم تزلزل الأرض زلزالها ، وتُخْرِجُ الأرض أثقالها ، يوم تضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، يوم يشيب الوليد ، يوم الأمور المهولة العظيمة ، حينها يكون المؤمن بالله عز وجل الموحد له في أمن وأمان ، وسكينة واطمئنان . (﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾) فلهم الأمن يوم يفزع الناس ويخافون .

وهم في الدنيا مهتدون على صراط مستقيم ، فحصل لهم الهداية على الصراط المستقيم المفضية إلى الأمن يوم القيامة ، والمؤدية إلى مجاوزة الصراط المنصوب على نار جهنم .

والأسباب التي حصلت منهم في الدنيا بعد توفيق الله لهم ما هي ؟ (﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾) ، ومر بنا في التفسير أن الاسم الموصول يدل على التعليل ، فسبب هذا

الأمن العظيم هو هذا الإيمان الذي حصل منهم ، فهم (﴿ آمَنُوا ﴾) صدقوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم.

(﴿ وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ ﴾) يعني يخلطوا لم إيمانهم بظلم . والظلم في الآية فسره النبي ﷺ ، وهو من أرقى وأعلى التفسير ، تفسير القرآن بالقرآن بإشارة من المصطفى ﷺ . فلما نزلت هذه الآية جاء الصحابة للنبي ﷺ قالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ قال : « **ليس الذي تعنون ، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾**» ؟ فقد فسر النبي ﷺ هذه الآية بآية لقمان ، وبأن المراد بهذا الظلم الذي لم يخلطوا إيمانهم به هو الشرك :

- فآمَنوا بالله تصديقًا بالقلوب ، وعملاً بالجوارح ، ونطقًا باللسان.
- ولم يخلطوا إيمانهم هذا بشيء من الشرك قليله أو كثيره، صغيره أو كبيره.

= فحصل لهم الأمن وهم مهتدون .

ثم هذا الأمن:

- قد يكون الأمن المطلق .
- وقد يكون مطلق الأمن .

ما الفرق بينهما ؟

الأمن المطلق: الكامل التام ، وهذا يكون لمن لديه الإيمان المطلق ؛ لأن الإيمان أيضًا يكون إيمانًا مطلقًا ويكون مطلق إيمان . وفرق بين الشيء المطلق ومطلق الشيء ، يعني مطلق الشيء وجود أصله ؛ لكن الشيء المطلق وجوده بكماله وتمامه .

فالذين لهم الأمن التام هم أهل الإيمان المطلق التام ، والذين لهم مطلق الأمن ، لديهم شيء من الأمن هم من لديهم مطلق إيمان ، يعني لديهم أصل الإيمان ؛ لكن ثمة أمور وأشياء هذه أثرت في توحيدهم وفي إيمانهم بنقص إيمانهم ، فأدى ذلك إلى أن لا ينالوا الأمن المطلق .

تقسيم الظلم وهو مشهور ، يقسم العلماء الظلم إلى ثلاثة :

الأول : الظلم بمعنى الشرك كما في الآية . **والظلم حقيقته :** وضع الشيء في غير موضعه ، أي شيء وضعته في غير موضعه وفي غير مكانه الملائم له يكون هذا الصنيع ظلمًا ، فما وجه كون الشرك ظلم ؟ لأنه وضع للعبادة في غير موضعها وصرفٌ لها لغير مستحقها .

النوع الثاني من الظلم : ظلم العبد نفسه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ، يظلمها بالمعاصي والذنوب من حيث لا يشعر المسكين أنه ظلم هذه النفس ووضعها في غير موضعها ، كان المفترض أن يضعها في طريق الخير وفي طاعة ربه ، فلما وضعها نهبًا للشياطين وعرضةً للآثام والمعاصي كان بذلك ظالمًا لها ، ولأن النفس أمانة عند صاحبها ، فلا حق له أن يعتدي عليها ولا أن يظلمها .

النوع الثالث : ظلم الغير .

قال رحمه الله : (**عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » . أخرجاه**) .

هذا أيضًا فضل عظيم من فضائل التوحيد ، وهو دخول الجنة ، اللهم اجعلنا جميعًا من أهل الجنة ووالدينا ووالدي المسلمين أجمعين .

لكن دخول الجنة هنا له على كل حال أسباب عظيمة ، وأعظمها ما هو ؟ (« **من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله** ») ، هذه الكلمة العظيمة التي ذكر فيها كلام شيخ الإسلام رحمه الله لا يصفها الواصفون ، ما يستطيع أحد أن يصف فضائلها وحقائقها وموقعها ، ولا يعرفها العارفون فهي رأس الأمر ، وهي مفتاح دار السعادة ، وهي الركن الأول من أركان الإسلام ، وهي الشعبة العظمى والأولى من شعب الإيمان ، فأعلاها قول لا إله إلا الله ، وهي من أعظم أسباب دخول الجنة ، ومن أعظم أسباب النجاة من النار ، وقائلها أسعد الناس بشفاعته ﷺ ، ومن كان آخر كلامه من الدنيا كلمة لا إله إلا الله دخل الجنة ، وهي كلمة ميسرة سهلة تجري على لسان كل أحد ، كلمة لها قيود ولها ضوابط ، ولهذا قال المصطفى ﷺ : (« **من شهد أن لا إله إلا الله** ») شهد:

أولاً: تكلم بها .

ثانيًا : عالمـًا بمعناها .

ثالثًا : عاملاً بمقتضاها ظاهرًا وباطنًا .

- فلا بد أن ينطق بها ، فإن لم ينطق فهو الجاحد.
- ولا بد أن يعرف معناها ، ما معنى هذه الكلمة ، وهذا أمر مهم وهو عظيم .

- ولا بد من العمل بمقتضاها في الظاهر والباطن ، وهذا قيد الإخلاص وهو من قيودها العظيمة .

ولهذا ذكروا لها عدة شروط جمعت في بيت أو بيتين ، وهي مشهورة لعل أكثركم يحفظها .

علمٌ يقينٌ وإخلاصٌ وصدقك مع ** محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفر بما ** سوى الإله من الأنداد قد ألها

١. علم وضده : الجهل .

٢. اليقين وضده : الشك .

٣. إخلاص ضده : الشرك والرياء .

٤. الصدق ضده : الكذب .

٥. محبة ضدها : البغض .

٦. انقياد ضده : الترك يقولون .

٧. القبول ضده : الرد .

٨. الكفر بكل ما يعبد من دون الله ، ضده ولا قوة إلا بالله عبادة غير الله عز وجل .

أما العلم فهو عظيم:

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**من شهد**) والشهادة لا تكون إلا بعلم :

- قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] . قال المفسرون : ﴿ شَهِدَ بِالْحَقِّ ﴾ يعني شهد بتوحيد الله وعبادته .
- وإذا كان الناس إذا احتاجوا إلى شاهدٍ في أمور معتادة فلا بد أن يكون هذا الشاهد علم بما شهد ، فشهادة أن لا إله إلا الله أولى بأن يكون الشاهد بها عَلِم بما يشهد ، فيكون عالمًا بمعناها كما سيأتي .
- قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ [محمد : ١٩] . فبدأ بالعلم قبل ماذا ؟ قبل القول والعمل كما قال البخاري رحمه الله .

الثاني اليقين:

بحيث يكون مستقينًا بها غير شاكٍّ ولا مرتابٍ ولا متردد :

- قال ﷺ والحديث في ((**الصحيح**)) عن أبي هريرة قال ﷺ : « **فمن لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستقينًا بها فبشره بالجنة** » .
- وقال عليه الصلاة والسلام مرجعه في تبوك وقد ظهر على يديه من الآيات قال : « **أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما فتحجب عنه الحنة** » . اللهم اجعلنا من أهل الجنة يا أرحم الراحمين .

فلا بد أن يكون قائلها مستيقن ، وأن يكون على يقين بما يقول .

الشرط الثالث الإخلاص:

وضده الشرك ، وأدلته كثيرة:

- ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .
- ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] .
- وفي حديث أبي هريرة في ((**الصحيح**)) من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : « **من قال : لا إله إلا الله خالصًا من قلبه** » .

الإخلاص عظيم ، والإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله عز وجل ، إقباله عليه بحيث يتوافق ظاهره مع باطنه .

كان السلف يحرصون عليه حرصًا عظيمًا ، حتى قال بعضهم : وددت أني أعمل عملاً لا يعلم به ، أو لا يكتبه الكتبة . يعني حتى الكتبة لا يكتبونه إخلاصًا لله عز وجل . وقال بعضهم : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص .

ومن أعظم أسباب الإخلاص وأدلته عمل السر .

الشرط الرابع الصدق:

وضده الكذب ، كحال المنافقين ، المنافقين يقولون : لا إله إلا الله ؛ ولكنهم كاذبون ، وتعجب المنافق كافر في قلبه ويدعي الإسلام ويتكلم بـ لا إله إلا الله ، ولهذا:

- قال الله عز وجل : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ، ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .
- وفي حديث معاذ في ((**الصحيحين**)) « **ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار** » .

الشرط الخامس المحبة:

بحيث يحب الله ورسوله ، ويحب من تكلم بهذه الكلمة ، ويحب أهل الإيمان وأهل التوحيد ، ويبغض من عاند وخالف وعارض :

- قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .
- وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) « **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواه** » ، محبته لهذه الكلمة من محبته لله عز وجل .

السادس الانقياد:

الانقياد لشرع الله وامتثال أمره واجتناب نهيه ، وضد الانقياد كما ذُكر الترك :

- قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النساء : ١٢٥] (**ومن أحسن**): أي لا أحد أحسن ممن أسلم وجهه ، (**أسلم**) يعني انقاد وذل وخضع لله عز وجل ، ﴿ **وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾ إذا ورد الإحسان ومحسن في القرآن مطلقا فيشمل أمرين :

- الإحسان مع الله يعني الإحسان في طاعته وعبادته ، ولا تقل : الإحسان إلى الله . لا ، معاذ الله ، الله ما يحتاج أحد أن يحسن له ؛ لكن إحسان مع الله في طاعته وعبادته ، وهذا هو الإحسان الذي هو أعلى مراتب الدين « **أن تعبد الله كأنك تراه** » .
- والإحسان إلى الخلق .

ثم قال : ﴿ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ اتبع ملة إبراهيم كما أُمِرَ نبينا ﷺ أن يتبعها ، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [النحل : ١٢٣] إمام الحنفاء عليه الصلاة والسلام ، وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، وهذه الآية اشتملت على ركني العمل الصالح :

- الإخلاص في قوله : ﴿ أَسْلَمَ ﴾ .
- والمتابعة في قوله : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ .

السابع القبول:

ضده الرد ، يرد هذه الكلمة ولا يقبلها ، وهذا ما يكاد يحصل إلا من مشرك عياذًا بالله .

الأخير الكفر بكل ما يعبد من دون الله عز وجل:

قال ﷺ : « **من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرمه الله على النار** » .

هذه الشروط هي شروط عظيمة لا شك ، حتى لا يقال : إن من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة بمجرد أن يقولها ، وسيأتينا في حديث عتبان « **فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله** » ، فيأتي من يقول : من قال هذه الكلمة يكفي . واليوم ما أكثر من يتتبعون مثل هذه الشبهات ، ويقول للناس : قلت لا إله إلا الله يكفي:

- فيقال : المنافق يقولها وما نفعته ، بل حتى اليهودي يقولها وما نفعته ، فهذه الكلمة لها شروطها وهي شروط عظيمة كما تلحظون .
- ويقال لمن يقول هذا الكلام قد ورد عن النبي ﷺ ، بل تواتر عن النبي ﷺ أن أناسًا قالوا : لا إله إلا الله ، ومع ذلك دخلوا النار ، في

أحاديث الشفاعة « **أخرجوا من النار من قال : لا إله إلا الله . وفي قلبه مثقال شعيرة** » ، « **مثقال برة** » ، « **ذرة** » إلى آخره .

- وثبت عنه ﷺ أن النار لا تأكل آثار السجود ، إذًا فيه أناس يصلون أيضًا ومع ذلك دخلوا النار.

فكيف الجمع بين هذه الأحاديث حتى لا يأخذ طالب علم ببعض النصوص ويترك البعض الآخر ؟

الجمع بينها أشار إليه شيخ الإسلام بكلمات وجيزة جميلة قال : من قالها ومات عليها بقيودها . وبهذا تجتمع النصوص ، فإن الشيء لا يتم إلا بأمرين :

- وجود الشروط .
- وانتفاء الموانع .

قال الشيخ محمد في منظومته:

والشيء لا يتم إلا أن تتم ** شروطه ومانع منه عدم

الشيء ما يتم إلا بالأمرين ، فلا يكون صحيحًا إلا بوجود الشروط ، وجدت الشروط وقال : لا إله إلا الله . وشهد أن محمدًا رسول الله ، لكن يبقى أمر ثاني عظيم ، وهو انتفاء الموانع ، فلو أن شخصًا قالها وارتكب ما ينافيها تمامًا ، فلا تنفعه أبدًا ، أو ينافي كمالها لا شك يحصل له من النقص في أجرها بقدر ما حصل منه من الإخلال بها .

فإذًا لا تتم هذه الأمور العظام والفضائل الكبار إلا بوجود الشروط والأسباب وبانتفاء الموانع ، وبهذا تجتمع النصوص ، ولا اختلاف ولا تعارض بينها أصلاً ، فإنه إذا توهم متوهم أن في النصوص اختلافًا فإنه يسلك مسالك :

المسلك الأول وهو أحسنها : الجمع بينها ، وهذا ما ذكره المحققون كشيخ الإسلام وغيره.

فإن تعذر الجمع فالنسخ إذا عُلم التاريخ ، وهذا في الجملة بالنسبة للاختلاف الذي يتوهم الإنسان والتعارض الذي يتوهمه .

فإن تعذر النسخ فالترجيح .

هنا ما احتجنا لا لنسخ ولا لترجيح ، لأنه أمكن الجمع بين النصوص ، فمن قالها وأتى بالشروط والأسباب واتقى الموانع فحينئذٍ تحصل له هذه الفضائل العظيمة ، وإن حصل منه تقصير لا شك يحصل عليه من الخلل بقدر التقصير الذي حصل منه .

ما معنى لا إله إلا الله ؟ ذكرتم أن من أعظم شروطها العلم بمعناها ، حتى قال ربنا : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ﴾ ، معناها نأخذه من كتاب الله عز وجل ، قلنا معناها : لا معبود حق إلا الله .

لو أردنا إعرابها (لا) نافية للجنس ، (إله) اسمها مبني على الفتح في محل نصب ، وخبرها محذوف تقديره حقٌّ ، (إلا) استثناء وحصر ، (الله) قالوا : بدل . فلا إله حقٌّ إلا الله عز وجل .

هذا المعنى تأخذه واضحًا جليًّا من كتاب الله عز وجل :

- قال تعالى :﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٤] كلمة واحدة فقط ، كلمة التوحيد ، كلمة الإخلاص ، كلمة التقوى ، العروة الوثقى ، كل هذه من أسماء هذه الكلمة العظيمة . ما هي هذه الكلمة التي دعي أهل الكتاب إليها ؟ ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ ﴾ ، هذا معنى هذه الكلمة ، هذه الكلمة لفظها ومعناها ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ﴾ إذًا ما معنى لا إله إلا الله ؟ ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ﴾ .
- قال تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ ﴾ [هود : ١ ، ٢] .
- وكل نبي يأتي قومه يقول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . يعني ما لكم من ماذا ؟ من معبود غيره سبحانه وبحمده ، هذا معنى لا إله إلا الله كما تدل عليه هذه النصوص وغيرها .

خالف مخالفون في معنى لا إله إلا الله ، وحصل بسبب هذا الخلاف شر مستطير ، فإن معنى هذه الكلمة عند الكثيرين لا خالق إلا الله ، الإله عندهم الخالق ، أو القادر على الاختراع ، أو الغني عما سواه المفتقر إليه من عداه . وكل هذه معاني جميلة وكبيرة وعظيمة ؛ لكنها من لوازم لا إله إلا الله وليست معنى لا إله إلا الله أبدًا ، فإذا قلنا : لا إله إلا الله معناها لا خالق إلا الله عز وجل ، فمعناه أنه يكفي الإنسان حتى يكون موحدًا أن يعتقد أن الله هو الخالق ، وهل كان العرب في جاهليتهم يشكون في هذا ؟! الجواب : لا ، والدليل ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، ﴿ وَلَئِنْ

سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ ، ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ [يونس : ٣١] ، والآيات في هذا كثيرة تقرر أن العرب في الجاهلية كانوا مقرين بأن الله هو الخالق والرازق والمالك والمدبر والنافع والضار ، وأنهم إنما كانوا يعبدون هذه الآلهة لتقربهم إلى الله زلفى ، والدليل ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زلفى ﴾ [الزمر : ٣] ، يقولون : ما نعبدهم لأجل أن ينفعوا أو أن يضروا أو يرزقوا أو ما أشبه ذلك ، لا ، وإنما نتوسل بهم إلى الله ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] ، إذًا ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ باعتراف منهم ، بدليل قوله : ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ إنهم إنما عبدوها اعتقادًا منهم أنها تشفع لهم وتتوسط لهم وتتوسل لهم عند الله عز وجل .

فإذًا يكون من قال : (لا إله) لا خالق يلزمه ترير ما عليه المشركون ، وإن كانوا ربما لا يقولون . فالمشركون كانوا معترفين بهذا ، ولهذا لما جاء النبي ﷺ وقال لهم : « **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » . هل مراده قولوا : الله خالقٌ تفلحوا ؟ لو فهم المشركون ذلك لقالوا : نحن نقول هذا وما جئتنا بجديد ، نحن نعتقد هذا ونقوله . ولكنهم قالوا ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص : ٥] ، هل المعنى أجعل الخالق خالق واحد ؟ لا ، هم يعتقدون أن الخالق واحد ، والآيات في هذا كالشمس كما ذكرتم ، وإنما الذي كانوا لا يعتقدونه هو أن الله تعالى هو الواحد في عبادته ، ولهذا عبدوا معه غيره ، وبهذا كانوا مشركين .

وبسبب هذا التأويل لكلمة لا إله إلا الله حصل شر مستطير في الأمة ، فصار من يقول : لا إله إلا الله ، لا خالق إلا الله ، لا قادر على الاختراع إلا الله ، صار موحدًا وبالتالي يدعو غير الله ، يستغيث بغير الله ، يستعين بغير الله ، يذبح لغير الله كل هذه أمور لا تنكر ولا قوة إلا الله .

فإذًا لا إله إلا الله معناها الذي يجيب أن نفقهه وأن نُعَلِّم به الآخرين : أن لا معبود بحقٍّ إلا الله ، وبحيث تكون العبادة كلها لله عز وجل ، صلاةً وصيامًا وزكاةً وحجًّا ودعاءً ونذرًا واستعانةً واستغاثةً وجميع أنواع العبادة لربنا عز وجل .

(**وأن محمد عبده ورسوله**) شهد بأن محمد عبدٌ ورسولٌ لله عز وجل ، شرفه الله وأعلى ذكره ، فقرن الشهادة برسالته بالشهادة بألوهيته عز وجل ، وكما سمعتم في الآذان تذكر أيضًا الشهادة له بالرسالة مع شهادة أن لا إلا الله ، وكان له القدر والمكان ، وكان له الفضل حتى كان سيد ولد آدم ، كما قال ﷺ : « **أنا سيد ولد آدم ولا فخر** » .

ولكن لا يعني هذا أن يبالغ الإنسان في هذا الأمر ويغلو في محبة المصطفى ﷺ ، كما يحصل من الغلاة ، حتى جعله في منزلة الله عز وجل ، فيُحْلَف به ، وربما دُعي واستغيث به من دون الله عز وجل ، وربما قيلت فيه المقالات التي ما يليق أن تقال إلا لله عز وجل وأكثر من يقول هذا يقوله محبة للمصطفى ﷺ ، ويرى أن محبته هي الغلو فيه ، وعدم الغلو فيه تقصير في محبته صلوات ربي وسلامه عليه .

النصارى إنما وقعوا فيما وقعوا فيه في عيسى بسبب الغلو حتى قال ﷺ كما سيأتينا : « **إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** » .

فالواجب في محبة النبي ﷺ : الاعتدال فلا إفراط ولا تفريط ، وإذا ادعى أحد محبة الله ومحبة رسوله قيل له : هات برهانك ودليلك على ما فعلت . وأعظم برهان ودليل في محبة الله عز وجل ومحبة رسوله : اتباع رسول الله ﷺ واتباع شرع الله ، ولهذا قال عز وجل في الآية التي سماها العلماء آية المحنة : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] . فلا تكفي الدعوة ، بل لا بد مع كل دعوة من برهانها ودليلها ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ ، فجعل قوله : (اتبعوني) علامة على ما قبله وشرطًا لما بعده ، علامة على أنكم تحبون الله ، وشرطًا لحصول محبة الله عز وجل ، أما أن تدعي حبه وأنت تعصي ربه عز وجل وتخالفه في هديه وسنته ! فأين هذه المحبة والله المستعان .

ولهذا قال في الحديث هنا : (**«وأن محمدًا عبده ورسوله »**) . فجمع بين الوصفين :

- العبودية .
- والرسالة .

وقد ذُكر أن هذين الوصفين هما أعظم وصف للنبي ﷺ ، فما وجه كونه عبدًا لله أعظم وصف من أوصافه ؟ وجه ذلك أن جميع معاني العبودية قامت به ﷺ ، من أين أخذنا هذا العموم ؟ من الإضافة ، والإضافة تقتضي العموم ، هذه قاعدة . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] أي نعمة ؟ جميع النعم

، من أين أخذتم هذا ؟ من الإضافة ، (« **عبده ورسوله** ») جميع معاني العبودية قامت به ﷺ ، من أين أخذتم هذا العموم ؟ أخذناه من الإضافة (« **عبده** ») .

ثم قال : (« **ورسوله** ») فهو كما يقول العلماء عبدٌ: لا يعبد ، ورسلٌ لا يكذب صلوات ربي وسلامه عليه .

وفي وصفه بكونه عبدًا ورسولاً ردّ على المُفرِطين الغلاة والمُفَرِّطين :

- فالرد على الغلاة في قوله : (« **عبده** ») فهو عبد لا يعبد مع الله عز وجل .
- والرد على المقصرين في حقه ﷺ في كونه رسول الله عز وجل .

فالواجب : محبته ﷺ أعظم من محبة المال ، والنفس ، والأهل ، والولد . قال عمر لرسول الله : لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . قال : « **لا يا عمر** » . قال : الآن يا رسول الله أنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي . قال : « **الآن يا عمر** » . وفي الحديث السالف ذكره « **أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما** » .

وتكون المحبة بالقلب ، وتكون باللسان ، وتكون بالجوارح والأعضاء بالاتباع ، وهذا هو البرهان ، الناس ما يعرفون منك إلا ما ظهر ، وكلام اللسان سهل كلٌّ يقوله ، ولكن البرهان الكبير هو ما يظهر على الجوارح من حرص الإنسان على الاقتداء به واقتفاء أثره واتباع هديه وسننه صلوات الله وسلامه عليه . تجد أهل البدع والذي يحصل منه غلو أبعد الناس عن السنن ؛ لأنهم اكتفوا بمجرد المحبة التي تقال وبما يقال من القصائد والأناشيد وما أشبه ذلك ، فرأوا أنهم يكتفون بها ، لا ، فلا بد من الأركان الثلاثة :

- محبة القلب .

- واللسان .

- والاتباع بالأعضاء والجوارح .

(**« وأن عيسى عبد الله ورسوله »**) ، أيضًا يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله ، لا كما يقول النصارى أنه ابن الله ، أو الله عز وجل ، أو ثالث ثلاثة ، وكلها في كتاب الله عز وجل نسبتها إليهم:

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧]،

- ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣] .

- ﴿وقالت النصارى المسيح ابن الله﴾ .

فغلوا فيه ، وهذه نتيجة الغلو ، غلوا فيه حتى جعلوه إلهًا مع الله عز وجل ، وأول كلمة قالها عيسى وهو في المهد ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٣٠] ، وكأن فيها إشارة إلى أن أقوامًا سيغلون فيه حتى لا يروه عبدًا لله عز وجل ، وقال عز وجل : ﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ ﴾ [النساء : ١٧٢] .

(**« ورسوله »**) وكما ذكر في النبي ﷺ ، يعني رد على من جفا عيسى عليه السلام ، والذين جافوه هم اليهود ، عندما جاءت به أمه قالوا : ﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم : ٢٨ ، ٢٩] ما تكلمت حتى يأتي الكلام منه هو عليه السلام ، حتى يكون حجة عليهم ،

فرموها بهذا البهتان العظيم عياذًا بالله ، وجاء المسلمون ولله الحمد وهذا الدين الحنيف ليتوسط في حق عيسى ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير ، فهو عبد الله ورسوله.

(« **وكلمته ألقاها إلى مريم** ») ، ومعنى كونه كلمة الله عز وجل أن الله خلقه بكلمة كن ، والدليل ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] هذه الكلمة التي خلق الله بها عيسى .

ثم قال : (« **وروح منه** ») يعني روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل ، وفي إضافته إلى الله لا شك تشريف ، تشريف له عليه الصلاة والسلام .

وقوله : (« **منه** ») (من) هنا لابتداء الغاية ، أي روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل ، والنصارى يقولون : (من) هنا للتبعيض ، يعني عيسى بعض من الله وبالتالي يكون بعض من الإله ، وهذا قول من أعجب العجب ، عندهم أن عيسى قتل وصلب ، فمعنى ذلك أن جزءًا من الإله قتل وصلب عياذًا بالله ، انظروا كيف إذا حاد الإنسان عن الحق كيف تضل به السبل والطرق.

(« **والجنة حق والنار حق** ») ثم شهد أن الجنة حق والنار حق ، وأنهما مخلوقتان ، قال تعالى في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] اللهم اجعلنا من أهلها ، وقال في النار : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ اللهم أجرنا منها .

(« **أدخله الله الجنة على ما كان من العمل** ») ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل وإن كان مقصرا ولديه بعض الأمور ، المخالفات .

قيل : أدخله الله الجنة على ما كان من عمل صالح وإن قل .

وقيل : من عمل سيء ولو كثر .

فإن هذه الحسنات حسنات عظيمة تصغر دونها الأعمال السيئة ، لكن لا شك أنها إذا كبرت وتكاثرت على الإنسان بحيث تُضْعِف توحيده وإيمانه ، أن هذا يكون أقل لدرجته حتى لو دخل الجنة .

ففضل التوحيد في هذا الحديث كما قلتم هو دخول الجنة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أجلها .

لو قرأتم في الوصايا وصايا الأجداد تراهم يكتبون دائمًا في وصاياهم : هذا ما أوصى به فلان ابن فلان بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله إلى آخر الحديث ، ويقدمون فيها الوصايا ، طمعًا في نيل هذه الكرامة من الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**ولهما في حديث عتبان : « فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله »**) .

(**ولهما**) أي للبخاري والمسلم (**في حديث عتبان**) عتبان بن مالك الأنصاري رضي الله عنه بدريٌّ شهد بدرًا ، أتى إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله إني أنكرت بصري - أي ضعف بصري - وأنا إمام قومي أصلي بهم ، والوادي الذي بيني وبينهم يسيل فأحب أن تصلي في بيتي مكانًا أتخذه مصلى . فقال النبي ﷺ : « **أفعل إن شاء الله** » ، قال : فلما ارتفع النهار أتاه الرسول ﷺ ومعه أبو بكر ، فلم يجلس حتى دخل البيت وقال : « **أين تحب أن أصلي** » ؟ قبل أن يبدأ بأي شيء ، وهذه مبادرة ، أن الإنسان يبادر دائمًا بالعمل الذي جاء من أجله ، فأشار إلى مكان في البيت ، قال : فتقدم النبي ﷺ فصفنا وصلينا معه ، صلى ركعتين قال : ثم حبسته على خزيرة صنعتها له - أي طعام يكون من لحم ودقيق - فآبوا

ناس من الدار ، سمعوا بوجود النبي ﷺ عند عتبان وجاءوا . والدار في المدينة كانت تطلق على مجموعة من البيوت التي تحاط بسور واحد ، يجمع جملة من البيوت . قال : أتوا وجلسوا ، فقال رجلٌ : أين مالك بن الدخشم ؟ لا أراه . فقال آخر : ذلك منافق لا يحب الله ورسوله . فقال ﷺ : « **لا تقل ذلك ، ألم يكن قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله** » قال : الله ورسوله أعلم ؛ لكننا نرى وجهه ونصيحته للمنافقين . قال عليه السلام : « **فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله** » .

وفي الحديث فوائد كما تلحظون ، وكيف دافع النبي ﷺ عن عرض رجل قالوا فيه : إنه منافق . وأن الإنسان ما ينبغي له أن يحكم على الناس ، ليس معنيًّا بهذا الأمر ، ليس معنيًّا بأن يحكم على هذا وذاك ، لأنه قد يحكم ويجور في حكمه ويظلم الشخص ، مع أن القوم قالوا : رأينا وجهه ونصيحته للمنافقين ، فاتهموه بالنفاق ، والنبي ﷺ قال : « **إنه قال : لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله** » هذه تزكية عظيمة .

الشاهد قوله : (« **فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله ، يبتغي بذلك وجه الله** ») .

وفي الحديث إشارة إلى شرط من شروط لا إله إلا الله وهو الإخلاص ، (« **يبتغي بذلك وجه الله** ») وهو شرط عظيم إذا قال الإنسان هذه الكلمة مخلصًا لله عز وجل .

الإنسان في هذه المسألة وهي مسألة الظاهر والباطن من عمله :

- قد يكون ظاهره أحسن من باطنه ، وهذا حال المنافق.

- وقد يكون ظاهره وباطنه سواء ، وهذا هو الإخلاص.
- قالوا : وقد يكون باطنه حسنًا وظاهره حسنًا إلا أن الباطن أحسن .

أي المرتبتين أحسن ؟ الظاهر والباطن سواء ، أو كلاهما حسن لكن الباطن أحسن ؟ الباطن أحسن لا شك ، قالوا : وهذا الصدق في الإخلاص . يكون ظاهري حسن ، ظاهر الإنسان إن شاء الله فيه خير وصلاح ؛ لكن في بطانه أحسن مما يعلم الناس عنه ، يعمل أعمال خفية وأعمال سر ، يحرص أن لا يعلم بها حتى أقرب الناس إليه .

والمقصود أن الإخلاص كما ذكر أجره عظيم ، وهو شرطٌ عظيم من شروط هذه الكلمة .

إذًا من قال : لا إله إلا الله . دخل الجنة وحرمه الله على النار ؛ لكن كما ذُكر في الكلام الذي ذُكر عن شيخ الإسلام وهو كلام نفيس ، هذا يكون لمن قالها ومات عليها وقالها بقيودها ، هذا الذي يحصل على هذا الفضل العظيم . وأما من قالها وأخل بشيء من قيودها إن كان الخلل يخل بها كاملة كما مر فلا تنفعه لا إله إلا الله ، وإن كان يخل بكمالها فيحصل عنده الخلل بقدر ما حصل عنده من تقصير ، فإن دخل الجنة تكون مرتبته لا شك أقل ممن حرص على تكميل هذه الكلمة والإتيان بها مبتغيًا بها وجه الله ، مخلصًا ، صادقًا ، عالمًا ، موقنًا ، محبًّا ، منقادًا قابلاً لها ، من اجتمعت فيه هذه الشروط نسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم ممن قال هذه الكلمة العظيمة بقيودها العظيمة والثقيلة .

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

قال الشيخ رحمه الله في باب فضل التوحيد وما يُكَفِّر من الذنوب :

(وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « قال موسى : يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به . قال : قل يا موسى لا إله إلا الله . قال : كل عبادك يقولون هذا . قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة ، ولا إله إلا الله في كفة ، مالت بهن لا إله إلا الله » . رواه ابن حبان والحاكم وصححه) .

(وعن أبي سعيد الخدري) رضي الله عنه سعد بن مالك بن سنان ، قال : قال رسول الله ﷺ : (« قال موسى : يا رب علمني شيئًا أذكُرُكَ وأدعوك به ») . هكذا بالرفع فعل مضارع مرفوع ، والجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر لمبتدأ مقدر ، يعني أنا أذكرك ، وليست جوابًا للطلب ؛ لأنه لو كان جواب للطلب لجزمت أذكرْكَ ، يعني علمني شيئًا أذكرْكَ .

(«علمني شيئًا أذكُرُكَ وأدعوك به ») أذكرك يعني أثني به عليك ، ويكون ذكرًا على اللسان وفي قلبه ، (« وأدعوك به ») يعني أتوسل به إليك في دعائي .

فقال : « يا موسى قل لا إله إلا الله » وهذه الكلمة من أعظم ما يتوسل به إلى الله عز وجل ، الإنسان عندما يدعو ربه يتوسل إلى الله عز وجل .

وأعظم ما يتوسل به إلى الله عز وجل أن يسأله بأسمائه وصفاته ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] دعاء مسألة ودعاء عبادة أيضًا :

أما دعاء المسألة: فإنه يتوسل إلى الله عز وجل بهذه الأسماء ، وينبغي إذا سأل الله عز وجل أن يتوسل إليه بالاسم المناسب لحاجته ، فإن طلب مغفرةً قال يا

غفور اغفر لي ، وإن طلب رحمةً قال : يا رحمن يا رحيم ارحمني ، وإن طلب علمًا قال : يا عليم يا علام الغيوب ، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلمًا فارحمني وعلمني . هذا دعاء المسألة .

ودعاء العبادة: لعله يأتي التنبيه إليه في وقت آخر .

ومن أعظم ما يتوسل به إليه عز وجل أن يتوسل إليه بكلمة التوحيد ، وفي حديث بريدة المخرج في ((**السنن**)) أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول : اللهم إني أدعوك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد . قال : « **لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى ، وإذا دعي به أجاب** » . « **سأل الله باسمه الأعظم** » والرجل توسل إلى الله عز وجل (بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد) . هذا ينبغي الإنسان إذا دعا يجتهد في الدعاء ، ويتوسل إلى الله عز وجل بما قد يكون سببًا لإجابة دعوته .

(**« قال : كل عبادك يقولون هذا »**) ، وإنما أراد شيئًا يخصه به كما في بعض الروايات ، أراد شيئًا خاصًّا به ، فأمره ربه أن يقول كلمة كل الناس يقولونها .

وفيه دليل على : أن الشيء إذا عظمت الحاجة إليه وعظم معناه كان أكثر الأشياء وجودا ، فلله الحمد والمنة ، فهذه تجري على لسان كل مسلم لا إله إلا الله ، هل يختص بها أحد دون أحد؟ ، وموسى عليه السلام له من المكانة والقدر والمنزلة الشيء العظيم ، ومع ذلك قال له ربه : كلمة يقولها كل الناس ، ولهذا قال : (**« كل عبادك يقولون هذا »**) .

وفيه : أن ذوي القدر والمكانة والمنزلة قد يحتاجون أن ينبهوا على فضل التوحيد ، وفضل هذه الكلمات العظيمة .

(**« قال : يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري »**) ، يعني من فيهن من العمار ، الملائكة يعمرون السماوات بالعبادة .

(**«والأرضين السبع في كفة »**) يعني في كفة ميزان .

(**« ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله »**) ، وهذا يدل على عظم هذه الكلمة . فلو أن هذه الكلمة في كفة وعلى الإنسان من الذنوب والخطايا الشيء الكثير فإنها تميل بها وترجح بها ، وفي حديث البطاقة « **يصاح على رجل يوم القيامة فينشر أمامه تسعة وتسعين سجلاً ، فيقال : أتنكر من هذا شيء ؟ فيقول : لا يا ربي . فيقال : لك حسنة أو عذر ؟ فيهاب الرجل ويقول : لا يا ربي . فيقال : بلى ، إن لك حسناتٍ وإنك لا تظلم . فيؤتى ببطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله ، فيقول : ما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟** » يعني بطاقة في حجمها يعني بالنسبة للسجلات ، تسعة وتسعين سجل ، فيقال : « **إنك لا تظلم ، فتوضع في الميزان فطاشت السجلات وثقلت البطاقة** » مما يدل على عظم هذه الكلمة ؛ ولكن –على كل حال– بشروطها . فدل على أن هذه الكلمة لا يقاومها ذنب ؛ لكن كمَّلها ، وأتى بها بشروطها .

وهذا الحديث له شاهد من حديث عبد الله بن عمرو عند الإمام أحمد صححه أهل العلم أن النبي ﷺ قال في الحديث والحديث في أوله قصة ، قال في وصية نوح لابنه : « **يا بني آمرك باثنتين وأنهاك عن اثنتين ، آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السماوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله**

في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السماوات السبع والأرضين السبع حلقة مبهمة قصمتهن لا إله إلا الله ، وآمرك بسبحان الله فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق ، وأنهاك عن اثنتين الشرك والكبر » . فهذا حديث يشهد لحديث أبي سعيد هذا ويدل على عظم هذه الكلمة وفضلها عند الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة »**) .

هذا طرف الحديث عن أنس عن النبي ﷺ « **قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك** » والعنان هو السحاب « **يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة** »

(**وقراب الأرض**) يكون ملؤها أو ما يقارب ملأها ، يعني لو جاء بملء الأرض من الذنوب والخطايا ثم لقي الله عز وجل وهو سالمٌ من الشرك .

قال : (**« لا تشرك بي شيئًا »**) و(شيئًا) نكرة في سياق النفي فتعم الشرك الأكبر والأصغر ، وتعم كل مشرَك به ، إذا لقي ربه سالمًا من الشرك فإن الله تعالى يأتيه بملئها ، أو ما يقارب ملئها مغفرة ، والسبب هنا السلامة من الشرك .

فدل على أن من فضل التوحيد تكفيره للذنوب وإن كثرت .

هذا الحديث قال : (**« لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة »**) كيف نجمع بينه وبين قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ؟

يقال : هذا الحديث مطلق ، قيدته الآية ، فيأتيه الله تعالى بقرابها مغفرةٍ إذا شاء ، ولا اختلاف بين الآية والحديث بحال . قال شيخ الإسلام رحمه الله : (الشرك شركان أكبر وأصغر :

- فمن سلم منهما وجبت له الجنة.
- ومن مات على الأكبر دخل النار.
- ومن سلم من الأكبر ولكن وقع منه شيء من الأصغر لكن معه حسنات راجحة فإنه يدخل الجنة.
- ومن سلم من الأكبر لكن حصل منه شيء من الشرك الأصغر وسيئات رجحت بحسناته فإنه يستحق دخول النار).

وبهذا الكلام الوجيز تتفق النصوص .

الشرك شركان ما هما ؟ أكبر وأصغر ، من سلم منهما وجبت له الجنة إذا لم يقع في شرك أكبر ولا في أصغر أيضًا . ومن مات على الأكبر دخل النار . من سلم من الأكبر وحصل عنده شيء من الأصغر لكن مع حسنات راجحة فإنه يدخل الجنة وتكون منزلته على كل حال أقل ممن سلم من الشركين جميعًا . الرابع : سلم من الأكبر ؛ لكن وقع منه شرك أصغر مع سيئات رجحت على حسناته ، فإنه يستحق دخول النار .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : سعة فضل الله) .

أخذها من أين ؟ ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] لما آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم .

(**الثانية : كثرة ثواب التوحيد عند الله**) .

كثرة ثواب التوحيد عند الله عز وجل ، هذا مأخوذ من النصوص في الجملة .

(**الثالثة : تكفيره مع ذلك للذنوب**) .

تكفيره للذنوب ، أخذناها من أحاديث كثيرة ومن حديث أنس ، بحيث لو أتى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقي الله سالمًا من الشرك فإن الله تعالى يغفر له .

(**الخامسة : تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة**) .

الخمس التي أشير إليها ، وأولها وأعظمها (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله) .

(**السادسة : أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده ، تبين لك معنى قول لا إله إلا الله ، وتبين لك خطأ المغرورين**) .

إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى لا إله إلا الله ، وأن من معناها ومن قيودها العلم ، وهذا أخذناه من أين ؟ من (شهد) ، وأيضًا من معناها وقيودها الكبار ، الإخلاص وهذا أخذناه من حديث عتبان « **يبتغي بذلك وجه الله** » .

(**السابعة : التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان**) .

أي شرط الإخلاص ، هذا الشرط عظيم ، يتأكد على الإنسان أن يحرص عليه غاية الحرص ، فإن الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصًا ، وهذه كلمة لا إله إلا الله تسمى كلمة الإخلاص ، فيها إخلاص العبادة لله عز وجل .

سؤال من طالب: عن قول العامة (لا إله إلا الله خير مما يجمعون)؟

هذه كلمة كانت على ألسنة العامة قديمًا ، وهي كلمة جميلة ، (لا إله إلا الله خير مما يجمعون) ، أي من أمور الدنيا وحطامها .

(**الثامنة : كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله**) .

ولهذا نبه الله موسى عليه السلام على فضلها ، وموسى عليه السلام له القدر والمكانة ، حتى قيل : إنه ثالث الأنبياء بعد إبراهيم في الفضل ، موسى عليه السلام طلب من ربه كلمة يذكره ويدعوه بها فقال له ربه : « **قل : لا إله إلا الله** » ، وهذا الكلام على كل حال يقال لكل أحد ، والنبي ﷺ لما بعث وجمع قريش ماذا قال له ؟ « **قولوا : لا إله إلا الله . تفلحوا** » . هي أعظم سببٍ للفلاح إذا أتى الإنسان بها بقيودها ، لكن الله عز وجل أمر محمدًا ﷺ ، ولم يأمره أن يتزود من شيء إلا من العلم في قوله : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] ما هو العلم ؟ هل العلم كتاب نحفظه ؟ لا شك هذا من العلم ، لكن متى يكون علمًا هذا الكتاب الذي تقرؤه وتحفظه ؟ إذا أتبعه الإنسان بالعمل ، قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] . هل ذكر العلم في أول الآية ؟ الذي في أولها عمل ﴿ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ ، لكنّ ما ذكر في أولها هو ثمرة العلم ، هذا هو العلم الذي أُمِر المصطفى ﷺ أن يتزود منه ، وهو العلم بربه ، معرفة ربه سبحانه وتعالى عظمتِه وقدرِه ومنزلتِه ، والعلم بالشرع وإتباع العلم بالعمل .

قال رحمه الله : (**التاسعة : التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات ، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه**) .

(**يخف ميزانه**) بسبب كثرة الذنوب والمعاصي ، وأنه غدًا ستوزن أعمال العباد ، ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٨] ؛ لكن لا ريب أن هذه الكلمة عظيمة ، ومن أعظم الأسباب المؤدية إلى أن يثقل ميزان العبد ؛ لكن قد يكون عنده من المعاصي والذنوب الكبار ما بسببها يرجح ميزان سيئاته فيكون على خطر.

(**العاشرة : النص على أن الأراضين سبع كالسماوات**) .

والدليل على الأراضين سبع من القرآن: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ، يعني ﴿ مِثْلَهُنَّ ﴾ في العدد وليس في الكيفية .

(**الحادية عشرة : أن لهن عمارًا**) .

وعمار السماوات الملائكة .

(**الثانية عشرة : إثبات الصفات ، خلافًا للأشعرية**) .

إثبات الصفات لله عز وجل ، ومن ذلك إثبات صفة الوجه له سبحانه وبحمده ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] . ﴿ ذُو ﴾ هنا صفة للوجه ، الوجه مرفوع يعني لفظه مرفوع ، فصفته أيضًا جاءت مرفوعة .

الْمُؤَوِّلة عمومًا يؤوِّلون الوجه بالثواب ، هل يصلح ويصح أن نقول : ويبقى ثواب ربك ذو الجلال والإكرام ؟! ، لا يوصف بهذا إلا وجهه اللائق به ؛ لكننا نقول في الوجه كغيره من الصفات ما قاله مالك في الميزان ، ما الميزان ؟ :

- الاستواء معلوم ، يقال أيضًا : الوجه معلوم .

- والكيف غير معقول لا ندخل في الكيفيات ، وهذا الذي سَلِم وسَلَّم أهل السنة ولله الحمد من الوقوع في هذه التأويلات التي وقع فيها من أعرض عن الكتاب والسنة .

في الحديث المخرج في ((**صحيح البخاري**)) في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٦٥] . قال ﷺ : « **أعوذ بوجهك** » . ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : « **أعوذ بوجهك** » ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا ﴾ قال : « **هذا أهون أو أيسر** » ، ولم يقل : أعوذ بوجهك ، مع أن هذا أمر كبير وعظيم ؛ لأنه علم من ربه وقوع الفرقة في هذه الأمة ولا بد .

أعوذ بوجهك أيصح أن يقال : نعوذ بثوابك ؟ عياذًا بالله لا ، لا يستعاذ إلا بالله سبحانه وتعالى ، أو بصفة من صفاته ، .

وفي حديث أبي موسى في ((**مسلم**)) قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات « **إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره** » . سبحانه وبحمده . (**وسبحات الوجه**) : نوره وبهاؤه ، أترى هذا يكون للثواب ؟ لا يمكن ، النصوص من القرآن والسنة دالة على إثبات هذه الصفة للرب سبحانه وبحمده ؛ لكن كما يليق بجلاله وعظمته ؛ لكن القوم لما تصوروا أن إثبات الصفات يستلزم التشبيه فروا من التشبيه إلى التعطيل ، فشبهوا أولاً وعطلوا ثانيًا .

قال رحمه الله : (**الثالثة عشرة : أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان : « فإن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله . يبتغي بذلك وجه الله » أنه ترك الشرك ، ليس قولها باللسان**) .

ليس مجرد قولها باللسان ، لأنه في حديث عتبان قال : (**« يبتغي بذلك وجه الله »**) .

(**الرابعة عشرة : تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام عبدي الله ورسوليه**) .

يعني الجمع بين العبودية والرسالة كما ذكر ، حتى يكون الموحد وسطًا بين الغلو والتقصير ، فلا يغلو بحيث لا يرفع قدر الأنبياء إلى منزلة الله عز وجل ولا يقصر ويجفو عياذًا بالله بحيث يخالفهم ويعصيهم ، وربما يقع في نفسه شيء عليهم ، بل يكون بين الإفراط والتفريط كما هو مشهور .

قال رحمه الله : (**الخامسة عشرة : معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله**).

(**اختصاص عيسى بكونه كلمة الله**) لأن الله خلقه بكلمة كن ، ولهذا خص بهذا .

قال رحمه الله : (**السادسة عشرة : معرفة كونه روحًا منه**) .

(**معرفة كونه روحًا**) يعني أنه روح من الأرواح التي خلقها الله عز وجل ؛ لكن في إضافتها إلى الله عز وجل تشريف له ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ ﴾ [النساء : ١٧١] .

قال رحمه الله : (**السابعة عشرة : معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار**) .

وأن الإيمان بالنار من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار .

(**الثامنة عشرة : معرفة قوله ﷺ : «على ما كان من العمل »**) .

(**«على ما كان من العمل »**) يعني إن كان مقصرًا عليه بعض الذنوب والخطايا فإن الله سبحانه وتعالى يغفرها له بسبب توحيده وسلامته من الشرك بالله عز وجل .

قال رحمه الله : (**التاسعة عشرة : معرفة أن الميزان له كفتان**) .

الميزان حقيقة عند أهل السنة والجماعة خلافًا للمعتزلة الذين قالوا : هو العدل فقط ، والنصوص مستفيضة عن النبي ﷺ في إثبات الميزان ، وفي حديث البطاقة « وضعت السجلات في كفة والبطاقة في كفة » .

قال رحمه الله : (**العشرون : معرفة ذكر الوجه**) .

يعني إثبات هذه الصفة لربنا عز وجل كما يليق بجلاله تعالى وعظمته .

قال المؤلف رحمه الله :

(**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**

وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٠] . وقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٩]).

(**باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب**) ولا عذاب ، هذا تتمة لما ذكر في الباب السابق ؛ لكن هذا الباب يقول أهل العلم : أرفع من سابقيه . في هذا الباب فضلٌ لكن ما هذا الفضل ؟ دخل الجنة بماذا ؟ بغير حساب ولا عذاب .

(**حقق التوحيد**) قالوا : تحقيق التوحيد معرفته والاطلاع على حقيقته والقيام بها علمًا وعملاً ، عرف التوحيد ، اطلع على حقيقة التوحيد ، وقام بحقيقته علمًا وعملاً يعني ظاهرًا وباطنًا .

وتحقيق التوحيد يقسمه العلماء إلى قسمين :

- تحقيق واجب .
- وتحقيق مستحب .

التحقيق الواجب الذي يجب على كل الناس ، وهو : تخليص التوحيد من شوائب الشرك والبدع والمعاصي ، يخلص توحيده من شوائب الشرك كبيره وصغيره ، ومن البدع فلا يكون عنده بدع ، وكذا المعاصي لأن المعاصي تخل بتوحيد العبد ؛ لأنها اتباعٌ للهوى ، أشياء تهواها النفس فيتبعها الإنسان ويقع بسببها في السيئات التي قد تخل وتنقص توحيده ، هذا التحقيق الواجب الذي يجب على كل مسلم ، يُخَلِّصُ توحيده ، ينقيه ، يصفيه من كل هذه الشوائب .

وأما التحقيق المستحب والتحقيق الكامل فهو : انجذاب القلب إلى الله عز وجل بحيث لا يكون في القلب إرادة ولا قصدٌ لغير الله عز وجل ، بحيث يحب ما أمر الله به ويكره ما نهى الله عنه ، ويكون قلبه متوجهًا إلى ربه قاصدًا ربه ، ليس عنده التفات ولا ميلٌ لأحد كائنًا من كان . ابن القيم رحمه الله له بيت مشهور يقول :

فلواحد كن واحدًا في واحد ** أعني سبيل الحق والإيمان

(**فلواحِدِ**) يعني لله عز وجل ، (**كن واحدًا**) في إرادتك ، في قصدك ، في توجهك ، لست مشعبًا بين أرباب وبين أهواء .

ولما ضرب الله تعالى مثلا للموحد والمشرك مثله عز وجل بماذا ؟ ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ ، يعني عبد مملوك يملكه أكثر من شخص ، هذا يأمره بشيء وهذا ينهاه عنه ، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ [الزمر : ٢٩] رجل مملوك لرجل يأتمر بأمره وينتهي بنهيه ، كذا الموحد ، واحد في طاعة ربه ، في إرادته وفي قصده .

(**في واحد**) يعني طريق الحق والإيمان كما ذكر ، يعني الكتاب و السنة ، ومنهج سلف الأمة ، يعني يسير على هذا الخط وهذا الطريق ، وللبيت تتمة أيضًا .

المقصود : أن الموحد يكون قلبه متعلقًا بربه ، لا يلتفت لأحدٍ ، لا يتعلق بأحد ، كائنًا من كان ، لا ملكًا مقربًا ، ولا نبيًّا مرسلاً ، فإن قومًا عبدوا الملائكة ، وهم مشركو العرب ، وما نفعهم أن عبدوا الملائكة ، وقومًا عبدوا الرسل ، كما فعل النصارى في عيسى عليه السلام وما نفعهم ذلك .

والواجب : أن يكون القلب في توجه وقصده وإرادته لربه جل سبحانه وبحمده دون ما سواه .

أورد المؤلف آيتين :

الآية الأولى قوله تعالى : (﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾) .

معنى (﴿ أُمَّةً ﴾) يعني إمام وقدوة ومعلم الخير ، روي عن ابن مسعود رضي الله عنه . وإنما استحق إبراهيم الإمامة في الدين لتكميله أسبابها ، ومن أسبابها :

- تكميل مقام الصبر واليقين ، ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .
- ولأن ربه ابتلاه عز وجل بكلمات فأتمهن ، ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة : ١٢٤] ، والكلمات هنا هي الأوامر والنواهي ، التكاليف التي كلفه الله تعالى بها أمرٌ ونهيٌ.
- ولأنه وفَّى ما أُمر به امتثالاً ، وما نُهي عنه اجتنابًا ، ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] ، فبذلك استحق الإمامة في الدين .

(﴿ قَانِتًا ﴾) القنوت يذكر له العلماء له معاني ، تعدى بعضهم عشرة ، ومما قيل فيها : دوام الطاعة مع الخشوع . فإن الإنسان يصلي ويكون قانتًا ، قانتًا في قيامه ، قانتًا في ركوعه ، قانتًا في سجوده ، قال تعالى : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا ﴾ [الزمر : ٩] فسماه قانتًا وهو ساجد ، وهو قائم ، وهو راكع .

المقصود : أن القنوت هو دوام الطاعة مع الخشوع .

(﴿ قَانِتًا لِلَّهِ ﴾) عز وجل لا غيره .

(﴿ حَنِيفًا ﴾) ، ما الحنيف ؟ المقبل على الله ، المعرض عما سواه .

والحَنَفُ في اللغة هو الميل .

ولهذا يقولون عن الشخص عندما يكون في قدميه ميلاً يقال عنه : أحنف .

وإبراهيم كان حنيفًا في توحيده وطاعة ربه ، مقبل على ربه ، معرض عما سواه ، ولهذا أمرنا جميعًا بل أمر المصطفى ﷺ أن يتبع ملته ، ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] ، ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] .

(﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾) فارق المشركين باللسان والجنان والأركان ، وفارق من المشركين أقرب الناس إليه ، وهو أبوه ، قال تعالى عنه : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا * فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [مريم : ٤٨ ، ٤٩] عوضه الله خيرًا منهم ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ ، لما ترك لربه أقرب الناس إليه عوضه الله خيرًا وخيرًا منه .

وقال تعالى : (﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾) .

هذه الآية ذكرت في جملة آيات في معرض الثناء على عباد الله المؤمنين ، أولها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ

أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [المؤمنون : ٥٧ – ٦١] . يعني ذكر جملة من الصفات ﴿ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ ، والخشية هي الخوف المقرون بالعلم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] وهم مؤمنون بآيات ربهم ، آياته الشرعية المنزلة على رسله وآياته الكونية .

(﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾) شركًا قليلاً ولا كثيرًا .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا ﴾ ومع كل ما تقدم قلوبهم ﴿ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ ، هذا حال عباد الله المؤمنين أنهم يعملون الأعمال الصالحة ومع ذلك هم خائفون مشفقون ، ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان : ٩] بعدها ؟ ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٠] . مع اجتهادهم وإنفاقهم وإطعامهم يخافون الله عز وجل إلى أن دخلوا الجنة وهم على وَجل ، هكذا المسلم إن نظر إلى ربه أعظم الرجاء وحسن الظن به ، وإن نظر إلى نفسه خاف ، خاف على نفسه من نفسه . دخلوا الجنة وقالوا وهم يتحدثون في الجنة : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ [الطور : ٢٦] كنا خائفين في الدنيا .

هذه صفات من حققوا التوحيد وخلصوه من كل الشوائب المخلة به والمنقصة له ، حتى إن إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء وإمام الموحدين ، يبني هو وابنه إسماعيل الكعبة أشرف بيت ، وليس معهما أحد ، ومع ذلك ماذا يقولان ؟ ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] يخشى إبراهيم أن لا يتقبل منه عمله ،

وهذا العمل من الشرف بمكان ، ومع ذلك يخشى أن لا يقبل العمل ، فإذا كان هذا كلام إبراهيم فما الظن بغيره ؟ ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ واسم السميع إذا ذكر في معرض الدعاء فماذا يراد به ؟ يعني المستجيب للدعاء . ويستمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام وابنه إسماعيل فيقول : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨] . هذا التوسل بالأسماء ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ يتوسلون إلى التواب الرحيم بأن يرحمهم ويتوب عليهم ، عليهم الصلاة والسلام ، وقد أمرنا أن نقتدي بإبراهيم ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] ، نقتدي بهم ونسأل الله دائمًا قبول العمل والتوبة والرحمة منه ، سبحانه وبحمده .

شرح كتاب التوحيد

٠٠٤

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ رحمه الله (**عن حصين بن عبد الرحمن قال : كنت عند سعيد بن جبير فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة ؟ فقلت : أنا . ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت . قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت . قال : فما حملك على ذلك ؟ قلت : حديث حدثناه الشعبي . قال : وما حدثكم ؟ قلت : حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع .**

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ») .

(**عن حصين بن عبد الرحمن**) السلمي أبو الهذيل الكوفي من ثقات التابعين رحمه الله ، توفي سنة ست وثلاثين ومائة ، وعمره ثلاث وتسعون سنة .

(**قال : كنت عند سعيد بن جبير**) ، وسعيد بن جبير عالم وإمام شهير ، اشتهر بماذا ؟ بالتفسير ، وهو تلميذ الحبر البحر ابن عباس رضي الله عنهما ، وأقواله ومأثوراته في التفسير كثيرة ، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين للهجرة رحمه الله رحمة واسعة .

(**فقال : أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة**) ؟ (**الكوكب**) النجم ، (**انقض**) سقط ، والبارحة أقرب ليلةٍ مضت .

يقول ثعلب وهو من علماء اللغة : يقال قبل الزوال الليلة ، وبعد الزوال البارحة .

إذا قلنا : البارحة . ماذا يراد بها ؟ يعني الآن إذا قلت : البارحة . أي ليلة ؟ الليلة الماضية ليلة الأربعاء ، نقول : البارحة برحت وانتهت ؛ لكن قبل الظهر قبل الزوال ، يعني هذا في العرب قديمًا ما يقولون : البارحة . إلا بعد الظهر ، قبل الظهر ماذا يقولون ؟ الليلة . يعني الليلة الماضية ، فإذا كنت أحدث أحد الساعة العاشرة صباحًا وتقول : مر عليّ فلان بالليل . ماذا تقول البارحة أم الليلة ؟ الليلة ، وبعد الظهر تقول : البارحة .

قال : (**فقلت : أنا**) . يقول حصين ، (**ثم قلت : أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت**) . حصين ما قمت في الليل لصلاة ، ما الذي حمله أن ينفي الصلاة عن نفسه ، لم ؟ خوفًا من الرياء ، خوفًا من أن يرائي بعمله .

والرياء سيأتينا إن شاء الله ، قد يحبط العمل كله ، وقد يحبط ما قارنه من العمل ، فهو خشي من الرياء ، ومعلوم أن صلاة الليل صلاة سر ، ولهذا كانت أفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل كما قال ﷺ .

أولاً : لأن الناس ينامون ومن يوفق يقوم فيصلي .

الأمر الثاني : صلاة السر لا يعلم بها أحد ، فيخفي الإنسان عبادته لا يراها الناس .

ولهذا ينبغي للإنسان أن تكون أعماله الصالحة غير ظاهرة ، لا يحرص على إظهارها للناس ، والعمل إذا كان خفيًّا لا شك يكون أجره أكثر ، قال تعالى : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

يقول بعض السلف في صلاة الليل : أخفَوْا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر . يشير إلى الحديث المشهور .

(**أما إني لم أكن في صلاة ، ولكني لدغت**) يعني لسعته دابة من ذوات السموم ، حية أو عقرب ، أو ما أشبه ذلك .

(**قال : فما صنعت ؟ قلت : ارتقيت**) . أي طلبت أحدًا يرقيني يقرأ علي ،

(**قال : فما حملك على ذلك**) ؟ يعني ما حجتك على هذا الصنيع ؟

وفيه : طلب الدليل على المذهب ، كما يقول الشيخ ، أن الإنسان إذا قال قولاً يطالب بماذا ؟ بالدليل ، ولهذا نوصي دائمًا إذا حفظوا مسألة أن يحفظوا دليلها ، إذا قلت : قال الله وقال الرسول . ما يستطيع أحد أن يرد كلامك ، بل ليس كلامك أنت ؛ لأنه مؤيد بالدليل .

(**قال : فما حملك على ذلك**) ؟ قال : (**حديث حدثناه الشعبي**) . وهو عامر بن شرحبيل الهمداني من كبار وخيار التابعين من أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعًا ، ولد في خلافة عمر رضي الله عنه على اختلاف في مولده ، وتوفي سنة ثلاثٍ ومائة .

(**قال : وما حدثكم**) ؟ قال : (**حدثنا عن بريدة بن الحصيب**) الأسلمي ، صحابي معروف رضي الله عنه وأرضاه ، توفي سنة ثلاث وستين ، (**أنه قال : لا رقية إلا من عين أو حمة**) قال عندي دليل ، وأتى بالدليل بسنده الحديث حدثناه الشعبي عن بريدة بن الحصيب (**أنه قال : لا رقية**) .

ما هي الرقية ؟ قراءة القرآن على المصاب على المريض ، هذه الرقية .

(**إلا من عين**) والعين هي : إصابة العائن غيره بعينه ، وفي الحديث « **العين حق ، ولو أن شيئًا يسبق القدر سبقته العين** » فهي حقٌّ ؛ ولكن ما ينبغي للإنسان أن تكون هاجسًا في خاطره كل ما سمع كلمة أو سمع شيئًا خاف من العين .

ويوصى لكل إنسان بالمحافظة على أذكار الصباح والمساء ، وحينئذٍ تكون له حصنًا حصينًا من العين ومن غيره .

بعض الناس يخاف من العين ، وهذا الذي يخاف لا قوة إلا بالله تجده متعب دائمًا ، وربما يكون أكثر تعرض إما أنها تصيبه وهذا مشكل ، وإما أن يتوهم وهذا أشكل وأشد ، يتوهم أنه مصاب ؛ لكن إذا هو حافظ على الأذكار تحفظه حتى من الأوهام ، فعليكم بها ، عليكم بأذكار الصباح والمساء ، وأذكار النوم يرتاح الإنسان ويطمئن .

(**لا رقية إلا من عين أو حمة**) والحمة : هي سم العقرب ، أو غيرها من ذوات السموم .

وهذا الحديث كما تلحظون لم يرفع إلى النبي ﷺ ؛ لكنه ورد مرفوعًا من حديث بريدة نفسه إلى النبي ﷺ ، ومن حديث عمران بن حصين أيضًا ورد مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، فهو حديثٌ مرفوع .

ومعناه : لا رقية أولى وأشفى وأنفع من رقية العين والحمة ، وليس معناه أن القرآن لا يقرأ على غيرهما ، لا ؛ ولكنها مفيدة في هذين الأمرين .

وفي الحديث المشهور المخرج في ((**الصحيح**)) حديث أبي سعيد في قصة أصحاب السرية الذي نزلوا بحي من العرب فلم يُقْرُوهم فلدغ سيدهم ، الشاهد منه أنهم جاءوا به إليهم فرقاه أحدهم وقرأ عليه ماذا ؟ الفاتحة لم يزد عليها ،

قرأها ثلاثًا وفي رواية سبعًا ، وقام الرجل كأنما نشط من عقال . قال عليه السلام : « **ما الذي أدراك أنها رقية** » . هذا يدل على أن الرقية بالفاتحة عظيمة .

(**لا رقية إلا من عين أو حمة**) قال سعيد : (**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**) . يقول : قد أحسنت إذ علمت وعملت ، يعني انتهيت إلى ما سمعت من العلم فعملت به ، وهذا الذي ينبغي للإنسان أن يجمع بين العلم وبين العمل .

وفيه : ذمٌّ للجهل ، لمن يعمل بجهل ولمن لديه علم لكنه لا يعمل به .

يقول : أحسنت إذ انتهيت إلى ما سمعت وعملت به ، ولكن حدثني ابن عباس .

وكما تلحظون أسلوب سعيد في الحوار وفي النقاش فيه تلطف وفيه أدب وفيه حسن خلق ، وهذا الذي ينبغي من طالب العلم ، في تعليمه وفي دعوته أن يكون متلطفًا بمن يُعَلِّم ، لا يكون قاسيًا ، صلبًا ، عنيفًا ، منفرًا فبأبي هو وأمي يقول معاوية بن الحكم يقول : والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن منه ، والله ما ضربني ولا شتمني ولا كهرني .

ومعاوية تكلم في الصلاة ، لو أحد تكلم في الصلاة الآن جاهل ماذا يُعمل به ؟

فالواجب : التأدب وتحلي طالب العلم بحسن الخلق في هذا الأمر ، فإنه بحسن الخلق يدرك والله ما لا يدركه أبدًا بضده ، وسيد الأولين والآخرين لما ذكره ربه وأثنى عليه ماذا قال ؟ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] . ومع ذلك كان يدعو في صلاة الليل في الاستفتاح في حديث علي في ((**مسلم**)) يقول : « **اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت** » .

فسعيد بن جبير كلامه كله من أول شيء قوله : (**قد أحسن**) . يعني أحسنت إذ انتهيت إلى ما سمعت .

ثم قال : ولكن حديث ابن عباس . وقوله قبله : (**فما حملك على ذلك**) ؟ يعني ما دليلك على هذا الأمر ، ما أنكر عليه أو تكلم ، حدثني عن ابن عباس .

قال : (**ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه . فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب » . ثم نهض فدخل منْزله ، فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ . وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا . وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال : « هم الذين لا يَسْتَرقون ولا يتطيرون ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون » . فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . قال : « أنت منهم » . ثم قام جل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . فقال : « سبقك بها عكاشة »**) .

يقول سعيد : (**ولكن حدثنا ابن عباس**) . ابن عباس غني عن التعريف ، حبر الأمة وترجمان القرآن ، عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله ﷺ ، الذي دعا له النبي ﷺ ، فقال له : « **اللهم فقه في الدين ، وعلمه التأويل** » . هذه الرواية في غير ((**الصحيح**)) عند أحمد ويصححه أهل العلم ؛ لكن الذي في ((**الصحيح**)) « **وعلمه الكتاب** » ، وفي رواية في ((**الصحيح**)) « **وعلمه**

الحكمة » ، اللهم فقه في الدين وعلمه الكتاب والحكمة والتأويل ، والتأويل معناه التفسير .

وهذه الدعوة يحفظها الإخوان والشباب يدعون بها لأنفسهم ، كما مر هذا العلم هبة من الله عز وجل « **من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين** » . فالإنسان يدعو ربه بهذه الدعوة .

بهذه الدعوة ماذا صار ابن عباس ؟ صار حبر الأمة ، وترجمان القرآن رضي الله عنه وأرضاه .

ونذكر التراجم ، الإنسان عندما يقرأ تراجم هؤلاء يعرفهم ويعرف نفسه ، يرى جِدَّهم وجلدهم ، وأعمالهم العظيمة ماتوا ، ولكن آثارهم موجودة وفضائلهم بين الناس مشهودة ، في زمنهم كان في تجار ملكوا الأموال ، فأين هم ؟ إلا من خلف خيرًا ، وأما العلم فإن ذهب أهله بقيت آثاره ، وبقي ذكرهم ، يعني ابن عباس متى توفي ؟ سنة ثمان وستين رضي الله عنه وأرضاه وذكره شائع يعرفه كل مسلم ، يعرفون بعلمه وفضله ومكانته ، يقرؤوا مثل هذه التراجم في تاريخ ابن كثير ((**البداية والنهاية**)) ، في السير للذهبي ((**سير أعلام النبلاء**)) ، فقراءتها مفيدة ومريحة حتى لطالب العلم إذا كَلّ من القراءة والبحث ، وقرأ في هذه التراجم يعني تجم قلبه ونفسه وذهنه ، يرتاح ويتلذذ بمعرفة سيرهم ويتمنى ؛ ولكن ما يحتاج يتمنى يقفوا آثارهم ويحرص على الاقتداء بهم .

ابن عباس كان رضي الله عنه وسيمًا جسيمًا ، رآه أعرابي يوم فقال : الله أعلم حيث يجعل رسالته . وله من المكانة والفقه في الدين ، وتعرفون كيف كان عمر يدخله مع ماذا ؟ مع حداثة سنه يدخله مع أهل بدر وشيوخ الصحابة ، حتى

بعضهم قال : يعني لماذا يدخل هذا وأولادنا لا يدخلون . وكانوا يحرصون أن يأتوا بأولادهم عند الكبار ، يتعلموا منهم ويستفيدوا منهم فضرب لهم مثلاً بسؤال يعني أمر بتفسير تبين فيه مكانة ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه .

(**عن النبي ﷺ أنه قال : « عُرضت عليّ الأمم »**) ، متى عرضت الأمم على رسول الله ﷺ ؟:

- الحديث حدث به في المدينة عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال بعض أهل العلم : إن هذا العرض كان منامًا ، يعني رآه في النوم .
- لكن ورد حديث ابن عباس هذا عند الترمذي قال : لما أسري بالنبي ﷺ ، جعل يمر على الأنبياء ، فيمر على النبي والنبيين ومعهم القوم ، والنبي والنبيين ومعهم الرهط ، والنبي والنبيين وليس معهم أحد ، فقال: (لما أسري به) . لكن قد يقول قائل : الإسراء كان في مكة ، قال أهل العلم : ولا مانع أن تكون الأمم عرضت عليه ليلة أسري به وعُرج به إلى السماء ، وحدث به في المدينة فلا مانع .

قال : (**« عُرضت عليّ الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط »**) والمراد بالرهط العدد دون العشرة ، تسعة ثمانية سبعة ، يقال عنه في اللغة : رهط ورُهَيْط . في بعض روايات الحديث .

(**« والنبي ومعه الرجل والرجلان »**) ، يعني نبي معه رجل ونبي معه رجلان ، (**« والنبي وليس معه أحد »**) لم يتبعه من قومه أحد .

وفيه : أنه لا يغتر بالكثرة كما يذكر الشيخ في الفوائد ، لا يغتر بالكثرة أبدًا ، ولهذا يقول ربنا دائمًا : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هو : ٤٠] . فليست العبرة بالكثرة حتى يغتر بها ويقال : أكثر الناس كذا وكذا ، بل قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، ليسوا ضالين فقط بل مضلين ولا قوة إلا بالله .

(« **إذ رفع لي سواد عظيم** ») ، والسواد العظيم هو الذي يرى من بُعد ، يرى أشخاصهم لكن لا يميز أعيانهم ، (« **فظننت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه** ») .

وفيه : فضل أصحاب موسى ، ومن تبعهم على دينه مؤمنًا به ، وأنهم من أكثر الأمم ، وأنه من أكثر الأنبياء تابعًا .

(« **فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب** ») ، هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة دون أن يحاسبوا ، ودون أن يعذبوا ، فاستشرف الصحابة لها ، واشرأبت أعناقهم لها ، من يكون هؤلاء السبعون ؟

النبي ﷺ نهض ودخل منزله ، وجعلوا يبحثون ويتحدثون وهذا يدل على محبتهم للخير ، ورغبتهم فيه ، وحرصهم عليه ، من يكون ؟

في بعض روايات الحديث في غير ((**الصحيح**)) « **فاستزدت ربي لأمتي فزادني مع كل ألفٍ سبعين ألفًا** » . وفي حديث أبي أمامة أن النبي ﷺ قال ﷺ : « **وعدني ربي سبعين ألفًا مع كل ألفٍ سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب** » . قال : « **وثلاثًا من حثيات ربي زيادة** » . زيادة على السبعين ، مع كل ألف سبعين وزيادة عليها ثلاثًا من حثيات ربي إن هذا فضل عظيم ، فما ظنك

بفضلٍ هو من أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، وأرحم الراحمين سبحانه وبحمده ، اللهم اجعلنا جميعًا منه ووالدينا ووالديكم .

خاض الصحابة فيهم فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا النبي ﷺ . لهم فضل ولهم مكانة وقدر ، السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، الذين هجروا الديار وتركوا الأموال والأهل ، وهاجروا مع النبي ﷺ وكانوا على فقر وفاقة وحاجة ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ [الحشر : ٨] .

(**وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام**) ، كأن بعضهم يقول : لا نحن عشنا في الجاهلية مدة من الزمن ؛ لكن لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، يعني أولادنا الذين لم يشركوا بالله شيئًا . وذكروا أشياء ، خرج النبي ﷺ إليهم فسألوه ، فأعطاهم الجواب الفصل والذي لا اجتهاد لأحد معه . وذكر أن هؤلاء السبعين لهم أوصاف ليسوا محصورين بفئة ولا بزمن ؛ لكن لهم أوصاف من حقق هذه الأوصاف فلعله أن يكون منهم ، وهذه الصفات الأربع .

أولها : (« لا يَسْتَرقون »): أي لا يطلبون أحدًا أن يرقيه ، لا يطلبون الرقية من أحد ؛ لكن لو رقى الإنسان نفسه ، أو رقاه غيره دون طلب ، فليس فيه إشكال ، كأن يأتي إنسان يزور مريضا فيقرأ عليه دون أن يطلب منه المريض أن يقرأ عليه شيء من القرآن ، هو ما استرقى ، يعني ما طلب الرقية ، ولهذا رقى جبريل النبي ﷺ ، ورقى النبي ﷺ بعض أصحابه ، ورقت عائشة الرسول ﷺ ، بل كان يرقي نفسه عليه الصلاة والسلام ، كان إذا أوى إلى فراشه جمع يديه هكذا ونفث فيهما ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : ١] . ثلاث مرات ثم مسح بهما رأسه

وما أقبل من جسده ، هذه رقية ، الإنسان في الرقية أحيانًا ينفث بيده ويمسح بها على المريض .

فإذًا المذكور هنا هو طلب الرقية ، فلماذا كان طلب الرقية ليس من أوصاف هؤلاء ؟ لأن المسترقي سائل مستجدٍ ، ملتفت قلبه إلى الراقي ، وهذا ملاحظ ، تجد الناس يبحثون والله فلان الراقي مشهور ، فلان معروف ، وقد يكون في بيتهم رجل صالح طالب علم ويرغبون عن رقيته إلى رقية قراء عوام أحيانًا ، وربما لا يسلمون من بعض المخالفات ، وللنفس مكرٌ خفي بصاحبها في هذه الأمور ، أحيانًا أمور نفسية ، أحيانًا هذا رقيته مجربة وفيه كذا وفيه كذا ، فيحس الإنسان يعني إذا قرأ عليه بشيء من الراحة النفسية ، وقد لا تكون بالضرورة شفاء مما يعاني ، ففيها التفات لا شك ، التفات لهذا السبب ، ولهذا لم يكن هؤلاء من هؤلاء السبعين ألفًا ، وهل يعني هذا النهي عن الرقية ؟ الجواب: لا ، فالاسترقاء جائز ؛ لكن تركه توكلاً على الله عز وجل أولى ، وهو من صفات هؤلاء السبعين .

ورد في مسلم رواية : « **ولا يرقون** » . « **لا يسترقون ولا يرقون** » أيضًا ، ولكن قال شيخ الإسلام رحمه الله : إن هذا وهم من الراوي . لم يقل النبي ﷺ : لا يرقون . وقال : إن الراقي محسن . وذكر رقية جبريل للنبي ﷺ ورقية النبي ﷺ لأصحابه ، فلا يمكن أن يفعل النبي ﷺ أو جبريل شيئًا ليس من خصال محققي التوحيد ؛ لكن ابن حجر رحمه الله كأنه يصحح هذه الزيادة .

الثاني : (« **ولا يكتوون** ») الكي بماذا ؟ بالنار للعلاج ، وهذا يستعمل ، في أفريقيا هل النار موجودة كطب شعبي ؟ موجود ، وموجود بكثرة ، يعني عندنا

قديمًا لم تكن هناك وسائل للعلاج فكان هو تقريبًا يمكن أكثر وسائل العلاج المتاحة للناس .

النبي ﷺ قال على هؤلاء : (**« ولا يكتوون »**) لأن في الكي تعذيب للنفس ، تعذيب بالنار ؛ لكن ورد أن النبي ﷺ كوى ، ما كوى نفسه ، لا ، وكوي بعض أصحابه ففي ((**الصحيح**)) أنه أرسل طبيبًا إلى أُبي فقطع منه عرقًا وكوى ، وَكُوِي أنس من ذات الجنب - مرض يصيب الرئة - في عهد النبي ﷺ والحديث في ((**الصحيح**)) ، وكوى أسعد بن زرارة ، بل كوى سعد بن معاذ عندما رُمِيَ في أكحله في غزوة الخندق ، فحسمه ﷺ بمشقص ، ثم ورمت يده فحسمه ثانيةً ، حسمه يعني كواه .

ولهذا قال ابن القيم : الكي ورد في السنة على أربعة أنواع :

- فورد أنه فعله ﷺ ، كما في هذه الأحاديث .

- وورد أنه نهاه عنه ولم يحبه ، الاثنتين نهى ولم يحبه في حديث « **الشفاء في ثلاث** » والحديث في ((**الصحيح**)) حديث ابن عباس ، وحديث جابر ، قال : « **الشفاء في ثلاث : شربة عسل ، وشرطة محجم** » الحجامة « **وكية نار ، وأنهى أمتي عن الكي** » ، وقال في حديث جابر وهو قريب في معناه من حديث ابن عباس قال : « **وما أحب أن أكتوي** ».

- وأثنى على من تركه ، والدليل هذا الحديث (**« ولا يكتوون »**) ، وهذا يدل على أنه يُكره تنزيهًا ، وإلا فكونه يفعله ﷺ يدل على أن الأصل الجواز ؛ لكن لو تركه الإنسان توكلاً على الله كان أولى .

الصفة الثالثة لهم أنهم (لا يتطيرون) أي لا يتشاءمون ، وسيأتينا إن شاء الله في باب التطير ، أن التطير يكون بالطير ، يكون بحيوانات ، يكون بأمكنة ، يكون بأزمنة ، فيتشاءمون مثلاً بالغراب ، أو بالبوم ، أو بالطير ، أو بالحيوان إذا مر وأعطاهم مياسره أو ميامنه ، أو ما أشبه ذلك ، يخرج للسفر فإذا رأى غراب رجع ، سبحان الله العظيم ! الجهل يعمي العقول ، أنت وأنت إنسان ما تعلم من الأمر شيء وهذا طائر، ما علاقته بما حدث أو يحدث حتى جعلتموه يعلم شيئًا من الغيب ؟! لا قوة إلا بالله . ولهذا عندما يسود الجهل ويضعف التوحيد تضعف حتى عقول الناس بأعمالهم وتصرفاتهم ، رجل مع ابن عباس سمع نَعْق غراب ، قال : خير يا طير . قال : لا خير ولا شر . أي خير وأي شر عند هذا ؟ . وكان رجل مع طاووس وهو من أصحاب ابن عباس فقال : لا تصحبني . لما سمعه يقول مثل هذا الكلام .

طيب أنا أسألكم هل هذا الكلام موجود الآن ؟ نعم موجود ، موجود التطير بالطيور ، سبحان الله حتى الكلمات التي كانت في الجاهلية ، يسمع غرابًا يقول : خير يا طير . وتسأل الطير هذا ماذا عنده من العلم بالخير أو بالشر ؟ هذا بعض عقلاء العرب حتى في الجاهلية كان يمقتون هذا وينكرونه ، يقول لبيد وكان عاش في الجاهلية طويلاً وعاش في الإسلام طويلاً رضي الله عنه وأرضاه يقول :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصا ❊❊ ولا زاجرات الطير ما الله صانع

يعني ما علاقتها بصنع الله وعلمها به .

(لا يتطيرون) يعني لا يتشاءمون سواء من الطير أو بغيره ، كانوا قديمًا يتشاءمون من شهر شوال ، تقول عائشة : عقد علي رسول الله ﷺ بشهر شوال ، وبنا بي بشهر شوال ، فأيكم كان أحظى برسول ﷺ مني ، وهي قد عقد لها بشوال ودخل بها بشوال .

وقد سمعت هذا السؤال يُسأل عنه ، أن امرأة تريد تتزوج ولا ترغب في عقده في شوال ، ولهذا يتبين لكم أهمية التوحيد وقراءته وإشاعته بين الناس ، أن هذه الأمور الجاهلية تختفي أحيانًا وتظهر عندما يضعف العلم وتعليمه ، وتوعية الناس بمثل هذه الأمور ، لاسيما مع انتشار وسائل التواصل التي تنشر كل شيء ، ويسمع فيها كل شيء ، يسمع الطفل كلمة ويرددها لا يعقلها ولا يدري ما هي ، والله المستعان .

ثم قال : (**وعلى ربهم يتوكلون**) هذه الصفة هي جماع الأوصاف السابقة كلها ، لماذا تركوا الاسترقاء والكي والتطير ، لماذا ؟ توكلاً على الله عز وجل ، ولهذا ذكر التوكل بعد هذا من عطف العام على الخاص ، والتوكل على الله عبادة قلبية جليلة عظيمة شريفة ، وهي من صفات الخواص من عباد الله الموحدين .

والتوكل هو : اعتماد القلب على الله في جلب نفع أو دفع ضر مع الثقة به ، مع فعل الأسباب.

هذه الصفات الأربع والتي أثني بها على هؤلاء المحققين للتوحيد ، وهي صفات السبعين ألفًا اللهم اجعلنا جميعًا منهم ، هل يعني أنهم كانوا يتركون

الأسباب ؟ لا ، لا يتركون الأسباب ؛ ولكنهم يتركون هذه الأمور المكروه مع حاجتهم إليها توكلاً على الله ، لا لكونها أسبابًا.

ولهذا إذا أصيب الإنسان بمرض يشرع له أن يتداوى ، قال ﷺ : « **ما أنزل الله من داءٍ إلا وأنزل له شفاء** » . وقال : « **تداووا عباد الله** » .

فالتداوي ما ينافي التوكل ، وفعل الأسباب ما ينافي التوكل ، وسيد المتوكلين ﷺ كان يفعل الأسباب ، فقد ظاهر بين درعين في بعض غزواته ، ولبس المغفر ، ودخل مكة على رأسه المغفر ، وحفر الخندق ، لم يترك الأسباب ويقول هذا هو التوكل على الله عز وجل ، لا ، هذا خلل في التوكل ، بل فِعل الأسباب يعتبر من التوكل ، بل التوكل نفسه يعتبر سببًا ، ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] ، إذًا التوكل سببٌ لكفاية الله عز وجل ، فالتوكل نفسه سبب ، فإنكار أن تكون الأسباب أسبابًا ، هذا قدح في العقل . لو قال قائل: الأدوية والأطباء ما ينفعون ولا فيهم فائدة . هذا خلل في العقل ، والاعتماد على الأسباب والالتفات إليها قدحٌ في التوكل على الله عز وجل ، قدح في توحيد الإنسان .

إذًا يفعل الإنسان الأسباب ؛ لكن قلبه متوجه إلى الله ، واثق به سبحانه وبحمده .

فلا يفهم منها ترك الأسباب ، لكن ترك الأسباب المكروهة وكراهتها كما ذكر كراهة تنزيه أيضًا ، يعني لو احتاج الناس إليها يفعلونها ، لكن هذه الصفات لمن حقق التوحيد ، وهم بالنسبة للأمة قلة ، وأكثر من يدخل الجنة هذه الأمة ولله الحمد والمنة ، قال ﷺ : « **أهل الجنة عشرون ومائة صف ، من هذه الأمة ثمانين**

» . وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) حديث أبي سعيد « **إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة** » . فكبرنا ، ثم قال : « **ثلث أهل الجنة** » . فكبرنا ، ثم قال : « **شطر أهل الجنة** » فكبرنا ، والشطر النصف .

والمقصود أن الناس طرفان ووسط:

- منهم من يلغي الأسباب، وترك الأسباب أنْ تكون أسبابًا خلل في تصور الإنسان وتفكيره.
- ومنهم من يعتمد على الأسباب ويلتفت إليها، وهذا عنده خلل في توحيده وعقيدته.
- ومنهم من يتوسط، فيفعل الأسباب المشروعة، ويترك الأسباب الممنوعة، إن كانت محرمة لا شك يتركها ويبتعد عنها، وإن كانت مكروهة فإن تركها لكونها مكروهة فهذا من تحقيق توحيده.

(**فقام عكاشة بن محصن**) بن حَرْثان الأسدي من بني أسد بن خزيمة قبيلة من قبائل العرب المعروفة ، وهو أخو صحابية جليلة لها حديث في ((**الصحيحين**)) في بول الطفل أم قيس بنت محصن ، هو أخوها ، وهو صحابي جليل من السابقين الأولين شهد المشاهد كلها بدرًا وأحدًا ، وهو من الفرسان المعروفين بالإقدام والشجاعة رضي الله عنه وأرضاه ، قتل في حروب الردة .

قال يا رسول الله: (**ادع الله أن يجعلني منهم**) .

(**قال : « أنت منهم »**) وفي رواية « **اللهم اجعله منهم** » ، أخبره النبي ﷺ بهذا بخبر من الله عز وجل ، وحي من الله إما إلهام أو من طريق الملك ، قال : (**« أنت**

منهم »﴾ . فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال : ﴿« سبقك بها عكاشة »﴾ .

﴿« سبقك بها »﴾ بماذا ؟ ربما يرجع الضمير إلى:

- الصفات السابقة.
- أو إلى طلبها أي سبقك بطلب الدعوة عكاشة.

وهذا منه ﷺ استعمالٌ للمعاريض ، وهو لون في الخطاب رفيع ، لم يقل النبي ﷺ : لست منهم ، مشكلة ، لست منهم الرجل ينظر في نفسه ، لماذا لم أكن منهم ؟ ولو قال : أنت منهم . لانفتح الباب ، وكل شخص يقول : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . فأغلق النبي ﷺ الباب من أول الأمر وقال : ﴿« سبقك بها عكاشة »﴾ .

وفيه : طلب الدعاء من الفاضل ، يطلب الدعاء من الفاضل ؛ لكن عندما يطلب الدعاء من الفاضل ، يطلبه بنية لا أنه يسأله لنفسه فقط ، ولكن لنفع الداعي أيضًا . وكيف ينتفع الداعي ؟ بدعاء الملك ، ولك مثله ، يطلب منه أن يدعو له وقصده أيضًا أن ينفعه بهذه الدعوة ، وإن كان السلف لا يحبذون الإكثار من هذا ، الأصل الجواز لكن لا يكثر الإنسان منه ، ولن يدعو لك أحدٌ أولى وأعظم وأحسن من نفسك ، حتى لو دعا الإنسان ، قال رجل لحذيفة : ادع لي . فدعا له ، فجاء آخر فصاح به حذيفة وقال : أأنبياء نحن . حتى من يُطلب منه الدعاء يخشى على نفسه .

فينبغي للإنسان أن يلح ويجتهد في دعائه لربه ، وإن كان الأصل في المسألة الجواز .

سؤال: من يطلب الزيت المقروء فيه هل يدخل في الاسترقاء ؟

الجواب: هذا داخل في الاسترقاء، كونه يطلبه يريده من أحد هذا داخل فيه، وما أحسن أن يقرأ الإنسان على نفسه ، القرآن الذي مع الرقاة معك ولله الحمد ؛ لكن معك إلحاحٌ واجتهاد لا يكون معهم أبدًا ، يعني لا يلح أحد بمثل ما تلح به نفسك ، فيقرأ الإنسان على نفسه واثقًا بربه .

والرقية على كل حال مشروعة ؛ لكن أيهما أولى الدعاء أم الرقية ؟ الجمع بينهما حسَن ؛ لكن الدعاء أعظم ، والدليل أن الأنبياء لما ابتلوا ماذا فعلوا ؟ ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا ﴾ إلى أن قال : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ﴾ [الأنبياء : ٨٩] يقول يعقوب : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، كلهم لجأوا إلى الله عز وجل بالتضرع وبالدعاء ، فالدعاء أعظم من الرقية هذا قول الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله ، وظاهر الأدلة لا شك .

سؤال: من يصحح رواية (لا يرقون) هل يحمل معناها على رقية نفسه ؟

الجواب: لا ، المعنى (لا يرقون) لا يرقي غيره ، أما أن يرقي نفسه فالنبي ﷺ رقى نفسه ؛ لكن يقول : لا يرقي غيره ، لماذا ؟ إذا كان هذا المسترقي الأولى في حقه أن لا يسترقي فالأولى في حقك أنت أيها الراقي أيضًا أن لا ترقيه ، حتى لا تكون عونًا له على هذا الأمر ، والأمر ولله الحمد جائز .

ولهذا ينبغي للإنسان إذا طلبت منه الرقية أن يقرأ على إخوانه ، النبي ﷺ قال في الرقية: « **من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه** » وقال : « **اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقية ما لم تكن شركًا** » ويأتي لها باب إنشاء الله . وكلام شيخ الإسلام رحمه الله كأنه يرى أن هذه الرواية شاذة ، وإن كان الراوي لها ثقة ، لكنها زيادة عن ما قاله الرواة الأوثق.

سؤال: هل يستفاد من مذاكرة الصحابة للحديث مذاكرة الأقران؟

الجواب: مذاكرة العلم طيبة ؛ لكن الإنسان في حدود ما يعلمه وما يعرفه ، وما لا يعلمه ينظر فيه ويبحث ويقرأ ، وإلا فمذاكرة العلم من أسباب تثبيته ، ومن أسباب نقله أيضًا ، كون الإنسان يذكر مسألة ثم يبحث فيها الطلاب فيما بينهم لكن لا يبحثون في المسائل الكبار ، لا ؛ لكن مسألة مرت بهم في درس أو كذا ، ثم تباحثوا فيها وسأل بعضهم بعضًا فيها هذا طيب ، وهذه من الأمور التي تثبت العلم وترسخه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : معرفة مراتب الناس في التوحيد) .

(**مراتب الناس في التوحيد**) ، الناس ليسوا على مرتبة واحدة ، مر بنا التحقيق :

- تحقيق واجب .
- وتحقيق مستحب .

قال عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] . اللهم اجعلنا من السابقين بالخيرات ، فليسوا سواسية .

(**الثانية : ما معنى تحقيقه**) .

(**معنى تحقيقه**) كما مر .

(**الثالثة : ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين .**

الرابعة : ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك) .

الآية ، يشير إلى الآية .

(**الخامسة : كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد .**

السادسة : كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل) .

لأنه قال بعد ما ذكر الصفات : (**« وعلى ربهم يتوكلون»**) .

(**السابعة : عمق علم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل .**

الثامنة : حرصهم على الخير .

التاسعة : فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية) .

فضيلتهم بالكمية هم أكثر الناس دخولاً الجنة ولله الحمد والمنة ، وبالكيفية فيهم السبعون ألف الذين اتصفوا بهذه الأوصاف الجليلة.

(**العاشرة : فضيلة أصحاب موسى .**

الحادية عشرة : عرض الأمم عليه عَليه الصلاة والسلام .

الثانية عشرة : أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها .

الثالثة عشرة : قلة من استجاب للأنبياء .

الرابعة عشرة : أن من لم يجبه أحد يأتي وحده .

الخامسة عشرة : ثمرة هذا العلم ، وهو عدم الاغترار بالكثرة ، وعدم الزهد في القلة) .

الإنسان يعني ينظر إلى الكثرة يقول : أكثر الناس كذا وكذا وكذا . ليست العبرة بالكثرة ؛ ولكن العبرة بموافقة الكتاب والسنة مع الكثرة أو مع القلة .

(**السادسة عشرة : الرخصة في الرقية من العين والحمة**) .

وهل هذا يعني التخصيص ؟ لا ، إذًا ما معنى الحصر (« **لا رقية إلا** ») ؟ كما قال الخطابي : لا رقية أشفى وأولى إلى آخره .

(**السابعة عشرة : عمق علم السلف لقوله : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ؛ ولكن كذا وكذا**) .

إذًا ترقَّى به من شيء حسن إلى ما هو أحسن .

قال رحمه الله : (**فعُلِم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني .**

الثامنة عشرة : بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه) .

(**بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه**) نفسه حتى بما فيه ، ما ليس فيه وأيضًا بما فيه ، هم لا يحبون المدح أبدًا ، واحذروا مدح النفس وإطراءها عند الآخرين ، فإن مدحها عنوان العُجب بها ولا قوة إلا بالله ، وإذا ابتلي الإنسان بالعُجب بالنفس هلك ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (**التاسعة عشرة : قوله ﷺ : « أنت منهم » . علم من أعلام النبوة**) .

قوله : (**« أنت منهم »**) . علم من أعلام النبوة لا شك ، كونه يخبر أنه منهم ، ثم من علم حال عكاشة وكيف أنه استمر على ما كان عليه بصحبة النبي ﷺ ، وظل مجاهدًا إلى أن قتل شهيدًا في سبيل الله .

(**العشرون : فضيلة عكاشة .**

الحادية والعشرون : استعمال المعاريض) .

من قوله : « **سبقك بها عكاشة** » .

(**الثانية والعشرون : حسن خلقه ﷺ**) .

حيث لم يقل : لست منهم . وإنما استخدم هذا الكلام الذي فيه تلطف ، سبقك بهذا الأمر عكاشة ، فأغلق الباب عن تتابع الأسئلة ، وربما طلُب البعض هذا الأمر وليس من أهله .

اللهم اجعلنا جميعًا منهم ، اللهم اجعلنا من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، اللهم ارحمنا برحمتك وأنت أرحم الراحمين .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح كتاب التوحيد ٥

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله : (**باب الخوف من الشرك**

وقول الله : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ . وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥]) .

قال رحمه الله : (**باب الخوف من الشرك**) مناسبة هذا الباب إلى الأبواب التي قبله مناسبة ظاهرة جدًّا ، وهي أن المؤلف رحمه الله لما ذكر تحقيق التوحيد ناسب أن يذكر الخوف من ضده :

- لأن الشيء أولاً يتبين بضده ، كما قيل : وبضدها تتبين الأشياء . والتوحيد يتبين بذكر ما يناقضه ، وما يضاده وهو الشرك .
- وأيضًا حتى يكون الإنسان في مأمن من الشرك بعد حفظ الله عز وجل ، فإن الإنسان إذا عرف الشر توقاه وابتعد عنه وعن أسبابه المؤدية إليه . يقول حذيفة في حديثه الشهير ، والذي هو منهج أيها الشباب يحفظه طالب العلم ويتأمله ويتدبره ، حتى يكون سببًا لحفظه وصيانته من فتن الزمان ، يقول : كان الناس يسألون النبي ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، فإن الإنسان إذا كان لا يعرف الخير من الشر ربما يقع في الشر ويظن أنه خير .

عرفت الشر لا للشر أبغي ولكن لتوقيه ** ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

والشرك أعظم شر ، وخطره أعظم خطر ، وهو أعظم ذنب عصي الله تعالى به ، وهو أعظم المحرمات ، والإنسان إذا وقع فيه فقد أغلى ما لديه وهو الدين ، وهو خفي ، قد يقع الإنسان فيه وهو لا يشعر . قال ﷺ لأبي بكر : « **الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل** » . ثم قال : « **ألا أدلك على شيء إذا فعلته أذهب الله عنك صغار الشرك وكباره ؟ أن تقول : اللهم إني أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك مما لا أعلم** » .

الشرك خفي ، لهذا يجب على الإنسان أن يعرفه حتى يتوقاه ويحذره ، قال عمر : إنما تنقض عرى الإسلام إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، يعني ما عرف الجاهلية وشرورها وشركها وما فيها من الآثام ، هذا الذي يخشى عليه ، وإنما يتذوق الإنسان حلاوة الشيء إذا كان قد جرب ضده ، فالإنسان يجد حلاوة الطعام إذا جاع ، ويجد لذة الماء إذا عطش ، ويجد حلاوة التوحيد إذا هو فهمه وفقهه وعرف ضده وتوقاه ، بحيث يقبل على ربه ويسأله أن يحفظه من هذا الشرك ، ويعرفه ويعرف أسبابه ووسائله المفضية إليه حتى يكون على حذر منه .

قال تعالى : (﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾) .

دلت الآية على أن المشرك شركًا أكبر لا يغفر له ، وأن ما دون الشرك الأكبر تحت مشيئة الله تعالى إن شاء الله تعالى عذبه بعدله ، وإن شاء غفر له برحمته وفضله سبحانه وبحمده . وهذا نصُّ الآية كما تلحظون ، أما الخوارج والمعتزلة فإنهم يرون أن ما دون الشرك من الكبائر موجب للخلود في النار . كيف تجيبون على هذه الآية (﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾) ؟ قالوا : هذا في حق من تاب . وانظروا كيف يعمد الزائغون إلى الأخذ بالمتشابه ويتركون النصوص المحكمة ، وهذه

مسألة يقع فيها الزائغون من جميع الملل والنحل والطوائف ، يبحثون عن المتشابه ويتركون الآيات التي هي كالشمس في الدلالة على المقصود ، يقولون : (﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾) يعني إذا تاب ! . والشرك الأكبر إذا تاب صاحبه يغفر له ، ما معنى أن يحمل قوله : (﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾) ؟ للتائب ، هو سبحانه وتعالى عندما ذكر التائبين قال : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] . ثم قال بعدها : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : ٥٤] ، ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ لمن أناب وتاب إلى الله عز وجل ، هذا يشمل الصغائر والكبائر ، بل وحتى الشرك بالله عز وجل ، فقد عمم الله عز وجل في هذه الآية ؛ لكن في الآية التي عندنا (﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾) خصص وقيد هو أيضًا بمشيئته سبحانه وبحمده ، وعلى كل حال فالآيات تدل على خطورة الشرك ، وأنه الذنب الذي لا يغفر .

(وقال الخليل عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾)

الخليل هو إبراهيم عليه السلام ، وسمي الخليل لأن الله تعالى اتخذه خليلاً ، ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] .

والخُلة هي أعلى درجات المحبة ، وهذه المرتبة العالية كانت للخليلين :

- إبراهيم عليه السلام.
- ومحمد ﷺ ، قال عليه السلام : « **فإن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً** » .

قال الخليل: ﴿ وَاجْنُبْنِي ﴾ يعني ابعدني ، ﴿ وَبَنِيَّ ﴾ وبناته أيضًا ؛ لكن يذكر الأبناء تغليبًا ، (﴿ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾) ابعدنا عن عبادة الأصنام ، ابعدنا عن الشرك .

هذا وهو الذي كسر الأصنام بيده ﴿ وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ [الأنبياء : ٥٧ ، ٥٨] ، جعلهم قطعًا وفتاتًا كسرها عليه الصلاة والسلام ، ومع ذلك يخاف من الشرك ، ولهذا يقول إبراهيم النخعي : ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم . إبراهيم الذي فعل ما فعل وهو إمام الحنفاء ، وقد أُمر نبينا ﷺ أن يقتدي به في قوله عز وجل : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل : ١٢٣] . وقال : ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦١] ، فأُمِرنا جميعًا بل نبينا ﷺ أن نقتدي به وأمرنا بالتأسي به ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ ﴾ [الممتحنة : ٤] ، ومع ذلك هو يخاف من الشرك ، فكيف يأمن الإنسان على نفسه بعد إبراهيم ، ولهذا لما أمنه قوم وزعموا أن الشرك لا يقع في هذه الأمة ماذا حصل ؟ انشتر فيهم الشرك انتشار النار في الهشيم ، أنواع من الشرك ولا قوة إلا بالله في الألوهية ، وفي الربوبية ولا تنكر ؛ لأنهم أمنوا منه فابتلوا به ولا قوة إلا بالله .

وفيه : أن الإنسان ينبغي أن يدعوا لأبنائه ، إبراهيم يدعوا لأبنائه ، والمراد بأبنائه أبناء صلبه من كانوا في حياته ومن كانوا بعد ذلك (﴿ وَبَنِيَّ ﴾) .

الشرك نوعان كما هو مشهور :

- شرك أكبر .

- وشرك أصغر .

الشرك الأكبر : أن يتخذ لله تعالى شريكًا أو ندًّا في ربوبيته ، أو ألوهيته ، أو أسمائه وصفاته:

يتخذ مع الله تعالى شريكًا في ألوهيته يدعوه أو يرجوه ويخافه ويحبه كمحبة الديان ، يدعوه من دون الله ، يرجوه من دون الله ، يخافه من دون الله ، يتعلق به من دون الله عز وجل.

وقد يكون في توحيد الربوبية أيضًا بأن يعتقد متصرفًا في الكون مع الله عز وجل ، وهذه بلية يبتلي بها كثير من أهل الضلال والبدع ، يعتقدون أن أولياؤهم وأئمتهم يتصرفون في الكون ، وما أسهل ما يطلقها الواحد منهم ولا قوة إلا بالله ، مع أن الله عز وجل قال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . فقط ؟ ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ وهذا أقل من الأول ، فقط ؟ ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] وهذا أقل من الثاني ، فقط ؟ ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٣] . ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أيًّا كانوا ملكًا مقربًا ، نبيًّا مرسلاً ، وليًّا صالحًا ، إمامًا ، ادعوهم من دون الله ، فلا يملكون ، بل ولا يشاركون في الملك وهو أقل من الملك ، بل ولا يعينون على الملك وهو أقل من الشرك ، بل ولا يشفعون عند الله إلا بإذنه سبحانه وتعالى وهو أقل من الإعانة ، فماذا بقي إذًا ؟ ولهذا يأتينا إن شاء الله قول أهل العلم : إن هذه الآية تقطع جذور شجرة الشرك

من القلب . يعني من يعتقد هذه الآية فإن الآية تنتزع جذور الشرك من قلبه ، ما يبقى له تعلق بأحد ، إذا كان كل أحد لا يملك مثقال ذرة ، لا يشارك في ذرة ، لا يعين رب العالمين على مثقال ذرة ، ولا يشفع حتى في مثقال ذرة إلا بإذن الله عز وجل .

أما الشرك الأصغر فاختلف كلام العلماء في تعريفه:

- فبعضهم يقول : هو ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر . يعني كل وسيلة للشرك الأكبر تكون شركًا أصغر .
- وقال بعضهم : ما أتى في النصوص أنه شركٌ ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر . وهذا تعريف قريب . ورد في النصوص أنه شرك كما في الحديث الذي عندنا الآن (**« أخوف ما أخاف عليكم»**) ، لكنه لم يصل في التنديد إلى درجة الشرك الأكبر .

والشرك الأكبر وكذلك الشرك الأصغر يكون :

- في الأقوال .
- وفي الأعمال .
- وفي الاعتقاد .

الشرك الأكبر :

- في الأقوال : مثل دعاء غير الله ، الاستغاثة بغير الله .
- في الأعمال : السجود للصنم ، عبادة الأصنام والأوثان ، الذبح لغير الله .

- في الاعتقاد : يعتقد أن غير الله سبحانه وتعالى يستحق عبادة ، وما أشبه ذلك .

الشرك الأصغر :

- في الأقوال : الحلف بغير الله ، وشرك الألفاظ ما شاء الله وشئت ، ولولا الله وفلان ، وما أشبه ذلك .

- في الأعمال مثل : تعليق التمائم ، تعليق الودع والخرز كما يأتينا .

- في الاعتقاد الرياء في القلب ، الاعتماد على الأسباب والالتفات إليها أيضًا .

فإذًا الشرك بنوعيه يكون في الأقوال ويكون في الأعمال ، ويكون في الاعتقاد .

والشرك الأكبر يكون ظاهرًا ويكون خفيًّا :

فالظاهر مثل : دعاء غير الله ، والسجود لصنم ، والذبح لغير الله .

والخفي مثل : شرك المنافقين ، المنافقون مشركون في الحقيقة ؛ لكنهم يتظاهرون بالإسلام ، كذلك التعلق بغير الله عز وجل توكلاً ومحبة ، أعمال القلوب .

وكذا الأصغر يكون ظاهرًا ويكون خفيًّا :

الظاهر مثل : الحلف بغير الله ، وتعليق التمائم وما أشبه ذلك .

والخفي كيسير الرياء .

في حديث أبي سعيد أن النبي ﷺ خرج عليهم وهم يتكلمون في المسيح الدجال ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **ألا أخبركم على ما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال** » ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « **الشرك الخفي ، يقوم الرجل**

فيصلي فيزين » . وفي رواية : « **يزيد في صلاته لما يرى من نظر الرجل** » . قال : « **الشرك الخفي** » ، (**الخفي**) يعني ما الذي يدريك عن قصْدِهِ وقصْدُهُ في قلبه .

فإذًا الشرك يكون ظاهرًا ويكون خفيًا ، والظاهر والخفي يكون في الأكبر ويكون في الأصغر ، ابن القيم يقول :

والشرك فاحذره فشرك ظاهرٌ ** ذا القسم ليس بقابل الغفران

الفرق بين هذين النوعين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

- الأكبر لا يُغفر ، والدليل : (﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾) .

وأما الأصغر فمحل خلاف بين أهل العلم منهم:

- من قال: يغفر ، لقوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ ﴾، وهو دون الأكبر ، ولقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ [المائدة : ٧٢] . ومفهوم الآية أن الأصغر لا تحرم عليه الجنة .
- **والقول الثاني** : حتى الأصغر لا يغفر ، واستدلوا بالعموم في الآية ، أين العموم ؟ ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ ، ﴿ أَنْ ﴾ حرف مصدري ونصب ، و﴿ يُشْرَكَ ﴾ فعل مضارع منصوب بأن ، وأن وما دخلت عليه في تأويل مصدر إن الله لا يغفر شركًا به ، وهذه نكرة في سياق النفي ، والنكرة في سياق النفي - هذه قاعدة أصولية - تفيد العموم ، فإذًا العموم يدل على أن الشرك لا يغفر سواء كان أكبر أو كان أصغر . وهذا قولٌ لشيخ الإسلام ، وإن كان له قول آخر في المسألة ، وقول إمام الدعوة رحمه الله أيضًا ، وقول جمع من المحققين .

- **الفرق الثاني :** أن الأكبر محبطٌ لجميع الأعمال ، والدليل : ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، هذا أكرم الخلق ومعصوم عن الشرك ، ومع ذلك يقول له ربه : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ ﴾ ، من المقصود إذًا إذا كان معصومًا عن الشرك ؟ المقصود أمته ، وأيضًا توجيه الخطاب يدل على شدة الأمر وخطره وعظيم ضرره ، أنه لو حصل وهو لا يحصل من أكرم الخلق فإنه يؤدي إلى حبوط العمل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] . بعد أن ذكر جملة من الأنبياء في آية الأنعام ، عددهم ثمانية عشر نبيًّا ، قال بعد ذلك : ﴿ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . فدل على أن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال . وأهل مكة في الجاهلية كانت لهم أعمال صالحة ، كانوا يصومون أيامًا ، ويحجون ، ويعتمرون ، وينذرون ، ويعتقون ، ويتصدقون ، ويتباهون في خدمة الحجيج بالسقاية والرفادة ، بل ويعتكفون ، والدليل حديث عمر رضي الله عنه لما قال : يا رسول الله إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام . قال : « **أوف بنذرك** » فكان الاعتكاف وهو من أخص العبادات وأعظمها موجود عندهم ، ومع ذلك جميع أعمالهم باطلة بسبب الشرك بالله عز وجل ، فدل على أن الشرك الأكبر يحبط جميع

الأعمال ، وأما الأصغر فيحبط العمل الذي قارنه وسيأتي توضيحه إن شاء الله .

- **ثلاثة :** الشرك الأكبر مخلد صاحبه في النار ، ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴾ والآيات في هذا مشهورة . وأما الأصغر فإما أن يقال : إنه داخل تحت المشيئة على أحد القولين ، وحتى على قول الذين يقولون : إنه ليس داخلاً تحت المشيئة ، بل لا يغفر يقولون إنه يدخل في الموازنة بين الحسنات وبين السيئات ، فيدخل في الموازنة فيكون في جانب السيئة ، ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ حفظه الله وغفر له ولم يضره هذا الشرك ، يعني حتى من يقول : إنه لا يغفر . لا يلزم من كلامهم أنه يعذب ولا بد ، بل يدخل في الموازنة بين الحسنات وبين السيئات .
- بقي فرق رابع وهو أن الأكبر مخرج من الملة ، فمن وقع في الشرك الأكبر لا يكون مسلمًا ، وأما الأصغر فإنه لا يخرج من الملة .

قال رحمه الله : (**وفي الحديث : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » ، فسئل عنه فقال : « الرياء»**) .

قال : (**وفي الحديث**) حديث محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال : « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » . فسئل عنه فقال : « **الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء** » .

خاف النبي ﷺ على أصحابه وهم الخيرة ، خيرة الأمة ، خاف عليهم من الشرك الأصغر ، فسألوه عن هذا الشرك فقال : « **هو الرياء** » . وهذا من تفسير العام ببعض أفراده ، فإن الرياء فرد من أفراد الشرك الأصغر ، وإلا فالشرك الأصغر يشمل أشياءً كثيرة .

في الحديث:

- الخوف على الصالحين من الوقوع في الشرك الأصغر ،
- وأن الرياء من الشرك الأصغر ،
- وأنه أخوف ما يخاف على الصالحين ، قال : « **أخوف ما أخاف عليكم** » . أشد خوفٍ أخافه عليكم ، فبين ﷺ شدة خوفه من هذا الأمر ، فدل على وجوب الحذر منه والخوف منه .

وإنما يخاف على الصالحين من الرياء لأن الشيطان ما يطمع فيهم في الفواحش ، الشيطان له مكر وخداع ، ويعرف من أين يأتي الإنسان ، فإذا كان الإنسان صالحًا خيِّرًا طيبًا ما يأتيه من جهة الفواحش لأنه يعرف أنه قد فطم نفسه عنها وأنه لا يميل إليها بحال فلا يطمع إليه في هذا الباب ، فيأتي من باب آخر ، وهو الرياء ولا قوة إلا بالله .

والنفس لها ميل إلى حظوظها من الدنيا إلى مال ، إلى جاه ، إلى منصب ، إلى إلى إلى آخره ، فيوقعه في الرياء من هذا الباب ، ولهذا يخشى على الصالحين من الرياء ، كما يُخشى عليهم من أمور ، يُخشى عليهم من العجب ولا قوة إلا بالله ،

يُخشى عليهم من الدنيا ، يُخشى عليهم من أمور كثيرة ، ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم .

هل يبطل الرياء العمل ؟

هذا يختلف ، العلماء رحمهم الله يقولون :

- إن كان الباعث على العمل من أصله الرياء ، فلا شك في أنه يبطل العمل ، كمن قام يصلي رياء ، يعني ينوي الرياء من حين يقوم للصلاة ، هذا لا شك ببطلانه ، وهذا لا يكاد يحصل من مسلم ، وإنما يحصل مِن المنافقين ، ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٤٢] .
- **الأمر الثاني :** أن يكون الرياء عارضًا ، عرض للإنسان وهو في عمله في عبادته :
  - فإن خطر له الرياء ثم دفعه فإنه لا يضره .
  - وإن استرسل معه ، استرسل ما دافعه ولا تخلص منه ، استرسل معه قالوا : فإن كانت العبادة ينبني آخرها على أولها فإنها تبطل . مثال ذلك الصلاة ، رجل يصلي ركعتين الركعة الأولى لم يره أحد ولم يطرأ عليه الرياء ، وفي الركعة الثانية ولا قوة إلا بالله عرض له الرياء واستمر معه الرياء حتى سلم من صلاته ، فما حكم هذه الصلاة ؟ تكون هذه الصلاة باطلة على هذا القول ، لأنه ينبني آخرها على أولها ، فلا يمكن تجزئته . أما إذا كان العمل لا ينبني

آخره على أوله فإنه يبطل منه ما خالطه الرياء ، هذا إنسان تصدق بمبلغ من المال وليس عنده أحد ولم يطرأ عليه الرياء ، ثم عياذاً بالله طرأ عليه الرياء فأخرج مالاً وتصدق به ليراه الناس ، ما حكم الصدقتين ؟ **الأولى** : صحيحة ، **والثانية باطلة** ، لأن الصدقة لا ينبني آخرها على أولها .

(**وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من مات وهو يدعو لله نِدًّا دخل النار» رواه البخاري**) .

عن ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه ، عبد الله بن مسعود بن غافر بن حبيب الهذلي الصحابي العلم عالمٌ بين علماء رضي الله عنه وأرضاه ، قال فيه النبي ﷺ : « **من أحب أن يأخذ القرآن غضًّا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أم عبدٍ** » ، وقال عليه الصلاة والسلام وقد رأوا الصحابة ساقيه وهو يجني أراكًا فحركت الريح ثوبه فظهرت ساقاه وكان نحيل الجسم ، فضحكوا فسألهم النبي ﷺ قالوا : من دقة ساقيه . قال : « **لهما في الميزان أثقل من جبل أحد** » . يقول مسروق بن الأجدع رحمه الله : أدركت أصحاب محمد ﷺ كالإخاذة - إخاذة الماء - منهم من يرد عليه الواحد والاثنين وكذا وكذا ، ومنهم من ترد عليه الأمة ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه .

قال ﷺ : « **من مات وهو يدعو لله** » ، الدعاء نوعان هما :

- دعاء مسألة .

- ودعاء عبادة .

أما دعاء العبادة لغير الله فإنه شركٌ بلا تفصيل ، وأما دعاء المسألة فإن كان فيما يقدر عليه الإنسان بأن كان قادرًا حيًّا حاضرًا فحكمه جائز ، تقول: لأخيك أعطني القلم ، أعطني الكتاب ، ما في إشكال ، وأما إن كان في شيء لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فلا ريب أنه شركٌ بالله عز وجل .

«يدعو لله نِدًّا » اللام هنا ما معناها ؟

الفعل (دعا) تعدى باللام ، وهو يتعدى بنفسه ، تقول : دعا الله عز وجل . لكنه عُدِّي في الحديث باللام ، فإما أن نقول : إن اللام معناها (مع) ، يعني دعا مع الله ندًّا . أو يقال : إن الفعل (دعا) متضمن لمعنى (جعل) ، جعل لله نِدًّا .

والندُّ هو : النظير والمثيل المناوئ يقولون.

وعقوبته (**« دخل النار »**) ومناسبة الحديث للباب ظاهرة ، فإنه إذا كانت عاقبة الشرك دخول النار دل على وجوب الخوف منه والحذر منه .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه : وأنا أقول من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة . والحديث يدل على هذه المسألة بدلالة الاقتضاء ، يعني إذا كان يدعو لله ندًّا دخل النار ، فإذا كان لا يدعو لله عز وجل ندًّا فإنه يدخل الجنة .

واتخاذ الند على نوعين ؛ لأنه قد يكون أكبر وقد يكون أصغر :

- قد يكون أكبرًا كما إذا اتخذ من دون الله ندًا يدعوه ، يرجوه ، يخافه ، يحبه كمحبة الديان ، يذبح له ، يستغيث به وما أشبه ذلك .
- وقد يكون شركا أصغر كشرك الألفاظ ، قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . قال : « **أجعلتني لله ندًّا ؟ بل ما شاء الله وحده** » .

قال رحمه الله : (**ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال : « من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار »**) .

عن جابر بن عبد الله بن عمر بن حرام الصحابي المعروف المشهور رضي الله عنه وأرضاه ، علم بين الأعلام ، والده عبد الله بن حرام الذي قتل شهيدًا في غزوة أحد ، جابر شهد مشاهد كثيرة مع النبي ﷺ ، وعُمِّر ومات وعمره فوق التسعين رضي الله عنه وأرضاه .

قال ﷺ : (**« من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة »**) لقي الله لا يشرك به شركًا قليلاً ولا كثيرًا ، فإن جزاءه الجنة ، (**« ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار »**) قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

والحديث يدل على خطر الشرك وعظيم ضرره ، وأنه من مات عليه فإنه يدخل النار ولا قوة إلا بالله ، فدل على وجوب الخوف منه ، والحذر منه غاية الحذر .

وفيه : قرب الجنة والنار من الإنسان . وفي حديث أبي هريرة المخرج في ((**الصحيحين**)) أن النبي ﷺ قال : « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك** » . وما بين الإنسان وبين الجنة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها إلا أن يفارق هذه الدنيا ، فإذا مات فالقبر إما روضة من رياض الجنة نسأل الله الكريم الروضة ، وإما حفرة من حفر النار أجارنا الله وإياكم منها .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : الخوف من الشرك) .

من أين أخذنا الخوف ؟

أولاً : لأنه الذنب الذي لا يغفر .

الثاني : من خوف الخليل منه .

لعل مر بنا في التفسير قصة بني إسرائيل لما جاوزوا البحر مع موسى عليه السلام ، وشاهدوا هلاك عدوهم عيانًا وشفى الله صدورهم منه ، ورأوا النعمة الكبرى من الله عليهم بانفلاق البحر ، ومجاوزتهم له ، وغرق عدوهم وهم ينظرون ، ومع ذلك لما مروا على قوم يعكفون على أصنام لهم ماذا قالوا ؟ ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف : ١٣٨] فوبخهم موسى عليه السلام وقال : ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . ثم لما ذهب موسى لميقات ربه ماذا حصل منهم ؟ عبدوا العجل ، وهم أصحاب موسى ، وبينهم كليم الرحمن موسى عليه السلام ومع ذلك طلبوا منه أن يكون لهم آلهه ولا قوة إلا بالله ، ولما وبخهم موسى عليه السلام وذهب عنهم عمدوا إلى عجل صنعه لهم السامري فعبده بعضهم مع الله عز وجل ، إذا كان هذا حصل لأصحاب موسى وهم خيار بني إسرائيل ، فمعناه أن الناس لا شك على خطر يوجب عليهم غاية الحذر .

قال رحمه الله : (**الثانية : أن الرياء من الشرك**) .

أي شرك ؟ الشرك الأصغر ، يسير الرياء ، أما إذا كانت أعماله كلها رياء وهذا لا يكاد يصدر من مسلم ، هذا لا قوة إلا به ، لا شك على خطر عظيم ، هذا رياء المنافقين .

(الثالثة : أنه من الشرك الأصغر .

الرابعة : أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين) .

يعني وجه المناسبة في الحديث أن النبي ﷺ خافه خوفًا شديدًا .

اثنين : أنه خافه على الصالحين ، وهذا دل على خطر الشرك حتى لو كان أصغر .

(الخامسة : قرب الجنة والنار .

السادسة : الجمع بين قربهما في حديث واحد ، على عمل واحد متقارب في الصورة) .

كحديث جابر هذا ، والحديث الآخر أيضًا « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعليه والنار مثل ذلك » .

(السابعة : أنه من لقيه لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار ، ولو كان من أعبد الناس) .

هذا منطوق الحديث في المسألتين حتى ولو كان من أعبد الناس ، وكما مر بنا عمر يقول : نذرت أن أعتكف . يعتكف في الجاهلية ، مع ذلك ما نفعته هذه الأعمال بسبب الشرك بالله عز وجل .

(الثامنة : المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام .

التاسعة : اعتباره بحال الأكثر لقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم : ٣٦]) .

فإذا كانت أضلت كثير من الناس فالإنسان على خطر ، شيء أضل الكثير من الناس ، فالإنسان يجب عليه أن يحذره ، أن يخافه ، وأن يبتعد عنه وعن ما يؤدي إليه .

(**العاشرة : فيه تفسير لا إله إلا الله ، كما ذكره البخاري في صحيحه**) .

تفسير لا إله إلا الله ، وأن معنى لا إله إلا الله هو إفراده تعالى بالعبادة وترك الشرك به ، لا قولها باللسان فقط .

(**الحادية عشرة : فضيلة من سلم من الشرك**) .

لا شك من سلم من الشرك فله فضل وله مكانة وقدر ، من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة .

(**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**

وقوله الله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨]) .

(**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**)

مناسبته للأبواب السابقة ظاهرة ، وذلك أن المؤلف لما ذكر التوحيد وفضله ، والتحقيق والخوف من ضده ، فهل يقتصر الموحد بهذا الأمر على نفسه ؟ أو يدعو الناس له ؟ بل يدعوهم إلى توحيد الله عز وجل ويحذرهم من الشرك به سبحانه وبحمده ، قال ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه** » . فإذا مَنَّ الله عليك بالهداية والاستقامة على الصراط المستقيم فإنه يتأكد عليك أن تدعو إخوانك إليها ، قال تعالى : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ [الشورى : ١٥] ، فلما استقمت على دين الله وتوحيده ادع إخوانك إلى هذه النعمة ، فإن فيها

سلامة القلب وصحته وعافيته ، وسلامته من القلق والريب والشكوك ، خلاف الشرك الذي يفسد القلب ، ويفسد أعمال العبد ، ويجعله معرضًا للضرر وللخطر وللقلق والريب والاضطراب .

قال تعالى : (﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾) .

بينت هذه الآية أن سبيل محمد ﷺ هو الدعوة ، والعلم ، والعمل جميعًا .

الدعوة كما في قوله : (﴿ أَدْعُو إِلَى اللهِ ﴾) .

والعلم في قوله : (﴿ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾) ، فإن البصيرة هي العلم ، والعلم لا يكون علمًا إلا إذا أثمر العمل ، فدلت الآية على المسائل الثلاث الكبيرة ، وهي العلم والعمل والدعوة ، وهذا منهج محمد ﷺ الذي جاء به ، وقد دلت عليه ثلاث سور نزلت أول ما نزل من هذا الكتاب العزيز وهي:

١. ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق : ١] ، دلت على العلم ، أول كلمة نزلت .

٢. **الثاني :** ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴾ [المزمل : ١] ، دلت على العمل .

٣. **الثالث :** ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر : ١] دلت على الدعوة .

أين هذه المسائل الثلاث في هذه الآية ؟

- الدعوة صريح قوله : (﴿ أَدْعُو ﴾) .
- العلم : البصيرة ، وأيضًا لا يكون الإنسان على بصيرة في علمه إلا إذا أتبع العلم بالعمل ، والبصيرة واجبة في الدعوة إلى الله عز وجل .

والبصيرة يراد بها معان :

- منها : العلم كما ذكر .

- ومنها : البصيرة في الدعوة ، معرفة حال المدعو ، هذا الذي تدعوه من هو ؟ أو ما هو ؟ هل هو شاب ؟ هل هو كبير ؟ هل هو رئيس وأنت مرؤوسه ، ولكلٍ مقاله ، لكل مقام مقال ، وهذا من الحكمة في الدعوة إلى الله عز وجل ، فدعوة الشاب ليست كدعوة الكبير ، من الناس من يحتاج في دعوته إلى الحكمة ، ومنهم من يحتاج إلى الموعظة الحسنة ، ومنهم من يحتاج إلى الجدال ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] ، يتفاوت الناس . فمعرفة حال المدعو من البصيرة.
- ثم معرفة الطريقة التي توصلك إلى هذا المدعو أيضًا من البصيرة ، فتلخص أن في البصيرة أو من البصيرة ثلاث مسائل .

الأولى وهي الأهم تقريبًا : العلم ، أن الإنسان لا يدعو إلى الله عز وجل حتى يكون عنده ماذا ؟ حتى يكون عنده علم .

الأمر الثاني : معرفة حال المدعو « إنك ستأتي قومًا أهل كتاب » ، قالها عليه السلام لمعاذ ، ليستعد لهم ، أنت لا تأتي أناسًا ليس عندهم شيء ، فاعرف حالهم حتى تعرف الطريق إليهم .

الثالثة : وبعد أن عرفت حال المدعو تعرف الطريق الذي يوصلك إلى هذا المدعو .

كل هذا من البصيرة في الدعوة .

ودلت الآية على الإخلاص في الدعوة إلى الله عز وجل ، من قوله ﴿ **أَدْعُو إِلَى اللهِ** ﴾ لا إلى غيره ، لا أدعو إلى مذهب ، إلى طائفة ، إلى حزب ، إلى جماعة ،

إنما أدعو إلى الله عز وجل ، فالآية نصٌّ في وجوب الإخلاص في الدعوة إلى الله عز وجل .

وفي الآية أيضًا دليل على المتابعة في قوله : (﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾) وتعلمون أن العمل الصالح لا يكون صالحًا حتى يشتمل على الأمرين ، أن يكون بالإخلاص وبالمتابعة ، بهذا يكون العمل صالحا ، إذا اختل أحد الأمرين لا يكون العمل صالحا .

(﴿ قُلْ ﴾) يا محمد (﴿ هَذِهِ سَبِيلِي ﴾) هذه طريقته وهذا نهجه ، وهو الدعوة إلى الله عز وجل على بصيرة .

ودل على تأكد العلم بالنسبة للدعوة إلى الله عز وجل ، كما في الآيات الثلاث التي نزلت على النبي ﷺ .

الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه ، ذكر في مقدمة الأصول الثلاثة عبارة لعلكم تحفظونها : اعلم أن الواجب علينا تعلم هذه المسائل الأربع . ما هي المسائل الأربع:

الأولى: العلم .

الثانية : العمل به .

الثالثة : الدعوة .

الرابعة : الصبر .

وكل هذه الأشياء أخذها من سورة العصر ، موجودة في سورة العصر العلم والعمل والدعوة إلى الله عز وجل والصبر في هذا الطريق ، الإنسان يصبر سواء في طلب العلم ، أو في الدعوة وفي التعليم وفي العبادة ، والصبر يأتي على كل شيء ،

ففي الطاعة يصبر عليها ، وفي المعاصي يصبر عنها ، وفي الأقدار يصبر عليها ، فتجتمع له أنواع الصبر الثلاثة في هذا الطريق العظيم ؛ لكن لا شك وأؤكد على هذه المسألة أن الإنسان يبدأ أول ما يبدأ بالعلم ؛ لأن كثيرن يدخلون في الدعوة وحظهم من العلم قليل ، وربما يشتغل في الدعوة ويترك العلم ، وربما حتى لا يرى التشاغل في العلم ، بل يرى التشاغل في الدعوة ، وهذا خطأ كبير ، المؤكد أن يبدأ بالعلم ، ومع ابتدائه بالعلم يمكن أن يدعو ، لكن يكون اهتمامه بالعلم أول ما دام في سن الطلب وسن الشباب ، ويكون له سهم ونصيب في الدعوة إلى الله عز وجل .

فالأحوال عندنا تختلف :

الأول : الجمع بين الحسنين العلم والدعوة .

الثاني : الاقتصار على العلم .

الثالث : الاقتصار على الدعوة .

الرابع : لا قوة إلا بالله خارج عنهما .

أيُّ هذه الأقسام أولى وأكمل وأتم وأفضل ؟ الأول ، جمع الأمرين .

فالدعوة أمرها يسير ، أمرها سهل ، ولهذا يحب بعض الناس التشاغل فيها ، وربما لا يميل إلى ثني الركب لطلب العلم ؛ لأن العلم يحتاج إلى تعب ، وموسى عليه السلام لما قال الله تعالى له : إن في مجمع البحرين عبدًا من عبادي عنده من العلم ما ليس عندك . ماذا عمل ؟ ترك قومه وترك دعوته ، وذهب يطلب العلم حتى لقيه من سفره نصبًا ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ [الكهف : ٦٢] ، وهو يريد أن يطلب العلم ، فالله الله بالعلم ، ولا تستهويكم بعض الآراء وبعض الأقوال

اذهب إلى الدعوة ، الناس بحاجة إليك ، كم اهتدى على يديك جالس تقرأ وجالس تحفظ وجالس ، يُسمع مثل هذا الكلام ، والمشكلة عندما يسمع الشاب من نظيره من شخص مثله ، خذوا المنهج من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، علم وعمل ودعوة إلى الله عز وجل ، علم في أول آية نزلت ، ودعوة بعد ذلك ومعها العمل الصالح بهذا يسير الإنسان على المنهج القويم ، والصراط المستقيم ، وهدي سيد المرسلين (﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾) ، فأتباعه هم أهل البصيرة الداعون إلى الله عز وجل .

اللهم إنا نسألك العلم النافع والعمل الصالح ، والدعوة إليك يا ذا الجلال والإكرام ، الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد

شرح كتاب التوحيد ٠٦

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله :

(باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال : « إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله » . وفي رواية : « إلى أن يوحدوا الله ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . أخرجاه) .

عن ابن عباس لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن ، بعث معاذ بن جبل في السنة العاشرة في شهر ربيع على أحد الأقوال كما ذكر الحافظ رحمه الله ، وبعثه داعيًا ومعلمًا وواليًا ، وبعثه ومعه رجلٌ من خيار الصحابة رضي الله عنهم ، وهو من أهل اليمن أبو موسى الأشعري ، وقال لما بعثهما : « **يسرا ولا تعسرا ، وبشِّرَا ولا تنفرا ، وتطاوعا ولا تختلفا** » . أمرهما بالتيسير وعدم التنفير إشارة إلى أن

الإنسان أحيانًا في دعوته قد يكون منفرا ، يعني بأسلوبه وطريقته قد ينفر من حوله . « **وبشِّرَا** » ، بشروهم بالخير ، وعِدوهم بالخير إذا هم حرصوا على الخير وعملوا الخير ، « **وتطاوعا** » فيما بينكما « **ولا تختلفا** » .

رسم النبي ﷺ المنهج لمعاذ في الدعوة إلى الله عز وجل ، وبين له حال من يأتيهم ، وأنهم أهل كتاب ، وفي اليمن كان فيها جماعة من أهل الكتاب من اليهود ، وهذا حثٌّ من النبي ﷺ لمعاذ أن يستعد فالقوم عندهم شيء ، وعندهم شبهات ، ولا بد أن يتأهب ويستعد لهم ولدعوتهم ومجادلتهم ، يحتاج إلى جدال .

(« **فليكن أولَ ما تدعوهم** ») ، أو (« **أولُ ما تدعوهم إليه شهادةُ** ») ، أو (« **شهادةَ أن لا إله إلا الله** ») ثم الصلاة ، ثم بعد ذلك الزكاة .

(**وفي رواية : « إلى أن يوحدوا الله** ») .

وفيه : أن التوحيد هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله . في رواية « **فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله** » .

إذًا أمره أن يبدأ أول ما يبدأ بدعوتهم إلى توحيد الله عز وجل ؛ لأنه دون التوحيد لا يصح عمل ، لو صلى وصام وحج وزكّى وقام بالأعمال الصالحة ما لم يكن معها توحيد فإنها لا تنفعه . وكان عند أهل مكة كما ذكر أعمال صالحة ، حج وعمرة وصيام واعتكاف وعتق ونذور وأشياء كثيرة من الأعمال الصالحة ؛ لكنها لم تنفعهم بسبب شركهم الذي أحبط جميع أعمالهم ، لهذا أمره النبي ﷺ بما هو شرط لصحة جميع الأعمال .

ودل على أهمية هذه الكلمة كلمة لا إله إلا الله ، وأنه لا يصح إسلام كافر حتى يقولها معتقدًا لمعناها ، فيجمع بين التصديق بهذه الكلمة والانقياد لها وبين التلفظ بها :

- فلو تلفظ دون تصديق المنافق .
- ولو صدق دون أن يتلفظ فهو الجاحد ، ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] . ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ إذًا مصدقون ؛ ولكن يأبون أن يقروا بألسنتهم ولم ينفعهم ذلك ، ما نفعهم أن يعلموا أنه لا إله إلا الله في قلوبهم ما لم يقروا بذلك بألسنتهم .

(**«فإن هم أطاعوك لذلك »**) وأقروا بالشهادتين فانتقل بعد ذلك إلى المسألة الثانية والكبيرة ، وهي التي تلي الشهادتين ، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وعموده ، وأحد أهم مبانيه العظام وهي الصلاة ، (**« فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة »**) ، ودل على أن عدد الصلوات الواجبة خمس ، وما عداها ليس بواجب كالوتر مثلاً ، والوتر حكمه محل خلاف ، فبعض أهل العلم يرى وجوبه كمذهب أبي حنيفة ، وبعضهم يرى أنه سنة مؤكدة من آكد السنن ، حتى قال الإمام أحمد : من ترك الوتر فهو رجل سوء لا أرى أن تقبل شهادته . وتوسط شيخ الإسلام بين القولين رحمه الله ، فهو يرى أن الوتر واجب لمن له ورد من الليل ، إنسان يصلي بالليل ولا يوتر ؟! .

(**«فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم »**) ، الصدقة هنا الصدقة الواجبة وهي الزكاة .

لماذا سميت الزكاة صدقة ؟

لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها ، والدليل قوله ﷺ : « **الطهور شطر الإيمان والحمد لله** » إلى أن قال : « **والصدقة برهان** » والبرهان هو الدليل ، والصدقة دليل على إيمان صاحبها ، حيث يقدم ما يحبه الله عز وجل على ما يحبه هو ، فالإنسان مجبول على محبة المال ، ومع ذلك هو يتصدق به إيثارًا لمحبة الله عز وجل على محبته .

(**« افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم »**) ولم يذكر إلا مصرفًا واحدًا من مصارف الزكاة الثمانية وهم الفقراء ، لأنهم الأكثر ، موجودون في كل مكان .

ودل على أن الصدقة لا تنقل من المكان الذي فيه المال ، بل يخرج صدقة ماله في بلده إلا إن كان في نقلها مصلحة ، فإن كان في نقلها مصلحة بأن كان من يحتاجها في بلد آخر أشد فقرًا أو كانوا أقارب له وهم محتاجون فلا بأس أن تنقل ، فمراعاة الفضيلة المتعلقة بذات العبادة أولى من الفضيلة المتعلقة بمكانها وزمانها ، وهذه قاعدة فقيهة ، أن تنظر إلى ما يتعلق بذات العبادة أولى من أن تنظر إلى شيء يتعلق بالمكان أو بالزمان .

ودل على أن الغني لا يعطى من الزكاة ؛ لكن ما ضابط الغنى ؟:

- بعضهم يقول : الغني إذا كان عنده مال يزكي فهو غني . لأن النبي ﷺ قال : (**« تؤخذ من أغنيائهم »**) . فمن لديه مالٌ يزكى فهو غني ، إذا كان هذا المال خمسُ أواقٍ ، مائة درهم ، يعني تعادل بالريال الآن ربما لو رجعت إلى قيمة الفضة الآن يعرف كم قدرها بالريالات ؛ ولكنها قليلة ، فإذا كان

عنده هذا المال وهو زائد عن حاجته في سنته ، لديه ما يكفيه هل يجوز أن يأخذ من الزكاة ؟ ما يجوز ، هذا من لديه مال يزكى وهو يزكي فكيف يأخذ الزكاة ، اللهم إلا إذا كان هذا المال الذي يعني يزكي ليس عنده غيره ، هذا ربما لا يكفيه إلا مدة قليلة .

(« **فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم** ») ، كرائم أموالهم يعني النفيس من الأموال ، لاسيما من المواشي ، فلا تأخذ خيار الأموال ، ولا تأخذ الهزيل والضعيف منها ؛ ولكن خذ الوسط منها .

والكريم يطلق على النفيس الغالي أيًّا كان ؛ لكن يشتهر إطلاق الكريم على الكريم بماله فقط ، عند الناس فلان كريم ، يعني فلان كريم بماله ، الناس يأتون إليه والضيوف يأتون إليه ، وإنما خص العرب الكريم بالمال نظرًا لحاجتهم إليه وفقرهم الشديد ، فاشتهر عندهم تخصيص الكرم بالمال وإلا فالكرم يطلق على كل شيء ، حتى إن كتاب الله عز وجل من أوصافه الكريم ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٧] .

(« **فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب** ») ، اتق الظلم ، فإن المظلوم قد يدعو ، وإذا دعا فدعوته لا ترد ، وليس بينها وبين الله حجاب ، حتى ولو كان هذا المظلوم فاجرًا ، حتى ولو كان كافرًا .

وعلاقة دعوة المظلوم بالزكاة ، أنه إذا أخذ خيار أموالهم وكرائمها فإنه يكون قد ظلمهم ، فربما يدعون عليك .

يلاحظ في الحديث أن النبي ﷺ ذكر الشهادتين والصلاة والزكاة ، ولم يذكر الصيام والحج فلماذا ؟:

- النبي ﷺ بدأ بالأهم فالمهم ، وأما الصيام والحج وإن كانت عظيمة ومهمة إلا أن من انقاد إلى ما ذكر في الحديث فهل يترك الصيام والحج ، وإنما الحج في العمر مرة واحدة والصيام في السنة شهر ؟ لا يمكن ، ولهذا ما يمكن إنسان يصلي الصلوات الخمس ويحافظ عليها أن يترك الصيام .
- ثم إن هذه الأمور فرضها متقدم ، فذكرها النبي ﷺ حسب الزمن ، أما الشهادتان فقد بعث محمد ﷺ بهما ، وأما الصلاة فقد فرضت في السنة العاشرة من البعثة ، وأما الزكاة فقيل : كان فرضها بمكة ، قال تعالى : ﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٤١] والأنعام مكية ، ثم بعد الهجرة يعني مسائلها وفروعها وأنصبتها وما يخرج منها جاء بعد ذلك في المدينة ، وأما الصيام فقد فرض في السنة الثانية من الهجرة ، والحج في السنة التاسعة من الهجرة ، ففرضهما كان متأخرًا والمقصود أن النبي ﷺ بدا بالأهم والأهم .

ثم إن النبي ﷺ حتى في منهج دعوته الذي رسمه إلى معاذ بدأ بأي شيء ؟ بدأ بالتوحيد الذي هو الأهم ، ثم الصلاة تليه في الأهمية ، ثم الزكاة وكان لا بد لمعاذ أن يخبرهم عن الزكاة لماذا ؟ ، قد يقول قائل : الزكاة مثل الصيام في السنة مرة واحدة ؛ لكن الحول ينعقد بمجرد ملك النصاب فلا بد أن تخبرهم أول ما تأتي ، حتى يعرف من عنده النصاب أن الزكاة واجبة عليه ولا بد أن يخرجها بعد أن يحول عليها الحول .

في الحديث تدرج في الدعوة ، أن الإنسان يبدأ بالدعوة بالأهم:

فبالمهم المهم ابدأ لتدركه ** وقدم الأصل والآراء فاتهم

فالإنسان في كل أحواله وأموره دائمًا يبدأ بالأهم ، والدعوة أولى وأعظم ما يسلك فيها هذا المنهج كيف وقد رسمه النبي ﷺ لمعاذ .

وفيه : إشارةٌ إلى من لا يعتني بالتوحيد في دعوته ليس على شيء في نهجه وطريقته ، كثير من المناهج الدعوية لا يعتمدون التوحيد في دعوتهم زعمًا منهم أن التوحيد يفرق ، لا إله إلا الله التوحيد الذي تزكوا به القلوب والتوحيد الذي يجمع الناس كلهم على عقيدة واحدة لا يفرق ، بل هو الذي يجمع الناس .

وهذا منهج محمد ﷺ ، عشر سنين وهو يقول للناس : « **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » ، يدعوهم إلى كلمة لا إله إلا الله ، ما أمر بصلاة ولا بصيام ولا بزكاة ولا بجاهد ولا بحج ما أمر إلا بتحقيق كلمة لا إله إلا الله ، واستمر طيلة عمره وهو يدعو إلى معنى كلمة لا إله إلا الله وإلى إفراد الله سبحانه وتعالى بالعبودية ، وكل نبي يأتي قومه يقول لهم أول ما يأتيهم : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ . تأملوا هذا في هود وفي صالح وفي شعيب وفي نوح ، وفي كل أنبياء الله ورسله ، كلهم يدعون الناس إلى عبادة الله عز وجل وإلى توحيده ، أول ما يدعونهم وأعظم ما يدعونهم ، فكيف يليق بالإنسان أن يدعو الناس إلى أمور كبيرة وعظيمة لا شك ويترك ما هو أكبر الأمور وأعظمها وما به تصح هذه الأمور الكبيرة ، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة وتوحيده سبحانه وبحمده .

وهذا منهج محمد ﷺ أمر معاذًا أن يتدرج في الدعوة إن هم أطاعوك بلا إله إلا الله ادعهم إلى الصلاة ، إن هم لم يطيعوك ؟ لا تدعهم إلى الصلاة ، لا تأمرهم بالصلاة ، وهذا منهج ينبغي للإنسان أن يتبعه في دعوته ، أحيانًا قد ترى إنسان مثلاً ما يصلي وربما يعني ارتكب معصية يدخن أو يحلق لحيته وما أشبه

ذلك ، هل يليق أن تأتي وتنهاه عن التدخين وهو ما يصلي ؟ أبدأ أول ما تبدأ بالصلاة ، وربما يكتفي بدعوته إلى الصلاة ، يصلي ثم يفتح الله على قلبه ، ثم يترك كل ما يلاحظ عليه من المخالفات .

قال رحمه الله : (**ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه » . فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها**) .

قال ﷺ يوم خيبر ، وكان يوم خيبر في السنة السابعة من الهجرة ، وخيبر مدينة معروفة ، وكان فيها فئات من اليهود ، وغزاها النبي ﷺ ثم قال : (**« لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله يفتح الله على يديه »**) . فاستشرف الناس لأخذ هذه الراية ، لا طمعًا في رئاسة ولا بروز ولا ظهور ، وإنما طمعًا في محبة الله ورسوله أنه يحب الله ورسوله وأن الله تعالى يحبه وكذا الرسول ، قال عمر : ما استشرفت للإمارة إلا يومئذ . هو ما أراد الإمارة لذاتها ، وإنما أرادها للمنقبة العظيمة .

(**« يفتح الله على يديه »**) وفيه عَلَم من أعلام النبوة ﷺ حيث أخبر بالفتح قبل وقوعه .

(**فبات الناس يدوكون ليلتهم**) يخوضون ليلتهم ، طيلة الليل وهم يتحدثون وينتظرون وينظرون من يكون صاحب هذه الراية ، وكان علي رضي الله عنه قد أصيب في عينيه بالرمد ، وإذا كان أصيب بعينيه فربما لا يظن أنه سيكون صاحب

هذه الراية ، حتى قال سلمة بن الأكوع : بعث النبي ﷺ إليه فأتيت به أقوده . ما يبصر رضي الله عنه وأرضاه .

(**فلما أصبحوا غدوا**) إلى رسول الله ﷺ (**كلهم يرجو**) يطمع أن يكون صاحب هذه المنقبة العظيمة

(**فقال : « أين علي بن أبي طالب » فأرسلوا إليه فأوتي به ، فبصق في عينيه ، ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع**) .

(**فقال : « أين علي بن أبي طالب »**) ؟ وكان علي أول الأمر تخلف عن الخروج ، ثم قال : أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ ؟ ثم تبعه بعد ذلك وخرج إلى خيبر مع إصابته بعينيه .

قال : (**فأرسلوا إليه فأوتي به**) ما قال : جاء ، وهذا دليل على أنه ما كان يبصر كما قال سلمة وحديثه في ((**مسلم**)) أتيت به أقوده.

(**فبصق في عينيه**) بصق النبي ﷺ ريقه الشريف في عينيه (**ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع**) ، زال ما في عينيه من الرمد ، وشفي مما أصابه في عينيه ببركة ريق محمد ﷺ ودعائه له .

(**فأعطاه الراية فقال : « انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم »**) .

أعطاه الراية ، الآن تبين من هو صاحب الراية وتبين أنه علي ، وأن عليًا يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله. وهذه شهادةٌ له بالإيمان ظاهرًا وباطنًا ، وبموالاته لله عز وجل ، لكن هذا لا يعني أن هذا الأمر من خصائص علي رضي الله عنه ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ

يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، فمحبة الله سبحانه وتعالى لأوليائه لا يقول أحدٌ أبدًا إنها خاصة بعلي رضي الله عنه وأرضاه .

قد يقول قائل : فلماذا إذًا استشرف الصحابة لها ؟

الجواب: إنما استشرفوا لها طمعًا في هذه الشهادة ، وهي شهادة عظيمة وكبيرة لا شك ، وإلا فالله تعالى يحب عباده المتقين ، واقرؤوا كلام الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ ، ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، فمن فعل الأسباب أسباب محبة الله عز وجل طمع في نيل محبته سبحانه وبحمده .

بعث النبي ﷺ عمرو بن العاص على سرية قال : فأتيته فقلت يا رسول الله من أحب الناس إليك ؟ قال : « **عائشة** » رضي الله عنها وأرضاها ، اللهم صل عليه وسلم . قال : فمن الرجال ؟ قال : « **أبوها** » هذه شهادة لأبي بكر رضي الله عنه .

المقصود : أن الصحابة حرصوا على هذا الأمر حرصًا عظيمًا لنيل هذه الشهادة العظيمة من النبي ﷺ .

أعطاه الراية وأمره وقال له : (**« انفذ على رسلك »**) على مهلك وهونك دون عجلة ودون طيشٍ ، حتى قال له : « **ولا تلتفت** » ، في بعض الروايات ، فوقف عليٌ وصرخ ولم يلتفت - يقول الراوي - وقال : على ما أقاتلهم . قال : « **قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله** ». وفي هذه الرواية قال : (**« حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام »**) والذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

الإسلام : الانقياد والاستسلام والخضوع والتذلل لله عز وجل ، فهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله .

(**وأخبرهم**) أيضًا (**بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه**) ، يعني ادعهم إلى الشهادتين ، وأخبرهم بحقوقهما ، ومن حقوقهما الصلاة والزكاة ، وبقية الشعائر . قال ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك قد عصموا مني دمائهم وأموالهم وحسابهم على الله** » عز وجل ، فلا يكفي النطق بها ، لا يكفي أن ينطق الإنسان بها حتى يُعصم دمه وماله ، لا بد مع النطق بها من التصديق والانقياد واعتقاد المعنى ، وأيضًا التسليم بحقوقها التابعة لها ، ولهذا قال : (« **ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه** ») .

قال : (« **وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم** ») .

(« **فوالله** ») أقسم النبي ﷺ ، وفيه الحلف على الفتيا .

(« **لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا** ») لهداية رجلٍ واحدٍ بك وبسببك وعلى يديك (« **خير لك من حُمْر النعم** ») والحُمْرُ جمع حمراء ، وهي خيار الأموال وأنفسها عند العرب ، وليست بالضم حُمُر ، فهي بالضم جمع حِمار ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ ﴾ [المدثر : ٥٠] نتنبه عند قراءتها .

الشاهد من الحديث للترجمة (« **ادعهم إلى الإسلام** ») الذي هو معنى كلمة لا إله إلا الله .

(« **فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا** ») دل على فضل الدعوة إلى الله عز وجل ، ولو يهتدي على يدك رجل واحد ، وليس بالضرورة أن يطيعك الناس فيما تدعوهم إليه ، وإلا حصل عندك ما حصل وربما أصبت بالضيق وربما تركت الدعوة ، لا بل يستمر الإنسان طيلة عمره في هذا المنهج ، يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .

واعلم أن هداية القلوب بيد مقلبها سبحانه وبحمده وليست بيدك ، وما عليك إلا أن تدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولا تدري قد لا يجيبك اليوم ويجيبك بعد سنة ، أو سنوات حتى ، ما يزال يذكر هذا الموقف منك ، وهذه النصيحة الطيبة ، والكلام الطيب له ، يتذكره ، ثم يأذن الله سبحانه وتعالى لقبله بالهداية فيهتدي .

فينبغي أن نحرص على هذا الجانب ، وأن طالب العلم ليست الدعوة محاضرات وكلمات تقال ، الكلام الكثير لا يحتاج إليه في الدعوة أبدًا ، والكلام إذا كثر دايمًا ينسي آخره أوله . المسألة علمٌ وعمل ، وصدقٌ وإخلاص منك أنت يا عبد الله في دعوتك ، واترك البقية ، واترك الأمور العظيمة للعظيم سبحانه ، أن يهتدي أو لا يهتدي ، قال الله لأكرم الخلق : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ [الكهف : ٣] لعلك تهلك نفسك ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ ﴾ ، تهلكها من الحزن ، بل قال : ﴿ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ ﴾ يعني فافعل ﴿ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

هناك أمور يجب على الداعي أن يقف عندها ، إذا وصل الأمر إلى هداية القلوب قف ولا تبالغ في الأمر فتؤذي نفسك ، وربما تُنَفِّر الناس من دعوتك ، ولكن تدعو باللين وبالحكمة والرفق ، فمن اهتدى فذاك فضل الله عليه ، ومن لم يهتد فذاك عدل الله فيه ، والله المستعان .

(« **خير لك من حمر النعم** ») الدعوة إلى الله أفضل من حُمْر النعم ، خيار الإبل خيار الأموال .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ .

الثانية : التنبيه على الإخلاص ؛ لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق ، فهو يدعو إلى نفسه .

الثالثة : أن البصيرة من الفرائض .

الرابعة : من دلائل حسن التوحيد : كونه تنزيهًا لله تعالى) .

أخذناها من قوله تعالى (﴿ **وَسُبْحَانَ اللهِ** ﴾) الآية .

(**الخامسة : أن من قبح الشرك كونه مسبة لله**) .

لا شك ، الشرك مسبة لله عز وجل .

(**السادسة وهي من أهمها : إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ، ولو لم يشرك**) .

أخذناها من قوله تعالى (﴿ **وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾) ، فيبتعد عنهم بقلبه وبلسانه وبجوارحه ولا يخالطهم ، الخلطة لها تأثير ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ ﴾ ، ﴿ وَلَا

تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا ﴾ إلى أن قال : ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٢١] فمخالطتهم ربما تؤثر في الإنسان ولا قوة إلا بالله .

(**السابعة : كون التوحيد أول واجب**) .

أخذنها من قوله (**أول ما تدعوهم إليه**) ، أما عند علماء الكلام فأول واجب ليس هو التوحيد ، بل النظر ، أو القصد إلى النظر ، يروح الإنسان وينظر ويتأمل وكذا ثم يصير موحدًا ، في أمور التوحيد جُبل وفطر الناس عليه ، « **ما من مولود إلا ويولد على الفطرة** » . عندما يأتي كافر يريد أن يسلم هل نقول له : اذهب وانظر وتأمل وكذا وكذا ، هو يريد أن يسلم ، يريد أن ينطق بالشهادتين ، فأول واجب عليه النطق بهما مع اعتقاد معناهما والانقياد لهما .

(**الثامنة : أنه يُبدأ به قبل كل شيء ، حتى الصلاة**) .

كما هو نص كلام رسول الله ﷺ ، فيقال لكل من لم يهتم بالتوحيد : هذا منهج محمد ﷺ طيلة عمره .

قد يقول لك : إن النبي ﷺ يدعوا الكفار ، ونحن ندعوا المسلمين ؟

نقول : أولاً أنت لا تدعوا المسلمين فقط ، وإنما الدعوة للمسلمين وغير المسلمين ، والأصل أن الدعوة لغير المسلم ، مع أن المسلم يحتاج أيضًا إلى قدر ونصيب من الدعوة بلا شك ، لاسيما في هذه الأزمنة ، انتشر الجهل بين الناس حتى صاروا يجهلون بتوحيدهم وعقيدتهم ، فيقال لمثل هذا : نعم النبي ﷺ بعثه إلى أهل كتاب ، وقوم كفار ؛ لكن هل ترك الدعوة للتوحيد طيلة حياته ؟ حتى وهو في السكرات عليه الصلاة والسلام ، وحديث عائشة في ((**الصحيحين**)) لما نُزل برسول الله – وسيأتينا إن شاء الله – طفق يطرح

خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها وقال وهو كذلك : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » . وقال قبل أن يموت بخمس – وسيأتينا إن شاء الله – : « **ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا** » وهو ينهى هنا الخيرة ، خيرة الناس ومن هم أبعد الناس عن الوقوع في مثل هذه الأمور ، استمر يدعو إلى آخر حياته وهو في مرض الموت كما سيأتينا إن شاء الله .

(**التاسعة : أن معنى « أن يوحدوا الله » ، معنى شهادة أن لا إله إلا الله**) .

لأنه قال : (**وفي رواية : « إلى أن يوحدوا الله »**) .

(**العاشرة : أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها ، أو يعرفها ولا يعمل بها**) .

من أهل الكتاب ولا يعرف ، ولهذا أمر النبي ﷺ معاذ أن يدعوهم إلى لا إله إلا الله ، هذه دلالة على أنهم لا يعرفونها .

(**الحادية عشرة : التنبيه على التعليم بالتدريج .**

الثانية عشرة : البداءة بالأهم فالأهم) .

التدرج ، التدرج في التعليم وفي الدعوة ، ويُبدأ بالأهم فالأهم .

(**الثالثة عشرة : مصرف الزكاة .**

الرابعة عشرة : كشف العالم الشبهة عن المتعلم) .

(**كشف العالم الشبهة عن المتعلم**) « **تأتي قومًا أهل كتاب** » وعندهم شبهات ، فيحتاج طالب العلم إلى معرفة شبهات القوم قبل أن يدخل معهم ، ولهذا دائمًا يوصى بقراءة كتاب الله وتدبره وتأمله ، والنظر في سنة المصطفى ﷺ ، وفي نهجه

في دعوته حتى يكون مع الإنسان ذخيرة ، وحتى يجيب على الشبهات ، يعني من طرق بعض المغرضين أن يأخذوا شبهاتهم من كتاب الله عز وجل ، كما فعل النصارى عندما استدلوا على النبي ﷺ بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] قالوا : هذه صيغ الجمع ، خمس صيغ تدل على التعدد عياذًا بالله ، وتركوا الآيات التي فيها الوحدانية وهي كثيرة جدًّا ، هذه طريقة الزائغين ، إذا كان الإنسان عنده معرفة بالشبهات قبل أن يدخل في هذا الأمر يدفع مثل هذه الشبهات ، مع أن الإنسان إذا احتاج إلى هذا الأمر ، أما إذا لم يحتج فالأحسن أن لا ينظر في مثل هذه الشبهات ، فإن أوردت عليه فسيجد جوابها إن شاء الله ؛ لأنه لا يأمن أن يعلق في ذهنه شيءٌ من هذه الشبهات .

(الخامسة عشرة : النهي عن كرائم الأموال .

السادسة عشرة : اتقاء دعوة المظلوم .

السابعة عشرة : الإخبار بأنها لا تحجب .

الثامنة عشرة : من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء .

التاسعة عشرة : قوله : « لأعطين الراية » . إلى آخره علم من أعلام النبوة) .

يعني في قوله : « **يفتح الله على يده** » عَلَم أي دليل على نبوته ﷺ .

(العشرون : تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا) .

بريقه شُفي علي رضى الله عنه وأرضاه ، هذا دل على أنه رسول الله حقًّا .

(الحادية والعشرون : فضيلة علي رضي الله عنه) .

لا شك ، هذا شيخ الإسلام يقول : أصح ما ورد في فضل علي رضي الله عنه .

(**الثانية والعشرون : فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح**) .

بشارة الفتح عظيمة ، النبي ﷺ بشر قال : « **يفتح الله على يديه** » ، هذا أمر يُفرح به ؛ لكنهم شُغلوا بنيل هذه المنقبة العالية ، وهي محبة الله عز وجل ومحبة الرسول .

(**الثالثة والعشرون : الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ، ومنعها عمن سعى**) .

فعلوا الأسباب رضي الله عنهم ، وداكوا ليلتهم وحرصوا عليها ومع ذلك لم تحصل لهم ، وإنما حصلت لمن لم يسع إليها ؛ ولعله لم يفكر رضي الله عنه أن يكون صاحبها ، كيف وهو مرمود لا يبصر ، ومع ذلك حصلت له ، فدل على الإيمان بالقدر ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

(**الرابعة والعشرون : الأدب في قوله : « على رسلك » .**

الخامسة والعشرون : الدعوة إلى الإسلام قبل القتال) .

(**الدعوة إلى الإسلام قبل القتال**) ، فإن كان القوم لم يبلغهم الإسلام وجبت دعوتهم أولًا ، وكان النبي ﷺ يبعث إلى العرب وقبائلهم من يدعوهم إلى الإسلام ، فإن بلغتهم الدعوة كانت دعوتهم ثانيةً قبل غزوهم مستحبة ، وقد أغار النبي ﷺ على بني المصطلق وهم غارُّون ، لأنهم قد بلغتهم الدعوة .

(**السادسة والعشرون : أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا**) .

مشروعٌ أن يُدْعَوا حتى ولو دعوا قبل ذلك ؛ لكن ليس بواجب .

(**السابعة والعشرون : الدعوة بالحكمة لقوله : « أخبرهم بما يجب عليهم » .**

الثامنة والعشرون : المعرفة بحق الله في الإسلام .

التاسعة والعشرون : ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد .

الثلاثون : الحلف على الفتيا) .

من قوله ؟ (**« فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا »**) .

أحسنتم وبارك فيكم ووفقكم

شرح كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

(**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**

وقول الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧]) .

(**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**) مناسبة هذا الباب للكتاب والأبواب قبله ، أن المؤلف رحمه الله لما ذكر التوحيد وفضله ، وتحقيقه ، والخوف من ضده والدعوة إليه ، كأن النفوس اشتاقت إلى معرفة هذا الأمر العظيم ، والذي بلغ من شأنه أن الإنسان لو لقي ربه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بهذا التوحيد غفر الله له ولَقِيَهُ بقرابها مغفرةً ، فكأن إنسانًا يقول : بينوا لنا هذا التوحيد واذكروا لنا شيئًا من معانيه ، حتى يخلص الإنسان دعوته وعبادته لربه ، وحتى يتوجه بقلبه إلى مولاه ، ما يلتفت يمنةً ولا يسرة ، فلا يدعو إلا الله ، ولا يستغيث إلا بالله ، ولا يطلب المدد إلا من الله ، ولا يذبح إلا لله ، ولا يرغب ولا يرهب ولا يتوكل إلا على مولاه ، لا يعبد أحدًا من الخلق ولا يدعوه ولا يستعين به ولا يستغيث به كائنًا من كان حتى ولو كان ملكًا مقربًا أو نبيًّا مرسلاً ،

بل قلبه متوجه إلى ربه سبحانه وبحمده . فاذكروا لنا شيئًا من معاني هذا التوحيد حتى يظفر الإنسان بالمطلوب ، ويسلم من ضده وهو المرهوب ، فإن التوحيد :

- يتضح بحقيقته ومعناه ،
- ويتضح أيضًا بضده كما مر وبضدها تتبين الأشياء .

فقال رحمه الله زيادة في إيضاح هذا الأمر الكبير العظيم ، والذي من أجله خُلق الخلق والدليل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، ومن أجله بعثت الرسل والدليل ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، ومن أجله شرع الجهاد في سبيل الله ، وبه بعث جميع الرسل ، والدليل ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وكذلك ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ ﴾.

فهذا التوحيد العظيم ، وهذه بعضٌ من أحكامه ، ومن أوصافه ، فاذكروا لنا شيئًا من معانيه .

المؤلف قدس الله روحه يقول : (**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**) . معروف في اللغة أن العطف يقتضي المغايرة ، ما معنى المغايرة ؟

دائمًا أقول لكم : تمر معلومة فيحفظها الإنسان ، ثم يرجع ويسأل نفسه هل فهمتها أم لا ؟ فإذا مرت بك معلومة فسل نفسك ما معنى المغايرة ؟ أن المعطوف غير المعطوف عليه ، تقول : جاء زيدٌ وعمرو . جاء فعل ماضي ، زيد فاعل ، الواو حرف عطف ، وعمرو معطوف على زيد ، أين المعطوف ؟ عمرو ، والمعطوف عليه ؟ يعني كأنك عطفت وانعطفت وملت إلى شيء ، في هذا

المثال عُطف عمرو ورُدَّ على زيد في الحكم ؛ لأن الواو تقتضي اشتراك المتعاطفين في الحكم وهو المجيء ، هنا المغايرة في اللفظ وفي المعنى ، فعمرو غير زيد لفظًا ومعنًى . لكن أحيانًا تكون المغايرة باللفظ والمعنى واحد ، اقرأ قول الله عز وجل بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴾ [الأعلى : ١ – ٤] الألفاظ تختلف تمامًا ؛ لكن المعنى واحد ، فالذي خلق هو الذي قدَّر وهو الذي أخرج المرعى سبحانه وبحمده ، وقول الله عز وجل : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل : ١] . القرآن هو الكتاب ، الاختلاف إنما هو في اللفظ ، إذًا المغايرة في اللفظ ، وهنا (**باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**) المغايرة في اللفظ ، والمعنى واحد . **فمعنى التوحيد – والمراد بالتوحيد هنا :** توحيد الألوهية– معنى التوحيد هو معنى كلمة لا إله إلا الله ، وقل حتى توحيد الربوبية والأسماء والصفات ؛ لأن تعريف التوحيد مر بنا أنه إفراد الله بألوهيته وربوبيته ، وأسمائه وصفاته ، بحيث يشمل أنواع التوحيد الثلاثة ، فأراد المؤلف بيان التوحيد ، وبيان شهادة أن لا إله إلا الله .

وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله هما الركن الركين للإسلام ، فلا يصح إسلام إنسان ولا صلاته ولا صيامه ما لم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله لا معبود حقٌّ إلا الله ، والمعنى سبقت الإشارة إليه ؛ لكن هذا الكلام يكرر لا بد.

(**إله**) : من قولهم أَلَهَ ، بمعنى عبد ، فهو المألوه المعبود سبحانه وبحمده ، وعبادته حقٌّ لا شك فيه .

ما الدليل على أن الإله معناه المألوه المعبود ؟ لأن معنى لا إله إلا الله عند طوائف أهل الكلام: لا خالق إلا الله ، ولهذا التوحيد عندهم توحيد ربوبية فقط ، ما فيه توحيد ألوهية ، فما دليلكم على أن الإله هنا هو المألوه المعبود ، وأنا قلت لكم : لا بد أن يكون الدليل دائمًا بين عينيك ، لا يمكن أن تقنع الآخرين بمجرد كلامٍ تقوله هكذا. يعني من أقرب الأدلة ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] ، معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ رَحِمَهُ اللهُ لا نعبد إلا أنت ، وتقديم المعمول (إياك) يدل على الحصر ، وأيضًا الأدلة كثيرة ، قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٦٤] . كلمة واحدة ، وهي كلمة التوحيد ، وهي في الآية: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ ، ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ ﴾ لم يقل ربنا : أن نعتقد أن الله خالقنا ، ثم قال : ﴿ إِلَّا اللهَ ﴾ ، هذا هو معنى كلمة لا إله إلا الله ، والأدلة في هذا كثيرة ، وكل نبي يأتي إلى قومه ماذا يقول ؟ ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ ما يقول : اعتقدوا أن الله القادر على الاختراع ، أو أن الله المستغني عما سواه ، المفتقر لمن عداه ، أو أن الله الخالق وما أشبه ذلك .

ولهذا نحتاج أن نعرف إعراب كلمة لا إله إلا الله وسبق أن ذكر ، الإعراب مهم لطالب العلم ، الله يغفر للمشايخ كان النحو عندهم مهمًا جدًّا ، الشيخ محمد إبراهيم الله يرحمه يقرأ عليه عدة كتب ((**ملحة الإعراب**)) و((**قطر الندى**)) و((**الألفية**)) ولا يرغبون في قراءة اللحّان الذي يلحن ، يرفع وينصب من كيسه .

فالإعراب: (لا) نافية للجنس ، تنفي القليل والكثير ، (إله) اسم لا النافية للجنس مبني على الفتح في محل نصب ، وخبرها محذوف ، تقديره حقٌّ ، والدليل على أن الخبر تقديره حقٌّ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ﴾ ، ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ [يونس : ٣٢] ، (إلا) أداة استثناء وحصر ، ولفظ الجلالة (الله) بدل من الخبر المحذوف ، هذا إعرابه عند أهل السنة .

لكن إعرابه عند أهل المقالات والفرق (لا) نافية للجنس ، (إله) اسمها ؛ ومعنى (إله) عندهم خالق ، وتقدير الخبر عندهم موجود ، يقولون : لا خالق موجود ، أو لا خالق في الوجود إلا الله . وكلكم والمسلمون يعلمون أن مشركي العرب في الجاهلية لم يكن لديهم ذرة شك في أن الله هو الخالق ، فلو كان معنى هذه الكلمة لا خالق لقالوا للنبي ﷺ عندما قال لهم : « **قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** » لقالوا : قلناها ونقولها ولا نزال نقولها . ولم يقفوا في وجه دعوته ويقاوموه ، بل ماذا قالوا كما ذكر الله عنهم : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص : ٥] ، ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ ﴾ يعني جعل الخالق خالقًا واحدًا ؟ ، هم أبدًا لم يكونوا يشكون أن الخالق ، والدليل ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] في عدة آيات في كتاب الله عز وجل ، فتوحيد الربوبية المعتمد عند كثير من الناس موجود في الجاهلية ، وأهل الجاهلية يقرون به في الجملة .

ثم ذكر المؤلف الآية الأولى وقبلها قوله عز وجل : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٦]

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ اسم موصول ، والاسم الموصول يفيد العموم ، ادعوا من شئتم كائنًا من كان المدعو ، حتى ولو كان أصلح الناس وأفضل الناس ، من دون الله عز وجل ، فهم لا يملكون كشف الضر إزالة الضر عنكم ، ولا تحويله عنكم إلى غيركم .

بل حالهم هؤلاء المدعون أنهم (﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾) .

(﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾) يدعون فعل مضارع مرفوع بثبوت النون من الأفعال الخمسة ، والفاعل الواو هنا الضمير يرجع إلى الداعين ، إلى هؤلاء المشركين ، أولئك الذين تدعونهم ، وهذا الضمير يسمونه العائد عائد الاسم الموصول محذوف ، يعني هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله عز وجل ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ الضمير هنا يبتغون يرجع إلى المدعوين وهم الملائكة والأنبياء والصالحون ، وعن ابن مسعود في البخاري أنهم كانوا يدعون جنًّا فأسلموا ، فكانوا يدعونهم من دون الله عز وجل ، وحالهم أنهم يتوسلون إلى الله عز وجل .

ومعنى (﴿ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ﴾) ، الوسيلة هي الحاجة ، أي أنهم يتوسلون إلى ربهم ويطلبون حاجاتهم من الله عز وجل ، ويعتقدون أن ربهم هو الذي يقضي الحاجات لا أن المخلوقين هم الذين يقضون الحاجة ، ويرد على ألسنة كثيرين أن الولي فلان والسيد فلان قاضي الحاجات تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ، فقضاء الحاجات إنما هي بيد رب الأرض والسماوات سبحانه

وبحمده ، ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

(﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾) يعني هؤلاء المدعون وهم الخيار ملائكةٌ وأنبياء وصالحون يرجون رحمة الله عز وجل ويخافون عذابه ، فإذا كانوا يرجون ربهم ويخافونه ، فهل يصح أن يرجوهم أحد مع الله ، أو يخافهم مع الله خوف سر ؟ لا يجوز بحال من الأحوال .

وفي الآية بيان إلى ما ينبغي أن يكون عليه المسلم ، وأنه يجب عليه أن يكون بين الخوف وبين الرجاء كجناحي طائر ، هذا في حال الصحة ؛ لكن في حال الموت قالوا : يغلب جانب الرجاء .

(﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾).

ما هو معنى التوحيد الذي قصده المؤلف في هذه الآية ؟

معنى التوحيد : ترك ما عليه المشركون من دعوة الصالحين والاستشفاع بهم إلى الله عز وجل ، يعني ترك هذا الأمر الذي كان عليه المشركون في الجاهلية ، وإذا تركنا هذا الأمر وجب أن تكون الدعوة إلى الله عز وجل ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥ ، ٥٦] .

(وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٦ – ٢٨]) .

(﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾) أي اذكر يا محمد مقالة إبراهيم حينما قال لأقرب الناس إليه نسبًا وهو أبوه وقال لقومه أيضًا : (﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴾) فهو يتبرأ من عبادة غير الله عز وجل مما كان عليه أبوه وقومه ، تبرأ من المعبودين ، بل وتبرأ من العابدين أنفسهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٤] فتبرأ من معبوده وتبرأ منه وتبرأ من قومه .

فإبراهيم يعلن البراءة من كل معبود إلا من معبود واحد وهو (﴿ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴾) معنى فطرني خلقني . فإذا كان هو الذي خلقني فهو المستحق للعبادة دون ما سواه ، أما آلهتكم التي تعبدونها فما خلقت ولا نصرت ، ولا ضرت ، ولا نفعت ، فأي شيء فيها تستحق من أجله العبادة ؟ حتى إن الله تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ لاحظوا النداء ما يكون إلا للفت الانتباه على أمر مهم ﴿ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ ما هذا المثل ؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، انظروا إلى التدرج لن يخلقوا ذباب حتى ولو اجتمعوا حتى ولو سلبهم الذباب ، يعني ما هو أدنى من الخلق ، خطف الذباب منه شيئًا ما يستطيع أن يستنقذه منه فكيف إذًا يصح أن يعبد من دون الله عز وجل .

(﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾) يعني جعل هذه الكلمة وهي البراءة من الشرك والمشركين (﴿ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ﴾) من بعده في كل من يعقبه على عقيدته وتوحيده (﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾) إليها .

وهذه الآية تضمنت معنى من معاني التوحيد ولازمًا من لوازمه وهذا اللازم هو إظهار البراءة من الشرك ومن المشركين وموالاة المؤمنين المخلصين في توحيدهم وعبادتهم لرب العالمين .

(وقوله : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣١]) .

(﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾) يعني جعلوا أحبارهم ، والأحبار جمع حَبْرٍ ، ويقال : حِبْر أيضًا ، وهم العلماء ، (﴿ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾) جمع راهب وهم العُبَّاد ، (﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) جمع رب ، جعلوهم أربابًا من دون الله عز وجل ، (﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾) أي اتخذوا المسيح ابن مريم ربًّا وإلهًا لهم ، وما أمرهم بذلك المسيح ، بل المسيح أول كلمة قالها عندما جاءت به أمه عليها السلام مريم ، وقد نذرت للرحمن صومًا عن الكلام ، وهذه حكمة من الله عز وجل حتى يبين براءتها وطهرها مما قذفوها به ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم : ٢٧ ، ٢٨] الله أكبر ، امرأة من خيار نساء العالمين ، كمل من الرجال كثير ، وكمل من النساء آسية بنت مزاحم ومريم عليها السلام ، ومع ذلك تتهم كما اتهمت أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها بما برأها الله تعالى منه من فوق سبع سماوات . وهذا من فضلهم

وطهرهم وشرفهم أن يتناولهم هؤلاء بما يقولونه وما ينسبونه إليهن ، حتى قال ربنا في معرض الدفاع عن عائشة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ﴾ [النور : ١١] يعني حسم الأمر ، شهادة من الله عز وجل بطهرها رضي الله عنها وأرضاها . وهنا مريم عليها السلام أشارت إليه ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩] ، يستحيل أن يتكلم هذا الصبي ، فماذا قال هذا الصبي ؟ ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ [مريم : ٣٠] ، وكأنه يعلم أن فئامًا ممن يدعون اتباعه سيعتبرونه ربًّا وإلهًا لهم مع الله عز وجل ، فقال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ ، ولهذا قال الله له : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] ؟ فماذا قال ؟ ﴿ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ قوله عليه السلام : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ كونه ينص على نفسه فيقول : أنت يا رب تعلم ما في نفسي . إشارة إلى أن هذا الأمر لم يدر حتى في خاطره ، ما دار حتى في خلده ونفسه وخاطره فضلاً عن أن يقوله ويدعوا الناس إليه .

(﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ﴾) ، يعني هؤلاء الذين اتخذوا الأحبار والرهبان من اليهود والنصارى (﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) ، فما أمرهم أنبياؤهم ، موسى ما أمر بني إسرائيل إلا ليعبدوا الله عز وجل ، وعيسى عليه السلام ما أمر قومه إلا ليعبدوا الله عز وجل (﴿ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) ، وإنما اتخذهم من اتخذهم ممن يدعي اتباعه اتخذوهم أربابًا من دون الله .

جاء عدي بن حاتم الطائي – عدي وأبوه حاتم المعروف بالكرم – إلى النبي ﷺ ، وكان عليه صليب من ذهب ، فقال : « **انزع عنك هذا الوثن** » وقرأ عليه هذه الآية (﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾) قال : قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدهم . يعني ما نعبدهم ، قال : « **أوليسوا يحرمون الحلال ويحلون الحرام فتطيعونهم** » ؟ قلت : بلى . قال : « **فتلك عبادتهم** » . في بعض الروايات قال : فإني حنيفي مسلم . رضي الله عنه وأرضاه قال : إني حنيفي مسلم . فتهلل وجه النبي ﷺ لما دخل في الإسلام . وذكر له آيات رآها ، ذكر له أن ضعينة تسير من كذا إلى كذا ، من الحيرة إلى المدينة لا تخاف إلا الله عز وجل ، قال : قلت في نفسي أين لصوص طي ؟ معروف أن العرب معروفين بقطع الطرق ، قال : وقد رأيته . وأخبره عن فيض المال ، قال : وأنا أنتظر ، أمر أخبر به الرسول ﷺ لا بد أن يقع ، وقد فاض المال ، ولعله أدرك شيئًا من ذلك رضي الله عنه وأرضاه .

فمعنى التوحيد في هذه الآية هو إفراد الله بالطاعة في التحليل والتحريم ، فلا حلال إلا ما أحله ، ولا حرام إلا ما حرمه ، ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل : ١١٦] . فمن أحل حرامًا ، أو حرم حلالاً وأطاعه من أطاعه في التحليل والتحريم عالمًا عامدًا فقد اتخذه ربًّا مع الله عز وجل ، أما إذا كان مجتهد فأخطأ فهو مأجور حتى في خطئه ، أو كان جاهلاً أو ما أشبه ذلك ، وسيأتي زيادة بيان في باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل إلى آخره .

(وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]) .

(﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾) هذه الآية في التفسير تأتي إن شاء الله ، الآية التي قبلها ما هي ؟ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] والتي قبلها ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، ما العلاقة بين الآيات ؟

﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ لما ذكر تعالى وحدانيته وتفرده بالألوهية دون ما سواه أقام على ذلك الأدلة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ ﴾ لمن ؟ ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ لأصحاب العقول ، يهتدون بهذه الآية ويقرون بوحدانية الله عز وجل .

طيب (﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ ﴾) ما العلاقة ؟ هؤلاء لا يعقلون رغم وضوح الآيات وقيام الحجج والبيانات ، إلا أنه يوجد من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا .

والند : الشبيه والمثيل ، يقولون المناوئ ، المعاند .

هل المشركون يحبون الله ؟ نعم يحبون الله ، والدليل قوله : (﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾) عز وجل ، إذاً صاروا مشركين بشركهم بالمحبة ، والمحبة هي قاعدةٌ من قواعد العبادة ، وأساسًا عظيم من أسسه ، وقد مر بنا معنى العبادة ، رَحِمَهُ اللهُما معنى العبادة ؟ التذلل لله محبة وتعظيمًا يجمع بين التذلل والتعظيم وبين المحبة .

قال ابن القيم :

وعبادة الرحمن غاية حبه ** مع ذل عابده هما قطبان

محبة وتذلل وخضوع وتعظيم لله عز وجل ، فهؤلاء المشركون يحبون أندادهم ويحبون الله ، ولكنهم سووا بين الله عز وجل وبين آلهتهم في المحبة ، لهذا كانوا مشركين ، فكيف بمن أحب الأنداد أكثر من الله ؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده كما ذكره الشيخ رحمه الله .

(﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾) أشد حبًّا لله من هؤلاء المشركين لأندادهم ، بل وحتى لله عز وجل ؛ لأن محبتهم لله خالصة ، لا يشوبها قدر ، ولا يخالطها محبة لله عز وجل .

والمحبة المقصودة هنا كما ذكر ، هي محبة التذلل ، وهناك أنواع من المحبة تأتي إن شاء الله تعالى ؛ لكن المحبة التي هي من العبادة هي المحبة التي يصحبها الذل والخضوع والتعظيم .

فمعنى التوحيد هنا هو إفراد الله بالمحبة الكاملة المقتضية للتأله والذل والخضوع له سبحانه وبحمده .

(**وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « من قال : لا إله إلا الله . وكفر بما يُعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله عز وجل » .**

وشَرَحَ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) .

المعروف والذي نعرفه شَرْحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

قال في الحاشية : (**قوله : شَرَحَ . كذا بفتح الحاء ، وفي بعض النسخ شَرْحُ بالضم ، وعلى الفتح تكون الجملة فعلية ، وعلى الضم تكون الجملة اسمية ،**

وكلاهما يؤدي الغرض نفسه ، والمعنى أن الأبواب الآتية في جملتها تفسير وبيان لمعنى التوحيد) .

لكن المشهور هو : شرْحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب .

هذا الحديث هو حديث أبي مالك الأشجعي سعد بن طارق بن أشيم عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : « **من قال : لا إله إلا الله . وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله ، وحسابه على الله عز وجل** » .

(« **من قال : لا إله إلا الله** ») ، تكلم بها ، عالمًا بمعناها ، عاملاً بمقتضاها ، ما يكفي قولها باللسان ، وكثير من المسلمين يقولها وهو لا يفقه معناها ، وهذا من تقصيرنا في تعليم الناس أعظم كلمة وبيانها وإيضاحها لهم ، فيقولها بلسانه ، ويعرف معانها ، ويعتقدها في قلبه ، ويعمل بمقتضاها بجوارحه ، ويضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله .

في رواية في ((**مسلم**)) « **من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله** » .

إذًا لا يكفي أن يقول : لا إله إلا الله . بل لا بد أن يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله ، ولذا ذكر الشيخ في المسائل كما سيأتي كلام نفيس ، يدل على أنه ما يكفي القول ، بل ولا فهم المعنى ، بل ولا الإقرار بها ، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله عز وجل ما لم يضف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله عز وجل ، فإذا قال : لا إله إلا الله . وكفر بما يعبد من دون الله حرم دمه وماله ، صار مسلمًا له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ، حتى ولو قالها في القتال والدليل حديث أسامة المخرج في ((**الصحيحين**)) بعثنا النبي ﷺ في سرية ، فصبحنا الحُرقات من جهينة ، فأدركت رجلاً فقال : لا إله إلا الله . فطعنته

بالرمح ، فوقع في نفسي من ذلك ، فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال : « **قتلته وقد قال : لا إله إلا الله** » ؟ قال : إنما قالها خوفًا من السلاح . قال : « **هلا شققت عن قلبه لتنظر أقالها أم لا** » يعني قالها خوف من السلاح ، ثم ما زال يكررها عليّ « **قتلته وقد قال : لا إله إلا الله** » ، حتى تمنيت أني أسلمت الآن . يعني في هذه اللحظة حتى لا يؤاخذ بما حصل منه ، وهذا يدل على عظم هذه الكلمة ، عظم شأنها ومكانتها ، ويدل على حرمة دم من قال : لا إله إلا الله . قد أخبر النبي ﷺ أنه في آخر الزمان يكثر الهرج والحديث في الصحيح ، والهرج هو القتل ، وأيضًا يحصل استخفافٌ بالدماء ، يستخف الناس بالدماء ويتهاونون بها ، فيقتل الإنسان عياذًا بالله لأدنى شبهة . والإنسان كما في الحديث « **لا يزال في فسحة من دينه ما لم يصب دنيا** » . فالواجب : التنبه لهذا الأمر ، وعدم التهاون بهذه الأمور ، وعدم استباحة واستحلال دماء المسلمين ، وأن الأمر جِدٌّ خطير ، وفي الحديث « أول ما يقضى بين الناس » بأي شيء ؟ أول ما يقضى بين الناس في الدماء .

إذًا (**« من قال : لا إله إلا الله . وكفر بما يُعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه »**) ولم يجوز التعدي عليه بحالٍ من الأحوال .

الصحابة في الحديبية ردهم المشركون ، وصدوهم عن المسجد الحرام وهم أولياؤه ، وما كان المشركون أولياء له ، ونحروا هديهم بالحديبية بدلاً من أن ينحروه في المسجد الحرام ، قال الله عز وجل : ﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الفتح : ٢٥]

. يعني تقتلوهم وأنتم لا تعلمون بهم ، لولا وجود هؤلاء المؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم لا تعلمونهم أيضًا لولا ذلك لسلطناكم عليهم ؛ لكن لوجود هؤلاء المؤمنين كفى الله تعالى بعضهم عن بعض حقنًا لدماء هؤلاء المؤمنين المقيمين بين ظهراني المشركين ، مع أنه قد يقتل من المشركين قومٌ كُثر ؛ لكن وجود هؤلاء المؤمنين بينهم لذلك لم يأذن الله لهم بقتالهم ، فدل على حرمة دم المسلم في أي مكان .

(« **حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله عز وجل** ») ، أنت تأخذ بظاهره ، ولهذا قال عليه السلام لأسامة : « **هلا شققت عن قلبه** » ولما قال ذو الخويصرة للنبي ﷺ : اعدل قال : « **اتق الله** » اللهم صل عليه وسلم ، قال : « **ويلك من يعدل إذا لم أعدل ، أولست أحق من أن يتقي الله** » ؟ فلما أدبر قال خالد : ألا أقتله يا رسول الله ؟ قال عليه السلام : « **لعله يكون يصلي** » ، قال خالد : كم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، يصلي باللسان والقلب ، فماذا قال النبي ﷺ ؟ « **ما أُمرت أن أشق صدور الناس ولا أن أنقب عن صدورهم** » ، أو « **قلوبهم** » ، أو كما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام . ما تنطوي عليه الصدور لا يعلمه إلا من بيده قلوب العباد سبحانه وبحمده ، فليس لنا إلا الظاهر .

واختلف العلماء في توبة الزنديق وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر كالمنافق :

- فالشافعي رحمه الله يرى قبول توبته .
- ومذهب أحمد ومالك عدم قبول توبته ؛ لأنه ما يجد منه جديد ، هو كان يظهر الإسلام فإذا تاب فما الذي يدل على إسلامه .

قال الله عز وجل في المنافقين : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١٤٥ ، ١٤٦] هذه القيود إذا اجتمعت قبلت التوبة .

وفي الحديث أنه لا يكفي أن يقول لا إله إلا الله ، بل لا بد أن يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله عز وجل .

قال المؤلف : (**وشَرْحُ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**) ، أو (**شَرَحَ هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب**) ، يعني جميع الأبواب التي تأتي هي تفسيرٌ للتوحيد ؛ لأنه كما ذكر تفسير التوحيد يكون بأمرين :

- ببيان معناه وحقيقته كما تقدم في الأبواب السابقة .
- ويكون أيضًا بضده .

ولهذا سيشرع المؤلف رحمه الله تعالى في الحديث عن الشرك في الباب الذي يليه ، وفي بيان الشرك وإيضاحه بيان للتوحيد وتفسيرٌ له ، كما قال رحمه الله تعالى .

قال : (**فيه أكبر المسائل وأهمها وهي : تفسير التوحيد ، وتفسير الشهادة ، وبيَّنها بأمور واضحة .**

منها : آية الإسراء ، بيَّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين ، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر) .

إذًا معنى التوحيد في الآية الأولى هو ترك ما عليه المشركون من دعوة غير الله عز وجل ، وإفراده تعالى بالدعاء دون ما سواه .

(ومنها : آية براءة ، بيَّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، وبيَّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلهًا واحدًا ، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه طاعة العلماء والعباد في المعصية ، لا دعاؤهم إياهم) .

إذًا ما معنى التوحيد في الآية (﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ ﴾) ، إفراد الله تعالى بالطاعة في التحليل وفي التحريم .

(ومنها : قول الخليل عليه السلام للكفار : ﴿ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ . فاستثنى من المعبودين ربه ، وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله ، فقال : ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾) .

إذًا تفسير لا إله إلا الله هنا البراءة من المشركين وموالاة الموحد .

(ومنها : آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم : ﴿ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ . ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله ، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ، ولم يدخلهم في الإسلام ، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله ؟ وكيف بمن لم يحب إلا الند وحده ولم يحب الله) ؟

إذًا معنى التوحيد هنا إفراد الله بالمحبة المقتضية للتذلل والخضوع والتعظيم .

(ومنها قوله ﷺ : « من قال : لا إله إلا الله . وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه ، وحسابه على الله » . وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله) .

هذا كلام نفيس ذكره الشيخ في بيان مدلول هذا الحديث .

(**فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال**) .

فالتلفظ لا يكفي ، والدليل (**« وكفر بما يُعبد من دون الله »**) فلم يقل: (من قال : لا إله إلا الله حرم دمه) ، بل لا بد مع قولها من الكفر بما يعبد ، في حديث ابن عمر المخرج في ((**الصحيحين**)) « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل** » .

فإن لـ (لا إله إلا الله) حقوق ، يقول أهل العلم النطق بها: دليل العصمة وليس العصمة ، إنما العصمة النطق بها والقيام بحقها ، ولما أراد أبو بكر أن يقاتل المرتدين - والأثر في ((**الصحيح**)) - قال عمر : كيف تقاتلهم وقد قال النبي ﷺ : « **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله** » ؟ فقال رضي الله عنه وأرضاه : والله لأقاتلن من فرّق بين الصلاة والزكاة ، والله لو منعوني عَناقًا أو عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله قاتلتهم عليه . فإن هذا من حقها ، الزكاة من حقوق كلمة لا إله إلا الله ، قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقاتل فعلمت أنه الحق .

قال : (**وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله ، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال ، بل ولا معرفة معناها مع لفظها**) .

(**بل ولا معرفة معناها**) حتى لو قال : لا إله إلا الله . وقال : أنا أعرف معناها ، لا معبود بحق إلا الله . ما يكفي ، هذه قد يقولها أحيانًا غير المسلم ، يقول : أنا أعرف لا إله إلا الله وأعرف معناها ، فما يكفي هذا .

(**بل ولا الإقرار بذلك**) .

بل ولا حتى الإقرار ، لو قال : أنا أقولها وأفهم معناها وأعتقدها في قلبي ، أقر بها ، ما يكفي هذا.

(**بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له**) .

بل ولا كونه لا يدعو إلا الله عز وجل ، فلو قال قائل: أنا أقول لا إله إلا الله ، وأعرف معناها وأقر بهذا المعنى في قلبي ولا أدعو غير ربي ، فإذا قيل له هناك أناس يدعون غير الله ، قال كلٌّ وما يريد ، فكونه لا يكفر بما يعبد من دون الله عز وجل ولا ينكر على من دعا غير الله عز وجل ، لا يكفيه هذا . إذًا لا يكفي:

- قولها .
- **ثانيًا** : ولا معرفة معناها .
- **ثالثًا** : ولا الإقرار بها واعتقادها .
- **رابعًا** : ولا كونه لا يدعو إلا الله عز وجل .

ماذا بقي إذًا ؟

قال : (**بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله**) .

هذه فائدة ذكر هذه الكلمة العظيمة (**« وكفر بما يُعبد من دون الله »**) إشارة إلى أن هناك من يقولها ؛ لكن لم يكفر بما يُدعى من دون الله عز وجل ، فيرى الناس يدعون غير الله ، يستغيثون بغير الله ، يطلبون المدد من غير الله ، ويستغيثون بالأولياء وبالصالحين ، حتى وهم في أشد الأمور وأعظم الخطوب ، حتى ولو كان في البحر وخشي من الغرق ، يدعو الولي أو يدعو السيد ، يراهم

ولا يعلمهم ولا ينكر عليهم ، فلا يكفي أن يقولها ولا أن يفهمها ولا أن يعتقدها ويقر بها ، ولا أن يلتزم بها في دعوته أيضًا حتى يضيف إلى هذا الكفر بما يعبد من دون الله .

قال الشيخ : (**فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ولا دمه**) .

إذا كان شك أو توقف في هذا الأمر ، شك في الكفر فيما يعبد من دون الله أو توقف فيه ، قال : أنا أقولها فقط والبقية ، لا يكفيه ذلك .

(**فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها**) .

يا لها من مسألة ما أعظمها كلمة لا إله إلا الله عظيمة ، ومسألة كبيرة ، ولهذا يتأكد علينا أن نربي أبناءنا عليها وأن نوضح لهم معنى هذه الكلمة مع كثرة الخلط فيها مع الأسف الشديد ، وأن يعرفوا ربهم فبمعرفة هذه الكلمة وحقيقتها يعرف الإنسان ربه ويعظم ربه سبحانه وبحمده ، وبجهله بمعناها كيف يكون موحدًا الله المستعان .

قال : (**فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلها ، ويا له من بيان ما أوضحه ، وحجة ما أقطعها للمنازع**) .

بيان واضح تمام الوضوح قال : (« **لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله** ») . وهي حجة جلية واضحة أيضًا لكل من ينازع في هذا الأمر .

إذًا معنى التوحيد في هذا الحديث هو الكفر بما يعبد من دون الله عز وجل .

تضمن هذا الباب عدة معانٍ للتوحيد :

الأول : ترك ما عليه المشركون من دعوة غير الله عز وجل.

الثاني : البراءة من الشرك وأهله .

الثالث : إفراد الله بالطاعة في التحليل والتحريم .

الرابع : إفراد الله بالمحبة المقتضية للذل والخضوع .

الخامس : الكفر بما يعبد من دون الله عز وجل .

وبهذا يتضح التوحيد ويتبين معناه وحقيقته ثم تأتي بعد ذلك الأبواب التي يتحدث فيها المؤلف عن الشرك لتكون زيادة في إيضاحه وبيانه ، وكان ذكر لكم أن التوحيد يتبين ويتضح بأمرين هما :

- ببيان معناه وحقيقته .
- **والثاني :** بمعرفته وضده .

وفقكم الله وبارك فيكم ، ورزقكم العلم النافع والعمل الصالح

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب ((**التوحيد**)) :

(**باب من الشرك لبس الحَلْقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه**

(**باب من الشرك**) (**من**) هنا للتبعيض ، يعني أن المؤلف يذكر بعضًا من أنواع الشرك الأصغر .

المؤلف رحمه الله في الأبواب السابقة ذكر:

- التوحيد
- وتحقيقه وفضله
- والدعوة إليه
- وتفسيره ،
- ثم ذكر هنا الشرك ، سيذكر أنواعًا من الشرك الأصغر في بعض الأبواب ،
- ثم أمثلة وأنواعًا للشرك الأكبر ،
- ويتدرج رحمه الله تعالى ، ثم يذكر أيضًا من يُعبد ومن يُدعى من دون الله وبيان حاله ، وأن أحدًا لا يستحق العبادة مع الله عز وجل .
- قبيل آخر الكتاب سيذكر المؤلف أيضًا بعضًا من أنواع الشرك الأصغر.

وسبق أن ذكر لكم تعريف الشرك ، وأن الشرك نوعان :

- شرك أكبر وأصغر .
- أو ظاهر وخفي .

وأن الظاهر والخفي يمكن أن يوصف به الشرك الأكبر وكذلك الأصغر :

فالشرك الأكبر تعريفه : تسوية غير الله بالله في ما هو من خصائص الله ، حتى يشمل أنواع التوحيد الثلاثة ، أو اعتقاد شريك مع الله عز وجل في ربوبيته ، أو ألوهيته ، أو أسمائه وصفاته .

وأما الشرك الأصغر فتعريفه : ما أتى في النصوص أنه شرك ولم يصل إلى حد الأكبر .

وذكرت الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر ، وأن الفروق هي :

- أن الشرك الأكبر يُحبط الأعمال كلها ، وأما الأصغر فيُحبط العمل الذي قارنه .
- **ثانيًا :** وأن الشرك الأكبر صاحبه مخلد في النار بخلاف الأصغر .
- **ثالثًا :** وأن الأكبر مخرجٌ من الملة بخلاف الأصغر .
- **رابعًا :** وأن الأكبر لا يغفر له إذا مات عليه ، وأما الأصغر فيغفر له على قول ، وقول آخر أنه يدخل في الموازنة بين الحسنات والسيئات ، فإذا ثقلت الحسنات غفر له .

وذكر أيضًا أن الشرك الأكبر يكون ظاهرًا وخفيًّا :

- مثال الشرك الأكبر الظاهر السجود لغير الله ، والذبح لغير الله .
- مثال الشرك الأكبر شرك المنافقين ، المنافق مشرك في قلبه وإن أظهر الإسلام ، كذلك ما يكون في قلوب المشركين من التوكل على غير الله ، أو خوف السر من غير الله وما أشبه ذلك ، هذا خفي .

والأصغر منه ظاهر وخفي :

- **فالظاهر من الأصغر :** ما نحن بصدده ، لبس الحلقة والخيط وما أشبه ذلك .
- **والخفي منه :** كيسير الرياء ، التطير ، وما أشبه ذلك .

والشرك الأصغر كالأكبر يكون في الأقوال ، وفي الاعتقادات ، وفي الأفعال :

- **فالشرك الأكبر في الأقوال مثل :** دعاء غير الله ، يدعو غير الله .
- **في الاعتقاد** كما مر يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، يخاف من غير الله خوف سر .
- **في الأعمال :** السجود لغير الله ، الذبح لغير الله .

وكذا الأصغر:

- **يكون في الأقوال مثل :** الحلف بغير الله ، قل ما شاء الله وشئت .
- **يكون أيضًا في الاعتقاد مثل :** الرياء ، والتطير .
- **ويكون في الأعمال :** كما هو موضوعنا لبس الحلقة والخيط وما أشبه ذلك .

يقول المؤلف رحمه الله : (**لبس الحَلْقة**) ، الحلقة هي كل شيء مستدير ،

أي شيء مستدير :

- حلقة الباب ،
- حلقة من صفر ، من ذهب ،
- بل حتى الحلقة التي يجتمع فيها الناس ، سميت حلقة لأنها مستديرة .

(**لبس الحَلْقة والخيط ونحوهما**) ، المؤلف ذكر حلقة عندنا في حديث عمران بن حصين ، وذكر حديثي عقبة في التمائم وفي الوَدَع ، وذكر الخيط في أثر حذيفة .

لكن متى يكون لُبس هذه الأشياء شركًا ؟

إذا اعتقد أنها ترفع البلاء أو تدفعه .

وما الفرق بين رفع البلاء ودفعه ؟

رفع البلاء بعد وقوعه ، ودفعه منعه قبل وقوعه .

فإذا كان يلبس حلقةً في يده يعتقد أنها تحميه من البلاء ، أو يعتقد أنها تجلب له الرزق ، وهذه الاعتقادات موجودة إذا نزلنا الواقع ورأينا أحوال كثير من الناس ، هذه الأشياء موجودة ، يلبسون خواتم أحيانًا ثم يقولون : هذه الخواتم فيها كذا وفيها كذا ، تجلب السعادة وتجلب الرزق وما أشبه ذلك ، وهذه أشياء قديمة ، ليست وليدة العصر أبدًا . فإذا كان يعتقد أن لها أثرًا في رفع البلاء أو دفع البلاء فإن هذا نوع من الشرك ؛ لكن من أي الشرك ؟:

- إن اعتقد أنها تنفع وتضر بذاتها فهو شرك أكبر ، وهذا ما يحصل من عاقل ، يعتقد أن حديدة أو خيط أو كذا ينفع بنفسه .
- **الثاني** : إذا اعتقد أنها سبب يحصل به النفع فهو من الشرك الأصغر . لأن لدينا قاعدة أن من اعتقد سببًا لم يثبت أنه سببٌ في الشرع ولا في الحس فإنه شرك أصغر ، أي شخص يعتقد سببًا للنفع أو الضر لم يرد في الشرع لا في الكتاب ولا في السنة ولا بالحس يعني لم يعرف بالتجربة تأثيره ، وأن له

نفعًا فإن هذا نوعٌ من التعلق بهذه الأسباب الموهومة وهو نوع من الشرك الأصغر :

- **ما ثبت تأثيره شرعًا :** الرقية ، وهي سبب شرعًا .
- **وما ثبت حسًّا :** مثل الأدوية المجربة والمعروفة أنها تفيد أنها سبب للنفع والضر ، فهذا سببٌ لا إشكال فيه ؛لأنه ثابت حسًّا

.

أما ما لم يثبت لا حسًّا ولا شرعًا فإنه نوعٌ من الشرك الأصغر .

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر : ٣٨])

(﴿ أَفَرَأَيْتُمْ ﴾) يعني أخبروني ، (﴿ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) يعني عن هذا الذي تدعونه من دون الله أيًّا كان ، شجرًا أو حجرًا ، أو أفضل الخلق نبيًّا أو ملكًا (﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ ﴾) يعني هل يستطيع أحدٌ أن يكشف ضرًّا قضاه الله عز وجل ، (﴿ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ ﴾) قسم الله لي رحمة هل تستطيع أن تمسك تلك الرحمة وتمنعها ؟ الجواب: لا ، وإذا كانت لا تمسكها فلن تستطيع أن تأتي بها .

قال تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ ﴾ [فاطر : ٢] . وقال : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

﴾ [يونس : ١٠٧] . فهؤلاء الذين تدعونهم مع الله عز وجل لا يكشفون ضرًّا ولا يمنعون خيرًا يأتي .

أين جواب (﴿ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ﴾) ؟ محذوف كأنهم لم يجيبوا ؛ لأن المشركين لا يعتقدون أن آلهتهم تنفع وتضر أبدًا ، وإنما يعتقدون أنها تقربهم إلى الله عز وجل ، كما قال عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] . تأملوا ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ انتقل من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ ﴾ ، قال : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ هذا قول ربنا عز وجل ، ثم ذكر قولهم فقال : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا ﴾ حتى يكون الكلام منهم مباشرة ، ما قال ربنا : ما عبدوهم إلا لكذا وكذا . لا ، حتى يكون في هذا اعتراف منهم أنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

ونظير هذه الآية آية يونس ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا ﴾ [يونس : ١٨] قوله : ﴿ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا ﴾ دليلٌ على أنهم لا يعتقدون أن الآلهة تنفع وتضر ، بل يعتقدون أن النفع والضر بيد الله عز وجل ؛ ولكن يعتقدون أن هذه الآلهة وسائط بينهم وبين الله عز وجل تجلب لهم النفع ، وتكشف عنهم الضر من الله عز وجل .

ثم قال : (﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾) أي الله كافيني ، وما دام الله كافيًا عباده فيجب عليهم أن يتوكلوا عليه ، لا حاجة لهم بحَلَقة وحَلْقة ولا بخيط ولا بتميمة ولا بغيرها ، بل يتوكلوا على الله عز وجل ، ولهذا التوكل على

الله عز وجل يريح القلب ، إنما وقع هؤلاء فيما وقعوا فيه لضعف التوكل عندهم ، وإلا فإن الله عز وجل قال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ما ذكر الجواب ، الجواب : بلى . وهذا يتفق عليه الناس ولله الحمد والمنة .

وإذا كان الله كافيًا حتى عند من يفعل هذه الأشياء فلماذا إذًا تلتفت قلوبكم إلى هذه الأشياء الموهومة ، تعتمدون عليها وتتوكلون عليها من دون الله عز وجل ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] . هود عليه السلام لما قال له قومه ، واتهموه بأن ما أصابه شيء بسبب آلهتهم ، لما قالوا له : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ ﴾ [هود : ٥٤ ، ٥٥] قال بعدها ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود : ٥٥ ، ٥٦] جميع الخلق جنهم وإنسهم نواصيهم بيد الله عز وجل ، فأنا متوكل على الله عز وجل ، وجميع نواصي الخلق بيده ، وما دمت متوكلاً عليه فهو كافيني إذًا لن يضرني أحدٌ منهم ، هذه حقيقة التوحيد ، إخلاص ، توجه القلب لله عز وجل ، وتخليصه من كل التفاتٍ إلى غيره سبحانه وبحمده .

ولهذا قال : (﴿ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾) ، ما دام الله حسبي فـ (﴿ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾) الإيمان بالله والتوكل عليه ، والثقة بالله والإيمان بقضائه وقدره يريح القلوب ، يريح الناس ، ولهذا لما قال عز وجل : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ

﴾ [الحديد : ٢٢] . ماذا بعدها ؟ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] .

المؤمن بقضاء الله عز وجل لا ييأس على ما فات ، لا يحزن على شيء فاته وقد كتبه ربه عز وجل ، فهو مؤمن وراضٍ بقضاء الله وقدره ، وإيمانه بالقضاء يجعل قلبه قويًّا ، لا يلتفت إلى شيء ولا يتعلق بشيء .

عنترة ، تعرفون عنترة بن أبي شداد ، هذا رجل شجاع وشاعر ، وكان في عصر الجاهلية ، والعرب في الجاهلية عندهم دين إبراهيم باقي ؛ ولكن الذي أضر بهم الشرك الذي أفسد كل ما عندهم ، يحجون ، ويصومون ، ويعتمرون ، ويؤمنون بالقضاء ، بل ويعتكفون في الجاهلية والدليل قول عمر رضي الله عنه : إني نذرت أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام في الجاهلية ، ومع ذلك ما نفعتهم هذه الأعمال وإن كانت أعمال جليلة وكبيرة ، لعل بعضها ما يحصل من كثير من المسلمين .

عنترة ماذا يقول ، انظروا من أسباب شجاعته :

يا عبل أين من المنية مهرب ❋❋ إن كان ربي في السماء قضاها

يقول كيف يهرب من الموت إذا كان ربي كتب لي الموت ، انظروا إن كان ربي في السماء ، يعتقد أن ربه فوق سماواته ، عالٍ على خلقه ، اليوم كثير من الناس ما يدري أين ربه ، والله المستعان .

وإن كان ربي في السماء قضاها إذًا لماذا أهرب من المنية ؟

المقصود : أن تعلق الإنسان بربه لا شك يجعله مطمئنًا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ .

قال رحمه الله : (**عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقة من صفر فقال : « ما هذه » ؟ قال : من الواهنة . فقال : « انزعها ، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا ، فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا » . رواه أحمد بسند لا بأس به**) .

حديث عمران هذا الشيخ يقول : (**رواه أحمد بسند لا بأس به**) قد صححه الأئمة كالذهبي والحاكم وابن حبان والبوصيري ، قال الشيخ ابن باز : إسناده جيد . في رواية الحاكم : (دخلت على النبي ﷺ وفي عضدي حلقة) ، ما يدل على أنه يروي عن نفسه رضي الله عنه وأرضاه .

(**رأى رجلاً في يده حلقة من صفر**) الصفر النحاس ، (**فقال : « ما هذه »**) ؟ سؤال ، هل قصد النبي ﷺ الإنكار ينكر عليه ، أم الاستفصال ؟ يحتمل هذا وهذا ، يحتمل أنه أنكر عليه هذا الفعل ، وهذه استفهام قد يفيد الإنكار . ويحتمل أن مراده أن يسأل عن غايته من لبسها ، لماذا لبستها ؟ وكان عليه الصلاة والسلام يسأل قبل أن يقول شيئًا عندما يذكر له شيء ، يعني لاحظه بعض الناس . كما قال للرجل الذي كان يختم بسورة الإخلاص مع أصحابه في سرية ماذا قال ؟ « **سلوه لأي شيء يصنع ذلك** » وهذا المنبغي أن الإنسان لا يتسرع في الحكم على الآخرين حتى يسأل .

قال : (**قال : من الواهنة**) والواهنة عرق يأخذ بالمنكب ويمتد ألمه إلى اليد ، ومعروف عند العامة قديمًا بهذا الاسم . فكانوا يضعون هذه الحلقة يظنون أنها ترفع عنهم هذا الألم .

قال ﷺ : (« **انزعها** ») ، وفي رواية « انبذها » ، **والنزع ما هو ؟** الجذب بشدة ، الطرح بشدة .

(« **فإنها لا تزيدك إلا وهنًا** ») ، قصدت منها أن ترفع عنك البلاء ، وهي لن ترفع البلاء بل ستزيده . وقد يقول قائل : إذا لم يكن لها أثر فما معنى أن تزيد البلاء ؟ فيقال : هذا من باب المعاملة له بنقيض قصده أو من باب العقوبة ، أن الإنسان إذا تعلق بغير الله عز وجل أن الله سبحانه وتعالى يعاقبه بحيث لا يحقق له مقصوده ، وسيأتينا في حديث عقبة « **من تعلق تميمة فلا أتم الله له** » ، عامله بنقيض قصده .

(« **فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا** ») فذكر لها ضررين :

- ضررًا في الدنيا ، وهي أنها تزيده وهنًا .

- وضررًا في الآخرة ، وأنه لو مات وهي عليه ما أفلح أبدا .

هل يوجد لهذه نظير في واقع الناس اليوم ؟

يوجد أساور يلبسها الناس ، أساور أخذت لها مدة ، ويمكن تداولها الناس وبيعت في بعض الصيدليات ، وكان الناس يلبسونها بحجة أنها تخفف عنهم الروماتيزم أو إذا كان الإنسان يعاني من أرق أو كذا ، ويزعمون أن لها تأثير حسي . قد سئل الشيخ ابن باز رحمه الله تعالى عن هذه المسألة ، وذكر أنه نظر فيها وبحث وسأل كثيرًا من الناس من أساتذة الجامعات وغيرهم ، ثم ذكر - خلاصة لكلامه رحمه الله تعالى - وأن لبسها تشبه بما يفعله المشركون في الجاهلية ، وأنها قد تكون محرمة ، بل قد تكون شركًا ، أو وسيلة للشرك ، قال - يعني

ومعنى كلامه – : أقل ما فيها أنها من المُشْتَبِه . وهذه أمور عقيدة الإنسان لا يدخل فيها بأمور مشتبهة يكون على خطر في عقيدته .

واذكر أني كلفت أحد الشباب وهو طالب في كلية الطلب أن يسأل أساتذته فسألهم ، فأفادني أنه ليس لها أي تأثير أي فائدة ، وهذا الذي يخشى منه أن يكون المقصود منها العلاج النفسي ، هذا الإنسان إذا توهم أن هذه الحلقة أو هذا الخيط أو ما أشبه ذلك يزيل عنه الأذى يحصل عنده شيء من الوهم في نفسه أن هذا الشيء قد خف أو زال ، والنفس تأثيرها على صاحبها أمر ليس بالسهل ، فإن كانت بهذه المثابة وأن تأثيرها نفسي فهو تعلق وتعليق للنفس بغير الله عز وجل ، فتكون من جنس هذه الحلقة .

وهذا الذي يظهر ، يظهر أنها مجرد تعلق في النفس ، ما يظهر أن لها أثرًا حسًّا عضويًّا ، والشيخ الله يغفر له ذكر أنه لم يجب مباشرة على هذه المسالة ، بل نظر فيها وبحث وسأل أساتذة في الجامعات وانتهى إلى هذا ، أنها:

- إما أن تكون محرمة وشرك ،
- أو تكون وسيلة ،
- أو على الأقل تكون مشتبه ،

لا تخلو من هذه الافتراضات الثلاثة وافتراضات خطيرة ، أن يدخل الإنسان في أمر قد يكون شركًا ، أو وسيلة إلى شرك ، والمشْتَبِه تعرفون القاعدة الشرعية فيه ، وأن الإنسان يجتنب المشتبه لأنه إذا وقع فيه وقع في الحرام كما قال النبي ﷺ ، وألزم ما على الإنسان سلامة قلبه وصحة معتقده ، يبحث عن عافية بدنه ليؤثر

على قلبه ويضر بقلبه ، يبحث عن ما يتوهمه راحة في دنياه ليضر دينه ، تركها والابتعاد عنها لا شك هو الأولى ، بل يتأكد تأكدًا شديدًا توجيه الناس ونصحهم ، وأن لديهم ما يغنيهم ولله الحمد ، سيأتينا إن شاء الله في أثر حذيفة الإشارة إلى أثر ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه في هذا المعنى .

(**وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا « من تعلق تميمة فلا أتم الله له ، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له » . وفي رواية : « من تعلق تميمة فقد أشرك »**) .

وله لأحمد رحمه الله عن عقبة بن عامر الجهني مرفوعًا ، يعني مرفوعًا إلى النبي ﷺ . والمرفوع ما أضيف إلى النبي ﷺ من قولٍ ، أو فعلٍ ، أو تقريرٍ ، أو وصف .

(**« من تعلق تميمة »**) والتميمة – سيأتينا في الباب الذي بعده – هي شيء يُعلق على الأولاد عن العين ، وسيذكر المؤلف رحمه الله تعالى في الباب الذي بعده كلامًا فيها . وهي إما أن تكون خرزات ، أو تكون أوراق تكتب وتوضع في جلدٍ أو شبهه .

والودع شيء يخرج من البحر يشبه الصدف ، سماه ودَعًا لماذا ؟ كأن الواحد منهم إذا وضعه على شيء من جسده يحس بأنه في راحة ، في دعة ، في سكون ، فدعا عليه النبي ﷺ أو أخبر ؛ لأن قوله : (**« فلا أتم الله له »**) :

- يحتمل أن يكون خبر أن الله لن يتمم له مقصوده ،

- ويحتمل أن يكون أن يكون دعاءً ، أن لا يحقق الله له مراده ، فلا يتم له مقصوده إذا علق التميمة ، ولا يكون في دعةٍ ولا سكون ولا راحة إذا هو تعلق الوَدَعة .

ثم قال : (« **من تعلق تميمة فقد أشرك** ») وسبق أن ذكر أن هذا نوع من الشرك الأصغر ؛ لكن ما نفهم أن كونه شرك أصغر أن الإنسان يتساهل ويتهاون فيه ، لا ، وسيأتي في كلام المؤلف ما يدل على أن الشرك الأصغر أشد من الكبائر .

قال : (« **من تعلق تميمة فقد أشرك** ») وهذا الحديث عن عقبة أيضًا أن رهطًا جاءوا للنبي ﷺ ، عشرة ، فبايع تسعة وأمسك عن واحد ، فقالوا : بايعت تسعة وتركت هذا ؟ فقال : « **إن عليه تميمة** » ، فأدخل يده فقطعها فبايعه النبي ﷺ ثم قال : (« **من تعلق تميمة فقد أشرك** ») .

والحديث يدل على تحريمها ، ووجوب التحرز منها ، وأن من علقها وتعلق بها وُكل إليها ، كما سيأتي .

(**ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمَّى ، فقطعه وتلا قوله : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦]**) .

ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي رحمه الله وأباه ، أنه دخل على مريض فوضع يده في عضده فوجد خيطًا فيها فقطعه ، وتلا قوله تعالى : (﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ** ﴾) .

وفي رواية : لو مت وهي عليك ما صليت عليك ، لا لأنه شرك أكبر ؛ لكن قد يكون هذا من باب التعزير ، تأديب الغير .

قطعها رضي الله عنه وأرضاه . **وفيه** : إنكار المنكر باليد لمن يستطيعه .

وتلا الآية (﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾) ، لديهم إيمان ولكن لديهم شركٌ أتى على هذا الإيمان فأبطله ، يعني يؤمن بوجود الله ، يؤمن بربوبية الله كما عليه حال المشركين ؛ لكن هذا إيمان لا يجزي عن صاحبه شيئًا ، ولا يصح أن يقال عن صاحبه إنه مؤمن بحال من الأحوال ، والسبب ما وقع فيه من الشرك .

وإيراد المؤلف رحمه الله الآية في هذا الباب ، وهذا الأثر أثر حذيفة واستشهاده بهذه الآية يدل على أن السلف رحمهم الله يستدلون بما نزل بالشرك الأكبر على الشرك الأصغر .

المقصود : أن المؤلف رحمه الله ذكر هنا جملة من الأشياء التي كانوا يتعلقون بها ، وأنها من بقايا الجاهلية ، النبي ﷺ عندما رآها أنكرها وهم لم يأتوا بها وليدة وقتهم ، لا حاشا ، وإنما أشياء توارثوها عن الجاهلية .

وهذه الأمور تكثر وتقل ، فإذا ظهر العلم وظهر التوحيد قلَّت هذه الأمور حتى لا تكاد تراها في الناس ، وإذا ضعف تعلق الناس بربهم وضعف توحيدهم فالأوهام كثيرة ، ومظاهر ضعف النفس في الإنسان كثيرة ، والإنسان ضعيف إلا بربه سبحانه وبحمده ، قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] . فإن هو التفت بضعفه إلى الخلق زاده ذلك ضعفًا ووهنًا ، وإن هو التفت بقلبه وضعفه إلى ربه زاده إيمانًا وقوةً وثباتًا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ .

فالواجب : الحذر والتحذير من هذه الأشياء ، وهذه الأشياء موجودة تجدونها عند بعض سائقي السيارات الكبيرة يعلقون أشياء ، وسبحان الله أين ذهبت العقول ؟ وربما يشتري هذا الخيط بمبالغ طائلة ، ويأتي دور الذين

يبحثون عن الأموال ويأكلون أموال الناس بالباطل ، ويكتبون أشياء موهومة مجهولة ، وفيها رموز وإشارات وقد يكون فيها أسماء شياطين ولا قوة إلا بالله ، ثم يأخذها المسلم ليتعلق بها من دون الله عز وجل ، فلو تعلق بربه كفاه الله وحفظه ووقاه ، كما قال : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ ، وقال نوح عليه السلام : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، فوضت أمري إلى ربي واعتمدت على ربي ، ثم قال بعدها ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ أجمعوا اعزموا أمركم وادعوا شركاءكم ﴿ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] افعلوا ما شئتم فإني متوكل على الله عز وجل . وقال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٥ ، ١٩٥] ، فإذ كان الله تعالى ولي الصالحين ، وولي عباده المؤمنين فلماذا يتولون غيره وتلفت قلوبهم إلى غيره ؟

فالواجب على المسلم : أن يثق بربه ؛ لأن في هذا الزمن تنتشر أشياء وتسمعون مقاطع فيها أشياء عجيبة وغريبة ، هذا يجرب وهذا يعمل ، وهذا يقول : أنا جربت هذا الكلام . أتى بكلام من عنده وأدعية من عنده ، قد لا يكون فيها شيء في ظاهرها ، وأنا جربتها وحصل لي ما حصل وكذا وكذا ، إذا فتحت هذه المسألة ومسألة التجارب في أمور فيها نصوص من الكتاب ومن السنة ، فيها أذكار ، فيها أوراد فيها أدعية .

أيوب عليه السلام لما مسه الضر ماذا قال ؟ ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، وفي آية أخرى ماذا قال ؟ ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ

نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ [ص : ٤١] ، ما راح يجرب ولا راح يحط كذا ويجيب كذا وصلح كذا وقل كذا وكذا وكذا ، وهل دعاءٌ أفضل من أدعية أصفياء الله وخلق أنبيائه ورسله ؟

الرقية الشرعية سببٌ شرعي ، وكذلك الدعاء .

أيهما أعظم الدعاء أم الرقية ؟

الدعاء أعظم ، والرقية على كل حال سبب شرعي ، والنبي ﷺ رُقِيَ ورَقى ؛ لكن يبقى الدعاء عظيم ، وأن الإنسان إذا مسه شيء يفزع إلى ربه ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ ، وإذا كان كشف الضر بيده فالواجب أن يفزع إلى ربه ، ثم يفعل الأسباب الحمد لله الحسية يذهب إلى المستشفيات وإلى الأطباء ، ويستخدم الأدوية والأشياء التي ثبت حسًّا أنها مفيدة في هذا الأمر ، أما أسباب موهومة ، وأشياء يسمعها في الجوال أو في موقع أو في كذا ، ثم يذهب ويطبقها ، وذاك يقول وهذا يحلف وهذا يفعل ، وهذا ، يعني أمور تؤخذ من المجهول ، والإنسان في عقيدته يرجع إلى كتاب ربه وسنة رسوله ﷺ ، وإلى العلماء الربانيين ، يأخذ منهم ما يحتاجه فيما هو أهم الأمور وهو عقيدته .

تتمة: القاعدة وهي أن من أثبت سببًا لم يثبت أنه سبب شرعي أو حسي فهو شرك أصغر ، هذه القاعدة على كل حال إذا ثبت أن هذا سبب من الشرع فلا إشكال فيه ، وإذا ثبت من الحس فلا إشكال فيه ؛ لكن هل كل سببٍ أثبت يكون شركًا أصغر ؟ هناك أسباب موهومة يتعلق بها عباد القبور كتعلقهم بالأموات ، زاعمين أن هذا التعلق سبب ، هذا لا ليس من الشرك الأصغر ، تعلقهم بالأموات واعتقادهم جلب النفع ودفع الضر ، ودعاءهم مع الله عز وجل ، أو

من دون الله عز وجل لا شك هذا من الشرك الأكبر ، إنما المقصود كونه يتعلق بسبب وهذا السبب ما ثبت أنه سبب في الشرع ولا سبب في الحس ، الأصل أنه من الشرك الأصغر إلا التعلق بالأسباب الموهومة ، التعلق بالمقبورين ودعاؤهم من دون الله عز وجل ، زاعمين أنهم وسائط أو وسائل أو أسباب ، هذا لا شك من الشرك الأكبر ، لا يكون من الأصغر .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : التغليظ في لُبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك) .

لبس الحلقة والخيط والتميمة التغليظ فيها ، حتى قال النبي ﷺ: « **لو مت وهي عليك ما أفلحت** » .

(**الثانية : أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح ، فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر**) .

الشرك الأصغر يقولون أكبر من الكبائر ، وهذا من حيث الجنس ، يعني من حيث جنس الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر ؛ لكن من حيث الأفراد قد يكون هناك من الكبائر ما هو أكبر منه ، فقتل النفس مثلاً كبيرة عظيمة ، ولو قال شخص : ما شاء الله وشاء فلان ، أو والله وفلان ، فلا يقال : لولا الله وفلان ، أكبر من قتل النفس ، فمرادهم عندما يقولون الشرك الأصغر أكبر من كل الكبائر هذا من حيث الجنس ؛ لأن فيه من التشريك بالله عز وجل .

(**الثالثة : أنه لم يعذر بالجهالة**) .

ما عذره النبي ﷺ بالجهالة ، قال : الجهل . والجهل سببه أحد أمرين :

- إما الإعراض ، كونه لا يسأل وعنده من يسأله ومع ذلك لا يسأل ، وإذا عمل شيئًا قال : أنا جاهل .
- أو عدم وجود من يعلمه ، فإذا لم يوجد من يعلمه قد يعذر في هذا الأمر.

لكن إذا كان سببه الإعراض وأنه لا يسأل فهو لا يعذر في هذه الحال .

قال رحمه الله : (**الرابعة : أنها لا تنفع في العاجلة ، بل تضر لقوله : « لا تزيدك إلا وهنًا »**) .

(**لا تنفع في العاجلة ، بل تضر**) وتضر في الآجل ، والضرر في الآجل أشد .

(**الخامسة : الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك**) .

الإنكار بالتغليظ على من فعل ذلك ، هذا أنكر النبي ﷺ عليه ، وأنكر حذيفة فقطع الخيط . وفي حديث ابن مسعود الذي أشير إليه أن ابن مسعود رضي الله عنه رأى في عنق امرأته زينب خيطا فقال : ما هذا ؟ قالت : خيط رُقِي لي فيه . فقطعه وقال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت النبي ﷺ يقول : « **إن الرُّقَى والتمائم والتولة شرك** » . فقالت : لِمَ تقول هذا ، فإن عيني كانت تقذف وكنت أختلف إلى فلان اليهودي فيرقني ، فإذا رقاها أمسكت قال : إنما هذا من الشيطان ، ينخسها بيده فإذا رقى كف . ثم قال أو أرشدها إلى الذكر الوارد عن النبي ﷺ « **اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءٌ** » أو « **شفاءً لا يغادر سقمًا** » الذي كان النبي ﷺ يقوله .

وتأملوا زينب رضي الله عنها وأرضاها صحابية جليلة ، وزوجها عبد الله بن مسعود إمام وبين أصحاب محمد ﷺ ، ومع ذلك تذهب إلى راقي يهودي ، فتعجب ، ولهذا مسألة الرقية أيضًا بابٌ ينبغي أن ينتبه الناس لأهله ، تجد المرأة

أحيانًا زوجها طالب علم ويقرأ القرآن وتذهب إلى هذا وذاك ، وربما إلى ناس أقل ما يقال فيهم : لا يعرفون . والرقية التي عندهم عندهم في البيت ولله الحمد كلام الله عز وجل ولو قرأ الواحد منهم على نفسه لكان أنفع له من قراءة غيره عليه ؛ لأن أحدًا لن يُخْلِص لك مثل ما تخلص أنت لنفسك ، أما أن هذا مجرب وهذا قرئ عليه وشفي فلان وشفي وكذا ، كلام الله الذي يقرؤه أنت تقرؤه ، والإخلاص إذا عنده إخلاص موجود عندك إخلاص أعظم منه ، فالواجب التنبه لمثل هذا الأمر .

وانظر تقول : يرقيني فإذا رقاها أمسكت عنه . يعني تدمع عينها فإذا رقاها أمسكت ، وللنواحي النفسية في هذا الأمر عجب ، لا في حصول التعب ولا حتى في الشعور بزواله ، الراحة النفسية ليست سهلة ، ولهذا الشارع الحكيم يحرص على أن تتعلق نفوس الناس وقلوبهم بالله ، إذا تعلقت قلوبهم بالله اطمأنوا وارتاحوا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

أما إذا ضعف تعلقه بربه وتعلق بغير الله عز وجل فلا قوة إلا بالله ، انظر ما يبتلى به من الأوهام .

والمقصود : أن الإنسان يعظم الثقة بالله عز وجل ، والتوكل عليه ويلجأ إليه ، يرجوه ويدعوه ويتعلق به سبحانه وتعالى ، ثم يفعل بعد ذلك من الأسباب الحسية مثل الأدوية وما أشبه ذلك ما يفعل .

قال رحمه الله : (**السادسة : التصريح بأن من تعلق شيئًا وُكل إليه**) .

كما سيأتينا في أثر عبد الله بن عكيم أنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إليه ، ولو تعلق بالله كفاه الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**السابعة : التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك**) .

التصريح في حديث عقبة الثاني « **من تعلق تميمة فقد أشرك** » قال العلماء : إسناده قوي . والشرك هنا شرك أصغر ؛ لأن غالبًا من يتعلق بها تعلق بها على أنها سبب ، لا أنها تنفع وتضر بذاتها .

قال رحمه الله : (**الثامنة : أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك**) .

من هذا القبيل ، تعلق بخيط ، تعلق بتميمة ، تعلق بودع ، تعلق بحلقة ، تعلق بقلادة وما أشبه ذلك ، كله داخل في هذا الأمر .

(**التاسعة : تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر ، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة**) .

آية البقرة ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢] ، سيأتينا إن شاء الله في هذا الباب ، قال ابن عباس : الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاةٍ سوداء في ظلمة الليل . وهو أن تقول : والله وحياتك إلى آخر ما ذَكر رضي الله عنه وأرضاه .

المقصود : أنه فسر الأنداد بهذا الشرك ، دل على أن هذا الشرك وإن كان شركًا أصغر خفيًّا فهو داخل في التنديد .

قال رحمه الله : (**العاشرة : أن تعليق الوَدَع عن العين من ذلك**) .

(**تعليق الوَدَع عن العين من ذلك**) الخوف من العين يوجد عند بعض الناس ، ويتخذ وسائل للوقاية من العين ، ومنها هذه التعلُّقات ، والنبي ﷺ كان يتعوذ

من الجان وعين الإنسان ، حتى نزلت عليه المعوذتين فأخذ بهما وترك ما سواها ، فمن حافظ على الأذكار ، الصباح والمساء ، واستعاذ بالله وعَوَّذ أولاده بالله عز وجل فليذهب متوكلاً على ربه لا يخشى إلا منه عز وجل ، لا يخاف من عين ولا من غير عين .

الأذكار عظيمة في وقاية الإنسان من مثل هذه الأمور ، وإلا فإن الإنسان إذا فتح الباب على نفسه انفتح عليه سيل من الأوهام لا ينقطع ، كل ما سمع شيء خاف من العين ، كل ما قيل له شيء خاف من العين ، قال عليه السلام لعبد الله بن خبيب : « **قل يا عبد الله** » . قال : وما أقول ؟ قال : « **﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين حين تصبح وحين تمسي تَكْفِيكَ من كل شيء** » . وقال في الآيتين في آخر البقرة ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] إلى آخر السورة « **من قرأهما في ليلةٍ كفتاه** » . وقال : من قرأ آية الكرسي لن يزال عليه من الله حافظٌ ولا يقربه شيطان . قاله الشيطان لأبي هريرة ، والشيطان خبير بهذه الأمور ، فقال ﷺ : « **صدقك وهو كذوب** » .

هذه الأذكار حماية ووقاية ، فالمسلم إذا حرص عليها ما يحتاج إلى مثل هذه الأوهام ؛ لكن ضعفه في هذا الأمر قد يكون سببه الجهل ، يعني معظم الناس مساكين ، جاهل ، فلو عُلِّم تَعَلَّم ، فإذا حرص على هذه الأذكار كانت صلته بربه قوية وعظيمة ، يذكر الله أولاً وقبل كل شيء ، ثم يحصل في هذه الأذكار له من السكينة والطمأنينة والحفظ والوقاية من الشيطان .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له ، ومن تعلق وَدَعة فلا وَدَعَ الله له ، أي ترك الله له**) .

أي ترك الله له خيرًا ، أو تركه في راحة وطمأنينة ، فدعا عليه النبي ﷺ بنقيض مقصوده .

وفقكم الله وأعانكم وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

(**باب ما جاء في الرقى والتمائم**

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره ، فأرسل رسولاً أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وَتَرٍ ، أو قلادة إلا قطعت) .

قال رحمه الله تعالى : (**باب ما جاء في الرقى والتمائم**) ، ولم يذكر الحكم هنا ؛ لأن مما سيذكره رحمه الله تعالى ما هو محرم ، ومنها ما هو جائز ، ومنها ما هو مختلف فيه ، فيه الأقسام الثلاثة ، ولهذا لم يبت رحمه الله تعالى في الحكم في الترجمة .

وذكر هذا الحديث المخرج في الصحيحين من حديث أبي بشير ، قيل : واسمه قيس بن عبيد (**أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره**) ، لماذا سمي السفر سفر ؟ لسببين :

- حسي .
- ومعنوي .

قيل : لأن السفر يسفر عن أخلاق الرجال ، وإذا عرفت الرجل فسافر معه ، ولهذا لما زكَّى رجلٌ رجلاً عند عمر بن الخطاب قال له : هل سافرت معه ؟ هل

عاملته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا . قال : فعلام تزكيه على ركيعات رأيته يركعونها في المسجد ؟! وهذا لا يعني التقليل من الصلاة أبدًا ؛ ولكن الصلاة تحصل من كل أحد حتى من المنافق ؛ لكن سافرت معه ، تعرف تعامله ، تعرف أخلاقه ، أو عاملته بالدرهم والدينار حينها يتبين لك معدنه .

وأيضًا لأن الإنسان إذا سافر يخرج إلى البراح ، يعني كان في بلده ، وإذا خرج للبر خرج وأسفر بمعنى أضاء ، خرج للبراح المضيء المفسر أكثر مما كان في البلد .

كان مع النبي ﷺ (**فأرسل رسولاً أن لا يَبْقَيَنَّ**) أو (**أن لا يُبْقِيَنَّ**) يعني الرسول لا يبقي (**في رقبة بعير**) ، قيل : والرسول هو زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ .

(**رقبة بعير**) البعير في اللغة يطلق على الذكر والأنثى من الإبل ، وأقول في اللغة ؛ لكن في العرف لا يطلق إلا على الذكر ، **ففي اللغة تقول :** هذا بعير ، وهذه بعير . لكن في عرف الناس ، لا يطلقونه إلا على الذكر ، ولهذا لو وجدت وصية مكتوبة في أضحية ببعير أو ما أشبه ذلك تذبح الذكر ، الحقيقة العرفية مقدمة على الحقيقة اللغوية .

واللغة تتبدل وتتغير ، يعني الشاة مثلاً تطلق على الضأن والمعز الذكر والأنثى ، فيقال على التيس : شاة ، وعن العنز : شاة ، وعن الخروف شاة ، وعن النعجة شاة ؛ لكن في العرف تطلق على أنثى الضأن فقط .

(**قلادة من وَتَرٍ ، أو قلادة إلا قطعت**) قيل : هذا شكٌّ من الراوي .

هل القلادة مقيدة بكونها من وَتَر ؟

والوَتَر هو أحد أوتار القوس كان إذا اخلولق قوس أحدهم علقه في عنق بعيره لدفع العين عنه .

الرواية هنا (**قلادة من وَتَرٍ ، أو قلادة**) ، وسيأتينا أيضًا في حديث رويفع أن من عقد لحيته أو تقلد وترًا ، ما يدل على تخصيصه بتقليد ما يتقى به العين وما يتعلق به ، والمعروف في ذاك الزمان تقليد الأوتار ؛ لكن لو قلد قلادة ، وضع قلادة في رقبة الدابة لدفع العين هل نقول : هذه ليست وتر وبالتالي لا شيء فيها ؟ الجواب: لا .

المقصود : ما يقصده من يعلقه ؛ لكن كان في ذاك الزمان يعلقون الأوتار ، وإلا فإن النبي ﷺ كان يقلد الهدي القلائد ، وقَلَّ أن تجد فيما مضى دابة إلا وهي مقلدة ، يضعون قلادة في رقبتها بحيث يمسكها من هذه القلادة . فليس المنهي عنه مجرد التقليد ، وإنما المنهي عنه التقليد الذي يقصد به التعلق بها ، ودفع العين بها .

الناس يخافون من العين ، ويخافون من أشياء كثيرة ، وصاحب العقيدة يتقي بربه سبحانه وبحمده ، يتعلق قلبه بالله سبحانه وبحمده ، يحافظ على الأذكار أذكار الصباح والمساء والنوم ، ويمضي في حياته مطمئنًا .

وأما الجاهل أو ضعيف الإيمان فيضعف تعلقه بربه ولهذا يضيع ، فيذهب يتعلق بهذا وذاك ، وربما تعلقوا بتعاويذ ، وربما تعلقوا بأشياء مجهولة وبطلاسم ، ولو تعلقوا بربهم لأغناهم عن التعلق بأي شيء .

طيب المؤلف يقول: (**ما جاء في الرقى والتمائم**) ، والحديث ما فيه تميمة ؛ لكن فيه القلادة التي من وتر ، وهي بمعنى التميمة ، فأمره ﷺ بقطعها من أعناق الإبل يدل على تحريمها ، على وجوب القطع ، ومن لازم ذلك تحريم الفعل .

(**وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الرقى والتمائم والتولة شرك » . رواه أحمد وأبو داود**) .

حديث ابن مسعود هذا أورده ابن مسعود لسبب أو لقصة ، لعله ذكر في الدرس الماضي ، وهو أن ابن مسعود رأى في عنق امرأته زينب الثقفية رضي الله عنها وأرضاها خيطًا ، فقال : ما هذا ؟ قالت : خيط رقي لي فيه . فأخذه فقطعه ، وقال : أنتم آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت النبي ﷺ يقول : « **إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شركٌ** » ، فقالت : لم تقول هذا ؟ فإن عيني كانت تقذف فأختلف إلى فلان اليهودي فيرقيها ، فإذا رقاها سكنت . قال رضي الله عنه : إنما ذلك عمل الشيطان ، ينخسها بيده فإذا رقاها سكن أو سكنت . ثم قال : ألا تدعين بدعاء النبي ﷺ ؟ « **أذهب البأس رب الناس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا** » ، هذه الرقية الشرعية ، وهذا الدعاء كان النبي ﷺ أيضًا يرقي به من يشتكي شيئًا من أهل بيته ، تقول عائشة : كان إذا اشتكى أحد مسحه بيده وقال : « **أذهب البأس رب الناس** » ، إلى آخره .

فمن يستعمل هذه الرقى الواردة في الشرع يستغني بها عن التعلق بأي شيء .

(**وعن عبد الله بن عكيم مرفوعًا : « من تعلَّق شيئًا وُكل إليه » . رواه أحمد والترمذي**) .

عبد الله بن عكيم الجهني رضي الله عنه وأرضاه أدرك زمان النبي ﷺ ، قالوا : لكن لا يُحفظ له سماعٌ عنه . فحديثه إما مرسل صاحبي - يقوله الشيخ عبد العزيز الله يرحمه - أو إذا قيل إنه تابعي يكون مرسل تابعي .

هل رأى النبي ﷺ أو لم يراه ؟ هم قالوا : لا يحفظ له سماع ؛ لكن لو ثبت أنه رأى النبي ﷺ فإنه يكون صاحبي ، وحديثه بالتالي يكون مرسل صاحبي ، وعلى كل حال فمعنى الأثر معنى صحيح .

وسببه أنه زاره عيسى بن حمزة وكان فيه حمرة ، قال : فقلت له : ألا تعلق تميمة ؟ فقال : نعوذ بالله الموت أدنى من ذلك . ثم قال : قال رسول الله ﷺ : (**« من تعلَّق شيئًا وُكل إليه »**) .

ومعناه أن الإنسان إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ذلك الذي تعلق به ، فلما وضع ذلك الرجل حلقة من صفر ماذا قال النبي ﷺ ؟ « **إنها لا تزيدك إلا وهنًا** » ، يوكل إليها ، وقال : « **من تعلق تميمةً وُكل إليها** » . وبالتالي لا أتم الله له مراده ، من تعلق ودعة وكل إليها ، وبالتالي لا ودع الله له ، دعا عليهم المصطفى ﷺ بأن لا يتم الله سبحانه وتعالى مراده ، ومن تعلق بالله كفاه الله ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] ؛ لكن هذه الكفاية من الله عز وجل بحسب ما قام به من العبودية ، فإن قامت به العبودية على وجهٍ كامل كحال الكُمَّل من الرسل صلوات ربي وسلامه عليه كانت الكفاية كفاية كاملة ، لأن هذا الحكم علق بوصف ، هو الوصف العبودية ، فيقوى بقوة ذلك الوصف ويضعف بضعفه .

والأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم كما مر بنا كان تعلقهم برب العالمين:

- كما قال هود عليه السلام : ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ [هود : ٥٥ ، ٥٦] . فتوكل على ربه .
- ونوح عليه السلام قال : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ﴾ ، ﴿ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] ما أعظم هذه الكلمة ، ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ والذي يتوكل على ربه كفاه ، ولهذا قال لهم : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ .
- ومحمد ﷺ قال له ربه : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [الأعراف : ١٩٥] . لماذا ؟ ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] ، فمن كان الله مولاه فلا خوف عليه ولا خطر ، وليس بحاجة مع ولاية ربه إلى أحد .

قال رحمه الله : (**التمائم شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين ؛ لكن إذا كان المعلَّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف ، وبعضهم لم يرخص فيه ، ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود رضي الله عنه**) .

شرع رحمه الله تعالى يبين معنى هذا الحديث ، فقال : (**التمائم شيء يعلق**) عن العين ، يعلقونه على أولادهم ، على دوابهم ، خوفًا من العين ؛ لكن إذا كان المعلق من القرآن فقد رخص به بعض السلف ، وبعض السلف لم يرخص فيه ، (**ويجعله من المنهي عنه ، منهم ابن مسعود**) .

إذًا التميمة تنقسم إلى قسمين :

- نوع من القرآن .

- ونوع من غير القرآن .

فالذي من غير القرآن: والذي يكون بطلاسم وأسماء مجهولة وأمور ولا يدرى عنها ، هذا حكمه من الشرك ، والدليل: (**« إن الرقى والتمائم والتولة »**) ماذا ؟ (**« والتولة شرك »**) .

فليس لأحدٍ أن يتعلق بمجهول فضلاً عن أن يدعوَ به ، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله ، وهذه الحروز لو نظرتم فيها وجدتم فيها العجب ، ولا يقال : هذه يكتبها رجل ظاهره صلاح ، أو كذا أو كذا . وكانوا يضعونها في إطار من الجلد تغلق ولا يُدرى ما فيها فيُعَلَّقُ في عنق الصبي أو يجعل تحت المخدة إذا نام وما أشبه ذلك .

النوع الثاني وهو ما كان من القرآن: ، مكتوب من القرآن تقرؤه ، ما في خطوط ولا فيه إشارات ولا فيه طلاسم ولا أشياء مجهولة ، هذا محل خلاف بين أهل العلم :

- فبعضهم رخص فيه ، وممن رخص فيه عبد الله بن عمرو ، وظاهر قول عائشة رضي الله عنها ، وظاهر اختيار ابن القيم كما ذكر الشيخ سليمان في الشرح ، وقول محمد بن علي بن الحسين الباقر رحمه الله وهو رواية في مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، حجتهم قالوا : إن الله عز وجل قال : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ [الإسراء : ٨٢] ، فبين أن القرآن شفاء ، وهو شفاء للصدور أولاً وقبل كل شيء وشفاء للأسقام لظاهر الإطلاق

في الآية ، قالوا : ولم يذكر الله تعالى الوسيلة فدل على جواز هذه الوسيلة وهذه الطريقة .

- **القول الثاني :** لا يجوز تعليقها ، أو نقول لا تعلق ، لا تعلق حتى ولو كانت من القرآن ، لأسباب :

  - **أولاً :** لعموم النهي النبي ﷺ قال : (**« إن الرقى والتمائم »**) ولم يفصل ولم يستثنِ بخلاف الرقية ، فالرقية ذكر أن منها ما يكون شركًا ، ومنها ما لا يكون شركًا ، وقد رقى النبي ﷺ كما يقول الخطابي يقول : رَقَى ورُقِي وأمر بها وأجازها . فرقى كما في حديث عائشة السابق إذا شكى أحد من أهله مسح بيده ودعا له . والرقية جاءه جبريل فقال : اشتكيت يا محمد ؟ قال : « **نعم** » . قال : باسم الله أرقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك ، باسم الله أرقيك . وأمر بها لما رأى الجارية في وجهها سفعة قال : « **استرقوا لها فإن بها النضرة** » . وأجاز عليه الصلاة والسلام ، قال : « **اعرضوا علي رقاكم لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا** » . وقال : « **لا رقية إلا من عين ، أو حمة ، أو نملة** » . الحديث في مسلم ، والنملة قروح تصيب الإنسان في جنبه ، وقال : « **لا رقية إلا من عين أو حمة أو دمٍ** » . في ((**السنن**)) وهو الرعاف ، ومر بنا أثر بريدة بن حصين لا رقية إلا من عين أو حمى . فالنبي ﷺ رخص في بعض الرقى ؛ لكن لم يرخص في شيء من التمائم ، قالوا : إذًا السبب الأول عموم النهي .

- **وأيضًا** لم يفعله صلوات ربي وسلامه عليه ، هو رقى ورقي ؛ لكنه ما ورد عنه أبدًا أن أحدًا علق تميمة في بيته .
- **وثالثًا** : سدًّا للذريعة ، لأنه إذا انتشرت هذه الظاهرة في الناس ما عدت تفرق بين التميمة التي في القرآن والتميمة التي بالشعوذة وبالطلاسم وبالإشارات والأسماء المجهولة ، وهذه كثيرة في الناس ، ثم يضعف إنكار الناس لها ، هذه تميمة قالوا من القرآن .
- **الرابع** : صيانة لكتاب الله عز وجل ، ما أنزل القرآن ليكتب على السيارات ولا يعلق في رقاب الأطفال ، والطفل قد يحصل منه شيء ، قد يتقيأ ، قد يحصل منه تقذير لكتاب الله عز وجل .
- خامسًا : ولأن الناس إذا فتح لهم هذا الباب تركوا المشروع ، والمشروع هو الرقية.

فهذه أسباب يستدل بها من يقول بمنعها .

وإن كان كما سيأتينا عن أصحاب ابن مسعود أنهم كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن أو غير القرآن ؛ لكن هل هذه الكراهة للتنزيه أو كراهة تحريم كما هو معروف عندهم رضي الله عنهم وأرضاهم ؟ يحتمل هذا وذاك .

- وبعض أهل العلم عندما ذكر هذه المسألة ، مسألة التحريم ، كأنه يتوقف فيها .

ولكن والله الأولى إغلاق الباب في هذه المسألة ، حتى لا تحصل المحاذير السابقة ، **ومنها** : انتشار التمائم المشبوهة ، هم لا يضعون شيء مكتوب يقرأ ، لا ، يضعونها كما قلت لكم في غلاف وأنت لا تدري ماذا فيها ، يقال : هذه قرآن وأدعية مباحة ، لا شك أن المؤكد والأولى اجتناب مثل هذه الأمور .

قال رحمه الله : (**والرقى هي التي تسمى العزائم ، وخَصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك ، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة**) .

الرقى يسميها العامة العزائم ، ويسمونها العزيمة ، وأكثر ما يطلقونها إذا يعني كانت مكتوبة ، وكانوا يكتبون في صحن أو حتى في ورق ، تكتب آيات تقرأ ، أما إذا كانت خطوط فلا لا ، ما يُدرى عن هذه الخطوط ماذا فيها ؛ لكن يكتبون آية الكرسي ، يكتبون بعض الآيات في صحن وتكتب بالزعفران ويشربه المريض ، وكانوا يفعلونه والشيخ ابن باز كان يرى أن لا بأس بهذا كما ورد عن بعض السلف . قال : وروي عن ابن عباس لكني لم أقف على هذا خبر أو صحة ثبوته عن ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه .

وعلى كل حال فلو اقتصر الناس على ما فعل المصطفى لأغنى وكفى ، الناس يميلون إلى بعض الأشياء التي فيها أشياء حسية مادية ، هذا ميل في النفوس ؛ لكن تعلقهم بربهم وحرصهم على الأوراد والأذكار والأدعية الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا شك يغنيهم عن هذا كله .

والعلماء يقررون كما ذكر في الدرس الماضي أن الدعاء أعظم من الرقية ، وإن كان بعضهم يقول : الرقية توسل بكلام الله عز وجل . لكن من يقول : إن الدعاء أعظم يقول : إن الأنبياء لما أصيبوا وابتلوا ماذا فعلوا ؟ دعوا ، وتأمل

كتاب الله عز وجل ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] ، ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩] ، يعقوب ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٨٦] ، وما أشبه ذلك ، كلهم دعوا ربهم ؛ لكن يستخدمون الرقية والحمد لله ، النبي ﷺ رقى ورقي . وفي الرقية دعاء ، بل رقيته ﷺ تعتبر دعاء « **أذهب البأس رب الناس** » ، ورقية جبريل دعاء أيضًا ، فكون الإنسان يجمع بين قراءة شيء من كلام الله عز وجل كقراءة الفاتحة ، و﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين وآية الكرسي وخواتم سورة البقرة ، وما تيسير من كتاب الله عز وجل ، ثم يدعو أيضًا ببعض الأدعية يكون جمع بين الأمرين .

إذًا قال هنا : (**وخَصَّ منها الدليل ما خلا من الشرك**): (**خص منه**) من هذا الحديث الذي معنا (**« إن الرقى »**) ؛ لأن عموم هذا الحديث يدل على أن الرقى شرك ؛ لكن وردت أحاديث صحيحة صريحة في جواز الرقى الخالية من الشرك ، يقول عوف بن مالك : كانت لنا رقى فسأل النبي ﷺ فقال : « **اعرضوا علي رقاكم ، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا** » .

كيف نجمع بين هذا الحديث وحديث الباب ؟

حديث الباب (**« إن الرقى والتمائم والتولة شرك »**) عام ، وحديث « **لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا** » خاص ، والقاعدة في العام والخاص إذا اختلفا يخصص العام بالخاص ، فيخرج من عمومه ويقال : إن الرقى شرك إلا ما خلا

من الشرك كما ذكر الشيخ هنا ، ولهذا قال : (**وخَصَّ منه الدليل**) كحديث عوف هذا ما خلا من الشرك .

وأما التمائم فكما ذكر لكم لم يرد فيها ما يدل على الإذن بها ، كما ورد في الرقى .

(**فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة**) رخص فيه النبي ﷺ من العين والحمة كما مر بنا في أثر بريدة بن حصيب من حديث عمران بن حصين والحديث الآخر المخرج في ((**مسلم**)) ؛ لكن تخصيصه ﷺ الرقية بالعين والحمة ، هل يعني ذلك الحصر ؟

- بعض أهل العلم حمل كلام الشيخ على أنه يرى أن الرقية من العين والحمى فقط ، لا ، كلام الشيخ رحمه الله يقول : (**وخَصَّ منه الدليل ما خلا من الشرك**) ، كل رقية خلت من الشرك سواء كانت من عين ، أو من غيرها ، وإن كان قوله : (**ما خلا من الشرك**) ، يعني الرقية ، لكن سببها أو المرض الذي رقي المريض من أجله يفهم من كلامه رحمه الله تعالى ؛ ولكنه هنا نص على ما ورد في الأحاديث ، وهو العين والحمة .

قال رحمه الله : (**والتولة هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها ، والرجل إلى امرأته**) .

التولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب الرجل إلى امرأته والمرأة إلى زوجها ، هذه موجودة في البلاد التي تنتشر فيها مثل هذه الخرافات يوجد مثل هذا الأمر . وهذا تصنعه النساء غالبًا ، وتصنعه المرأة الجاهلة لزوجها تزعم أنه يحبها بهذا الأمر ، ثم يصاب الرجل ولا قوة إلا بالله ، أو المرأة أحيانًا إن كان الغالب وضعه

للرجال ، يصاب بشيء لا يستطيع أن يتصرف بنفسه ، وربما يؤدي به إلى مرض شديد ، ربنا عز وجل عندما ذكر السحر في آية البقرة قال : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] ، وهذا عكس ما ذكر هنا من أن التولة تحبب الرجل إلى امرأته أو بالعكس ، فهم يعملون أشياء أحيانًا تفرق ، وأشياء أحيانًا يزعمون أنها تحبب ، وهو ما يعرف عندهم بالصرف والعطف .

فالعطف يزعمون عطف الرجل لمرأته والمرأة إلى زوجها ، والصرف ولا قوة إلا بالله يصرفون الرجل عن امرأته أو المرأة عن زوجها ، وكل ذلك من الشرك لما فيه من الاستعانة بغير الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**وروى أحمد عن رويفع قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا رويفع لعل الحياة تطول بك ، فأخبر الناس أن من عقد لحيته ، أو تقلد وترًا ، أو استنجى برجيع دابة أو عظم ، فإن محمدًا بريء منه »**) .

روى الإمام أحمد أيضًا عن رويفع بن ثابت بن السكن بن عدي بني مالك بن النجار أن النبي ﷺ قال : « (**« يا رويفع لعل الحياة تطول بك »**) وطالت به الحياة رضي الله عنه وأرضاه ، فقد امتد عمره حتى توفي رضي الله عنه سنة ست وخمسين ، يعني بعد وفاة النبي ﷺ بخمس وأربعين سنة تقريبًا . طالت به الحياة وأوصاه النبي ﷺ أن يبلغ الناس ويعلمهم أمورًا كانت موجودة عندهم ، وفي الحديث علم من أعلام النبوة ﷺ حيث أخبر بطول عمره فطال عمره وامتد عمره ، ولاه معاوية على طرابلس في شمال أفريقيا وغزى أفريقيا ومات رضي الله عنه يقولون ببرقة سنة ست وخمسين .

((« **فأخبر الناس أن من عقد لحيته** »)) ، وكانوا في الماضي لا يحلقون لحاهم ، ما ترى شخصًا يحلقها ولا حتى يأخذ منها ، وإعفاء اللحية لا شك أمر مطلوب شرعًا مؤكد واجب ، والنبي ﷺ أمر بهذا وحث ، وهو فعله صلوات ربي وسلامه عليه ، فقال عليه السلام : « **أرخوا اللحى** » ، وقال : « **أعفوا اللحى** » ، وحث وأمر بهذا . كانوا يعقدون لحاهم ، عقد اللحية يعقد طرفيها أو وسطها ، وكانوا يفعلون ذلك افتخارًا وتعاظمًا ، وكان الكبار منهم رؤساؤهم يصنعون هذا من باب العظمة والتفاخر .

((« **أن من عقد لحيته ، أو تقلد وترًا** »)) كما مر بنا ، تقلده وتعلق به ، ((« **أو استنجى برجيع دابة أو عظم** »)) وفيه النهي عن الاستنجاء برجيع الدابة وهو روثها أو بالعظام ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ، وقال : « **لا تستنجوا برجعه ولا بالعظم فإنه زاد إخوانكم من الجن** » ، يعني العظم ، والروث زاد لدوابهم .

ونهى عن الاستنجاء بالروث والعظم وقال : « **إنهما لا يطهران** » ، في رواية ابن خزيمة .

التولة كما ذكر الشيخ رحمه الله شيء يصنعونه لتحبيب الرجل لامرأته ، هذا هو تعريفها وهي من الأمور المحدثة ؛ لكن الرقية في الشرع هي القراءة على المريض ، النبي ﷺ قال : « **اعرضوا علي رقاكم** » . يعني ما تقرؤونه وما يُقرأ على الإنسان يسمى رقية .

والرقية في الشرع هي الموافقة للشرع ، القراءة على المريض الموافقة للشرع.

وأما التميمة ففسرها ها هنا رحمه الله تعالى بهذا التفسير ، والمقصود بها كل شيء يتعلق به ويتوجه قلب الإنسان إليه ، وعمومًا كما ذكر في الدرس الماضي

كل هذه الأشياء غالبًا الناس يفعلونها على أنها أسباب ، وقد سبقت الإشارة إلى مسألة الأسباب:

- وأنه إذا كان لم يثبت أنه سبب لا حسًّا ولا شرعًا فإنه يكون شركًا إلا إذا كان هذا السبب موهومًا ولا تأثير له بحال كالتعلق بالأموات في جلب رزق أو جلب نفع أو ما أشبه ذلك ، هذا شرك أكبر .
- أما إذا كان السبب صحيحا فإن المؤكد على الإنسان أن يفعل السبب ؛ لكن قلبه يتعلق بالله عز وجل ، فإن تعلق قلبه بالسبب مع استحضار واستشعار أن الله مسبب لهذا السبب قالوا : رخص بهذا أهل العلم وإن كان المنبغي والمؤكد عليه أن لا يلتفت قلبه إلا إلى الله عز وجل .
- وإذا كان السبب صحيحا ، السبب الصحيح إن علقه ولم يستشعر ولم يستحضر تعلقه بربه عز وجل ، يعني تعلق به بغض النظر عن خالق السبب وموجده فهذا يعتبر من الشرك الأصغر ، مع أنه سبب صحيح ؛ لكن تعلق به بغض النظر عن خالقه ومسببه وموجوده سبحانه وبحمده . لكن إن التفت إليه مستشعرًا مستحضرًا معتقدًا أن الله سبحانه وتعالى هو مسببه قالوا : لا بأس بهذا مع أن المؤكد عليه أن يكون قلبه والتفاته إلى ربه سبحانه وبحمده.

فكان التعلق بالأسباب إذًا أقسام:

- نوع من الشرك الأكبر عياذًا بالله وهو التعلق بالأموات ، ودعاؤهم من دون الله عز وجل .

- ونوع من الشرك الأصغر وهو إذا لم يثبت أنه سبب لا شرعا ولا حسا ، الحس يعني كالأدوية مثلاً هذه سبب صحيح لأنها ثابتة حسًّا ، فإذا لم يثبت لا شرعًا ولا حسًّا فهو من قبيل الشرك الأصغر .
- أما إذا كان السبب صحيحًا فالمؤكد عليه أن يعمل السبب ويلتفت ويتعلق قلبه بربه عز وجل :
  - فإن هو فعل ذلك السبب بغض النظر عن المسبب قالوا : فيكون شركا أصغرا .
  - أما إن تعلق به متعقدًا ومستشعرًا ومستحضرًا أن مسببه هو ربه سبحانه وبحمده قالوا : هذا جائز وإن كان الأولى أن يتعلق ويلتفت قلبه بربه سبحانه وتعالى .

فإذًا هذه الأسباب منها ما هو شرك أكبر ، ومنها ما هو شرك أصغر ، ومنها ما هو ماذا ؟ منها ما هو جائز .

قال رحمه الله : (**وعن سعيد بن جبير قال : من قطع تميمة من إنسان كان كعِدْل رقبة . رواه وكيع**) .

(**كان كعِدْل رقبة**) يعني كان كمن أعتق رقبة . وجه الشبه أن من أعتق الرقبة خلصها من الرق ، ومن قطع تميمة خلصها من الشرك ، ولهذا قال بعض أهل العلم : بل من قطع تميمة كان أعظم ممن أعتق رقبة .

وعلى كل حال فهذا أثر ورد عن سعيد رضي الله عنه وأرضاه ؛ لكن بعض أهل العلم يقول : هذا الأثر لا يقوله سعيد من عند نفسه ، وليس للرأي فيه مجالٌ فله حكم الرفع ؛ لكن هل يكون موقوفًا صحيحًا عن سعيد أو يكون مرسلاً ؟

المقصود أنه من كلام سعيد رضي الله عنه وأرضاه ، وأهل العلم يقولون هذا كلام لا يقوله من قبيل رأيه .

قال رحمه الله : (**وله عن إبراهيم قال : كانوا يكرهون التمائم كلها ، من القرآن وغير القرآن**) .

(**وله**) عن وكيع (**عن إبراهيم**) عن إبراهيم النخعي (**كانوا يكرهون التمائم كلها**) ، ومراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود ، وإبراهيم النخعي كبقية حاشية النخعيين وهم رجالٌ فضلاء من أصحاب عبد الله بن مسعود منهم الأسود بن يزيد النخعي ، ومنهم علقمة ابن أخيه ، ومنهم عبد الرحمن بن يزيد النخعي ، ومن هذه الأسرة إبراهيم وكان إمامًا فقيهًا رحمه الله تعالى رحمةً واسعة .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الرقى والتمائم) .

كما فسرها رحمه الله تعالى .

(**الثانية : تفسير التولة .**

الثالثة : أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء) .

يعني هذا الحديث عن ابن مسعود يدل على أن الثلاثة من الشرك دون استثناء ؛ لكن يأتي الاستثناء في أدلة أخر بالنسبة للرقية .

(**الرابعة : أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك**) .

لكن يشترطون شروطًا في الرقية وهي مهمة لصحة الرقية :

١ . **منها** : أن لا يعتقد أنها تنفع بذاتها ؛ ولكنها سبب .

٢. **ومنها :** أن لا تكون مخالفةً للشرع ، لا يكون فيها مخالفة للشرع .

٣. **ومنها :** أن تكون بكلامٍ مفهومٍ معلوم من الكتاب أو من الأدعية الواردة عن النبي ﷺ وبأسماء الله تعالى أو صفاته بحيث تكون بلغة واضحة بينة مفهومة لا تكون بلغة غير معروفة .

والرقى مدخلٌ للبدع ، بل مدخلٌ للشرك ، يدخل الشيطان والاعتقادات الشركية عن هذا الطريق إلى الناس ، والإنسان عندما يصاب بمرض تضعف نفسه ، وتجده يبحث عن أسباب الشفاء بكل طريقة ، فإذا وفق لما يدله على الصواب كان هذا من حفظ الله له ، وإن هو ذهب إلى مشعوذ أو إنسان زائغ في معتقده ربما يوقعه في المهالك ولا قوة إلا بالله بحيث يخسر دينه ودنياه ، خسارة الدين هي الخسارة ، فيذهب يبحث عن عافية بدنه فيخسر دينه ، ولا يشفى بدنه ولا قوة إلا بالله .

ولهذا يجب التوقي في مثل هذه الأمور ، وأن الإنسان لا يذهب إلى أحد يرقيه ، مع أن الأولى للإنسان أن يرقي نفسه ، والنبي ﷺ في كل ليلة يجمع يده وينفث فيهما بـ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين ، ويمسح بهما وجهه وما أقبل من جسمه ، وهذه رقية ، وعندما تذهب إلى راقٍ ، هذا الراقي سيقرأ آية من القرآن ، وهذه الآيات أنت تعرفها وتحفظها ، فهل تظن أن الراقي سيرقيك رقية أحسن من قراءتك لنفسك وسيخلص لك في قراءته كما تخلص نفسك ؟ فالأولى للإنسان أن يرقي نفسه ويرقي أهل بيته إن هم احتاجوا إلى ذلك ، يعوذ أولاده الصغار ولا يحتاج الناس .

ومما قيل في تفضيل الدعاء على الرقية أن الداعي يتوجه إلى ربه مباشرة ، والمرقي إذا لم يرقِ نفسه يرقيه شخص ، وربما يلتفت قلبه إلى ذلك الشخص ، ولهذا يقولون : رقية فلان أحسن ، وعزيمة فلان أحسن وكذا وكذا. مع أن المكتوب شيء واحد ، والقراءة واحدة ، فيكون فيه نوع التفات إلى الشخص ، هذا رجل فيه صلاح وفيه كذا وفيه كذا .

المقصود : أن الإنسان يتوقى في مثل هذه الأمور ، والراقي إذا رقى يتق الله عز وجل في رقيته ، ويحرص على الاتباع ، وما يقال هذه مجربة وهذه حاصلة وأنا قلت هذا الكلام ووجدت منه تجربة وتسمع في المقاطع أشياء عجيبة وغريبة ، قد تكون من كلام مباح ؛ لكن النص عليها على أنها مفيدة ونافعة ويترك في سبيل ذلك الرقية الشرعية ، وقراءة كتاب الله عز وجل لأن فلانًا من الناس جرب هذه فوجد أنها نافعة ، لا ينبغي هذا ، وعلى كل حال كون الإنسان يتبع الهدي هدي المصطفى ﷺ في هذا لا شك أسلم له في دينه وأقرب إلى حصوله مقصوده .

الإنسان إذا رقى واجتهد في رقيته وحضر قلبه يكون للرقية أثر عظيم ، في حديث أبي سعيد في رقيتهم على الذي لدغ ماذا قرأ عليه ؟ الفاتحة ، في رواية ثلاث ، وفي رواية سبع مرات ، والنبي ﷺ قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين ثلاث مرات ؛ لكن كون الإنسان يشتكي وله ورد من القرآن يقرؤه فإنه يقرأه وينفث على نفسه من كتاب الله لا بأس حتى لو أكثر من القراءة ، كله خير إن شاء الله ؛ لكن المقصود حضور قلبه في رقيته وفي دعاه .

قال رحمه الله : (**الخامسة : أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أو لا**) ؟

قال رحمه الله : (**السادسة : أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.**

السابعة : الوعيد الشديد على من تعلق وترا) .

(**الوعيد الشديد على من تعلق وترا**) ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « **فإن محمدًا بريء منه** » وهذا يدل على أنه كبيرة من كبائر الذنوب ، كيف يبرأ النبي ﷺ منه إلا وأن الذنب كبير .

(**الثامنة : فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان**) .

ينبغي للإنسان إن كان له يد يقطعها ، وإن كان لا يستطيع ويخشى من ردة فعل تكون عند هذا الإنسان فلا أقل من أن يوجهه ويبين له أن تعلقه بالله عز وجل هو الذي ينفعه في دينه وفي بدنه ، وأن مثل هذه الأمور لا تجزي على صاحبها شيء .

(**التاسعة : أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف بأن مراده أصحاب عبد الله بن مسعود**) .

المؤلف رحمه الله أشار إلى الاختلاف ، قال : رخص به بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه . ولم ينص فيما تقدم على أن الذي لم يرخص فيه ابن مسعود ، ابن مسعود وكذا ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه لم يرخصوا فيها ، فذكره هنا لا يدل على أنه يخالف الكلام المتقدم ولكنه بيان له وإيضاح .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله : (**باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما**

وقول الله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى * إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم : ١٩ – ٢٣]) .

قال رحمه الله تعالى : (**باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما**) تحدث المؤلف رحمه الله هنا عن مسألة كبيرة ، وهي مسألة التبرك ، والتبرك معناه طلب البركة ورجاؤها واعتقادها .

والبركة أصلها : كثرة الشيء وثبوته ، إذا كان الشيء كثيرًا وثابتًا قِيل في هذا الشيء بركة .

واشتقاقها من بِرْكَة الماء كما يقال ، فإن البركة فيها ماء كثير وماء ثابت أيضًا .

والبركة من الله عز وجل أولاً وقبل كل شيء :

- قال عيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ [مريم : ٣٠ ، ٣١] .
- وقال عز وجل : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

- قال الحسين بن فضل رحمه الله في تبارك : تبارك في ذاته وبارك فيما شاء من خلقه .
- وقال عز وجل : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾ [الصافات : ١١٣] . ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ ﴾ يعني إبراهيم عليهم السلام .

والبركة قد تكون في الأزمنة ، وقد تكون في الأمكنة :

- **ففي الأزمنة :** أزمنة مباركة مثل:
  - رمضان شهر مبارك ،
  - الحج وأيامه ،
  - الوقت آخر الليل ،
  - بل البكور عمومًا فيه بركة ، والدليل «بورك لأمتي فبي بكورها».
- **وفي الأمكنة بركة :** وبركتها ليس بأن يتمسح الإنسان بها كما يفعل بعض الجهلة ؛ ولكن بركتها في لزومها وفي كثرة العبادة فيها .

ثم إن هذه البركة لا تخلو :

- إما أن تكون بأمرٍ حسي معلوم ، مثل بركة العلم ، الدعاء ، الإيمان ، فهذه لا شك بركات ، والإنسان عندما يطلب العلم إنما يطلب شيئًا فيه بركة ، بركة عليه ، وعلى نفسه ، وأهله في دينه ، في دنياه وفي آخرته ، فالعلم فيه بركة ودعاء المسلم لإخوانه فيه بركة . والمسلم عندما يتطلب مثل هذه البركات من العلم ومن أهل العلم إنما يطلب بركة العلم علمهم ، ودعوتهم ، ودعائهم ، والاقتداء بهم وبأهل الصلاح والخير وما أشبه

ذلك ؛ لا لأنه يعتقد أنهم يعطون البركات ، إنما يعطيها ربنا عز وجل ؛ لكن ما يناله من الخير من العلم ، من الدعوة ، من الدعاء وما أشبه ذلك كل هذا لا شك بركات .

- **الأمر الثاني :** بركة تكون بأمرٍ مشروعٍ معلوم ، كبركة القرآن ، فإن القرآن كتابٌ مبارك ، ومن قرأه وورد عليه وكان له منه وردٌ فإنه يناله من بركاته بركاتٍ لا حد لها .

وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مبارك في أربع آيات :

- ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ [ص : ٢٩] ، لاحظوا ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ .
- **الثاني :** ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] .

وآيتان في الأنعام :

- ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٩٢] .
- ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٥] .

وتلحظون إطلاق البركة في هذه الآيات الأربع ، ما قيدت بركة القرآن بقيد حتى تكون هذه البركة شاملة لكل شيء ، لا تحد بحد :

- بركاته على قلبك ، وأثره على القلوب فهو شفاء للصدور .
- بركته على بيتك ودينك ودنياك وآخرتك.
- بركته بهذه الفتوح العظيمة التي عمت وانتشرت في الأمة بأكملها إنما هي من آثار بركات هذا الكتاب العظيم.
- وبركته مما يحصل فيه من الأجر .

والناس يكادون بل يتفقون على الأجر ؛ لكن ما أنزل القرآن لمجرد الأجر ، وإن كان الأجر مطلبًا عظيمًا ، « **من قرأ القرآن فله في كل حرف حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها** » لكن هناك أمور عظيمة وكبيرة ، فالقرآن أنزل لثلاثة أمور ، هي :

١ . ليتلى ، وهذه يتفق فيها الجميع .

٢ . **الثاني** : للعلم به ، وهذه لأهل العلم نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ، وعلمه شريف رفيع ، علم رب العالمين ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ﴾ [النساء : ١٦٦] ، يعني مشتملاً على علمه .

٣. **والثالث** : العمل به .

هذه كلها بركات عظيمة ، إذا ورد الإنسان على كتاب الله ونهل منه وقرأ منه ، ولهذا من الحرمان أن لا يكون للإنسان وردٌ من القرآن ، هذا حرمان ، كتاب بهذه المثابة وبهذه المنزلة تلهو عنه وتتشاغل عنه ، وبأي شيء تتشاغل ؟ بفضول المباحات في كثير من الأحوال إن لم يتشاغل في أمور أخر ، والله المستعان .

المقصود : أن القرآن مباركٌ فأنت تقرؤه لبركته ، البركة التي لا تحد بحد.

هناك بركات موهومة عند أهل الخرفات ، وترى وتسمع عندهم من البركات ما لا حد له ولا حصر ، تبرك بالأشجار ، وتبرك بالأحجار وتبرك بالموتى وما أشبه ذلك ، فهذه بركات موهومة محرمة وقد يصل بعضها إلى الشرك الأكبر .

لكن كيف لك أن تفرق بين البركات الموهومة والبركات المعلومة ، والجائزة والمشروعة ؟

بالنظر إلى حال أهلها ، بالنظر إلى حال أهلها تعرف هذا الأمر وإلا ربما يختلط هذا الأمر على الناس ، فأولياء الله المتقون هم الذين يؤخذ من علمهم

ودعائهم ودعوتهم ، وينال الإنسان منها خير وبركات ، وأما غيرهم فهم أبعد عن ذلك .

وأولياء الله من هم ؟ ما هي بالشارات ولا هي بالمناصب ولا هي بالملابس ، بيانه في كتاب الله عز وجل : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢ - ٦٤] ، اللهم اجعلنا جميعًا منهم ، ومن كان لله تقيًّا كان لله وليًّا .

أورد المؤلف هذه الآية ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى** ﴾ وهي في الشرك الأكبر ، والباب يحتمل الشرك الأصغر والأكبر :

- فإن اعتقد الإنسان في هذه الأشياء أنها سبب للبركة ، والبركة من الله فهذا الشرك الأصغر ، للقاعدة التي مرت بنا وهي من اعتقد ما ليس سببا لا من الناحية الشرعية ولا من الناحية الحسية فهو من الشرك الأصغر .
- أما إذا اعتقد أنه بركة بذاتها ، وأنها واسطة بينه وبين الله عز وجل ، هذا من الشرك الأكبر لا شك .

قال تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتُمُ** ﴾ أخبروني ﴿ **اللَّاتَ وَالْعُزَّى** ﴾ اللات قرئت قراءتين :

- **القراءة الأولى :** بالتخفيف ﴿ **اللَّاتَ** ﴾ ، وهي صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت وعليه ستور كانت بالطائف . واسم اللات مشتق من الإله ، اشتقوا من أسماء الله أسماءً لأصنامهم .

- **وقرئ (اللَّاتَّ)** بالتشديد ، قراءة رويس عن يعقوب الحضرمي أحد العشرة رحمه الله ، وهي اسم فاعل من لَتَّ يَلُتُّ ، وهو اسم رجل كان يَلُتُّ السويق للحاجِّ ، فمات فعكفوا على قبره ، كان يصنع السويق ، السويق نوع من الطعام دقيق مع ماء وكذا ، يصنعه ويطعمه الحاجّ ، رجل صالح ، والناس يفتنون بهؤلاء الصالحين ، فلما مات عكفوا على قبره ، ولا بد أن يكون قبره قريبًا من هذه الصخرة .

لما دخل النبي ﷺ الطائف فاتحًا أرسل إليها المغيرة بن شعبة الثقفي رضي الله عنها فهدمها وطمسها .

أما العزى فهي شجرات سمرٍ ، قيل : ثلاث شجرات سمر ، في وادي نخلة بين مكة والطائف ، وهي لقريش وكنانة كانوا يعبدونها ، وحولها بيت ، لا بد يكون فيه بيت وسدنة ، أرسل النبي ﷺ إليها خالدًا فهدمها وقطع الشجرات . ورد أنه لما رجع إلى النبي ﷺ قال : « **ما فعلت شيئًا** » ، فرجع فاعتصم السدنة بالجبل وإذ امرأة عريانة ناثرة شعرها تحثو التراب على رأسها فقتلها .

المقصود : أن خالدًا طمسها وقضى عليها .

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ مناة صنمٌ بالمشلل بين المدينة ومكة ، كانت لبني هلال . وقيل : لهذيل .

وكان الأوس والخزرج أيضًا يعظمونها ، فأرسل النبي ﷺ لها عليًّا فقضى عليها ، وانتهت هذه الأمور كلها في عهد المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه .

﴿ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ معنى الثالثة الأخرى يعني ذمٌّ لها بأنها الأخيرة الوضيعة .

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ﴾ تجعلون لله تعالى الأنثى ولكم الذكر حين عبدتم هذه الأصنام ، وهي أسماؤها أسماء إناث ، أسماء رخوة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ [النساء : ١١٧] ، وحتى لما عبدوا الملائكة مع الله عز وجل قالوا : الملائكة بنات الله ، ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾ يعني قسمة جائرة ظالمة ، أن تجعلوا لأنفسكم ما تحبون وتجعلون لله ما تكرهون ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل : ٦٢] .

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ يعني مجرد أسماء ، لا معنى لها ولا خير يرتجى من ورائها .

﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ والسلطان هنا يراد به الحجة والبرهان .

﴿ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ﴾ يعني ما هي إلا ظنون وأوهام واتباع للهوى ومحاكاة للآباء والأجداد ، ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ على لسان محمد ﷺ .

كانت هذه الأصنام موجودة بين العرب في الجاهلية ، ولكن كان يوجد بينهم من مَنَّ الله عليه وثبته على دين الخليل إبراهيم عليه السلام ؛ لأن الأصل أن العرب كانوا على دين إبراهيم حتى جاء عمرو بن لحيي الخزاعي وأدخل عليهم الشرك ، ودعاهم إلى الوثنية ففشت وانتشرت فيهم الوثنية وبقيت عندهم بقايا من دين إبراهيم عليه السلام ؛ لكن ما تغني عنهم مع الشرك بالله عز وجل .

كان بعضهم يأنف الشرك ويرفضه ، يقول زيد بن عمرو بن نفيل والد سعيد رضي الله عنه وأرضاه سعيد بن زيد أحد العشرة يقول :

تركت اللات والعزى جميعًا ** كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ** ولا صنمي بني غَنْمٍ أزور

ولا هبلا أزور وكان ربًّا ** لنا في الدار إذ عقلي صغير

يقول : كان عقلي صغير وأنا أذهب إلى هبل وإلى اللات والعزى وهذه الأحجار ، فلما مَنَّ عليّ ربي وأرشدني عرفت أن هذه الأصنام لا تعقل ولا تنفع ولا تضر ، ولا تدفع عن نفسها شيئًا فكيف بغيرها ؟

جاء أحدهم بإبله إلى صنم يسمى سعدًا يتبرك بهذا الصنم ، فلما رأت الإبل ما حول الصنم من الدماء وكانوا يذبحون لهذه الأصنام ، جفلت الإبل وذهبت في كل اتجاه ، وإذا جفلت الإبل أتعبت أهلها في جمعها ، فغضب الرجل وأخذ صخرة ورمى بها ذلك الصنم ، وقال :

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا ** فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة ** من الأرض لا تدعو إلى غي ولا رشد

يقول : لا يملك غي ولا رشد ولا يملك شيء ، عرف هذا الأمر لما حصل لإبله ما حصل ، وهناك من الرجال عقلاء لا شك يأنفون مثل هذه الأمور ومثل هذه الترهات .

قال رحمه الله : (**عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها : ذات أنواط**) .

(**عن أبي واقد الليثي**) أبي واقد الليثي حارث بن عوف الليثي ، قيل : ولد في السنة التي ولد فيها ابن عباس ، وتوفي قيل سنة ثمان وستين ، وهي السنة التي توفي فيها ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه . وقيل : سنة خمس وثمانين بمكة رضي الله عنه وأرضاه .

تلحظ أنه لما خرج مع النبي ﷺ إلى حنين صغير ، ابن عباس لما مات النبي ﷺ يقول في حديثه المشهور لما مر راكبًا على حمار أتان في حجة الوداع قال : وأنا يومئذٍ قد ناهزت الاحتلام . يعني ثلاث عشرة أربع عشرة سنة ، وحنين كانت سنة ثمان من الهجرة ، يعني عمر أبي واقد أحدى عشرة سنة أو اثنى عشرة سنة .

قال : (**خرجنا إلى حنين**): وحنين وادٍ بين مكة وبين الطائف وقعت فيه الموقعة المشهودة المشهورة .

(**ونحن حدثاء عهد بكفر**) ؛ لأن الناس دخلوا في دين الله أفواجًا ، بعدما فتحت مكة أسلم الناس ، وهو يقول هذا الكلام كالعذر ، يعني أننا عندما سألنا هذا السؤال كنا حديثي عهد بجهل أو بكفر ، ولهذا المؤلف رحمه الله أخذ من هذه فائدة يقول : إن المنتقل من الشيء لا يُؤْمَن أن يبقى في قلبه شيء ، يبقى في نفسه شيء مدة ، حتى يتبين الأمر ويتضح .

(**وللمشركين سدرة يعكفون عندها**) السدرة شجر السدر (**يعكفون عندها**) يعني يقيمون عندها ويمكثون عندها رجاء البركة ، ويعلقون بها أسلحتهم يعتقدون أنهم إذا علقوا السيوف فيها يكون السيف أمضى وأقوى ،

(**يقال لها ذات أنواط**) وناط بمعنى علق ، (**فمررنا بسدرة**) ، في رواية بسدرة خضراء .

قال رضي الله عنه : (**فمررنا بسدرة فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**) .

(**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**) ، يعني يريد أن يكون لنا شجرة نتبرك بها كما أن لهم شجرة كانوا يتبركون بها .

(**فقال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، إنها السنن »** .

(**« الله أكبر »**) تنزيهًا وتعظيمًا لله عز وجل ، وهو عليه الصلاة والسلام عندما ينكر الشيء يعظم الله عز وجل إذا كان الشيء يمس الدين والعقيدة ، فربما قال : **« الله أكبر »** وربما قال : « **سبحان الله ، سبحان الله** » .

« إنها السنن » أي الطرق ، سنن الأمم السابقة ، سنن أهل الكتاب ، فأنتم ربما تأخذون من سننهم كما أخذوا هم من سنن غيرهم من الوثنية ، وقلَّ أن تجد حائدًا عن الجادة والعقيدة السليمة إلا ولديه أشياء مما هو لدى أهل الكتاب أو الوثنية ، لو تتأمل البدع الموجودة والمنشرة عند كثير من الناس وجدت لها نظيرًا عند عباد الأوثان .

ولو أنهم وقفوا عند الأصلين ، الكتاب والسنة ، وعرضوا أعمالهم وما عندهم على الكتاب والسنة ما وقعت هذه الأمور ، ولا حصلت منهم هذه المخالفات وهذه البدع وهذا التأثر بالمشركين ، والنبي أخبر أنه لا بد أن يقع من هذا شيء في الحديث المشهور المخرج في ((**الصحيح**)) « **لتتبعن سنن من كان قبلكم**

شبرًا بشبر وذراعًا بذراع » ، وهو قاله ﷺ وإن كان خبرًا فمقصوده التحذير ، فهو خبر بمعنى النهي والتحذير .

(« **قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾**») .

قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى ، موسى لقي من بني إسرائيل الكثير والكثير عليه الصلاة والسلام ، فبعد أن تبعهم فرعون ورأوا أنفسهم بين البحر وبين فرعون ، وما عهدوا من فرعون إلا الظلم والطغيان ونحر الأطفال ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا ﴾ [الشعراء : ٦١ ، ٦٢] . انظروا العقيدة ، الثقة بالله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ ، فماذا حصل ؟ ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء : ٦٣] ، انفلق إلى اثني عشر فرقًا ، بعدد أسباطهم ، كل فرق مثل الجبل العظيم دخلوا فيها ، ثم تبعهم فرعون ، سبحان من طمس على قلوب أعدائه ، يعني يرى هذه الآية الكبيرة وآخر آية من الآيات التسع التي يراها تباعًا ولكنها ما كانت تزيده إلا عتوًّا ونفورًا ، ﴿ وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾ [الزخرف : ٤٨] ومع ذلك ، يعني يرى أن موسى يضرب البحر فينقلب البحر إلى اثني عشر طريق ، كل طريق مثل الجبل العظيم ، ومع ذلك يشك في رسالته ويدخل ، لكن أمر أراده الله عز وجل ، خرج بنو إسرائيل من الضفة الأخرى من البحر ، وأطبق الله البحر على فرعون وقومه وهلكوا جميعًا .

رأى بنو إسرائيل الآية العظيمة بأعينهم ، ورأوا منة الله عليهم كيف أنجاهم ، ومع ذلك ما أن جاوزوا البحر ، ومروا على وثنيين يعكفون على أصنام لهم ، بدلاً من أن يدعوهم إلى توحيد الله ودينه ماذا قالوا ؟ ﴿ **اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ نريد إله ، سبحان الله العظيم ، قال موسى : ﴿ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣٨ ، ١٣٩] . فكان الواجب أن يشكروا الله عز وجل وهم كانوا على دين ، ومع ذلك أرادوا من موسى أن يجعل لهم إله ، بقي هذا الأمر في نفوسهم ، فلما ذهب موسى للقاء ربه ماذا فعلوا ؟ عبدوا العجل ، وهذا يدل على خطورة الشرك ، وأن الناس إن لم يحذروه فهم على خطر منه ، ولما أمنه أناس وقعوا فيه .

وإبراهيم الخليل الذي حطم الأصنام بيده ماذا يقول ؟ ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ؛ لأنهم يعلمون خطورة هذا الأمر وشدته ، وأنك مهما عملت من الأعمال الصالحة ما لم تكن عقيدتك نقية ، وتوحيدك صافٍ ، واعتقادك بربك لا تغني عنك هذه الأعمال شيء ، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] .

المقصود : أن النبي ﷺ شبه طِلْبَتهم بطلبة بني إسرائيل ، فدل على أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني ، وليس بالأسماء ، الأسماء مختلفة لكن المعنى واحد ، ولهذا أنكر النبي ﷺ عليهم هذا الصنيع .

(« **لتركبن سنن من كان قبلكم** ») .

أي لتتبعن سنن من كان قبلكم وهذا خبر ، والمراد به التحذير والنهي ، فسيقع في هذه الأمة من يأخذ بسنن الأمم قبلها ، اليهود والنصارى والوثنيين وغيرهم ،

وقد حصل ما أخبر به النبي ﷺ ففشت البدع والاعتقادات الشركية بين كثيرٍ من المسلمين .

والواجب على أهل العلم وأهل التوحيد والعقيدة أن يحذروا الناس وينصحوا لهم ، النصح حتى للكافر حقٌّ عليك أنت أيها المسلم:

- هذا نوح عليه السلام يقول لقومه : ﴿ وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٢] .
- ويقوله هود لقومه ، ويقوله صالح لقومه : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٧٩] .
- ويقوله شعيب لقومه : ﴿ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٩٣] .

فمقتضى النصيحة أن ينبه هؤلاء الذين يقعون في هذه المخالفات الخطيرة من باب النصح لهم ومحبة الخير لهم ، وإذا استقام الإنسان على عقيدته وتوحيده فما ينبغي أن يبخل على إخوانه ، وأن يوجههم ويدعوهم إلى الله عز وجل وإلى توحيده .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية النجم .

الثانية : معرفة صورة الأمر الذي طلبوا) .

طلبوا شجرة فقط ، يجلسون عندها ويتبركون عندها ، فشبه النبي ﷺ طلبتهم بطلبة بني إسرائيل ، وما فصل عليه السلام ولا قال كذا وكذا وكذا ؛ لأنهم حتى ولو جلسوا عندها اعتقاد أنها سبب سيؤدي الأمر في النهاية إلى عبادتها مع الله عز

وجل ، ولهذا كان في كلامه ﷺ سدًّا للذريعة وإغلاقًا للباب ، وفي باب العقيدة يعني ملاحظة سد الذرائع مهمة جدًّا ؛ لأنه إذا فُتِحَ الباب جاءت هذه البدع ، وانحدرت على الناس انحدار الماء من مكان مرتفع ؛ لكن إذا غلق الباب .

قال رحمه الله : (**الثالثة : كونهم لم يفعلوا**) .

ما فعلوا ولكن طلبوا من النبي ﷺ ، هذا اعتقاد منهم أن هذه الأمور لا تكون إلا بإذن من الشارع ، ما تكون برغبة منهم فقط .

(**الرابعة : كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك ، لظنهم أنه يحبه**) .

أرادوا التقرب إلى الله عز وجل ، وأرادوا أيضًا البركة أن يتبركوا بهم ظنًّا منهم أن الله تعالى يحب هذا الأمر .

(**الخامسة : أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل**) .

أصحاب محمد رضي الله عنهم وإن كانوا حديثي عهد ، لم يقلها السابقون الأولون ، وإنما متأخرو الإسلام وحديثو العهد ؛ لكن حتى هؤلاء صحبتهم لمحمد ﷺ وكونهم معه ، القضية أن يكونوا أبعد الناس عن مثل هذه الأمور ، فإذا جهلوها فغيرهم أولى .

قال رحمه الله : (**السادسة : أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم**) .

بلا شك لأصحاب محمد من الخير والفضل ويكفيهم شرفًا صحبته صلوات الله وسلامه عليه ، واختيار الله لهم أن يكونوا أصحابًا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله : (**السابعة : أن النبي ﷺ لم يعذرهم ، بل رد عليهم بقوله : « الله أكبر ، إنها السنن ، لتتبعن سنن من كان قبلكم »**) .

النبي ﷺ ما قال هذا جهل وكذا وسكت ، بل قال : (**« الله أكبر »**) تعظيمًا لله عز وجل ، ثم بين أن هذه السنن وأنه سوف يحصل منكم ويقع منكم ما وقع في الأمم قبلكم .

قد أخبر النبي ﷺ عن افتراق هذه الأمة أكثر مما يفترق اليهود والنصارى ، فقد افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة ، من هي ؟ أهل هذا البلد أو ذاك ؟ أو أهل تلك القبيلة أو هذه ؟ لا ، « **من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي** » هذه الفرقة الناجية ، وإلا فكل يدَّعيها ، كلٌّ يقول نحن ؛ ولكن الفيصل والحكم في التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وما كان عليه صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه .

قال رحمه الله : (**فغلظ الأمر بهذه الثلاث**) .

الثلاث هي:

١. **« الله أكبر ،**
٢. **إنها السنن »** ،
٣. (**« قلتم والذي نفسي بيده »**) إلى آخره .

قال رحمه الله : (**الثامنة : الأمر الكبير ، وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا ﴾** .

هذا الأمر الكبير العظيم ، أنه شبه طِلْبَتهم بطلبة بني إسرائيل ، مع أن طلبة بني إسرائيل عياذًا بالله أن يجعل لهم إله ، وهؤلاء طلبوا سدرة فقط يتبركوا بها ؛ لكن مآلها لو اتخذوها أن تكون إلهًا ، فلهذا أنكر ﷺ هذا الأمر وجعل طلبهم كطلب بني إسرائيل .

(**التاسعة : أن نفي هذا من معنى لا إله إلا الله مع دقته وخفائه على أولئك**) .

(**نفي هذا من معنى لا إله إلا الله**) معنى لا إله إلا الله : لا معبود حقٌّ إلا الله ، وعند أرباب المقالات وأهل البدع يقولون : لا خالق إلا الله .

انظروا النبي ﷺ لما قالوا له : اجعل لنا . قال : « **قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهًا** » بنو إسرائيل قالوا : اجعل لنا خالقًا ؟ لا ، هل معنى الإله الخالق ؟ لا يمكن ، لا يمكن أبدًا لأي أحد أن يقول : الإله هنا بمعنى الخالق . اجعل لنا إلهًا يعني اجعل لنا معبودًا نعبده ، كما لهؤلاء معبودٌ يعبدونه ، فالإله معناه المعبود ، ففي الحديث بيان لمعنى لا إله إلا الله ، وهو إخلاص العبادة لله عز وجل وعدم التعلق بغيره لا بشجر ولا حجر ولا غيره .

قال رحمه الله : (**العاشرة : أنه حلف على الفتيا ، وهو لا يحلف إلا لمصلحة**) .

في قوله « **والذي نفسي بيده** » ، وكثيرًا ما يحلف النبي ﷺ بهذه الصيغة .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : أن الشرك فيه أكبر وأصغر ؛ لأنهم لم يرتدوا بهذا**) .

الشرك فيه أكبر وأصغر ، وهم رضي الله عنهم ما طلبوا الشرك الذي تركوه ودخلوا بعده في دين الله عز وجل ؛ لكن طلبوا سدرة يجلسون عندها يتبركون اعتقادًا أن فيها بركة أو سبب البركة أو ما أشبه ذلك .

(**الثانية عشرة : قولهم : ونحن حدثاء عهد بكفر . فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك**) .

غيرهم من الصحابة ، هو خاص بمسلمة الفتح ، الذين أسلموا ثم خرجوا مع النبي ﷺ مباشرةً إلى حنين .

(**الثالثة عشرة : التكبير عند التعجب ، خلافًا لمن كرهه**) .

التكبير ، الله أكبر ، وسبحان الله عند التعجب وليس التصفيق والصفير ، والله المستعان ، فيكبر عندما يتعجب ، والتعجب والعجب هنا ، التعجب الإنكار ، التعجب يراد به الإنكار .

قال رحمه الله : (**الرابعة عشرة : سد الذرائع**) .

سد الذرائع المفضية إلى الشرك بالله عز وجل ، فالتبرك بالشجرة اعتقاد أنها سبب قد يتمادى بصاحبه الأمر ويأتيه الشيطان ، الشيطان يجلب على الناس في هذه الأمور ، وغاية الشيطان ﴿ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ ﴾ [الحشر : ١٦] ، هذه غايته ، ليست غايته أن يقع في معصية ، وإن كان يدعو إلى المعصية ليتدرج به إلى الكفر بالله عز وجل ، فسد الذرائع مهم وأمره عظيم في مجال العقيدة لا شك ؛ لأنه إذا تركت هذه الذرائع وقع الناس في الشرك ، فلما جاءوا إلى القبور طافوا بالقبور ، دعوا عند القبور ، ما دعوها ، دعوا عندها ، في النهاية ماذا حصل ؟

دعوا القبور نفسها ، دعوا الموتى أنفسهم ، وسبب هذا التساهل في مثل هذه الوسائل .

قال رحمه الله : (**الخامسة عشرة : النهي عن التشبه بأهل الجاهلية**) .

(**النهي عن التشبه بأهل الجاهلية**) وبغيرهم ، وفي الحديث « **من تشبه بقوم فهو منهم** » .

قال رحمه الله : (**السادسة عشرة : الغضب**) .

قد يغضب الإنسان ، الإنسان يغار على عقيدته ، عندما يرى أمرًا جللاً يخل بالعقيدة .

قال رحمه الله : (**السابعة عشرة : القاعدة الكلية لقوله : « إنها السنن »**) .

« **إنها السنن** » ، سنن لله عز وجل في هذا الخلق لا تتبدل ولا تتغير ، أن الناس يتأثر بعضهم ببعض ، ويأخذ بعضهم من بعض ، فالمسلم قد يأخذ من اليهود ومن النصارى ومن الوثنيين ما لم يكن محصن ، وتحصينه بالعلم النافع المأخوذ من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ولهذا تجد الناس يقعون في هذه الأمور ، لا إذا كان الجهل منتشر عنده ، وقلة أهل العلم الذين يعلمونهم وينكرون عليهم بعض الأمور ، والعامة إذا لم يكن أحدًا يعلمهم ساروا في الجهل وتمادوا فيه ووقعوا في هذه الأمور .

(**الثامنة عشرة : أن هذا علم من أعلام النبوة ، لكونه وقع كما أخبر**) .

لأنه أخبر فوقع كما أخبر صلوات ربي وسلامه عليه ، فإن كثيرين تأثروا بأهل الكتاب وبغيرهم ، وكما قلت : لو نظرتم في بدعهم المعروفة المشهورة وجدتموها عند أهل الكتاب وعند غيرهم .

(**التاسعة عشرة : أن كل ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا**) .

ما في شك ، ما دام مذمومًا ، وذُمَّ به من كان قبلنا فهو مذموم ، الذم ليس لمجرد أنهم يهود أو نصارى ، لا وإنما لهذا العمل الذي حصل منهم ، ولهذا قال ﷺ : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » وهو في النزع ، وهذا فيه ذمٌّ لمن فعل هذا الفعل من هذه الأمة وتشبه بهم .

(**العشرون : أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر ، أما « من ربك » ؟ فواضح ، وأما « من نبيك » ؟ فمن إخباره بأنباء الغيب ، وأما « ما دينك » ؟ فمن قولهم : اجعل لنا إلهًا إلى آخره**) .

لو تقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر ، كما تعرفون العبادات توقيفية ، والأصل في العبادة الحظر ، لا يجوز لأحد أن يُحدث عبادة من عند نفسه ، بل العبادة والدين ما شرعه الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

أخذ المؤلف رحمه الله هذه الفائدة (**أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر**) من قولهم : (**اجعل لنا**) ، هي طلب ، يعني ما أقدموا من أنفسهم ووقعوا في هذا العمل ، لا ؛ ولكنهم طلبوا اجعل لنا ذات أنواط .

ففيه التنبيه على مسائل القبر الثلاثة ، ما هي مسائل القبر والتي ألف فيها الشيخ رحمه الله كتاب وجيز عظيم ؟ هي مسائل القبر التي سيسألها كل إنسان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

يقول : (**أما « من ربك فواضح »**) يعني فيه التنبيه على من ربك ، وربي الله الذي خلقني ورباني بالنعم ، وهو معبودي ليس لي معبود سواه ، فلا أتخذ ولا

أطلب إلهًا غيره كما طلب بنو إسرائيل ، ولا نطلب شجرة ولا غيرها ، بل نعبد الله وحده لا شريك له .

وفيه أيضًا : التنبيه على من نبيك ، من أين أخذناها ؟ فيه تنبيه على رسالة النبي ﷺ من إخباره بالغيب ، وأن هذا الأمر سيقع ، أخبر ﷺ ، يعني في معناه أن هذا علم من أعلام نبوته ﷺ .

(**وأما « ما دينك »**) فمن قوله (**اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة**) ، فديني هو الإسلام والاستسلام لله والانقياد له والخضوع له والتذلل له سبحانه وبحمده ، طاعة لله وعبادة له سبحانه وبحمده ، لا يعبد المسلم غيره ولا يطلب إلهًا غيره .

المقصود : أن المؤلف رحمه الله يشير إلى أن في هذا الحديث إشارة إلى المسائل الثلاثة العظيمة .

قال رحمه الله : (**الحادية والعشرون : أن سنة أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين**) .

(**« سنن من كان قبلكم »**) ، سننهم مذمومة كسنة المشركين ، ومن سننهم قولهم : ﴿ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ .

قال رحمه الله : (**الثانية والعشرون : أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يُؤْمَن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة ، لقولهم : ونحن حدثاء عهد بكفر**) .

المنتقل من الباطل ما يجتث الباطل من قلبه دفعة واحدة ويبقى عنده بقايا ؛ لكنها تزول مع الوقت ومع العلم ، ومن هنا يتبين شرف العلم وفضله وفائدته ، وحاجة الأمة كلها إليه ، فدون العلم يعيش الناس في جهل ، والجهل بؤرة

لانتشار البدع وانتشار الخرفات والاعتقادات التي ترفضها العقول السليمة والفطر المستقيمة ، والشريعة البيضاء النقية .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب ((**التوحيد**)) :

(باب ما جاء في الذبح لغير الله)

الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه ، وجزاه عن أهل التوحيد خيرًا ، نظر للواقع الذي يعيشه الناس ، فألف هذا الكتاب ، حتى يعود الناس إلى ما كان عليه الصدر الأول محمد صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عنهم ، ولله الحمد والمنة لا ترى في بلادنا شيئًا ظاهرًا من البدع والخرفات ، وكله بفضل الله عز وجل ثم بفضل هذه الدعوة المباركة ، وهذه الكتب الوجيزة وتقرؤونها وسهلة ولله الحمد ، والتي قرأها الناس وانتفعوا بها ، حتى عمَّ الخير كل مكان .

الذبح لغير الله موجود في كثير من البلدان ، يذبحون للجن ، إذا أراد الإنسان أن يعمر بيت قبل أن يعمر البيت يذبح ذبيحة ويلطخها بالدماء ، وربما عياذًا بالله تقربًا للجن حتى لا يأتوه في بيته ولا يؤذوه .

وقد أعطاهم الشرع الحكيم ولله الحمد هذه الأمور التي تغنيهم عن الوقوع في مثل هذه الأمور ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **اجعلوا من قراءتكم في بيوتكم ، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة** » .

بيت يذكر فيه ربنا عز وجل سواء بقراءة البقرة أو بأي من كتاب الله ، أو بأي من أذكار الله ما للشياطين فيه مأوى أبدًا ، وأما الذبح والتقرب للجن فلن يزيدهم إلا رهقًا كما ذكر الله عز وجل ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] ، زادوهم قلقًا وخوفًا ، وربما يذبح للموتى وينذر لهم ، هذا موجود في كثير من البلاد .

لهذا نبه الشيخ رحمه الله تعالى بهذه الترجمة لعلاج هذه الظاهرة ، وحتى يرجع الناس إلى النهج القويم وإلى الصراط المستقيم .

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] . وقوله : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢]) .

الذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا شرك أكبر ولا قوة إلا بالله ، ولهذا قرن بالصلاة ، (﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾ ، ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾) فكما أن من صلى لغير الله فقد كفر كذلك من ذبح لغير الله فقد أشرك .

قال تعالى : (﴿ قُلْ ﴾) قل يا محمد (﴿ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾) والنسك يطلق على العبادة ، ومنه الذبح (﴿ وَمَحْيَايَ ﴾) كل ما آتيه في حياتي ، (﴿ وَمَمَاتِي ﴾) ما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ، (﴿ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾) ، اللام الداخلة لفظ الجلالة (لله) فيما يتعلق بالصلاة والنسك معناها الاستحقاق والاختصاص ؛ لأنهما من توحيد العبادة توحيد الألوهية ، وأما الحياة والممات فهما من توحيد الربوبية ، فيكون معنى اللام الملك له سبحانه وبحمده . قد مرت الإشارة إلى هذه القاعدة ، وهي أن المضاف إلى الله

عز وجل إن كان من المعاني فاللام للاستحقاق ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ استحقاقًا واختصاصًا ، وإن كان من الذوات فاللام للملك .

والآية دلت على توحيد الألوهية وتوحيد الألوهية ، أن الموحد يوحد ربه بألوهيته ويوحده أيضًا بربوبيته فهو ربه وهو إلهه ومعبوده ، لا رب له ولا معبود له سواه .

(﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ ﴾) الإخلاص (﴿ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾):

- إن كانت الأوَّلية هنا أولية زمانية فهو عليه الصلاة والسلام أول المسلمين من هذه الأمة ، يعني زمنًا .
- وإن كانت الأوَّلية أولية معنوية فهو أول الناس جميعًا ، هذه الأمة وغيرها .

تأملوا هذه الآية ، ففي هذه الآية تحقيق العبودية لله عز وجل ، وفيها تدرج من أدنى إلى أعلى ، ووجه :

- بدأ الصلاة
- ثم ما هو أعلى من الصلاة وهو النسك وهو العبادة كما ذكر ، ومنه الذبح .
- ثم ما هو أعلى من ذلك وهو محياي يعني كل ما آتيه في حياتي ، كل ما آتيه في حياتي فهو لله وهذا أشمل ، حتى العادات وحتى المباحات الإنسان يستطيع أن يفعل منها عبادات ، إذا هو قصد بها وجه الله عز وجل . فإذا قصد بالنوم أول الليل ليستيقظ آخره ليصلي فنيته هذه تجعل النوم عبادة ، وإذا قصد بأكله التقوِّي على طاعة ربه عز وجل جعلت الأكل عبادة .

المقصود : أن كل ما يأتي في حياته هو عبادة لله عز وجل فهي أشمل من مجرد النسك .

- ثم هو مستمر على ذلك ودائم إلى أن يموت (﴿ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾) .

والشاهد من الآية قوله : (﴿ وَنُسُكِي ﴾) ، فالنسك غلب إطلاقه على الذبح وإلا فهو يشمل العبادة كلها .

وقوله عز وجل : (﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾) بعد قوله بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ قال : « **هو نهرٌ عظيم أعطانيه ربي في الجنة** » .

ثم قال : (﴿ فَصَلِّ ﴾) الفاء هنا سببية ، للتعليل ، وإذا كان الحرف للتعليل فإن ما قبله علة لما بعده .

(﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾) لأن الله تعالى أعطاه الكوثر ، فأمره بالصلاة وأمره بالنحر ، وقرن النحر بالصلاة ليدل على أنه عبادة عظيمة مثله مثل الصلاة . ودل على أن الصلاة والنحر من أعظم مظاهر شكر النعم ، فأنت تصلي شكرًا لله عز وجل ، وتنحر شكرًا لله ، وتصوم شكرًا لله ، وتعمل أعمالك كلها شكرًا لله ، ومع ذلك لم تحصِ ثناءً على الله ، وإذا استحضر الإنسان هذا المعنى وهو الشكر أن يعمل أعماله هذه كلها شكر لله عز وجل فلن يعجب بعملٍ أبدًا ، لن يعجب بنفسه ، لأن الشيطان لا يستطيع أن يدخل عليه من هذا المدخل ، وهو من مداخل الشيطان على الصالحين العجب بالعمل العجب بالنفس ، أنت عملت كذا أنت فعلت كذا ، فتعجبه عمله وتعجبه نفسه ثم عياذًا بالله يهلك .

يقول الشيخ حافظ رحمه الله :

والعُجب فاحذره إن العُجب مجرفة *** أعمال صاحبها في سيله العرم

يأتي على الأعمال كلها ينهيها ؛ لكن إذا كنت تستحضر الشكر في عبادتك لله عز وجل فكيف تُعجب وأنت تشكر المنعم ، لا ما يمكن ، ما يرد العجب مع إنسان تعرَّف نعم الله عليه ، وشكر الله عز وجل وأثنى عليه .

قال رحمه الله : (**وعن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات : « لعن الله من ذبح لغير الله ، لعن الله من لعن والديه ، لعن الله من آوى محدثًا ، لعن الله من غير منار الأرض » . رواه مسلم**) .

موضوع الذبح يدور حول أمرين :

- حول التسمية . ماذا يسمي على ذبيحته؟.
- والقصد . ماذا يقصد بالذبح ؟

وحول هذين الأمرين يمكن تقسيم المسألة إلى أربعة أقسام ، وإذا عرفنا القسم الأول عرفنا الباقية :

- القسم الأول : أن يذبح لله ذاكرًا اسم الله على ذبيحته ، وهذا الأعلى والأعظم ، هذه العبادة . هذه الشعيرة العظيمة والعبادة العظيمة والتي قال عنها شيخ الإسلام رحمه الله إنها أفضل العبادات المالية ، لما ذكر الصلاة والنحر ، نبه على الصلاة لأنها أفضل العبادات البدنية ، ونبه على النحر لأنه أفضل العبادات المالية ، وفي كلام شيخ الإسلام أن النحر أفضل من الزكاة ، مع أن الزكاة ركن من أركان الإسلام ؛ لكن النحر اجتمعت فيه عبادتان هما الصدقة والتقرب إلى الله عز وجل . فهذا

العمل لا شك عمل شريف ، عمل عظيم ، كما يحصل في الأضحية ، وفي الهدي وفي العقيقة ، إنسان يتقرب بها إلى الله عز وجل ويذكر اسم الله عليها .

- **الثاني :** من يذبح لغير الله ويذكر عليه غير اسم الله عز وجل . هذا صنيع المشركين ، فيذبح لغير الله ، يذبح لولي ، يذبح للجن ، يذبح ويذكر عليه غير اسم الله عز وجل ، ويقول : باسم المسيح ، باسم الزهرة ، باسم كذا باسم كذا . وهذا صنيع المشركين . وفيه شرك بنوعي التوحيد : الألوهية ، والربوبية :
  - الألوهية: في القصد ، حيث تقرب لغير الله عز وجل .
  - والربوبية في التسمية ، لأن التسمية استعانة ، والاستعانة بالله عز وجل تتضمن طلب العون منه ، والعون من الله من أفراد الربوبية ، فكان فيه شرك في نوعي التوحيد .
- **الثالث :** أن تكون الذبيحة لله ، يتقرب إلى الله ؛ لكن يذكر عليها غير اسم الله عز وجل ، فيضحي لله عز وجل ؛ لكن يذكر اسم كذا أو اسم كذا أو اسم الولي أو السيد أو ما أشبه ذلك . فهذا وإن لم يكن شركًا في توحيد الألوهية إلا أنه شركٌ في توحيد الربوبية حيث طلب العون من غير الله عز وجل .
- **الرابع :** يذبح لغير الله ويذكر عليه اسم الله عز وجل ، وهذا ربما يقع كثيرًا . يعني يذبح لميت ، يذبح لولي ، يذبح يرجو نفعًا ويسمي يذكر اسم الله ؛ لأن مسألة التسمية بحثت في الفقه ، والناس في الفقه على

مذاهب ، فيذكر اسم الله لكن لا يقصد بها التقرب إليه ، وإنما يقصد التقرب إلى غيره لكي ينال شيئًا من هذا الغير جلب نفع أو دفع ضر ، كما يذبح للجن ويذبح للأولياء وما أشبه ذلك ، فهذا شركٌ في توحيد الألوهية .

(**عن علي رضي الله عنه قال : حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات**) النبي ﷺ أحيانًا يحدث بكلمات محصورة ، أربع أو سبع ، السبع الموبقات ، وما أشبه ذلك ، والمقصود بذلك تقريب العلم ، ليس الحصر .

الأولى : (« **لعن الله من ذبح لغير الله** ») . واللعن :

- من الله الطرد والإبعاد عن رحمته .
- ومن الناس الدعاء والسب وما أشبه ذلك ، وبدأ بالذبح لغير الله عز وجل لأنه أكبر هذه الكبائر ، والشرك أكبر الكبائر ، قال ﷺ : « **أكبر الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور** » الحديث ، فبيَّن أن الشرك هو أكبرها ، ولهذا بدأ به النبي ﷺ هنا (« **لعن الله من ذبح لغير الله** ») .

الثانية: (« **لعن الله من لعن والديه** ») وتلحظون أن الوالدين يذكران دائمًا بعد التوحيد ؛ لأن حقهما عظيم ، فحقهما في المنزلة الثانية بعد حق الله عز وجل ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] ، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، الآيات في هذا معروفة ، وهذا يدل على عظم حقهما ، فكيف مع ذلك يحصل سبهما ولا قوة إلا بالله . في حديث آخر لما بين النبي ﷺ هذا الأمر عجبوا من ذلك قالوا : كيف يسب الرجل والديه ؟

قال : « **من الكبائر أن يشتم الرجل والديه** » قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : « **يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه** » يعني يتسبب وإلا لعله لم يكن موجودًا أن أحدًا يتجاسر على شتم والديه ؛ لكنه يتسبب في لعن والديه ، ولهذا أخذ العلماء من هذه الجملة أن المباشرة لها حكم السبب ؛ لأن من تسبب بلعن والديه فهو مثل من لعن والديه بهذا فسر النبي ﷺ لعن والديه لما قالوا : وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « **يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه** » .

الثالثة : (« **لعن الله من آوى محدثًا** ») ، آواه يعني ضمه وحماه ، وورد (« **محدِثًا** ») و(« **محدَثًا** ») والمحدِثُ هو الجاني ، والمحدَث هو: الأمر المبتدع يعني آوى بدعةً وناصرها وذب عنها ، وأيضًا الأمر المحدَث داخل في الأول ، محدِثًا محدِث قد يكون محدثًا بجناية بجرم بذنب ، وقد يكون محدثًا بحدث في الدين ، وفي الحديث « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد** » .

الأخيرة : (« **لعن الله من غير منار الأرض** ») ، ومنارها يعني العلامات والمراسيم التي تميز الحقوق بعضها عن بعض ، ربما يأتي بعض الناس فيغير هذه الحدود حتى يتعدى على حق غيره ، أو يأخذ منه شيئًا ، وفي حديث عائشة المخرج في الصحيح قال ﷺ : « **من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طوِّقه يوم القيامة لسبع أراضين** » . وهذا يغير منار الأرض سواء كانت حدود بين الأملاك ، أو كانت علامات المدن مثل اللوحات الإرشادية وما أشبه ذلك ، يأتي واحد يشيل لوحة من الخط أو كذا داخل تحت هذا الأمر .

ولعن هؤلاء جميعًا يدل على أن أفعالهم من الكبائر ، وأشدها وأكبرها الذبح لغير الله فهو من الشرك الأكبر .

والحديث يدل على جواز لعن أنواع الفساق ، كما في الحديث لعن الله من فعل كذا ، « **لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده** » لعن في الخمر عشرة ، وما أشبه ذلك . لكن هل يجوز لعنهم بأعيانهم ؟ يعني هذا رجل فاسق يقال : لعنه الله ؟ فيه خلافٌ ، والأقرب أنه لا يسوغ لعنهم :

- وقد سمع النبي ﷺ رجلا يلعن رجلا كان يجلد في الخمر فلعنه ، فقال : « **لا تعلنه ، فإني علمته يحب الله ورسوله** » ، حتى لو حصلت منه هذه المعصية يعني لديه بقية خير .
- ثم إن لعن المعين لا يؤدي إلى خيرٍ أبدًا ، بل ربما أدى إلى تماديه بل زيادته في طغيانه وضلاله ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام في رواية : « **لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم** » .

المقصود : أنه يستغنى عن هذا بلعن الأنواع ، لا بلعن الأعيان .

قال رحمه الله : (**وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال : « دخل الجنة رجل في ذباب ، ودخل النار رجل في ذباب » . قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : « مر رجلان على قومٍ لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا ، فقالوا لأحدهما : قَرِّب . قال : ليس عندي شيء أقرب . قالوا له : قرِّب ولو ذبابًا . فقرَّب ذبابًا فخلوا سبيله . فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل . فضربوا عنقه فدخل الجنة » رواه أحمد**)

.

هذا الحديث عزاه المؤلف رحمه الله إلى الإمام أحمد ، يقول حفيده الشيخ سليمان: وقد بحثت عنه في ((**المسند**)) فلم أجده ، ولعله في كتاب ((**الزهد**)) للإمام أحمد ، وهو في كتاب ((**الزهد**)) للإمام أحمد .

وهذا الحديث:

- رواه طارق بن شهاب ، واختلف في طارق هذا هل له صحبة أو ليس له صحبة ؟ قيل: إنه رأى النبي ﷺ لكنه لم يسمعه فحديثه مرسل صحابي .
- والحديث هنا ورد مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، وقد ذكر السيوطي في ((**الدرر**)) أو عزاه إلى كتاب ((**الزهد**)) موقوفًا على سلمان الفارسي رحمه الله ، عزاه إلى سلمان موقوفًا عليه ، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ .

قال : (« **دخل الجنة رجل في ذباب** ») في هنا سببية ، كقوله : « **دخلت امرأة النار في هرة** » يعني بسبب هرة .

(« **ودخل النار رجل في ذباب** ») يعني بسبب ذباب ، عجبوا من ذلك ، (**قالوا : وكيف ذلك**) ؟ كيف يحصل أن ذبابًا يتسبب في دخول رجل الجنة وآخر دخوله النار ، (**قال : « مر رجلان على قومٍ لهم صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا** ») لا يتعداه أحد حتى يقرب له شيئًا (« **فقالوا لأحدهما : قَرِّب قال : ليس عندي شيء أقرب** ») اعتذر ، (« **قالوا له : قرِّب ولو ذبابًا . فقرَّب ذبابًا فخلوا سبيله ، فدخل النار . وقالوا للآخر : قرِّب . فقال : ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل** ») سوى الله تعالى ، (« **فضربوا عنقه فدخل الجنة** ») .

هذا الأثر يدل على أن هذا الرجل كان مسلمًا ؛ لأنه إنما دخل النار بسبب الذباب ، قبلها ما كان يستحق دخول النار ، وعلى أنه دخل النار بسبب ما قصد

ابتداءً ولكنه مكره عليه ، والمعلوم من شرعنا أن الإكراه من موانع التكليف ، فمن أكره على فعل محرم فلا شيء عليه ، ومن أكره على ترك واجب فلا شيء ، حتى ولو أكره على الكفر ، والدليل ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

وذلك أن المكرَه لا يخلو من أحوال ثلاث :

الحال الأولى : أن يوافق ظاهرًا وباطنًا ، فهذا لا شك في كفره ، وهذا لا يحتاج الإكراه ، هذا الذي يوافق في باطن ما عنده إشكال .

الحال الثانية : أن يوافق في الظاهر لا في الباطن ، يوافق في الظاهر لكن في الباطن قلبه مطمئنٌ بالإيمان ، فهذا لا شيء عليه ، حتى ولو وافقه في الظاهر ، وكان عمار رضي الله عنه قد أذاه المشركون ، ولم يتركوه حتى يسب محمدًا ويذكر آلهتهم بخير ، وأذوه بكل أنواع الأذى حتى وافقهم على ما يريدون ، فجاء النبي ﷺ واشتكى له ما رأى منهم قال : « **كيف تجد قلبك** » ؟ قال : مطمئن بالإيمان فقال : « **إن عادوا فعد** » ، وهذه القصة مشهورة ، والعلماء متفقون على أن نزول الآية كانت بسببه ، وإن تُكُلِّم في القصة ، يعني بعض أهل العلم يضعفها ، وابن كثير يميل إلى تصحيحها رحمه الله ؛ لكن العلماء مجمعون على أن الآية نزلت في عمار رضي الله عنه وأرضاه .

الحال الثالثة : أن لا يوافق ظاهرًا ولا باطنًا كحال هذا الرجل ، لا وافق لا ظاهر ولا باطن .

لكن أيهما أولى ؟

- إن كان الأمر خاص ، يعني على الشخص نفسه فالأولى أن يوافق الظاهر ولا يوافق الباطن .
- أما إذا كان الأمر ضرره عظيم ويتعدى إلى الأمة في عقيدة وشبهها فالأفضل في حقه أن لا يوافق .

فإن قلت : هذا الأثر يعني هذا الرجل دخل النار بسبب الذباب ، مع أن التكليف مرفوع عن المكره ؟

قيل : لعل هذا في شرع من قبلنا ، وأن الواحد منهم يؤاخذ بالفعل حتى ولو أكره عليه .

أخذ العلماء من هذه الآية في الفروع أيضًا أن الإنسان لو أكره على شيء يترتب عليه حكم ، فلو أكره على الطلاق مثلاً وطلق تبعًا لقوله لم يقع طلاقه ، أكره على معصية من المعاصي ، أكره على ترك واجب ، وما أشبه ذلك وفعله موافقة في الظاهر خلاف الباطن .

وقد ذكروا قصة أن رجلاً ذهب ليأخذ عسل في جبل معه امرأته فنزل بحبل ليأخذ العسل فلما نزل قالت : إما أن تطلقني وإما أن أتركك ، وطلاقًا بالثلاث حتى ، ما تريده أبدا ؟ فماذا يفعل الرجل ؟ بين الموت وبين فراقها ، فطلقها ، فلما خرج جاء إلى عمر فردها عليه ، لأنه مكره في هذه الحالة .

الطالب: .... (لم يتضح سؤال الطالب).

أولاً قوله : دخل النار في ذباب يدل على أنه كان مسلما ، لكن لما قالوا : قرب ، قال : ما عندي شيء أقربه . اعتذر يعني بعدم وجوده فقط ، فرضوا منهم بالدون ، قالوا : قرب ولو ذبابًا . ومسألة الإكراه في القول أو الفعل ، بعض أهل

العلم يفرق ، أما القول فنص الآية ، وأما الفعل فيقول : لا إكراه فيه ، ويستدل بهذا الأثر ، وهذا الأثر كما علمت فيه ما فيه .

والأقرب أن الإكراه يكون على القول ويكون على الفعل جميعًا .

الطالب: هل أثر الموقوف على سلمان له حكم الرفع ؟

الجواب: قالوا : لا يكون له حم الرفع لأن سلمان كان يأخذ عن بني إسرائيل ، رضي الله عنه وأرضاه .

هنا مسألة في الذبح أيضًا تحصل في بعض المجتمعات وهي الذبح تعظيمًا للوجهاء وللكبار ، ذكر المَرْوَزِي رحمه الله أن علماء بخارى في وقته أفتوا بتحريم أكل هذه الذبائح ، وذلك أنهم إذا ذهبوا يستقبلون وجيهًا أو كبيرًا أو حاكمًا استقبلوه بالذبح ، نحروا أمامه الذبائح تعظيمًا له ، فحرموا أكلها ، وتحريم أكلها يدل على تحريم هذا الصنيع ، لأن فيه تعظيمًا للبشر ، قال أهل العلم : ولم يحكموا على هذا الفعل بأنه كفر لأنهم لم يصلوا في تعظيمهم له إلى تعظيم الله ، إذا وصل لتعظيم الله لا قوة إلا بالله ، هو كفر لا شك ؛ لكنه يحرم أكله ، لا يجوز .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾) .

تفسيرها كما ذكر رحمه الله ، آية عظيمة تأملوا ، يعني التدرج فيها لتحقيق معنى العبودية لله عز وجل ، وأن المسلم ينبغي له أن يحرص على تحقيق هذا المعنى فتكون أعماله كلها لله عز وجل إلى أن يموت وهو على هذا النهج .

(**الثانية : تفسير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾** .

الثالثة : البداءة بلعنة من ذبح لغير الله) .

في هذه الجمل الأربعة حددها بأربع كلمات قد يقول قائل : هذه ليست بكلمات ، هذه جمل ؟ نعم الكلمة تطلق على الخطبة ، ألقى فلان كلمة وهي خطبة ، وتطلق على الجملة .

وكلمةٌ بها كلام قد يؤم

وكلمة التوحيد كلمة ، وهي أعظم كلمة .

(الرابعة : لعن من لعن والديه ، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك)

.

هذا الأكثر ، بعض الصحابة عجبوا من ذلك كيف يسب الرجل والده ؟ لا يعرفون هذا أبدًا ، فهذا اللعن يشمل المباشر ويشمل أيضًا المتسبب ، يعني وهذه مسألة التسبب يتساهل الناس فيها كثيرًا ، يتساهل ، يسب والد الرجل ثم الثاني يسبه ، يرد عليه مثل ما قال.

واللعن ما ينبغي أن يستمرئه الإنسان تجد الرجل أحيانًا كبير في سنه ، واللعن على لسانه في كل وقت ولا قوة إلا بالله ، والسبب تعود عليه في الصغر واستمر عليه في الكبر ، فينكر على الأطفال إذا سمعت الواحد منهم يلعن حتى لا يتعلمه ، ويتعود عليها ، وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) قال ﷺ : « **لعن المؤمن كقتله** » . دعاءٌ عليه بأن يطرد من رحمة الله عز وجل ، ليس الأمر سهل ، وقال : « **لا يكون اللاعنون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة** » .

قال رحمه الله : (الخامسة : لعن من آوى محدثًا ، وهو الرجل يحدث شيئًا يجب فيه حق الله ، فيلتجئ إلى من يجيره من ذلك .

السادسة : لعن من غير منار الأرض ، وهي المراسيم التي تُفرق بين حقك وحق جارك من الأرض ، فتغيرها بتقديم أو تأخير .

السابعة : الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم) .

كأن الشيخ يميل إلى التفريق ، وأن لعن أهل المعاصي على العموم لا إشكال فيه ، لوروده بهذه الأدلة ؛ لكن المعين لا .

(**الثامنة : هذه القصة العظيمة ، وهي قصة الذباب .**

التاسعة : كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده ، بل فعله تخلصًا من شرهم .

العاشرة : معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين ، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبهم ، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر) .

لقي أصحاب محمد ﷺ من الأذى من مشركي قريش ما لقوا ، عمار بن ياسر لقي أذًى ، وأمه قتلها الطاغية أبو جهل وبلال ماذا كان يلقى من المشركين ، وكيف كانوا يضعون الصخر على صدره ، ونالهم من المشركين أذى عظيم في محاولة صدهم عن دينهم وإكراههم على الكفر ؛ لكنهم صبروا وصابروا فحفظهم الله وعادوا ظافرين منتصرين ، وأُذِلَّ من كان يذلهم ذلاً دائمًا إلى أن يدخلوا النار عياذًا بالله .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : أن الذي دخل النار مسلم ؛ لأنه لو كان كافرًا لم يقل : دخل النار في ذباب .**

الثانية عشرة : فيه شاهد للحديث الصحيح : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك ») .

الجنة قريبة والنار قريبة ، وفي ذكر قربها الحث على العمل المؤدي إليها ، وفي ذكر قرب النار التحذير من العمل المفضي إلى النار قريبة ، قد يقول الإنسان كلمة يهوي بها في جهنم أبعد ما بين المشرق والمغرب كما قال النبي ﷺ : « **إن الرجل ليتكلم الكلمة لا يتبين فيها ، يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب** » فذكر قرب الجنة حثٌّ على العمل المفضي إليها ، ربما عمل يعمله الإنسان أو دعوة يدعوا بها الإنسان تكون سبب لدخول الجنة ، وربما عمل لا يتخيله ولا يتبينه يدخل بسببه النار عياذًا بالله .

قال رحمه الله : (**الثالثة عشرة : معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم ، حتى عند عبدة الأوثان**) .

لأن عبدة الأوثان أرادوا أن يذبح حتى ولو ذبابة ، الذباب حقير ، لكن ليس قصدهم أن يذبح ذباب أو يذبح جمل ، قصدهم أن يذبح لغير الله ، يذبح لهذا الصنم .

فدل على أن عمل القلب هو المقصود ، حتى عند هؤلاء ، لا ريب أن أعمال القلوب عظيمة ، والقلب عليه كل شيء « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** » لهذا يتأكد على الإنسان يعمل على إصلاح قلبه ، ويحرص على الأسباب التي تؤدي إلى صلاحه واستقامته ، ومن أعظمها قراءة القرآن ، قراءة القرآن بفهمٍ وتدبر هي أعظم الأسباب لصالح القلوب ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ

ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [الزمر : ٢٣] يعني ما يقرأ الإنسان قراءة شرعية ، والله المستعان .

والقرآن كالغيث ينزل على القلب ، والدليل ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الحديد : ١٦] ثم قال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الحديد : ١٧] . هذا تشبيه يسميه علماء البلاغة تشبيه ضمني ، شبه القلوب بالأرض ، وشبه القرآن بالغيث ، فماذا يفعل الغيث بالأرض ؟ يحييها وتنبت وتزهر ، وماذا يفعل كتاب الله بالقلوب ؟ يحييها « **أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي** » .

ومنها البعد عن الحرام والمشتبهات ، ولهذا النبي ﷺ ذكر هذه الجملة « **ألا وإن في الجسد مضغة** » بعد قوله : الحلال والحرام وبينهما أمور مشتبهات إلى آخره ، يبين علاقة القلب بما يقع فيه الإنسان من محرمات أو مشتبهات .

ومن أسباب صلاح قلبه : الإعراض عن الدنيا ، إقبال الإنسان على الدنيا لا شك امتحان كبير عظيم ، الدنيا قد تكون في يدك وقد تكون في جيبك إذا تعدت اليد وقد تصل إلى قلبك ، وإذا وصلت إلى القلب أفسدته ، يصبح الإنسان محبته وعلاقاته وأعماله وصلاته ، كلها وراء الدنيا ، أصبح عبدًا كما قال النبي ﷺ : « **تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم** » .

المقصود : أن طالب العلم لا يقبل على الدنيا بانهماك وتكون غرضًا له ؛ لكن يأخذ منها ما يغنيه عن الناس ولا يجعله يحتاج إلى أحد ؛ لكن لا يشغل نفسه بها وبتطلبها وبالحرص عليها وبمنافسة أهلها ، فما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها .

فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها ** وإن تجتذبها نازعتك كلابها

كما يقول الشافعي رحمه الله تعالى .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

قال رحمه الله تعالى : (**باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**

وقول الله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨]) .

(**باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**) مناسبة هذا الباب للذي قبله واضحة ، في الباب السابق ذكر الذبح لغير الله ، وهنا ذكر المكان الذي يذبح فيه لغير الله .

وعنوان الترجمة (**بابٌ لا يذبحُ**) ، أو (**لا يذبحْ**) .

فإذا قرأتها بالسكون فالمراد به النهي ، بابٌ لا يذبحْ لله في مكان يذبح فيه لغير الله .

وإذا قرئ بالضم فإنه يكون ماذا ؟ نفي ، والنفي أبلغ من ماذا ؟ من النهي ؛ لأن هذا النفي يراد به أيضًا يراد به النهي ؛ لكن جيء بصيغة النفي .

وعُبِّر كما يقال عن الإنشاء بالخبر ليكون أبلغ في نفي هذا الشيء ، وكأن هذا الشيء غير موجود أصلاً ، لا يذبح لله أصلاً في مكان يذبح فيه لغير الله .

وهذه مسألةٌ معروفة في لغة العرب أن الكلام يأتي أحيانًا صورته صورة خبر ، والمراد به الأمر ، خذ مثل ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] هل هذا يعني من حيث المعنى خبر ؟ لا ؛ لكن أمر .

هو ما وُجد أن نساءً طُلِّقْنَ فأخبر الله عنهم ، بعدها بقليل ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، ونظائر هذا في القرآن كثير .

(**لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله**) ، ما حكم الذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله ؟

الجواب : يحرم .

لماذا ؟ لسببين :

السبب الأول : أن فيه تشبهًا بالمشركين .

حيث شاركهم في المكان الذي يذبح فيه لغير الله ، وهو مكان المعصية ، مكان شرك ، فشاركهم في هذا المكان وتشبه بهم ، قالوا : والتشبه تشبهٌ وإن لم يقصده صاحبه . حتى وإن لم يقصد التشبه ؛ لكنه تشبه بكل حال ، فإن قصده لا شك كان أشدَّ إثمًا .

الأمر الثاني – والذي نهي بسببه عن الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله – : أن ذلك وسيلةٌ ، وسيلة الذبح لغير الله عز وجل .

كون هذا الإنسان يذبح وهو ينظر إليهم وهم يقعون في الشرك ومع ذلك يشاركهم في المكان قد يؤدي به الأمر إلى أن يشاركهم في العمل .

وقد يراه أيضًا إنسان جاهل يفعل هذا الفعل ، فيظن أنه مشاركٌ لهم في صنيعهم فيصنع مثله .

(**وقول الله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾**) بعد قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللهُ

يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ ﴾ [التوبة : ١٠٧] . والمراد به المسجد الضرار .

وهو مسجدٌ بني قريب من مسجد قباء ، وبني للمضارة وللكيد للإسلام والمسلمين ، بناه المنافقون ، فجاءوا إلى النبي ﷺ ورغبوا منه أن يصلي فيه ، وكان بنيته السفر إلى تبوك فوعدهم إذا رجع من غزوة تبوك أن يصلي فيه ، فلما قفل راجعًا ولم يكن بينه وبين المدينة إلا يوم أو نصفه ، جاءه الوحي بخبر المسجد الضرار ، فأرسل إليه من هدمه .

لذا قال : (﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾) .

قيل : هذا المسجد هو مسجد قباء ، وقد أُسِّسَ أول ما أُسس على تقوى الله عز وجل ، وأمر النبي ﷺ ببنائه بمجرد أن وصل إلى المدينة .

وله فضل ، حتى قال فيه النبي ﷺ : « **صلاة في مسجد قباء تعدل** » . ماذا ؟ « **عمرة** » ، وكان يقصده ﷺ ماشيًا وراكبًا .

(﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾) ، وهذا كالتعليل لأمر النبي ﷺ أن يقوم فيه ، وأن القيام فيه أحقُّ من غيره ؛ لأن فيه رجالاً يحبون أن يتطهروا (﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾) .

وفيه : إثبات صفة المحبة لله عز وجل ، كما يليق بجلاله وعظمته .

وقد سألهم النبي ﷺ وقال : « **إن الله أحسن عليكم الثناء في طهوركم** » . ذكروا له أنه كان لهم جيران من اليهود ، وكانوا يستنجون بالماء يغسلون أدبارهم بالماء ، ففعلوا مثل صنيعهم .

والتطهر الحسي مهم ، وأعظم منه ماذا ؟ التطهر المعنوي ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٢٢] .

فجمع الطهارتين :

الطهارة الحسية : المطهرين .

والطهارة المعنوية : التوابين .

التوبة من الذنوب لا شك طهرٌ وتطهير للقلوب منها .

قد ورد من حديث أبي سعيد أن رجلين تماريا في المسجد الذي أُسِّس على التقوى ، فقال أحدهما : مسجد رسول الله . وقال الآخر : مسجد قباء . فقال النبي ﷺ : « **هو مسجدي هذا** » . ولا خلاف بين ظاهر الآية والحديث .

فإنه إن كان مسجد قباء أسس على التقوى فمسجد رسول الله ﷺ أولى بذلك ، فلا ريب أنه أول وأعظم مسجد أُسِّسَ على تقوى الله عز وجل ؛ لكن كان المراد بالأولية الزمانية ، فقد يقال : إن قباء كان الأول ، والله أعلم .

قد يقول قائل : ما علاقة هذه الآية بهذا الباب ؟ الباب في الذبح فما علاقتها به ؟

النبي ﷺ هنا نهى أو نُهِي عن الصلاة في المسجد الضرار ، وهنا لا يذبح .

ففيه تشبيه الأمكنة المعدَّى للذبح لغير الله بالمسجد الذي بني للضرار ، فكما أنه لا تجوز الصلاة في هذا المسجد فلا يجوز الذبح في هذا المكان ، إذ الكل عبادة لله عز وجل ، ومن هنا أورد الشيخ قدس الله روحه هذه الآية ، وهذا من فقهه رحمه الله تعالى .

ما يقال مثله في آية الكوثر ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] ، قرن بين الصلاة والذبح ، وهنا جاء النهي عن الصلاة فكأنه إشارة للصلاة بالذبح ؟

العلاقة يعني بينهما لا شك كلتا الآيتين السابقتين ذُكر فيهما الصلاة والنحر ، فذكرهما لا شك لأنهما عبادتان جليلتان .

فالصلاة عبادة بدنية ، وليس معنى كونها بدنية أنها بدنية محضة ، لا هي عبادة قلبية لا شك وبدنية أيضًا .

والذبح عبادة ماذا ؟ عبادة مالية × لكن هنا المراد النهي هنا عن المكان ، سواء في الصلاة أو في النحر .

(**عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة ، فسأل النبي ﷺ فقال : « هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد » ؟ قالوا : لا . قال : « فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم » ؟ قالوا : لا . فقال رسول الله ﷺ : « أوف بنذرك ، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم » . رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما**) .

(**عن ثابت بن الضحاك قال : نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة**) نذر .

النذر هو : التزام الإنسان ما لا يلزمه في أصل الشرع .

بمعنى أنه يوجب عليه شيئًا ليس بواجب ، كأن يقول : عليَّ نذر أن أصلي ركعتين . وليستا واجبتان عليه ، أو أن أصوم كذا وكذا ، فقد ألزم نفسه بما ليس واجبًا عليه في أصل الشرع .

والنذر يكون بصيغته لا شك إذا قال : نذرت .

ويكون بكل لفظ فيه التزام ، يعني لو قال : عليَّ أن أصلي لله ركعتين . هذا نذر ولا ما هو نذر ؟ من حيث الصيغة لا ؛ لكن من حيث المعنى ؟ نذر ؛ لأنه التزام .

أو قال : عليَّ عهدٌ لله أن أفعل كذا وكذا . أيضًا التزام بلا شك .

المقصود : أن كل لفظٍ يدل على الالتزام فإنه يكون من قبيل النذر حتى وإن لم يتلفظ به بلفظ النذر .

(**نذر رجل أن ينحر إبلاً**) ، النحر للإبل ، والذبح ؟ للبقر والغنم .

معروف هذا ؟ يعني الذبح للبقر والغنم ، والنحر للإبل .

ما الفرق ؟

لأن الإبل تطعن طعنًا ما تذبح بالسكينة هذا كما تذبح الشاة ، لا ، ولا يمكن ، في ذبحها خطورة لا شك ؛ لكنهم يطعنونها طعنًا في الوَهْدَة التي بين أصل العنق والنحر .

وأما بقية الحيوانات فإنها تذبح ذبحًا .

(**أن ينحر إبلاً ببوانة**) وبوانة يقولون : هضبة من وراء الينبع .

وقد ورد في ((**السنن**)) أن رجلاً سأل النبي ﷺ أنه نذر إن ولد له ولد ذكر أن ينحر جملة من النَّعَم خمسين من الغنم ، فسأل النبي ﷺ قال : « **هل فيها وثن** » ؟ « **هل فيها عيد من أعيادهم** » ؟ قال له : « **أوف بنذرك** » .

فقال ﷺ : « **هل فيها وثن** » ؟

والوثن كل ما عبد من دون الله ، سواء كان على هيئة صورة أو لم يكن .

فالشجرة التي تُعبد من دون الله تعتبر وثنًا ، والحجر وما أشبه ذلك .

وأما الصنم فهو ما نُحت على هيئة صورة ، صوِّر على هيئة صورة أيّ صورة كانت .

ولهذا يقال : كل صنم وثن ، وليس كل وثن صنم .

قال : لا . قال : « **هل فيها عيد من أعياد الجاهلية** » ؟ وللجاهلية أعياد .

والعيد – يقول شيخ الإسلام – : اسمٌ لما يعود من الاجتماع على وجه المعتاد .

وقدم النبي ﷺ المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما ، فقال : « **قد أبدلكم الله بخير منهما ، عيد الفطر وعيد النحر** » .

فكل شيء يعود ، ولهذا الجمعة تعتبر عيد ، يقول ﷺ : « **إن هذا اليوم جعله الله عيدًا للمسلمين** » .

قال : لا . قال : « **أوف بنذرك** » . أمره بالوفاء بالنذر .

فهل هذا الأمر يقتضي الوجوب ؟

قالوا : فيما يتعلق بالنحر نحر الإبل نعم ؛ لأنه نذره قربةً لله عز وجل ، فيجب عليه الوفاء به .

لكن ما يتعلق بالمكان هل يلزم ؟

ما يلزم ، لأنه ليس لشيء من الأمكنة خصوصية إلا للمساجد الثلاثة .

ولهذا لو الإنسان نذر اعتكافًا أو صلاةً أو ما أشبه ذلك في مسجد غير الثلاثة هل يلزمه ؟ قالوا : ما يلزمه . لكن في المساجد الثلاثة نعم يلزمه .

لكن لو نذر في المفضول أفضل عن ماذا ؟ أجزأ عنه الفاضل ، والدليل ؟ حديث الرجل الذي قال : يا رسول الله إني نذرت إن فتح الله عليك مكة أن

أصلي في المسجد الأقصى . قال : « **صل هنا** » . فأعاد الرجل فقال : « **صل هنا** » . فأعاد قال : « **شأنك إذًا** » .

فالوفاء بالنذر من حيث تنفيذ ما نذره واجب ؛ لكن من حيث المكان قالوا : ما يلزمه .

(« **فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ، ولا فيما لا يملك ابن آدم** ») هنا مسألتان :

المسألة الأولى : ما حكم عقد النذر ؟

قال العلماء : يكره .

وذهب شيخ الإسلام إلى التحريم .

والدليل ما ثبت في ((**الصحيحين**)) وغيرهما أن النبي ﷺ نهى عن النذر ، وقال : « **إنه لا يأتي بخير** » .

في رواية « **لا يقدم شيئًا ولا يؤخر** » .

في رواية « **لا يرد شيئًا ، وإنما يستخرج به من البخيل** » .

البخيل ما يستطيع أن ينفق ، يريد أن يتصدق ولكنه ما يستطيع ، فلهذا ينذر حتى يلزم نفسه بذلك .

فعقد النذر مكروه ، وقيل بتحريمه .

وأما الوفاء به ؟

....

دائمًا ؟ هذا يختلف ، فقد يكون وفاء واجب ، وقد يخير بين الوفاء وبين كفارة اليمين .

فإن النذر أقسام :

القسم الأول : نذر مطلق ، يقول : عليَّ نذر . ولم يذكر شيئًا .

عليك نذر ماذا ؟ قالوا : ما ذكر شيء . فماذا يلزمه ؟ كفارة يمين ، قال ﷺ : « **كفارة النذر كفارة يمين** » . والحديث في ((**مسلم**)) ، وعند ((**الترمذي**)) زيادة « ما لم يسمَّ » .

الثاني : نذر مباح .

مثل عليَّ نذر أن ألبس هذا الثوب ، أو أركب هذه السيارة ، فهذا يخير بين الفعل وبين كفارة اليمين .

في ((**السنن**)) أن جاريةً أتت النبي ﷺ قالت : يا رسول الله إني نذرت إن ردك الله سالمًا – وكان ذهب في غزوة من الغزوات – أن أضرب بين يديك بالدف . قال : « **إن نذرتِ فأوفي وإن لم تنذر فلا** » . فضربت بين يديه بالدف ، أمرها أن تفي ، ولو لم تفِ كفارة يمين .

الثالث : نذر اللجاج والغضب ، وهو الذي يقصد بعقده المنع ، أو الحث ، أو التصديق ، أو التكذيب .

يقصد منع ، علي نذر أن لا أكلم فلانًا ، ماذا قصد ؟ أن يمتنع .

أو أن أزور فلان ، الحث .

أو إن كان هذا الخبر صدقًا فعليَّ نذرٌ كذا وكذا ، هذا تكذيب .

أو إن كان كذبًا فعليَّ كذا وكذا هذا تصديق .

هذا النذر قالوا : كفارته كفارة أيضًا يمين .

وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « **لا نذر في غضب ، وكفارته كفارة يمين** » .

الرابع : نذر الطاعة .

وهذا يجب الوفاء به ، كنذر الصلاة والصيام والحج وما أشبه ذلك .

الخامس : نذر المعصية ، وهذا لا يجوز الوفاء به .

لكن هل يلزمه كفارة ؟ خلافٌ بين أهل العلم ، فمنهم من قال : بوجوب الكفارة . وروي في ذلك حديثٌ لو ثبت لكان حجة ، ما روي عنه ﷺ أنه قال : « **لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين** » . والحديث في ((**السنن**)) عند أبي داود ؛ لكن الحديث فيه كلام .

قيل : احتج به الإمام أحمد رحمه الله تعالى ، ولهذا مشهور مذهب الإمام أحمد وجوب الكفارة ، مال إلى هذا الشيخ عبد العزيز بن باز الله يرحمه ، والشيخ محمد بن عثيمين يقول احتياطًا .

فهذه خمسة أقسام للنذر .

الذي يجب الوفاء فيه ما هو ؟ الطاعة .

في قسم محرم وهو نذر ماذا ؟ المعصية .

إذًا قد يكون مباحًا ، وقد يكون واجبًا ، وقد يكون محرمًا .

ولهذا قال عليه السلام هنا : (« **فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله** ») . لا يجوز الوفاء بنذر المعصية .

(« **ولا فيما لا يملك ابن آدم** ») ، وهذا إذا كان شيئًا معينًا ، لو شيء معين ، كأن يقول : عليَّ نذرٌ أن أتصدق بكتاب زيدٍ على طلاب العلم . والكتاب ليس له ، فهل يفي بهذا النذر ؟ لا يفي بهذا النذر ، لماذا ؟ ما يملك ، وهذا معين .

لكن هل تلزمه كفارة إذا نذر شيئًا لا يملكه ؟ عليه كفارة ، تلزمه الكفارة بهذا الحال .

الشيء الثاني : إذا كان نذر شيئًا لا يملكه وليس بمعين ، كأن قال : عليَّ نذر أن أتصدق بمائة ريال . وهو ما عنده شيء ؛ لكن سيملكها مستقبلاً هذا يجب عليه ، وهذا نذر طاعة ، هذا نذر ماذا ؟ طاعة ، فيلزمه الوفاء .

وهل يكفر عنه ؟ لا ، ليس فيه كفارة ، نذر الطاعة كما سيأتي يجب الوفاء به .

أما نذر المعصية وكذلك ما لا يملكه ابن آدم ، ما لا يملكه ، شيئًا لا يملكه نذره ولا يملكه ، ما يمكن ، قد تقول : قال أنا أتصدق . وهذا طاعة يتصدق بمال غيره لا يمكن ، فقد يقال بوجوب الكفارة بالنسبة له .

النذر خَلَفَ غيره في مسألة مهمة ، وهي ؟

في القاعدة المشهورة : الوسائل لها أحكام المقاصد .

فهل يمكن تطبيق هذه القاعدة على النذر ؟ لا يمكن ؛ لأن الوفاء بالنذر لاسيما نذر الطاعة هو واجب ، وعقده ما حكمه ؟ متروك ، عقده متروك ، ولو انطبقت هذه القاعدة على النذر لقيل : إن عقده واجب ، مثل الوفاء به .

هنا مسألة لماذا نهى النبي ﷺ عن النذر ؟

ذكر ﷺ أولاً سببًا وهو : أنه إن لم يستخرج به من البخيل ، يعني إنسان لا يستطيع أن يعمل شيئًا إلا بنذر .

والأمر الثاني : أن الإنسان قد ينذر نذرًا ثم يشق عليه الوفاء به .

وهذا يحصل كثيرًا عندما يكون مضطر ، وقد مسه من أمور الدنيا ما مسه يجتهد في النذر ، يعني أحدهم يسأل ويقول : نذر أن يصوم الدهر . لا قوة إلا بالله ، فلما حصل له مقصوده ، ذهب يبحث عن شيء يُخَلِّصه من هذا الشيء الذي ألزم نفسه به .

وأيضًا كأن هذا الناذر يعتقد أن الله تعالى لا يعطيه شيئًا إلا بماذا ؟ إلا بمقابل ، كأنه تعالى إنما يشفيه من مرضه ، أو يشفي مريضه أو كذا أو كذا ، إذا هو دفع مقابلاً ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر ، ثم بيَّن أنه لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يرد شيئًا ، ولا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل .

قال : (**رواه أبو داود ، وإسناده على شرطهما**) . يعني البخاري ومسلم .

شرط البخاري ما هو ؟ الصحة ، وشرطه في الصحة ما هو ؟ المعاصرة مع تحقق اللقيا .

ولو قلت : اللقيا . خلاص حصلت المعاصرة .

وأما شرط مسلم فإنه يكتفي بأي شيء ؟ يكتفي بالمعاصرة .

وعلى كل حال الحديث صحيح .

ومطابقته للترجمة ما هي ؟ قوله ﷺ : (**« هل كان فيها وثنٌ »**) ، أو (**« كان فيها عيدٌ »**) من أعياد الجاهلية ، فلو كان فيه وثن لنهاه النبي ﷺ أن ينحر به .

(**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير قوله : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

الثانية : أن المعصية قد تؤثر في الأرض ، وكذلك الطاعة) .

لا شك المعصية تؤثر في الأرض ، ولهذا لو أن إنسانًا غصب أرضًا ما حكم الصلاة فيها ؟ محرمة ، وهل هي صحيحة وهي صحيحة ؟ خلافٌ بين أهل العلم .

(**الثالثة : ردُّ المسألة المُشْكِلة إلى المسألة البينة ، ليزول الإشكال**) .

(**ردُّ المسألة المُشْكِلة إلى المسألة البينة ، ليزول**) ماذا ؟ (**الإشكال**) ، من أين أخذت ؟

من (« **أوف بنذرك** ») ، ردها على الأصل .

المسألة المُشْكلة ما هي في الحديث ؟

أنه قال : إني نذرت أن أذبح الإبل .

أي نعم ، استشكل هذا الأمر ، فبين له النبي ﷺ أنه إن لم يكن فيها وثن ولا عيد فإنه يوفي بنذره .

(**الرابعة : استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك**) .

استفصل النبي ﷺ ، « **هل كان فيها وثن** » أو « **عيد** » .

(**الخامسة : أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به ، إذا خلا من الموانع**) .

لا بأس إلى أن يخصص مكانًا إذا لم يكن ثمة موانع ؛ لكن هل يلزم بالتخصيص ؟ لا ما يلزم .

(**السادسة : المنع منه إذا كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية ، ولو بعد زواله**) .

حتى بعد زواله ، إلا إذا تقدم الزمان وانقطعت أعماله .

قيل : ولهذا لما هُدمت اللات بني مكانها مسجد .

قد يقول قائل : هذا مكان المعصية .

لكن هذه قضية لأنه لو لم يبنَ المسجد وتُرك مكانها ، أو ترك مكان هذا ربما أعيد مرة ثانية .

يذكر هنا مسألة وهي الصلاة في الكنيسة ، وقد ورد أن عمر صلى في الكنيسة في بيت المقدس ، والكنيسة مكان معصية ، فما الجواب ؟

....

الذبح سواء كان لله أو لغيره صورته واحدة ، وقد يُشكل .

لكن صلاة المسلم في الكنيسة هل هي في الصورة مثل عبادات النصارى ؟ لا ، فالإشكال غير موجود .

قال العلماء : لا بأس أن يصلى في الكنيسة إن لم يكن فيها صورة .

(**السابعة : المنع منه إذا كان فيه عيدٌ من أعيادهم ، ولو بعد زواله .**

الثامنة : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة ؛ لأنه نذر معصية .

التاسعة : الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ، ولو لم يقصده .

العاشرة : لا نذر في معصية) .

فلهذا قالوا : التشبيه يحصل وإن لم يقصده . كذا قال شيخ الإسلام رحمه الله .

فإن قصده فالأمر ماذا ؟ فالأمر لا شك أشد .

(**العاشرة : لا نذر في معصية .**

الحادية عشرة : لا نذر لابن آدم فيما لا يملك) .

(**فيما لا يملك**) إذا كان ماذا ؟ إذا كان معين ، أما إذا كان غير معين فيلزمه الوفاء به .

(**باب من الشرك النذر لغير الله**

وقول الله تعالى : ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان : ٧] .

وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾ [البقرة : ٢٧٠]) .

قال : (باب من الشرك النذر لغير الله) . مر بنا معنى النذر .

والنذر عبادة ، ودليل كونه عبادة أن الله عز وجل أثنى على الموفين به ، فقال : (﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾) .

في جملة ذكره أوصاف الأبرار ، ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ﴾ [الإنسان : ٥ – ٧] يعني هذا كان حالهم في الدنيا، ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ .

الله سبحانه وتعالى أثنى على الموفين بالنذر ، فكيف يكون مكروهًا ؟

يعني بعضهم قال : النذر الذي أثني على أهله هو النذر المطلق ، وهذا ليس بمكروه .

النذر المطلق أن يقول : عليّ نذر أن أصلي ، أن أصوم . هكذا ، خلاف النذر المعلق أو المقيد كأن يقول : إن شفا الله مريضي فعليَّ نذرٌ أن أتصدق بكذا وكذا .

قالوا : وهذا هو المكروه . وهذا الذي يستخرج به من البخيل .

وأما المطلق فلا يوصف صاحبه بأنه بخيل .

مع أنه قد يقول قائل : إذا كان يريد أن يتصدق فلماذا ينذر ؟ وكأنه إنما نذر لأجل أن يلزم نفسه ففيه شبه بخل .

بعض أهل العلم يقول : جميع العبادات تعتبر نذرًا لله عز وجل ، وإن لم يكن بلفظ النذر ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج : ٢٩] .

﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ ﴾ ، بعضهم يقول : ﴿ نُذُورَهُمْ ﴾ يعني أعمال الحج .

وبعضهم يقول : لا ، بل هي نذر نذروها في الحج .

على كل حال ، حتى ولو كان النذر مكروهًا ووقع فيه الإنسان ، ثم وفَّى به طاعةً لله عز وجل فإنه يمدح ، ولكنه إنما كره للأسباب التي تقدمت لا لذاته ، لا لذات النذر ولكن لما صحبه من الأسباب ، وهي كونه بخيلاً كما ذكر ، وكونه يعتقد أن هذا معاوضة وما أشبه ذلك كره النذر ؛ لكن إذا هو نذر ووقع في النذر فمن الناس من ينذر ولا يفي ، فهذا يذم .

ومن الناس من ينذر ويفي فهذا يمدح ، يمدح على ماذا ؟ على النذر أم على الوفاء ؟ يمدح على الوفاء ، وبالتالي لا اختلاف في كونه مكروهًا وكونه يثنى عليه .

النذر عبادة إذًا لأن الله أثنى على الموفين به ، ولدينا قاعدة ما كان عبادة فصرفه لغير الله يعتبر ماذا ؟ شركًا ، قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ [النساء : ٣٦] ، ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ ﴾ [المائدة : ٧٢] . فمن عبد غير الله فقد أشرك ، والنذر عبادة فصرفه لغير الله يعتبر شركًا .

(وقوله : ﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾) .

(﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾) ، (ما) هنا ما إعرابها ؟ اسم شرط ، وجملة (﴿ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾) الفاء واقعة في جواب الشرط .

(﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ﴾) من نفقة نكرة في سياق الشرط ، وجرت بـ (من) فتدل على ماذا ؟ نصٌّ في العموم ، (﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ ﴾) .

والنكرة إذا جاءت في سياق النفي فإن لم تجر بـ (من) فهي للعموم ، ظاهرة في العموم ، وإن جرت بـ (من) فهي نصٌّ .

وأيهما أبين النص أم الظاهر ؟ النص بلا شك ، يعني ما أنفقتم من النفقات ، أو نذرتم من النذر فإن الله يعلمه .

قد يقول قائل : أوليس الله تعالى يعلمه قبل أن ينذر الناذر وينفق المنفق ؟

قلنا : بلى .

إذًا ما معنى (﴿ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ ﴾) ؟ قيل : يعلمه علم ظهور تقوم به الحجة ، يكون ظاهر بَيِّن .

وقيل : علم مجازاة ، يحصل به الجزاء .

وهذا في القرآن كثير ، حتى قال الله تعالى بعد أحد وما حصل فيها واستشهاد سبعين من المسلمين فيها قال : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

ومعلوم أنه عارف بهم قبل أن يخلقهم ، فهو خالقهم سبحانه وبحمده ؛ لكنه علم جزاء ومجازاة وإثابة وعلم ظهور أيضًا يتبين به الأمر ويتضح .

وقوله : (﴿ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ ﴾) . قد يقول قائل : هذا فيه أمر بالنذر ، ما أنفقتم من نفقة يعني فأنفقوا ، وما نذرتم من نذر ، فما المراد بالنذر هنا ؟

هنا يحتاج إذا قيل بهذا وأن الآية وإن كانت في صيغة الخبر لكن يراد بها الأمر الحث على النفقة والحث على النذر يقال ما قيل في الآية السابقة فإما أن يكون النذر مطلق ، وهذا يقول بعض أهل العلم : ليس داخلاً في النهي .

أو يراد بالنذر جميع ماذا ؟ جميع الطاعات ، جميع الطاعات فهي نذور يتقرب بها إلى الله عز وجل ، والله أعلم .

ما الفرق بين نذر الشرك ونذر المعصية ؟

نذر الشرك لغير الله عز وجل .

وأما نذر المعصية فهو لله ؛ لكنه نذر معصيةً ، قال : عليَّ نذر لله أن أفعل كذا وكذا – عياذًا بالله – وذكر المعصية .

وأما نذر الشرك لا ، ما نذر لله عز وجل ، وإنما نذر لمخلوق ، أو لميت .

هذا في قصده وفي الكفارة ؟ نذر الشرك لا كفارة فيه لأنه لا ينعقد أصلاً ، ليس تيسيرًا عليه ، وإنما تشديدًا عليه وليس له إلا أن يتوب إلى الله عز وجل .

وأما نذر المعصية فقد سبق الخلاف فيه ، وأن المشهور من كلام أهل العلم وجوب الكفارة فيه .

وهذا كالحلف ، فالحلف بغير الله هل ينعقد ؟ ما ينعقد .

وهل فيه كفارة ؟ يعني لو واحد حلف بالنبي ، ولا بحلف بالسيد ولا بكذا وكذا ، ولم يفعل هل عليه كفارة ؟

لا ، لماذا ؟ لأنه ما ينعقد أصلاً ، ما ينعقد أصلاً ؛ لكن لو حلف بالله على معصية فهو كالنذر لا يجوز فعلها وتلزمه الكفارة كما ذكر .

(**وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه »**) .

قالوا في النذر لغير الله محاذير ، منها :

- أن من ينذرون له مخلوق ، ينذر لمخلوق .

والنذر عبادة ، ففيه عبادة للمخلوق ، وكيف يكون المخلوق معبودًا والله تعالى قال : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ [الأعراف : ١٩١] ؟ هو مخلوق ولا يخلق شيئًا ، وقال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ [الحج : ٧٣] .

ولما ذكر جملة من آياته ومخلوقاته في سورة النحل خلق السماوات والأرض والإنسان والأنعام والأشجار والبحار آيات عظيمة قال بعدها : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] . فكيف تسوون بين المخلوق والخالق ؟

الأمر الثاني : أن هذا المخلوق الذي يُنذر له ميت .

وإذا كان ميتًا فما عساه أن يصنع ؟ بل ما عساه أن يصنع لو كان حيًّا ؟ وما عساه أن يصنع لنفسه لو كان حيًّا فكيف لغيره ؟

الأمر الثالث : أن من ينذرون لهؤلاء الموتى ممن يسمونهم بأولياء وما أشبه ذلك ، يعتقدون أنهم يتصرفون دون الله ، أو مع الله حتى .

ولو كان يعتقد أنه لا يتصرف هل كان ينذر له ؟ ما ينذر له ، فهو إنما نذر لأنه يعتقد أنه يتصرف ، وبالتالي سيحصل له شيء من مراده ، ولهذا هم لا ينذرون إلا إذا كان لهم شيء ، عنده مريض ، أو يريد أن ينجح في دراسة أو ما أشبه ذلك ينذر لهذا المقبور قصدًا له دون الله عز وجل .

وهذه أمور لو حَكَّم الناس فيها عقولهم ما ترضى أبسط العقول بمثل هذه الأعمال ، أن تطلب حاجة من مخلوق وميت .

والنصوص الشريعة واضحة جلية ، فإن الإنسان إذا نزلت به نازلة أو احتاج لأمرٍ من الأمور فزع إلى من ؟ ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

فهو تعالى الذي يجيب دعوة المضطر ، وليس أحدٌ ينفع أو يضر دونه سبحانه وبحمده ، حتى المشركون في الجاهلية ما كانوا يعتقدون أن آلهتهم تنفع وتضر ، إذًا لماذا كانوا يعبدونها ؟

وسائط تقربهم إلى الله .

أعطوني الآية ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، إلا ليشفعوا لنا ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] ، يشفعون ويتوسطون لنا عند الله ويرفعون حاجتنا إلى الله عز وجل .

ولهذا عابهم الله عز وجل بأنهم لا يعقلون ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] ، لا عقل لهم ، وإلا العقل ما تصدره منه مثل هذه الأمور فضلاً عن الموحد الذي نهل توحيده من المعين الصافي ، من كتاب ربه وسنة نبيه

محمد ﷺ ، وكان توحيده أيضًا كان توحيده نابعًا من فطرته التي فطره الله تعالى ﴿ فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] « **ما من مولود إلا ويولد على الفطرة** » . لكن هذه الفطرة تُلَوَّث وتُشَوَّش بالتربية ، والعادات التي ينشأ الناس عليها ولا تُنكر .

فالواجب : التَّنَبُّه لمثل هذه الأمور وتنبيه من يقع فيها ، من ينذر لغير الله ، من يدعو غير الله ، يستعين بغير الله ، من يستغيث بغير الله عز وجل فهو يعرض نفسه لأمرٍ جلل عظيم خطير ، ويقحم نفسه في طريق يؤدي به إلى الهاوية .

المسألة ليست المسألة يعني توحيد أو شرك ، كونه يدخل في هذه الظلمات وهو يظن أنها أمر معتاد ومألوف .

والثمرة من هذا الباب والنتيجة : صرف هذا النوع من أنواع العبادة لله عز وجل ، وأنه لا يجوز صرفه لغيره ، وأن صرفه لغيره يعتبر شركًا .

أورد المؤلف حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : (« **من نذر أن يطيع الله فليطعه** ») . وهذا أمرٌ ، والأمر يدل على ماذا ؟ يدل على الوجوب .

فمن نذر طاعة فقد أوجب على نفسه هذه الطاعة ، مع أنه ما ينبغي أن ينذر وقد نهي عن هذا ، لكن لو وقع في النذر ونذر فإنه يلزمه الوفاء به .

(« **ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه** ») . وهل تلزمه الكفارة ؟ كما مر .

وفي ((**الصحيح**)) من حديث ابن عباس عند البخاري رحمه الله ، والحديث لابن عباس قال : بينما النبي ﷺ كان يخطب إذا برجل قائم ، قال : « **من هذا** » ؟ قال : أبو إسرائيل ، نذر أن يقف في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، قال : « **مره فليقعد ، وليستضل ، وليتكلم** » . أكملوا ؟ « **وليتم صومه** » .

فأمره بالوفاء بالطاعة ، كونه يحجز نفسه عن هذه الأمور أو يعرض نفسه للحر تقربًا إلى الله عز وجل .

لما قال عقبة بن عامر الجهني للنبي ﷺ : إن أختي نذرت أن تحج ماشيةً . قال : « **ما يفعل الله بشقاء أختك** » .

هذا يدل على أن بعض الناس يكلف نفسه شططًا ، إما تعبدًا وتقربًا إلى الله عز وجل بحيث يلزم نفسه شيئًا ليس واجبًا عليه .

وإما لحصول مقصودٍ له يؤمله أن يكون نذره سببًا لحصوله .

(**فيه مسائل :**

الأولى : وجوب الوفاء بالنذر) .

قصد الشيخ وجوب الوفاء بالنذر ، أي نذر ؟ الطاعة ، والمقصود بالباب .

(**الثانية : إذا ثبت كونه عبادة لله ، فصرفه إلى غيره شرك**) .

يعني إذا كان النذر طاعة ، (**« من نذر أن يطيع الله »**) فدل على أن النذر يعتبر ماذا ؟ طاعة ، وبالتالي عبادة ، فإذا صرف لغير الله كان شركًا ، هنا (**« من نذر أن يطيع الله »**) نذر لله عز وجل فإذا نذر لغير الله عز وجل فإن هذا يكون شركًا .

(**الثالثة : أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به**) .

إلا لو انقلبت المعاصي إلى ماذا ؟ طاعة ، وهذا لا يمكن .

المناقشات :

الطالب : قال : أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة لأنه نذر معصية ، هل يُكفر ولا يوفي بالنذر في غير البقعة ؟

الشيخ : إذا نذر الإنسان في بقعة من البقع صلاةً أو اعتكافًا ، ما يلزم إلا في المساجد الثلاثة ، أما غيره فلا يصح ، وبالتالي يوفي بنذره في أي مكان آخر .

الطالب : يعني ما قال : يكفر . قال : لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة .

الشيخ : نعم .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

(باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦]) .

قال رحمه الله : (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله) ، مراد الشيخ رحمه الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، فالترجمة ليست على إطلاقها .

الاستعاذة هي : الالتجاء والاعتصام والتحرز .

وحقيقتها : الهرب من الشيء تخافه إلى من يؤمِّنك منه . يعرض للإنسان شيء يخاف منه ، فيهرب منه إلى ما يجد فيه الأمان .

والعياذ واللياذ بينهما فرق :

- **فالعياذ :** من الشر .
- **واللياذ :** طلب الخير .

يا من ألوذ به في ما أؤمله ** ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ** ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فعياذ المسلم ولياذه لربه سبحانه وبحمده .

إذًا الواجب على المسلم إذا استعاذ أن يستعيذ بالله عز وجل .

قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] . وقال : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴾ [المؤمنون : ٩٧] . وقال بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : ١] .

فالمسلم ما يستعيذ بمخلوق في أمرٍ يعلم أن المخلوق لا يَقْدِرُ عليه ؛ لأن هذا المخلوق لا يقدر أن يعيذ نفسه ، وإذا كان لا يقدر أن يعيذ نفسه فلن يعيذ غيره ، إذ فاقد الشيء ما يعطيه .

فلو أردنا أن نقسم الاستعاذة قلنا :

١. هناك استعاذة شرعية ، وهي الاستعاذة بالله سبحانه وبحمده ، أن المسلم يعلق رجاءه وخوفه ورغبته ورهبته وتعلق قلبه يعلقه بربه سبحانه وبحمده .

٢. وهناك استعاذة شركية ، هي من الشرك الأكبر ، أن يستعيذ بغير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

٣. وهناك استعاذة جائزة ، وهي الاستعاذة بمخلوق في أمرٍ يقدر عليه المخلوق ؛ لكن حتى عندما يستعيذ بالمخلوق في أمرٍ يقدر عليه المخلوق ينبغي أن يكون قلبه متوجهًا لله ؛ لأن هذا المخلوق سبب ، فهو يستعيذ به لأنه سبب جائز ؛ لكنه قلبه يكون متوجهًا إلى ربه سبحانه وبحمده .

أورد المؤلف هذه الآية في سورة الجن بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا

بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ [الجن : ١ ، ٢] . انتبهوا لهذا ، ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾ [الجن : ٣ - ٦] .

روي أن العرب كانوا إذا نزلوا واديًا في الجاهلية قال قائلهم : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه . يستعيذ بسيد الجن من بقية الجن ، قال تعالى : ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ .

اختلف في مرجع الضمير في قوله : ﴿ فَزَادُوهُمْ ﴾ .

- فقيل : (**زادوهم**) زادَ الإنس الجن رهقًا ، يعني إثمًا وطغيانًا وتسلطًا وإيذاءً .
- وقيل : بل الضمير يرجع إلى الإنس ، أي زاد الجن الإنس خوفًا وقلقًا ، بدلاً من أن يجدوا الأمن عندهم ؛ لأن الأمن في الإيمان بالله عز وجل ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] . فالأمن مرتبط بالإيمان بالله عز وجل ، وليس في الشرك أمنٌ بحالٍ من الأحوال .

إذًا مرجع ضمير الفاعل (**فزادوهم**) يحتمل الأمرين .

وقوله : (**﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ ﴾**) ضمير الفاعل (**يَعُوذُونَ**) قطعًا يرجع إلى الإنس . وإذا قلنا : القاعدة عدم تفريق مرجع الضمير فيرجع الجميع إلى الإنس ، فيكون المعنى أن الإنس يعوذون بالجن فزادوا الجن طغيانًا وإثمًا وتسلطًا . قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ

اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : ١٢٨] . ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ ﴾ يعني قد استكثرتم من إغواء الإنس ، فقال الإنس كالمعتذرين : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ أي انتفع بعضنا ببعض :

- فاستمتاع الإنسي بالجني وانتفاعه به في أنه قد يخبره بشيء غائب ، قد يأتيه بشيء مفقود ، يعني يقدم إلى بعض الأمور . وهي أشياء تافهة بالنسبة لما يتحصل عليه من الإنسي .
- واستمتاع الجني بالإنسي بتعظيمه ، بالتقرب إليه ، بعبادته مع الله عز وجل .

والدليل من الآية على أن الاستعاذة بغير الله عز وجل من الشرك قوله – وأنا قلت لكم انتبهوا – : ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ . فذكروا أنهم بعد سماعهم كلام الله عز وجل ، وأن هذا القرآن يهدي إلى الرشد ، وأنهم آمنوا بهذا القرآن ، ذكروا أشياء كانوا يفعلونها قبل إسلامهم هي من قبيل الشرك ، فقالوا : ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ، ثم عدوا أشياء مما كانت تُعْمل معهم ، ومنها استعاذة الإنسي بهم . فإذا رددت هذه الآية على قوله : ﴿ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ تبين لك أن الاستعاذة بغير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله من قبيل الشرك .

(**عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرحل من منْزله ذلك » . رواه مسلم**) .

عن خولة بنت حكيم بن أمية السلمية ، امرأة فاضلة صالحة وكانت تحت عثمان بن مظعون رضي الله عنه وأرضاه .

(**قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من نزل منزلاً فقال : أعوذ بكلمات الله التامات »**) وكلمات الله إذا أطلقت أريد بها كلماته الشرعية وكلماته الكونية:

- أما كلماته الشرعية فالوحي الذي يوحيه إلى رسله ، ومنه هذا القرآن العظيم .
- وأما الكلمات الكونية فهي التي بها يخلق وينصر ويدبر ملكوت السماوات والأرض ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] . وقال : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

وعلى كل حال فكلماته من صفاته ، كلماته من صفاته :

- إن كانت شرعية فهي وحي منزل .
- وإن كانت كونية فقوله للشيء ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ وهذا من صفاته سبحانه وبحمده .

معلوم أن التعوذ بالله عز وجل وبأسمائه وبصفاته هو التعوذ المشروع ، ومنه « **أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذ** » ، الدعاء المأثور في الرقية .

وفيه : دليل على أن كلمات الله تعالى الشرعية وهي القرآن غير مخلوق ، ففيه ردٌّ على من زعم ذلك من الجهمية والمعتزلة ، بدليل جواز الاستعاذة بها ، والاستعاذة بمخلوق ما تسوغ .

(**« لم يضره شيء »**) ، قالوا : يصح (لم يضُرُّه) ؛ لكن (لم يضرَّه) أشهر وأفصح ؛ لأن أصلها لم يضرَرْهُ فأدغمت الراء في الأخرى فتكوَّن من بينهما حرف واحد مضعف ، والفتحة أقرب إلى الحرف المضعف ، وإلا فالأصل أنه مجزوم بالحرف (لم) .

(**« لم يضره شيء »**) ولا يعني هذا أنه لا يصيبه شيء ، قد يصيبه ولكن لو أصابه لم يضره .

وفي حديث أبي هريرة الذي خرجه مسلم في ((**صحيحه**)) أن رجلاً قال : يا رسول الله ما لقيت من عقربٍ لدغتني . قال : « **أما لو قلت حين أمست أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم تضرك** » . ما قال : لم تصبك . قال : « **لم تضرك** » . حتى ولو أصابته .

قال : (**« من شر ما خلق »**) . (ما) قالوا هنا : موصولة ، لا غير ، يعني من شر الذي خلق .

والمقصود : من شر كل مخلوق قام فيه الشر ، وإنما قالوا : موصولة ، لأننا لو قلنا مصدرية لكان المعنى من شر خلقه .والشر في مفعولاته لا في فعله ، فأفعاله ليس فيها شر بحال من الأحوال ؛ لأنها عين الحكمة منه سبحانه وبحمده ؛ لكن المفعولات والمخلوقات والمقضيات قد يكون فيها الشر ، ولهذا لا نقول في القضاء : شرٌّ . لكن الشر في المقضي ، ولهذا الجن في السورة نفسها ماذا قالوا ؟ ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ ﴾ [الجن : ١٠] . انظروا إلى أدب الجن يعني أضافوا الشر إلى الله بصيغة الفعل الذي لم يسمَّ فاعله ، ولا تقولوا : مجهول . لا يصح أن نقول : المبني للمجهول . في حق الله

عز وجل ، في حق الناس الأمر سهل . وأما الخير فأضافوه إلى الله في الفعل المبني ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ . فإراداته سبحانه وتعالى كلها خير ؛ لكن المقضي والمراد قد يكون فيه خير وقد يكون فيه شر ، وبهذا يجمع بين قوله ﷺ في دعاء القنوت : « **وقني شر ما قضيت** » يدل على أن فيه شر ، وبين قوله ﷺ في الحديث الذي خرجه مسلم ((**في صحيحه**)) دعاء الاستفتاح الطويل من حديث علي قال فيه : « **لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك** » .

قد يسألك سائل ويقول : كيف نجمع بين قوله : « **والشر ليس إليك** » . وبين قوله : « **وقني شر ما قضيت** » ؟ فهنا أُسند الشر وفي الحديث الآخر نفي الشر .

فيقال في الجمع بينهما : الشر في المقضي لا في القضاء ، فالشر ليس إليه ؛ لأن ليس في قضائه شرٌّ ، بل قضاؤه عين الحكمة سبحانه وبحمده ؛ لكن المقضيات قد يكون فيها شر .

وتأملوا صنيع المؤلف قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه لما ذكر الآية التي فيها النهي عن الاستعاذة بغير الله عز وجل ، وأن الاستعاذة بغيره شرٌّ أتى بالبديل الشرعي .

وهذا المنبغي أنك عندما تذكر شيئًا يُمنع منه أن لا تترك الباب هكذا مقفلاً ؛ لأن الناس لا بد لهم من شيء يعملونه ، قلت : هذه الاستعاذة ما تجوز وهذه حرام ، وهذه شرك وكذا وكذا ثم تركتهم ، طيب بم يستعيذون ؟ فتورد عليهم الاستعاذة الشرعية التي فيها راحتهم وطمأنينتهم ، وأمنهم وأمانهم وسلامة دينهم .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية الجن .

الثانية : كونه من الشرك .

الثالثة : الاستدلال على ذلك بالحديث ؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة ، قالوا : لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك) .

لو أن إنسانًا قال : أعوذ بك . أو قال : أعذني . يستعيذ به في شيء لا يقدر عليه إلا الله عز وجل بأي صيغة .

قال رحمه الله : (**الرابعة : فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره**) .

ورد هذا الدعاء أيضًا في أذكار الصباح والمساء « **من قال حين يصبح وحين يمسي : أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق لم يضره شيء** » .

المسلم بالأذكار الشرعية ما شاء الله يتحصن ، يحفظه الله ، ليس بحاجة إلى أن يستعيذ بمن لا يعيذه ، بل بمن يزداد في إيذائه إذا هو استعاذ به ، كاستعاذتهم بالجن ؛ لكن استعاذته بالله عز وجل يعصمه الله سبحانه وتعالى ويحفظه بها .

وتعرفون قول النبي ﷺ في الحديث المشهور في الذكر في أشياء أمر الله تعالى بها يحيى أن يخبر بني إسرائيل قال : « **آمركم بذكر الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سرعًا فآوى إلى حصنٍ حصين فحصن نفسه** » .

الشيطان يقفو أثر ابن آدم ، فإذا كان قلبه خاويًا من الذكر تسلط عليه ، ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف : ٣٦] .

مفهوم الآية : أن من لم يغفل عن ذكر الله يحفظه الله سبحانه وتعالى من الشيطان وخطراته ووساوسه ، والله المستعان .

قال رحمه الله : (**الخامسة : أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شرٍّ أو جلب نفعٍ ، لا يدل على أنه ليس من الشرك**) .

هذا من أدلة أهل البدع والخرافات والقبوريين ، أنهم يجدون فائدة من هذا العمل ، بعضهم يقول : أنا عندما أدخل في القبر أجد راحة نفسية وأجد كذا وكذا وكذا .

وبعضهم يقول : أنا استعذت بكذا وحصل لي كذا وكذا .

فيقال : (**أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شرٍّ أو جلب نفعٍ ، لا يدل على أنه ليس من الشرك**) كونه يحصل له منفعة في دنياه لا يدل على أن هذا العمل جائز أبدًا ، وهذا من الامتحان ، قد يبتليه الله عز وجل فيحقق له شيئًا مما يريد ابتلاءً وامتحانًا وربما عياذًا بالله حتى استدراجًا .

يذهب إلى مخرف أحيانًا فيعطيه شيء أو ساحر أو كذا يعطيه علاج أو وصفة أو كذا ، فيحس بأنه قد شفي ، وللنفس في هذا أعاجيب وأعاجيب .

فلا يعني حصول مراده الدنيوية أن هذا العمل صحيح ، فإن الإنسان بالمعاصي قد يحصل على أمور دنيوية ، قد يبيع أشياء محرمة ويحصِّل المال ، هل يقال : هذا خير ؟ أبدًا لا يكون خيرًا ، هكذا حصولهم على مرادهم في هذه الأشياء المحظورة والممنوعة لا يدل على أنه خير أبدًا .

قال رحمه الله :

(**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**) .

(**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**) ، المؤلف عقد عدة أبواب في بيان أنواع من الشرك .

الشيخ نظر إلى الواقع الذي تعيشه الأمة رحمه الله تعالى ، ورأى كثير من المخالفات والبُعد عن المنهج القويم والصراط المستقيم ، فألف هذا الكتاب وطرق الموضوعات التي تكثر فيها المخالفات كثيرة ، من جنس الذبح .

فالذبح منتشر في كثير من البلدان ولدى كثيرين يذبحون للجن خوفًا منه ، يذبحون له ، إذا أراد أن يبني بيت ، ولهذا إذا رأيتم بيت يُعمر أو أعُمر ورأيتم عنده دم في عتباته ، في مقدماته فهذا مؤشر إلى أنه فُعل فيه شيء ، فهم يفعلون هذا عياذًا بالله خوفًا من الجن ، الإنسان ضعيف التعلق بالله عز وجل يضعف قلبه ويصبح قلبه نهبًا للخطرات والوساوس والأفكار ثم يدفعها بما لا تندفع به ، عياذًا بالله .

كذلك النذر منتشر بين الناس ، ولو قرأتم بعض ما كتبه من عاش هذه المرحلة فترة من عمره ، ثم مَنَّ الله عليه بالهداية وجدتم العجب العجاب .

فيه كتاب صغير يوزع بالإفتاء قديمًا ((**كنت قبوريًّا**)) لعبد المنعم الجداوي، يذكر حاجات كانوا يفعلونها ، ينذرون لكي ينجح الولد في الدراسة ، ينذرون لكذا ، ينذرون لكذا ، وينذرون لأصحاب القبور الموتى .

لهذا الشيخ عُني بهذه الأبواب التي فيها ملامسة لواقع الناس ، وما يحتاجون إليه .

ذكر هنا أيضًا هذا الباب ، وهو باب الاستغاثة بغير الله ودعاء غيره ، (**باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره**) .

والاستغاثة قال شيخ الإسلام : هي طلب الغوث بإزالة الشدة .

وذكر الدعاء هنا ، وعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص ، لأن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب . وأما الدعاء فيكون من المكروب ومن غير المكروب .

والدعاء يقسمه العلماء إلى قسمين ، هما:

- دعاء مسألة .
- ودعاء عبادة .

وبين القسمين تلازم ، عندما تتأمل آية في القرآن في الدعاء تجد بعضها يظهر أنه من دعاء العبادة ، وبعضها ظاهره أنه من دعاء المسألة :

- يعني خذ مثلاً قول الله عز وجل : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، المراد به دعاء المسألة . وذلك أن المشركين قالوا : إن محمدًا ينهى عن الشرك ويدعو الله ويدعو الرحمن ويدعو ويدعو ، إذًا هو يدعو أكثر من إله . وهذا الجهل المطبق عندما يخيم على القلوب ، ولا يعلمون أن هذه أسماء ربنا عز وجل ، فنزلت الآية ، إذًا في دعاء مسألة .
- ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] . دعاء مسألة . ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ تعليل ، فيه الثناء على الله عز وجل وفيه الطلب ، ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . ومعنى السميع هنا المستجيب . **لأن عندنا قاعدة :** إذا ذكر السميع في معرض الدعاء فالمراد به معنى المستجيب . **ففيه :** ثناء على

الله عز وجل ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ . **وفيه :** طلبٌ أيضًا منه أن يستجيب الله تعالى دعاءه .

- قال إبراهيم : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم : ٤٨] . هذا دعاء عبادة ، لأنه قال بعدها ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ﴾ [مريم : ٤٩] . فذُكر في الآية الأولى بلفظ الدعاء وفي الثانية بلفظ العبادة دل على أنه دعاء عبادة .

قالوا : وكل دعاء للمشركين في الدنيا فهو من قبيل دعاء العبادة .

- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ [الحج : ٧٣] ، ﴿ تَدْعُونَ ﴾ يعني تعبدون .
- ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا ﴾ [النساء : ١١٧] يعني يعبدون .
- وأما الطلب من المشركين أن يدعو يوم القيامة فهو دعاء مسألة ، ﴿ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴾ [القصص : ٦٤] . معنى ﴿ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ﴾ يعني اسألوهم .
- ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ [الكهف : ٥٢] ، دعوهم دعاء سؤال ، نادَوْهم ، نادَوْهم فلم يستجيبوا لهم .
- هناك آيات يمكن أن تُحمل على هذا وعلى هذا ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] . قوله : ﴿ أُجِيبُ ﴾ يحتمل أن يكون دعاء عبادة ، ويحتمل أن يكون دعاء

مسألة . وأيًّا كان ، فسواء كانت الآية ظاهرها في دعاء العبادة ، أو في دعاء المسألة فإن بين النوعين تلازمًا . قال العلماء : فكل دعاء عبادة يستلزم دعاء مسألة ، وكل دعاء مسألة يتضمن دعاء العبادة . وهذا من حمل اللفظ على حقيقته لا على مجازه كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

لكن ما معنى دعاء عبادة ؟

كل عبادة لله فهي دعاء ، فالصوم دعاء ، والحج دعاء ، والبر دعاء ، والصدقة دعاء ؛ لكنها دعاء بلسان الحال . وأما دعاء المسألة فهو دعاء بلسان المقال .

كيف كان الحج دعاء ؟ كيف كانت الصدقة دعاء ؟ يعني رجل تصدق بمالٍ فقال لك : هذا الرجل دعا ربه . قلت : كيف دعا ربه ؟ ما تكلم بكلمة واحدة ؟ صحيح هو دعا ربه ؛ لأن لسان حاله أنه بهذه الصدقة يرجو ويخاف ، يرجو رحمته ربه ويخاف عقابه . ولهذا قال ربنا عز وجل : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [الأعراف : ٥٥ ، ٥٦] ادعوه يعني اعبدوه ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ، وإذا دعوتموه خوفًا وطمعًا لزم من ذلك دعاؤكم إياه في جلب النفع ودفع الضر ؛ لأن غاية دعاء السائل في دعاء المسألة إما جلب نفع وإما دفع ضر كما يأتي في الآية الأولى .

إذًا من الشرك أن يستغيث بغير الله ويدعو غيره دعاء عبادة ، أو دعاء مسألة فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل .

أما إذا دعا الإنسان أخاه في شيء يستطيعه ما حكمه ؟ قالوا : يجوز .

وإذا دعاك فأجبه ، دعاك إلى وليمة أو ما أشبه ذلك .

فدعاء العبادة شركٌ بكل حال ، ودعاء المسألة إن كان في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله عز وجل فإنه يكون شركًا .

(وقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [يونس : ١٠٦ ، ١٠٧]) .

قال تعالى : (﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ ﴾) يعني دعوته ، (﴿ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾) إن تركت دعاءه ، (﴿ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾) يراد بالظلم هنا الشرك . والظلم ثلاثة أنواع :

- ظلم العبد نفسه .
- وظلم العبد غيره .
- والشرك ، وهو أشدها .

وسمي الشرك ظلمًا لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، والشرك وضع للعبادة في غير موضعها وصرف لها لغير مستحقها .

(﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ ﴾) يعني مرض ، أو فقر ، أو ما أشبهه .

(﴿ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ﴾) بصحة وعافية وسعة رزق ، (﴿ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾) .

هذا الكلام موجه لأكرم الخلق ومن هو معصوم من هذا الأمر ، وهذا يرد في القرآن كثيرًا أن الله تعالى يوجه للأكرمين أشياء لا يمكن أن تقع منهم أبدًا ،

كقوله : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] . بعد أن ذكر ثمانية عشر نبيًّا .

وقوله : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] . للنبي ﷺ .

وقال لموسى : ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ [طه : ١٦] .

لا يعني ورود هذه الأشياء عليهم ، فلماذا إذًا يوجه النهي إليهم ؟

أولاً : النهي لهم نهي لغيرهم ، وأمتهم تبع لهم .

ثانياً : إذا كان هذا حقًّا في حق هؤلاء الأكابر فغيرهم بطريق الأولى ، فدل على أن الأمر شديد وعظيم ، حتى إن أكرم الخلق لو تُصُوِّر حصوله منه وحاشاه لكان من الظالمين ، فكيف بغيره ؟

ونظير هذا قوله ﷺ : « **ويم الله لو أن فاطمة بنت محمدًا سرقت لقطعت يدها** » . وحاشاها رضي الله عنها وأرضاها ، ولكن ليبين أن هذا الأمر لا ردة فيه ولا تهاون فيه ، حتى لو أن امرأة من أكرم النساء فعلته لقطعت يدها .

وقوله : (**﴿ وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ ﴾**) هذا باعتراف المشركين أنفسهم ، فإن المشركين معترفون أن آلهتهم لا تنفع ولا تضر ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ إذًا لماذا يعبدونهم ؟ أكملوا الآية ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا ﴾ [يونس : ١٨] ، قالوا : ما عبدناهم للنفع والضر ، النفع والضر بيد الله ؛ لكن لأجل أن يتوسطوا لنا عند الله عز وجل ، يشفعوا لنا عند الله عز وجل .

في آية أخرى قال : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا ﴾ لماذا ؟ ﴿ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، فعبادتهم وسيلة إلى الله عز وجل ، عياذًا بالله .

وهذا الذي تخشاه على كثير ممن تميل قلوبهم إلى هذه الخرافات وإلى التعلق بالقبور ، أن يتعلقوا بها زعمًا أنها تتوسط لهم عند الله ، وأن لها سرًّا خاصًّا به يحصل مقصودهم ومرادهم منها ، والله المستعان .

قال رحمه الله : (**وقوله : ﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ١٧]**) .

(**﴿ فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ ﴾**) ، أي اطلبوا من عند الله الرزق.

وتقديم الظرف هنا يدل على الاختصاص والحصر ، ابتغوا الرزق فالرزق عند الله وليس عند غيره .

(**﴿ وَاعْبُدُوهُ ﴾**) تعميم بعد التخصيص .

(**﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾**) الشكر كما مر بنا مرارًا هو القيام بطاعة الله اعترافًا بالقلب ، وثناءً باللسان ، وعملاً بالجوارح . وعُدِّيَ الفعل هنا (**﴿ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾**) بـ (اللام) مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى الإخلاص .

ففيه : الأمر بطلب الرزق من الله عز وجل ، وإفراده بالعبادة ، وإفراده بالشكر ، هذه عبادات جليلة أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن لا يصرفوها إلا الله سبحانه وبحمده ، فدل على أن صرفها لغيره يعتبر شركًا ، فمن طلب الرزق بغير الله فقد أشرك ، ومن عبد غير الله فقد أشرك .

قال رحمه الله : (وقوله : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦]) .

(﴿ وَمَنْ أَضَلُّ ﴾) أي لا أحد أضل ، فهذا نفي ؛ لكنه جاء بصيغة الاستفهام ؛ لأن مجيئه بصيغة الاستفهام فيه معنى التحدي ، لا أحد أضل منه .

(﴿ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) ممن يعبد غير الله عز وجل دعاء عبادة ومسألة أيضًا (﴿ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾) لن يستجيب له ، لن يجيب له سُؤْلاً ولن يتقبل منه عملاً ، (﴿ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾) لأنهم إما ملائكة مشغولة بعبادة ربهم ، وإما أنبياء وصالحون موتى ، وإما جمادات ، أشجار وحجارة ، فهم غافلون عن عبادتهم .

(﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾) ، أي جاحدين لعبادتهم منكرين لها ؛ لأنهم إما أنهم لم يعلموا بها ، أو أنهم لم يرضَوْا بها .

اذكروا لي بعض الآيات التي فيها التبرؤ :

- ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] .
- وأيضًا ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ [البقرة : ١٦٦] ،

- ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٢٢] ، حينها يتبرأ المتبوع من التابع ، ويتمنى التابع أن لو عاد إلى الدنيا لكي يتبرأ منهم كما تبرأ منه في الآخرة ولكن هيهات .

قال رحمه الله : (**وقوله : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢]**) .

(﴿ أَمَّنْ ﴾) (أم) هنا بمعنى (بل) ، وهي كما يقولون في النحو : منقطعة . لأنها تأتي منقطعة وتأتي متصلة ، وإذا جاءت متصلة فهي بمعنى (أو) ، ولا بد فيها من المعادل إذا كانت متصلة ، مثالها جاء زيد أم عمرو ؟ المعنى أو عمر ، وليس المعنى بل عمرو ، لكن إذا كانت بمعنى (بل) تكون منقطعة .

هذه الآية وردت في جملة آيات ، ذكر الله سبحانه وتعالى فيها آياتٍ من آياته الكونية لا ينكرها المشركون ؛ بل هم معترفون فيها .

ويتبين من خلال اعترافهم بها وإشراكهم مع الله تعالى غيره يتبين من هذا تناقضهم واضطرابهم ، ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ

مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٤] . سقطت براهينهم ولم يعد لهم دليل يتمسكون به ، بل الحجة عليهم ، وهذه الطريقة من أقوى ما يحتج به على كل زائغ وضال ، أنك تحتج عليه فيما يثبته على ما ينفيه .

فهو تعالى يوجه هذه الآيات للمشركين ، يعني أنتم مقرون بهذا بأن الله هو الخالق وهو الرازق وهو مجيب دعوة المضطر ، وكان مقتضى هذا الإقرار أن تقروا بوحدانيته سبحانه وبحمده فكيف تصرفون العبادة لغيره ؟! لكن يأتي الشيطان بشبهته الخبيثة ويقولون : ما نعبدهم لذواتهم لكن نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى .

وهنا قال : (﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾) الدعاء هنا دعاء مسألة ؛ ولكنه متضمن أيضًا لدعاء العبادة .

(﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾) من الذي يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ؟ ومن الذي يكشف السوء ؟ قال عز وجل : (﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾) دل على أن من دعا غير الله اضطرارًا في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله فقد اتخذه إلهًا .

وأذكر أنه مر كلامٌ في بعض الكتب التي أُلِّفت في بداية القرن السابق وكتبها شخصٌ ، كتاب فيه مسائل فقهية ؛ لكن جاء عند مسألة الزيارة وتكلم عن هذه القضية وذكر واقعة حصلت له مع أحد علماء السنة في تلك البلاد . وقال : إني يعني سألته وقلت له : لو أن سابحًا يسبح في البحر فخشي من الغرق فقال : يا محمد ، - وتعجب كيف يقول هذا رجل منتسب إلى العلم - يا محمد ، فرد

عليه قائلاً : (﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾) ؟ قال : فقلت له لو أن رجلاً واقفًا بالبحر ، وقال له هذا الشخص : يا فلان أغثني . قال : هذا حاضرٌ قادر .

مقتضى الشرع واضح ولله الحمد بين ، يعني هذا رجل موجود واقف عنده ، وقال : أخرجني يا فلان ، فمد يده وأخرجه ، وكلامه السابق يقول : أغثني يا محمد . قال : وسقط من عيني . سقط من عينه لما قال إن هذا القادر لا بأس أن يستغاث به ، لأنه يجوز أن يستغيث بشخصٍ حاضر وقادر وحي ،حيٌّ حاضرٌ قادرٌ فيجوز أن يستغيث به والناس مطبقون على هذا ؛ لكن أن يكون غائبًا ، وأن يكون ميتًا حتى ولو كان أكرم الخلق .

الشرك أول ما وقع وقع بسبب التعلق بمن ؟ بالشياطين أو الصالحين ؟ الجواب: بسبب التعلق بالصالحين .

الشيطان يأتيهم من هذا الباب ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ ﴾ سيأتينا إن شاء الله ﴿ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] . قال ابن عباس : هذه أسماء رجال صالحين ، جاء الشيطان إليهم وقال : انصبوا إلى مجالسهم أنصابًا ، وسموها بأسمائهم حتى تتذكروا عبادتهم فتنشطوا للعبادة . في البداية لم يقل : اعبدوهم ، فلما انقرض هذا الجيل وجاء جيل بعده قالوا : ما صوَّروهم ولا وضعوهم إلا لأجل عبادتهم . جاء إليهم الشيطان ، ووسوس إليهم بهذا الأمر فعبدوهم من دون الله عز وجل .

وأنت تلحظ أن التعظيم دائمًا والعبادة تكون للملائكة ، وتكون للأنبياء ، وتكون للصالحين ، ما تكون للشياطين إلا في الأمور الشاذة البعيدة عن أدنى ذرة ولا قوة إلا بالله ، والتي لا يفعلها إنسان سويٌّ أبدًا .

المقصود : أن الاستغاثة بالمخلوقين إذا كان المخلوق عاجزًا ، أو غائبًا ، أو ميتًا أن ذلك من الشرك الأكبر ، ولا يحتجون بأن هذا رسول الله وأعظم الخلق ، وأفضل الخلق .

فالنصارى عندما قالوا : عيسى هو الله أو ابن الله ، قال الله عنهم ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ سواءً يعني عبد ملكًا أو عبد نبيًّا .

ثم يربطون مسألة محبته بتعظيمه تعظيمًا مساويًا لتعظيم الرب سبحانه ، يقول : أنت لا تحب الرسول ، والمحبة دعوى كلٌّ يدعيها ؛ لكن لها محكًّا وامتحانًا ذكره ربنا في قوله في آية المحنة ، وهي ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، إن كنتم تحبون الله فاتبعوا محمدًا ﷺ ، حتى تصدقوا هذه الدعوى بالاتباع ، أما أن تقول : أنا أحب أنا أحب فما أيسر هذا وأسهله ؛ لكن لا بد من تصديق هذه الدعوى باتباع محمد ﷺ .

العجيب أن هؤلاء الذين يتشدقون بمحبة النبي ﷺ غالبًا هم أبعد الناس عن اتباعه ، وأقرب الناس إلى الغلو فيه ، حتى دعوه مع الله واستغاثوا به مع الله ، وإذا قرأت قصائدهم وقرأت ، ترى العجب العجاب ، وتقول : كيف لبشر يقول مثل هذا الكلام ؟ يدعونه ، يطلبون منه الجنة ، يستغفرونه لذنوبهم ، شيء عجيب ، عندما يقول أحدهم يخاطب الرسول :

أدعوكَ في سكرات الموت تحضرني ** كما يخف الأنفاس في صعدِ

وإن نزلت بقبرٍ لا أنيس به ** فكن أنيس وحيد فيه منفرد

وارحم مؤلفها عبد الرحيم ومن ** يليه من أجله وانعشه وافتقد

وإن دعا فأجبه واشف الفؤاد له ** من حاسد شامت أو ظالم نكد

يقول : إن دعوتك فأجبني ، وإن نزلت قبري تعالى عندي تؤنسني .

حتى قال في بعضها :

يا رسول الله يا ذا الفضل يا ** بهجة الحشر جاهًا ومقام

عد على عبد الرحيم المحتمي ** بحمى عزك يا غوث اليتامى

وأقلني في عثرتي باكتساب** الذنب في خمسين عامًا

يقول : اغفر لي ذنوبي فأنا مذنب من خمسين سنة . ماذا بقي لله ؟ إذا كان يدعى غيره ، وإذا كان يستغفر غيره ، وإذا كان تطلب المطالب العالية من غير الله عز وجل ماذا بقي لله عز وجل ؟

وأناشيدهم وقصائدهم في هذا كثيرة ، والله المستعان .

ولو نظروا في القرآن وتأملوا فيه وتدبروه لرأوا الحق الواضح الجلي المبين ، فإن الله تعالى لما أراد أن يشرِّف نفسَه وصفه بأنه عبد الله ورسوله ، هذه أشرف أوصافه ، ولهذا قال : « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما عبدٌ ، فقولوا عبد الله ورسوله** » . فهو عبدٌ لا يُعبد ، ورسول لا يكذب صلوات ربي وسلامه عليه ، نعم نحبه أعظم من محبة النفس والمال والأهل والولد والناس أجمعين ؛ لكن لا نغلو في هذه المحبة حتى يصل إلى محبة التذلل والخضوع إلى العبادة عياذًا بالله ، هذه محبة لا تكون إلا لله عز وجل .

المقصود : أن الإنسان بتوجهه وتوجه قلبه واستغاثته واستعانته ودعائه يتوجه إلى ربه ، لا يدعو أحدًا من البشر ، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلاً ، ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولهذا ورد في النصوص ما ورد من الحث على دعاء الله عز وجل وحده ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ ، وهنا (﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾) ، فمن أصابته ضراء أو مسه سوء فليفزع إلى ربه وليدعه دون غيره ، فإن الله قال لأكرم الخلق : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ [يونس : ١٠٦] . وقال : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ . وإذ كان وحده الكاشف للضر فالواجب أن لا يُسأل أحدٌ سواه ، وإذ كان وحده الجالب للخير فلا يُسأل أحدٌ سواه سبحانه وبحمده .

قال رحمه الله : (**روى الطبراني بإسناده أنه كان في زمان النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين ، فقال بعضهم : قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق . فقال النبي ﷺ : « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله »**) .

هذا الحديث من حديث عبادة بن الصامت رواه الطبراني وقال الهيثمي رحمه الله : رجاله رجال الصحيح ، وفيه عبد الله بن لهيعة الحضرمي القاضي ، وفيه كلام معروف رحمه الله رحمةً واسعة .

كان المنافق يؤذي المؤمنين ، يؤذيهم بالقيل والقال واللسان ، لا يؤذي بضرب أو شبهه فليسوا أهلاً لهذا ، فقالوا : (**قوموا بنا نستغيث برسول الله**) ، قيل : الذي قال هذا أبو بكر رضي الله عنه .

فقال : (« **إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله** ») عز وجل . مع أن هذه الاستغاثة جائزة ؛ لكن النبي ﷺ فيما روي عنه من هذا الحديث عدل عنها تأدبًا

مع الله ، وصيانة للتوحيد وسدًّا للذرائع ، وإلا فقد قال الله عز وجل : ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾ [القصص : ١٥] .

فالاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق لا بأس بها ، إنما المنهي عنه والمحرم الاستغاثة الشركية ، وهي الاستغاثة بغير الله في أمرٍ لا يقدر عليه إلا الله .

وفقكم الله

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : (**باب قول الله تعالى :** **﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩١ ، ١٩٢] .**

وقوله : **﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣ ، ١٤] .**

وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال : شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد ، وكسرت رباعيته ، فقال : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم » ؟ فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٨]) .

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله ، وهو في موضوعه تلحظون أنه يختلف عن الأبواب السابقة .

الأبواب السابقة كان الكلام فيها عن أنواع الشرك : الذبح لغير الله ، النذر لغير الله ، الاستعاذة بغير الله ، الاستغاثة ، ودعاء غير الله عز وجل .

وهذا الباب يتحدث فيه المؤلف عن حال المدعوين مع الله عز وجل ، فيتحدث في هذا الباب عن المصطفى ﷺ ، والباب الذي بعده يتحدث عن الملائكة ، يبين حالهم وأنه لا يجوز دعاء أحد مع الله عز وجل ، وإذا كان لا

يجوز دعاء محمد ﷺ وهو أفضل الخلق وأشرفهم وكذا الملائكة أيضًا ولهم من القدر والمكانة الرفيعة ما لا يخفى فغيرهم بطريق الأولى .

قال : (**باب قول الله تعالى : ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴾**) . ذكر هنا أربعة أدلة على بطلان شرك المشرك :

١ . أن آلهتهم هذه لا تخلق .

٢ . بل هي مخلوقة .

٣ . لا تنصر .

٤ . بل لا تنصر نفسها .

وإذا كانت مخلوقة ولا تنصر نفسها فإنها لن تعن أحدًا ولن تنصر أحدًا ولن تنفع أحدًا بحال من الأحوال .

وفي هذه الآية استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، وخطاب للمشركين الذين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية ، وأنهم مقرون بهذا ، فهم يقرون أن آلهتهم لا تخلق ، وأنها مخلوقة ، ولا تنصر أحدًا ، بل لا تنصر نفسها ، وإذا كانت بهذه المثابة فعبادتها مع الله تعالى باطلة ، وإذا كان الله عز وجل هو الخالق وهو الرازق وهو الناصر سبحانه وبحمده وبيده النفع والضر فهو المعبود دون ما سواه .

وهذا يكثر في القرآن ، أن الله عز وجل يستدل على المشركين فيما أقروا به على ما نفوه ، خذ مثلاً قوله عز وجل : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦١]

.

هنا الله تعالى يستدل عليهم بأنهم مقرون بأن الله هو خالقهم ، فإذا كانوا هكذا فلماذا لا يقرون بأن الله هو معبودهم ؟ وهذا الإقرار الأول يستلزم منهم عبادة الله عز وجل ، ولهذا يقولون : أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية ، يعني يدل عليه بدلالة اللزوم ، فمن أقر بأن ربه خالقه ومالكه فالواجب أن يقر بأنه إلهه ومعبوده .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] ، إذا قلتم بأن الله تعالى هو المتفرد بكل ما ذكر يلزمكم إذًا أن تتقوا الله عز وجل .

وقال عز وجل : (**﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾**) .

الآية التي قبلها هي ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، ذلكم الله عز وجل ، والذي تدل على ألوهيته هذه الآيات الكبار ، وقبلها ذكر ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ﴾ [فاطر : ١١] ، قبلها ﴿ وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [فاطر : ٩] ، ذكر جملة من الأدلة الدالة على وحدانيته ، ثم ذكر حال المدعوين معه سبحانه وبحمده ، وأنهم لا يملكون من قطمير ، والقطمير هو

اللفافة التي تكون على نواة التمر ، ونواة التمر تكون في وسط التمر ، هذه النواة إذا أخذناها فيها ثلاثة أشياء ذكرت في كتاب لله عز وجل ، فيها :

- النقير ، وهو نقرة صغيرة ، حفرة صغيرة تكون فوقها فوق بعض النواة .

- والفتيل ، وهو خيط يكون في وسط النواة .

- والقطمير ، وهو قشرة على نواة التمر ، إذا يبست خاصة ترى عليها قشرة .

ربنا يمثل قال : ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩] ، ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٤] . يعني مقدار الفتيل والنقير .

وهنا ذكر أن آلهة المشركين لا تملك قطميرًا ، هذه القشرة التي على النواة لا تملكها ، فعلام تدعونها إذًا وتطلبون منها قضاء الحاجة ؟!

(﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ﴾) فهم لا يسمعون دعاءكم ؛ لأنهم إما ملائكة مشغولون بطاعة الله عز وجل ، أو أموات لا يشعرون بدعاء من دعاهم ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ ، ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل : ٢٠ ، ٢١] .

(﴿ وَلَوْ سَمِعُوا ﴾) على سبيل الفرض والتقدير (﴿ مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ﴾)

(﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ﴾) يجحدون شرككم وينكرون عبادتكم لهم ، (﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ ﴾) بمثل عواقب الأمور (﴿ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾) بها ، وهو الله عز وجل ، ولهذا قال في الآية بعدها : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ﴾ [فاطر : ١٥] ، إذًا ادعو ربكم وحده ، لا تدعوا هؤلاء الذين اتصفوا بهؤلاء الأوصاف .

ذكر ثلاثة شروط لا بد من وجودها في المدعو :

١ . الملك .

٢. سماع الدعاء .

٣. القدرة على الإجابة .

لا يوجد واحد منها في هؤلاء المدعوين فكيف بها جميعها ؟

وهذا دليلٌ في كتاب الله عز وجل ؛ لكنه خطاب للعقول أيضًا ، لك أن تعتبره دليلاً عقليًّا ، تقول لهؤلاء تخاطب عقولهم ، هذه الآلهة لا تملك شيئًا باعتراضكم ، لا تسمع الدعاء ، لا تقدر على الإجابة ، فكيف تدعى من دون الله عز وجل ؟

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ﴾ . ما هذا المثل ؟ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٧٣] . ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ من أحقر المخلوقات .

وقال : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] ، فكيف إذًا يُعبدون مع الله عز وجل ؟

بل قال عن أكرم الخلق صلوات ربي وسلامه عليه : ﴿ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا * قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ [الجن : ٢١ – ٢٣] .

فمهمته هي التبليغ ، تبليغ رسالة ربه سبحانه وبحمده ، ومع ذلك يقولون ما يقولون حول الاستغاثة بالنبي ﷺ وطلب قضاء الحاجات ، حتى يقول أحدهم :

ما سامني الدهر ضيمًا ** فاستجرت به ....

يعني بالرسول ﷺ .

.... إلا ونلت جوارًا منه لم يضم

ولا التمست غنى الدارين من يده ** إلا استلمت الندى من خير مستلم

ماذا بقي ؟ ما بقي شيء ، فتنة فُتن بها المسلمون ، وبلية دبت ووقعت بينهم ، وراحوا يبررونها بأمور وأشياء هي أبعد وأبعد عن المعقول فضلاً عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

والآيات في هذا كثيرة ، حتى قال عز وجل عن المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه آية الأعراف : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ ما يملك لنفسه نفعًا عليه الصلاة والسلام ، هذا لا يقل من قدره أبدًا ، بل هذا الذي يعلي من قدره صلوات الله وسلامه عليه ، ﴿ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] يقول : إني لا أعلم الغيب ، ومع ذلك يقولون : هو يعلم الغيب ، مع أن الآيات كالشمس نصوص ، ما تحتمل أي احتمال ، وإذا قلت شيئًا قالوا : لا ، أنت لا تحب الرسول وأنت وأنت وأنت . وهذا ما قاله ابن عقيل رحمه الله أن استعاضوا عن التكاليف الشرعية بهذه الأمور التي استحدثوها ووجدوا فيها واستروحوا لها ووجدوا فيها راحة ، وما فيها كُلفة ؛ لكن المحبة تتمثل في اتباع المصطفى ﷺ ، أما مجرد الدعوى سهلة كلٌّ يَدَّعيها . ولهذا يسمي العلماء هذه الآية آية المحنة ، أيّ آية ؟ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ليس مجرد أن تقول : أنا أحب الله . خلاص ، اتبع محمد حتى يكون اتباعكم علامة على محبتكم لله وشرطًا لمحبة الله لكم .

فقوله : (**اتبعوني**) أمارة وشرط ، أمارة لما قبلها وشرطٌ لما بعدها ، كيف ؟ ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ أمارة على محبة العبد لربه عز وجل ، وشرط لمحبة الله تعالى للعبد ، كذلك محبة المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه ، هي بالقلب ، هي باللسان ؛ لكن الجوارح هي التي يُعرف فيها ما في القلوب ، أما مجرد الكلام ومجرد الدعوى فأمرها سهل ، وإلا فالواجب محبة محمد ﷺ أعظم من محبة المال والنفس والأولاد ، بل محبته فرعٌ عن محبة الله عز وجل . لكن يدعي الإنسان محبته ثم يخالفه ويعصيه ، ويستعيض عن ذلك بهذه الدعوى وأنه يحب الرسول ، ولو تأملتم أحوال أهل البدع وجدتم ما يقوله العلماء فيهم واضحًا جليًّا ، يعني كلام ابن عقيل هذا كلام نفيس ، تجدهم بطالين في العبادات وفي السنن ، ويستعيضون عنها بهذه الرسوم التي أحدثوها واستحدثوها من أنفسهم واستروحوا لها ورأوا أنها تكفيهم عن كثير من الأمور ، والله المستعان .

ثم ذكر أثر أنس رضي الله عنه وأرضاه الذي علقه البخاري ووصله مسلم قال : (**شُجَّ النبي ﷺ**) والشَّجَّةُ هي الجرح في الرأس وفي الوجه خاصة ، وأما في بقية البدن فيسمى جرحًا .

(**شُجَّ النبي ﷺ**) في غزوة أحد ، ضربه ابن قمئة ، عبد الله بن قمئة قال : خذها وأنا ابن قمئة . فشج رأسه حتى دخلت حلقتان من حلقات المغفر في رأسه صلوات ربي وسلامه عليه . فقال له عليه السلام : « **ما لك أقمأك الله** » . فسلط الله عليه تيس جبل ، فأخذ ينطحه حتى مزقه ، وتيس الجبل هو الوعل .

وأيضًا عتبة بن أبي وقاص كسر رباعيته صلوات الله وسلامه عليه ، قال : شُجَّ رسول الله وكسرت رباعيته .

الرباعية يقولون هي: السن الذي يلي الثنية . هناك للإنسان أربعة أنياب ، والناب معروف ، السن الطويل الحاد هذا ، بعده الثنايا ، وهي أربعة أيضًا ، بعد كل ناب ثنيتان سفلى وعليا ، بعد الثنيتين اللي في الوسط هذه هي الرباعيات ، هذه الرباعيات كسرت إحدى رباعياته ﷺ ، ووقع في حفرة وأشيع بأنه قد مات ، حتى صاح أبو سفيان أفيكم محمد ؟ أفيكم ابن أبي قحافة ؟ أفيكم عمر ؟ والنبي ﷺ يقول : لا تجيبوه . ثم قال : أما هؤلاء فقد كفيتموهم . يعني خلاص قتلوا .

ثم قال : أعل هبل ، انظروا العقل أبو سفيان أسلم وحسن إسلامه ؛ لكن الوثنية الشرك والكفر يجعل عقل الإنسان صغير اعلوا هبل ، صنم لا يعي ولا يعقل ، اعلوا هبل ! ، قال : أجيبوه . عليه الصلاة والسلام المسألة تمثل التوحيد والعقيدة ، فأجابه عمر الله أعلى وأجل . قال : لنا العزى ولا عزى لكم . نحمد الله على نعمة التوحيد .

عمرو بن العاص تأخر إسلامه وهو من دهاة العرب ، فقيل له في ذلك قال : في مكة رجال أحلامهم تزن الجبال . يعني أُناس كبار ولهم شأن ومكانة ، ومع ذلك لم يسلموا ، هؤلاء الذين أخَّرونا ؛ لكنها عناية الله وهدايته .

قال : لنا العزى ولا عزى لكم . قال عمر : الله مولانا ولا مولى لكم .

امتحن المسلمون لا شك في هذه الواقعة ، وقتل منهم سبعون ، قتل بين يدي النبي ﷺ تسعة من الأنصار ، وهم يذبون ويدافعون عنه صلوات الله وسلامه عليه ، وشلت يد طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه ، وهو يقي بها السهام عن النبي

ﷺ ، ووقع في حفرة ووجد فيه من الجراحات شيء كثير ، ثم انتهى الأمر إلى ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ﴾ وماذا ؟ ﴿ وَالْفَتْحُ ﴾ وكانت العاقبة له صلوات ربي وسلامه عليه ولدينه ولأصحابه ، ما ضرهم ما فعل المشركون في أحد ، وكان لله فيه حكم ، سبحانه وتعالى أجرى هذا الأمر لحكم أرادها الله عز وجل ، قال : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٠ ، ١٤١] .

عُلِمَ المؤمنون ووضح النفاق ، بان المنافقون ، واستشهد من استشهد من أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم ، ومُحِّصَ المسلمون ومُحِقَ الكافرون .

اقرؤوا التاريخ كان مشايخنا يحبون القراءة في ((**البداية والنهاية**)) لابن كثير

.

فقال : (« **كيف يفلح قوم شجوا نبيهم** ») ؟ كأنه يئس منهم عليه الصلاة والسلام ، كيف يفلحون ؟ لا سبيل إلى فلاحهم وقد فعلوا هذا الفعل ، فأنزل الله (**﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**) ، بعد قوله : ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ * لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٢٧ ، ١٢٨] ، ذكر الله أربع مسائل متعلقة بالمشركين ، هي :

- ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قطعوا وقتلوا .

- **الثاني :** ﴿ أَوْ يَكْبِتَهُمْ ﴾ ، كبتوا جميعًا وأزلوا ، أزلوا حتى ولو انتصروا شكلاً فهم لم يحققوا مرادهم ، وقد هموا أن يرجعوا فألقى الله تعالى الذل في قلوبهم ورجعوا إلى مكة دون أن يحققوا مأربهم .
- **الثالثة :** ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ .
- **الرابعة :** ﴿ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ . وجاءت هذه الجملة معترضة بين هذه الأمور الأربعة ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ .

الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق وأفضل الخلق ، إذا لم يكن له من الأمر شيء فلمن الأمر إذًا ؟ ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] ، إذًا لا يدعى إلا هو ، لا يعبد إلا هو ، لا يستعان ولا يستغاث ولا يرجى إلا هو سبحانه وبحمده ، وأما محمد ﷺ فله المكانة والقدر الأعلى ؛ لكن لا يجوز أن يدعى مع الله ولا أن يرجى مع الله عز وجل ، هو إنما جاء لدعوة الناس إلى التوحيد وإلى نبذ هذه الأمور وتركها ، وإذا كان هو لا يدعى فغيره بطريق الأولى .

قال رحمه الله : (**وفيه : عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر : « اللهم العن فلانًا وفلانًا » . بعد ما يقول : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » . فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**) .

أيضًا أثر ابن عمر هذا في البخاري قال في الصحيح وفيه عن ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من صلاة الفجر ، بعدما يقول : (**« سمع الله لمن حمده »**) . وقوله : (**« سمع الله لمن**

حمده ») . أيضًا عُدِّي الفعل بـ (اللام) هنا مع أن الفعل (سمع) يتعدى بنفسه لتضمنه معنى الاستجابة ، أي استجاب الله دعاء من حمده .

(**« اللهم العن فلانًا وفلانًا »**) ، في الرواية الأخرى قال : يدعو على صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمر ، وكان الثلاث رؤوس المشركين في غزوة أحد ، وقد أصابه وأصاب أصحابه ما أصابه ، فكان يلعنهم .

(**« اللهم العن »**) واللعن هنا هو الدعاء ، لأن اللعن:

- إن كان من الله فهو الطرد لا شك والإبعاد من رحمة الله .
- وإن كان من مخلوق فهو الدعاء على من لُعن بالطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل .

(**« اللهم العن فلانًا وفلانًا »**) فأنزل الله عليه (**﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**) .

وفيه : جواز الدعاء في الصلاة للمعين .

وفيه : النهي بعدم جواز الدعاء على الكافر المعين . لأنه قد يسلم ، قد تدعوا عليه وقد كتب الله عز وجل ، ولهذا قال في الآية اللي عندنا السابقة : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ما أكرم الله وأعظم فضله ، يعني هؤلاء فعلوا ما فعلوا بنبيه وأوليائه ، ومع ذلك يعرض التوبة ، وتأملوا كتاب الله عز وجل قل أن تجد ذنبًا من الذنوب حتى الذنوب الكبار إلا وفيها ذكر التوبة قال : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وقد تاب الله عليهم على الثلاثة وأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم وكان لهم بلاءٌ وجهادٌ في سبيل الله .

إذًا ما مناسبة هذين الأثرين للباب ؟

تبين حال المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه ، وكذا سائر الأنبياء ، وأنهم يصابون بما يصاب به الناس ، وقد شُجَّ عليه الصلاة والسلام كسرت رباعيته فهم يتعرضون للأسقام ويأتيهم ما يصيب الناس ، لا يدفعون الضر عن أنفسهم ، فإذا كانت هذه حالهم مع علو قدرهم فلا تجوز دعوتهم بحال من الأحوال ، وغيرهم بطريق الأولى .

قال رحمه الله : (**وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] قال : « يا معشر قريش » . أو كلمةً نحوها « اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئًا ، يا صفية عمة رسول الله ﷺ ، لا أغني عنك من الله شيئًا ، ويا فاطمة بنت محمد سليني من مالي ما شئتِ ، لا أغني عنك من الله شيئًا »**) .

هذا الحديث أيضًا في البخاري ، لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد على الصفا صلوات الله وسلامه عليه ، وقال : (**« يا معشر قريش »**) . في رواية قال : يا صباحاه . فاجتمع الناس ، قال : « **لو أخبرتكم أن جيشًا يصبحكم أو يمسيكم هل كنتم مصدقي** » ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبًا . قال : « **فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد** » . فقال عمه أبو لهب : تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا!

وقال : (**« يا معشر قريش »**) قريش هو فهر بن النضر بن مالك ، وقريش هذا لقبٌ سأل معاوية بن عباس عن هذا الاسم فقال : هو اسم لدابة في البحر وقال

كلامًا يعني كأنها تَأْكل ولا تُؤْكل ، أو كأنها كذا وكذا ، ولعله يشير إلى القرْش . وقيل : بل من التَّقَرُّشِ وهو التكسب .

(**أو**) قال (**كلمةً نحوها**) ، في رواية في الصحيح أيضًا « **يا بني عبد مناف** » ، عمم وخصص صلوات الله وسلامه عليه .

(« **لا أغني عنكم من الله شيئًا** ») لا تتعلقوا بالنسب ، ولا بقربكم مني ، فأنا لا أغني عنكم من الله شيئًا .

ثم بدأ بالأقربين ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ الأقرب من قريش أيضًا قال : (« **يا عباس** ») عم رسول الله (« **لا أغني عنك من الله شيئًا** ») .

وفيه : نهي للآل أن يعتمدوا على نسبهم وقربهم من النبي ﷺ ، فلم ينفع أبا لهبٍ أن كان عم رسول الله ﷺ .

(« **يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئًا ، ويا فاطمة بنت محمد** ») (« **لا أغني عنك من الله شيئًا** ») ، ولفاطمة رضي الله عنها مآثر ولها فضل ، ومع ذلك لا يغني عنهم من الله شيئًا في الدنيا وفي الآخرة . وإذا كان أكرم الخلق لا يغني عن سيدة نساء العالمين كما يقول الشيخ في المسائل ، وكذلك عن عمه وعن عمته فلن يغني عن أحدٍ من الله شيئًا .

فالواجب على الإنسان في حاجاته ، وفي دعائه واستغاثته واستعانته : أن يتوجه بقلبه إلى الله عز وجل ، مقتفيًا أثر المصطفى ﷺ ، والأنبياء وإن كان لهم قدر فلا يجوز تأليههم مع الله عز وجل . لهذا قال الله لعيسى : ﴿ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي

بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ [المائدة : ١١٦] .

ما مناسبة قول عيسى لربه عز وجل : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ﴾ ؟

المناسبة أن هذا لم يخطر ببالي ، ولم يدر في نفسي حتى أتكلم به أو أدعو الناس إليه ، هذا حال عيسى وحال محمد ونوحٍ وموسى وأنبياء الله ورسله ، ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ هذه دعوتهم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، يدعون الناس إلى أن يكونوا ربانيين . والرباني من ذكر هنا من يتعلم ويُعَلِّم ، وسمي ربانيا :

- إما نسبة للتربية أنهم يربون الناس على الطريق القويم والنهج المستقيم .
- أو نسبة إلى الرب عز وجل لالتزام شرعه وتمسكهم بدينهم .

المقصود : أن محمدًا ﷺ ينادي أقرب الناس إليه (**« لا أغني عنكم من الله شيئًا »**) . حتى قال عليه السلام : « **إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء ، إنما وليي الله وصالح المؤمنين** » . وقوله : « **صالح المؤمنين** » . يدخل فيه القريب والبعيد . فدل على أنه لا يجوز التعلق بالأنبياء ولا بمن دونهم من الأولياء والصالحين ، وإنما يتوجه المسلم في طلب حاجاته إلى ربه سبحانه وبحمده .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الآيتين .

الثانية : قصة أحد .

الثالثة : قنوت سيد المرسلين ، وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون في الصلاة) .

يدل على مشروعية القنوت في النوازل هذا الذي دلت عليه السنة ، النوازل التي من أفعال المعتدين والكفرة وتسلطهم على المسلمين . وأما النوازل التي هي من فعل الله عز وجل فلم يرد القنوت عنها ، فقد جاء الطاعون في عهد عمر ، طاعون عمواس ومات منه خلق كثير ولم ينقل أنهم قنتوا له ، وإنما ربما يصلون للكسوف أو للزلازل أو ما أشبه ذلك .

قال رحمه الله : (**الرابعة : أن المدعو عليهم كفار**) .

بلا شك كانوا كفار ، المدعو عليهم كفار لما دعا عليهم النبي ﷺ ، ومع ذلك قال الله له : (﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾) .

قال رحمه الله : (**الخامسة : أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار ، منها :**

- شجهم نبيهم .

- وحرصهم على قتله .

ومنها : التمثيل بالقتلى ، مع أنهم بنو عمهم) .

يشير إلى ما حصل لحمزة رضي الله عنه ، لما قال أبو سفيان : ستجدون مثلة لم آمر بها ولم تَسُؤْنِي.

قال رحمه الله : (**السادسة : أنزل الله عليه في ذلك ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾**) .

إذا كان عليه الصلاة والسلام ليس له من الأمر شيء فما الظن بغيره ؟ حتى يدعون كما يُدعا الله عز وجل كما قال الصنعاني كما سمعتم :

أعادوا بها معنى سواع ومثله ** يغوث وود ....

كما حصل لقوم نوح .

وسواع ويغوث وَوُد ماذا كانوا رجالاً صالحين ، تعلق الناس بهم ، صَوَّروا صورهم طال الأمد عليهم فعبدوهم من دون الله عز وجل وهم صالحون ، فلم يشفع لهم أن كانوا صالحين ، الغالب في التعظيم إنما يكون للصالحين أو من يظن أنهم صالحون وإن لم يكونوا على شيء من الصلاح ، والله المستعان .

قال رحمه الله : (**السابعة قوله : ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ . فتاب عليهم فآمنوا .**

الثامنة : القنوت في النوازل) .

القنوت في النوازل كما ذكر إذا كانت النوازل من فعل الآدميين ، أما ما كان من فعل الله عز وجل فإنه يصلى لشيء منه ، والذي ورد فيه الصلاة كالكسوف والزلازل .

قال رحمه الله : (**التاسعة : تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .**

العاشرة : لعن المعيَّن في القنوت) .

ومع ذلك نهي عنه عليه الصلاة والسلام ، هو لعنهم في القنوت ؛ لكن لما نزل عليه ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ ترك هذا عليه الصلاة والسلام .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : قصته ﷺ لما أنزل عليه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .**

الثانية عشرة : جِدُّه ﷺ في هذا الأمر بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون ، وكذلك لو يفعله مسلم الآن) .

جده في الدعوة إلى ربه عز وجل ، (**ما نسب بسببه إلى الجنون**) وقبله نسب أنبياء الله ورسله ، قوم نوح ماذا قالوا لنوح أول رسول ؟ قالوا : ﴿ مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر : ٩] . حتى قال الله عز وجل : ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ ﴾ [الذاريات : ٥٣] كأن بعضهم أوصى ببعض ، لا ؛ لكن لما تشابهت القلوب تشابهت أقوالهم وأعمالهم .

قال رحمه الله : (**الثالثة عشرة : قوله ﷺ للأبعد والأقرب : « لا أغني عنك من الله شيئًا » . حتى قال : « يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا » . فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين ، وآمَن الإنسان أنه لا يقول إلا الحق ، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم ، تبين له التوحيد وغربة الدين**) .

إذا كان يقول عن أقرب الخلق عمه وعمته وفاطمة رضي الله عنها وأرضاها ما يقول فكيف بغيرها ؟ يتبين من هذا كما يقول الشيخ : غربة التوحيد وغربة الدين . حتى صرت تسمع طلب المدد والاستغاثة والدعاء كثيرًا ليس على ألسنة العامة ، بل حتى على المتسبين للعلم في كثير من الأحيان والله المستعان ، ومع ذلك فالخير موجود في كل مكان . الخير ولله الحمد والعقيدة النقية الصافية موجودة ودعاتها في كل بلد ، في كل مكان .

ذكرت لكم في الدرس الماضي ما ذكره بعضهم في كتاب له في القواعد ، والمثال الذي ذكره حول شخص يوشك أن يغرق في البحر ويقول : يا رسول الله أغثني ! . شيء منتهى العجب ، مع أن الله قال عن المشركين : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ، وهؤلاء يدعون محمد ، ويتبين

أن كثيرٍ من المخالفات التي وجدت في هذا العصر مثل ما حصل من المشركين أو أشد ، حتى شاع بينهم اعتقاد أن كثيرًا ممن يعظمونهم يتصرفون في الكون ، يعتقدون أنهم يتصرفون في الكون ، وأن كل ذرة في الكون تخضع لهم ولا قوة إلا بالله ، وهذا لم يكن معروفا عند العرب أبدًا ، الشرك في توحيد الربوبية ، المشركون كانوا مقرين في الجملة بتوحيد الربوبية ؛ لكن هؤلاء تخطوهم بالشرك في توحيد الربوبية .

بارك الله فيكم ووفقكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب ((**التوحيد**)) :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [سبأ : ٢٣]**) .

باب قول الله عز وجل : (**﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾**) هذه تتمة آيتين سيأتي ذكرهما في الباب القادم إن شاء الله في الشفاعة ، وهما قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ تأملوا الآية تدبروها ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ ﴾ ، هذه كم درجة ؟:

١. ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ . فمن يُدعى من دون الله كائنًا من كان لا يملك ثقال ذرة .

٢. **اثنين :** ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾ . لا يشارك حتى في ملكها . الأولى ما يملكها استقلالاً ، الثانية لا يشارك في ملك .

٣. **ثلاثة :** ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ ، والظهير معين ، فإذًا لا يملك .

٤. **أربعة :** ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ﴾ .

وفيه : نزول ، تدرج بالنزول :

- أولا لا يمكن ،

- اثنين ما هو أقل من الملك المشاركة ، لا يشارك .
- ما هو أقل من المشاركة المعاونة ، ما له منهم من ظهير .
- ما هو أقل من المعاونة الشفاعة ، حتى مجرد الشفاعة لا يشفع .

فلا أحد يملك شيئًا ولا يشارك الله تعالى في الملك ، ولا يعين الله تعالى عليه ، ولا يشفع عنده إلا بإذنه ، حتى الملائكة والدليل ﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦] . الملائكة من أثنى الله تعالى عليهم في محكم تنزيله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ، ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦ ، ٢٧] . مع ذلك لا يملكون شيء ، ولا يشفعون إلا بإذنه كما سيأتي في الشفاعة . ثم قال بعده : (﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾) هذا بيان لحال الملائكة ، وأن الملائكة يصابون بالفزع الشديد ، حتى إذا زال الفزع عن قلوبهم قال بعضهم لبعض : (﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾) أي قال ربنا الحق (﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾) سبحانه وبحمده ، وسيأتي بيان هذا في الحديث الذي بعده .

وقوله : (﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾) ختمت الآية بهذين الاسمين ، وعندما تمر علينا الأسماء نقف عندها :

١. فنثبت الاسم أولاً ، فهنا دلت الآية على إثبات اسمين من أسماء الله العلي والكبير .
٢. نثبت الصفة التي تضمنها ذلك الاسم .

٣. ويثبت أيضًا الحكم .

والعلو نوعان :

- علو ذات .

- وعلو صفات .

أما علو الذات فإن الله تعالى بذاته فوق جميع خلقه ، كما دلت على ذلك الأدلة المتكاثرة ، والتي قال عنها بعض أهل العلم : زهاء ألف دليل . حتى إن فرعون فهم من موسى أن ربه في السماء عندما قال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] . ومع ذلك قل أن تجد من يعتقد هذه العقيدة أن الله بذاته فوق جميع خلقه . وفي حديث الجارية الراعية للغنم والتي ما قرأت في كِتَاب ولا قرأت في كتَّاب لما سألها النبي ﷺ وقال : « **أين الله** » ؟ ماذا قالت ؟ في السماء ، الحديث في ((**مسلم**)) ، أما أهل البدع فلا يصح هذا السؤال عندهم ، يقولون : هذا حديث آحاد ، والعقائد لا تبنى على الآحاد ، إذًا أين الله ؟ خلاص ، لا يعلم أين ربه ، كقول محمود بن سبكتكين رحمه الله لابن فورك لما قال : أين الله ؟ قال : لا داخل العالم ولا خارج ، ولا كذا . قال : لو أردنا وصفًا للعدم ما وجدنا أحسن من هذا . عياذًا بالله .

وأما علو الصفات ، وهو أن جميع صفات الله عليا كاملة ، لا نقص فيها بوجه من الوجوه .

قال رحمه الله : (**في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله ، كأنه**

سلسلة على صفوان ينفذهم ذلك ، ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ») .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ الحديث في ((**صحيح البخاري**)) (« **إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها** ») ، يعني إذا قضى الأمر وتكلَّم سبحانه وتعالى بالوحي ، (« **ضربت الملائكة بأجنحتها** ») هذا يدل على أن الملائكة أجسامٌ لا كما يدعيه بعضهم بأنهم أرواح ، وفي الآية السابقة دليل على أنهم أجسام من قوله (﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾) ، فلهم قلوبهم ، ولهم أجنحة ﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [فاطر : ١] فدل على أنهم أجساد الله أعلم بكيفياتهم .

(« **ضربت الملائكة بأجنحتها خَضَعَانًا** ») ، أو (« **خُضْعَانًا لقوله** ») أي خاضعين متذللين لقول رب العالمين .

(« **كأنه سلسلة على صفوان** ») السلسلة حلق من الحديد يدخل بعضها ببعض ، والصفوان هو الحجر الأملس .

(« **ينفذهم ذلك** ») أي يمضي فيهم ويخلص إليهم .

وفي قوله : (« **كأنه سلسلة** ») . اختلف في هذا على قولين مشهورين :

- **القول الأول** : أن هذا تشبيهٌ للفزع الذي يحصل للملائكة بالفزع الذي يحصل من جر السلسلة على الصفوان ، يعني تشبيه للفزع بالفزع ، وهذا يميل إليه الشيخ محمد الله يغفر له ابن عثيمين ، فهو تشبيه للسماع بالسماع ، لا المسموع بالمسموع .

- **القول الثاني : (« كأنه »)** ، أي الصوت المسموع سلسلة على صفوان ، ذكر هذا القول الشيخ سليمان رحمه الله في ((**التيسير**)) ، ويستدل له بحديث ابن مسعود الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ قال : « **إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلةً كجر السلسلة على الصفوان فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل ، فإذا جاءهم جبريل فُزِّع عنهم** » يعني أزيل الفزع عنهم « **قالوا : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ قال : الحق . قالوا : الحق الحق** » أول الحديث « إذا **تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات صلصلة** » . يقول الحافظ رحمه الله ابن حجر : وهذا كقوله ﷺ في حديث الوحي عندما سأله الحارث بن هشام – والحارث بن هشام هو الذي لعن في أحد ، أسلم – سأل النبي ﷺ عن الوحي فقال : « **أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فينفصم عني وقد وعيت ما قال** » . « **أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس** » ، وهذا لا يكون تمثيل أبدًا ؛ لأن الاشتراك في أصل المعنى لا يكون تمثيل ، يعني خذ حديث الوحي النبي ﷺ يقول : « **يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ** » أترى أن مجيء الوحي مثل صلصلة الجرس مثل رنين جرس عادي ؟ لا يمكن أبدًا ؛ لكن بينهما اشتراك في أصل المعنى هنا صلصلة وهنا صلصلة ، والاشتراك في أصل المعنى لا يكون تمثيل ، الاشتراك في أصل المعنى . قد يقول قائل : النملة لها قوة – ولله المثل الأعلى – والفيل له قوة أين هذه من هذه ؟ ما في نسبة ، ومع ذلك فكله يعتبر قوة ، فالكل فيه اشتراك في أصل المعنى ، ولا يلزم التمثيل.

فالاشتراك في أصل المعنى لا يدل على التمثيل وبالتالي الحديث ما فيه تمثيل ، والله أعلم .

قال رحمه الله كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((**« فيسمعها مسترق السمع » . ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، وصفه سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه ، « فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال : أليس قد قال لنا : يوم كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء »**)) .

قال : ((**« فيسمعها مسترق السمع »**)) ، ومسترق السمع من الشياطين يصعدون بعضهم فوق بعض ، حتى يبلغ السماء الدنيا ، السماء محجوبة محفوظة ؛ لكن يبلغون إلى السماء الدنيا ، وفي حديث عائشة في ((**البخاري**)) « **إلى العنان وهو السحاب قال عليه السلام الملائكة تنزل في العنان فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترقه الشياطين وتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معه مائة كذبة** » ، يسترقون من الملائكة من العنان ، أو من السماء الدنيا ، ثم ينزل بها فيرسل إليه الشهاب فربما أدركه قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها لحكمة أرادها الله عز وجل ، وإلا فلن يعجزوا الله عز وجل : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا

مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ [الجن : ٨ – ١٢] .

كانوا يسترقون السمع ولهم مقاعد ، فحرست السماء وملئت حرسًا شديدًا وشهبًا بعد مبعث المصطفى ﷺ ، ولهذا طافوا الأرض يبحثون عن السبب ، ما الذي حصل ؟

(**وصفه سفيان بكفه فحرفها**) يعني أمالها (**وبدد**) يعني فرق (**بين أصابعه**) حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فماذا يفعل الكاهن أو الساحر ؟ يكذب معها مائة كذبة ، ما أعظم الحق ، ما وجه ذلك ؟ حتى إن أهل الباطل يقتبسون شيئًا منه لكي يلبسوا على الناس بباطلهم ، ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [آل عمران : ٧١] المبطِل لا يستطيع أن يقول باطله هكذا واضحًا مكشوفًا للناس ، لا بد أن يغشيه أو يدخل فيه شيئًا من الحق حتى يُمَوِّه على العامة والسذج فيكذب معها مائة كذبة ، (« **فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء** ») .

في ((**الصحيح**)) عائشة تقول : الكهان يحدثون بالشيء فنجده حقًّا . قال عليه السلام : « **تلك الكلمة يقذفها الجني ، ثم يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فيكذب معه مائة كذبة** » ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فتعجب – كما يشير الشيخ في الفوائد – أن الناس كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة ، يعني واحد أخبرني خبر صدق ، وكذب عليك خمس مرات أو ست مرات تصدقه ؟ لا تصدق ، فكيف بمائة مرة ؟

المقصود : أن الملائكة رغم أنهم خلقٌ لهم قدرٌ ومكانة وشأن إلا أنهم إذا سمعوا ما يوحيه الله عز وجل يصابون بالفزع الشديد حتى يصعقوا ، فإذا كانت هذه حالهم فهل تجوز عبادتهم ؟ لا تجوز بحال من الأحوال . ولهذا يقول عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] . وقال : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ * وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ﴾ [الزخرف : ١٩ ، ٢٠] . فهم في الجاهلية كانوا يعبدون الملائكة ، فالمؤلف رحمه الله أراد أن يبين حال الملائكة مع رب العالمين ، وأن حالهم إذا سمعوا ما يوحي به أصيبوا بما أصيبوا به من الفزع الشديد ، فكيف تصح عبادتهم مع الله عز وجل ؟ فالمؤلف رحمه الله في هذا الباب ذكر الملائكة وفي الباب السابق ذكر حال المدعوين مما يعبده المشركون من الآلهة ، وكذلك حال المصطفى عليه أتم الصلاة والتسليم ، وأنه لا تجوز عبادة أحدٍ مع الله كائنًا من كان ، وأن العبادة كلها يجب أن تكون خالصة لله عز وجل .

قال رحمه الله : (**وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السماوات منه رجفة » . أو قال : « رِعْدة شديدة خوفًا من الله ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد ، ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير . فيقولون**

كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل »)

.

(**وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي »**) ، يتكلم سبحانه وبحمده بالوحي ، وفي الحديث كسابقه إثبات صفة الكلام لله عز وجل خلاف ما عليه الفرق ، كالجهمية الذين يقولون : إن كلام الله تعالى مخلوق لفظه ومعناه . وكذا الأشعرية الذين يقولون : إن الكلام هو المعنى القائم في النفس ، وأما الألفاظ والحروف فهي عبارة عن كلامه وليست كلامه هو .

الجهمية يقولون : هذا القرآن كلام الله ، فهم من هذه الناحية أحسن من الأشعرية ، لما أثبتوا أن القرآن الذي بين أيدينا كلام الله ؛ لكنهم لا شك صرحوا بأنه مخلوق .

وأما الأشعرية فيقولون : هذا القرآن الذي بين أيدينا هو عبارة عن كلام الله ، وليس كلام الله عز وجل ، وإنما كلامه المعنى النفسي القائم بنفسه . وربنا عز وجل يقول : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ﴾ [التوبة : ٦] ، ما قال : ليسمع ما هو عبارة عن كلام الله .

فالقرآن لا شك كلام ربنا عز وجل لفظه ومعناه ، وهو تعالى لما تحدى الناس أن يأتوا بمثل القرآن ، ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] مثل هذا القرآن ، تحدي بهذا القرآن الذي هو كلام الله عز وجل ، أتراه يتحدى الناس عن شيء في نفسه ؟ الجواب : لا .

قال : (« **أخذت السماوات منه رجفة** ») (**السماواتِ**) مفعول به مقدم ، و(**رجفةٌ**) فاعل ، (**أو قال : « رِعْدة شديدة** ») . **وفيه** : أن السماوات والأرض والكون كله معظم لربنا سبحانه وبحمده ، ﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ [مريم : ٩٠ ، ٩١] ، ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . بعض المفسرين يقول : التسبيح هنا تسبيح السماوات والأرض ليس على ظاهره ، ليس حقيقة ؛ لكن ما قام فيها من الآيات والدالة على وحدانية الله وما أشبه ذلك ، وهذا قول ضعيف ، والقول الصحيح أنها تسبح حقيقة ، والدليل من الآية قوله: ﴿ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ هنا أثبت أن فيه تسبيح . وكان المصطفى ﷺ كان يخطب على جذع نخلة ، والحديث في الصحيح حديث سهل بن سعد ، ثم إنه طلب من امرأة من الأنصار لها غلام نجارٌ تصنع له أعواد ، فصنع له المنبر ، فلما قام عليه ﷺ سمع الناس للجذع حنينًا كحنين العشار ، حتى نزل النبي ﷺ وجعل يسكنه ، وهو جذع نخلة ، الله على كل شيء قدير ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ [النور : ٤١] ، ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ، والهدهد أنكر الشرك ، كيف ؟ ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٣ ، ٢٤] ، هذه الطيور وعلى كل حال الحيوانات ليست مكلفة ؛ لكنها تعبد الرب ، حتى قال عن فئة من

البشر ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ﴾ أكملوا ؟ ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٧٤] أي الحجارة ، ونعوذ بالله من قسوة القلوب ، والآيات والنصوص في هذا كثيرة ، تدل على أن هذه المخلوقات معظمة لربها عز وجل .

ولهذا قال : (« **أخذت السماوات منه رجفة** » . **أو قال** : « **رِعْدة شديدة خوفًا من الله** ») .

قال رحمه الله : (« **فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدًا** »)
.

إذا سمع ذلك أهل السماوات خروا وصعقوا لله سجدًا ، لعل المراد أنهم صعقوا فلما أفاقوا خروا سجدًا لله عز وجل .

(« **فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله من وحيه بما أراد** ») .

أول من يرفع رأسه ، جبريل له شرف ومقام ومكانة بين الملائكة كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] . يعني ذو مكانة وقدر ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ٢١] ، مطاع بين الملائكة .

(« **ثم يمر جبريل على الملائكة ، كلما مر بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول جبريل : قال الحق وهو العلي الكبير . فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل** ») .

الأحاديث في هذا كثيرة تدل على تعظيم السماوات والأرض والملائكة لربنا سبحانه وبحمده ، وهذا الحديث الذي أورده المؤلف هنا له شاهد من حديث أبي هريرة السابق ، يشهد على صحة ما تضمنه ، والله أعلم .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما فيها من الحجة على إبطال الشرك ، خصوصًا ما تعلق على الصالحين ، وهي الآية التي قيل : إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب) .

ما أحلى هذه الكلمة ، أي آية التي تقطع عروق شجرة الشرك من القلب ؟ ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ .

وهذا التدرج الدال على بطلان عبادتها تدرج نزولاً كما ذكر منذ قليل ، ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ أنه لا يشفع إلا بإذن الله عز وجل ، بل عد بعضهم مرتبة خامسة وهي ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ ، هم لا يملكون الشفاعة إلا بإذن الله ، بل إذا سمعوا كلام الله عز وجل حصل لهم من الفزع الأمر الشديد ، وإذا كان الملائكة لا يجوز أن يدعوا ولا أن يعبدوا ولا الأنبياء ولا الرسل ، فغيرهم أولى وأولى وأولى أن لا يدعى مع الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**الثالثة : تفسير قوله : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .**

الرابعة : سبب سؤالهم عن ذلك) .

سؤالهم عن ماذا ؟ (« ماذا قال ربنا ») ، وسبب سؤالهم هو تعظيمهم لله سبحانه وتعالى ، ثم قال (« قال الحق وهو العلي الكبير ») وهو تعالى لا يقول إلا الحق .

قال رحمه الله : (**الخامسة : أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله : قال كذا وكذا .**

السادسة : ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل .

السابعة : أنه يقول لأهل السموات كلهم ، لأنهم يسألونه .

الثامنة : أن الغشي يعم أهل السموات كلهم .

التاسعة : ارتجاف السماوات لكلام الله .

العاشرة : أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله .

الحادية عشرة : ذكر استراق الشياطين .

الثانية عشرة : صفة ركوب بعضهم بعضًا .

الثالثة عشرة : إرسال الشهاب) .

هذا الاستراق كان موجود في الجاهلية ، في حديث ابن عباس في مسلم أن النبي ﷺ كان جالسًا مع أصحابه ، فرمي بنجم فاستنار ، قال : « **ما تعدون هذا في الجاهلية** » ؟ قالوا : موت عظيم أو حياة عظيم . قال : « **إنه لا يرمى بها لموتى أحد ولا لحياته ؛ لكن ربنا إذا قضى الأمر في السماء سبح حملة العرش ثم سبح الملائكة الذين يلونهم ، ثم يقول الذين يلونهم لحملة العرش : ماذا قال ربنا ؟ فيقولون : قال الحق وهو العلي الكبير** » . إلى آخر الحديث .

(**الرابعة عشرة : أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه .**

الخامسة عشرة : كون الكاهن يصدق بعض الأحيان) .

لا بد أن يصدق بعض الأحيان ، ليصدق في بقية أباطيله وأكاذيبه .

(**السادسة عشرة : كونه يكذب معها مائة كذبة .**

السابعة عشرة : أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء .

الثامنة عشرة : قبول النفوس للباطل ، كيف يتعلقون بواحدة ، ولا يعتبرون بمائة كذبة) ؟

هذه فائدة لطيفة ، يعني قبول الناس الباطل كيف يتعلقون بواحدة ، ولا يعتبرون بمائة كذبة ، يتعلقون بواحدة إن صدق فيها ، ثم يصدقونه بمائة كذبة ، ولا يعتبرون بالمائة مائة كذبة ، فإن من يكذب عليك مائة مرة لا يمكن أن تصدقه أبدًا ، ومع ذلك يوجد من الناس من يقبل ومن يصدق .

وفيه : أن الشيء إذا كان فيه شيءٌ من الحق لا يعني أنه حق ، يعني الباطل إذا تضمن شيئًا من الحق لا يعني أنه حق بحال من الأحوال ، فإن أهل الباطل ربما يأتون بشيء من الحق حتى يسوقوا فيه باطلهم ويموهوا على السذج من الناس .

قال رحمه الله : (**التاسعة عشرة : كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ، ويحفظونها ويستدلون بها .**

العشرون : إثبات الصفات ، خلافًا للأشعرية المعطلة) .

قصده بالصفات هنا :

- صفة العلو لله عز وجل ، علو الذات وعلو الصفات ، وأنه الكبير المتعال سبحانه وبحمده .
- وإثبات صفة الكلام له سبحانه وبحمده ، النصوص على إثباتها جلية واضحة ، حتى قال عز وجل : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] .

العجيب أن المعتزلة يؤولون الآية ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، ينفون الكلام ويقولون : كلم الله يعني جرحه بأظفار الحكمة . لأن الكَلْم في اللغة هو الجرح ، مع أنهم يقرون وفيهم أناس لهم باع في اللغة أن المصدر إذا جاء مؤكدًا لا يُحمل على المجاز ، بل لا بد من حمله على أي شيء ؟ الحقيقة ، والمصدر مؤكد هنا ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ ، حتى جاء رجل إلى أبي عمرو بن العلاء أحد القراء رحمه الله وقال : هلا قرأت هذه الآية وكلمَ اللهَ موسى تكليمًا . حتى يكون المتكلم موسى وليس الله عز وجل قال له : هب أني فعلت ذلك ، فما أصنع بقول الله عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ماذا أصنع بها .

فالمقصود : أن الصفة للرب سبحانه وتعالى ثابتة في كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ، من تدبر القرآن طالبًا للهدى تبين له الحق .

قال رحمه الله : (**الحادية والعشرون : التصريح أن تلك الرجفة والغشية خوفًا من الله .**

الثانية والعشرون : أنهم يخرون لله سجدًا) .

لا شك ، يخرون الله تعظيمًا له سبحانه وبحمده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ – ١٠٩] ، تعظيمًا لله عز وجل إذا سمعوا كلامه ، سمعوا كلام الله وهو القرآن حصل منهم ما حصل ، فكيف بالملائكة يسمعون الوحي .

والإنسان إذا هو عظم ربه عز وجل عرف قدره وعبده ؛ لكن إذا ضعف تعظيم الرب سبحانه وتعالى في قلب الإنسان ذهب يعظم الأشجار والأحجار والمقبورين والموتى ـ ولا يدري أنه يخل بذلك في تعظيم ربه عز وجل ، ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح : ١٣] ، ولو رجوا وقارًا لله ، وخافوا الله عز وجل عظموه ، ولو عظموه لعبدوه . فتعظيم المخلوقين تعظيمًا يصلون به إلى درجة الخالق انتقاص للخالق وانتقاص لمن عظموه أيضًا .

وفقكم الله وبارك فيكم

بسم الله الرحمن الرحيم

(باب الشفاعة

وقوله عز وجل : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١]) .

(﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ ﴾) أنذر بالقرآن (﴿ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾) ، هؤلاء الذين ينتفعون بالنذارة ، وقد أمر النبي ﷺ أن يُنذر كما مر بنا :

- **أولاً** : عشيرته في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .
- وأُمر أن ينذر حتى الكفار ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم : ٩٧] .

وهنا (﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ ﴾) هؤلاء الذين تنفع فيهم النذارة (﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ ﴾) يتولاهم ، (﴿ وَلَا شَفِيعٌ ﴾) يشفع لهم ، (﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾) ، ومر بنا في التفسير أن لعل من الله تفيد :

١. التعليل .

٢. بعضهم يقول : الترجية ، وليس الرجاء ، أي ترجية المخاطب ؛ ولكن التعليل كأن يميل إليه بعض أهل العلم .

وهذه الآية يستدل بها الخوارج والمعتزلة على نفي الشفاعة عن أهل الكبائر .

لماذا ينفون الشفاعة عن أهل الكبائر ؟ لأن أهل الكبائر عندهم يعتبرون كفارا مخلدين في النار .

وتتفق المعتزلة والخوارج على أنهم مخلدون في النار وإن اختلفوا في الدنيا ، فالخوارج يقولون : بالتكفير ، والمعتزلة يقولون : في المنزلة بين المنزلتين . كما هو معروف ، ولا مستند لهم في الآية بوجه من الوجوه ، لأن الله تعالى قال : (﴿ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ ﴾) ، فمفهوم الآية أن لهم شفيعًا بإذنه ورضاه – سبحانه وبحمده – كما في الآية التي تأتي ؛ لكن دون الله فليس لهم شافع يشفع لهم .

وبين أيديكم الأدلة الدالة على إثبات الشفاعة في كتاب الله :

- ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .
- ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ [الأنبياء : ٢٨] ، والآيات موجودة عندكم .

وهذا مثالٌ لطريقة الزائغين ، الذين يأخذون بالمتشابه ويتركون المحكم . فإذا وجدوا لهم نصًّا يجدون فيه مدخلاً لمقالتهم وشبهةً لعقيدتهم أخذوه واستدلوا به ، وتركوا جميع النصوص المحكمات ، كيف تنفون الشفاعة والله تعالى يقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ؟

ولهذا طريقة الراسخين في العلم هي رد المتشابه إلى المحكم . رُدّ المتشابه إلى المحكم فيصبح القرآن كله محكمًا ، ليس فيه تشابه . وأما هؤلاء عياذًا بالله فيردون المحكم إلى المتشابه ، يتركون الآيات المحكمات البينات مصداق ما أخبر به ربنا عز وجل .

وهذه الطريقة تجدها في أهل البدع عمومًا إذا تأملت ما يستدلون به من القرآن ، أما السنة فلا يستدلون بها ، لكن القرآن تجدهم يبحثون عن المشتبهات .

الآية الثانية قوله تعالى : (﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ ﴾ [الزمر : ٤٤]) .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ، ثم قال : ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ .

اتخذوا من دون الله شفعاء وهو ما يعتقدونه في معبوداتهم ، ﴿ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ، كيف تطلب الشفاعة ممن لا يملك مثقال ذرة – كما يأتي في الآية الأخيرة – وتترك طلب الشفاعة ممن الخلق كلهم ملك له ؟ ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ .

لهذا لو أن إنسانًا قال – عياذًا بالله – : يا رسول الله اشفع لي ، ما حكم هذا ؟

لا يجوز ، محرم ؛ بل شرك بالله عز وجل . لأنه طلب الشفاعة من غير الله عز وجل .

ولو قال : اللهم شفع محمدًا فيَّ . ما حكمه ؟

الجواب: هذه الطريقة المثلى .

وتعجب من هؤلاء عندما يخوضون بأشياء مُلْتَوِية ، على الأقل يرون أن غيرهم يَرى منعها وتحريمها .

افترض أن يوجد عندهم شيء من الحذر من مثل هذا ، وسيجدون بدلاً منه ما هو محض كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وما تتفق عليه الأمة جميعًا ، وهو طلب الشفاعة من الله عز وجل .

قالوا – وهذه شبهة لهم – : أنتم تمنعون طلب الشفاعة من النبي ﷺ والناس يوم القيامة يأتون إليه فيطلبون منه الشفاعة ، يأتون آدم ثم إبراهيم ثم نوح ثم

إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ثم يقول : اشفع لنا . طلبوا منه الشفاعة ونحن نطلب الشفاعة في الدنيا مثل ما يطلبها أهل الموقف يوم القيامة ، كيف نجيب على هذا ؟ لا بد أن يكون عندكم فهم ، فالشبهات الآن تسوّق :

الجواب: أن طلب الشفاعة من النبي ﷺ يوم القيامة إنما هو طلب من حي حاضر وهم يكلمونه ويخاطبونه . وهذا مثل لو قال أحدهم في حياته : يا رسول الله ادع لي ، اشفع لي . هذا ليس فيه إشكال ولله الحمد ، كما في حديث الأعمى والذي يعتبر من شبههم التي يُبْدِؤون بها ويعيدون مع أن الأعمى قال في آخره : اللهم شفعه فيَّ ، يعني اقبل شفاعته ودعاءه لي ، فلا حجة في هذا بحالٍ من الأحوال .

(﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ ﴾) يدل على أن الشفاعة أنواع ، لقوله (﴿ جَمِيعًا ﴾) جميع الشفاعات له سبحانه وبحمده لا تكون إلا بإذنه ورضاه ، كما سيأتي .

وقوله تعالى : (﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾) .

آية الكرسي ، الآية العظيمة ، ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ، لا ملك لأحد في السماوات والأرض ، ولا مثقال ذرة ؛ بل ولا حتى يشفع أحدٌ إلا بإذنه سبحانه وبحمده .

ومعنى (﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾) أي لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام يفيد التحدي .

من ذا الذي تحصل منه هذه الشفاعة ؟ لا أحد ، إلا بإذنه سبحانه وبحمده .

إذًا قالوا – وهذا من الشبه الصغيرة – قالوا : نحن نقول بالشفاعة شفاعة الموتى وغيرهم تعظيمًا لله عز وجل ؛ لأن أهل الدنيا والكبار منهم لا أحد يصل إليهم إلا بالشفاعة ، فالله أحق إذًا أن لا نصل إليه إلا بالشفاعة . فيقال – سبحان الله – : هذا تشبيهٌ للخالق بالمخلوق . كيف يكون الخالق الذي وسع علمه كل شيء ، ووسعت قدرته كل شيء ، ووسعت رحمته وقوته وسلطانه كل شيء ، مثل هذا المخلوق الذي لا يعلم إلا إذا أُخبر ، ولا يقدر إلا إذا أعانه أحد كائنًا من كان كيف يقال مثل هذا الكلام ؟ هذا كلام من أغرب وأعجب الكلام ؛ لأن معنى ذلك أنك تشبه الله سبحانه وتعالى بهذا المخلوق ، فكأن الله يحتاج إلى إعانة ، إِعانة من شفيع يشفع إليه ، تعالى الله وتقدس عن ذلك علوًّا كبيرًا .

وقوله عز وجل : (﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴾ [النجم : ٢٦]) .

(﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ ﴾) ، (كم) هنا معناها كثير .

(كم) تأتي :

١ . للاستفهام ، فأقول : كم صفحة قرأت اليوم ؟ تقول : خمس ، عشر إلى آخره . هذه استفهام .

٢ . وتأتي خبرية بمعنى كثير ، تقول : كم من كتاب قرأته .

تخبر أنت عن نفسك ، تقول عن نفسك : كم من كتاب . ما تسأل أحد ، فهي هنا خبرية بمعنى كثير .

(﴿ وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ ﴾) أي كثير من الملائكة (﴿ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا ﴾) بشرطين ، هما:

١. الإذن من الله عز وجل ، الإذن ممن يملك الشفاعة ، الإذن ممن له الأمر كله سبحانه وبحمده .

٢. الرضا عن الشافع وعن المشفوع له جميعًا . الرضا عن الشافع وعن المشفوع كما قال عز وجل : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ . وقال : ﴿ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦] .

فإذًا لا تحصل الشفاعة إلا :

١. بإذن من الله عز وجل .

٢. وبرضًا منه عن الشافع وعن المشفوع له .

وإذا كانت الشفاعة من المَلَك بل من المصطفى ﷺ كما في حديث الشفاعة المشهور المعروف عندما يأتي النبي ﷺ فيسجد تحت العرش ثم يقال له : « **ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطَ ، واشفع تشفع** » ، لا يبدأ بالشفاعة مباشرة كما يقول الشيخ في الكلام الذي بعده ، لم يشفع بمجرد أن أتاه الناس ، بل سجد تحت العرش ، وفتح الله عليه من محامده والثناء عليه ، يقول عليه الصلاة والسلام : (ما لا أحسنه الآن) ، ثم يؤذن له بالشفاعة . فلا أحد يشفع ، لا أكرم الملائكة جبريل ، ولا أكرم الخلق أجمعين محمد ﷺ إلا بإذن من الله عز وجل ، فيكف إذًا تطلبون الشفاعة من المخلوق ؟

والمخلوق لا يشفع إلا بإذن من الله عز وجل ، فاطلبوها ممن بيده الإذن سبحانه وبحمده .

ثم قال عز وجل : (﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ : ٢٢ ، ٢٣]) .

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) مر بنا أن الدعاء نوعان ، هما :

١ . دعاء المسألة .

٢ . ودعاء العبادة .

والآية في القرآن بعضها يظهر فيه دعاء العبادة ، وبعضها يظهر فيه دعاء المسألة ؛ ولكن بين النوعين تلازم .

فدعاء العبادة يستلزم دعاء المسألة ، ودعاء المسألة يتضمن دعاء العبادة ، إذًا أي دليل يأتي فيه الدعاء هو صالح للنوعين جميعًا .

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾) الدعاء إذا وُجِّه للمشركين فالغالب أن يُراد به دعاء العبادة ؛ لكنه يستلزم دعاء المسالة ولا بد ، عبدوهم لا بد أن يدعوهم .

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾) تأملوا هذه الآية فهي آية عظيمة ، قال الشيخ فيها : قال بعض أهل العلم : هي تقطع عروق شجرة الشرك من القلب ، من يتدبرها لا يبقى في قلبه تعلق بأحد من البشر كائنًا من كان ؛ لكن ابتلي الناس بأناس لا يتدبرون كتاب الله ولا يعقلونه ، وإن قرؤه فلديهم عقائد سابقة يعرضون كتاب الله عليها فما وافقها أخذوه ، وما خالفها ردوه ، ولهذا مشايخنا دائمًا يقولون : لا بد للإنسان أن يستدل قبل أن يعتقد ويحكم . ما يكون في ذهنك حكم أو اعتقاد ثم تذهب تبحث عن الدليل .

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) تأملوا هذا التدرج ، بدأ من الأعلى إلى الأدنى في مراتب أربع أو خمس .

(﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) الذين اسم موصول يدل على العموم :

- (﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾) مثقال ذرة لا ملكونها ، يكفي هذا ؟ لا ، الثانية أقل منها .
- (﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ ﴾) ، ما لهم مثقال ذرة في السماء والأرض من شرك ، يكفي هذا ؟ لا ، بل وما هو أقل من ذلك .
- (﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾) والظهير المعين والوزير وما أشبه ذلك . أي هم لا يعينوا الله عز وجل في شيء من ملكوت السماوات والأرض ولا حتى مثقال ذرة .

فإذًا هم لا يملكون الشيء استقلالاً ولا مشاركة ولا إعانة ، هل انتهى الأمر ؟ لا ، بل وما هو أقل حتى من الإعانة ، وهو:

- (﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾) أي لا يشفعون عند الله عز وجل إلا بإذن الله ، إذًا ماذا بقي لهم ؟
- بعض أهل العلم يضيف مرتبة خامسة وهي ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ ﴾ . يعني حتى وهم لا يملكون الشفاعة إذا سمعوا قضاء الحق سبحانه وبحمده حصل لهم من الفزع ما حصل ، فكيف إذًا يتعلق بهم ؟ وكيف تُطلب منهم الشفاعة وهم لا يملكون استقلالاً ولا يشاركون ولا يعينون ولا يشفعون إلا بإذن الله عز وجل .

وهذه الآية يجب على كل من لديه شبهة أو تردد في هذا الأمر أن يعرض قلبه عليها ، وينظر في حال هؤلاء الذين يتعلق بهم ، والذي قد يصل الأمر أحيانًا إلى أن يعتقدوا فيهم أنهم يتصرفون في الكون ، وأن كل ذرة على وجه الأرض خاضعة لهم عياذًا بالله .

أمور يبطلها صريح كتاب الله عز وجل ، وسنة رسوله ﷺ ، بل حتى وصريح العقل السليم ، أن تعتقد في إنسان من البشر أنه يتصرف في الكون ، لا إله إلا الله .

هذا أمرٌ زاد فيه هؤلاء على ما كان عليه المشركون في الجاهلية . المشركون في الجاهلية ما وصلوا إلى هذا الأمر ، فإن الله تعالى قال : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ أكملوا ﴿ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] . لا يعتقدون أن الآلهة تدبر أمر ولا ترزق ، وهؤلاء يقولون إن من يعظمونهم ومن يتصرفون في الكون .

وهذا على كل حال من الخلل الذي وقع في الأمة بسبب التهاون في الوسائل ، التهاون في الوسائل جر إلى هذه الموبقات الكبار ، حتى التوسل بالذوات هذه مسألة محرمة تصل إلى درجة الشرك ، تساهلوا فيها وتهاونوا فتوسلوا بذوات الأشخاص ، دعوا الله بهم ، ثم دعوهم من دون الله عز وجل . والنبي ﷺ نهى عن الصلاة في المقبرة كما في حديث أبي مرثد الغنوي المخرج في ((**صحيح مسلم**)) نهى أن يقعد على القبر أو أن يصلى إليه . لماذا نهى عن الصلاة في المقبرة ؟ لأنه وسيلة . بعضهم يقول : ليس لأنه وسيلة ، لأن المقبرة نجسة ، مع

أن المؤمن لا يجنس حيًّا ولا ميتًا ، كيف وهو في لحده وقد دفن ؟ فلما حصل الدعاء عند القبور توسلاً بهم عاد الأمر إلى دعائهم مع الله عز وجل .

المقصود : أن هذه الآية آية عظيمة ، وكما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله في عبارة مرت بنا: من تدبر القرآن طالبًا للهدى تبين له الحق . كل من تدبر كتاب الله وهو يريد الهدى لا بد أن يتضح له الحق ، كيف وهو آية واحدة تكون سبب في إسلام إنسان ؟ وإنسان يقرأ القرآن طول عمره ولا يتبين له الحق في هذه المسائل ؟ فإذا حسنت النيات وصفت المقاصد يسر الله للإنسان الخير والوصول إلى طريق الحق .

الشفاعة يقسمها العلماء إلى قسمين ، هما :

١. منفية .

٢. ومثبتة .

النوع الأول الشفاعة المنفية هي : التي يتعلق بها وبأذيالها المشركون ، ومن يتعلقون بالموتى والمقبورين ، هذه الشفاعة كما مر بنا:

- نفاها الله عز وجل في كتابه .
- وأيضًا نفى الله تعالى أن تنفعهم شفاعة الشافعين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، كما في قوله عز وجل : ﴿ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ❁ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٠٠ ، ١٠١] . عن أهل النار ولا قوة إلا بالله ، وقوله : ﴿ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر : ٤٨] . هذا يوم القيامة ، فما تنفعهم هذه المعبودات التي يتعلقون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة . أما الآخرة فالكُمَّل من الخلق

كل واحد يقول : نفسي ، نفسي ، اذهبوا إلى غيري . حتى ينتهي الأمر إلى محمد ﷺ ، فكيف بغيره ؟ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ [الأنعام : ٩٤] . أين شفعاؤكم الذين كنتم تشركون بهم وتعبدونهم مع الله عز وجل ؟ لا تنفعهم شفاعتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة .

النوع الثاني : الشفاعة المثبتة ، وهذه تقسم إلى قسمين ، هما :

١. خاصة خاصة بالنبي ﷺ.

٢. وعامة وعامة له صلوات ربي وسلامه عليه ولغيره.

الخاصة ثلاث شفاعات :

الشفاعة الأولى : الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود الذي يحمده فيه الأولون والآخرون ، والتي يتأخر عنها أولوا العزم جميعًا حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . إنما يأتون إلى آدم فيعتذر ، ويُبَيِّن ما حصل منهم ، ويأتون إلى نوح فإبراهيم فموسى فعيسى ، فينتهي الأمر إلى محمد ﷺ ، والنصوص والأحاديث فيها مشهورة معروفة .

الشفاعة الثانية : شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوها ، قال ﷺ : « **أنا أول من يستفتح باب الجنة فيقول خازن الجنة : من أنت ؟ فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك** » . ولما ذكر الله تعالى أهل النار – أجارنا الله وإياكم من النار – قال : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧١] .

مباشرةً . وعندما ذكر أهل الجنة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها قال : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : ٧٣] . بعضهم يقول : هذه واو الثمانية ؛ لأن أبواب الجنة ثمانية . وبعض أهل العلم يقول : لا ، (حتى إذا جاءوها) أي وحصل ما حصل حبسوا على قنطرة قبل ذلك ، وهذبوا ، ثم شفع النبي ﷺ واستفتح الجنة ففتح له ودخل من دخل معه من أمته زمرًا .

للهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين ووالدينا ووالديكم ، نسأل الله الكريم .

الشفاعة الثالثة الخاصة : شفاعته لعمه أبي طالب ، ذُكر أن النبي ﷺ قال : « **لعل شفاعتي تنفعه** » ، وذَكر أنه في ضحضاح من النار ، يغلي منه دماغه ولا قوة إلا بالله .

الشفاعة الرابعة وهي الشفاعة العامة التي تكون له ولغيره – : شفاعته لأناس استحقوا دخول النار أن لا يدخلوها .

إذًا الشفاعة الخاصة ثلاث :

١. شفاعته لأهل الموقف ، وهي شفاعة للخلق جمعيًا .

٢. **الثانية :** لأهل الجنة أن يدخلوها .

٣. **والثالثة :** شفاعته لأبي طالب .

٤. **الرابعة :** شفاعته لأناس من أهل النار أن لا يدخلوها ، ويستدل له بحديث ابن عباس المخرج في ((**الصحيح**)) ، والذي أشير إليه آنفًا « **ما من مسلم يقوم على جنازته أربعون لا يشركون بالله شيئًا إلا شفعوا فيه** » ومعنى (شفعوا فيه)

يعني قبلت شفاعتهم فيه ، وإذا كان استحق دخول النار فربما قبل الله شفاعتهم فيه فحفظه وسلمه من دخول النار .

الشفاعة الخامسة وشفاعته ﷺ كذا الملائكة والمؤمنون أيضًا لأناس دخلوا النار أن يُخرجوا منها ، الحديث الذي في ((**مسلم**)) يقول المؤمنون : إخواننا كانوا يصلون معنا ويصومون معنا ويحجون معنا ، فيقول الله تعالى : « **أخرجوا من أردتم** » . وشفاعته ﷺ لهم أيضًا عندما يقال : أخرج من النار من في قلبه مثقال كذا ومثقال كذا . وهذه الشفاعة هي التي أنكرها الخوارج والمعتزلة ، وإنكارهم لها مبني على مسألة تكفير مرتكب الكبيرة ، ما دام أن مرتكب الكبيرة كافر فلا يستحق الشفاعة عياذًا بالله .

النوع السادس : شفاعته ﷺ وكذا غيره لأناس دخلوا الجنة أن ترفع درجاتهم في الجنة . ويستدل له بالحديث المخرج في ((**الصحيح**)) لما دخل النبي ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمض عينيه وقال : « **اللهم اغفر لأبي سلمة وارفعه في المهديين ونور له في قبره ، وافسح له فيه ، واخلفه في عقبه** » ، معناها الدعاء له بأن يرفع الله درجاته في الجنة .

هذه أقسام الشفاعة المشهورة عند أهل العلم ، وكما لاحظتم منها أنواع ثلاثة خاصة به صلوات ربي وسلامه عليه لا يشاركه فيها أحد ، وثلاثٌ تكون له ولغيره .

ذكر الشيخ رحمه الله تعالى كلامًا لشيخ الإسلام كلام نفيس يحفظ في الدرس القادم إن شاء الله .

قال رحمه الله : (**قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره مِلْكٌ أو قسطٌ منه ، أو يكون عونًا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة**) .

شيخ الإسلام هنا يشير إلى الآية ، هذه الآية العظيمة ، فيه آية تدل على هذا المعنى ، وأنهم مهما دعوا آلهتهم فلن تغني عنهم شيئًا ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٥٦] ، ﴿ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ كائنًا من كان ، فلا يملك كشف الضر عنك ولا تحويل عنك إلى غيرك ، لماذا ؟ ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٧] . ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ ضمير الفاعل هنا يرجع إلى المشركين ، ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يرجع إلى المدعوِّين من الأنبياء والصالحين وغيرهم ، يعني هؤلاء الذين يدعوهم المشركون هم يبتغون الوسيلة التي تقربهم إلى ربهم عز وجل ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، فإذا كانت هذه حالهم فكيف تصح دعوتهم من دون الله عز وجل ؟

لكن هذه الأمور كما في كلام أشير إليه وقلت لو رجعتم إلى لفظه لأبي الوفاء بن عقيل رحمه الله : أن هؤلاء رأوا التكاليف شاقة عليهم ، صلاة وصيام وحج فيها مشقة ؛ فاستعاضوا عنها بهذه الأمور المحدثة وبهذه التعلقات ، وصاروا يستروحون فيها ويجدون منفعة لكذا وكذا ومنفعة لكذا ، ويجدون منهم ترغيبًا في هذه الأمور ثم يعطيهم من الهبات والجوائز عليها الشيء الكثير زورًا وبهتانًا ، حتى وإن لم يصلِّ وإن لم يعمل خيرًا قط عياذًا بالله ، يعلقونه بهؤلاء المقبورين

والموتى ، ووراء ذلك ما لا يخفى من طمع الدنيا وحب الرئاسة وأكل أموال الناس بالباطل ، ولهذا قال ربنا عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] ، إذًا غرضهم من صد الناس عن سبيل الله أكلهم أموالهم بالباطل ، لأنهم لو صاروا معهم في الصراط المستقيم ما تمكنوا أن يأخذوا أموال الناس ، وهذا في أحبار اليهود والنصارى يحذرنا ربنا عز وجل أن نتشبه بهم في هذا الأمر ، وما حُذِّرْنَا من هذا الأمر إلا وهو ممكن الوقوع ، ولهذا وقع في الأمة ، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

قد يقول قائل : ليأكلوا أموالهم بالباطل ولا يصدوهم عن سبيل الله ؟

قيل : هذا غير ممكن ؛ لأنه ما يمكن أن يأكل المال بالباطل إلا وقد صد به عن الحق ، وإلا لو سار معه على الحق ما ساغ له أن يأكل منه درهمًا واحدًا .

(قال أبو العباس : نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون ، فنفى أن يكون لغيره مِلْكٌ أو قسط منه ، أو يكون عونًا لله ، ولم يبق إلا الشفاعة ، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾ . فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة ، كما نفاها القرآن .

وأخبر النبي ﷺ : أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده ، لا يبدأ بالشفاعة أولاً . ثم يقال له : « ارفع رأسك وقل يُسمع ، وسل تُعط ، واشفع تُشفَّع » .

وقال أبو هريرة له ﷺ : من أسعد الناس بشفاعتك ؟ قال : « من قال : لا إله إلا الله . خالصًا من قلبه ») .

(« **من قال : لا إله إلا الله ، خالصًا من قلبه** ») ، قالها مخلصًا ، متعبدًا ، موحدًا لله عز وجل ، هذا الذي يستحق الشفاعة . أما من تعلق بالأموات وطلب منهم الشفاعة دون الله عز وجل فهو حريٌّ أن لا ينال الشفاعة ، ولا قوة إلا بالله . وقال ﷺ في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **لكل نبي دعوة مستجابة ، وقد خبأت دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة ، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا** » . من مات وقد سلم من الشرك هو الذي يستحق الشفاعة ، لا الذي تلوث بأوضار الشرك ولا قوة إلا بالله زاعمًا أنه يطلب الشفاعة .

فعلى المسلم أن يحرص على عقيدته وتوحيده ، ويقينه وإيمانه وإخلاصه لربه سبحانه وبحمده ، لا يتعلق بأناس لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ، فكيف يملكون لغيرهم ؟ حتى قال الله عز وجل عن أكرم الخلق صلوات ربي وسلامه عليه ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، فكيف يدعى صلوات الله وسلامه عليه لكشف الضر ولجلب النفع ؟ وكيف يقال : إنه يعلم الغيب ؟ هل هذا إلا مصادمةٌ لكتاب الله عز وجل ؟ وهل هذا إلا من الأخذ بالمتشابه وترك المحكم ؟ فليحذر المسلم طريقة الزائغين ، وليسر على طريقة الراسخين في العلم الذين يأخذون بالمحكمات ويردون إليها المشتبهات .

قال رحمه الله : (**فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله ، ولا تكون لمن أشرك بالله .**

وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أُذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود) .

إذًا ثمرة الشفاعة هي :

أولاً : أنها فضلٌ من الله عز وجل .

ثانيًا : أن يغفر لمن شفع له .

ثالثًا : إكرام الشافع . ففيها إكرام للشافع ، ولهذا انتهت الشفاعة إلى أكرم الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، وكان هو المقام المحمود له .

وهي أيضًا سببٌ لمغفرة ذنوب المذنبين ممن قبل الله الشفاعة فيهم ، ثم هي قبل ذلك فضلٌ من الله .

خذوا هذا من كلام الشيخ ، ماذا قال ؟

قال رحمه الله : (**وحقيقته : أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص ، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أُذن له أن يشفع ليكرمه ، وينال المقام المحمود .**

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع) .

الشفاعة التي نفاها القرآن هي ما كان فيها شرك . **وضابطها :** أن يطلب من الخلق ما لا يقدرون عليه . فإن الميت كما قال النبي ﷺ والحديث مخرج في ((**صحيح مسلم**)) « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث** » ، انتهى عمله فكيف يطلب منه الدعاء وتطلب منه الشفاعة ؟

الشفاعة التي نفاها القرآن هي : الشفاعة التي فيها الشرك ، وهي ما طُلب من غير الله في شيء لا يقدر عليه إلا الله عز وجل هذا هو الشرك ، إذ كان الواجب أن لا يطلب هذا الأمر إلا من الله عز وجل ، ولهذا يقول :

قال : (**فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك ، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع وتلك قد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص . انتهى كلامه**) .

اللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين ، لا تكون إلا لأهل التوحيد ، لمن وحَّد الله عز وجل ، وأخلص في عبادته ما التفت قلبه إلى أحد من الخلق في جلب نفع أو دفع ضر .

فيما يتعلق في الشفاعة في أمور الدنيا ما حكمها ؟ تجوز ؛ ولكن لها ضوابط :

- **منها** : أن تكون الشفاعة في أمرٍ مباح لا يترتب عليه أمر محرم . يعني يأتيك شخص يريد منك الشفاعة ليجعلك في مكان شخص آخر ، هل يجوز أن تشفع له ؟ لا ، ما يجوز ؛ لأن فيه ظلم .

أو شخصٌ حكم عليه بحد فيأتي شخص ويشفع له ، لا يجوز أيضًا ، وتذكرون حديث المخزومية عندما جاء أسامة وأهمّ قريشًا شأنُ المخزومية التي كانت تسرق فأمر النبي ﷺ بقطع يديها ، فقالوا : من يجترئ عليه إلا حِبُّه وابن حبه أسامة بن زيد ، فكلمه أسامة فقال : « **أتشفع في حدٍّ من حدود الله** » ؟ ثم قام وخطب ، قال : « **إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الضعيف قتلوه ، وإذا سرق فيهم الغني قتلوه ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » .

وحاشاها ، حاشاها لكن هذا ينبه أنه عليه الصلاة والسلام لا تأخذه في الحق لومة لائم ، حتى ولو كان في أقرب الناس إليه .

- **الأمر الثاني أيضًا :** أنك أنت أيها المستشْفِع الذي طلبت الشفاعة من إنسان في أمور الدنيا ، ما ينبغي أن يلتفت قلبك إلى هذا السبب ، ومر بنا في قاعدة الأسباب أن الإنسان يفعل الأسباب ولكن لا يعتمد عليها ولا يلتفت قلبه إليها ، وإنما يلتفت قلبه إلى مسبب الأسباب إلى ربنا عز وجل ، يفعل السبب ، يذهب إلى المستشفى يأخذ علاجه ، يبحث من يشفع له في أمر من الأمور ؛ لكن يكون قلبه متوجهًا إلى ربه . الأسباب ما تستقل بإيجاد مسبباتها ، بل قد توجد عكس مسبباتها ، يذهب للعلاج فيأخذ علاج يتسبب عنه مرض ، وربما يتوفى الإنسان في علاج استعمله ، أو عملية وجهت له وهو كان يريد العافية .

المقصود : أنه لو طلب الشفاعة من أحدٍ في أمر من أمور الدنيا يكون قلبه متوجهًا إلى ربه أن ينفع بهذا السبب . ولهذا فيه كلمة عند العوام جميلة ، وأول كلمات العامة توحيد ، هؤلاء الذين رباهم العلماء على التوحيد وهم عامة ، لهم كلمات عامية ، أمثال ، هي عقيدة ، إذا الإنسان سعى في أمر كذا قال : الله ينفع بالسبب ولا يتكل عليه . هذا التوحيد ، قال : أسأل الله أن يفع بهذا السبب ولكن لا يكلني عليه ، وإنما يكلني إليه سبحانه وبحمده وإلى إعانته وتوفيقه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الآيات .

الثانية : صفة الشفاعة المنفية .

الثالثة : صفة الشفاعة المثبتة .

الرابعة : ذكر الشفاعة الكبرى ، وهي المقام المحمود .

الخامسة : صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة ، بل يسجد ، فإذا أذن له شفع .

السادسة : من أسعد الناس بها ؟

السابعة : أنها لا تكون لمن أشرك بالله .

الثامنة : بيان حقيقتها) .

جزاكم الله خيرًا ووفقكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن ولاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] .**

تلاحظون الأبواب مرتبة ترتيب واضح بيِّن ، علاقة هذا الباب بالباب قبله ، في الباب السابق إذا كان أحدٌ لا يشفع إلا بإذن الله عز وجل ورضاه ، فأيضًا لا يملك أحدٌ الهداية . فإذا كانت الشفاعة لا تسأل إلا من الله عز وجل لا يجوز لأحد أن يقول : يا رسول الله اشفع لي . وإنما يقول : اللهم شفعه فيَّ . يطلب الشفاعة من الله عز وجل ، كذلك لا يجوز أن تطلب الهداية من أحد . وذلك أن كثيرين من الذين يتعلقون بالموتى والمقبورين يتعلقون بهم في تفريج الكربات ، وفي قضاء الحاجات ، وفي مغفرة الذنوب والسيئات ، يتعلقون بهم في كل شيء ، كل ما لا يكون إلا للرب عز وجل يطلبونه من الأموات ، بحجة أن هؤلاء الأموات يشفعون عند الله عز وجل ، يعني يقول : أنا لا أدعوهم لذواتهم ؛ لكن لأنه وسيلة نتوسل بهم إلى الله عز وجل . فتقول : سبحان الله ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، وما أشبه قول هؤلاء بقول المشركين ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] . فأراد المؤلف هنا أن يبين أن أكرم الخلق عليه أتم الصلاة والتسليم لا يملك أن يهدي أحدًا ، حتى أقرب الناس إليه ، فهذا عمه أبو لهب

قال الله عنه : ﴿ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : ٣] ، وهذا أبو طالب الذي كان يحنو عليه ويدافع عنه لما حضرته الوفاة أراد منه أن يسلم وعرض عليه الشهادة فأبى فقال : (« لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك ») ، فنهي عن الاستغفار له . بل واستأذن ربه كما في حديث أبي هريرة المخرج في ((**صحيح مسلم**)) أن يستغفر لأمه فلم يأذن له ، واستأذن ربه أن يزورها فأذن له . فإذا كان عليه الصلاة والسلام نهي أن يستغفر للمشركين وهم أقرب الناس فكيف تطلب منه الحاجات وتفريج الكربات ؟ بل وصل الأمر بهم إلى أن يطلبوا منه مغفرة الذنوب .

إذا كان هو عليه الصلاة والسلام لما أراد أن يستغفر للمشرك نهي عن ذلك ، فكيف تطلب منه المغفرة ؟ في بعض ما قاله البرعي – ولعله أشير إلى هذا – :

يا رسول الله يا ذا الفضل ** يا بهجة الحشر جاهًا ومقاما

عد على عبد الرحيم المرتمي بحماك غوثًا لليتامى

وأقلني في عثرتي في اقتراف الذنب في خمسين عاما

أقلني ! ، يخاطب النبي ﷺ ، يقول : اغفر لي يا رسول الله خمسين سنة . والرسول ﷺ لما أراد أن يستغفر لأقرب الناس إليه من المشركين نهي عن ذلك .

فهذا يدل على غربة الدين وغربة التوحيد ، أن يصل الأمر بالناس إلى هذا الحد ولا قوة إلا بالله ، ولهذا قال الله له : (﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾) الخطاب هنا للنبي ﷺ ؛ (﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾) ، والمراد بهذه الهداية كما تعرفون هداية التوفيق والإلهام التي يكون بها الرضا والتسليم والإذعان

والقبول ، لا هداية الدلالة والإرشاد ، فإنها ثابتة للنبي ﷺ ولغيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

فإذا قيل : كيف نجمع بين هذه الآية (﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾) والآية الثانية ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟

فالجواب: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي ﴾ هداية الدلالة والإرشاد ، وأما الهداية المنفية فهداية التوفيق والإلهام .

إذًا الهداية نوعان :

١ . هداية منفية .

٢ . وهداية مثبتة ، للنبي ﷺ ولغيره بطريق الأولى .

(﴿ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾) سبحانه وبحمده ، فيهدي من يشاء برحمته ، ويضل من يشاء بحكمته ، (﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾) هو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن لا يستحق الهداية فيغويه .

ومن يستحق الهداية من وُجدت لديه أسبابها ، كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] ، من اتبع رضوانه سبل السلام يهديه الله عز وجل .

وأما من فعل أسباب الغاوية والضلال والزيغ فإنه تعالى يزيغه كما قال : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] ، ﴿ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ

عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [الأعراف : ٣٠] .

وفي الصحيح عن ابن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أمية وأبو جهل ، فقال له : « يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » . فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فأعاد عليه النبي ﷺ ، فأعادا ، فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » . فأنزل الله عز وجل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾) .

في ((**الصحيحين**)) (عن ابن المسيب عن أبيه) وهو سعيد الإمام الشهير أحد أئمة المدينة وفقهائها السبعة رحمه الله ، وهو سعيد بن المسَيَّب يقولون هذا الأشهر بالفتح ، والبعض يقول : المسَيِّب ، وينسب إليه قوله : سيَّب الله من سيبني ، إن ثبتت هذه فهو المسيَّب . ولكن يظهر من أحوال العرب في الجاهلية أنهم يسمون بالأسماء التي فيها غلظة ، ولهذا أبوه أبو المسيب هو الحَزَن ، وهو صحابي ، وقد أراد النبي ﷺ أن يغير اسمه لكنه ما أراد ، قال : اسم سمانيه أهلي . يقول سعيد : فما زالت الحزونة فينا حتى الآن . والحَزَن هو الشيء الصلب ، ليس الحُزْن ، فالشيء الصلب القاسي يقال عنه حَزَن ، والحَزَن من الأرض هو ما كان صلبًا قاسيًا منه .

(**لما حضرت أبا طالب الوفاة**) يعني مقدماتها ، وأما إذا كان في السياق فلا ينفع الإنسان أن يتوب :

- قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ﴾ [النساء : ١٨] .
- وفرعون لما رأى الموت عيانًا قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] ، قال الله : ﴿ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] .

وهذا الإيمان كما يقولون : إيمان اضطرار وليس إيمان اختيار . فلا ينفعه أن يتوب ولا أن يؤمن .

فحضور الموت هنا هو حضور علامات ومقدماته ، هذا الأقرب .

وفيه : أن الكافر لو قال : لا إله إلا الله ، قبل موته فإنها تنفعه بلا شك ، وإذا نطق بها فإنه يعامل معاملة المسلمين ، فيورث ويدفن مع المسلمين ، ويحكم بإسلامه ، قال ﷺ : « **من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة** » ، ولهذا شرع تلقين الميت كلمة لا إله إلا الله ، قال ﷺ في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله** » .

قال : (« **يا عم قل لا إله إلا الله ، كلمةً** ») إذا قلنا بالنصب تكون بدل من كلمة التوحيد لا إله إلا الله ؛ لأن هذه الجملة (لا إله إلا الله) في محل نصب مقول القول (« **قل لا إله إلا الله ، كلمةً** ») .

و(« **أحاجَّ** ») بالفتح إعرابها جواب الشرط أو الطلب :

- قل لا إله إلا الله كلمةً ، قلها أحاجَّ ، بعضهم يقول : جواب الطلب .

- وبعضهم يقول : جواب شرط مقدر . يعني قلها فإن تقلها أحاج .

ويقال : جواب الطلب أسهل ولا داعي للتقدير .

لماذا فتحت الجيم هنا ومعروف أن جواب الطلب ماذا يصير ؟ مجزوم ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ ﴾ [مريم : ٢٥] ، ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ﴾ [طه : ٦٩] ، وتقول لزميلك : جد في طلب العلم واجتهد تنلْ العلم . فلماذا إذًا فتحت هنا ؟

أصلها أحاججْ مجزومة ؛ لكن لما اجتمع حرفان أدغم أحدهما في الآخر فتولد من بينهما حرفٌ مضعف مشدد ، والشدة تناسبها الفتحة .

لكن إذا قلنا : كلمةٌ أحاجُّ لك ، تصير كلمةٌ مبتدأ ، وأحاجُّ فعل مضارع والجملة خبر كلمة .

وفيه : جواز عيادة الكافر إذا رجي إسلامه .

وقد عاد النبي ﷺ يهوديًّا وعرض عليه الشهادة فنظر إلى أبيه ، فقال : أطع أبا القاسم ، يعرفون الحق ، فنطق بالشهادتين وخرج النبي ﷺ مستبشرًا وقال : « **الحمد لله** » ما قال الذي هداه علي يدي ، إنما قال : « **الحمد لله الذي أنقذه من النار** » يعني حرصه على الناس وعلى سلامتهم ونجاتهم ، أما أبوه هل أسلم وما أسلم ، ليس في الرواية ما يدل على إسلامه مع أنه يعرف الحق ، حينما قال : أطع أبا القاسم .

فتجوز عيادة الكافر في مرضه ، بل تتأكد إذا كان قصد الزائر السعي في إنقاذه من النار وعرض الإسلام عليه .

وكان عنده عبد الله بن أبي أمية وهو أخو أم سلمة رضي الله عنها ، وأبو جهل عمرو بن هشام (**فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟**) انظروا إلى هذه الشبهة عياذًا بالله ، لم يقولا له : أترغب عن اللات والعزى ، بل ذكَّراها بأن هذه ملة أبيه عبد المطلب ، وأنك إذا قلت : لا إله إلا الله ، فإنك بذلك تسفه آبائك وتذمهم ، وهذه شبهة المشركين التي يتعلقون بها ، يعني بعض شبهاتهم كما قال الله عنهم : ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ * وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ [الزخرف : ٢٢ ، ٢٣] يعني هذه شبهة للمتقدمين وللمتأخرين . يأتيهم الشيطان من هذا الباب أنكم إن أطعتم الرسل فقد تركتم ملة آبائكم ، وترككم ملة آبائكم يعني تسفيههم وذمهم والحكم عليهم بالكفر وبدخول النار وما أشبه ذلك .

وفيه : مضرة جلساء السوء ، جليس السوء أبو جهل ، عبد الله بن أبي أمية أسلم وحسن إسلامه ؛ لكن أبو جهل هلك مشركًا فلما حضر أبا طالب وذكراها بهذه الشبهة كانا السبب في عدم إسلامه ، ولا ريب أن القرين له تأثير على قرينه :

- قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان : ٢٧ - ٢٩] .
- وقال تعالى : ﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ

مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات : ٥١ – ٥٧] .

– وقال عليه الصلاة والسلام : « **المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل** » .

– وحديث جليس السوء والجليس الصالح الحديث المشهور .

المقصود : أن الإنسان كل إنسان يتأكد عليه أن يختار الصديق ، فإن التأثر بالمخالطة خطير وسريع أيضًا ، فمع كثرة المخالطة يتأثر بهم وبأقوالهم وأفكارهم ، سواء كان هذا الجليس جليسًا يأتي إليه يجلس معه ، أو كان يزوره عبر المواقع . هناك مجالسة جَدّت في هذا الزمان ومجالسة مفتوحة بلا حدود ، يجلس الشاب بل حتى الطفل أحيانًا مع أناس في مشارق الأرض ومغاربها ، لا يدري ما عقيدتهم ، ما غاياتهم ومآربهم ، ربما يزاول معهم بعض الألعاب ؛ ولكن يأتي مع الألعاب كلام ، أناس لا دين لهم يتكلمون بكل كلام ، ومع كثرة المماسة يبرد إحساسه ويتأثر بما يسمع والله المستعان .

(**فأعاد عليه النبي ﷺ**) :

وفيه : أن الإنسان يجتهد في الدعوة ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا ييأس ، لاسيما عند الاحتضار ؛ لأنه إن لم يتب ولم يسلم في هذه اللحظة فسوف يموت وينقطع عمله وينقطع أمله ولا قوة إلا بالله . لكن إذا كان الشخص في حال سعة فينبغي أن تجتهد معه في الدعوة ؛ لكن بطريقةٍ لا تكون مملة له ، بل لا بد من توخي الحكمة ؛ لأنك لو دعوت إنسان مرة في مجلس

واحد ، ثم عدت ثانية ، ثم عدت ثالثة ، ربما يضجر ويمل ، ويحصل منه ما لا يحمد عقباه ؛ لكن يعرض عليه الخير مرة ، وبعد مدة يعرض عليه مرة ، ولا ييأس من رحمة الله عز وجل .

فإن النبي ﷺ كرر على أبي طالب الدعوة وأعاد عليه مرة أخرى ، (**فكان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب**) أبو طالب لم يقل : (هو على ملة) ، لا ؛ لكن هذا كما يقول الحافظ ابن حجر : من المتصرفات الحسنة ، أن الراوي لم يرد أن يقول ما قاله مباشرة بضمير المتكلم ، أنا على ملة عبد المطلب مع أنه ورد في رواية عند أحمد (أنا على ملة عبد المطلب) .

وفيه : الردُّ على من زعم إسلام أبي طالب . كثير من أهل البدع ألفوا كتبا في إسلامه ، وهذا الحديث نصٌّ وهو في ((**الصحيحين**)) .

وقال أبو طالب :

ولقد علمت بأن دين محمد ** من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ** لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

يخشى من ملامة الناس ، أو من سب الناس ، نقد الناس ، كلام الناس ، هذا الذي منعه من الإسلام ولا قوة إلا بالله .

قد يقول قائل : قوله : (ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية) يدل على أنه مصدق ، ومن هنا يبنون عليه أنه أسلم ؛ لكن لا يكفي التصديق للإسلام ، رجل مصدق وقال : أنا أعرف أن محمد نبي . لكنه لم يتبعه ولم ينقد له ، فهل يكون بهذا مسلمًا ؟ لا ، فلو كان مسلمًا لكان إبليس مسلمًا ، إبليس يقول ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر : ٣٩] ، يقر بأن الله تعالى به ، مصدق بهذا .

فالتصديق ما يكفي أبدًا ؛ لكن مع التصديق انقيادٌ وقبول ، مع أن هذا البيت واضح أنه لم يسلم ، لأنه قال : (لوجدتني سمحًا بذاك مبينا) ، لكنه لم يكن سمحًا ولا مبينًا حذر المسبة واللوم والله المستعان .

(**فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك » . فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾**) ، فترك النبي ﷺ الاستغفار للمشركين .

قد يقول قائل : إن هذه الآية في سورة التوبة ، والتوبة مدنية ونزولها متأخر نزلت في مرجع النبي ﷺ من تبوك .

فيقال : نعم هي لم تنزل في أبي طالب خاصة ؛ ولكنها نزلت في الاستغفار للمشركين بعامة ، ولا مانع أن يقال : إن استغفاره ﷺ لأبي طالب ، أو سؤاله الاستغفار لأمه أو استغفار بعض المؤمنين لوالديهم كما ورد في بعض الروايات كلها أسباب نزلت بها بهذه الآية .

(**وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾**) ، قوله في الحديث : (**وأنزل الله في أبي طالب**) ، يدل على أن الآية السابقة ما نزلت في أبي طالب خاصة ، لاسيما أن النبي ﷺ نهي عن الاستغفار للمنافقين في قوله : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] ، وكان عرض على المنافقين أن يستغفر لهم ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : ٥] ، فنهي عن الاستغفار للمنافقين ، فتكون هذه الآية لم تنزل في أبي طالب بخاصة ، وإنما نزلت للاستغفار للمشركين بعامة .

وفيه : أنه لا يجوز الاستغفار لمشرك بحال من الأحوال ، حتى ولو كان أقرب قريب . هذا إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : ٤٧] ، وعد أباه أن يستغفر له ، حتى نهي عنه ، فلما نهي عن الاستغفار لأبيه نهي المؤمنين أيضًا من بعده ، بل نهي رسول الله ﷺ أن يستغفر للمشركين:

- قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ [التوبة : ١١٤] .
- وقال : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : ٤] . فهنا لا يستغفر للمشركين حتى ولو كان أقرب قريب ، فالقدوة في إبراهيم في البراءة من المشركين ، وأما الاستغفار فلا ؛ لأن إبراهيم نفسه نهي عن الاستغفار لأبيه .

فائدة : كلمة لا إله إلا الله عظيمة ، لا يقبل إسلام شخص إلا بالنطق بها ، وأسعد الناس بشفاعة المصطفى من قالها ، ومن كانت آخر كلامه دخل الجنة نسأل الله الكريم من فضله ؛ لكن في قوله – سيشير الشيخ إلى هذا – قول النبي ﷺ لعمه « **قل لا إله إلا الله** » ، قال أبو جهل أترغب عن ملة عبد المطلب . أبو جهل يعرف معنى لا إله إلا الله ، وأن معناها لا معبود حق إلا الله ، فلو كان معناها لا خالق إلا الله هل كان أبو جهل ينكرها ؟ ويقول : ترغب عن ملة عبد المطلب ، عبد المطلب مقر بأن الخالق هو الله ، بل أبو جهل نفسه مقر بهذا ،

كما مر بنا مرارًا ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٧] .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي ﴾ .

الثانية : تفسير قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾) .

الشيخ دائمًا يقول : تفسير الآية ، ولا يذكر التفسير ، فما مراده ؟ مراده انظر في تفسير هذه الآية ، وعلى كل حال يكون في الترجمة ما يشير إلى معنى الآية ؛ لكنه كأنه يحيلك أيضًا إلى أن ترجع إلى تفسير هذه الآية والنظر في معناها .

قال رحمه الله : (**الثالثة : وهي المسألة الكبيرة وتفسير قوله : « قل لا إله إلا الله » ، بخلاف ما عليه من يدعي العلم**) .

تفسير كلمة لا إله إلا الله بخلاف ما عليه من يدعي العلم ، وهو تفسيرها كما مر بنا ، يعني الخلل في تفسير لا إله إلا الله في :

- **أولاً :** معنى الإله ، فالإله عندهم هو :
  - الخالق .
  - أو المستغني عما سواه المفتقر إليه من عداه .
  - أو القادر على الاختراع وما أشبه ذلك .
- **والثاني :** في تقدير الخبر ، والخبر عندهم هو لا إله موجود ، مع أن الله سبحانه وتعالى سمى آلهة المشركين آلهة في آيات كثيرة ، لكن يقولون : ما فيه إله موجود إلا الله عز وجل ، وهذا مبني عندهم أن الإله هو الخالق

، يعني لا خالق موجود إلا الله عز وجل ؛ لكن يلزمهم على كلامهم على تفسير الخبر بأنه موجود إذا قلنا : الإله المعبود يعني لا معبود موجودٌ إلا الله أن كل هذه الموجودات إله عياذًا بالله ، وحينها يقعون في القول بالحلول والاتحاد كما تقوله الحلولية والاتحادية من غلاة الصوفية أن الله حالٌّ في كل شيء ، وبالتالي كل شيء عندهم إله عياذًا بالله .

فيلزم على هذا التفسير إذا قلنا الإله المعبود ، ولا معبود في الوجود إلا الله مع وجود المعبودات الكثيرة أن هذه الموجودات هي الله ولا قوة إلا بالله فهي معبودات ، فيؤدي هذا التفسير الباطل إلى لوازم باطلة .

ما الدليل على أن الإله المعبود ؟

الدليل من القرآن :

- ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .
- ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] . يعني أن لا يكون لنا إلهٌ إلا الله عز وجل ، ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ﴾ ، (لا نعبد) نافية (إلا الله) إثبات ، فهي مقابلة لكلمة (لا إله إلا الله) .
- ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ ﴾ ترى أن الآية اعبدوا الله ما لكم من خالق غيره ؟ يدعوهم إلى العبادة ، ﴿ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ ﴾ معبود إلا الله عز وجل ، ونظائر هذا في القرآن كثيرة .

الخلل في معنى لا إله إلا الله خطير ، وهو عام إلا – ولله الحمد – من كان على بنية ونظر في كتاب ربه وتأمله وتدبره وطلب الحق منه فلا بد أن يهتدي إليه .

قال رحمه الله : (**الرابعة : أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذ قال للرجل : « قل لا إله إلا الله ، فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام .»**) .

أبو جهل يعرف مراد النبي ﷺ ، ولهذا قال : أترغب عن ملة عبد المطلب . يعرف أن (**« قل لا إله إلا الله »**) لا معبود إلا الله .

وهذا كما قالوا لما قال النبي ﷺ : « **قولوا لا إله إلا الله** » . قالوا : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ [ص : ٥] ، تُرى أن معناها أجعل الخالق خالقًا واحدًا ؟ لا ، هم مقرون بأن الخالق واحد .

قال رحمه الله : (**الخامسة : جِدُّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه .**

السادسة : الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه) .

(**الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه**) عبد المطلب أو أبي طالب ؟ لأن الشيخ سليمان في ((**التيسير**)) قال : الرد على من زعم إسلام أبي طالب . وعلى كل حال هذا الكلام يدل على عدم إسلام أبي طالب وعبد المطلب أيضًا ؛ أما عبد المطلب فقد مات قديمًا ، مات والنبي ﷺ صغير ، وأبو طالب مات والنبي ﷺ عمره تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا ، ثم ماتت خديجة بعد موت أبي طالب بثمانية أيام ، فزاد المشركون من التسلط على رسول الله ﷺ وإيذائه .

كل النسخ عبد المطلب ؟ على كل حال من يتأكد لنا بالرجوع إلى الشروح ، نسخة التوحيد التي عليها الشروح . الشروح المطبوعة التي تعنى بالمسائل في ضمن الشرح ، أنا في ذهني أن الشيخ سليمان في ((**التيسير**)) قال : الرد على من زعم إسلام أبي طالب .

قال رحمه الله : (**السابعة : كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له ، بل نهي عن ذلك .**

الثامنة : مضرة أصحاب السوء على الإنسان .

التاسعة : مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر) .

(**مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر**) عبد المطلب كان له شأن في مكة ، وكان سيد الوادي في زمانه ، فتعظيم الأسلاف والأكابر لا شك إذا كان يؤدي إلى أن يكون الإنسان على ما هم عليه من الباطل لا شك أن فيه خطورة ، فيه مبالغة في التعظيم ما تنتهي إلى خيرٍ أبدًا .

قال رحمه الله : (**العاشرة : الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهلٍ بذلك**) .

الشبهة في تعظيم الأكابر ، تعظيم الأكابر والآباء والأجداد ، بهذا استدل أبو جهلٍ عياذًا بالله ، ترغب عن ملة عبد المطلب .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم ؛ لأنه لو قالها لنفعته**) .

وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) « **وإنما الأعمال بالخواتيم** » . فنسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة ، يسأل الإنسان ربه دائمًا الثبات ، وأن يرزقه حسن الختام .

قال رحمه الله : (**الثانية عشرة : التأمل في كِبر هذه الشبهة في قلوب الضالين ؛ لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها ، مع مبالغته ﷺ وتكريره ، فلأجل عظامتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها**) .

والشبهة هي : تعظيم الأكابر والآباء والأجداد ، هي عندهم كبيرة ومؤثرة ، لأنه بهذا يشده إلى آبائه ، وأيضًا لو خالفت دينهم ليست المسألة مجرد مخالفة ، وإنما الطعن فيهم وذمهم وتسفيههم وما أشبه ذلك من الشبهات التي يلقونها بعضهم على بعض حتى يتمسكوا بما هم عليه من الباطل .

بارك الله فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب ((**التوحيد**)) :

(**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**

لما ذكر المؤلف رحمه الله تعالى في الأبواب السابقة تعلق فئة من الناس بالأنبياء وبالملائكة ، بين رحمه الله تعالى في هذا الباب سبب هذا التعلق ، سببه أنهم تعلقوا بالأنبياء ، بالملائكة ، وأيضًا بالصالحين كما سيأتي ، سببه الغلو فيهم .

وذلك أن الشيطان أظهر لهم محبة الصالحين في قالب الغلو فيهم ، فلبَّس عليهم الشيطان وألْبَس عليهم الحق بالباطل . فإن محبة الصالحين دين يدان الله تعالى به ؛ لكن أن يصل بهذه المحبة إلى الغلو هذا هو الذي أوقعهم بالتعلق بهم وعبادتهم من دون الله عز وجل . ولهذا يقولون لكل من لا يوافقهم على غلوهم يقولون : أنت لا تحب النبي ﷺ مثلاً ، أنتم لا تحبونه ، وهذه كلمة دائمًا يرمون بها على من يخالفهم في هذا الأمر .

اذكر أن شخصا في كتاب له ذكر أشياء من التوافه ، وذكر أن محمد بن عبد الوهاب وأتباعه يكرهون الصلاة على النبي ﷺ ، وأن أحدهم يقول : عصاي هذه خير من محمد ﷺ . وهذه بضاعتهم ، بضاعتهم التشويه وانتحال الأباطيل والأكاذيب لإبعاد الناس عن الحق ، ليس عندهم شيء يقنعون به الناس إلا هذه

الأباطيل وهذه الأكاذيب ؛ ولكن ولله الحمد ينكشف الأمر ويبين الحق ويدحض الباطل ، فمحبة الصالحين دين وقربة لاسيما محبة محمدٍ ﷺ .

وقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء : ١٧١]) .

وفي آية أخرى ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٧٧] . فنهى الله أهل الكتاب أن يغلوا في دينهم ، هذا الغلو الذي أدى بهم إلى أن يغلوا بعيسى إفراطًا أو تفريطًا .

فإن الغلو هو : مجاوزة الحد في المدح أو في الذم :

- في المدح كما فعل النصارى غلوا بعيسى حتى قالوا : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة .
- وغلا اليهود في الذم حتى قالوا فيه ما قالوا عياذًا بالله ، ورموا أمه الطاهرة المطهرة بما رموها .

وأما أهل الحق ولله الحمد محمد ومن سار على نهجه ودينه ، فقالوا في عيسى ما قاله عيسى نفسُهُ عن نفسِهِ وهو في المهد ، أول كلمة تكلم بها ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ ﴾ [مريم : ٣٠] ، فقالوا : هو عبد الله ورسوله .

وقد نهينا أن نتشبه بأهل الكتاب إفراطًا أو تفريطًا ، وأخبر النبي ﷺ أن التشبه واقع ولا محالة « **لتتبعن سنن من كان قبلكم** » ؛ لكنه أخبر به لأجل النهي عنه والتحذير منه قبل وقوعه .

قال رحمه الله : (**وفي ((الصحيح)) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ**

وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] . قال : « هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم ، ففعلوا . ولم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت ») .

المؤلف رحمه الله اختصر هذا الأثر عن ابن عباس ولفظه : صارت الأوثان – أو الأصنام – التي في قوم نوح في العرب بعدُ ، أما وَدّ فكان لقبيلة كلب في دومة الجندل ، وأما سواع فكان لهذيل ، وأما يغوث فكان لمراد ، ثم لبني غُطَيف في الجرف من سبأ ، وأما يعوق فكان لهمدان ، وأما نسر فكان لحمير لآل ذي الكلاع ، أسماء رجال صالحين من قوم نوح .

وفي هذا الأثر إشكال ، فالأثر كما تلحظون يدل على أن هؤلاء من قوم نوح ، ونوح إنما بعث في قومٍ مشركين قبله ، إذًا هؤلاء الصالحون ليسوا من قوم نوح ، ولكنهم كانوا قبل نوح عليه السلام ، وقد روى ابن جرير ما يدل على هذا ، ورد عن جملة من السلف أن هؤلاء المذكورين في هذه الآية:

- بعضهم يقول : من ولد آدم ، وكان ود أكبرهم وأبرهم لآدم .
- وبعضهم يقول : هم من أولاد شيث بن آدم .

ورد عن محمد بن قيس وورد عن محمد بن كعب القرظي كما عند عبد بن حميد وغيرهم : أنهم كانوا قبل نوح عليه السلام ، عكفوا عندهم وصوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم – كما قال ابن القيم عن غير واحد من السلف – ثم بعد ذلك بعث نوح إليهم بعد أن وقع الشرك .

والقول الثاني : وأنهم كانوا قبل نوح عليه السلام يتفق مع ظاهر الآية الآية ﴿ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ [نوح : ٢١ - ٢٤] الآية .

هذه أسماء رجال صالحين غلا فيهم قومهم ، ثم آل بهم الغلو إلى عبادتهم من دون الله عز وجل ، ولهذا عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب ليبين أن الغلو مدخل من مداخل الكفر ، وسببٌ من أسبابه .

ولا يعني قول المؤلف رحمه الله في الترجمة : (**باب ما جاء**) ، إلى آخره ، لا يعني أنه يريد الحصر ، وأن الكفر سببه هو الغلو فقط ؛ لكنه سببٌ من أكبر وأهم أسبابه ، وإلا فهناك أسباب للكفر من أهمها :

- الكبر ، فإن الكبر هو الذي منع إبليس من السجود لآدم ، ولهذا قال الله عز وجل : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ، وكان كفره كفر إباء واستكبار .
- **ومنها :** تقليد الآباء ، ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ ﴾ ، وكما قال أبو جهل لأبي طالب : ترغب عن ملة عبد المطلب ؟

وثمة أسباب ؛ لكن هذا السبب لا شك هو من أهمها .

وقد ذكر أهل العلم كما ذكر ابن القيم - ولعله مر بنا في درس التفسير - : أن الشرك يرجع إلى أصلين كبيرين ، وهي أشهر الأصول التي يرجع إليها ، وهذين الأصلين هما ؟

١. عبادة الكواكب .

٢. والغلو في الصالحين وتعظيم القبور .

وأخذ هذه الفائدة اللطيفة من الآية التي مرت بنا:

- ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي ﴾ [البقرة : ٢٥٨] . **وفيه** : أن الحي الذي يموت أو الذي مات بطريق الأولى لا يصلح أن يكون إلهًا بحالٍ من الأحوال .

- ثم قوله بعد ذلك : ﴿ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ ، إلى آخره.

فكان شرك العالم في أصله يرجع إلى هذين الأمرين :

١. إما تعظيم الكواكب وعبادتها ، واعتقاد تأثيرها في حوادث الأرض إما استقلالاً وإما تسببًا .

٢. وإما الغلو في الموتى وتعظيمهم ، والذي يؤدي في النهاية إلى عبادتهم مع الله عز وجل كما حصل لهؤلاء الذين بعث فيهم نوحٍ عليه السلام .

(**« فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا ، وسموها بأسمائهم »**) أي صوروا تماثيلهم وسموها بأسمائهم بقصد ماذا ؟ انظروا كيف يدخل الشيطان أحيانًا مما يظن أنه خير ، لأجل تَذَكُّرِهم وتَذَكُّر عبادتهم ، حتى إذا رأيتموهم نشطهم في عبادتهم ، وتركهم حتى إذا انقرض هؤلاء جاء إلى الذين أتوا بعدهم وقال : إنما صوروهم لأجل أن يعبدوهم ، فعبدوهم مع الله عز وجل ، ولهذا قال المؤلف عندكم هنا : (**« حتى إذا هلك أولئك ونُسي »**) في رواية « **نسخ** » ، والمحشون يقولون : الذي في ((**الصحيح**)) – وهذا يحتاج لمن يرجع إلى ((**الصحيح**)) – « **ونُسِخَ** » ، على كل حال « **ونسخ العلم** » ، أو **« ونُسي العلم عُبدت »**.

وفيه دليل على أن : العلم من أعظم بل أعظم أسباب حفظ الشريعة والذب عنها وحمايتها ، فعليكم بالعلم ، احرصوا عليه فهو طريق المحافظة على دينكم ، إذا قبض العلم قبض العلماء ، وقَلَّ إقبال الناشئة على العلم فينتشر الجهل ، وإذا انتشر الجهل ولا قوة إلا بالله عمل كلٌّ بما يرى واتبع كلٌّ ما يرغب فيهم من الهوى ولا قوة إلا بالله .

وإنما العلم هو الذي يبين له به الحق ويدحض به الباطل .

قال رحمه الله : (**وقال ابن القيم : قال غير واحد من السلف : لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم**) .

هكذا يتدرج الشيطان بالناس ، ما يأتي دفعة واحدة :

١. عكفوا على القبور أولاً .

٢. ثم صوروا التماثيل ثانيًا .

٣. ثم طال بهم الأمد فعبدوهم .

وهكذا يتدرج الشيطان ، فيأتيهم من جهة تعظيم القبور ، وتلحظون كيف تعظَّم القبور في بلاد المسلمين ، حتى بنيت في بيوت الله ، وحتى جعلت في القبلة في كثير من الأحيان يصلي الناس إليها ، ولا قوة إلا بالله .

وقد نهى النبي ﷺ كما في ((**الصحيح**)) عن الصلاة إلى القبر ، فدعوا الله عندها ، ثم دعوا الله بها توسلاً ، ثم دعوها بعد ذلك ، ثم دعوا الناس إلى دعوتهم مع الله عز وجل ، ثم تحاملوا وأنكروا على من ينكر عليهم ذلك متهمين إياه بأنه ينتقص ذوي الرتب العالية ، وهذا مشهودٌ وملاحظ ، وسببه هو الغلو في هؤلاء ، وخلط عليهم الشيطان ولبَّس عليهم بين الحق والباطل - كما مر - فأظهر لهم

المحبة في قالب – يقول الشيخ سليمان – : في قالب الغلو ، فزعموا أن الغلو فيهم هو محبتهم ، فمن لم يغلوا يتهمونه بعدم محبتهم .

أثر ابن القيم توضيح لكلام ابن عباس أن هذا الأمر لم يأتِ دفعة واحدة ؛ لكن عكفوا ثم صوروا ، ثم بعد ذلك عبدوهم ، فيأتيهم بتدرج ، وكل ما هلكت فئة جاء إلى الفئة الأخرى ودفعهم إلى الغلو وإلى الزيادة .

قال رحمه الله : (**وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » . أخرجاه**) .

قال ﷺ : (**« لا تطروني »**) . والإطراء هو المبالغة في المدح .

(**« كما أطرت النصارى ابن مريم »**) ، فإنما النصارى أطروا ابن مريم وغلوا فيه كما ذكر الله عز وجل ، حتى آل بهم الأمر إلى عبادته مع الله عز وجل ، وحتى قالوا فيه ما قالوا : إنه الله ، أو ابن الله ، أو ثالث ثلاثة ، وسبب ذلك هو الغلو .

فالنبي ﷺ يقول : لا تغلوا في مدحي كما غلت النصارى ، فآل بهم الغلو إلى عبادته مع الله عز وجل .

وبيَّن النبي ﷺ بيانًا وافيًا شافيًا لنهيه عن الإطراء والمبالغة في الغلو ، حيث قال : (**« إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »**) ، وهذا أشرف أوصافه ﷺ ، بدليل أن الله عز وجل ذكر في القرآن في مواضع عديدة ذكر المصطفى ﷺ وصفه بوصف العبودية ، والدليل:

١. ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] .

٢. وأيضًا ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن : ١٩] .

٣. ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [البقرة : ٢٣] .

٤. وأيضًا ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم : ١٠] .

٥. ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ [الفرقان : ١] .

في آيات كثيرة يصفه الله بهذا الوصف الجليل ، ولهذا النبي ﷺ قال : لا تطروني ولكن قولوا عبد الله ورسوله ، (**« إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »**) هذا قوله ﷺ .

وهذا سؤال مر بنا كثيرًا ما معنى كون العبودية أشرف أوصافه ﷺ مع الرسالة ، يعني لماذا كانت العبودية أشرف أوصافه مع الرسالة ؟

الجواب: لأنه أكملها وأتمها عليه الصلاة والسلام ، أخذناها من الإضافة (**« عبد الله »**) عبد مضاف ، ولفظ الجلالة مضاف إليه ، والإضافة تقتضي العموم ، فالمعنى أن عموم العبودية قامت بالمصطفى ﷺ ، العبودية لله عز وجل ، وهذا لا شك تشريف عظيم له صلوات الله وسلامه عليه.

ثم هو رسول الله لهذا تلحظون أن الله تعالى يجمع بين العبودية للنبي ﷺ في أحاديث كثيرة جمع فيها بين العبودية والرسالة ، وأول أركان الإسلام الشهادتان ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وفي الحديث الذي عندنا اليوم أيضًا حديث عبادة « **من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله** » .

وفي وصفه بالعبودية والرسالة ونصه ﷺ في هذا الحديث عليها دليل على أن المسلم يكون بين أمرين ، فلا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير :

- أخذنا هذا من كونه عبدًا لله عز وجل وبالتالي لا يجوز مجاوزة الحد فيه عليه الصلاة والسلام ، فهو عبد الله .

- وكونه رسول الله لا يجوز التقصير في حقه ولا التفريط في حقه ، فهو رسول الله ﷺ .

فإذًا أعظم ما يثنى به عليه ويمدح ما وصف به في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . أما أن يقال : لا تطروه كالنصارى ، يعني لا تقولوا : هو الله ، هو ابن الله ، هو ثالث ثلاثة ، وقولوا بعد ذلك ما شئتم ، كما قال صاحب البردة :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ** واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

يقول : لا تقل كما قالت النصارى وما عدا ذلك امدح الرسول ﷺ بما شئت . فتح هذا الباب للناس أوقعهم في أمور كبيرة وخطيرة ، قد ذكر شيخ الإسلام في كتابه ((**الاستغاثة**)) أن هناك في زمانه من يجوز الاستغاثة بالنبي ﷺ في كل ما يستغاث به لله عز وجل ، ومن يقول : إن رسول الله ﷺ عنده مفاتح الغيب كما هي عند الله عز وجل . وذكر رحمه الله أن بعض المتصدِّين للتدريس في زمانه يقولوا : إن النبي ﷺ يعلم ما يعلم الله ، ويقدر على ما يقدر عليه الله عز وجل . فما أدري ماذا يبقى لله عز وجل ؟ فهؤلاء أطروا النبي ﷺ كما أطرت النصارى ابن مريم ، ولهذا بين النبي ﷺ معنى هذا النهي بقوله : (**« إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »**) .

وأما مكانته ﷺ فمكانته في :

١. القلوب حبًّا وتوقيرًا وتبجيلاً .

٢. وفي الألسنة ثناءً ومدحًا بما أثنى الله تعالى عليه ، سبحانه وبحمده .

٣. وفي الجوارح متابعةً ودعوةً إلى اقتفاء أثره والسير على نهجه .

وأن الواجب على المسلم أن يحب النبي ﷺ أعظم من محبته لنفسه وماله وأهله وولده والناس أجمعين . قال عمر : يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، قال : « **لا يا عمر** » ، قال : فالآن أنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، قال : « **الآن يا عمر** » . وقال ﷺ : « **لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين** » . بل قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤] . فمحبته أعظم من كل محبة بعد محبة الله عز وجل ، والاختبار ليس في الكلمات والمقالات والقصائد والأشعار ، فهذه سهلة كلٌّ يقولها ، وإنما الاختبار في المتابعة ، كما في آية المحنة ، وهي ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، إن كنتم محبين لله عز وجل فهاتوا البرهان والدليل ، والبرهان ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ اتبعوا محمد ﷺ ، ولهذا تجد هؤلاء الذين يغلون فيه أبعد الناس عن متابعته ﷺ في أهم الأمور وأعظمها وهي العقيدة والتوحيد ، وحتى في الأعمال تجد عندهم مخالفات كثيرة في متابعته ﷺ .

قال رحمه الله : (**قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »**) .

هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له وهو على بعيره : « **القط لي حصى الجمار** » قال : فلقطت له حصى هن حصى الخذف ، فجعل

ينفضهن بيده ، سبع حصيات ، ويقول : « **بأمثال هؤلاء فارموا ، وإياكم والغلم ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** » .

(« **إياكم والغلو** ») سواء في الرمي ، أو في غيره ، («**فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** ») وهذا حصر (**إنما أهلك من كان قبلكم الغلو**) ؛ لكنه حصرٌ إضافي .

والحصر الإضافي يكون التخصيص فيه بالنسبة لشيء معين ، أما الحصر الحقيقي فلا ، يكون التخصيص فيه بالحقيقة والواقع :

- لا معبود إلا الله عز وجل ، هذا حصر حقيقي.
- لكن (« **فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** ») حصرٌ بالنسبة لهذا الشيء المعين ، وإلا فثمة أشياء كانت السبب في الهلاك ، خذوا مثلاً « **إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه** » إلى آخر الحديث .

والأثر الذي بعده عندنا (« **هلك المتنطعون** ») ، فأسباب الهلاك كثيرة .

إذًا النص على هذا السبب يعتبرونه حصرًا إضافيًّا ، يعني بالنسبة لهذا الشيء المعين ، والنص عليه بأسلوب الحصر يدل على أهميته ، وأنه من أعظم الأسباب .

قال رحمه الله : (**ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « هلك المتنطعون » قالها ثلاثًا**)

(« **هلك المتنطعون** ») المتنطعون جمع متنطع ، والمتنطع هو: المتعمق ، المتقعر ، المتكلف ، المتشدد . يقول أبو سليمان الخطابي رحمه الله : المتنطعون هم المتعمقون في الشيء ، المتكلفون له على مذاهب المتكلمين ، الداخلين فيما لا يعنيهم ، الخائضين في ما لا تبلغه عقولهم .

المقصود : أن المتنطع هو المتقعر المتعمق .

وتسميته بالمتنطع أخذًا من النَّطع ، والنطع يقولون : هو الغار الأعلى في الفم . ولهذا أكثر ما تستخدم هذه الكلمة فيمن يتنطع في الكلام ، يقول : هذا إنسان متنطع ، إذا كان يتكلم ويتنطع ويتقعر في كلامه ويخرج كلامه من أقصى حلقه ؛ لكنه أطلق على كل من يتعمق ومن يتقعر في الشيء ويتكلف فيه .

قال عليه السلام : (**« هلك المتنطعون »**) ، وهذا معنى قوله : (**« فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو »**) ، فالمتنطعون هم الغلاة ، وديننا وسطٌ بين الإفراط والتفريط ، وبين الغلو التقصير ، فمن غلا هلك ، ومن فرط وقصر هلك ، وسبيل النجاة أن يكون المسلم بينهما .

قال ابن مسعود راوي هذا الحديث : تعلموا العلم قبل رفعه ، ورفعه موت أهله ، وإياكم والتنطع والتعمق ، وعليكم بالعتيق . أو كلامًا نحو هذا .

وإياكم والتنطع والتعمق ، وعليكم بالعتيق ، والعتيق الشيء القديم ، العلم الأصيل القديم .

العلم قال الله قال رسوله ** قال الصحابة هم أولوا العرفان

عليكم بهذا العلم يقول رضي الله عنه وأرضاه ، ويقول : اطلبوا العلم قبل فقده . وفقده هو موت أهله ، قبض العلم موت أهله كما قال ﷺ ؛ ولكن وأنتم تطلبون العلم لا تتقعروا ولا تتعمقوا وتتكلفوا وتتشدقوا ؛ ولكن عليكم بالعلم العتيق الذي لا تجدون فيه هذا التكلف . ولهذا أنكر النبي ﷺ على كل من أراد وصدرت منه بوادر لشيء من التشديد والتعمق ، قال عز وجل : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات : ٧] يعني

لأصابكم العنت والمشقة بطلبكم ورغبتكم ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ، ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ وإن مات النبي ﷺ فكتاب الله غضٌّ كما نزل عليه ، وسنته وهديه موجودة بيننا ولله الحمد ، فمن أخذ بهما سلم من العنت والتنطع ، ومن حاد عنهما فلا يدري بأي وادٍ يهلك ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : أن من فهم هذا الباب وبابين بعده تبين غربة الإسلام ، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب .

الثانية : معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه كان بشبهة الصالحين .

الثالثة : أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء ، وما سبب ذلك ، مع معرفة أن الله أرسلهم .

الرابعة : معرفة سبب قبول البدع ، مع كون الشرائع والفطر تردها .

الخامسة : أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل .

فالأول : محبة الصالحين .

والثاني : فعل أناس من أهل العلم والدين شيئًا أرادوا به خيرًا ، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره .

السادسة : تفسير الآية التي في سورة نوح .

السابعة : معرفة جبلة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه ، والباطل يزيد .

الثامنة : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب للكفر .

التاسعة : معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة ، ولو حسن قصد الفاعل) .

ولهذا يقول العلماء : البدعة أحب للشيطان من المعصية ، والسبب أن صاحب المعصية يتوب ، وهو مقر بأنه عاصٍ . وأما صاحب البدعة قَلَّ أن يتوب ؛ لأنه يعتقد أنه على صواب ، وأن غيره على باطل ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (العاشرة : معرفة القاعدة الكلية ، وهي النهي عن الغلو ، ومعرفة ما يؤول إليه .

الحادية عشرة : مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح .

الثانية عشرة : معرفة النهي عن التماثيل ، والحكمة في إزالتها .

الثالثة عشرة : معرفة عظم شأن هذه القصة ، وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها .

الرابعة عشرة : وهي أعجب العجب قراءتهم - أي أهل البدع - إياها في كتب التفسير والحديث ، ومعرفتهم بمعنى الكلام ، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم ، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح هو أفضل العبادات ، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال .

الخامسة عشرة : التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة .

السادسة عشرة : ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك .

السابعة عشرة : البيان العظيم في قوله : « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم » . فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين .

الثامنة عشرة : نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين .

التاسعة عشرة : التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم ، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ، ومضرة فقده .

العشرون : أن سبب فقد العلم موت العلماء) .

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟**

في ((الصحيح)) عن عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا ، وصوروا فيه تلك الصور ؛ أولئك شرار الخلق عند الله » .

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين :

١ . فتنة القبور.

٢ . وفتنة التماثيل) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده**) ؟

ذكر رحمه الله في هذه الترجمة الوسيلة وذكر الغاية :

- الوسيلة (**فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح**) ، دعا عند القبر ، صلى عند القبر ، تصدق عند القبر ، يعمل أي عمل عند هذا القبر تحريًا لهذا المكان.

- والغاية هي (**فكيف إذا عبده**) ، لا شك أنه إذا عبد القبر أو صاحب القبر أن هذا يعتبر شركًا بالله عز وجل ؛ لكن الأول وسيلة إليه .

فالأول محرم لأنه وسيلة إلى الشرك ، الشارع الحكيم حريصٌ على سد كل ذريعة تؤدي إلى الشرك بالله عز وجل ، ولهذا جاءت هذه النصوص التي فيها التغليظ فيمن عبد الله عند هذه القبور ، فكيف إذا عبده ؟

فإن الإنسان يذهب إلى المقابر أو إلى القبور وقد تكون زيارته شرعية إذا قصد الدعاء لهم وقصد الاتعاظ والاعتبار ، قال ﷺ : « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم الآخرة** » ، وإنما نهاهم أول الأمر عن زيارة القبور لأنهم كانوا حديثي عهد بالشرك ، وكانوا يعظمون المقبورين ، فأراد النبي ﷺ أن يقطع أي صلة لهم بالموتى من حيث التعلق بهم ، والاعتقاد فيهم ، فنهاهم عن زيارة القبور ، مع أن زيارة القبور فيها مصلحة ؛ لكن المفسدة كانت راجحة ، **والقاعدة** : أنه إذا رجحت المفسدة على المصلحة فإنه ينهى عن الشيء . ولهذا حرمت الخمر وإن كان فيها مصلحة قال تعالى ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ ؛ لكن حرمت لأن فيهما إثمًا كبيرًا ، فالإثم أكبر من المصلحة المرتبة عليها ، ولهذا حرمت . لكن لما فهم الصحابة التوحيد قطعت صلتهم بالشرك وبوسائله ، وقوي إيمانهم وتوحيدهم وثقتهم بالله عز وجل ، هنا رجحت المصلحة على المفسدة فأذن لهم في زيارة القبور .

إذًا هذه الزيارة الشرعية :

- أن يزور القبور للاتعاظ .
- أو يزورها للدعاء لها .

ولهذا كان يعلمهم النبي ﷺ إذا مروا على المقابر أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعضهم ، واغفر لنا ولهم . إلى آخر ما كانوا يقولونه عند زيارة القبور . **فالمقصود بالزيارة :** نفع الموتى ، وليس الانتفاع بالموتى كما عليه حال كثير من الجهال الذين يذهبون إلى القبور يلتمسون منهم شيئًا ولا قوة إلا بالله ، إذًا هذه الزيارة الشرعية .

الزيارة البدعية هي:

- أن يزور المقابر لا ليدعوا لهم فينتفع بدعوته ، وإنما ينتفع هو بزيارتهم لا في الاتعاظ والاعتبار ، ولكن مما يعتقدون في الموتى أنهم يشفعون عند الله عز وجل وما أشبه ذلك ، فيزورها قصد أن ينتفع هو بزيارتها .

والنبي ﷺ يقول : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث** » ، فالميت هو الذي يحتاج إلى الحي ، لا أن الحي هو الذي يحتاج الميت . النبي ﷺ وهو في مرضه الذي توفي فيه ذكرت له أم سلمة وأم حبيبة في بعض روايات الحديث في ((**الصحيح**)) كنيسة رأتاها بأرض الحبشة ؛ لأن أم سلمة ذهبت مع زوجها أبو سلمة في الهجرة إلى الحبشة وأم حبيبة أيضًا ، وذكروا من حسنها والتصاوير فيها ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **أولئك إذا مات فيهم العبد الصالح** » أو « **الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله** » .

(« **شرار الخلق عند الله** ») لأنهم كانوا إذا مات فيهم رجل صالح بنوا على قبره مسجدًا ، فوصفوا بهذا الوصف ، كما قال في الحديث الذي في آخر الباب : (« **إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد** ») ، فهؤلاء شرار الخلق عند الله عز وجل ، حتى ولو اعتقدوا أن عملهم هذا قربة يقربهم إلى الله عز وجل ، فهو في حقيقة الأمر يبعدهم عن الله عز وجل .

(**فهؤلاء**) وهذا من كلام شيخ الإسلام (**جمعوا بين الفتنتين : فتنة القبور**) إذ بنوا المساجد على القبور ، (**وفتنة التماثيل**) إذ صوروها ، كما فُعل في الصالحين الذين بعث نوح في القوم الذين غلوا فيهم ، وصوروا تماثيلهم .

قال رحمه الله : (**ولهما عنها قالت : لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا اغتم بها كشفها فقال – وهو كذلك – : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . يحذر ما صنعوا ، ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا . أخرجاه**) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (**لما نُزِل**) ، يعني نزل به الموت صلوات ربي وسلامه عليه .

(**طفق**) أي جعل (**يطرح خميصة له**) والخميصة كساء غليظ له أعلام ، يعني فيه خطوط .

(**فإذا اغتم بها**) الباء سببية ، يعني اغتم بسببها ، يعني أصابه الغم في النفس (**كشفها فقال – وهو كذلك – : « لعنة الله على اليهود والنصارى** ») (**لعنة الله**) يعني الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله عز وجل ، وسبب هذه اللعنة

لأنهم اتخذوا القبور مساجد ، ولهذا هذه الجملة تعتبر تعليلية (« **اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** ») .

تقول عائشة : (**يحذر ما صنعوا**) حتى لا يُعمل في قبره ما فعل بقبور الأنبياء قبله ، (**ولولا ذلك لأبرز قبره**) يعني لوضع قبره في البقيع مع أصحابه (**غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا**) خشي الصحابة لو أبرزوه أن يتخذ مسجد ، واتخاذه مسجدا إما :

١. البناء عليه .

٢. أو قصد الصلاة عنده ، فإن الصلاة في المكان اتخاذ له مسجدًا ، ولهذا قال ﷺ : « **وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل** » ، كل مكان تصلي فيه هو مسجد ، سواء بني أو لم يبنَ ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة في القبور ، في حديث أبي مرثد الغنوي في ((**مسلم**)) قال : « **لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها** » ، ورأى عمر أنس يصلي إلى جانب قبر ، فقال : القبر القبر ، والأثر في ((**البخاري**)) ، فالصلاة إليها اتخاذ لها مسجدًا حتى وإن لم يبنَ عليه مسجد .

هذا الحديث والحديث الذي قبله يدل على أن من كان قبلنا كانوا يتخذون القبور مساجد ، فهل كان مشروعًا لهم ؟ الجواب: لا والدليل أن النبي ﷺ لعنهم ، وقال : « **شرار الخلق** » ، فلو كان في شرع من قبلنا ما لعنوا ، وبهذا يرد على من يستدل بآية الكهف وهي من شبهاتهم . يعني من شبهات القبوريين الاستدلال بآية الكهف ، قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ تنازعوا واختلفوا ﴾

فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ يعني بعضهم قال : ابنوا بنيانًا وسدوا فيه هذا الغار حتى لا يخلص إليهم ، ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] . هم يدندنون حول هذه الآية ويستدلون بها ؛ لكن إذا تأملت الآية تجد أن هؤلاء الذين قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ قالوه بالغلبة وليس بمحض الاختيار ﴿ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ ﴾ ، كأن هناك من عارضهم وقال : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ﴾ ولا تتخذوا مسجدًا ، فقال هؤلاء وهم أهل غلبة والأمر والنهي : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ . فالآية بظاهرها لا تدل أبدًا على أن هذا كان في شرع من قبلنا ، وأيضًا حديث رسول الله ﷺ السالف ذكره حديث عائشة والحديث الذي قبله أيضًا يدل دلالة واضحة على أنه لم يكن في شرعهم .

ثم هب أن اتخاذ القبور مساجد كان في شرع من قبلنا ، وأنه كان يجوز في عقيدة اليهود والنصارى - على سبيل الفرض والتقدير - ، ثم جاءت هذه الأحاديث عن رسول الله ﷺ وهي أحاديث صحيحة مخرجة في ((**الصحيحين**)) هل نأخذ بشرع من قبلنا ؟

القاعدة : أن شرع من قبلنا إذا خالفه شرعنا لا نأخذ به ولا نقول به ، بل نأخذ بما ورد في شرعنا . وهذا أقول : على سبيل الفرض ، وإلا في الأحاديث وكذلك ظاهر الآية تدل على أن هذا لم يكن في شرع من قبلنا .

قال رحمه الله : (**ولمسلم عن جندب بن عبد الله قال : سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً**

لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك ») .

يقول جندب رضي الله عنه : (**سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس ، وهو يقول : « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل »**) والخليل هو من بلغ أعلى درجات المحبة ، الخلة هي أعلى درجات المحبة .

وقد تخللت مسلك الروح مني ** وبذا سمي الخليل خليلاً

وقد اتخذ ربنا عز وجل إبراهيم خليلاً ، قال تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٥] ، واتخذ محمد ﷺ خليلاً ، ولهذا قال عليه السلام : (**« إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل »**) . لماذا ؟ (**« فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً »**) ، وإذ اتخذه ربه خليلاً فلا يريد أن يكون في قلبه خلة لأحد إلا الله عز وجل . ثم أشار إلى أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه وهو أفضل الصحابة قال : « **ولو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكرٍ خليلاً** » .

وفيه : أن الخلة – كما ذكر – أعلى درجات المحبة .

فإن أبا بكر كان أحب الناس إلى رسول الله ﷺ ، ففي حديث عمر بن العاص قال : بعثني النبي ﷺ في سرية فأتيت إليه فقلت : من أحب الناس إليك ؟ قال : « **عائشة** » ، اللهم صلِّ عليه وسلم ، قال : قلت فمن الرجال ؟ قال : « **أبوها** » ، فأبو بكر كان أحب الناس إليه بهذا الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) ومع ذلك قال : « **لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً** » ، دليل على أنه لم يتخذه خليلاً ، وأن الخلة أعلى من المحبة .

ثم قال : « **ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد** » ، هذه زيادة في ((**مسلم**)) سقطت عن المؤلف رحمه الله . قال الشراح : لعله أخذ هذا الحديث من ((**اقتضاء الصراط المستقيم**)) لشيخ الإسلام رحمه الله فقد سقط فيه أيضًا . **المقصود :** أن ذكر الصالحين موجود في ((**مسلم**)) .

(**كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك**) ، يفهم النهي في هذا الحديث من ثلاث جهات :

- **الجهة الأولى :** قوله : (**« ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون »**) ، هل قاله النبي ﷺ على سبيل الذم .
- ثم بعد ذلك نهى عنه وقال : (**« ألا فلا تتخذوا القبور مساجد »**) .
- ثم قال بعد ذلك مؤكدًا : (**« فإني أنهاكم عن ذلك »**) ، والنهي يقتضي التحريم ، ولهذا ذهب إليه عامة أهل العلم وهو المنصوص عند أصحاب المذاهب المالكية والشافعية والحنابلة في كتب الفقه ، هي منصوص عندهم التحريم واتخاذ القبور مساجد ، فإنما وقع في هذا أهل البدع ولا قوة إلا بالله .

فهذه الأحاديث كلها تدل على تحريم اتخاذ القبور مساجد ، سواء بني المسجد على القبر ، أو دفن الميت في القبر ، فإن المساجد بيوت الله ، فليست مقابر يقبر فيها الناس ، الله تعالى يقول : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ [النور : ٣٦] . وقال : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

[التوبة : ١٨] . وقال : ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ﴾ هي بيوت الله ﴿ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٨] . وتعجب وتعجب وتعجب أنه يأتي أناس ويدفنون ميتًا لهم في بيت من بيوت الله عز وجل ، ضاقت الأرض حتى لا يوضع إلا في مسجد يقصده الناس لعبادة الله عز وجل ؟ ومن هنا تدرج الشيطان بالناس ، فدعوا الله عند القبور ، وصلوا عند القبور ، ثم آل الأمر بهم إلى تعظيم القبور ، وتعظيم من فيها ، حتى عظموها كتعيظم الله ؛ بل أشد ، ولهذا تطلب من أحدهم أن يحلف بالله فيحلف بالله كذبًا ولا يبالي ، ولو طُلب منه أن يحلف بصاحب البقعة أو التربة المقبور لم يحلف ، وهذا معروف يعرفه كل من خالطهم أن الأمر وصل بهم إلى تعظيم الأموات أكثر من تعظيم الله عز وجل . ثم بنوا عليها القباب ، وكسوها بأغلى الستور ، ووضعوا لها السدنة ، ووقفت عليها الوقوف ، ونذرت لها النذور ، ما فعلوه عندها ولا قوة إلا بالله إلا من المنكرات ما يندى له الجبين ، فَعُظِّمت المشاهد وعُطِّلت المساجد ، وصاروا بأعمالهم يسيئون إلى الميت الذي يزعمون محبته وتعظيمه . الميت يتوقع دعوة من حي ، أو عملاً يهديه إليه الحي ، وهؤلاء يستجدون ويستعطون الأموات ، ويزعمون أن الميت الذي انقطع عمله هو الذي ينفعهم ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رحمه الله نقلاً لكلام شيخ الإسلام أيضًا : (**فقد نهى عنه في آخر حياته ، ثم إنه لعن – وهو في السياق – من فعله**) .

(**نهى عنه في آخر حياته**) يشير إلى حديث جندب ، (**قبل أن يموت بخمس**) وحديث عائشة يعني قصة أم سلمة وأم حبيبة أيضًا.

(**ثم إنه لعن – وهو في السياق – من فعله**) يشير إلى حديث عائشة .

قال رحمه الله : (**والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبن مسجد**) .

يعني الصلاة عند هذه القبور (**من ذلك**) ، يعني من اتخاذها مسجد ، حتى وإن لم يبنَ مسجد .

قال : (**وهو معنى قولها : خشي أن يتخذ مسجدًا ، فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا**) .

ما كان الصحابة ليبنوا حول قبره مسجدًا :

- **أولاً :** لكونهم ولله الحمد على التوحيد النقي الصافي .
- **وأيضًا :** لأن قبره في غرفة عائشة ، وغرفة عائشة بجانب المسجد فلا يمكن أن يبنى مسجد آخر إلى جانب مسجده ﷺ .

وأيضًا السبب الأول هو الأهم لم يكونوا ليبنوا مسجدًا على قبره ﷺ .

قال رحمه الله : (**وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا ، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا ، كما قال ﷺ : « جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا »**) .

ما حكم الصلاة في المسجد الذي فيه قبر ؟

قد أفتى مشايخنا رحمهم الله الشيخ ابن باز وغيره بأن الصلاة فيه لا تصح ، والدليل نهيه ﷺ عن الصلاة في القبور حديث أبي مرقد ، قال : « **لا تجلس على القبور ، ولا تصلوا إليها** » ، والنهي هنا يعود إلى ذات المنهي عنه ، **والقاعدة** : أن النهي إذا عاد إلى ذات المنهي عنه فإنه يدل على البطلان ، فلا تصح الصلاة في المساجد التي فيها قبور ، **والواجب على المسلمين** : أن يتخلصوا من هذا المنكر .

فإن كان القبر قبل المسجد ، القبر موجود وبني عليه ، يزال المسجد هكذا قال أهل العلم ، وإن كان دفن في المسجد وجب أن يخرج من المسجد ويدفن مع المسلمين . الصحابة خيارهم عثمان رضي الله عنه وأمهات المؤمنين أين دفنوا ؟ في البقيع مع بقية الصحابة رضي الله عنهم . هل وضعت لهم أماكن خاصة ؟ هذا حرصًا منهم على صيانة عقيدة الناس وتوحيدهم ، وإبعادهم عن الشرك ، فإن الشيطان كما لا يخفى يستغوي الناس ويستدرجهم شيئًا فشيئًا ، فيوقعهم أول ما يوقعهم في البدع ، ولهذا مر علينا في الباب السابق أن البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ، لأن العاصي يتوب ، يعرف أنه عاص مقر ، لكن صاحب البدعة لا ما يعترف بأنه على بدعة ، يرى أنه على حق وأن غيره على باطل .

وفيه : فضل العلم وحاجة الناس إليه ، حاجة الأمة إليه .

والعلم قال الله وقال رسوله ** وقال الصحابة هم أولوا العرفان

العلم الذي يرجع فيه طالب العلم إلى الأصلين :

١. كتاب الله تعالى .

٢. وسنة رسوله ﷺ .

فإنه إذا قل العلم وكثر الجهل انتشرت البدع ، والخرافات التي لا يُسَلِّم بها من له عقل سليم ، فضلاً عمن له علم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله . ولهذا الآن يعني الحمد لله في العالم الإسلامي قل الإقبال على مثل هذه الأمور ، الناس تعلموا ، يعني في الماضي الناس كانوا عوام ، وكانوا يأخذون بقول من يدعوهم إلى مثل هذه الأمور . وهذه الأمور وراءها مصالح ، وفيها أموال ، ولها وقوف ، ولها نذور ، وصدق الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ

وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] . ما علاقتنا نحن بالأحبار والرهبان ؟ « **لتتعبن سنن من كان قبلكم** » ، فلا تكونوا مثلهم تأكلون أموال الناس وفي نفس الوقت عياذًا بالله يصدونهم عن سبيل الله .

قال رحمه الله : (**ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » . رواه أبو حاتم في ((صحيحه)))** .

هذا الحديث أصله في الصحيح عند ((**البخاري**)) « **إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء** » ، هؤلاء شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ، وأيضًا الذين يتخذون القبور مساجد .

هذه الجملة لها شاهد ، هو أنهم شرار الخلق ، أين الشاهد ؟ (**« أولئك شرار الخلق عند الله »**) ، فدل على أن هؤلاء الذين يتخذون القبور مساجد هم شرار الخلق عند الله عز وجل ؛ لأن عملهم هذا إما وسيلة إلى الشرك ، وإما شرك .

فإن كانوا يدعون الله عندها ويصلون لله عندها كان هذا وسيلة للشرك ، وإن آل الأمر بهم إلى دعائهم والاعتقاد بهم أنهم يفرجون الكربات ، ويقضون الحاجات ، ويتعلق الناس بهم في الملمات فإن هذا يُعتبر من الشرك الأكبر ولا قوة إلا بالله . والشارع الحكيم كما ذكر حريصٌ على سد الباب المفضي إلى الشرك بالله عز وجل .

الطالب: ما حكم من يأتي إلى القبر ويطلب من صاحب القبر أن يدعو له عند الله ؟

الشيخ: صاحب القبر لو دعا لنفع نفسه ، والنبي ﷺ يقول : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله** » ، وربنا يقول : ﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر : ١٤] . صاحب القبر لا يسمعه حتى ولو طلب منه أن يدعوا ، لا يجوز أن يطلب الدعاء من الميت بحال من الأحوال ، ثم ما الذي يحول بينه وبين ربه والله تعالى يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ؟

ثم يتدرج الشيطان بهم فأول الأمر يدعون عندها ، ثم يدعون الله بها توسلاً ، وكل هذه وسائل ، ثم يطلبون منهم الدعاء ، ثم ينتهي الأمر إلى دعائهم ، وهذه الأمور قد لا تحصل من الشيطان دفعة واحدة ، وإنما تحصل بالتدريج ، فالطوائف من الناس ربما يحصل منهم وسائل من الشرك عند هذه القبور .

ثم يأتي جيل ثاني بعدهم فيظن أنهم كانوا يقصدون هذه القبور لدعوتهم والتعلق بهم ، فيدعونهم ويتعلقون بهم من دون الله ، ويقعون في الأمر الخطير والشرك العظيم .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه على قبر رجل صالح ، ولو صحت نية الفاعل .

الثانية : النهي عن التماثيل ، وغلظ الأمر .

الثالثة : العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك ، كيف بين لهم هذا أولاً ، ثم قبل موته بخمس ، قال ما قال ، ثم لما كان في النزع لم يكتف بما تقدم) .

وهذا يدل على الاهتمام بالعقيدة والتوحيد ، وأن أهل العلم يجب عليهم أن يعتنوا بها دائمًا وأبدًا . النبي ﷺ أول ما بعث مكث عشر سنوات وهو يدعو إلى لا إله إلا الله ، ما أمر الناس بصلاة ولا صيام ، ما أمر بالأركان الكبار ، عشر سنوات وهو يدعو إلى توحيد الله عز وجل ، مكث في مكة ثلاثة عشر عاما ؛ لكن الصلاة فرضت في السنة العاشرة ، وبقي طيلة حياته وهو يدعو الناس إلى هذا الأمر ، ويحذرهم من المحدثات ومن البدع ، وفي خطبة الجمعة يقول عليه الصلاة والسلام في كل جمعة : « **فإن أحسن الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة** » . هو لا يتكلم بأمر إلا وهو يعلم أنه سيقع في الأمة ، وسيقع منه شر مستطير ، ثم في آخر حياته قبل أن يموت بخمس وهو يخطب قال هذا الكلام . ثم وهو على فراش المرض في حديث عائشة عن أم سلمة وأم حبيبة اهتم بهذا الأمر ، ثم وهو في السياق اهتم بهذا الأمر ، فدل على أهمية التوحيد والعقيدة ، خلاف من يدعي أن أمر التوحيد لا يدعى إليه خشية أن يفرق الناس ، الناس كذا وكذا يا سبحان الله ، التوحيد الذي يحصل به عمارة القلوب وصفاؤها ونقاؤها من البدع والمحدثات والاعتقادات الفاسدة يقال أنه يفرق الناس ، وبالتالي لا يدعى إليه هذا من الباطل .

فالمنبغي لكل داعٍ إلى الله أن يكون رأس دعوته الدعوة إلى (لا إله إلا الله) ، إلى تحقيقها ، إلى فهمها ، وإلى شهادة أن محمدًا رسول الله . ولهذا لما بعث معاذ إلى اليمن ماذا قال له ؟ مر بنا الحديث « **ليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** » . ماذا لو صلى الإنسان وصام وحج وعمل الأعمال الكبار

وعنده خلل في لا إله إلا الله ، هل ينفعه ذلك ؟ لا ما ينفعه ذلك ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام .

فالاهتمام بعقيدة الناس وتصحيحها وإبعادهم عن الشرك أمرٌ كبير ؛ لأنه إن لم يكن على التوحيد ما صح له عمل ؛ لأن الشرك كما هو متفق عليه يحبط جميع الأعمال .

(**الرابعة : نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر**) .

اللهم صل عليه وسلم « **لعنة الله** » ، يحذر أن يفعل بقبره ما فعل ، قبل وجود القبر .

(**الخامسة : أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم**) .

ولهذا لو سمعتم أحدًا يحتج بآية الكهف احتجوا عليه بهذا الحديث ، لم يكن في شرع من قبلنا أبدًا جواز هذا الصنيع ، ولم يكن الشرك ولا وسائله مباحةً في شريعة أيٍّ من الرسل ، فإن الرسل كلهم اتفقوا على شيء واحد ، وأصل واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله تعالى وتوحيده ، ولهذا قال عليه السلام في حديث يمكن مر بنا : « **نحن الأنبياء إخوة أولاد علات ، ديننا واحد وأمهاتنا شتى** » . النبي ﷺ يشبه الأنبياء بإخوة العلات ، وإخوة العلات هم الإخوة لأب ، أبوهم واحد وأمهاتهم شتى ، كذا الأنبياء دينهم واحد وهو دين الإسلام لا إله إلا الله ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

هذا الأمر اتفقوا عليه وما اختلفوا فيه أبدًا ، فكيف نقول : إن في من كان قبلنا يجوز أن يتخذوا القبور مساجد ، وتحمل الآية الكهف على هذا المعنى ؟

قال رحمه الله : (**السادسة : لعنه إياهم على ذلك .**

السابعة : أن مراده ﷺ تحذيرنا عن قبره .

الثامنة : العلة في عدم إبراز قبره .

التاسعة : معنى اتخاذها مسجدًا .

العاشرة : أنه قرن بين من اتخذها وبين من تقوم عليهم الساعة ، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته) .

الذريعة إلى الشرك هي اتخاذها مسجدًا .

(**الحادية عشرة : ذكره في خطبته قبل موته بخمس ، الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع ؛ بل أخرجهم بعض أهل السلف من الثنتين والسبعين فرقة ، وهم الرافضة والجهمية .**

وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور ، وهم أول من بنى عليها المساجد) .

انتشرت هذه الاعتقادات أيام الدولة العبيدية التي حكمت بلاد المسلمين أكثر من قرنين من الزمان ، حتى كدوا أن يطمسوا عقيدة المسلمين في كثير من الجهات ؛ لكن الله حمى المسلمين منهم ولكن بقيت آثار لا شك ، كل ما هو موجود من تعظيم القبور كله من آثارهم .

قال رحمه الله : (**الثانية عشرة : ما بُلِي به ﷺ من شدة النَّزع .**

الثالثة عشرة : ما أُكرم به من الخُلَّة .

الرابعة عشرة : التصريح بأنها أعلى من المحبة .

الخامسة عشرة : التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة .

السادسة عشرة : الإشارة إلى خلافته) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله**

روى مالك في ((الموطأ)) أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ») .

(**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد**) تلاحظون أن المؤلف رحمه الله يعيد ويبدئ في هذا الأمر ، الباب السابق كما مر بنا (**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده ؟**) ، وهنا قال : (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا**) ، وقبله قال : (**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**). سيذكر بعدها بعض الأبواب المتعلقة بهذا الأمر ، المؤلف رحمه الله أعاد وأبدأ في هذا الأمر ؛ لأنه من الأمور التي بليت بها الأمة ، وانتشرت القبور في كثير من البقاع من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، وتعلق الناس بالأموات ، وفعل عند القبور ما يفعل عند بيت الله العتيق ، وتقرب إليها بما يتقرب به إلى الله عز وجل ، عمت وطمت بها الفتنة ، وأصيب المسلمون فيها ببلاء عظيم لهذا أكد وكرر رحمه الله تعالى ، وأعاد وأبدأ في هذا الأمر حتى يكون المسلم على بصيرة من عقيدته ودينه .

قال : (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين**) ، الغلو معناه مجاوزة الحد فيما أذن فيه الشارع إفراطًا أو تفريطًا .

وهذا الغلو قد يكون وسيلة إلى الشرك وقد يكون شركًا ، ولهذا قال : (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا**) يعني في نهاية المطاف ينتهي الغلو بأصحابه إلى أن يجعلوها أوثانًا تُعبد من دون الله ، حتى ولو كانت قبور صالحين ولو قبور الأنبياء أيضًا ، لأن الوثن هو كل ما عُبد من دون الله عز وجل ، فإنه يسمى وثنًا ، سواء كان على صورة أو لم يكن على صورة بخلاف الصنم ، فإن الصنم خاصٌّ فيما نحت على هيئة الصورة .

فإذًا كل صنم وثن ، وليس كل وثنٍ صنمًا .

أراد المؤلف رحمه الله بهذه الترجمة أمور :

الأمر الأول : التحذير من الغلو في قبور الصالحين ، حتى قال علي رضي الله عنه لأبي هياج الأسدي : (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته) ، ومعنى مشرفا أي مرتفع ، يعني القبر مرفوع ، رُفِعَ القبر سوِّه واجعله على سنة ، والسنة أن يرفع القبر قدر الشبر فقط .

وفي حديث جابر المخرج في ((**مسلم**)) مر بنا أن النبي ﷺ نهى أن يجصص القبر وأن يقعد عليه ، وأن يبنى عليه ، وفي رواية عند أبي داود وغيره : وأن يكتب عليه ، وكانوا يجصصونه ، وكانوا يبنون عليها ، وكانوا يكتبون عليها المدائح ، فنهى النبي ﷺ عن ذلك .

فإذًا مراد المؤلف رحمه الله :

أولاً : التحذير من الغلو في قبور الصالحين .

الأمر الثاني : أن الغلو فيها يؤدي إلى أن تكون أوثانًا تعبد .

الأمر الثالث : أنها إذا عبدت فإنها تعتبر وثنًا .

الأمر الرابع : أراد رحمه الله بيان العلة التي من أجلها نهي عن الغلو في قبور الصالحين ، والعلة الغلو فيها يصيرها أوثانًا تُعبد .

ثم أورد هذا الأثر الذي رواه مالك رحمه في موطئه عن عطاء بن يسار وهو من ثقات التابعين رحمه الله وأخوه سليمان بن يسار أحد فقهاء المدينة السبعة :

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر ** روايتهم للعلم ليست بخارجة

فقل هم عبيد الله وعروة قاسم ** سعيد أبو بكر سليمان خارجة

هؤلاء فقهاء المدينة السبعة .

١. عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعتبة أخو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

٢. وعروة بن الزبير بن العوام .

٣. القاسم بن محمد بن أبي بكر .

٤. وسعيد بن المسيب .

٥. وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، مر بنا الحارث الذي كان النبي ﷺ يلعنه في ضمن الثلاثة ، والذين كانوا في غزوة أحد رؤوس المشركين ، ونزل عليه قوله : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] . أسلم الحارث وحسن إسلامه وجاهد ، وكان في ولده هذا العالم رحمه الله .

٦. وسليمان هو سليمان بن يسار وهو مولى ، هو وأخوه من موالي إحدى أم المؤمنين ميمونة .

هذا الإسلام والعلم أعلى ورفع من قدر أهله حتى وهم موالي ، مولى مملوك ، ثم يصبح أحد فقهاء المدينة السبعة رحمهم الله ورضي عنهم .

عكرمة مولى ابن عباس ، ونافع مولى ابن عمر ، وغيرهم كثير وكثير من الموالي ، يعني كانوا موالي يباعون ويشرون ، ثم يصبحون بعد ذلك أئمة ، نجوم في جبين هذه الأمة ، هذا الإسلام وهذا العلم ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

الأثر روي عن عطاء مرسلاً ، والشيخ سليمان رحمه الله في ((**التيسير**)) قال : رواه البزار عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد مرفوع إلى النبي ﷺ ، وورد أيضًا من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **اللهم لا تجعل قبري وثنًا ، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » .

قال ﷺ : (« **اللهم** ») أصلها يا الله ، حذفت الياء للتبرك بذكر اسم الله مباشرةً ، وجيء بالميم الدالة على الجمع ليدل الدعاء به على اجتماع القلب في دعوة العبد لربه سبحانه وبحمده ، فإن الدعاء يتأكد أن يكون صادرًا من القلب ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

(« **اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد** ») النبي ﷺ دعا ربه أن لا يكون قبره وثنًا كما فعل بقبور الأنبياء ، « **اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » ، النبي ﷺ دعا ربه أن لا يكون قبره وثنًا يعبد .

قال ابن القيم :

فأجاب رب العالمين دعاءه ** وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه ** في عزةٍ وحماية وصيان

يقول : أحاطه بثلاثة الجدران ، وذلك أنه ﷺ لما مات دفن في المكان الذي مات فيه كما روى عنه أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه لما اختلفوا ، فدفن بحجرة عائشة ، ثم دفن أبو بكر إلى الشمال منه ، ثم عمر كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم .

بقي القبر على هذا الحال إلى تقريبًا منتصف التسعينات سنة أربع وتسعين يبدو ، فاحتاجوا أن يسعوا المسجد فأخذوا الحجرات ، حجرات أمهات المؤمنين خلا هذه الحجرة التي فيها القبر ، ثم بنوا حول القبر جدارًا آخر غير جدار الحجرة ، ثم بعد أزمان بني جدار ثالث ، حتى اضطروا أن يأخذوا من الروضة الشريفة يأخذوا من الروضة شيئًا لأجل أن يبنوا فيه هذه الحيطان ، ثم أحيط الرابع بسور حديدي ، ثم جعلوا القبر من الناحية الشمالية على هيئة ماذا ؟ مثلث ، لم يجعلوه مربع ، لأنهم لو جعلوه مربعا ربما يأتي أناس فيصلون إليه ، والصلاة إليه اتخاذ له مسجد ، فجعلوه مثلثًا ، وإذا كان مثلثًا لا يمكن لأحد أن يصلي إليه من الجهة الشمالية ، لأن قبلة المدينة من جهة الجنوب ، فهم وضعوه مثلث من جهة الشمال لأن المصلي سيستقبل الجنوب يأتيه من الجهة الشمالية ويستقبل جهة الجنوب ، جعلوه مثلثًا حتى لا يمكنه أن يستقبل القبر .

ووضعوا هذه الحيطان حتى لا يكون في المسجد ، يعني حائط الغرفة ، ثم بعده حائط ، ثم بعد الحائط أيضًا حائط ، يعني الجدار الأخير الذي بعد الجدار ممر

بينه وبين الجدار الثاني ، ثم أيضًا الجدار الثاني بينه وبين القبر أيضًا مسافة ، وكل هذا حرص منهم أن لا يكون القبر داخل المسجد .

وكان مغلقا من الناحية الشرقية ، ثم في أزمنة سادت فيها البدع والخرافة فتح من الناحية الشرقية طريق ؛ لكن في زمن الدولة السعودية ولله الحمد يُغلق هذا الطريق ولا يصلى فيه ؛ كان الطريق فُتِح لمن يصلي يصلي ومن يطوف يطوف ولا قوة إلا بالله ، لكن لا يمكن ، يُغلق ويُمنع من الصلاة فيه حتى لا يكون مصلى ولا يكون مسجدًا أيضًا .

ثم قال : (« **اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** ») وكأنه يحذر أمته أنكم إن فعلتم ذلك فإن غضب الله شديد ، وقد اشتد على قوم فعلوا هذا الفعل بأنبيائهم .

والغضب من صفات الله عز وجل الفعلية. وطريق أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته .

وعند المؤولة: :

- عند المعتزلة يؤولون الغضب بالانتقام ، لأنهم ما يثبتون الإرادة .
- والأشعرية يقولون : إرادة الانتقام .

ولا شك أن الانتقام أو إرادته من آثار الغضب وليس هو الغضب ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ [الزخرف : ٥٥] ، معنى آسفونا يعني أغضبونا ، فجعل الانتقام أثرًا من آثار الغضب .

ويقال في هذه الصفة ما قاله مالك في الميزان ، ميزان أهل السنة في الصفات ما ورد عن مالك رحمه وقبله عن شيخه ربيعة: الاستواء غير مجهول ، والكيف

غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعًا فأمر به فأخرج من المسجد ، رحمه الله . كيف يجعلون الميزان للصفات ؟ كل صفة يقال فيها هذا :

الغضب غير مجهول ، معلوم المعنى في اللغة العربية ، والله تعالى خاطبنا بهذا القرآن بلسان عربي مبين ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال رحمه الله : (**ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ [النجم : ١٩] ، قال : كان يلت لهم السويق فمات ، فعكفوا على قبره**) .

(**ولابن جرير بسنده عن سفيان**) إذا أطلق سفيان يراد به سفيان بن عيينة .

(**عن منصور عن مجاهد**) ، مجاهد بن جبر الإمام المفسر الشهير تلميذ ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه .

في قوله تعالى : (**﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾ ، قال : كان**) رجلٌ (**يلت لهم السويق**) والسويق هو نوع من الطعام ، يؤخذ من دقيق البر والشعير يحمس ، يعني يحمس البر والشعير على النار ويدق ، ثم يلت معه شيء إما سمن ، وكان هذا الرجل يلت السويق . وسمي سويق يقولون لسهولة انسياقه في الحلق ، كان يلت السويق فيطعمه الحجاج إذًا هذا كان رجلاً صالحًا .

فلما مات ماذا فعلوا ؟ عكفوا على قبره ، عبدوه مع الله عز وجل ، حتى صار إلههم ، حتى إنهم رغبوا إلى النبي ﷺ بعد فتح الطائف أن يخلي بينهم وبين اللات لمدة سنة ، فأرسل إليه المغيرة وهو من ثقيف وأزاله .

إذًا سبب الوقوع في الشرك في اللات العكوف عند قبره وهو كما يقولون رجل صالح ، فدل على أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تُعبد ، وصار وثنًا .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] .

(**وكذا قال أبو الجوزاء**) رحمه الله ، أبو الجوزاء هذا تابعي كبير رحمه الله ، وهو أوس بن عبد الله بن خالد الربعي ثم الأسدي . وقيل : الربعي البارقي ثم الأسدي .

شهد مواقع المسلمين في الشام وهو شاب فتي ، ولاه أبو عبيدة إمرةً ولا يزال شابًّا أيضًا وصحب ابن عباس ، يقول : صحبت ابن عباس وعائشة ثنتي عشرة سنة أسألهم عن كتاب الله وعن كل آية من كتاب الله ، أو كلامًا نحو هذا ، ولهذا كثرت روايته عن الصحابة رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

(**وكذا قال أبو الجوزاء**) يعني قال هذا الكلام الذي قاله مجاهد في اللات . وما ذكر هو على قراءة التشديد ﴿ اللَّاتَّ ﴾ وهو اسم فاعل من لَتَّ ، وتقدم الآية قرئت بالتشديد ، وقرئت بالتخفيف وهي قراءة حفص ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴾

قال رحمه الله : (**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج ، رواه أهل السنن**) .

وهذا كما مر بنا من نهيه ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور ، في قوله : (**والمتخذين عليها المساجد**) ، واللعنة هنا وردت في حديث عائشة في ((**الصحيحين**)) .

ولعن هنا زائرات القبور ، يعني المرأة التي تزور القبر ، واختلف العلماء رحمهم الله تعالى في زيارة النساء للقبور ؟

فقيل : إن الزيارة مكروهة ، وهذا مشهور مذهب الإمام أحمد رحمه الله .

وقيل : بل هي محرمة ومن الكبائر ، والدليل هذا الحديث .

وقيل : بل هي جائزة .

والقول بتحريمها هو ظاهر السنة وظاهر هذا الحديث ، حديث ابن عباس ، وكذا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (لعن رسول الله زوَّارات القبور) .

القائلون بالكراهة يقولون : هذا كان في أول الأمر ثم نسخ ، ودليل النسخ « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها** » قالوا : نعم هذا كان في أول الأمر عندما نهى النبي ﷺ عن الزيارة نهى الرجال ولعن النساء أيضًا . ولكن القول بالنسخ لا يصار إليه إلا بشروط :

- وأهم هذه الشروط وأولها هو تعذر الجمع بين الدليلين ، فإن أمكن الجمع فلا نسخ.
- وأما شرط معرفة التاريخ فالحديث « **كنت نهيتكم** » يدل على أن الإذن متأخر ؛ لكن ما يصار إلى النسخ إلا إذا تعذر الجمع ، فالجمع أولى من النسخ ، لأن في الجمع إعمال الدليلين ، أما النسخ فليس فيه إلا العمل بالنسخ وتعطيل المنسوخ وإذا أمكن إعمال الدليلين لا شك أنه أولى .

فكيف يجمع بين الحديثين « **كنتم نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها** » ، جميعًا الرجال والنساء ، ثم يأتي حديث (**لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور**) ، كيف نجمع بينهما ؟

نقول : هذا الحديث عام « **فزوروها** » يشمل الرجال والنساء بناء على دخول النساء في خطاب الرجال كما هو مشهور ، وحديث لعنه ﷺ زائرات القبور خاص ، والقاعدة في العام والخاص إذا اختلفا يقدم الخاص فيخص به العام ، فنقول : قول النبي ﷺ : « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها** » إلا النساء ، فلا تجوز زيارتهن .

ثم القول بالنسخ إذا قيل بنسخ الحديث كله يلزمه نسخ الحديث بأكمله ، حتى قوله : (**والمتخذين عليها المساجد**) ، وهذا ما قال به أحدٌ .

وعلى كل حال القائلين بالكراهة أو القائلين بالجواز لهم أدلة أخر أيضًا تبحث في الفقه ؛ لكن ظاهر هذا الحديث حديث ابن عباس وكذا حديث أبي هريرة أن هذا الفعل محرم ، وأنه من كبائر الذنوب ، وأنه لا يجوز للمرأة أن تزور .

وفي حديث أم عطية المخرج في ((**الصحيحين**)) قالت : (نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا) ، (نهينا) والقاعدة عند أهل العلم في قول الصحابي : أمرنا ، أو نهينا ، أن الآمر والناهي هو رسول الله ﷺ لا غير ، هو الذي يأمر وينهى ، فقد نهاهن عن اتباع الجنائز . أما قضية العزم أو عدم العزم ، يعني فهمت أنه لم يعزم فهذا رأيها رضي الله عنها وأرضاها .

والمقصود : أن النبي ﷺ نهى النساء عن زيارة القبور ، والحكمة واضحة جدًّا في نهي النساء عن اتباع الجنائز ، وعن زيارة القبور ، وهي أن المرأة ما تتحمل ، ولهذا وردت النصوص في النهي عن النوح وتحريمه ، ولم يكن يعرف النوح إلا في النساء ، ما كان الرجال يعرف عنهم النوح . وقال : النائحة إذا لم

تتب ، النائحة ، فالمرأة عاطفية وتتأثر كثيرًا إذا فقدت أحدًا من أحبتها ، فلو زارت القبور أو تبعت الجنائز ربما يحصل منها وعليها أيضًا أشياء لا تحمد ولا ينبغي ، فلهذا نهينا عن اتباع الجنائز ونهينا عن زيارة القبور .

أورد الشيخ سليمان كلامًا عن مسألة وهي تتبع آثار الصالحين ، يتتبعون آثار الصالحين ، هذا مكان صلى فيه فلان ، هذا مكان جلس فيه فلان إلى آخره ، ثم يعظمون هذه الأمكنة . ذكر عن شيخ الإسلام قال رحمه الله : من قصد شيئًا يطلب به الخير ولم يستحبه الشرع فإنه منكر ، سواء كان صلاةً أو قراءةً أو دعاءً ، يعني كونهم يجعلون منطقة معينة يقولون : هذه منطقة يستجاب فيها الدعاء . أو يقرؤون فيها ، أو يصلون فيها ، يخصونها بشيء من العبادة ، ولم يرد في الشرع ما يدل على استحباب ذلك ، وهذه بضاعة لأهل الخرافات ، يستدرّون بها أموال الناس ، هذا كذا وهذا كذا وهذا مكان بركة فيه الناقة ، وهذا مكان حصل فيه كذا ، ثم يذهبون بالناس يزوِّرنهم أماكن فيها من البدع وفيها من المخالفات الشيء الكثير ، شيء لم يرد في الشرع اعتباره لا يحتاج إليه ، بل ينهى عنه .

وذكر رحمه الله عن المعرور بن سويد قال : (كنت مع عمر في طريق الحج فنزلوا منزلاً ، فصلى بهم عمر الفجر وقرأ ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ [الفيل : ١] ، و﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴾ [قريش : ١] قال : ورأى الناس يذهبون مذاهب قال : أين يذهب هؤلاء ؟ قالوا : مكان صلى فيه النبي ﷺ . قال : إنما هلكت الأمم قبلكم بهذا ، يتتبعون آثار أنبيائهم فيبنون عليها الكنائس ، فمن أدركته الصلاة فليصلي ، وإلا فليمضي ولا يتعمدها) إذا مر عابرًا يصلي ؛

لكن أن يقصد هذا المكان قصدًا ويصلي فيه نهى عنه عمر رضي الله عنه وأرضاه .

قال رحمه الله : (**وفيه مسائل :**

الأولى : تفسير الأوثان .

الثانية : تفسير العبادة) .

تفسير العبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة .

وهذا من حيث المتعبد فيه ؛ لكن من حيث التعبد هي التذلل لله تعالى محبةً وتعظيما ، قال ابن القيم رحمه الله:

وعبادة الرحمن غاية حبه ** مع ذلك عابده هما قطبان

قال رحمه الله : (**الثالثة : أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه .**

الرابعة : قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد .

الخامسة : ذكر شدة الغضب من الله .

السادسة : وهي من أهمها معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان) .

لماذا الشيخ اعتبرها من أهمها ؟

لأن هذا الواقع ، يعني تعظيم القبور تعظيمًا وصل إلى ولا قوة إلا بالله لا يفعله المشركون عند اللات ، كل ما يفعل يفعل عند كثير من القبور ، فالمسألة غاية في الأهمية . الصنعاني رحمه الله في قصيدته كما مر بنا قال :

أعادوا بها معنى سواع ومثله ** يعوق ليس ذاك من ود

وكم عقروا في سوحها من عقيرة ** أهلت لغير الله جهلاً من عمد

وكم هتفوا من الشدائد باسمها ** كما يهتف المضطر بالصمد الفرد

يعني كما يعبد الله عز وجل يفعل عند هذه القبور ، بل ربما فعل عندها شيء تُعَظّم فيه أكثر من تعظيم الله عز وجل ، يحلف بالله كاذبا ولا يبالي ، ولا يمكن أن يحلف بهذا المعظم عنده وهو كاذب ، لا يمكن وهذا متواتر ما يخفى ، مستفيض معروف .

قال رحمه الله : (**السابعة : معرفة أنه قبر رجل صالح .**

الثامنة : أنه اسم صاحب القبر ، وذكر معنى التسمية .

التاسعة : لعنه زوارات القبور .

العاشرة : لعنه من أسرجها) .

الإسراج الإنارة ، هذه الزيادة في الحديث كأن بعضهم يضعفها ؛ ولكن لا شك أن إنارة المقابر وإسراجها من باب المبالغة فيها ، وكلها من الأمور التي يخشى على أصحابها من الغلو فيها .

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا ولجميع المسلمين .

قال المؤلف رحمه الله : (**باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد ، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك**) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد**) .

سيأتينا إن شاء الله في آخر الكتاب (**باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد**) ، فهل هو تكرار ؟ الجواب: لا ، ليس بتكرار .

وفرق بين الجانب والحمى :

- فجانب الشيء جزؤه المتصل به .
- وأما حمى التوحيد فالحمى شيء زائد عن جناب الشيء ، أو عن جانب الشيء .

فأيهما إذًا أبلغ حماية حمى التوحيد أو حماية جنابه ؟

الجواب: حماية الحمى أبلغ بلا شك ، لأن حماية الجناب يعني حماية التوحيد حماية جزئه وحماية جانبه ؛ لكن هناك حماية حمى وهي حماية لجنابه ، وحماية لما زاد عن جنابه وهو حماه المحيط به ، فهذا فرق .

إذًا الباب الذي سيأتي أبلغ من هذا .

وأيضًا هذا الباب في الوسائل الفعلية ، والباب الذي سيأتينا في الوسائل القولية ، في حديث عبد الله بن الشخير والد مطرِّف رضي الله عن عبد الله وعن مطرِّف بن عبد الله من كبار التابعين ، ولده مطرف .

قال : قدمت في وفد بن عامر إلى النبي ﷺ ، فقلنا : أنت سيدنا . فقال : « **السيد الله** » ، قلنا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً ، قال : « **قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان** » .

إذًا ما ذكر في الباب الأخير هو من الأقوال ، يعني الوسائل القولية ، أما هنا فما ذكر هو الوسائل الفعلية .

إذًا هنا فرقان بين البابين هما :

الفرق الأول : أن الباب الأخير حمى التوحيد أبلغ من هذا الباب ، لا شك أن حماية الحمى أبلغ من حماية الجناب فقط .

الثاني : أن الباب الأخير في الوسائل القولية ، وهذا الباب في الوسائل الفعلية .

(وقول الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨]) .

هذه منة من الله عز وجل أن جاء هذا الرسول من أنفسنا ، وهل الخطاب هنا للعرب - فإن المنة عليهم لا شك كبيرة ، كونه منهم - أم الخطاب لعموم المؤمنين ؟

قولان لأهل العلم ، واستظهر بعض أهل العلم أن الخطاب لعموم المؤمنين ، لقوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] ، وهذا يشمل العرب وغير العرب ، فيكون معنى قوله :

﴿ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ، يعني منهم ومن جنسهم لا من الملائكة ولا من الجن ولا من غيرهم .

وعلى القول الأول : (﴿ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾) ، الخطاب فيه للعرب .

لكن الذي يظهر القول الأول بدليل قوله لما كان الخطاب موجهًا للعرب ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة : ٢] ﴿ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ ، والأميون هم العرب ، ومحمد ﷺ منهم ، فالآيات فيها إظهار المنة عليهم أن كان منهم وبلغتهم ؛ لكن ظاهر هذه الآية العموم ، عموم المؤمنين .

(﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾) ما معنى قوله : (﴿ عَنِتُّمْ ﴾) ؟ يعني ما يكون فيه عنت وضيق ومشقة عليكم ، فإنه عز عليه ﷺ أيُّ شيء فيه مشقة على أمته .

(﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾) حريص غاية الحرص ، (﴿ عَلَيْكُمْ ﴾) على هدايتكم وثباتكم على دينكم ، (﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾) فوصفه الله تعالى بهذه الأوصاف .

أولاً : أنه يعز عليه ويشق أي شيء يكون فيه عنت وضيق ومشقة على الناس .

الأمر الثاني : أنه حريص عليكم ولم يذكر المتعلَّق أو المتعلِّق يدل على عموم حرصه على كل شيء عليه الصلاة والسلام .

الثالث : أنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، والرأفة أشد الرحمة .

ولهذا ما ترك شيئًا إلا بينه ، ولا طريقًا يوصل إلى الخير إلا وضحه ، ودل الناس عليه ، قال أبو ذر : لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه إلا ذكر لنا منه علمًا .

وقال ﷺ في الحديث المخرج في ((مسلم)) : « **ما بعث الله من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم** » .

أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

مناسبة الآية للباب :

الباب في حماية المصطفى جناب التوحيد ، والآية في بيان حرصه وشفقته ﷺ على أمته ، فإذا كان ﷺ بهذه المثابة كما وصفه ربه رؤوف رحيم بالمؤمنين حريص عليهم ، عزيز عليهم لا يكلفهم ولا يشق عليهم ، وأعظم أمرٍ يعتنى به هو توحيد الله عز وجل ، ولهذا حرص ﷺ على حماية هذا التوحيد ، وسد كل طريقٍ يفضي إلى الشرك ، حتى وهو في السكرات كما مر بنا في حديث عائشة ، لم يشغله الموت أن يحذر أمته على شرٍّ يخشاه عليهم ، فقال وهو كذلك كما تقول عائشة : لما نُزِل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصه على وجهه فإذا اغتم بها كشفها وقال وهو كذلك : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » ، الحديث ، فدل على حرصه ﷺ . ولهذا الأبواب المتقدمة (**باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين**) ، (**باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح ، فكيف إذا عبده**) ؟ (**باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا**) كل هذه الأبواب هي داخلة في حمايته ﷺ جناب التوحيد ، لكن المؤلف عقد هذا الباب الخاص ليدل على حرصه صلوات الله وسلامه عليه على هذا الأمر كون هذا الأمر عظيم ، فإن الخلل في التوحيد خطير ، ولهذا تعلمون أن الشرك أكبر الكبائر ؛ لأن الشرك يفسد القلب فيفسد القصد فيفسد النية ، ثم يفسد العمل كله . ولهذا من

الأمور المقررة أنه لا يصح للمشرك عملٌ كما دل عليه كتاب ربنا ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] ، ولهذا أهل مكة عندما تستعرض أعمالهم تجد عندهم أعمال من الخير كثيرة ، هم يحجون ، ويعتمرون ، ويطعمون الحجاج ، ويصومون ، ويعتقون ، ويتنافسون في هذه الأعمال ، بل وحتى يعتكفون والدليل حديث عمر لما سأل النبي ﷺ إني نذرت أن أعتكف يا رسول الله ليلة في المسجد الحرام ؟ قال : « **أوف بنذرك** » نذر في الجاهلية ، فعندهم اعتكاف ، ومع ذلك أعمالهم باطلة ، بسبب الشرك ، الشرك أتى عليها جميعها فأبطلها ، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] .

ولهذا عني النبي ﷺ بهذا الأمر ، حرص عليه غاية الحرص ، حتى فيما يتعلق بشخصه صلوات ربي وسلامه عليه :

- « **اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » خشية أن يتخذوا قبره مسجدًا .
- « **لا تتخذوا قبري عيدًا** » كما سيأتينا .

كل ذلك حرصٌ على توحيد الناس وعقيدتهم وإبعادهم عن كل وسيلة تؤدي إلى الشرك فضلاً عن الوقوع في الشرك ذاته .

(﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ [التوبة : ١٢٨ ، ١٢٩]) .

(﴿ **فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ** ﴾) النبي ﷺ مأمور بالدعوة ، فإن حصل منهم قبول وإقبال فهذا المطلوب ، وإن حصل منهم تولٍّ وإعراض فقد أدى ما عليه ،

ولهذا يقول الله له في غير ما آية ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى : ٤٨] ، وهذا طريق كل داعٍ إلى الله عز وجل أن مهمته تبليغ الناس ودعوتهم ، والحرص غاية الحرص على هدايتهم ، فإن استجابوا فذاك ، وإن لم يستجيبوا فقد أدى ما عليه ، وأما القلوب فلا يهديها إلا من هي بين أصبعين من أصابعه سبحانه وبحمده ، لا مجال للداعي إلى الله وحتى الأنبياء لا مجال لهم للوصول إلى قلوب الناس ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص : ٥٦] .

(﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾) أي الله تعالى كافيني .

(﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾) لا معبود حقٌّ سواه سبحانه وبحمده .

(﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾) **والتوكل هو** : الاعتماد على الله عز وجل في جلب نفع أو دفع ضر مع الثقة به وفعل الأسباب .

(﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾) سبحانه وبحمده ، والعرش أعظم المخلوقات ، ووصف بأنه عظيم وهو مخلوق دل على عظمه وهو مخلوق فكيف بخالقه سبحانه وبحمده .

(**عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » . رواه أبو داود بإسناد حسن ، رواته ثقات**) .

قال : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « **لا تتخذوا بيوتكم قبورًا** » ، ما معنى « **لا تتخذوا بيوتكم قبورًا** » ، هل كانوا يدفنون الموتى في بيوتهم ؟ أبدًا ما كان أحد يدفن ميتًا في بيته ، إلا ما حصل لرسول الله ﷺ وهذا

من خصائصه عليه الصلاة والسلام ، فمعنى قوله : « **لا تتخذوا بيوتكم قبورًا** » ، أي لا تتركوها مهجورة عن العبادة ، لا تجعلوها كالمقابر التي لا يصلى فيها ، ولا يقرأ فيها قرآن ، بل اجعلوا من قراءتكم في بيوتكم ، فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ، « **اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا** » كما قال ﷺ . ولهذا الأفضل في النوافل كلها أن تصلى في البيت ، حتى الرواتب ، ابن عمر يقول: حفظت من رسول الله عشر ركعات ، ركعتين بعد الظهر في بيته ، وركعتين بعد المغرب في بيته ، وركعتين بعد العشاء في بيته ، وقبل الظهر أيضًا ، وركعتين قبل الفجر ، حدثتني حفصة أنه كان ﷺ إذا طلع الفجر صلى ركعتين ، وكانت ساعة لا أدخل فيها على النبي ﷺ ، وركعتين بعد الجمعة في بيته عليه الصلاة والسلام . وقال ﷺ وقد اتخذ حجرة مخصفة فرآه الناس ، وتتبعوا يصلون ورائه ، فقال لهم ﷺ : « **رأيت الذي صنعتم ، وأفضل صلاة الرجل في بيته إلا المكتوبة** » ، حتى وأنت في المدينة وفي مكة الأفضل أن تصلي الرواتب في البيت ، فإن قال قائل: سأصلي نوافلي والرواتب كلها في المسجد ، لأن النبي ﷺ قال: « **صلاة في مسجدي هذا تعدل ألف صلاة** » ، فيقال له: النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو في المدينة: « **أفضل صلاة الرجل في بيته إلا المكتوبة** » ، فصلاة النوافل في البيت حتى في مكة وفي المدينة لا شك أفضل ، إلا ما له تعلق في المسجد كتحية المسجد مثلاً ، فلا تكون إلا في المسجد وإلا الفرائض بلا شك .

(« **لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ، ولا تجعلوا قبري عيدًا** ») العيد هو اسم لما يعود من الاجتماع على وجه معتاد ، عائدًا بعود السنة ، أو الشهر ، أو الأسبوع ، ولهذا الجمعة عيد الأسبوع .

نهى النبي ﷺ أن يتخذ قبره عيدًا بحيث يجتمعون عنده اجتماعًا خاصًّا يتكرر ويعود ، وكل هذا خوفًا من الغلو به صلوات ربي وسلامه عليه ، ومع ذلك وقع الناس في كثير من صور من الغلو فيه عليه الصلاة والسلام ، وأشير إلى هذا في مناسبات ، ودعوه واستغاثوا به ، واستجاروا به صلوات ربي وسلامه عليه ، يقول بعضهم :

ما سامني الدهر يومًا ضيمًا فاستجرت به ** إلا ونلت جوارًا منه لم يضم

ولا التمست غنى الدارين من يده ** إلا استلمت الندى من خير مستلم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ** ومن علومك علم اللوح والقلم

ماذا بقي لله عز وجل ؟ خشي النبي ﷺ من مثل هذا ، ولهذا بالغ في التحذير ، من الأسباب المفضية إلى مثل هذه الأمور :

- فنهى أن يتخذ قبره عيدًا ، يأتون إليه ويجتمعون عليه على وجه معتاد يتكرر .
- ولهذا نهي عن شد الرحل لزيارة قبره ﷺ ، قال ﷺ : « **لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى** » ، هذه المساجد التي تشد الرحال إليها ، وهذه المواقع التي تشد الرحال إليها ـ وما عداها لا يجوز شد الرحل إلى غيرها لا من مسجد ولا غيره ،

والقبور بطريق أولى ، لأنه إذا كانت الرحال لا تشد للمساجد إلا هذه الثلاثة فالقبور بطريق أولى .

واختلف العلماء في السفر لزيارة قبر النبي ﷺ على قولين :

- فمنهم من أجازها كالغزالي من الشافعية ، وأبي محمد الموفق المقدسي من الحنابلة .
- والجمهور على المنع من ذلك ، وهو قول ابن عقيل وابن بطة من الحنابلة ، وأبي محمد الجويني من الشافعي ، والقاضي عياض رحمهم الله تعالى أجمعين .

إذا أراد الإنسان أن يزور قبر النبي ﷺ يذهب إلى المدينة بنية شد الرحل إلى المسجد ، ثم إذا وصل يزور قبر النبي ﷺ ، يزور قبور الشهداء ، يزور البقيع ، يزور ما شاء من القبور .

والأقسام ثلاثة :

أفضلها : أن ينوي زيارة المسجد وما عداه يأتي تبعًا ، لا ينويه .

الثاني : أن ينوي زيارة القبر ، وهذا الذي منعه الجمهور .

الثالث : أن ينوي الأمرين جميعًا ، ينوي زيارة المسجد والصلاة فيه ، وينوي زيارة القبر أيضًا ، رخص بهذا بعض أهل العلم من باب أن زيارة القبر تبع . **والقاعدة :** يثبت تبعًا ما لا يثبت استقلالاً ، فلا يستقل بشد الرحل لزيارة القبر ؛ لكن إذا كان تبع قالوا : فلا بأس في هذا .

وعندما يأتي الإنسان إلى مدينة رسول الله ﷺ يسلم على النبي ﷺ ، ثم على أبي بكر ، ثم على عمر ، وكان ابن عمر إذا قدم من سفر جاء إلى القبر فقال :

السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبتاه . ومضى . ولم يكونوا يكررون الزيارة وهم في المدينة ، ما كانوا يكثرون من ذلك ، وقد نهى مالك رحمه الله أهل المدينة أن الواحد منهم كلما دخل المسجد جاء يسلم ، وقال : لم يكن الصحابة يفعلون ذلك ، ولن يُصْلِح – هذه كلمة مشهودة كبيرة – ؟ ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح عليه أولها ، ما صلح عليه الخيرة من هذه الأمة ، من اختارهم الله عز وجل ، الصحابة والتابعون ، وتابعهم بإحسان رحمهم الله تعالى ورضي عنهم .

(**وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو ، فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ قال : « لا تتخذوا قبري عيدًا ، ولا بيوتكم قبورًا ، وصلوا علي فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم » . رواه في ((المختارة))**) .

حديث علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه وعن أبيه وعن جده ، وهذا الحديث يقول العلماء : مسلسل بآل البيت ، يعني رواته كلهم من آل بيت رسول الله ﷺ ، علي بن الحسين عن أبيه الحسين عن جده ابن أبي طالب رضي الله عنه .

رأى زين العابدين رجلاً يأتي إلى فرجة فيدخل فيها فيدعو فنهاه ، وقال : ألا أحدثكم حديثًا حدثنيه أبي عن جدي عن النبي ﷺ ، وذكر مثل حديث أبي هريرة السابق « **لا تتخذوا بيوتكم قبورًا ، ولا تتخذوا قبري عيدًا** » .

وفيه : أن قصد القبر للدعاء من اتخاذه عيد .

والإنسان لا يقصد القبر للدعاء ، وإنما يقصده للزيارة والسلام على النبي ﷺ ، أما أن يذهب للقبر لأجل الدعاء وربما يستقبل القبر وهو يدعو لا يستقبل القبلة ، فلا ينبغي هذا ، بل عدوا هذا من اتخاذه عيدًا كما ذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

قال : « **وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم** » ربما يكون الدافع للإنسان أن يذهب إلى قبر النبي ﷺ ويكرر الذهاب إليه للصلاة عليه ، فأرشد ﷺ أن صلاتكم تبلغني حيث كنتم ، في أي مكان كنتم .

وفي حديث ابن مسعود المخرج عند ((**النسائي**)) وغيره أن النبي ﷺ قال : « **إن لله تعالى ملائكة سياحين يبلغوني السلام عن أمتي** » ، فإذا صلى الإنسان على النبي ﷺ فإن صلاته تبلغه سواء كان عند قبره أو كان بعيدًا عن قبره .

قال : (**رواه في ((المختارة))**) و((**المختارة**)) كتاب معروف للضياء المقدسي رحمه الله تعالى ، والحديث عند ابن أبي شيبة ، وصححه أهل العلم رحمهم الله تعالى ، ويشهد له حديث أبي هريرة السابق ، قال في حديث أبي هريرة : (**رواه أبو داود بإسناد حسن ، رواته ثقات**) قال : (**بإسناد حسن**) ثم قال : (**رواته ثقات**) معروف أن توثيق الراوي يكون بأمرين :

١. بالعدالة .

٢. وبالضبط .

كونه عدلاً وكونه ضابطًا أيضًا ، ومثل هذا قد يكون صحيحا وليس حسنًا فقط ؛ لكن مراد الشيخ رحمه الله بقوله : (**رواته ثقات**) يعني مطلق الثقة ، وليس الثقة المطلقة الكاملة التامة ، ولهذا قَصُرَ الحديث عن درجة الصحيح إلى

الحسن ، وقد حسنه شيخ الإسلام ، وحسنه ابن حجر ، وصححه الألباني رحمه الله ورحمهم الله تعالى جميعًا .

المقصود : أن الحديثين يدلان على أنه لا يجوز أن يتخذ قبر النبي ﷺ عيدًا ، بحيث يأتي الناس إليه في أوقات معينة ويجتمعون عنده على وجه معتاد ، وإنما المقصود السلام عليه صلوات ربي وسلامه عليه ، وقد قال عليه السلام : « **ما منكم من أحد يسلم علي إلا رد الله إلي روحي فأرد عليه** » .

(**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية براءة .

الثانية : إبعاده أُمَّتَهُ عن الحمى غاية البعد .

الثالثة : ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته .

الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص) .

(**نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص**) ما هو هذا الوجه المخصوص ؟ أن يتخذ عيدا ، وأما مجرد زيارة القبر لا بأس بها ، بل زيارة القبور عمومًا دون شد رحل سنة ، وفي الحديث « **كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكركم بالآخرة** » .

الطالب: هل ينبغي الإكثار من زيارة قبر النبي ﷺ ؟

الشيخ: الإكثار من زيارة قبر النبي ﷺ ما كان الصحابة يفعلون هذا أبدًا .

الطالب: بعضهم يقيسها على تكرار العمرة ؟

الشيخ: العمرة على كل حال العلماء أيضًا لا يرون التكرار ، الإمام أحمد يقول : إذا حمم رأسه يعتمر .

الطالب: أقصد تكرار العمرة لمن هو في مكة بعد أن ينتهي من عمرته ؟

الشيخ : لم يكن يعهد هذا ؛ لكن يستدلون بحديث عائشة لما قالت : ترجعون بحج وعمرة وأرجع بحج . وهي حجت قارنة ، يعني كانت حاجة ومعتمرة ؛ لكن النبي ﷺ أمرها تطيبًا لخاطرها وإلا فهي معتمرة وحجها مثل حجه ، هو قارن وهي قارنة ، وهؤلاء الذين يأتون من أمكنة بعيدة وربما لا يأتي مرة ثانية يكون فيهم شوق لا شك إلى البيت العتيق ؛ لكن ما ينبغي التكرار ، بل يكثر من الطواف .

(**الرابعة : نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص ، مع أن زيارته من أفضل الأعمال**) .

لا شك زيارة النبي ﷺ من أفضل الأعمال ، إذا كانت زيارته هذه سنة فزيارته من أفضل القربات .

لكن ينهى عنه على وجه مخصوص إما بشد رحل ، وإما باجتماع ويكون كالعيد ، والحمد لله نحن في بلاد التوحيد وإلا أيام الخرفات كل شيء يفعل ، والله المستعان ؛ لكن الله حمى قبره ﷺ عن المحدثات وعن البدع .

وإذا كان كثير من الناس في كثير من بلاد المسلمين يعملون أفعالاً عند قبور ، بعضها موهومة لا حقيقة لها ، يعني مثلاً قبر الحسين رضي الله عن الحسين كم له من قبر ؟ عدة قبور ، له عدة قبور لشخص واحد ، هذا يقول : رأسه هنا . وهذا يقول كذا وهذا يقول كذا ، واتخذت هذه القبور تجارة ولا قوة إلا بالله ، تؤكل بها أموال الناس بالباطل .

يذكر لي أحد الإخوة قال : أتينا لمكان في إحدى البلاد ورأيت الناس يصعدون إلى مكان في منطقة شبه جبلية ، قال : فذهبت ودخلت فإذا فيها قبر ، قلت : هذا القبر لمن ؟ قال : لجعفر بن أبي طالب . فقلت : ما عهد أن جعفر جاء إلى هذا المكان ، جعفر رضي الله عنه قتل في مؤتة شهيدًا ، قال : نعم صحيح . انظر كيف الخرافات تنتشر بين الناس ، إذا فتح هذا الباب ما ينغلق ، وتتلاعب الشياطين بهم في أحلام ليست رؤى ، ومنامات قال : كان أحد الصالحين نائم تحت سفحة الجبل ، فسطع فيه نور ، فقيل لهم : ابنوا قبرًا لجعفر في هذا المكان . يقول لي الشخص : فمرت الأيام وكنت أقرأ في كتاب فوجدت هذه العقيدة عند النصارى ، أنهم إذا رأوا نورًا في مكان بنوا فيه أو وضعوا فيه قبرا ، اللهم صلِّ عليه وسلم تسليمًا كثيرًا (لعنة الله على اليهود والنصارى) ، إنما لعنهم لأنهم يفعلون هذه الأعمال فخشي على هذه الأمة أن تتشبه بهم ، وتأخذ بأعمالهم .

(**الخامسة : نهيه عن الإكثار من الزيارة**) .

(**نهيه عن الإكثار من الزيارة**) ، اتخاذه عيد ، الإكثار من الزيارة كالعيد ، كونه يأتي كل يوم كل يوم كل يوم ، كلما دخل المسجد أيضًا جاء يسلم على النبي ﷺ ، فهذا داخل تحت اتخاذه عيدًا .

(**السادسة : حثه على النافلة في البيت**) .

(**حثه على النافلة في البيت**) ينبغي أن يكون شيء من عباداتنا في بيوتنا :

أولاً : لعمارة البيوت بطاعة الله عز وجل ، لا تكن البيوت قبورا كما قال عليه الصلاة والسلام .

ثانيًا : أهل البيت من نساء وأطفال يرون أباهم يصلي ، ويقرأ من كتاب الله عز وجل ، يستفيدون من هذا .

ثالثًا : طرد الشياطين ، فالبيت الذي يذكر فيه اسم الله عز وجل ما تدخله الشياطين ، ولهذا إذا دخل الإنسان بيته فذكر اسم الله (بسم الله) ، قال الشيطان للآخر : فاتكم المبيت . فإذا ذكر اسم الله عند طعامه قال : فاتكم المبيت والعشاء .

فلهذا لا ينبغي أن تترك البيوت إلى هذه الأجهزة ، بل يكون فيها شيء من ذكر الله عز وجل ، تعمر بذكر الله عز وجل ويحفظ الله سبحانه وتعالى بها أهلها ويستفيدون وينتفعون من ذكر الله عز وجل في بيوتهم .

(**السابعة : أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة**) .

(**متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة**) ، ولهذا قال ﷺ : « **لا تجعلوا بيوتكم قبورًا** » يعني تجعلوها كالقبور . فمن صلى في المقبرة لا تصح صلاته ، أما صلاة الجنازة فالنبي ﷺ صلى صلاة الجنازة على القبر في أكثر من مرة ؛ لكن أن يصلي فرضًا في المقبرة فهذا لا يجوز ، وفي حديث أبي مرثد مر بنا أن النبي ﷺ (نهى أن يقعد على القبر ، وأن يصلى إليه) ، فلا تجوز الصلاة في القبور .

(**الثامنة : تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد ، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب**) .

سواء كان قريبًا أو كان بعيدًا ، فالصلاة عليه معروضة عليه كما سيأتي ، فلا حاجة إلى أن يأتي ويزاحم ، ترون الزحام في الروضة كيف يكون الزحام ،

وأصبح المجيء إليه لا يكون إلا بتسجيل وبكذا لشدة الحزام ، وحتى مع هذا التنظيم تجد زحاما شديدا جدًّا ما تكاد تجد مكانا تصلي فيه ، وعلى كل حال الإنسان إذا ذهب إلى المدينة لا بد أن يصلي في الروضة ويسلم على النبي ﷺ .

(**التاسعة : كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أُمَّتِهِ في الصلاة والسلام عليه**)

.

(**كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أُمَّتِهِ في الصلاة**) الشيخ قيدها بالصلاة ، فالصلاة عليه ﷺ تعرض عليه وهو في البرزخ . وفي حديث أوس بن أبي أوس قال ﷺ : « **إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه هبط من الجنة ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا فيه من الصلاة علي فإني صلاتكم معروضة علي** » . قالوا : يا رسول الله كيف تعرض عليك وقد أرمت ، يقولون : بليت ، قال : « **إن حرم الأرض أجساد الأنبياء** » .

الشاهد قوله : « **فإن صلاتكم معروضة علي** » ، ومر بنا حديث ابن مسعود « **إن لله ملائكة سياحين يبلغونني السلام عن أمتي** » ، ولهذا يحسن من الإنسان أن يكثر من الصلاة على النبي ﷺ . قيل : يا رسول الله من أولى الناس بك ؟ قال : « **أكثرهم عليَّ صلاة** » ، وقال : « **البخيل من ذكرت عنده فلم يصل عليه** » ، وقال في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرة** » .

فينبغي للإنسان أن يكثر من الصلاة عليه ﷺ ، وتعرفون أن صلاة عليه عشر في الصباح والمساء من الأذكار ، « **من صلى علي حين يصبح وحين يمسي عشرٌ حلت له شفاعتي** » أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

فيكثر الإنسان من الصلاة على النبي ﷺ سواء كان قريبًا منه في المدينة ، أو كان بعيدًا منه ، « **فإن الصلاة معروضة علي** » صلوات الله وسلامه عليه .

الشيخ رحمه الله قال : (**أعمال أمته في الصلاة**) ، أما الأعمال في غير الصلاة قد وردت زيادة في حديث ابن مسعود السابق « **إن لله ملائكة سياحين** » ؛ لكنها زيادة شاذة ضعفها أهل العلم ، ولهذا كرر أهل العلم أنه لم يثبت دليلٌ يدل على عرض الأعمال عمومًا على النبي ﷺ ، وإنما الثابت عرض الصلاة والسلام عليه .

اللهم صلِّ عليه وسلم تسليمًا كثيرًا

وفقكم الله وبارك فيكم ، وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله : (**باب ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان**)

أراد المؤلف قدس الله روحه بهذه الترجمة أن يَرُد على الذين يزعمون أنَّ الشرك لا يقع في هذه الأمة .

وهذا أمرٌ في غاية العجب ، وإذا كان الخليل إبراهيم عليه السلام والذي كسر الأصنام بيده يقول : ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ [إبراهيم : ٣٥] ، يدعو ربه أن يجنبه وأولاده عبادة الأصنام ، وهو قد كسرها ، فلولا خوفه من عبادتها وخطر عبادتها ، وهي لن تُعبد حتى تعود ما تعب في هذه الدعوة .

والذين يقولون : إن الشرك لا يقع في هذه الأمة يستدلون بحديث جابر المخرج في ((صحيح مسلم)) « **إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ؛ ولكن بالتحريش بينهم** » ؟ فقالوا : الشيطان يأس ، وإذا يأس فلن يدعو الناس إلى عبادة الأوثان مرة ثانية .

وقد أجاب العلماء عن هذا الحديث بعدة أجوبة ، منها :

- أن يأس الشيطان غير معصوم ، فقد ييأس من الشيء ويقع ، ويرجو الشيء ولا يقع ، فلا يعلم الغيب .
- **الجواب الثاني :** قال « **أن يعبده المصلون** » يعني أن يُطْبِقُوا على عبادته ، وهذا لا يمكن أبدًا إلى أن يأتي أمر الله عز وجل . يقول النبي ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون** » . فلا يمكن أن يُطْبِقُوا على عبادته بحال من الأحوال .

وقوله : (**أن بعض هذه الأمة**) المراد بالأمة هنا أمة الإجابة لا أمة الدعوة .

فأمة الدعوة فيهم من يعبد الأوثان إلى يوم القيامة ، وإنما أمة الإجابة الذين أجابوا النبي ﷺ ودخلوا في دين الإسلام ، فبعضهم سيحصل منه ما يحصل ، ويقع منهم عودٌ إلى عبادة الأصنام .

أورد المؤلف هذه الآيات ، وتلحظون أن هذه الآيات ليست في الأمة ؛ لكن سيتبين بعد ذلك مناسبة إيرادها ، وفقه المؤلف رحمه الله في إيراد هذه الآيات .

الآية الأولى:

وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٥١] .

(﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾) هذا الاستفهام استفهام تقرير ، ورأى هنا يقولون بصرية ؛ لأن رَأَى أو نَظَرَ إذا عُدِّيت بـ (إلى) فإن المراد بها نظر العين ، يعني ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب .

وهذا اللفظ (﴿ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ ﴾) لا يرد في القرآن إلا على وجه الذم ، لا يرد على وجه المدح لأهل الكتاب بحال من الأحوال .

(﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾) ، والجبت كلمة تطلق على كل ما فيه مخالفة لشرع الله عز وجل ، فتطلق على السحر وعلى الساحر وعلى الكاهن وعلى الشرك وعلى الصنم ، وما أشبه ذلك .

(﴿ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴾) وسبب نزول هذه الآية أن نفرًا من اليهود حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ذهبا إلى مكة ، فسألهما أهل مكة وقالوا : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فما نحن وما محمد ؟

قالوا : ما أنتم ؟ قالوا : نحن نصل الأرحام ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العناة - والعناة جمع عانٍ والعاني هو الأسير - ومحمد قطع أرحامنا ، وتبعه سراق الحجيج من غفار . قالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً . يقولون هذا الكلام وهم يعرفون محمدا معرفة أبنائهم ولا قوة إلا بالله ؛ لكن الغيظ والغل والحسد الذي في قلوبهم والذي أعمى بصائرهم ، وإلا فلا يجهلهم أن محمدًا ﷺ خيرٌ وأهدى سبيلاً .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة : ٦٠] .

قوله عز وجل : (﴿ قُلْ ﴾) مر علينا أن النبي ﷺ مكلف بالإخبار بالقرآن كله ، فما معنى أن يأتي في بعض الآيات يأتي الخطاب موجهًا إليه بأن يقول كذا وكذا ﴿ قُلْ ﴾ ، وهذا كثير في القرآن ؟

لا شك أن النص على أمره بأن يقول هذا الكلام يدل على أهمية هذا الكلام والعناية به ، وإلا فالقرآن كله يبلغه النبي ﷺ .

وقوله : (﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ ﴾) ما قال : هل أخبركم ، والمعنى متقارب ؛ لكن الإنباء يكون في الشيء العظيم ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴾ [النبأ : ١ ، ٢] ، فإذا كان الخبر عظيمًا ذُكر بلفظ الإنباء .

(﴿ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ ﴾) ، أي ثوابًا عند الله عز وجل ، جزاءً عند الله عز وجل ، (﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ ﴾) ولعن الله طرده وإبعاده العبد عن رحمته ، (﴿ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴾) أي مسخ منهم أُناسًا قردةً وخنازير

، (﴿ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ ﴾) أي أيضًا عبدوا الطاغوت ، يعني فعلوا هذه الأفعال ، أو هذا الفعل المشين ، فعبد الطاغوت مع الله عز وجل ، والطاغوت مشتق من الطغيان وهو كل ما تجاوز به العبد حده من معبودٍ ، أو متبوعٍ ، أو مطاع . هذه الأوصاف للمغضوب عليهم وهم اليهود ، ولهذا قال : (﴿ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ ﴾) .

(﴿ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾) ، وقد حكم الله عليهم بالغضب وحكم عليهم أيضًا بالضلال .

وقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١]) .

الآية في أصحاب الكهف لما اطلع أهل المدينة عليهم تنازعوا واختلفوا فيما بينهم ، قال تعالى : ﴿ إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ ، فانقسموا فيهم إلى فريقين :

- الفريق الأول يقول : ﴿ ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا ﴾ ، يعني ابنوا على الغار بنيانًا يسد الغار ، فربهم أعلم بهم سبحانه وبحمده .

(﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾) ، وهذه الآية هي إحدى الشبهات التي يتمسك بها القبوريون في بناء المساجد على القبور ، يستدلون بهذه الآية ، حتى يقول بعضهم نحن عندنا دليل ، أنتم ليس عندكم دليل . وهذه الآية كما ذكر ابن جرير اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيها :

- فقيل : إن القائلين من المسلمين .

- وقيل : إنهم مشركون .

وحتى لو كان القائل من المسلمين فإن فعلهم أو قولهم هذا قول محرم ، ومن وسائل الشرك ، ولا نقول : إنَّ هذا كان في شرع من قبلنا ، وأنَّ بناء المساجد على القبور كان جائز في شرع من قبلنا ، والدليل « **لعنة الله على اليهود والنصارى ، أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح ، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا** » ، يشير النبي ﷺ إلى أُناس كانوا قبل مبعثه ، وأن هذا الفعل كان محرم وبالتالي استحقوا اللعن .

ولو تنزلنا معهم وقلنا : إن الآية تدل على جواز هذا في شرع من قبلنا ، **فالقاعدة** : أن شرع من قلبنا إذا جاء شرعنا بخلافه ، فنأخذ بشرعنا .

والنصوص كالشمس كما مر بكم ، حديث عائشة في ((**الصحيحين**)) وحديثها الآخر في ((**الصحيحين**)) وحديث جندب في ((**مسلم**)) ، الأحاديث في هذا مشهورة مستفيضة ، فكيف تدفع هذه السنن الصحيحة الصريحة بقولٍ غاية ما يقال فيه : إنه مشتبه .

وكما مر بنا في التفسير هذه طريقة الزائغين ، يأخذون بالمتشابه ويتركون النصوص المحكمة ، مع أنه عند التأمل الآية ليست متشابه ، والآية واضحة في أن الذين قالوا : (﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾) قالوا هذا الكلام وقولهم مخالفٌ لشرع الله عز وجل ، حتى للشرع الذي ينتسبون إليه إن كانوا مسلمين مع أن كونهم مسلمين احتمال أيضًا . قال ابن كثير رحمه الله في القائلين : إنهم الكبراء ، والأمراء ، وأهل الأمر والنهي هم الذين قالوا هذا .

قال رحمه الله : (**عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم ، حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ أخرجاه**) .

(**« لتتبعن »**) إعراب اللام : موطئة للقسم ، يعني يوجد قسم مقدر .

(**«سنن »**) الفرق بين السَّنَنُ والسُّنَنُ:

- السَّنَنُ الطريقة
- والسُّنَنُ الطرق ، جمع .

(**« حذو القذة بالقذة »**) هذا اللفظ ليس في ((**الصحيحين**)) ؛ لكن رواه الإمام أحمد وغيره . والذي في ((**الصحيحين**)) « **شبراً بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ** » ، أي أنكم ستتبعون طريقتهم ، وتحاذون طريقتهم محاذاة الشبر للشبر والذراع بالذراع ، والقذة للقذة . وهذا من أبلغ ما يكون في بيان التشبه بهؤلاء ومحاكاتهم واتباعهم .

والقذة هي ريش السهم ، السهم في رأسه حديدة وفي آخره ريش ، ريش طير ، يأخذون من ريش النسر أو الصقر أو كذا ، ويكون في آخره ، ولعل القصد منه الحقيقة يحتاج إلى معرفة بهذه الأمور ؛ لكن لعل القصد منه أن يحفظ توازن السهم عند إطلاقه ، بحيث لا ينحرف يمين أو يسار حتى يصيب الهدف .

(**« حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »**) ، يعني أنكم ستحاكونهم وتتبعونهم حتى في الأمور الصغيرة الحقيرة ، (**« حتى لو دخلوا جحر ضب »**) وهم لن يدخلوه ، وكيف للإنسان أن يدخل جحر ضب ؟ لكن هذا تمثيل يراد به المبالغة في شدة الاتباع والمحاكاة والتشبه بهم .

(« حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ») ، أي أنكم ستتبعونهم حتى في الأمور المتعرجة والملتوية ، والمعروف أن جحر الضب ضيق وأيضًا متعرج ، ما هو مستقيم ، فسوف تتبعونهم في الأمور التافهة ، وقد بليت الأمة في إتباعهم في أمورٍ كثيرة ، منها ما ذكر الله عز وجل في الآيات ، وهنا تتضح المناسبة بين إيراد الآيات وإن كانت في الأمم السابقة ، وإيراد هذا الحديث ، أي أنكم ستتبعونهم ، فكما أن فيهم من يؤمن بالجبت والطاغوت ويعبد الطاغوت ، ويبني المساجد على القبور ، فسوف يكون في هذه الأمة من يفعله .

وقد حذر النبي ﷺ من التشبه بهم وتقليدهم ومحاكاتهم ، فروى ابن عمر رضي الله عنه والحديث عند أبي داود أن النبي ﷺ قال : « **من تشبه بقوم فهو منهم** » ، قال شيخ الإسلام : حتى ولو كان التشبه غير مقصود ، ما دام أنه تشبه بهم . وإن كان لو قصد التشبه لا شك يكون الإثم أشد .

وقوله : « **فهو منهم** » ، يقول شيخ الإسلام : هذا الحديث يدل على التحريم ، وإن كان ربما يدل ظاهره عياذًا بالله على الكفر ، ولاسيما إذا كان التشبه في الأمور التي فيها كفر كعبادة الطاغوت ، وما أشبه ذلك .

قد بلي المسلمون بالتشبه بهم منذ القدم ، وقَلَّ أن تجد أهل بدع إلا وفي بدعهم محاكاة لليهود ، أو النصارى ، أو المجوس ، أو الوثنيين ، وأنتم ترون بين وقت وآخر ، يعني تظهر بعض الأشياء الموجودة عند أهل الكتاب وغيرهم هي موجودة عند كثير من أهل البدع ، وهذا مصداق ما أخبر به ﷺ .

وأما في هذه الأزمنة فالله المستعان ، سبب إطلاع الناس عليهم وعلى أحوالهم ، والتواصل الذي يحصل بين كثير من الناس حتى من صغار السن ، يحصل تقليد

ومحاكاة ، تربية الحيوانات ، الكلاب ، والعناية بتربية القطط أيضًا ، وتشبه بعض الناس بهم في ملابسهم وفي شعورهم ، وهذه أمور يعرف منها الشباب أشياء أكثر مما نعرفه ، وكل هذا مصداق ما أخبر به ﷺ (« **لتتبعن سنن من كان قبلكم** ») .

والنبي ﷺ قال هذا الكلام كما يقول شيخ الإسلام على سبيل الخبر والذم ، ليس مجرد الإخبار أن الأمة سُتبلى بهذا البلاء الشديد ؛ ولكنه أيضًا ذمٌّ لهذا الصنيع وتحذير منه ، ونهيٌ عنه .

(**قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن القوم إذًا »**) ؟ في رواية « **فارس والروم** » ، فحيث كان التشبه في الحكم بين الناس وسياسية الرعية وما أشبه ذلك يكون التشبه بالفرس ؛ لأن الفرس ليسوا أهل كتاب ، وحيث كان التشبه في العقائد في الأصول وفي الفروع وفي كثير من الأمور يكون التشبه باليهود والنصارى .

وذِكر اليهود والنصارى وفارس على سبيل التمثيل ، وإلا فقد يتشبه المسلمون بأناس غيرهم كالوثنيين .

فائدة : التهنئة بالعيد الديني ، كونه يهنئه بعيد في دينه ، لا يجوز أن يهنأ بعيد في دينه ، يعني وكأنه رضا بهذا الأمر .

قال رحمه الله : (**ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وإن أمتي سيبلغ مُلكها ما زُوِيَ لي منها ، وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض ، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسَنَةٍ بعامة ، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، وإن ربي قال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك**

أن لا أهلكهم بسَنَةٍ بعامة ، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضًا ») .

(**« إن الله زوى لي الأرض »**) يعني جمعها وضمها ، حتى كانت كهيئة الكف أمام المرآة ، ونظر النبي ﷺ إليها ، ورأى مقدار ما يبلغ ملك أمته منها ، بل رأى مشارقها ومغاربها ، وذكر أن ملك أمته سيبلغ ما زُوِيَ له منها .

وهل ما حصل حقيقة أو من باب التمثيل أن الله مثَّل له الأرض حتى رآها ؟

القول الراجح : أن هذا كان حقيقة .

وقد رأى النبي ﷺ بيت المقدس وأخبر المشركين ببعض ما فيه من الآيات والعلامات ، وقال : « **إني أرى القصر أبيض في المدائن** » فقرب الله له البعيد وطوى له المسافات ، حتى رأى مشارقها ومغاربها .

وهنا ذَكَر المشارق والمغارب دون الجنوب والشمال مع أن الأمة امتد ملكها في الشمال ، أما الجنوب فالجنوب ينتهي بالبحر ، المحيط ؛ لكن في الشمال امتد ملك الأمة ، فلماذا نص على المشرق والمغرب ؟

- **أولاً :** المشرق والمغرب في كتاب الله عز وجل دائمًا النص عليهما بالإفراد وبالتثنية وبالجمع .
- ولأن في المشرق والمغرب الآيات العظام ، فمنهما تشرق الشمس وتغرب وكذا القمر والكواكب ، فرأى المشارق والمغارب ، ورأى ما سيبلغ ملك أمته من ذلك صلوات الله وسلامه عليه .

قال : (**« وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض »**) .

الكنز الأحمر : الذهب ، وهو ومال قيصر .

والكنز الأبيض : الفضة والجوهر ، وهو مال كسرى .

قال ﷺ : « **والذي نفس بيده لتنفقن خزائنهم في سبيل الله** » وقد وقع مصداق ما أخبر صلوات ربي وسلامه عليه .

(« **وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكهم بسَنَةٍ بعامة** ») يعني أن لا يهلكهم بعذاب يستأصلهم ويجتاحهم ، (« **وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم** ») . فسأل صلوات ربي وسلامه عليه لأمته مسألتين :

المسألة الأولى : أن لا يهلكهم الله عز وجل بسنة عامة ، وقد أعطي هذه المسألة .

المسألة الثانية : أن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم ، وقد أعطيها ﷺ ؛ لكن بقيد ولهذا قال : (« **يا محمد ، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد** ») .

وتعلمون أن القضاء نوعان هما :

١. شرعي ، كما في قوله عز وجل : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] ..

٢. وكوني ، كما في قوله : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ ﴾ [الإسراء : ٤] .

أما القضاء الشرعي فقد يقع وقد لا يقع ، ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ، فمن الناس من يعبد الله عز وجل ومنهم يعبد الأصنام ، من الناس من يبر والديه ، ومن الناس عياذًا بالله من يعق والديه .

وأما القضاء الكوني فلا بد أن يقع .

(« إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسَنَةٍ بعامة ») أعطاه الأولى دون قيد ، (« وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ») وبيضتهم يعني معظمهم وجماعتهم ، (« ولو اجتمع عليهم مَن بأقطارها ») ، لو اجتمع عليهم الناس كلهم ، فلن يستبيحوا بيضتهم ولن يستأصلوهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضًا ، حتى يدب الخلاف بينهم ، وتنتشر الفتن بينهم ، ويقوم بعضهم على بعض فيتقاتلون والعدو ينظر إليهم ، فحينها يعاقبون ، وتكون العقوبة أن يسلط عليهم الأعداء ولا قوة إلا بالله . فيسلط العدو عليهم بسبب ما حصل منهم من النزاع والشقاق ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال : ٤٦] . لما تنازع الرماة وهم خيرة هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم في غزوة أحد ، وتركوا المكان الذي وضعهم النبي ﷺ فيه ونهاهم أن يتركوه ، حتى لو رأيتم أنا ظهرنا عليهم ، ونزلوا لما رأوا المشركين منهزمين في البداية ما الذي حصل ؟ التف عليهم المشركون مرة ثانية ، ثم صار الوجه للمشركين ولا قوة إلا بالله ، ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ ﴾ تحسونهم أي تقتلونهم في بداية المعركة ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ الآية . قال في آخرها : ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] . صرفكم عنهم وصار الوجه لهم ، وصارت الغلبة الظاهرة لهم .

وهذا دليل على أن الأمة إذا دب الخلاف بينها ودبت الفرقة بينها فإن هذا لا شك يؤدي إلى إضعافها ، ليس هذا فقط ، بل إلى أن يسلط الأعداء عليها ، أما إذا التئموا واجتمعوا وكانت كلمتهم واحدة ولم يدب بينهم خلاف ، إذ الخلاف هو

سبب القتال ؛ لأن الناس إذا اختلفوا تحاقوا وإذا تحاقوا كل واحد يرى نفسه على الحق اقتتلوا ولا قوة إلا بالله .

ومن صفات الخوارج أنهم يتركون قتال أهل الأوثان ويقاتلون أهل الإسلام . ما ظنكم لو أن الخوارج بشجاعتهم وإقدامهم معروف عنهم الإقدام في القتال ، لو أن شجاعتهم وإقدامهم هذا في سبيل الله ماذا كانوا يعملون ؟ لكنهم كروا على الأمة وصاروا يقاتلونها في الوقت الذي كانت الأمة وجيوشها يقاتلون في كل مكان . وهذا ولا قوة إلا بالله من الزيغ والضلال أن يترك الإنسان الأمر الجلي الواضح البين إلى أمرٍ نهايته ومآله إلى أن يسلط الأعداء عليهم جميعًا .

فالله الله بالحرص على اجتماع الكلمة وعلى الجماعة ، وأنتم ترون الأمة الآن كثير من بلاد المسلمين الفتن فيها منتشرة وهم يتناحرون ويتقاتلون ، والأعداء ولا قوة إلا بالله ينظرون إليهم ، وهم في غاية السرور ، وقد سلطوا على بعض الأمة ولا قوة إلا بالله ، فالناس إذا اجتمعوا كان اجتماعهم قوة ، وإذا اختلفوا وتفرقوا كان تفرقهم وهنًا وضعفًا .

قال رحمه الله : (**وروواه البرقاني في صحيحه وزاد : «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين »**) .

هذه الزيادة التي عزاها المؤلف رحمه الله إلى البَرقاني ، قالوا : يجوز الضم والفتح والكسر البَرقاني والبُرقاني والبِرقاني ، هذه الزيادة عند أبي داود ، والحديث بطوله ، حديث ثوبان عند أبي داود بنحو رواية مسلم هذه وبنحو الزيادة التي نسبها المؤلف إلى البرقاني رحمه الله تعالى ، وقد صحح العلماء هذه الزيادة .

قال عليه السلام : ((**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**)) المراد بالأئمة هنا العلماء والعباد والحكام ، إذا كانوا يسعون في إضلال الناس ولا قوة إلا بالله. والعلماء إذا فتنوا وزاغوا عن الطريق المستقيم فلا شك أن ضررهم خطير ؛ لأن الناس يتبعونهم ويأخذون بكلامهم .

قد ذكر العلماء أن من فسد من علمائنا فله شبهٌ باليهود ، لأن عنده علم ؛ لكنه ضل وزاغ عن علمه ولم يعمل به ، ومن فسد من عبادنا فله شبه بالنصارى ، يعني جهل ، ويعبد الله على غير بصيرة وعلم .

قال رحمه الله كما في رواية البرقاني : قال : ((**وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة**)) .

أي إذا وضع فيهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة ، إذا وقع السيف في الأمة لا يرفع إلى يوم القيامة ، وهذا تحذير منه صلوات ربي وسلامه عليه من الفتن أن الأمة إذا وقعت فيها فإن الأمر يدوم ويستمر .

وقد وقع مصداق ما أخبر به ﷺ ، إذا وقع السيف في الأمة استمر ، والأمة لاسيما في آخر الزمان ، ما تصحوا من فتنة إلا وتقع في فتنة أخرى كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث المخرج في ((الصحيح)) : « **إن أمتكم هذه جعلت عافيتها في أولها ، وسيكون في آخرها أمور وبلاء ، تأتي الفتنة فيقول المؤمن : هذه مهلتكي . ثم تنكشف ، ثم تأتي الفتنة فيقول : هذه هذه . فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأتي منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأتي إلى الناس الذي يحب أن يأتوا إليه** » .

وقع السيف وأول ما وقع في خيار الأمة ، وخير من هو على وجه الأرض وهو عثمان لما قتل ، قتله الخوارج ظانين أنهم سيصلحون بعملهم المشين هذا ، وقتلوه وعمره ثمانون سنة ، لو كان كافرًا ما جاز أن يقتل في الجهاد ، وعثمان من هو في سابقة الإسلام وفضله أفضل من على وجه الأرض في حياته .

ثم بعدها ظهرت فتنة الخوارج ، وحصل من الخوارج ما حصل من البلاء الشديد والأذية للمسلمين ، واستمرت ولا قوة إلا بالله هذه النزعة ، كما أخبر المصطفى ﷺ إلى يوم القيامة .

قال رحمه الله : (« **ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين** ») .

في رواية أبي داود « **حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين** » .

(« **وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان** ») ، عند أبي داود « **وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان** » .

وهذا هو موطن الشاهد من الحديث ، والحديث نصٌّ في وقوع الشرك في هذه الأمة .

قال ﷺ : (« **وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي** ») .

سيكون في هذه الأمة كذابون ثلاثون ، أخبر عنهم النبي ﷺ ، وهؤلاء الذين يدعون النبوة هو من يكون لهم شوكة أو يكون لهم أتباع ، أما مجرد الدعوى ، فيدعيها أناس كثر ؛ لكنهم أناس مصابون في عقولهم ؛ لكن من يدعيها ويكون له شوكة وأتباع ثلاثون ، وقد ظهر منهم في عهد النبي ﷺ اثنان ، هم:

١ . مسيلمة الكذاب في اليمامة .

٢. والأسود العنسي في اليمن .

وأيضًا ادعى النبوة طليحة بن خويلد الأسدي ؛ لكنه أسلم وتاب وذهب في الجهاد فقتل في سبيل الله .

والسجاح بنت الحارث أيضًا ادعت النبوة ؛ لكنها أيضًا أسلمت وتابت .

لكن العجيب المختار ابن أبي عبيدة الثقفي والده القائد المعروف المشهور أبو عبيد ، والمختار أخو صفية زوج عبد الله بن عمر رضي الله عنه وأرضاه .

ولما قيل لابن عمر : أن المختار ادعى النبوة ، أو أن المختار يقول أنه يوحى إليه . قال : صدق ، وتلا قول الله عز وجل : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٢] . لكن كما ذكر الشيخ في المسائل رحمه الله يعني يقول أنه مقر برسالة محمد ، وبالقرآن ، وهذا من العجب .

وخرج الحارث أيضًا الكذاب في عهد عبد الملك بن مروان ، فقتل .

وما يزال هؤلاء الذين يدعون هذا الأمر يخرجون بين وقت وآخر .

والعجب أن يوجد لهم أتباع ، وظهر في الزمن الماضي القريب غلام أحمد القادياني الذي تنتمي إليه طائفة القاديانية ، قد ادعى النبوة ، وسيأتي ربما أناس أيضًا يدعون هذا الأمر ، والنبي ﷺ أخبر أنه سيكون كذابون ثلاثون ؛ لكنه خاتم الأنبياء وآخرهم صلوات ربي وسلامه عليه ، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] . فلا نبي بعده صلوات الله وسلامه عليه .

ولهذا ينتهي هؤلاء ، ينتهون ويصبحون أضحوكة للناس ، يبلغ بهم ولا قوة إلا بالله الأمر إلى أن يدعوا أمرًا لن يكون لأحد كائنًا من كان بعد رسول الله ﷺ ، ثم يهلكهم الله عز وجل فيذهبون ويصبحون أثرًا وخبرًا يُذكر ، ويتندر بهم ، انظر كيف يتندى الناس بمسيلمة حكايات وخزعبلات وغيره .

قال : ((**ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**)) .

هذه الزيادة أصلها في الصحيح في حديث المغيرة قال ﷺ : « **لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون** » . في مسلم « **ما تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهر الناس** » ، وهذه الطائفة هي الطائفة المنصورة ، وهي الطائفة الناجية ، وهي باقية حتى يأتي أمر الله عز وجل .

ومتى يأتي أمر الله عز وجل ؟ لا نسأل عن الزمن ، الله أعلم بهذا ؛ لكن يأتي عندما يموت آخر المؤمنين ، وعندما يرسل الله تعالى ريحًا حمراء فلا يبقى على الأرض مؤمن ولا مؤمنة ، حتى ولو دخلوا كبد جبل دخلته عليهم ، فيموتون عن آخرهم ، ويبقى شرار الخلق الذين تقوم عليهم الساعة ، كما في حديث ابن مسعود المخرج في ((**مسلم**)) « **لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق** » ، « **وحتى لا يقال الله الله** » في الحديث الآخر ، عندما يعودون إلى عبادة الأصنام ويتمثل لهم الشيطان ويدعوهم إلى عبادة الأصنام فيرجعون إلى عبادتها كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة المخرج في ((**الصحيحين**)) « **لا تقوم الساعة حتى تضطرب آليات نساء دوس عند ذي الخلصة** » ، وذو الخلصة صنم دوس في الجاهلية ، فقد

أحرق وهدم ؛ لكن يعود الشرك مرة ثانية . وفي حديث عائشة في ((**مسلم**)) « **لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى** » .

قد يقول قائل : لم يورد الشيخ رحمه الله هذه الأحاديث مع أنها في الصحيحين ؟ لأن هذا الأمر إنما يحصل بعد أن يموت كل مؤمن ومؤمنة ، ولا يبقى إلا شرار الخلق ، والشيخ يتحدث عن وجود الشرك في هذه الأمة في أمة الإجابة ، وأما أولئك فالنصوص فيهم كما سمعتم .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية النساء .

الثانية : تفسير آية المائدة .

الثالثة : تفسير آية الكهف .

الرابعة وهي أهمها : ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع ؟ هل هو اعتقاد قلب ، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفه بطلانها) ؟

يعني إيمان هذه الأمة بالجبت والطاغوت:

- هل هو اعتقاد قلب بمعنى أنهم يكفرون ويؤمنون بالجبت والطاغوت .
- أم أنه موافقة في الظاهر وتشبه ومحاكاة وتقليد ؟

قال رحمه الله : (**الخامسة : قولهم : إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين**) .

قول حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف من اليهود .

(**السادسة : وهي المقصود بالترجمة : أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة ، كما تقرر في حديث أبي سعيد .**

السابعة : تصريحه بوقوعها ، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة .

الثامنة : العجب العجاب خروج من يدعي النبوة ، مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين ، وتصريحه بأنه من هذه الأمة ، وأن الرسول حق ، وأن القرآن حق . وفيه : أن محمدًا خاتم النبيين ، ومع هذا يُصدق في هذا كله مع التضاد الواضح ، وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة ، وتبعه فئام كثيرة) .

يعني هذا عجيب يقر بالشهادتين ، وبأن القرآن حق ، والإسلام حق ، ثم يدعي النبوة ، حتى القَدْيَانِيَّة عندهم صلاة وعندهم جمعة ، فهل تركهم لمثل هذه الشعائر لأجل أن يخدعوا الناس ويغروهم حتى يتبعوهم ؟ وإلا فادعاء النبوة عياذًا بالله أمره في غاية الخطورة ، فلا ينفعه أن يصلي ولا أن يصوم ولا أن يعمل أي عمل .

قال رحمه الله : (التاسعة : البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى) .

« **لا تزال طائفة من أمتي** » ، هذه بشارة .

(بل لا تزال عليه طائفة) .

وفيه : إشارة إلى الفرقة في الأمة أيضًا ، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال : « **ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة** » ، في رواية « هم الجماعة » ، وفي رواية قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : « **من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي** » ، الأمر كالشمس ولله الحمد جليٌّ واضح ، وهذه الطائفة المنصورة ورد فيها يعني عبارات عن السلف وعن الإمام أحمد إن لم يكونوا أهل

الحديث فمن يكونوا ؟! قال البخاري : أنهم أهل العلم ، **والمقصود :** من التزم الكتاب والسنة وصار على هدي محمد ﷺ وأصحابه ، نهج السلف الصالح رحمهم الله تعالى .

وأين يوجدون ؟

- روي في حديث عن أبي أمامة وفيه ضعف أنهم في بيت المقدس ،
- وعن معاذ أنهم في الشام .
- وابن جرير يقول : لا يجب أن يكونوا دائمًا في هذه الأماكن ، بل قد يكونون في بيت المقدس ، أو في الشام ، أو في مكان آخر .
- ورجح بعض أهل العلم أنهم يكونون في الشام في آخر الزمان عندما ينزل عيسى والله أعلم .

وورد عن النووي رحمه الله أن هذه الطائفة المنصورة يكونون من أهل الحديث ، ومن الفقهاء ، ومن الزهاد ، ومن المجاهدين في سبيل الله من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر .

وقول الإمام أحمد إن لم يكونوا أهل الحديث فمن يكونوا ؟! مراده من كان على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

قال رحمه الله : (**العاشرة : الآية العظمى أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم**) .

وهذا حفظ من الله عز وجل ، وإلا فهم قلة طائفة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] ، يحفظهم الله ويدافع عنهم ، بل وينصرهم ويُعلِيهِم .

قال رحمه الله : (**الحادية عشرة : أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة**) .

هذا الأمر إلى قيام الساعة .

(**الثانية عشرة : ما فيهن من الآيات العظيمة ، منها :**

١ . إخباره ﷺ بأن الله زَوَى له المشارق والمغارب ، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر ، بخلاف الجنوب والشمال .

٢ . وإخباره ﷺ بأنه أعطي الكنْزين .

٣ . وإخباره ﷺ بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين .

٤ . وإخباره ﷺ بأنه مُنع الثالثة .

٥ . وإخباره ﷺ بوقوع السيف ، وأنه لا يُرفع إذا وقع .

٦ . وإخباره ﷺ بإهلاك بعضهم بعضًا ، وسبي بعضهم بعضًا ، وخوفه ﷺ على أمته من الأئمة المضلين .

٧ . وإخباره ﷺ بظهور المتنبئين في هذه الأمة .

٨ . وإخباره ﷺ ببقاء الطائفة المنصورة .

وكل هذا وقع كما أخبر ، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول)

.

يعني بعيد عن أن يتصور الإنسان مثل هذه الأمور ؛ ولكن الذي أخبر بها من لا ينطق عن الهوى صلوات الله وسلامه عليه ، وأخبر بها ووقعت كما أخبر ، فهي لا شك آيات من آياته صلوات الله وسلامه عليه .

قال رحمه الله : (**الثالثة عشرة : حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين .**

الرابعة عشرة : التنبيه على معنى عبادة الأوثان) .

(التنبيه على معنى عبادة الأوثان) ، ومعنى عبادتها يتقرب الإنسان إليها بأنواع العبادة : الدعاء ، الذبح ، والاستغاثة ، وما أشبه ذلك من أنواع العبادة التي لا يجوز أن تصرف إلا لله عز وجل ، فحيث صرفت إلى غيره كان ذلك عبادة ، وكان من صرفت إليه وثن ، حتى ولو كان رجلاً صالحًا ، فقد قال عليه السلام : « **اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد** » ، وهو أكرم الخلق صلوات الله وسلامه عليه .

وفقكم الله وأعانكم وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال المصنف رحمه الله : (**باب ما جاء في السحر**)

ما مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ؟ وما تعريف السحر ؟ وما أقسامه ؟ وما حكمه ؟ وما هي عقوبة الساحر ؟

هذا مجمل ما يذكره المؤلف رحمه الله تعالى في هذا الباب .

أما المناسبة : فلما كان السحر لا يكون إلا بالشرك - والمراد بالسحر هنا الذي يكون فيه استعانة بالشياطين - والشرك منافٍ للتوحيد عقد المؤلف رحمه الله تعالى له هذا الباب .

وأما تعريفه فهو في اللغة : عبارة عن ما خفي ولطف سببه . الشيء الخفي اللطيف يقال عنه : إنه سحر ، ولهذا:

- سمي آخر الليل سحرًا ، لأن ما يُفعل فيه خفي .
- وسمي الطعام الذي يأكله الصائم آخر الليل سمي سحورًا أيضًا لأنه يقع في وقت خفي .
- وفي الحديث « **إن من البيان لسحرًا** » ، لكون هذا البيان يؤثر بطريقة خفية.

وفي الاصطلاح يقول الموفق ابن قدامة في ((**الكافي**)) رحمه الله : هو عزائم ورقى وعُقد تؤثر في القلوب والأبدان ، فيُمرض ويَقتل ويُفرق بين المرء وزوجه ، ويأخذ المرأة عن زوجها ، والرجل عن امرأته .

هو عزائم ورقى وعقد ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق : ٤] . والرقى يرقي فيها الساحر من ريقه الخبيث يستعين فيها بالشياطين ، ويكون لهذه العقد وهذه الرقى تأثيرٌ في القلوب ، وتأثيرٌ في الأبدان ، وربما تقتل في بعض الأحيان عياذًا بالله . ولهذا يتأكد على الإنسان دائمًا أن يحافظ على الأوراد والأذكار ، حتى يحفظه الله سبحانه وتعالى من هذه الأمور ، وإن كان هذا الأمر ولله الحمد غير فاش في بلاد التوحيد ، غير منتشر ؛ لكن محافظة الإنسان على الأذكار تغذي قلبه وتقويه ، يعني كثير من الناس تجده يتوهم ، يخشى من العين ، يخشى من السحر ، يخشى من كذا من كذا ، وهذا لا ينبغي ، ومن يحافظ على الأذكار تعطي قلبه قوة ، ومن يتوكل على ربه سبحانه وبحمده ، ويؤمن بقضائه وقدره غالبًا وإن طرأت عليه هذه الأمور إلا أنها تذهب سريعًا ولا تستمر ولا تؤثر فيه .

هل السحر حقيقة أم خيال ؟

مذهب عامة أهل السنة : أن منه ما هو حقيقة ، ومنه ما هو خيال :

- **والدليل على أن منه ما هو حقيقة :** قوله عز وجل : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] . إذًا يحصل به تفريق ، ولو كان مجرد خيال لزال بمجرد التخييل به ، زوال التخييل به ، فدل على أن له حقيقة وأثرًا .
- **أما أنه خيال :** في قوله عز وجل : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ لموسى ﴿ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ [طه : ٦٦] ، ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ ، يخيل إلى موسى مجرد تخييل ، وإلا فهي لا تسعى في الحقيقة .

وعند المعتزلة : أن السحر كله خيال ليس له حقيقة . ولكن يَرُدُّ هذا ما ذكر من الاستدلال بقوله عز وجل ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ .

ما حكم السحر ؟

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في حكمه ، السحر والحكم على الساحر بالتالي :

- فالجمهور ، وهم مالك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله تعالى يرون كفره أنه كافر ، ودليلهم قوله عز وجل : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ،فإذا كان متعلمه يكفر فكيف بمن يزاوله ويباشره ؟
- وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه:
  - لا يكون كفرًا إلا إذا أتى بسحره بما هو كفر .
  - أما إذا لم يأتِ بسحره بما هو كفر ، فإنه لا يصل لدرجة الكفر عنده .

هذا يتضح ببيان أنواع السحر ، للسحر نوعان أجارنا الله وإياكم منه جميعًا .

النوع الأول : ما يكون فيه استعانة بالشيطان عن طريق التقرب لهم بشيء من العبادة . وهذا لا شك شركٌ وحتى على قول الشافعي رحمه الله تعالى ، وهذا هو الغالب في السحر الذي يكون فيه استعانة في الشياطين . وأنتم لو تسمعون بعض قصص التائبين من السحر وتسمعون ما يقولون عن أنفسهم كيف كانوا يعملون عياذًا بالله ؟ وكيف كانوا يذبحون ؟ بل ربما أمروا من يأتيهم للتداوي

أمروه بالشرك ، بالذبح لغير الله عز وجل ، وكيف يهينون القرآن ؟ وكيف يحصل منهم أمور ما تحصل من مسلم أبدًا .

النوع الثاني من السحر هو : ما يكون بالعقاقير وبالأدوية . يعني هناك أنواع من العقاقير الأدوية إذا وضعت في ماء أو شبهه وشربها الشخص وهو لا يشعر تؤثر فيه ، تؤثر في نفسه ، تؤثر ربما في عقله عياذًا بالله . هذا النوع من السحر لا يستعان فيه بالشياطين . واختلف العلماء في كفره وعدم كفره :

- **والمشهور :** أنه لا يكفر ؛ لكن قالوا : يقتل أيضًا ، هذا فيما يتعلق بالحكم على الساحر .
- وأما عقوبته فالجمهور على أنه يقتل بناء على أنه كفر ، وأنه ارتد بسحره .
- والشافعي رحمه الله تعالى عَلَّق قتله أيضًا بكفره ، إذا أتى بسحره بشيء من الشرك فإنه يكون مرتدًا ، وبالتالي يقتل .

وهل يستتاب ؟ أيضًا قولان لأهل العلم :

- بعضهم يقول : لا يستتاب .

١. لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يستتيبوا من قتلوه من السحرة كما سيأتي .

٢. ولأن السحر لا يزول بالتوبة لما فيه من التغليظ والتشبيه ، وقد يدعي التوبة ولكنه لم يتب .

- وقال بعضهم : بل يستتاب :

١. وإذا كان المشرك يستتاب قبل قتله ، يعني لو ارتد وأشرك بالله فإنه يستتاب ، فالساحر أيضًا يستتاب ، والشرك قالوا لا يمنع توبته .

٢. وسحرة فرعون كانوا سحرة فجرة ، ثم بلطف وهداية من الله أصبحوا أتقياء بررة ، ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤٦ – ٤٩] ماذا قالوا ؟ ﴿ لَا ضَيْرَ ﴾ لماذا ؟ ﴿ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٥٠] ، انظروا إذا كيف إذا تذكر الإنسان منقلبه إلى ربه تهون عليه إحن الدنيا ومحنها ومصائبها ، فَمَنَّ الله عليهم واستقاموا ، وفي هذا ترغيب لكل من ابتلي بهذا العمل عياذًا بالله أن ينيب ويتوب إلى الله عز وجل .

سُحِر النبي ﷺ أكرم الخلق وأشرفهم ، وحديثه في ((**الصحيحين**)) حتى أنه كان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه ، ثم قالت عائشة ، أو تقول عائشة : قام فدعا ودعا ، صلوات الله وسلامه عليه ، وفيه إشارة إلى أن الدعاء عظيم في كشف ما يعتري الإنسان من الكرب والمصائب والمحن . ثم قال : « **أشعرت يا عائشة أن الله تعالى أفتاني ، أتاني رجلان قعد أحدهما عند رأسي والآخر عند قدمي ، فقال أحدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب** » ، والطب يطلق على السحر ، « **قال : من طبه أو سحره ؟ قال : لبيد بن الأعصم في مشط ومشاقة** » مشاقة شعر يعني ، « **في جُف طلع ذكر** » وهو ما نسميه بالكافور ، الكافور أول ما تطلع النخلة الوعاء الذي يكون فيه طلع النخلة ، « **في بئر ذروان** » فذهب إليها النبي ﷺ وأصحابه ودفنها ، قالت عائشة : هل استخرجته ؟ قال : « **أما أنا فشفاني الله وما أردت أن أثير في الناس شرًّا** » الحديث

، والحديث في ((**الصحيحين**)) . بعض الناس قد يقول في الحديث ما يقول ، ويقول أن النبي ﷺ قد عصمه الله وحفظه ، هذا مما ابتلي به النبي ﷺ ، وقد دُسَّ له السم صلوات الله وسلامه عليه ، وحصل له من الأذى ما حصل ؛ لكن الله تعالى يحفظه ويعصمه ، فهو معصوم صلوات الله وسلامه عليه ، ومحفوظ بحفظ الله عز وجل . وإن حصل له من العوارض والابتلاء الشديد ما هو أشد من بلاء الناس ؛ لكن الله تعالى يعافيه ويحفظه ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] . ثم إنه ﷺ سُحر فكان يخيل إليه أنه يأتي الشيء ولا يأتيه ؛ لكن ما سُحر في قلبه ، ولا في عقله ، ولا في تبليغه عن ربه ، لا ؛ لكن سُحر في هذا السحر الذي فيه يعني شيء من التخييل . ذكر المؤلف هنا بعض الآيات في أول الباب .

الآية الأولى :

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة : ١٠٢] .

(﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا ﴾) والضمير هنا يرجع لليهود ، (﴿ لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾) أي اشترى السحر ودفع دينه ثمنًا للسحر عياذًا لله . وهؤلاء الذين يقعون في السحر يدفع دينه ثمنًا له من أجل أن ينال منه شيئًا من أعراض الدنيا .

(﴿ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾) أي من حظٍّ ولا نصيب ، وقبلها قال عز وجل : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ

وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ ، فالسحر ضرر محض لا نفع فيه بوجهٍ من الوجوه .

وقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٥١] .

قال عمر : الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان .

وقال جابر : الطواغيت كُهَّان كان ينْزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد) .

وذكر قوله عز وجل : (**﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾**) ، وقد ذكره في الباب السابق رحمه الله .

وأورد كلام عمر (**الجبت السحر ، والطاغوت الشيطان**) ، وهذا ما يذكره السلف من تفسير بعض الآيات ليس على سبيل الحصر ، وإنما على سبيل التمثيل ، ولهذا سيأتينا في كلام جابر الطاغوت كُهان ، وهنا قال : (**والطاغوت الشيطان**) ، فهم يذكرون بعض المعاني من باب التمثيل لا من باب الحصر ، وإلا:

- فالجبت يطلق على كل شيء لا خير فيه من الكهانة ومن السحر ، وربما أطلق أيضًا أو أطلق على كل شيء لا خير فيه ولا نفع .
- والطاغوت كما قال هنا : (**الشيطان**) ، وهو عام ، والتعريف المشهور لابن القيم رحمه الله : ما تجاوز فيه العبد حده من معبود ، أو متبوع ، أو مطاع .

(**وقال جابر : الطواغيت كُهَّان ينزل عليهم الشيطان ، في كل حي واحد**) ، كان عند العرب في كل قبيلة كان عندهم شخص كاهن ، وكانوا يأتون إليه ويتحاكمون إليه ، ثم قُضي على هذا الأمر وانتهى ، ثم عاد بعد أن رجع الجهل .

وكان يوجد في القبائل يسمونه عرافًا ، يأتي الناس إليه ويحكم بينهم بما يحكم ، وقد يكون يعني عنده كهانة واتصال بالشياطين ، والله أعلم .

والحمد لله كل هذه الأمور تزول تحت راية التوحيد ، ولا تذكر والحمد لله ولا يوجد لها أثر ، نسأل الله أن يثبتنا على التوحيد ، ويرزقنا الاستقامة عليه .

هنا قال : (**الطواغيت كُهَّان**) ، وأين الساحر ؟ قالوا : إذا كان الكاهن طاغوتًا فالساحر أيضًا من الطواغيت .

قال رحمه الله : (**وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » . قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »**) .

قال ﷺ : (**« اجتنبوا السبع الموبقات »**) ، يعني الكبائر المهلكات لأصحابهن إذا لم يتوبوا منهن .

وذكر السبع هنا ليس على سبيل الحصر ، فالكبائر أكثر ، عدها بعضهم سبعين ، وبعضهم أكثر ، وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) « **أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين** » كان متكئًا فجلس وقال : « **ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور** » ، وذكرت أيضًا : اليمين الغموس ، وشرب الخمر ، والزنا ، والسرقة ، وهي كثيرة .

لكن يؤتى أحيانًا بمثل هذه الأعداد لأجل تقريبها للأذهان ، وكثيرًا ما يقول النبي ﷺ : « **ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان** » ، وذكر أشياء ، وفي حديث آخر قال : « **ذاق طعم الإيمان من قال : رضيت بالله ربًّا** » زاد عليها ، « **أربعن من كن**

فيه كان منافقًا » إلى آخره ، المراد بذكر العدد هنا ليس الحصر ، وإنما المراد تقريبها للأذهان حتى يسهل حفظها وفهمها ، ثم اجتنابها .

- (**« الشرك بالله »**) وهو أشدها ، **والشرك هو :** عبادة غير الله معه ، أو تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كما مر بنا .
- (**« والسحر »**) مر تعريفه .
- **الثالث :** (**« وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق »**) ، والقتل لا شك جرمٌ عظيم ، وذنبٌ كبير ، حتى قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] . وقوله : (**« إلا بالحق »**) ، هو ما ذكر في حديث ابن مسعود « **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » ، فهذا الحق الذي يسوغ به القتل .
- (**« وأكل الربا »**) حتى قال ربنا عز وجل في الربا : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] . **والربا هو :** تفاضل في أشياء حرم الشرع التفاضل فيها ، والتأخير في أشياء حرم الشارع فيها ، إشارة إلى نوعي الربا :
  - ربا الفضل .
  - وربا النسيئة .
- (**« وأكل مال اليتيم »**) قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] .

واليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ ، أما إذا بلغ ما يقال : يتيم ، رجل في إعداد الرجال . وسمي يتيمًا لانفراده من اليتم ، ولانفراده عن أبيه .

- (« **والتولي يوم الزحف** ») ودليله قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۞ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ [الأنفال : ١٥ ، ١٦] ، قال بعدها ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ وعيد شديد ؛ لكن استثني من هذا الوعيد:
  - ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ ﴾ تولى خُدعة وحيلة ،
  - ﴿ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ رأى فئة من الجيش بحاجة إلى نجدة وإعانة فانحاز إليها .
  - قالوا : وإذا كان العدو أكثر من مثلي المسلمين ، كقوله عز وجل : ﴿ فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ [الأنفال : ٦٦] ، فإن زادوا على المائتين ، قالوا : فيجوز التولي والحالة هذه ، والله أعلم.

- **السابعة والأخيرة** : (« **وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** ») ، يعني اتهامهن بالزنا عياذًا بالله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ٢٣] . وكذا قذف المحصنة ؛ لكن الله ذكر المحصنات في القذف ؛ لأن الضرر الذي يلحق بالمرأة ضرر عظيم في هذا الأمر ، وربما يتساهل الناس في هذا الأمر ، وتأملوا قول الله : ﴿ الْغَافِلَاتِ ﴾ ، إشارة إلى غفلتها عما

رميت به ، وأنه لم يدر في بالها أبدًا الوقوع في هذه الفاحشة ، ثم تفاجأ بأنها تتهم به وترمى به ، ولهذا رتب الله عليه حدًّا ، فيجلد ثمانين جلدة .

والمحصنات في القرآن وردت على معاني ، هي:

- العفيفات .
- وأيضًا المزوجات ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣] ، ثم قال : ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٢٤] .
- وأيضًا الحرائر ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] .

والمحصنات هنا في الحديث العفيفات ، وقد يقال : الحرائر أيضًا . يعني تكون حرة وتكون عفيفة ، فإن قذفها لا شك أشد من غيرها .

الحديث هنا متفق عليه .

قال رحمه الله : (**وعن جندب مرفوعًا : « حد الساحر ضربة بالسيف » . رواه الترمذي ، وقال : الصحيح أنه موقوف**) .

جندب هو جندب الخير ، جندب بن كعب وقيل : ابن زهير الأزدي الغامدي صحابي جليل رضي الله عنه وأرضاه ، اشتهر عنه بأنه قاتل الساحر ، حيث جاء إلى ساحر كان يسحر ويشبه على الناس ويخيل لهم ، فضربه بالسيف حتى قتله رضي الله عنه وأرضاه . روي فيه أنه يضرب ضربةً يكون فيها أمة وحدها ، ثم قال رضي الله عنه : (**« حد الساحر ضربةً »**) أو (**« ضربه بالسيف »**) .

وقد صحح الترمذي كما أورد المؤلف أن هذا الأثر موقوف على جندب رضي الله عنه وأرضاه .

بيَّن فيه أن حد الساحر أن يُقتل ، ويستدل بهذا من يقول بقتله كما هو مذهب الجمهور .

قال رحمه الله : (**وفي ((صحيح البخاري)) عن بَجالة بن عَبَدة قال : كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال : فقتلنا ثلاث سواحر**) .

هذا الأثر بهذا اللفظ يقول أهل العلم : ليس في ((**صحيح البخاري**)) ، إنما الذي في ((**صحيح البخاري**)) عن بجالة بن عبدة التميمي قال : (كنت كاتبًا عند جزء بن معاوية عم الأحنف بن قيس - تميمي أيضًا - قال : فأتانا كتاب عمر قبل وفاته بسنة أن فرقوا بين كل ذي محرم من المجوس ، قال : ولم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس ، حتى شهد عنده عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر) هذه رواية البخاري ، وليس فيها قتل الساحر .

لكن في السنن في الترمذي وأبي داود والنسائي وعند أحمد ، فيه أيضًا (أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال : فقتلنا ثلاث سواحر) ، وقد صحح أهل الحديث هذه الرواية ، ويستدل بهذا الحديث الجمهور القائلون بأن الساحر يقتل ، وعلى كل حال حتى قول الشافعي رحمه الله إذا تأملت ، وإذا هو قريب من قول الجمهور ، أن الشافعي قال : إذا كان سحره بشرك ، يعني إذا كان في سحره شرك فإنه يقتل ، والسحر الذي يكون فيه استعانة بالشياطين لا يكون إلا بشرك .

قال رحمه الله : (**وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت**) .

صح عن حفصة أم المؤمنين (**أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها**) دبرتها فسحرتها ، ومعنى دبرتها من التدبير وهو تعليق العتق بالموت ، يقول السيد لعبده : إذا مت فأنت حرٌّ ، فأحيانًا يستبطأ العبد الجاهل موت سيده فيعمل له عملاً عله أن يموت لكي يتحرر من الرق ، ثم بعد ذلك لا يتحرر من رقه ، بل يقتل .

وأم ورقة الصحابية رضي الله عنها دبرت عبدًا وجارية لها ، يعني يحسن إليهم ، ثم بعد ذلك يقابل هذا الإحسان بإساءة أكبر . وكانت امرأة كبيرة رضي الله عنها ، فوضعوا عليها قطيفة وغُمّت بالقطيفة فماتت ، فأخذا وقتلا عياذًا بالله ، قتلوها ولم يحصل لهم ما كانوا يطمعون به .

وهذه أيضًا سحرت حفصة رضي الله عنها فأمرت بها فقتلت ، والأثر عند مالك رحمه الله تعالى .

قال : (**وكذلك صح عن جندب .**

قال أحمد : عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ) .

يعني قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ ، وهم :

- جندب .
- وحفصة .
- وعمر رضي الله عنه وأرضاه .

هذا من جملة ما يستدل به من يقول بالقتل ، وعلى كل حال فالحكم بكفره مسوغ لقتله ، وكفره نُصَّ عليه في كتاب الله عز وجل ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية النساء .

الثالثة : تفسير الجبت والطاغوت ، والفرق بينهما) .

المؤلف عندما يقول : (تفسير) ولا يذكر التفسير ، فمراده ارجع إلى تفسيرها يا طالب العلم ، هذه الآية بين يديك فانظر كلام أهل العلم فيها .

(**الرابعة : أن الطاغوت قد يكون من الجن ، وقد يكون من الإنس .**

الخامسة : معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي .

السادسة : أن الساحر يكفر) .

لو قال لك قائل : ما الدليل على أنه يكفر ؟

الدليل ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ .

(**السابعة : أنه يقتل ولا يستتاب**) .

المؤلف جمع ثلاث مسائل :

الأولى : الكفر .

الثاني : القتل .

الثالثة : أنه لا يستتاب .

(**الثامنة : وجود هذا في المسلمين على عهد عمر ، فكيف بعده**) ؟

فإنه وجد السحر في عهد عمر ؛ بل في عهد النبي ﷺ ، اليهودي الذي سحر ، فكيف بالأزمنة بعده ؟ والله المستعان .

وهو دائمًا عندما يضعف التوحيد تنتشر هذه الأمور ، تنتشر الشعوذة ، وتنتشر البدع ، وتنتشر المخالفات للشرع ؛ لكن مع وجود التوحيد ووجود العلم المستند إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ما تَرى أثرًا لهذه الأشياء .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال المصنف رحمه الله :

(باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر قال : حدثنا عوف عن حيان بن العلاء قال : حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال : « إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » .

قال عوف : العيافة زجر الطير ، والطرق : الخط يخط بالأرض .

والجبت قال الحسن : رنة الشيطان . إسناده جيد .

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في ((صحيحه)) المسندُ منه) .

(**ولأبي داود والنسائي وابن حبان في ((صحيحه))**) ، قد يقرأها البعض المسندِ ، لا (**المسندُ منه**) المسندُ ممن ؟ من هذا الحديث ، يعني دون قول عوف : العيافة زجر الطير ، إلى آخره ، هذا عند أحمد فقط . وأما عند أبي داود والنسائي وابن حبان فالحديث المسند فقط ، يعني المرفوع إلى النبي ﷺ .

فالضمير في قوله (**في صحيحه ، المسندُ منه**) يرجع إلى الحديث .

قال : (**عن محمد بن جعفر**) ، ليس من عادة المؤلف رحمه الله أن يذكر الإسناد ؛ لكن ذكر الإسناد هنا ، ومحمد بن جعفر الهذلي مولاهم ، قال عنه عبد الرحمن بن مهدي الإمام الشهير المحدث الكبير قال : هو أثبت مني في شعبة .

وشعبة هذا هو شعبة بن الحجاج ، والذي يلقب عند المحدثين بأمير المؤمنين في الحديث ، وهي أعلى مرتبة .

المنتسبون إلى هذا العلم الشريف علم السنة لهم مراتب : محدث ، وحافظ ، وحجة ، والحاكم الذي أَلَمّ بالأحاديث ، ثم أمير المؤمنين وهذه بلغها الأئمة رحمهم الله ، الإمام أحمد والبخاري ، وأئمة الحديث أيضًا رحمهم الله ، فشعبة هذا كان إمامًا بهذا الشأن وكان محمد بن جعفر لزمه وأخذ عنه عشرين سنة ، ويلقب عند المحدثين بغُنْدَر ، ألقاب مشهورة عند المحدثين . قيل : والذي سماه بهذا الاسم ابن جريج رحمه الله . جاء ابن جريج وهو محدث مشهور إلى مكة ، فاجتمع عليه أهل الحديث ، وكأن بعضهم يعني حصل منه كلام أو شغب ، فقال لمحمد بن جعفر : يا غُنْدَر ، يعني يا مُشَغِّب ، فراح هذا الوصف لقبًا له رحمه الله تعالى .

قال : (**عن عوف**) ، وهو عوف الأعرابي ، ولم يكن أعرابيًّا ؛ لكن هذا أيضًا لقب له ، قال الإمام أحمد عنه : إنه ثقة .

قال : (**عن حيان بن العلاء**) قالوا عنه : مقبول ، يعني فيه لين يكتب حديثه .

(**حدثنا قطن بن قبيصة**) بن المخارق الهلالي المشهور المعروف الصحابي ، وحديثه معروف قال : تحملت حمالة فأتيت النبي ﷺ يسأله أن يعينه عليها .

قال الرسول ﷺ : (**« إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت »**) الحديث .

أولاً : مناسبة عقد المؤلف لهذا الباب: أنه لما كان للسحر أنواع وأضرب وأشكال كبيرة ، أراد المؤلف أن يبين شيئًا منها حتى يكون الموحد على حذر منه ، ومن أنواعه وأشكاله . وقد لُبِّس على كثير من الناس ، حتى اختلطت

عليهم كرامات الأولياء بما يحصل من المشعوذين والدجالين والكهنة والسحرة ممن يدعون الولاية ، يدعون أنهم أولياء لله عز وجل .

وهذا موجود في العالم الإسلامي ، أناس يقال عنهم إنهم أولياء وهم أولياء صحيح ؛ لكن ليسوا أولياء لله عز وجل أبدًا ، بل أولياء للشيطان ، فإن ولاية الله عز وجل بينة جلية واضحة ، بينها ربنا في آية ، وهي ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٢ ، ٦٣] ، فمن كان لله تقيًّا كان لله وليًّا .

أما أن يظهروا أنواعًا من الخوارق - خوارق العادات - فيغتر الناس بهم ، ويعتبرونهم أولياء ، ويظنون أنها كرامات من الله عز وجل لهؤلاء ، وهي ألوان من الشعوذة يستعين بها هؤلاء المشعوذون بالشياطين ، فربما يمشي على الماء ، وربما يطير في الهواء ، وربما يدعي أنه يصلي في مكة ، ولا يصلي عندهم ، وربما يدعي ويدعي ويدعي حتى يدعوا أمورًا ما تدور بخيال عاقل ، ومع ذلك يصدقهم بعض الرعاع المساكين ، وربما تعلقوا بهم ، وربما توسلوا بهم ، وربما دعوهم مع الله ، أو من دون الله عز وجل ، بحكم أنهم رأوهم تصدر منهم مثل هذه الخوارق .

والأمور الخارقة للعادة تصدر من الكاهن والدجال والرمال والمشعوذ ، يصدر منهم أشياء هي خوارق لا شك ، لا تصدر من غيرهم ؛ لكنها ليست كرامات أبدًا ، ولا تدل على أن فيهم خيرًا فضلاً عن أن يكونوا أولياء لله عز وجل .

ولو قرأت في كتبهم وطبقاتهم لرأيت ما يشيب له شعر المسلم الموحد ، حتى يأتيه أمرهم إلى أن يعتقدوا سقوط التكاليف عنهم ، ومع ذلك يُعَدُّون أولياء ، وهذا أمر مستفيض يعرفه الناس ولا يخفى ، لا يصلي ولا يصوم ، ويُعتقد أنه ولي من أولياء الله عز وجل .

لكن كيف لنا أن نفرق بين هؤلاء الذين يدعون الولاية وهم أبعد الناس عنها ، وبين أولياء الله حقًّا ؟

يفرق بينهم بتقوى الله عز وجل ، والإيمان به ، والاستقامة على دينه ، هذا هو الفرق . فلزوم الاستقامة لا شك هو الغاية التي يمكن أن يعرف بها أن هذا ولي أو ليس بولي ، قال الليث بن سعد : (إذا رأيتم رجل يمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة) ، قيل للشافعي كلام الليث قال : قصَّر الليث ، وزاد عليها : (ويطير في الهواء) . حتى يفرق بين الكرامة وبين هذه الأعمال الشيطانية يعرض حال هذا الإنسان على كتاب الله وسنة رسوله ، فإن كان ملتزمًا الأصلين متمسكًا بالنهجين ، عرف أن ما حصل له قد يكون كرامة .

أما إذا كان بعيد عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا تكون أبدًا كرامة ، وإنما هي شعوذة ودجلٌ وكذبٌ على العوام .

نعود إلى الحديث ، قال : (**« إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت » . قال عوف : العيافة زجر الطير**) .

كانوا في الجاهلية يزجرون الطير ليتفاءلوا أو يتشاءموا بأسمائها ، بأصواتها ، بممرها كما يقول أبو السعادات بن الأثير رحمه الله فيهيج الطير إذا كان يريد أن يقدم على شيء يهيج الطير ، فإن ذهب يمينًا تيامن ومضى ، وإن ذهب شمالاً

تشاءم وأحجم ، وزجر الطير نوع من الطيرة فهي أخص من الطيرة كما سيأتينا إن شاء الله .

هذه المظاهر من الخرافة كانت موجودة في الجاهلية ، جاء الإسلام وألغى كل هذه الأمور ، ونقى قلوب الموحدين المسلمين وجعل تعلقهم برب العالمين ، فإذا أراد أن يُقدم أو يحجم وتردد ، ماذا يعمل ؟ الجواب: يستخير ، يصلي صلاة الاستخارة ويستخير ربه ما يستخير الطير ، لاحظ الفرق ، ماذا عند هذا الطير ؟ ولهذا بعض العقلاء من العرب حتى في الجاهلية لم يكونوا يفعلون مثل هذه الأمور ، بل كانوا يستخفون بها ، وفي الجاهلية موحدون كزيد بن عمرو بن نفيل الذي ترك عبادة الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعًا ** كذلك يفعل الجلد الصبور

فلا العزى أدين ولا ابنتيها ** ولا صنمي بني غنم أزور

ولا هبلا أزور وكان ربًّا ** لنا في الدهر إذ عقلي صغير

يقول هبل ربي يوم كان عقلي صغير . لكن لما رشد وعقل وأدرك ترك كل هذه المظاهر وصار موحدًا ، والد سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين سعيد ولده ، وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة يعدون أناسًا ، كذلك في العرب مَنْ حتى وإن لم يكن موحدًا ؛ لأن الجاهلية بقيت بقايا دين إبراهيم موجودة بين العرب ؛ لكن الذي أبطلها الشرك بالله ، لما وقعوا في الشرك بطلت كل أعمالهم ، وإلا فكانوا يحجون ويعتمرون ويصومون ويتصدقون ويعتقون وينذرون ، بل ويعتكفون ، والدليل حديث عمر في ((**الصحيحين**)) نذرت أن أعتكف في

الجاهلية ؛ لكن ما تغني هذه الأعمال مع الشرك ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

المقصود : أن هذه الأمور منافية للعقل أبطلها الشارع الحكيم ، وهي أيضًا منافية للعقل ، يعني لو فكر الإنسان ، شخص يزجر الطير ، أو ينظر إلى حيوان يمر به ، ذهب يمين أو يسار ، ولهذا يقول بعضهم :

وما أنا ممن يزجر الطير همه ** أطار غراب أم تعرّض ثعلب

أم السانحات البارحات عشية ** أمرَّ سليم القرن أم هو أعضب

يعني إذا مر واحد منكسر قرنه تشاءموا ، إذا قرونه طوال وليس فيها شيء تفاءلوا ، إذا مر غراب تشاءموا بالغراب ، أو بومة أو كذا وكذا .

ولبيد بن ربيعة العامري - بني عامر قبيلة معروفة في الجاهلية - عاش في الجاهلية ستين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، بعد أن أسلم هجر الشعر وهو من شعراء المعلقات الكبار ، له معلقة في الشعر ، ولم يقل إلا أبيات قليلة :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ** حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

يفرح ويفتخر أن الله مد في عمره حتى اكتسى ثوب الإسلام ، يقول في بيت الظاهر أنه في معلقته :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

الضرب بالحصى يأتينا الآن ، وزاجرات الطير ، ما الذي يدريهم ما الله صانع ؟ كله ضربٌ من الخرافة ، والدجل على الناس لأجل أكل أموال الناس بالباطل .

(**« إن العيافة والطرق »**) الطرق قال عوفٌ : (**الخط يخط بالأرض**) ، يخط خطوط ، مجموعة خطوط يعني كأنها طرق ، ولهذا سمي طرق ، يمسح منها

واحد اثنين كذا ويبقى منها بقية ثم يقول : يأتي كذا يحصل كذا ، كذا كذا كذا . وهذه من مظاهر أيضًا الدجل والعبث بعقول الناس .

هذه الأمور تمحى مع التوحيد لا يوجد لها أثر ، ولهذا ولله الحمد لا نعرفها إلا في الكتب ؛ لكنها موجودة هنا وهناك .

وأما الطيرة فستأتي في باب كامل وهي التشاؤم بالطير ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالأزمنة . بعضهم يقول : خير يا طير ، هذه كلمة تسمعها ووردت على ألسنة الناس مع الأسف ربما من الأجهزة ، أو من كذا ، وما كنا نعرفها ، ربما تسمعها هنا وهناك ؛ لكن مع بداية التوحيد ما كان الناس يعرفونها ، لما قال رجل لطاووس وسمع نعيق طير قال : خير ، قال : لا خير ولا شر ، لا تصحبني .

المقصود : أن هذه الأعمال من أعمال الجاهلية ، وهي من الجبت :

- إما أن يقال : (من) هنا ابتدائية ، يعني ناشئة من الجبت .
- أو تكون للتبعيض ، أي أنها بعض من الجبت ، والجبت أنواع وأشكال كثيرة .

(**والجبت قال الحسن : رنة الشيطان**) ، ومر بنا أن الجبت في قول عمر هو : السحر ، أو الفشل ، أو الشيء المرذول الذي لا خير فيه .

وقال : (**رنة الشيطان**) يعني صوت الشيطان ، أي أنه يدعوا إليه بصوته ، بصوته وعويله ، قال تعالى : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾ [الإسراء : ٦٤] ، فهذا من صوت الشيطان الذي يستفز به الناس ويدعوهم إلى الشرك وإلى أنواع المحرمات .

الذي في ((**المسند**)) الجبت قال الحسن : (إنه الشيطان) ، بعضهم يقول : في تصحيف . لكن أين هذا التصحيف ؟ هل هو بالنص الموجود عندنا في كتاب التوحيد أو بالمسند ؟ الله أعلم ، ولكن معروف كلام السلف في رنة الشيطان .

وقد ثبت عن مجاهد أنه قال : إن للشيطان أربع رنات ، أو رن أربع رنات :

- رنة لما لُعن ،
- ورنة لما طُرد من الجنة ،
- ورنة لما بُعث النبي ﷺ ،
- ورنة لما أنزلت سورة الفاتحة .

ثبت هذا عن مجاهد رحمه الله تعالى .

الطالب: كيف تكون العيافة والطيرة من الجبت ؟

أولاً : إذا قلنا :

- الجبت ، كلمة عامة تشمل الشرك ، وتشمل السحر ، وتشمل الكهانة ما في إشكال ، يعني أنها داخلة فيها .
- لكن إذا أخذنا بكلام عمر رضي الله عنه وأرضاه أن الجبت هو السحر فلأن تأثير هذه الأمور في النفوس يكون بطريقة خفية فأشبهت السحر من هذه الناحية ، يعني ليست سحرًا على الحقيقة ؛ لكنها تشبهها في كونها تؤثر في النفوس ، قد يكون في بعضها استعانة بالشياطين كالطرق ، ادعاء لعلم الغيب أيضًا ؛ لكن بالنسبة للعيافة والطيرة شبهوها بالسحر من هذه الناحية .

(**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد » . رواه أبو داود ، وإسناده صحيح**) .

(**من اقتبس شعبة**) أي طائفة أو قطعة من التنجيم سيأتي له باب خاص ، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية ، ربط الحوادث الأرضية بأحوال الفلك .

(**« فقد اقتبس شعبة من السحر ، زاد ما زاد »**) أي:

- كلما زاد اقتباسًا من شعب التنجيم فقد زاد من اقتباس شعب السحر .
- أو كلما زاد من اقتباس شعب التنجيم زاد من الإثم ، فيكون إثمه كإثم الساحر .

القولان كما يقول الشيخ سليمان رحمه الله متلازمان .

هذا نوع من السحر له شبه بالسحر ، والشبه به أيضًا أن ما يحصل في النفوس من التأثر بالتنجيم إنما يحصل بطرق خفية ، فأشبه السحر من هذه الناحية .

(**وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئًا وُكِلَ إليه**) .

قال : (**وللنسائي من حديث أبي هريرة**) ، لم يذكر المؤلف رفْعَه إلى النبي ﷺ ، وهو عند النسائي مرفوع .

قال : (**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**) هذا هو سحر العقد ، هذا الحديث حسنه ابن مفلح رحمه الله وضعفه الذهبي ، والحديث الأول حديث (**« إن العيافة »**) يضعفه بعض أهل العلم ، وهذا الحديث يعني وإن كان في سندها

ما كان فمتنها صحيح ، وتشهد لها النصوص ، وسيأتينا في باب الطيرة أحاديث مخرجة في ((**الصحيح**)) .

هذا الحديث (**من عقد عقدة**) أيضًا شواهده كثيرة ، منها قوله تعالى ﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ [الفلق : ٤] . وذلك أن السحرة والسواحر إذا أراد أن يسحر يعقدوا عقدًا ، وينفث فيها من ريقه الخبيث ، ويدعوا فيها بدعوات للشياطين وتحضره الشياطين وتعينه على مقصوده في حصول الأذى والتأثير لمن يريد أن يسحره ، فكل ما عقد عقدة نفث فيها .

والنفث دون التفل ، عندنا النفخ بلا ريق ، ونفث بشيء من الريق ، وأما التفل فمعروف ، فيعقد هذه العقد وينفث فيها ، وتعينه الشياطين في تحقيق الأمر الذي يريده ، فإن كان أراد أن يؤذي شخصًا قد تحصن وتحرز بالأوراد فهل يصل إليه ؟ قال ﷺ – والحديث في ((**الصحيح**)) – : « **من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في اليوم مائة مرة كتب له مائة حسنة ، ومحي عنه مائة سيئة ، وكان حرزًا له من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأتِ أحدٌ بمثل ما أتى به إلا رجل قال مثل قال وزاد عليه** » ، الشاهد قوله : « **وكان حرزًا له من الشيطان** » يحفظه الله عز وجل .

الأوراد والأذكار عظيمة ، وكنت ذكرت لكم مرة ما سمعته بأذني في برنامج كان يأتي في إذاعة القرآن الكريم (كيف أسلمت ؟) رجل من الفلبين أسلم ولخص قصة إسلامه بأنه كان موجود في المملكة ثمان سنين يقول : ما عرض علي أحد الإسلام ، وكان يسكن في سكن شركة خارج الرياض ، قال : وكنت أتعاطى الشعوذة ، فإذا جاء الأذان في القناة الثانية – وكانت قناة في التليفزيون

باللغة الإنجليزية – فإذا جاء الأذان هربوا ، فأسألهم فلا يخبرونني . قال : ويومًا من الأيام دخلت الرياض فسمعت الأذان وأنا ما أعرف الأذان فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هذا أذان . قلت : ما الأذان ؟ قالوا : هذا نداء للصلاة . فكان هذا السبب في دخوله في الإسلام ، ما أحد عرض عليه الإسلام ، لما أراد الله له الخير هداه ، ودله وأرشده دون أن يدعوه أحد . **الشاهد قوله :** يهربون عند الأذان .

ونحن عندما نذكر هذه الأمثلة الحسية ، وإلا فالنبي ﷺ قال عن الشيطان إذا سمع النداء : « **أدبر وله ضراط ، فإذا قضي الأذان أقبل ، فإذا ثُوِّب** » يعني أقيمت الصلاة « **أدبر** » ، لا يريد أن يسمع الذكر ، فالإنسان الذي يُحصن نفسه يحصن أولاده وأهل بيته ، يحصنهم ويعودهم المحافظة على الأذكار ، ويعوذهم بالله عز وجل ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ حتى ذريتها الذين لم يأتوا بعد ﴿ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] .

قال : (**ومن سحر فقد أشرك**) لأنه لم يصل إلى مراده بهذا السحر الذي يصنعه ، ويعقده ، وينفث فيه إلا عن طريق الشياطين فيتقرب إلى الشياطين بالشرك بالله عز وجل .

وكما قلت لكم في الدرس الماضي : لو تسمع بعض قصص التائبين من السحرة ماذا كانوا يعملون يشيب رأسك ، كيف يعامل القرآن وكيف يرمى بالأوساخ وكيف وكيف ! فسحر العقد لا يكون إلا بالشرك بالله عز وجل .

ثم قال : (**ومن تعلق شيئًا وُكِلَ إليه**) وهذا الأثر في درس المراجعة اليوم ، أخبر عبد الله بن عكيم : من تعلق شيئًا وكل إليه ، يعني الساحر تعلق بسحره

فيوكل إلى سحره ، أو من يأتون السحرة ليستشفوا بهم يكلهم الله تعالى إليهم ويتخلى عنهم .

قال رحمه الله : (**وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ألا هل أنبئكم ما العضه ؟ هي النميمة القالة بين الناس » . رواه مسلم**) .

قال ﷺ في حديث ابن مسعود (**« ألا هل أنبئكم »**) ، النبأ كما مر بنا في التفسير لا يكون إلا في الخبر العظيم ، وأما الخبر فيكون في العظيم وفي غيره .

(**« ألا هل أنبئكم ما العضه »**) ؟ المشهور عند أهل الحديث بهذا اللفظ (العَضْهُ) ، وعند أهل الغريب كما يقول ابن الأثير رحمه الله : ما العِضَةُ ؟

(**« هي النميمة القالة بين الناس »**) ، والنميمة هي نقل الكلام على وجه الإفساد ، يأتي إلى شخص فيقول : قال فلان عنك كذا ، وقال فلان عنك كذا ، وقال فلان عنك كذا ، وهي من كبائر الذنوب ، قال ﷺ : « **لا يدخل الجنة قتات** » ، والقتات النمام . وقال ﷺ وقد مر بقبرين في حديث ابن عباس المخرج في ((الصحيحين)) « **إنهما ليعذبان وما يعذبان بكبير ، بلى إنه كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة** » .

قال : (**« النميمة القالة بين الناس »**) ، يعني الكلام بين الناس القيل والقال ، ونقل الكلام ، وهذا يبتلى به – حفظنا الله وإياكم – بعض الناس ، وينبغي للإنسان عندما يأتي إليه شخص ينقل له كلامًا أن لا يقبل منه ، لا يقبل منه ، ويظهر له بأنه لا يريد أن يسمع هذا الكلام ؛ لأن هذا الذي نقل إليك سوف ينقل عنك ، يريد منك كلمة ثم يذهب ويخبر بها الطرف الآخر ، ثم يوقع العداوة والبغضاء بين الناس .

قالوا : ووجه شبهه بالسحر ما يحصل به من التفريق . يحصل تفريق بسبب النميمة مثل ما يحصل من السحر من التفريق بين الرجل وامرأته ، كما يفرق الساحر بين المرء وزوجه يفرق النمام بين الأحبة والأصحاب والأقارب ، حتى قال يحيى بن أبي كثر : يفسد النمام والكاذب في ساعة ما لا يفسده الساحر في سنة .

والشارع الحكيم إنما حرم النميمة لما يترتب عليها من الفساد والقطيعة والبغضاء ، فالواجب الحذر منها وممن ينقل الكلام بين الناس ، قد يخيل للإنسان أن هذا الذي أخبرك ناصح لك ، أخبرك بأن فلانا قال فيك كذا وكذا ، لا هو ليس ناصحًا ، هو نقل هذا الكلام وكما ذكر سينقل عنك لتحصل بغيته عياذًا بالله من هذه المهنة الرديئة التي يمتهنها .

إذًا العضه هي النميمة . قال في القاموس : يقال عَضَهَ الرجل ، يعني كذب وسحر ونَمَّ ، فهي تطلق على النميمة وتطلق على السحر وتطلق على الكذب .

قال رحمه الله : (**ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان لسحرًا »**) .

في ((**الصحيحين**)) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : (**« إن من البيان لسحرًا »**) البيان هو حسن الكلام البلاغة الفصاحة ، قال : (**« إن من البيان لسحرًا »**) أي أن البيان يؤثر في النفوس ، ويتسلل إلى القلوب فيستميلها ، كما السحر يؤثر في النفوس وفي القلوب أيضًا . فيحصل بالبيان من الصرف والعطف مثل ما يحصل بالسحر . والإنسان عندما يتكلم بباطل لا يأتي بالكلام هكذا على هَوَاهِنِهِ ؛ ولكن يزينه :

- **أولاً :** بشيء من الحق يلبسه إياه ، وهذا من شرف الحق ، حتى قال عز وجل : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴾ [البقرة : ٤٢] . أهل الباطل يقتبسون شيئًا من الحق ، حتى يروج باطلهم ؛ لأن الباطل إذا كان مكشوف لا يروج ، ثم يزينه بزخرف القول ، يحسنه ويجمله .

في زخرف القول تزيين لباطله ** والحق قد يعتريه سوء تعبير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه ** وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير

إذا واحد قال لك : هذا مجاج النحل ، ستشتهي العسل وإن كنت لا ترغب فيه ، وإذا قال : هذا قيء الزنابير ربما لا ترغب فيه حتى ولو كنت تشتهيه ، والسبب هو تزيين القول أو تقبيحه . فالبيان لا شك يؤثر ، ولهذا قال عليه السلام : (**« إن من البيان لسحرًا »**) ، هل هذا ذمٌّ للبيان أو مدح له ؟

- قال بعض أهل العلم : ذم .
- وقال بعضهم : بل هو مدح ، وهم الجمهور .
- وإنما كما قال شيخ الإسلام يبين السبيل بالتفصيل ، يعني بالتفصيل يبين السبيل ويتضح ، فيقال : بعض البيان مذموم ، وبعضه ممدوح .

وقد تكلم رجل عند عمر بن عبد العزيز فأحسن الكلام ، فقال : هذا والله السحر الحلل .

فإذا كان الكلام في أمر طيب ، وكان فيه بيان لاشك كان محمودًا وكان ممدوحًا ، وقد قال ﷺ : « **إن قصر خطبة الرجل وطول صلاته مَئِنَّة من فقهه** » ، من يؤدي المعاني الكثيرة بالألفاظ اليسيرة فقيه ؛ لكن من يستطيع هذا إلا من وفق ووهب هذا الأمر . أما إذا كان الكلام في باطل فلا ريب أنه يكون مذمومًا .

إذًا جنس البيان ممدوح ؛ لكن منه ما هو ممدوح ومنه ما هو مذموم .

ووجه شبهه بالسحر ، لماذا أورده المؤلف في السحر ؟

لأنه يؤثر في النفوس بطريقة خفية ، يتسلل إلى القلوب وإلى النفوس ويقلب الموازين ، فيظهر الحق في صورة الباطل والباطل في صورة الحق. وما أكثر ما يسمع الناس عبر وسائل التواصل ووسائل الإعلام ، وما يسمعون من الأمور التي هي من قبيل الباطل ، ومع ذلك تعرض على أنها من قبيل الحق .

الواجب على الإنسان : أن لا يغتر بكل ما يسمع ، وأن يتأنى ، ويتريث ، ويعرض ما يسمع على أهل الرأي . قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : ٨٣] . سماع الإشاعات والكلام الذي يقال ، والتفاعل معه والتأثر به ، قد حذر الله سبحانه وتعالى منه ، قال : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ ﴾ . فيتعين على الإنسان في كل هذه الأمور أن يتريث ولا يستعجل ، ولا يحرص أن يسمع كل ما يقال ، ولو حرص الإنسان أن لا يسمع إلا ما هو نافع ومفيد لكان خيرًا له ، فإن الكلام كما يقول أهل العلم ثلاثة :

١ . كلام مفيد ، تكلم به واسمعه دون تحفظ.

٢ . وكلام ضار ، ابتعد عنه لا تسمعه ولا تتكلم به ، فإن ضرره يرجع إليك .

٣ . كلام لا ينفع ولا يضر ، قالوا : فالعاقل يشح بوقته عنه ، عن الكلام الذي هو من فضول المباح . الله أكبر أنظر إلى قيمة الوقت عند أهل العلم ، يمر بالإنسان مستقبلاً وقت يتمنى أن لو استفاد من كل لحظة من عمره ، عندما ينظر

إلى الماضي المنصرم وكيف ذهبت هذه الساعات والأيام والأشهر والسنوات ، وماذا أودع فيها من الباقيات الصالحات فيعض أنامله ، ويندم ، ويتمنى لو استفاد من الوقت ، فاستفيدوا من أوقاتكم فيما ينفعكم ، علمٌ نافع تتعلمونه ، أو عبادة لربكم تتعبدون بها ، هذا الذي خلقنا من أجله . أما إضاعة الأوقات في فضول المباحات وهذا الذي تخشاه على طلاب العلم ، طالب العلم إن شاء الله بعيد عن ما يضره أو يضر غيره ؛ لكن التشاغل بفضول المباحات لا شك تذهب به الأوقات دون أن يستفيد الإنسان بكبير فائدة .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت .

الثانية : تفسير العيافة والطرق .

الثالثة : أن علم النجوم من نوع السحر .

الرابعة : العقد مع النفث من ذلك .

الخامسة : أن النميمة من ذلك .

السادسة : أن من ذلك بعض الفصاحة) .

الشيخ رحمه الله يرى أن بعض البيان ، وليس كل البيان ، فالحديث (**« إن من البيان لسحرًا »**) ليس فيه ذمٌّ للبيان مطلق ، ولا مدحٌ له مطلق ، وإنما يمدح ما كان محمودًا ويذم ما كان مذمومًا .

وفقكم الله ، وبارك فيكم وأعانكم

شرح كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله :

(باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في ((صحيحه)) عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال : « من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يومًا ») .

(**باب ما جاء في الكهان ونحوهم**) ، (**ونحوهم**) كالرمَّال الذي يخط في الرمل ، وكالمنجم الذي ينظر في النجوم ، وكالعراف ، وسيأتي تعريف العراف في كلام البغوي وفي كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى ، وكلام شيخ الإسلام كلام جامع في بيان معنى العراف .

والكاهن أيضًا هو:

- الذي يدعي معرفة المغيَّبات في مستقبل الزمان ،
- أو الذي يدعي معرفة ما في الضمير .

عقد المؤلف هذا الباب إلى جانب السحر ؛ لأن الكاهن والساحر يشتركان في الاستعانة بالشياطين ، يستعينون بالشياطين ؛ لكن الكاهن لا يُظهر للناس هذا الأمر أبدًا ، ويدعي أنه يعرف أمور اختص بها لا يعرفها غيره .

قول أبو سليمان الخطابي رحمه الله : الكهان قومٌ عُرفوا بشهادة الامتحان ، لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطبائع نارية ، يفزعون إلى الشياطين فيستفتونهم فيلقون إليهم الكلمات .

والكهان كانوا موجودين في الجاهلية بكثرة ، وكانت الجن تسترق السمع فتلقيه عليهم ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣] (السمع) ما يخطفونه من السماء ويلقونه له كما مر بنا في حديث أبي هريرة المخرج في ((**الصحيحين**)) « **فيسمعه مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا** » وصفه سفيان بكفه ، إلى أن قال : « **يلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن فربما أدركه الشهاب** » إلى أن قال : « **فيكذب معها مائة كذبة** » ، خبرٌ صحيح واحد كما قال عليه السلام ، في حديث آخر « **فما جاءوا به على وجه فهو حق ؛ ولكنهم ليقرفون ويزيدون** » .

حرس الله تعالى السماء بعد مبعث محمد ﷺ ، وملئت السماء بالحرس ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ [الجن : ٨ ، ٩] قبل مبعث النبي ﷺ ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴾ ، كانوا يستمعون وكانوا يرمون حتى في الجاهلية .

وفي حديث ابن عباس المخرج في ((**صحيح مسلم**)) قال : أخبرني رجل من الأنصار قال : بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ رمي بنجم فاستنار ، فقال : « **ما كنتم تقولون إذا رُمِي بمثل هذا في الجاهلية** » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم نقول :

وُلد ليلة عظيم ، ومات الليلة عظيم . قال عليه السلام : « **إنه لا يُرمى بها لموت أحدٍ ولا لحياته** » . الحديث .

فبين ابن عباس في هذا الحديث أن هذا الأمر كان موجود في الجاهلية ، سألهم النبي ﷺ « **ما كنتم تقولون إذا رأيتم مثل هذا في الجاهلية** » .

وبعد مبعثه حرست السماء وملئت حرسًا شديدًا وما عادوا يستطيعون أن يسترقوا السمع حفظًا للوحي ، حفظ الله هذا الوحي وحماه أن تتسلل إليه الشياطين قال تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۞ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ [الجن : ٢٦ - ٢٨] .

بعد موت النبي ﷺ يُرمى بهذه الشهب ، والشياطين قد يسترقون السمع ؛ لكن لا شك أنه كان أقل مما كان في الجاهلية .

قال : (**روى مسلم في ((صحيحه)) عن بعض أزواج النبي ﷺ**) وهي حفصة بنت عمر رضي الله عنها وعن أبيه أن النبي ﷺ قال : « **من أتى عرافًا فسأله فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا** » .

هذه الزيادة « **فصدقه** » ليست في ((**مسلم**)) ، كما ذكر الشراح الشيخ سليمان رحمه الله وغيره ، والذي في ((**مسلم**)) « **لم تقبل له صلاة أربعين يومًا وليلة** » ، دون قوله : « **فصدقه** » . هذه الزيادة ذكر بعض أهل العلم أنها عند أحمد في حديث حفصة .

لو أن أحدكم بحث عنها في ((**المسند**)) وما قيل فيها . يعني زيادة « **فصدقه** » ، هذه ليست في ((**مسلم**)) لكن سيأتي في حديث أبي هريرة وغيره

أنها موجودة وثابتة أيضًا وصحيحة ؛ لكن في هذا الحديث بخاصة وردت في ((**مسند أحمد**)) كما ذكر بعض أهل العلم .

قال : (« **لم تقبل له صلاة أربعين يومًا** ») ، يعني صلاته غير مقبولة ؛ لكن هل هي مجزئة أو تلزمه الإعادة ؟ الجواب: نفي القبول:

- إذا كان سببه عدم وجود الشرط ، أو وجود مانع فإنه يدل على البطلان بلا شك ووجوب الإعادة ، كقوله ﷺ : « **لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ** » . لا يقبلها بالكلية ، ولا تصح منه وتتعين عليه الإعادة .
- لكن إذا كان نفي القبول لا لفوات الشرط ولا لوجود مانع فقد يقال : إن الصلاة مجزئة ، كما في هذا الحديث ، فعدم قبولها ليس لأمر يتعلق بذاتها وإنما أمر خارج ، أمر عارض ، فصلاته مجزئة لكنها غير مقبولة وبالتالي لا يؤجر عليها .

والحديث يدل على تحريم إتيان الكهان وسؤالهم ، حتى وإن لم يصدقهم فإن إتيانهم إظهار لشأنهم ، وربما يكون وسيلة إلى تصديقهم ، وسيلة إلى تصديق الكهان .

الخرافة إذا انتشرت في البلاد دخل معها الشرك من كل باب ؛ لكن إذا قام العلماء بسد هذه المداخل ، وتحذير الناس منها ، وإبعادهم عنها ، فلعل الله تعالى أن يحميهم .

فلا يجوز إتيان الكهان بحال ، وفي حديث معاوية الذي إن شاء الله تواعدنا بحفظه قلت : يا رسول الله منا أناس يأتون الكهان ، قال : « **فلا تأتهم** » . لكن إن جاء إلى الكاهن وصدقه كما سيأتينا فالأمر كبير ، خطير لا شك .

(**وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » . رواه أبو داود .**

وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما عن أبي هريرة « من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ ») .

قال : (**وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ »)** .

(**وللأربعة والحاكم وقال : صحيح على شرطهما**) ، شرطهما الضمير هنا يرجع إلى البخاري ومسلم .

وشرط البخاري هو ثبوت اللقيا مع ثبوت السماع منه أيضًا .

بينما مسلم يكتفي بالمعاصرة ، إذا كان معاصرًا له يكتفي بهذا ، فالحديث على شرط البخاري ومسلم .

قال العلماء : والحديث ليس عند الأربعة . وكأن المؤلف رحمه الله تبع الحافظ ابن حجر في ((**الفتح**)) حيث عزاه إلى أهل السنن ، والحديث عند أحمد وغيره رحمه الله .

وهو حديث صحيح قال عنه الذهبي : إسناده قويٌّ . « **من أتى عرافًا أو كاهنًا فسأله فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد** » يعني كفر بالقرآن فالأمر خطير ، فإذا سأله وصدقه في دعوى علم الغيب فذلك كفرٌ بلا ريب ، لأنه

تكذيب للقرآن ، إذا قال الكاهن : هو يعلم الغيب ، فصدقه ، صدقه من غير جهل ، هذا لا شك كفر ، والكاهن كافر بادعائه علم الغيب وطاغوت ؛ لأن ربنا عز وجل يقول : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ [النمل : ٦٥] (قل) يا محمد ، ومر بنا في التفسير أن القرآن كله أمر النبي ﷺ أن يبلغه للناس ، فما معنى أن يقال في بعض الآيات : ﴿ قُلْ ﴾ كذا وكذا ، لماذا ؟ للدلالة على أهمية الموضوع ، يعني قل بهذا الموضوع بخاصة .

﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ، لا يعلم الغيب ، فكيف يقال : إن هذا الكاهن يعلم الغيب ؟ والشياطين تدعي ذلك ، والكهنة يدعون ذلك ، ويُلَبِّسُون على السذج من الناس والجهلة فيخبرونهم بأشياء غائبة فربما صدقوهم بهذا الأمر ، فإذا ادعى الكاهن علم الغيب دون أن يستند فيه إلى الشياطين فهذا كفرٌ لا إشكال فيه .

وهذا بلية ابتليت بها الأمة وهي مسألة نسبة علم الغيب إلى غير الله عز وجل كنسبته إلى النبي ﷺ ، ودعوى أن النبي ﷺ يعلم الغيب ، وهذا موجود عند المتصوفة ، ولا يشك فيه عندهم ، ولا يقبلون الجدال فيه ، وإذا جادلت فيه قالوا : أنت لا تحب النبي ، وأنت لا تعظم النبي ، وأنت وأنت . مع أن الله قال لمحمد ﷺ بالنص : ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام : ٥٠] ، فمحمد يقول : أنا لا أعلم الغيب ، وأنت تقول أنه يعلم الغيب ؟ ويقول هنا : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ ، قل لهم لا أحد يعلمه إلا الله وأنتم تقولون أنه يعلمه ! ، بل قال عنه ﷺ : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ

الْخَيْرِ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] . وقبله عليه الصلاة والسلام قال نوح : ﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [هود : ٣١] ، فدعوى علم الغيب لغير الله عز وجل تَنَقُّص لله عز وجل ، هضمٌ لتعظيم الرب سبحانه وبحمده ، أن تجعل أحدًا من الخلق حتى ولو كان له مكانة وقدر تجعل له مع الله سبحانه وتعالى في هذا الأمر العظيم .

إذا كان الكاهن يدعي أن هذه الأمور المغيبة يأخذها من طريق الجن ، وقال : الجن تأتي به من السماء ، تخطفه من السماء ، وهذا ثابت بالنصوص الصحيحة الواضحة أن الجن تخطف الكلام من السماء من الملائكة ثم تلقيه في أذن الكاهن ، فهذا الذي يسأله يقول : أنا ما صدقته أنه يعلم الغيب علمًا مستقلاً ؛ لكن لأنه يأتيه الغيب من الجن مما يخطفونه ، فهل هذا كفرٌ ؟

هذا محل خلاف بين أهل العلم:

- فبعضهم قال : هو كفر ، النبي ﷺ قال : « **فصدقه** » ، وأطلق ولم يفصل ، ومعروف أن الكهان إنما يأتون بأخبارهم عن طريق الجن واستراقهم السمع .
- وبعض أهل العلم قال : لا هو ليس كفر أكبر ، ولكنه كفر دون كفر . واستدل على ذلك بالحديث السابق (**« لم تقبل له صلاة أربعين يومًا »**) . نعم لو ثبتت كلمة « **فصدقه** » ربما كانت تقوي هذا القول ، قوله : (**« لم تقبل له صلاة أربعين يومًا »**) ، يدل على أنه لم يكفر .

فإذًا المسألة محل خلاف ، فبعضهم يقول بكفره مطلقًا أخذًا بظاهر الحديث ، حيث سأله وصدقه .

لكن يجب أن نفرق بين هذه المسألة وبين مسألة ما إذا ما صدقه في دعوى علم الغيب استقلالاً ، أنه قال : يعلم الغيب . لا شك كفر أكبر ، هذا تكذيب للقرآن صريح ؛ لكن لو صدقه في دعوى أنه يأتي بهذا الغيب من طريق الشياطين ، والشياطين يأتونه بهذا الأمر الذي كان غائبًا ولم يكن يعلمه ؛ لكن يكذب معه مائة كذبة ، فكيف يصدقه ؟ ولهذا قال شيخ الإسلام : من يسأل الجن ، أو يسأل من يسأل الجن فيصدقهم بكل ما يقولون فهذا معصية وكفرٌ . من يسأل الجن ، وهذه مسألة يُبتلى بها بعض الناس من القراء قد يسأل ، وقد يجيبه جوابًا صحيحًا مرة يستدرجه ، أو مرتين ثم يكذب . من الذي سحر ؟ ومن الذي فعل كذا وكذا ؟ ثم يقول : الذي سحره فلان . وهو لم يسحره ، فيقع من الفتن بين الناس أمور في غاية الخطورة ، فلا يجوز سؤالهم وتصديقهم بكل ما يقولوه ، وهذا من الاستمتاع بهم الذي ذكره ربنا عز وجل في قوله : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

قال رحمه الله : (**ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا**) .

(**ولأبي يعلى**) الموصلي (**بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا**) عن ابن مسعود ، وهذا الموقوف لا يقوله ابن مسعود من عند نفسه ، فله حكم المرفوع .

قال رحمه الله : (**وعن عمران بن حصين مرفوعًا : « ليس منا من تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ له ، أو تَكَهَّنَ أو تُكُهِّنَ له ، أو سَحَرَ أو سُحُرَ له ، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ » رواه البزار بإسناد جيد .**

ورواه الطبراني في ((الأوسط)) بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله : « ومن أتى » إلى آخره) .

(**وعن عمران بن حصين مرفوعًا : « ليس منا »**) هذا من أحاديث الوعيد .

(**« ليس منا »**) ، أي ليس من أتباعنا المقتفين أثرنا ، السائرين على نهجنا .

وهذا الحديث انقسم الناس فيه إلى طوائف :

- فالخوارج يجدون فيها فرصة للتكفير ، فما ذكر فيها من فعله يكون كافرًا ، (**« ليس منا »**) أي ليس مسلمًا .
- وأما أهل السنة فبعضهم لا يبينها ، ويتركوها هكذا حتى يكون أبلغ في الوعيد ، يتركها على ظاهرها . ولهذا قال بعض أهل العلم في إتيان الكاهن وسؤاله : بالتوقف ، وعدم الحكم عليه بشيء .
- وهناك مسلك ثانٍ لبعض أهل العلم في أحاديث الوعيد وهي كثيرة « **ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية** » ، يقول : مثل هذه الأحاديث لا بأس أن تبين لطالب العلم ؛ لكن لا تبين للعامة ، لا تأتي عند العامة وتقول : (**« ليس منا »**) ليس معناه أنه كافر أو كذا أو كذا ، (**« ليس منا »**) ليس من أشياعنا السائرين على طريقتنا أو كذا ؛ لأن العامي إذا سمع مثل هذا الكلام ماذا يحصل منه ؟ يتساهل ولهذا لطلاب العلم ما ينبغي أن يلقوا أي كلام بين العامة . العامة يحملونه محامل ويجدون فيه مداخل ، فالأولى الكف عن مثل هذه الأمور بين الناس ؛ لكن بين طلاب العلم نعم ، طالب العلم لا بد أن يعرف الحكم ، فيقال : (**« ليس منا »**) ليس فيه ما يزعمه الخوارج أبدًا ، هو مسلم ؛ لكن ليس من الذين ساروا على نهج المصطفى وقفوا أثره وساروا على نهجه وطريقته عليه الصلاة والسلام .

(« **ليس منا من تَطَيَّر أو تُطُيِّر له** ») سواء باشر التطير بنفسه أو تطير له (« **أو سَحَر** ») عياذًا بالله (« **أو سُحُر له** ») طلب السحر ، (« **أو تكَهَّن** ») صار كاهن ، (« **أو تُكُهِّن له** ») سأل كاهنًا ، أو وصى أحدًا يسأل كاهن ، كل هؤلاء بعيدون عن المنهج والطريق القويم والعقيدة النقية السليمة وهم على خطر لا شك .

وبعض ما ورد لا شك قد يكون كفرًا كالسحر ، والكهانة أيضًا قال العلماء : إن الكاهن كافر ، لأنه يدعي علم الغيب .

وعلى كل حال فالنصوص التي مرت كلها تدل على أنه لا يجوز ارتياد الكهان ، سواء أتى الإنسان إليه مباشرة ، أو اتصل به بالهاتف ، أو دخل في موقع ، أو في قناته ، بل ولا حتى النظر فيما يكتبونه ، قال العلماء : لا ينظر الناس حتى إلى ما يكتبونه ، لأن الإنسان قد ينظر بالشيء ثم يقع هذا الشيء .

وتسمعون أنتم في الإعلام سيحصل كذا ويحصل كذا ، وربما يحصل ، كما قال الصحابة للنبي ﷺ : إنهم يخبرون عن الشيء فيقع . فبيَّن النبي ﷺ أن ما يقع إنما هو مما تخطفه الجن من الملائكة وتسترقه من السمع ؛ لكنه يخبر بخبرٍ فيقع ومع هذا الخبر يخبر بأخبار كثيرة لا تقع ، والناس إذا صدقوه في خبر صدقوه في كل ما يخبر به .

العلماء دائمًا يحذرون من النظر في الأمور التي تشتمل على حق وباطل ، قد ذكر صاحب ((**الكشاف**)) رحمه الله تحريم النظر في كتب أهل البدع ، كتب أهل الكلام ، وفي الفلسفة ، وفي الشعبذة أو الشعوذة ، وفي الطلاسم ، وفي كل ما هو مشتمل على حقٍّ وباطل ؛ لأن عامة الناس ما يفرق بين الحق والباطل ، بل يكون الحق الموجود قد يكون وسيلة إلى التسليم بالباطل ، وأغلى ما يملك

الإنسان دينه ، أغلى ما يملك دينه ، فلا يعرض دينه للخطر من باب الفضول والتطفل في النظر في مثل هذه الأمور ، قد يقع في قلبه شبهة بسبب أنه أعار قلبه لأناس يقصدون إفساده . والشبه كما يقول العلماء : خطافة ، تدخل الشبهة ثم يبحث عن كل وسيلة لإخراجها ، ويصاب معها بشيء من القلق ، ربما يعمد إلى أطباء نفسيين كما أخبرني بعض الفضلاء منهم أنه يراجعهم أناس يعانون من الشكوك والشبهات ، **والسبب هو** النظر في هذه الأمور ، وربنا حذر من النظر في هذه الأمور وبمجالسة أهل الباطل في قوله عز وجل : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] ، في النهاية ستكون مثله إذا جلست معه واستمرأت حديثه ولم تستنكر وتنكر عليه كلامه . وفي هذه الآية إحالة إلى آية ثانية في الأنعام ، وهي ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى ﴾ [الأنعام : ٦٨] ، إذا نسيت وجلست معهم ثم ذكرت فقم ودع المجلس بأكمله .

ما عادت اليوم مجالس ، مقاطع وأشياء تأتي الإنسان وهو على فراشه ولا قوة إلا بالله ، نحن ولله الحمد نتفاءل ؛ لكن الأمر كبير والأمر خطير ، تروج عليه الشبهة فتظل تجلجل في عقله وقلبه حتى تؤدي به إلى ترك دينه ، إلى ترك الصلاة ، إلى ترك الصيام ، إلى ولا قوة إلا بالله المروق من الدين ، ويرى هذا هو الحل للتخلص من هذه الشبهة ، لا هذا ليس حلًّا عياذًا بالله ، فهذا حاله كحال المستجير من الرمضاء بالنار .

وطريق العلاج من هذه الأمور كتاب الله عز وجل ، والوقاية خير من العلاج ، كون الإنسان يبتعد وينأى بنفسه ، قد تجد أناس يطرحون فيما بينهم وتعجب وتعجب ، يعني حدثني أحد الفضلاء من يراجعه بعض الناس ، يعني تعجب شيء يقشعر له البدن ، النبي ﷺ أخبر في آخر الزمان عن حصول هذه الأمور في قوله : « **بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم** » .

الناس يظنون الفتنة التي تكون بين الناس شجار وعراك وصراع وقتال وكذا ، وهذه لا شك فتنًا كبيرة وعظيمة ؛ لكن هناك فتن القلوب والمعاصي والقلوب ، هذه فتن خطيرة على مستوى الأفراد « **يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافر ، يمسي مؤمنًا ويصبح كافر ، يبيع دينه بعرض من الدنيا** » يتغير دينه بين ليلة ونهارها ولا قوة إلا بالله .

المقصود : أن الإنسان يعصم نفسه ، إذا سمعت مثل هذه الأمور والتي تطرح فيها الآراء تحت أسماء منمقة يدخل الإنسان فيها ويسمع ما فيها ، ويسمع الحق يتكلم به شخص لا يستطيع أن يعبر عنه ، ولا أن يوصله إلى الناس في كثير من الأحيان ، والباطل يتكلم فيه شخصٌ ويأتي من الشبهات ويأتي من الأمور ما لو علق بعضها بذهن الإنسان ولا قوة إلا بالله صعب عليه التخلص منه ، ولعلِّي ذكرت لكم في مناسبة كلام ابن القيم رحمه الله في قوله حول هذه المسألة :

فانظر ترى – يعني الشبهات – لكن نرى لك تركها ❊❊ حذرًا عليك مصائد الشيطان

فشباكها والله لم يعلق بها ❊❊ من ذي جناحٍ قاصر الطيران

قاصر الطيران في العلم

إلا رأيت الطير في قفص الردى ❊❊ يبكي له نوح على الأغصان

يشبه الإنسان الذي يسمع هذه الشبهات بالطير الحبيس في قفص يرى الطيور تطير ويتمنى أن يلحق معها ؛ لكن ما يستطيع ، هكذا الإنسان والذي انحبست هذه الشبهة في صدره ، فهو يتمنى أن يتخلص منها بكل وسيلة ، وقد يعافيه الله ويحفظه بحفظه وقد لا يتمكن من التخلص منها حتى تتحول هذه الشبهة إلى مرض عياذًا بالله ، مرض نفسي يضطر أن يعالج ، وهذا موجود .

يقول رحمه الله :

يا قوم والله العظيم وقعت في ** هذي الشباك وكنت ذا طيران

يعني كان عندي علم .

حتى أتاح لي الإله بفضله ** من ليس تجزيه يدي ولساني

حبر أتى من أرض حران فيا ** أهلاً بما قد جاء من حران

أخذت يداه يدي فلم يَرِم ** حتى أراني مطلع الإيمان

من يقصد ؟ شيخ الإسلام رحمه الله ، يقول : أتاح لي ربي هذا الرجل العالم فأنقذني الله تعالى به من هذه الأمور .

والمقصود : أن من ابتلي بهذه الأمور فعليه بكتاب الله عز وجل تلاوةً وتدبرًا وتأملاً ، وعليه أن يدعوا الله عز وجل . الأمر خطير ، المسألة خطير ، يزل بها قدم المسلم فينتكس على هامته حتى يصبح عياذًا بالله كافرًا ملحدًا .

المقصود : أن الإنسان إذا بتلي بمثل هذه الأمور فعليه بكتاب الله ، يقرؤه ويتدبره . وتذكرون كلام شيخ الإسلام الذي قيل في أكثر من مناسبة : (من تدبر القرآن طالبًا الهدى تبين له طريق الحق) ، (من تدبر القرآن) كائنًا من كان كافرًا أو مسلمًا ؛ لكن الحق يريد الهدى طالب الهدى ، تدبره بصدق ونية فلا بد أن

يتبين له الحق . وكتاب الله شفاء كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس : ٥٧ ، ٥٨] . فكتاب الله فيه الموعظة ، فيه الشفاء ، فيه الهدى ، فيه الرحمة ، فيه الفرح ، فيه الطمأنينة فمن أصيب في قلبه نعوذ بالله ونسأل الله أن يحفظ المسلمين ويحفظ شبابهم ذكورًا وإناثًا ، من أصيب في قلبه فأحس بشدة الأمر وخطورته فعليه بكتاب الله ، فإن كتاب الله سبحانه وتعالى كفيلٌ بأن يكون أعظم سبب لشفاء صدره ، وإلا فالقلوب تمرض كما تعرفون ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [البقرة : ١٠] ، فإذا مرض الإنسان في قلبه فالعلاج في كتاب الله ، ثم سؤال الله سبحانه وتعالى أن يمن عليه بالهداية .

والمقصود : أن نحذر إخواننا من النظر في مثل هذه الأمور ؛ لأن النظر فيها قد يردي الإنسان وقد يورده المهالك ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (**قال البغوي : العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ، ونحو ذلك .**

وقيل : هو الكاهن .

والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل .

وقيل : الذي يخبر عما في الضمير .

وقال أبو العباس ابن تيمية : العراف اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق) .

هذا التعريف جامع شيخ الإسلام رحمه الله (**العراف اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم ، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق**) ، كذلك كلام البغوي كلام نفيس ، هو (**الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة**) يأتون إليه ويقولون : سرق منا كذا وكذا فأين هو ؟ فيخبرهم بمكانه .

(**وقيل : هو الكاهن**) والكاهن هو الذي يدعي معرفة المغيبات في مستقبل الزمان . يدعي أنه يعلم الغيب ، وكل ما يأتون به إنما هو من الشياطين ؛ لكنهم لا يظهرون هذا إلى الناس أبدًا ، هو ما يقول : أنا أتعاطى مع الشياطين والشياطين يخبروني بهذا . فيتظاهر أن هذه كرامة من الله عليه ، وهذا يوجد كما يقول الشيخ سليمان في الشرح لأناس ممن ينتسبون إلى الولاية والكشف مما يقال عنهم إنهم أولياء ، يتعامل مع الجن ويخبرون ببعض الأمور ويخبر بها الناس والناس يظنون أن ما يخبر به من هذا الأمر الغائب إنما هو كرامة من الله عليه ، والله المستعان .

قال رحمه الله : (**وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم : ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق**) .

(**في قوم يكتبون أبا جاد**) ، يعني الحروف الأبجدية ، وينظر في النجوم ، ينظر في النجوم ويكتب الحروف ثم يكتب التوقعات ، وهذا يأتي في التنجيم ، وينظرون في البروج ، بروج الشمس اثني عشر الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان إلى آخره ، بروج يأتي الكلام عن هذا إن شاء ، ثم يربطون السعد والنحس بها ، لا قوة إلا بالله .

وهذا يفعله بعض الشباب من باب العبث أحيانًا ، يقول : ما طالعك ؟ يقول : طالعي الحمل . ثم يقرأ عليه ، يأتي لك كذا ويحصل لك كذا وكذا وكذا ويضحكون ، وكان يوجد في المجلات قديمًا التي تأتي من الخارج في آخرها يوجد صفحة خاصة بهذا الشيء ، فيأخذها الشباب من باب الدعابة ، لا ، ما ينبغي حتى ولو من باب الدعابة ، لأنه يتسلى أول الأمر ؛ لكن في النهاية قد يصدق ، وبعض الناس يعني حساس ، ربما لو قيل له هذا الشيء أخذ يفكر فيه ، وربما صدقه ولا قوة إلا بالله .

والمقصود : أن الإنسان ينأى بقلبه وعقله عن مثل هذه الأمور ، ويَرِد على أطيب الكلام وأحسن الحديث كلام رب العالمين فيرتوي من معينه ، وينهل منه ما هو غذاء قلبه وروحه وسبب نجاته في دينه ودنياه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن .

الثانية : التصريح بأنه كفر .

الثالثة : ذكر من تُكُهِّنَ له .

الرابعة: ذكر من تُطُيِّر له .

الخامسة : ذكر من سُحِر له .

السادسة : ذكر من تعلم أبا جاد .

السابعة : ذكر الفرق بين الكاهن والعراف) .

في كلام البغوي ما يشير إلى الفرق ، قال : الكاهن يدعي معرفة الأمور في المستقبل ، وأما هذا فيدعي معرفة المسروق ومكان الضالة بمقدمات ، وهي في الحقيقة استعانة أو استمتاع بالشياطين .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال رحمه الله :

(باب ما جاء في النُّشْرة)

هذا الباب شرحه فيه ، أورد المؤلف في آخره كلام ابن القيم عرَّف فيه النُّشْرة وبين حكمها وهو المقصود .

والنشرة في اللغة هي : الكشف والتفريق .

وفي الاصطلاح : حَلُّ السحر عن المسحور ، كما ذكر ابن القيم رحمه الله .

وهي نوع من العلاج والرقية ، يُعالج به من يُظَنُّ أن به مسًّا من الجن أو سحرًا .

قال ابن الجوزي : النُّشرة حَلُّ السحر عن المسحور ، ولا يكاد يقدر عليه إلا ساحر.

لكن العلماء رحمهم الله تعالى فصلوا في هذا الأمر ، وبينوا أنواعا من أنواع النشرة ، ما المحظور منها ؟ وما الجائز ؟

ولما كان من يسعى في هذه الأمور غالبًا يستعين بالشياطين ، وكثير منهم من السحرة والمشعوذين ، عقد المؤلف رحمه الله تعالى هذا الباب بعد باب السحر وباب الكهانة ؛ لأن الكل يجمعهم شيء واحد وهو الاستعانة بالشياطين ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ﴾ [الأنعام : ١٢٨] . (استمتع بعضنا ببعض) ، فالجني يستمع بالإنسي والإنسي يستمتع بالجني :

- فهؤلاء يستمتعون بالشياطين ، فيقضون لهم الحاجات ويخبرونهم عن المغيبات .

- والشياطين تستمتع بهم بالخنوع والخضوع لهم ، والاستعاذة بهم والذبح لهم ، وأمور من المنكرات في العقائد يخرج صاحبها عن دائرة الإسلام عياذاً بالله من ذلك .

قال : (**عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سُئل عن النُّشرة ، فقال : « هي من عمل الشيطان »رواه أحمد ، وأبو داود**).

(**سُئل عن النُّشرة**) (أل) هنا للعهد الذهني ، يعني النشرة المعهودة المعروفة ، فقال عليه السلام : (**« هي من عمل الشيطان »**) .

والحديث حسنه الحافظ بن حجر رحمه الله وصححه الشيخ ناصر في ((**صحيح أبي داود**)) ، قال ابن مفلح عنه : إسناده جيد .

(**وقال : سئل أحمد عنها**) النشرة (**قال : ابن مسعود يكره هذا كله**) ، سواء كان عن طريق الشياطين ، أو كان من التمائم التي تُعَلَّق ، وتعلمون أن الكراهية عند السلف قد يراد بها التحريم ، بل قد يراد بها أشد التحريم ، بل هذا في كتاب الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء : ٣٨] ، بعد أن ذكر أمهات الكبائر عياذاً بالله ، وذكر الشرك وذكر العقوق والقتل ثم قال : ﴿ مَكْرُوهًا ﴾ ، فالكراهة في الشرع وعند السلف رحمهم الله تعالى يراد بها التحريم في كثير من الأحيان .

النُّشرة:

- قد تكون عن طريق السحر ، وهذه التي من عمل الشيطان بلا شك ، وسيأتي في كلام ابن القيم رحمه الله كيف أن الناشر والمنتشر - المنتشر طالب النشرة - يتقرب إلى الشيطان بما يحب فيبطل العمل عن المسحور ، ربما طلب منه أن يذبح لغير الله ، ربما طلب منه أن يهين المصحف عياذًا بالله وهذا معروف ، يعني جاء إليه لحل ما يراه سحرًا ، وقد لا يكون سحرًا ، فيطلب منه إهانة المصحف ، رميه في القاذورات عياذًا بالله ، أو يطلب منه أن يذبح ولو دجاجة ديكًا عياذًا بالله .
- أما إذا كانت النشرة كما سيذكر في آخر الباب بالرقية وبالتعوذات وبالأدوية والأدعية المباحة فلا بأس بها .

والنبي ﷺ سُحر ، كما في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) تقول عائشة : قام فدعا ودعا ودعا ، ثم قال لعائشة : « **رأيت أن الله أفتاني فيما أصابني** » ، ثم ذكر الحديث وأنه أتاه آتيان ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، قال : من طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم حليف اليهود ، في مشط ومُشاقة في جف طلع ذكر في بئر ذروان ، وأن النبي ﷺ ذهب إليها ثم رجع قال : « **نخلها كأنه رؤوس الشياطين** » .

المقصود : أن النبي ﷺ دعا ودعا ودعا . فالدعاء عظيم في كل شيء ، شأنه شأن إخوانه من الأنبياء إذا ابتلوا فزعوا إلى الله تعالى بالدعاء ، كما قال عز وجل : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، بعد أن ذهب المال والعيال ، وتمزق جسمه اشتكى إلى ربه ، وقال : رب مسني الضر .

ويونس وهو في لجج البحار دعا ربه فقال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] .

وزكريا دعا ربه وسأله الولد .

المقصود : أن الدعاء عظيم في هذا الأمر .

المشهور في مذهب الإمام أحمد جواز العلاج بالسحر قالوا : ضرورةً .

والقاعدة : أن الضرورات تبيح المحظورات . لكن الضرورة التي يسعى إليها من يبحث عن العلاج تتعلق بنفسه ، بجسده فهل يقدم دينه في سبيل عافية جسده ؟ ومعلوم أن الضرورات الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها ، وهي حفظ الدين أولاً ، ثم النفس ثانيًا ، ثم العقل ثالثًا ، ثم النسل رابعًا ، ثم المال خامسًا ، ويذكر بعضهم العرض مع المال ، هذه الضرورات الخمس مرتبة ، فلا يمكن تقديم ما هو متقدم على غيره ، ولا يمكن أن يقدم دينه من أجل عافية بدنه . فالدين أعظم ، سلامة الدين أعظم من عافية البدن ، ولهذا يقول أهل العلم : إذا عرض البلاءٌ فقدم مالك دون نفسك ، فإن تجاوز البلاء فقدم نفسك دون دينك ، فإن المحروم من حرم دينه ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (**وفي (البخاري) عن قتادة قلت لابن المسيب : رجل به طب أو يُؤَخَّذُ عن امرأته أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، أما ما ينفع فلم ينه عنه ، انتهى**) .

قال : (**وفي (البخاري) عن قتادة**) ، وهو قتادة بن دعامة السدوسي من كبار التابعين رحمه الله ، قيل : إنه ولد أكمه ، أي ولد أعمى ، وهو من أوعية العلم والحفظ ، أثنى عليه الإمام أحمد ثناءً بالغًا .

سأل سعيد بن المسيب بن حَزَن المخزومي ثم القرشي ، وسعيد لا يخفى أحد الأئمة الأعلام وكبار التابعين ، وأحد الفقهاء السبعة فقهاء المدينة ، قال : (**رجل به طب**) ، المراد بالطب السحر ، وسمي السحر طبا وهو مرض ، قالوا : تفاؤلاً بالعافية والشفاء ، ولهذا النبي ﷺ لما أتاه آتيان قال أحدهما : ما وجع الرجل ؟ قال : مطبوب ، وهذه طريقة عند العرب يستخدمونها ، يستخدمون الألفاظ التي يطلقونها على بعض الأشياء التي قد لا تدل عليها ؛ لكن من باب التفاؤل ، كقولهم عن اللديغ : سليم . تفاؤلاً بالسلامة ، وقولهم عن الصحراء : مفازة ، أين المفازة ؟ يدخل الإنسان فيها وقد لا يخرج منها ، لاسيما فيما مضى من الزمن ؛ لكن سموها مفازة تفاؤلاً بالسلامة والفوز .

قال : (**أو يُؤَخَّذُ عن امرأته**) يعني يحبس عن امرأته ، قالوا : والأُخْذة هي الكلام الذي يقوله الساحر ، يكون الرجل طبيعيا ما فيه شيء ؛ لكن عندما يأتي إلى أهله يحبس عنهم .

(**أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر** ؟) يسأل هل يحل عنه هذا الأمر ؟ هو به سحر ، فقال سعيد : (**لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، أما ما ينفع فلم ينه عنه**) ، اختلف كلام أهل العلم في كلام سعيد هذا رحمه الله تعالى ، فبعضهم قال :

- ظاهر كلامه أنه يجيز النشرة بحيث يذهب الإنسان إلى الساحر للعلاج ضرورةً كالمشهور في مذهب أحمد .
- وقال بعضهم : حاشا لسعيد أن يجيز للناس أن يذهبوا إلى السحرة ، والسحرة أمرهم خطير ، والذهاب إليهم إعانة لهم على عملهم ، بل وإقرار لهم على صنيعهم ؛ لأن الساحر هو الذي يعقد السحر ابتداءً ، ثم

يحله بعد ذلك . كونه يذهب إليه معناه أنه مقرٌّ له على عمله ، ولا يظن بسعيد وهو إمام من الأئمة رحمه الله مثل هذا ، ولهذا:

- قال بعض أهل العلم : إن مراد سعيد رحمه الله في نشرة لا يدرى عنها . ليست واضحة أنها من السحر أو ليست من السحر . **والقاعدة :** أن ما لم يكن واضحًا تبيحه الحاجة . الشيء الذي ليس واضحًا ، التحريم فيه ليس بواضح لكن مشكوك فيه مجرد شك ، أن الحاجة ترفع الشك وتبيحه ، حمل بعض أهل العلم كلام سعيد على مثل هذه الحالة .
- وبعضهم حمل كلام سعيد رحمه الله على النشرة الشرعية ، بالرقية وبالتعوذات وبالأدعية وما أشبه ذلك ، وهذا الحمل الأخير لو ساعد عليه ظاهر السياق لكان هو المتعين ؛ لكن قتادة قال : يُحَلُّ عنه أو يُنَشَّر ، (**قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، أما ما ينفع**) معناها أنه إذا كان يضر فلا ، والنشرة الشرعية ما تضر ، إن لم تنفع وهي تنفع بلا شك ؛ لكنها ما تضر أبدًا ، فهذا يدل على أنه يتكلم عن نوع من النشرة ، لا يمكن أن يكون قصده النشرة السحرية ، لا يمكن ، وبقي هذا الاحتمال ، وهي أن مراده في هذا الأمر الذي لم يكن واضحًا والحاجة داعية إليه قالوا : فلا بأس به .

وقد سئل الإمام أحمد عن رجل يحل السحر فقال : لا أدري لا أدري ، قالوا : إنه يضع في الطنجير ماءً ، ثم يغمسه فيه – يغمس الشخص فيه – فجعل ينفض يديه ، قالوا : تُرى مثل هذا يؤتى ؟ قال : لا أدري لا أدري ، هذا من ورعهم

رحمهم الله . هو لا يدري عن عمله هذا هل هو حلٌّ بسحر أو حلٌّ ببعض الأمور ؛ لأن بعض من يدخلون في هذا الأمر يستخدمون أشياء أحيانًا يعني يكون فيها شيء من التأثير النفسي على المصاب ، وإن لم تكن بالضرورة من قبيل السحر ، فقال الإمام رحمه الله : لا أدري لا أدري .

قال رحمه الله : (**وروي عن الحسن أنه قال : لا يحل السحر إلا ساحر**) .

إذًا هناك:

- نشرة سحرية ، وهذه محرمة وقد تصل إلى درجة الكفر ، إذا كان معها ذبح لغير الله ، إذا كان معها عياذًا بالله إهانة لكتاب الله .
- **والثاني :** نشرة مباحة كما سيأتي وهي نشرة بالرقية والأدعية والتعوذات .
- **والثالث :** النشرة في أمرٍ ليس بواضح ، ليس بواضح أنه سحر أو ليس بسحر ، قالوا : وهذا تبيحه الحاجة للقاعدة التي أشير إليها أن ما لم يكن واضحًا فإن الحاجة تبيحه .

قال رحمه الله : (**قال ابن القيم : النُّشْرة حَلُّ السحر عن المسحور ، وهي نوعان : حلٌّ بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان ، وعليه يحمل قول الحسن ، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب ، فيبطل عمله عن المسحور**) .

يقول ابن القيم رحمه الله - وهذا كلام جميل فيه خلاصة الباب حقيقة - : (**النُّشْرة**) ما هي النُّشْرة ؟ (**حَلُّ السحر عن المسحور**) .

يقول : (**وهي نوعان :**

١ . **حلٌّ بسحر مثله ، وهو الذي من عمل الشيطان**) الذي قال فيه النبي ﷺ لما سئل عن النشرة قال : « هي من عمل الشيطان » ، يعني حلها بالسحر هذا من عمل الشيطان ، فإن السحر يكون عن طريق الشياطين ، وحله إذا كان عن طريقهم يكون عن طريق الشياطين ، (**وعليه يحمل قول الحسن**) الحسن رحمه الله قال : (**لا يحل السحر إلا ساحر**) ، ومراده هذا النوع من النُّشْرة وهو حله بسحرٍ مثله . قال : (**فيتقرب الناشر**) كما ذكرنا منذ قليل (**والمنتشر إلى الشيطان بما يحب**) عياذاً بالله ، لن يخدمه الشيطان هكذا ، ولهذا لما قال أولياؤهم من الإنس : ﴿ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٨] ، وهذا من استمتاع الجني بالإنسي والإنسي بالجني .

قال رحمه الله : (**والثاني : النُّشْرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة ، فهذا جائز**) .

هذا النوع الثاني وهو النوع الجائز من النشرة ، وهو ولله الحمد كافٍ ومغنٍ عن السير في هذه الشعوذات ، صحيح أن الإنسان عندما يبتلى بمرض يبحث عن العافية في كل سبب ؛ لكن يبحث عن عافيته ببدنه ليقدم دينه ؟! لا ، هذا لا يليق ولا يجوز شرعًا ، حتى لو صبر على هذا المرض في سبيل المحافظة على دينه فإنه يتعين عليه ذلك .

النوع الثاني : (**النُّشْرة بالرقية**) يعني بقراءة القرآن ، وكان النبي ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذتان فأخذ بهما ودعا ما سواهما ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ١ – ٥] . ثم سورة الناس ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس : ١ – ٦] . فالفلق استعاذة من الشر الظاهر ، والناس استعاذة من الشر الباطن ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ .

إذا لازم الإنسان الأذكار الشرعية ولله الحمد والمنة يحفظه الله عز وجل ، حتى السحرة ما يستطيعون ؛ لأن الذكر حصن حصين وحرز مكين يحفظ الله تعالى به العبد:

- قال ﷺ في حديث يحيى بن زكريا لما أمره الله أن يأمر بني إسرائيل فكأنه تأخر فقال عيسى : إما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فجمعهم وقال في جملة ما قال في جملة مسائل قال : وآمركم بذكر الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا ، حتى آوى إلى حصن حصين فحرز نفسه منهم كذلك العبد إنما يحرز نفسه بذكر الله عز وجل .
- وروي عنه ﷺ أنه قال : « **ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فأنقذه منه** » .
- وتعرفون فضل قراءة آية الكرسي في الصباح والمساء وعند النوم .

وفي الجملة فإذا كان الإنسان لربه ذاكرًا فإن الله سبحانه وتعالى يحميه ويحفظه من الشياطين .

(**بالرقية والتعوذات**) وأعظمها ما ورد في كتاب الله عز وجل ، الفلق وسورة الناس .

(**والأدوية**) استعمال الدواء في علاج مثل هذه الأمور .

(**والدعوات المباحة**) وهذه عظيمة ، هذه عظيمة ، بل العلماء يقررون أن الدعاء أعظم من الرقية ، مع أن الرقية قد تشتمل على بعض الأدعية ، الرقية فيها أدعية ؛ لكن إن كانت مجرد رقية لا دعاء فيها فإن الدعاء يكون أنجع وأعظم ، لأن هذا مسلك الأنبياء ، الأنبياء عندما أصيبوا بأشد البلاء ماذا فعلوا ؟ دعوا ربهم ، والنبي ﷺ عندما سحر كما مر بنا ، تقول عائشة : قام فدعا ودعا ودعا ، والرقية لا شك نافعة في هذا .

وينبغي للإنسان كما أنه إذا دعا دعا لنفسه ، إذا احتاج إلى الرقية أن يقرأ على نفسه ، ليس أحدٌ أنصح للإنسان من نفسه ، وما هو موجود عند القراء وهو القرآن موجود عندك ، ليس عندهم أسرار وأشياء ليست عند الإنسان ، لا ، والنبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه جمع يديه وقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ والمعوذتين ثلاثًا ، ومسح بها ما أقبل من جسده عليه الصلاة والسلام ، وهذا من الرقية .

قد ورد عن بعض السلف الرقية بأشياء فعن ليث بن أبي سليم كما روى ابن أبي حاتم رحمه الله وأبو الشيخ أنه قال : بلغني أن هذه الآيات شفاءٌ من السحر بإذن الله عز وجل ، تقرأ في إناء فيه ماء ثم تصب على رأس المسحور أو المريض ، وهي سبع آيات:

- آية واحدة في طه وهي قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ [طه : ٦٩] .

- وآيتان في يونس ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨١ ، ٨٢] .
- وأربع آيات في الأعراف : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٨ - ١٢٢] .

فهذه الآيات السبع يقول ليث بن أبي سليم رحمه الله : بلغه أنها شفاء من السحر بإذن الله عز وجل ، يوضع ماء في إناء وينفث فيه هذه الآيات ثم يصب على رأس المسحور .

وذكر ابن بطال رحمه الله قال في كتاب وهب بن منبه ، ووهب وهمام بن منبه كانا من أحبار اليهود ثم أسلما رحمهما الله وحسن إسلامهما ، يقول : يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقها بين حجرين ، ويضربها بالماء - يصب عليها ماء - ويقرأ فيها آية الكرسي ، ثم يحسو منها ثلاث حسوات ثم يغتسل بها ، قالوا : وهو مفيد في الرجل يحبس عن أهله .

وعلى كل حال فقراءة كتاب الله عز وجل لاسيما آية الكرسي والمعوذتين قراءتها سواء قرأها مباشرة أو قرأها في ماء شربه أو صبه على رأسه أو اغتسل به أو ما أشبه ذلك كل هذه وسائل لا بأس بها ولله الحمد والمنة ، وهي كافية ومغنية عن السير في أمور لا يدرى ما هي ، ولا يدرى ما حال الإنسان فيها ، وقد يضر الإنسان بدينه في سبيل عافية بدنه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن النُّشْرة .

الثانية : الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه مما يزيل الإشكال) .

وقد بين ابن القيم رحمه الله الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه ، فزال الإشكال ولله الحمد والمنة .

وفقكم الله وبارك فيكم ، ونفع بكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في التطير**

وقول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الاعراف : ١٣١] .

وقوله : ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [يس : ١٩]) .

قال رحمه الله تعالى : (**باب ما جاء في التطير**) .

والتطير مصدر : تَطَيَّرَ يَتَطَيَّرُ تَطَيُّرًا .

والتطير سمي بذلك ؛ لأنهم يعتقدون في الطير فينظرون في ممرها وأين تتوجه ، فيتشاءمون بها ويتفاءلون بها أحيانًا .

وأما تعريفه اصطلاحًا فهو : التشاؤم بمرئي ، أو مسموع ، أو زمان ، أو مكان . يتشاءم بشيء يراه ، أو شيء يسمعه ، أو يتشاءم ببعض الأزمنة ، أو ببعض الأمكنة .

والتشاؤم موجود في العالم كله ، موجود في الجاهلية وموجود في هذه الأزمنة ، وتعجب عندما ترى أشياءً كانت في الجاهلية موجودة بين المسلمين في هذا الزمن ، وهذا ما يؤكد أن يكون الناس دائمًا على صلة بالنهج الصحيح

وبالأصلين بالكتاب والسنة وبالتوحيد ، ما يزال الخير والشر في صراع وهذه الأمور تأتي من كل مكان ، هذا في الزمن الماضي عندما كان الشر لا يأتي حتى يأتيه الإنسان ، واليوم أصبح الشر يأتي في كل مكان وإلى كل الناس ، وكل الناس معرضون إلا من عصمه الله تعالى وحفظه .

التشاؤم بالمرئي: يرى طيرًا ، أو حيوانًا بَرَحَ ، أو سَنَحَ .

ما السانح وما البارح ؟ يقول المدائني : (سألت رؤبة بن العجاج ما السانح ؟ قال : ما أعطاك ميامنه) ، يعني يمشي ثم يعرض له حيوان ظبي أو غيره فيعطيه ميامنه فيتفاءل به ويمضي ، (قلت : ما البارح ؟ قال : ما أعطاك مياسره) ، إذا أعطاه يساره تشاءم منه وأحجم ، (قلت : ما النطيح ؟ قال : وهو ما أتاك من أمام فهو الناطح أو النطيح) ، يعني يأتي من الأمام يسميه الناطح أو النطيح ، (وما أتى من الخلف فهو القاعد أو القعيد) ، هذه مسمياتها عندهم .

وسيأتينا أثر الفضل بن عباس أنه كان مع النبي ﷺ قال : فبرح ظبي فمال بشقه فاحتضنته ، فقلت : يا رسول الله تطيرت ، فقال : « **إنما الطيرة ما أمضاك وردك** » .

أو مسموع : يسمع صوتًا فيتشاءم به ، ويتشاءمون أكثر ما يتشاءمون بصوت الغراب ، أو البوم ، عن عكرمة أنه كان عند ابن عباس فصاح طائر فقال رجل : خير ، فقال ابن عباس : لا خير ولا شر . وعن طاووس وهو من أصحاب ابن عباس وعالم اليمن رحمه الله أنه كان يسير معه رجل فنعق غراب فقال : خير ، قال : أيُّ خيرٍ عند هذا ؟ لا تصحبني .

يتشاءم أحيانًا بالزمان: وكانوا يتشاءمون بيوم الأربعاء ، ويتشاءمون بشهر شوال بالنكاح فيه ، ويتشاءمون بشهر صفر كما سيأتي في حديث أبي هريرة ، (« **لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر** ») . ففي شهر شوال لا تتزوج المرأة ، ويعتقدون أنها لو تزوجت في هذا الشهر لا توفق في زوجها ، تقول عائشة وهي ترد عليهم هذه الخرافات وهذه الترهات تقول : عقد لرسول ﷺ عليَّ في شوال ، وبنى بي في شوال ، فأيكم كان أحظى برسول الله ﷺ مني . أيكم كان أسعد وأحظى بالنبي ﷺ مني ؟ فما ضرها أن عقد له عليه السلام في شوال ودخل بها في شوال . والعجيب أن هذا الأمر موجود في بعض الجهات ، سألت إحدى النساء مرة أن ابنتها ترفض أن تتزوج في شهر شوال ، وكما ذكرت لكم ما لم تكن عناية بالتوحيد وبالكتاب والسنة والرجوع للأصليين سيأتي الغزو من كل مكان ، وقَلَّ أن تجد بدعة إلا ولها جذور أتت من هنا أو هناك ، والنبي ﷺ كما مر بنا يقول : « **لتتعبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعًا بذراع** » ، لكن الإشكال عندما تأتي ويعتقد أنها دين يدين الناس به ، هذه المصيبة .

يتشاءمون بالأمكنة أحيانًا: يتشاءمون حتى بالأرقام ، هذه يمكن قليلة في المسلمين لكنها موجودة في العالم ، يتشاءمون برقم ثلاثة عشر ، حتى مقاعد الطائرات ما يركبونها إذا كان الرقم ثلاثة عشر ما يقعد .

الشيخ سليمان له كلام جميل جدًّا في ((**التيسير**)) وهو شرح كبير لهذا الكتاب ، ولا يكاد شارح للتوحيد إلا ويرجع إليه ، يقول رحمه الله : اعلم أن الإنسان إذا كان معتنٍ بها – يعني بالطيرة – قابلاً لها فإنها تسرع إليه أسرع من السيل إلى منحدره ، وتتفتح له أبوابٌ من الوساوس فيما يرى ويسمع ويُعطى ،

ويفتح عليه الشياطين من المناسبات القريبة والبعيدة في اللفظ والمعنى ما يُفسد عليه دينه وينغص عليه عيشته . يصبح يخاف من كل شيء ، صوت سمعه يخاف منه ، شيء يراه يخاف منه ، وتنفتح عليه هذه الوساوس ولا قوة إلا بالله .

ولهذا عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لمنافاته لكمال التوحيد أو للتوحيد .

والطيرة:

- من الشرك الأصغر إذا اعتقد المتطير أن تطيره سبب ، أن هذا الطير أو غيره سبب لحصول الخير أو الشر .
- أما إذا اعتقد أن الخير والشر يحصل منه فهذا شرك أكبر ولا قوة إلا بالله ، هذا شركٌ في الربوبية ، ولعل اعتقاد الناس لهذا قليل ، غالبًا يعتقدون أن هذه الأشياء المتطير بها إنما هي أسباب .

وقد مر بنا في قاعدة الأسباب في الشرك الأصغر أن من اعتقد سببًا لم يثبت ، لا كونًا ولا شرعًا فإنه من الشرك الأصغر . ومن هنا يتضح أن التطير فيه منافاة لكمال التوحيد إذا كان من قبيل الشرك الأصغر .

وأيضًا التطير ينافي التوكل على الله عز وجل ، المتوكل على الله ما يلتفت إلى هذه الخزعبلات ولا الترهات ، المتوكل على الله عز وجل عظيم الثقة بالله عز وجل ، معتمد عليه ، راجٍ عائدته ، معتقد أن الضر والنفع إنما هو بيده ، وأن هذه الطيور والحيوانات لا علاقة لها بهذا الأمر ، ولهذا يقولون : إن التوكل علمٌ وعمل ، وسيأتي لها باب إن شاء الله :

- فالعلم معرفة الموحد أن لا نفع ولا ضر إلا بيد الله عز وجل .

- والعمل – وهو عمل قلب – ثقة المتوكل بربه وتفريغ قلبه عما سواه ، واثق بربه ، وقد فرغ قلبه مما سوى الله عز وجل ، فلا يلتفت إلى طير ولا يلتفت إلى أي شيء مع ربه سبحانه وبحمده ، ولهذا كان التوكل قوةً في القلب ، قال عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

والإيمان بالقدر أيضًا يقوي القلب ، والإنسان معرض ضعيف خاصة ، وهذه لها مساس بالنواحي النفسية للإنسان ، يعني ضعف الإنسان نفسيًّا أو ضعفه قلبيًّا قد يعرضه لمثل هذه الأمور لاسيما إذا كان جاهل . أما إذا كان قوي الإيمان أولاً وقبل كل شيء ، ثم قوي في نفسه وفي قلبه ما يلتفت إلى هذه الأمور ، ولهذا كان بعض العرب في الجاهلية ما يتطيرون في الجاهلية ، ولعلي أشرت إلى هذا في درس مضى قول لبيد بن عامر رضي الله عنه وهو الشاعر الفحل من شعراء الجاهلية ومن أصحاب المعلقات ، عاش في الجاهلية ستين سنة ، وفي الإسلام ستين سنة ، ولما أسلم ترك الشعر ، وهو من فحول شعراء العرب حين وجد في الإسلام ما يغنيه عن الشعر ، ولم يقل إلا أبيات قليلة جدًّا منها :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي ** حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

يحمد ربه أنه لم يمت حتى اكتسى من الإسلام ثوبًا .

يقول رضي الله عنه :

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ** ولا زاجرات الطير ما الله صانع

هذه كلها خرافات ، فما يدريهم بالغيب ؟

والآخر يقول :

وما أنا ممن يزجر الطير همه ** أطار غراب أم تعرض ثعلب

أم السانحات البارحات عشية ** أمر سليم القرن أم هو أعضب

لاحظوا السارحات والبارحات ، سليم القرن ، مكسور القرن ، غراب ، ثعلب إلى آخره ، هذه حياة الذي يتشاءمون ، لذا مثل ما قال الشيخ سليمان : تنفتح عليه الأوهام والوساوس ، لكن ثقته بربه وتوكله على ربه عز وجل يبعد عنه كل هذه النزغات من الشيطان .

حكم الطيرة كما مر : شركٌ أصغر إذا اعتقد أنها سبب .

لكن متى تكون الطيرة شركًا ؟

سيأتينا إن شاء الله عز وجل في أثر الفضل الأخير (**« إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »**) ، يعني ما حمل الإنسان على الإقدام أو الإحجام ، أما إذا كانت هاجسًا في النفس أو حديثًا في النفس ، ولم يُقدم ولم يُحجم فهذه لا يؤخذ بها .

الطالب: بعض الناس الآن يقول: (عرضة حصني) يعني يتشاءم منها .

الشيخ : يمكن وأنا ما أدري عن هذه الكلمة ، لكن لا شك أن ما كان في الجاهلية عاد ، عاد إلى الناس ؛ ولكن دعوة التوحيد ولله الحمد قضت على هذه المظاهر ؛ ولكن مع ذلك لا بد أن يكون لنا عناية بهذا الأمر مستمرة ، يأتي أحيانًا على ألسنة بعض الأطفال مما يسمعون ، وما كنا نسمعها أبدًا يقول : خير يا طير ، ما معنى خير يا طير ؟ هذا هو التشاؤم كما ذكر في الرجل الذي قال عند ابن عباس ، هو وإن لم يسمع شيء لكن أصبحت كالمثل عندهم ، جاري على ألسنتهم .

فالطيرة إذًا تكون شركًا إذا ترتب عليها إقدام أم إحجام ، أما إذا كان شيئًا في النفس:

- سيأتينا إن شاء الله في حديث معاوية قال : ومنا أناس يتطيرون ، قال : « **ذلك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم** » ، لا يصدهم .
- ويأتي في كلام ابن مسعود : (وما منا إلا) ، يعني الإنسان معرض لمثل هذا ؛ ولكنه لا يؤثر ، ولهذا قال ابن مسعود : ولكن الله يذهبه بالتوكل ، فعلاج التطير هو التوكل على الله عز وجل ، يتوكل ويُقْدِم ولا يبالي بمثل هذه الأمور .

قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٣١] .

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ ﴾ جاءهم الخير والنعمة والعافية ﴿ قَالُوا لَنَا هَذِهِ ﴾ يعني هي لنا ونحن محقوقون بها ، نحن أولى وأحق بها ، ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ بلاءٌ سقم جدب وما أشبه ذلك ﴿ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾ يتشاءمون بموسى ومن معه ، قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، يعني شؤمهم وما أصابهم إنما هو عند الله عز وجل فهو الذي قدره سبحانه وبحمده ، وقدره بسبب ظلمهم وبكفرهم ، وهذه الآية - كما يقول الشيخ سليمان رحمه الله - شبيهة بقوله عز وجل : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٨ ، ٧٩] أي بذنب نفسك كما قال ابن عباس رضي الله عنه .

وقال في الآية الأخرى : ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ ﴾ يعني أئن ذكرتم تطيرتم ، ﴿ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴾ [يس : ١٨ ، ١٩] .

هنا قال : (﴿ **قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ** ﴾) ، وفي الآية الأولى : (﴿ **أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ** ﴾) ، فكيف نجمع بين الآيتين ؟

- (﴿ **طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ** ﴾) ، أي بسبب ذنوبكم ومعاصيكم وأعمالكم الفاجرة ، يعني ما أصابكم إنما هو بسبب أعمالكم .
- **وأما الآية الأولى:** (﴿ **طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ** ﴾) ، أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي قدر هذا الأمر الذي أصابهم وقدره بسبب زيغهم وضلالهم وكفرهم.

قد أورد المؤلف رحمه الله هاتين الآيتين في هذا الباب ليبين أن التطير كان من أعمال الكفار ، وكان موجودًا في الأمم السابقة ، وكانوا يتطيرون بالأنبياء :

- قوم صالح يقولون : ﴿ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : ٤٧] .

الطالب: أحسن الله إليكم ، من يتطير بحوادث السيارات إذا رآها في الطريق يتشاءم ؟

الشيخ: هل يتشاءم أو يخاف ؟ أما إذا كان خائف ، الخوف من طبيعة الناس ، أما إذا كان تشاءم ورجع ، لا ، بل يداوي هذا بالتوكل على الله عز وجل وبالإيمان بقضاء الله عز وجل ﴿ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] .

الطالب: من لا يخرج من بيته لأجل الزحام ؟

الشيخ: هذا ما يطلع لأجل الزحمة ، ما يريد زحمة ، ما يقول : إذا خرجت اليوم يأتيني شيء أو يحصل لي شيء ، لا ، فإذا اتقى الخروج لأجل الزحام يقال : جزاك الله خير لا تُزَاحَم ولا تَزَاحِم .

الطالب: بعض الأحيان يتطيرون بعد وقوع الحادث ، مثلاً يصير له شيء غير جيد يقول : أنا من يوم ما رأيت فلان وأنا .... .

الشيخ: هذا هو التشاؤم ، على كل حال سيأتي الإشارة إلى مثل هذا الموضوع .

قال المصنف رحمه الله : (**عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر » . أخرجاه ، زاد مسلم « ولا نوء ولا غُول »** .

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل » . قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة ») .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : (**« لا عدوى »**) ، العدوى معروفة ، انتقال المرض من شخص إلى شخص ، إنسان أو حيوان .

(**« ولا طيرة »**) مرت الطيرة .

(**« ولا هامة »**) الهامة:

- قيل : البومة ، وكانوا يتشاءمون بها فإذا حطت على بيت أحدهم قال : نعت إلي نفسي أو أحدًا من أهل بيتي .
- وقيل : إن الهامة هي عظام الميت تكون على هيئة طائر . يقول ابن رجب رحمه الله : وهذا الاعتقاد وقع فيه الناس تأثرًا بمن يقول بتناسخ الأرواح ، يقولون : إن الروح إذا خرجت من شخص تذهب إلى شخص ثاني ، وهذه عقائد موجودة عند الكفرة ووردت إلى العرب ، إن كان هذا المعنى مقصودًا .
- وقيل : بل الهامة دودة تخرج من رأس القتيل ، وتحوم حول قبره وتقول : أسقوني أسقوني ، يعني خذوا بثأري ، يقول أحدهم :

يا عمرو إلا تدع ضربي ومنقصتي ** أضربك حتى تقول الهامة اسقوني

يعني أقتلك حتى تخرج هذه الدودة من رأسك وتقول : خذوا بثأري .

والمشهور أنها البومة على كل حال .

(« ولا صفر ») ، المشهور من كلام أهل العلم أنه التشاؤم بشهر صفر ، هناك أقوال أخر على كل حال ؛ لكن هذا المشهور أنهم كانوا يتشاءمون بشهر صفر .

والمعروف من النسيء في الجاهلية أنهم كانوا يؤخرون شهر المحرم إلى شهر صفر ، يعني تجتمع عليهم ثلاثة أشهر حرم ، ذو القعدة وذو الحجة ومحرم فتطول المدة عليهم ولم يقاتلوا إذا كان لهم رغبة في القتال ، فيؤجلون شهر محرم إلى صفر ، ليقاتلوا في المحرم ويتركوا القتال في صفر ، فهل تأجيلهم هذا إلى صفر صادر عن تشاؤمهم بصفر وأنهم لا يقاتلون فيه ؟ على كل حال المشهور هو أنهم كانوا يتشاءمون بشهر صفر وبشهر شوال .

قال في الرواية الثانية : (**زاد مسلم « ولا نوء ولا غول »**) .

والنوء واحد الأنواء ، وسيأتي له باب مستقل إن شاء الله ، وهي منازل القمر ، وهي ثمان وعشرون منزلاً ، ينزل القمر فيها في كل ليلة منزلا ، وتنزل الشمس في كل منزل ثلاثة عشر يومًا ، لو ضربت ثلاثة عشر في ثمان وعشرين يطلع لك أيام السنة الشمسية ثلاثمائة وأربع وستون أو خمس وستين يوم .

وكانت العرب – سيأتينا إن شاء الله – يعتقدون أنه إذا غاب نوء وظهر رقيبه ينزل المطر فكانوا يستسقون بالأنواء ، فقال عليه السلام : (**« ولا نوء »**) ، لا علاقة للأنواء بالمطر بحالٍ من الأحوال ، وسيأتي إن شاء الله حديث خالد بن زيد « **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر** » ، إلى آخره .

(**« ولا غُول »**) ، والغول جمعٌ مفرده غُولَةٌ أو غَوْلَةٌ .

والغول هي : الشياطين ، كانت العرب تعتقد أنهم يتلونون في صور ، ويضلونهم الطريق ، ولا يبعد أن يكون المراد بها ما تسميه العامة الشِّيفَة ، ويقولون : إنهم عندما كان الناس يسافرون في البراري ، وفي الظلام تأتيهم ما يعرف بالشيفة ، أو بالغُول وترميهم بالجمر ، أو بشهاب من نار ، وهذه يذكرها كثير من الناس .

قال العلماء : النبي ﷺ لا ينفي وجود الغول ؛ ولكن ينفي تلونها وتصورها بالصور التي كانوا يعتقدونها ، وقد روي في حديث – وهو حديث ضعيف – « **إذا تَغَوَّلت الغيلان فبادروا بالأذان** » ، أما أن الأذان يطرد الشيطان فهذا ثابت في ((**الصحيح**)) قول النبي ﷺ : « **إذا سمع الشيطان الأذان أدبر وله ضراط ، حتى إذا قضي الأذان أقبل ، حتى إذا ثُوب للصلاة أدبر ، حتى يخطر بين المصلي**

وصلاته يقول اذكر » ، إلى آخر الحديث ، واذكر أني ذكرت لكم قصة الشخص الذي أسلم ، على كل حال حديث رسول الله فوق كل شيء ؛ لكن هذا كلام شخص يعني مرت به هذه التجربة ولا قوة إلا بالله ، وأن الشياطين كانوا يفرون إذا سمعوا الأذان من التلفاز ، ويسألهم فلا يجيبونه ، وكان هذا هو السبب في إسلامه .

النبي ﷺ قال هنا : (**« لا عدوى ولا طيرة »**) ، جاء بطريقة النفي وليس بطريقة النهي ، والنفي أبلغ من مجرد النهي .

أبو هريرة روى هذا الحديث ، ورواه غيره أيضًا ، وروى قوله ﷺ وهو في ((**الصحيحين**)) : « **لا يورِد ممرضٌ على مصح** » ، والمعنى لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة .

وفيه : إثبات العدوى .

وورد في بعض روايات حديث (**« لا عدوى »**) ، « **وفر من المجذوم كما تفر من الأسد** » ، أو « **فرارك من الأسد** » .

وفيه : إثبات العدوى .

أخذ أبو هريرة بهذه الأحاديث وترك التحديث بحديث (**« لا عدوى ولا طيرة »**) ، فراجعوه في ذلك فأبى أن يعترف ، يقول أبو سلمة رحمه الله – وهو من رواة الحديث – : فلا أدري أنسي أبو هريرة ، أما أن أحد الحديثين نسخ الآخر .

واختلف العلماء رحمهم الله بين هذه الأحاديث :

- فبعضهم قال : بالنسخ ، بأن حديث « **لا يورد ممرض** » ناسخ لحديث (**« لا عدوى »**) .

- وقال بعضهم : بالعكس ؛ بل حديث العدوى ناسخ لحديث « **لا يورد** » .
- وقال بعض أهل العلم : لا اختلاف بين هذه الأحاديث ، والجمع بينها ممكن ، وإذا أمكن الجمع فلا نحتاج للنسخ ، لأن الجمع فيه إعمال للأدلة كلها ، بينما النسخ فيه إلغاء لأحد الدليلين . قالوا : إن قول النبي ﷺ : (**« لا عدوى »**) ، المراد به أن العدوى لا تؤثر بطبعها ، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون ، وإنما تؤثر بتقدير الله عز وجل ، وحينئذٍ لا اختلاف بين هذه الأحاديث ، ذكر هذا البيهقي رحمه الله ومال إليه ابن الصلاح وابن القيم وابن رجب وابن مفلح رحمهم الله تعالى ، وبهذا تجتمع الأحاديث .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أنس (**« لا عدوى ولا طيرة ، ويعجبني الفأل »**) . الفأل مشهور على ألسنة الناس ، التفاؤل ، وهو الإنسان يتفاءل بالخير ، حتى ورد على ألسنتهم ما ظنوه حديثًا عن النبي ﷺ تفاءلوا بالخير تجدوه ، وهذا الحديث الشيخ ابن باز يقول : بهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما الثابت عن النبي ﷺ نحو حديث أنس هذا .

من حكمة الشارع أنه إذا أغلق بابًا فتح باب ، فلما أغلقت الطيرة على الناس وبُيِّنَ فسادها وبطلانها فتح لهم باب التفاؤل ، ولهذا قال عليه السلام : (**« ويعجبني الفأل » ، قالوا : وما الفأل ؟ قال : الكلمة الطيبة »**) ، يسمع الإنسان كلمة طيبة يتفاءل بها . يقول أنس وحديثه عند الترمذي صححه الترمذي يقول : كان النبي ﷺ إذا خرج في حاجة يحب أن يسمع راشد ونجيح .

والتفاؤل شيء في النفس فقط ؛ لكن إذا تجاوز النفس إلى العمل فيكون طيرة ، يعني إذا تفاءل الإنسان يعني رأى شخصًا اسمه راشد أو سمع كلامًا طيبًا وقال : خلاص اليوم يوم رشد وسأمضي ، لا ، هذا يعد من الطيرة ؛ لأن الفأل من الطيرة ؛ لكنه تفاؤل بالخير .

ما الفرق بين الفأل والطيرة ؟

قالوا والفرق بينهما:

- أن الفأل فيما يسر فقط ، وأما الطيرة فإنها تكون فيما يسوء وفيما يسر ، إن برح الحيوان أحجم ، وإن سنح أقدم ، فهي تكون فيما يسره وفيما يسوؤه.
- قالوا : وأيضًا الطيرة سوء ظنٍّ بالله عز وجل ؛ لأنه يعتقد أن لهذه الطيور أثرًا ، وهذا سوء ظنٍّ بالله عز وجل ، ونقصٌ في التوكل ، وضعف في التوحيد ، وأما الفأل فهو حسن ظنٍّ بالله عز وجل .
- وقول آخر أيضًا : أن الطيرة هي ما أمضاك أو ردك ، أما الفألُ فلا إمضاء فيه ولا رد ، ولا إقدام ولا إحجام ، فإن حصل إمضاء أو رد فيكون من الطيرة .

قال رحمه الله : (**ولأبي داود بسندٍ صحيح عن عقبة بن عامر قال : ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلمًا ، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك »**) .

يقول : (**ولأبي داود بسندٍ صحيح عن عقبة بن عامر**) ، يقول الشيخ سليمان وغيره : صوابه عن عروة بن عامر وليس عقبة ، عقبة بن عامر الجهني الصحابي المشهور ، الحديث نسب إليه والحديث عن عروة بن عامر .

وعروة هذا اختلف في صحبته ، فبعض أهل العلم يعده من :

- التابعين .
- وعده ابن حبان من ثقات التابعين ، كذلك أبو الحجاج المزي رحمه الله .
- وابن حجر يميل إلى أن له صحبة .

فالعلماء مختلفون فيه وبالتالي يكون حديثه إن كان تابعيًّا يكون حديثه مرسل ، والشيخ ابن باز رحمه الله يقول : لا أعلم له علة .

(**قال : ذُكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال : « أحسنها الفأل »**) ، إذًا الفأل من الطيرة ؛ لكن لا يمضي ولا يرد ، ولا يكون إلا فيما يسر .

فقال : (**« أحسنها الفأل ، ولا ترد مسلمًا »**) ، ما يرجع الإنسان لا إن تطير ولا إن تفاءل ، ما ترده عن حاجته وسيأتينا حديث ابن عمر « **من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك** » ، يعني وقع في التطير .

(**« فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل : اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك »**) ، الإنسان دائمًا يرغب في الخير ، ويرغب في الحسنات ، وينأى بنفسه عن الشر وعن وقوعه في السيئات ، فما علاقة الطير بالحسنات والسيئات ؟ إنما الحسنات من الله ، ودفع السيئات من الله عز وجل ، فليثق الموحد بربه ، وليتوكل عليه ، وليؤمن بقدره ، حينها يطمئن القلب وترتاح النفس .

الإيمان وتوحيد الله عز وجل من أسباب السرور والسعادة للقلوب ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ [الأنعام : ٨٢] ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : ٩٧] قال بعدها ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٩٨] ، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] قال بعدها ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] لا تيأس على شيء فات ، فقد فات بقضاء الله عز وجل ، ولا تفرح بما في يدك فرح أشر وبطر وعجب ، فالكل بقدر الله عز وجل .

الموحد في نعمة ، وأما ضعيف التوحيد فمسكين ، يذكر أحد الإخوة في إحدى البلاد الأجنبية غير المسلمة ، يقول : يقول أحدهم : أنتم - يخاطب رجلاً مسلمًا - عندكم شيء جميل ، قال : ما هو ؟ قال : إذا أصابكم شيء قلتم قضاء وقدر ، ليس عندهم شيء يرجعون إليه .

أحدهم يقول : توفي شخص كان زميل له في دراسة أو عمل في الخارج ، يقول : أردت أن أواسيه هكذا يقول ما وجدت كلام أقوله له ، أتواسيه بما في الإسلام هو ليس مسلما ، ما فيه شيء عنده ، ولهذا تجد الواحد منهم إذا ضاقت به الأرض ينتحر ، يتخلص من حياته ، يظن أنه إذا انتحر انتهى الأمر ، فيجب حماية شبابنا من هذه الآفات ، وهذه المظاهر ، وتعليق أملهم وثقتهم دائمًا وأبدًا بربهم سبحانه وبحمده .

(« **لا يأتي بالحسنات إلا أنت ، ولا يدفع السيئات إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بك** ») ، لا حول لنا ولا تحول من حال إلى حال ، ولا قوة على ذلك إلا بك يا ربنا مستعينين بك ، لا نعتمد على حَوْلنا ولا طَوْلنا ولا قَوَّتنا إنما نستعين بربنا ونتوكل عليه سبحانه وبحمده .

قال رحمه الله : (**وله من حديث ابن مسعود مرفوعًا « الطيرة شرك ، الطيرة شرك » وما منَّا إلا ؛ ولكن الله يُذْهبه بالتوكل . رواه أبود داود والترمذي وصححه ، وجعل آخره من قول ابن مسعود**) .

هذا الحديث نص في حكم الطيرة ، (« **الطيرة شرك ، الطيرة شرك** ») .

سبق أن ذكر أنها من قبيل الشرك الأصغر ؛ لأنه حتى العرب في الجاهلية لا يعتقدون أن الطير ينفع ويضر ، لا ؛ ولكن يعتقدون أنه سبب يحصل عن طريقه الضرر والنفع ، وإلا فالمشركون في الجاهلية ما يعتقدون حتى أن آلهتهم تنفع وتضر من دون الله ، والدليل ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] يعني معترفون بأنها لا تضر ولا تنفع ؛ ولكن يعبدونها معتقدين أنها وسائط بينهم وبين الله عز وجل ، كما قال في الآية الأخرى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، ما قالوا : إلا لينفعونا أو يضرونا . والغالب لمن يتطير يتطير من هذا الباب وتكون من قبيل الشرك الأصغر كما ذكر .

قال : (**وما منَّا إلا**) ، أي إلا يقع في نفسه شيء ، وهذا من كلام ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه ، وهو من حسن الكلام ومتصرفات الألفاظ ، ما قال : وما منا إلا ويتطير ، لا ، قال : وما منا إلا ، وسكت .

(**ولكن الله يُذْهبه**) بماذا ؟ (**بالتوكل**) بمعنى أنه إذا وجد في نفسه شيءٌ كما في حديث معاوية لا ينساق وراءه ، وإنما يستحضر دواءه ، ودواؤه هو التوكل على الله عز وجل لا التوكل على الطيور ؛ لكن انظروا كيف يهبط عقل الجاهل ، وعندما تنتشر خرافة في المجتمعات تهبط العقول إلى وضع في غاية العجب ، والتوحيد يرتقي بالعقول والقلوب عن مثل هذه الأمور التي ما يقبلها قلب سليم ولا عقل مستنير فضلاً عن الشرع الحكيم .

قال رحمه الله : (**ولأحمد من حديث ابن عمرو « من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك » . قالوا : فما كفارة ذلك ؟ قال : « أن تقول : اللهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك »**) .

(**« من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك »**) إشارة إلى أنها إذا لم ترد وكانت في النفس أنه لا يقع في الشرك ، إنما يقع في الشرك إذا أمضته أو ردته كما سيأتي قالوا : وما كفارة ذلك يا رسول الله ؟ يعني إذا حصل من الإنسان شيء قال : « **يقول اللهم لا طير إلا طيرك** » ، يعني هذه الطيور ملكك وهي في تصرفك ، فلا علاقة لها بالحوادث ، وما يحصل إنما هو بقدرك ، « **ولا خير إلا خيرك** » فالخير كل الخير من الله عز وجل ، ولا إله إلا هو سبحانه وبحمده ، فلا يلتفت قلب المؤمن إلى غيره ، لا إلى طير ولا إلى غيره .

قال رحمه الله : (**وله من حديث الفضل بن عباس « إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »**) .

(**وله**) أي للإمام أحمد (**من حديث الفضل بن عباس**) ، وهذا الحديث كما ذكر المؤلف رحمه الله فيه راوٍ مختلف فيه وفيه انقطاع ، عن الفضل بن

عباس وهو أكبر أولاد العباس يقولون له : أبا الفضل - رضي الله عنه وعن الفضل - أنه كان مع النبي ﷺ فبرح ظبي فمال بشقه فاحتضنه - احتضن النبي ﷺ - وقال : تطيرت يا رسول الله ، فقال عليه السلام : (**« إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك »**) ، الحديث وإن كان في سنده شيء إلا أن معناه صحيح وتشهد له الأدلة ، الحديث الذي قبله (**« من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك »**) .

فالطيرة إنما تكون طيرة إذا أمضته في حاجته أو ردته ، يعني تشاءم فلم يمضِ ، أو تفاءل فمضى ، هذه هي الطيرة ، أما إذا كان مجرد هاجس في النفس فإنه لا يكون من قبيل الطيرة ؛ لكن ما ينبغي أن يورث الإنسان أيضًا ضيقًا ، وما يلتفت لهذه الأمور ، وما يزال الناس ولله الحمد عقيدة التوحيد سائدة عندهم ؛ لكن نقول : لا بد من المحافظة على هذه العقيدة ، وما كنا نسمع أحدًا ينظر إلى غراب أو إلى بوم ما كانت موجودة محتها ولله الحمد دعوة التوحيد وأزالتها ، حتى لا يكاد الإنسان يسمعها من صغير ولا من كبير ؛ لكن إذا غفلنا عن هذه الأمور فالأمر لا شك كبير وخطير ، واليوم صار ناس يسمعون كل شيء ومن كل الثقافات ، فتربية الناشئة حقيقة على العقيدة السليمة وعلى التوحيد ضرورة لا بد منها .

قال رحمه الله :

(**فيه مسائل :**

الأولى : التنبيه على قوله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ﴾ مع قوله : ﴿ طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ .

الثانية : نفي العدوى .

الثالثة : نفي الطيرة .

الرابعة : نفي الهامة .

الخامسة : نفي الصفر .

السادسة : أن الفأل ليس من ذلك ، بل مستحب .

السابعة : تفسير الفأل .

الثامنة : أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر ، بل يُذْهِبُه الله بالتوكل .

التاسعة : ذكر ما يقول من وجده .

العاشرة : التصريح بأن الطيرة شرك .

الحادية عشرة : تفسير الطيرة المذمومة) .

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في التنجيم**

قال البخاري في ((صحيحه)) : قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث : زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين ، وعلامات يُهتدى بها ، فمن تأوَّل فيها غير ذلك أخطأ ، وأضاع نصيبه ، وتكَلَّف ما لا علم له به . انتهى .

وكره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يُرَخِّص ابن عيينة فيه ، ذكره حرب عنهما .

ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق) .

(**باب ما جاء في التنجيم**)

التنجيم مصدر : نَجَّمَ يُنَجِّمُ تَنْجِيمًا .

وفي الاصطلاح قال شيخ الإسلام : هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية .

يقسم العلماء التنجيم إلى قسمين :

١ . علم التأثير .

٢ . وعلم التَّسْيير .

ويقسمون علم التأثير إلى أقسام :

١ . فإن اعتقد أن النجوم فاعلة مختارة بذاتها مستقلة تتصرف فإن ذلك كفرٌ ، وهو شرك الصابئة عباد النجوم ، والذين بُعث فيهم إبراهيم عليه السلام .

٢ . **الثاني :** إذا اعتقد أنه يعلم باجتماعها ، طلوعها ، غروبها ، وافتراقها يعلم بها الغيب ، فإن ذلك أيضًا كفرٌ وتكذيب لكتاب الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ، فهذا تكذيب لكتاب الله عز وجل .

٣ . **الثالث :** إذا اعتقد أنها السبب لبعض ما يحصل في الأرض ، فهذا من قبيل الشرك الأصغر ؛ لأن من اعتقد سببًا لم يثبت أنه سببٌ لا شرعًا ولا كونًا فإن هذا من قبيل الشرك الأصغر ، هذا ما يتعلق بعلم التأثير .

وأما علم التسِّيير ، فهو : أن يتعلم هذا العلم لمصلحة ، دينية أو دنيوية :

فأما المصلحة الدينية : أن يتعلمه لمعرفة القبلة ، يعرف النجوم كي يعرف القبلة . ولهذا يقول الفقهاء في القبلة : ويستدل عليها في السفر بالقطب وبالشمس والقمر ومنازلهما . تُعرف القبلة بالقطب ، **والقطب :** نجم شمالي خفي ، يقولون : لا يراه إلا حديد البصر في غير ليالي القمر . وحوله الجَدْي المعروف الذي يراه الناس ، وهو يدور حوله ، ويظن الناظر أنه لا يتحرك قالوا : لأن دائرته - الدائرة التي بينه وبين القطب - ضيقة فكأنه لا يتحرك ، وهو يتحرك بين القطب ؛ لأن النجوم عمومًا تدور حول القطب . والنجم شمالي ، هذا النجم شمالي الجَدْي ، وإذا عرف الإنسان الشمال عرف الجنوب وعرف الشرق وعرف الغرب . وهذه كانوا يحتاجون إلى هذه الأمور ، الناس أهل أسفار ، فيحتاجون إلى معرفة النجوم للمصالح الدينية ، وللمصالح أيضًا الدنيوية .

ومن المصالح الدنيوية :

١. معرفة الجهات ، يعرف الجهات الأصلية الشمال ، والشرق ، والغرب ، يحتاج ، إذا سافر لا بد أن يعرف اتجاهه في سفره ، وإذا كان في الليل لا بد أن ينظر إلى النجم ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] . فكيف يهتدون بالنجم في أسفارهم إذا كانوا لا يعلمونه ؟

٢. كما يعرفون به الفصول أيضًا ، يعرفون الشتاء والصيف ، يعرفون مواسم الزرع بهذه النجوم أيضًا ، فهذه مصالح دنيوية .

أما المصالح الدينية فلا ريب في جوازها ، بل قد تكون مطلوبة ، بل قد تكون واجبة ؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . الإنسان في النهار يعرف بالشمس ، لكن في الليل إذا كان ما يعرف النجوم لا يمكنه تحديد القبلة .

أما المصالح الدنيوية فيعرف الاتجاهات في أسفاره ، كذلك يعرفون المواسم ويحددونها بالأيام لدقتها ، وهذا كرهه بعض أهل العلم خوفًا من أن يجرهم إلى اعتقاد أن للنجم تأثيرًا في هذا الأمر ، ولهذا كره قتادة تعلم منازل القمر ، ولم يرخص سفيان بن عيينة فيه ؛ لكن رخص فيه أحمد وإسحاق وهذا الحق إن شاء الله ، لقوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ لماذا ؟ ﴿ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ [يونس : ٥] ، فقدَّر القمر منازل حتى يعرف الناس عدد السنين والحساب ، قال تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس : ٣٩] ، ومنازل القمر ثمانية وعشرون منزلاً ، أربعة عشر جنوبية يمانية تَحِلُّ بها الشمس في فصل الشتاء ، وأربعة عشر شمالية شامية تَحِلُّ بها الشمس في فصل الصيف . ولهذا للشمس انصراف في الصيف وانصراف في الشتاء ، فإذا

انصرفت بالشتاء بدأ النهار يطول يأخذ من الليل ، وإذا انصرفت في الصيف بدأ النهار يقصر وبدأ الليل يطول ، ولهذا تقول العامة : لا حر إلا بعد انصراف ، ولا برد بعد الانصراف ، في الشتاء تنصرف جنوب فيشتد البرد ، وهذا في نوء القلب في المربعانية بداية الشتاء ، وفي الصيف تنصرف جهة الشمال فيشتد الحر في نوء الدبرة ، انصرفان فقط ، يحصل بعدهما شدة الحر ن وشدة البرد ، ويحصل بعدهما طول الليل ، أو قصره ، أو طول النهار أو قصره ، إذ في أول الصيف يكون النهار أطول ما يكون والليل أقصر ما يكون ، وفي أول الشتاء يكون الليل أطول ما يكون والنهار أقصر ما يكون ، وفي أول الخريف والربيع يتساوى الليل مع النهار .

هذه المنازل منازل القمر هي الأنواء كما ستأتينا في الباب الذي بعده ، هي الأنواء التي كانوا يستسقون بها ، وهي على سبيل المثال ثمان وعشرين :

في المربعانية : الإكليل ، والقلب ، والشولة هذه انتهت ، ثم بعدها النعائم والبلدة وهذه يسميها الناس في الشبط ، نحن الآن في منزل شباط الثاني الذي هو البلدة ، ثم تأتي بعدها التي يسمونها العقارب السعد الذابح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، كل هذه من الشتاء .

ثم يأتي فصل الربيع في سعد الأخبية ، والمقدم ، والمؤخر ، والرِّشَا .

ثم يأتي الصيف في الشرطين والبطين والثريا والدبران والهقعة والهنعة التي يسمونها الجوزة ، والذراع والنثرة يسميها العامة الكليبين ، راحت هذه المصطلحات ، ولهم فيها سجع باللغة الفصحى وسجع حتى بالعامية .

النثرة بعدها الطرفة ، بعدها الجبهة ، ثم الزبرة ، ثم الصرفة ، ثم العُوَّا والسماك ، والغفر ، والزبانة ، ثم الإكليل . هذه ثمان وعشرين ، أربعة عشر منها جنوبية يمانية ، وأربعة عشر ، الثريا شمالية ، وسهيل يماني ، ولهذا يقول قائلهم :

أيها المنكح الثريا سُهيلاً ** عمرك الله كيف يلتقيان

هي شامية – يعني الثريا – إذا ما استقلت ** وسهيل إذا استقل يمانِ

ويضربون له مثل لمن يريد الجمع بين أشياء متباعدة جدًّا ، لا سبيل إلى ذلك .

أيها المنكح الثريا سُهيلاً ** عمرك الله كيف يلتقيان

ما يمكن !

هي شامية – الثريا – إذا ما استقلت ** وسهيل .

الكلام هذا كله تجده موجود في ورقة التقويم ، كل هذا الكلام في ورقة التقويم ، تخرج ورقة الآن يقول لك : في نوء البلدة يوم كذا كذا كذا .

هذه أمور ينبغي لطالب العلم أن يكون عنده شيء من المعرفة بها ، على الأقل لتوضيحها ، وإلا الحاجة الآن أصبحت قليلة مع الأسف ، ومع قلة الحاجة الناس ما يكادون يعرفون هذه الأمور ، الآن يخرج الجوال ويحدد له الجهات ، ويحدد القبلة ؛ لكن افرض أن الجوال طفى ؟ فهذه مشكلة ، فمعرفة الإنسان بهذه الأمور لا بأس لاسيما فيما يتعلق بحاجته في دينه ؛ لكن لا يبالغ فيها ولا يدقق فيها ، كما يقول الشيخ سليمان ، يقول : دققوا فيها حتى شككوا الناس في محاريب في جهاتهم ومساجدهم ؛ لكن يَأخذ منها بالقدر الذي يحتاج إليه .

هذه منازل القمر التي كره قتادة تعلمها ، ورخص الإمام أحمد في ذلك لما له من الفائدة .

قال رحمه الله : (**وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر » . رواه أحمد وابن حبان في ((صحيحه))**) .

عن أبي موسى – رضي الله عنه – عبد الله بن قيس الأشعري ، قال ﷺ : (« **ثلاثة لا يدخلون الجنة** ») ، يكثر في النصوص ذكر الأعداد ، وسيأتينا في الباب الذي بعده مباشرة : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية** » ، فهل يقصد بذكر هذا العدد الحصر ؟ الجواب: لا ؛ ولكن يُورد بهذا العدد لأجل سهولة الحفظ ، وتقريب العلم للناس .

(« **ثلاثة لا يدخلون الجنة** ») هذا الحديث من أحاديث الوعيد . واختلف في أحاديث الوعيد :

- فالخوارج يرونها فرصتهم لتكفير الناس ، تكفير الأمة ، ما يدخل الجنة إذاً هو كافر ، مدمن الخمر كافر ، وقاطع الرحم كافر ؛ لأنه ما يدخل الجنة .
- وأما أهل السنة:
  - فبعضهم يقول تُجرى على ظاهرها ولا تُفَسَّر ، وهذا نهج الإمام مالك رحمه الله تعالى . وقالوا : إن في تفسيرها للعوام تهويناً لها ، العامي يقول عندما تفسر له : إذن هي كذا ! ، فيتهاون بهذا الأمر ، فتُتْرك على ظاهرها كما أوردها النبي ﷺ ، النبي ﷺ ما فسرها ولا وضحها .

- وبعض أهل العلم من أهل السنة يقول : لا بد من إيضاح معناها وبيانها ؛ لأنه لا يكون في الشرع شيئًا مجملاً غير معلوم .
- وخَصَّ بعضهم هذا التفسير وبيان المعنى بطلبة العلم ، وهذا قول وسط ، يقول : إذا كنت عند طلاب علم فلا بد من تفسيرها وإيضاحها ، طالب العلم لا بد أن يفقه العلم ويفهمه ، أما إذا كنت عند عامة فَأَوْرِدها كما أوردها النبي ﷺ ، فإن هذا أبلغ في الزجر وفي الردع ؛ لكن عند طلاب العلم توضح .

ما معناها إذًا إذا أردنا بيان معناها ؟

نقول : ثلاثة لا يدخلون الجنة دخول مطلقًا دون أن يحاسب ، ودون أن يعذب ، بل يحاسب ويعاقب على هذه الأعمال الكبيرة ، ثم يكون مآله إلى الجنة .

وهؤلاء الثلاثة :

الأول منهم هو مدمن الخمر – عياذًا بالله – من يشرب الخمر ويدمن عليه ، والإنسان – الله يحفظنا وإياكم ويحفظ البلاد والعباد والمسلمين – إذا وقع في شرب الخمر لا بد أن ينتهي به الأمر إلى الإدمان ، إذا لم يشربها يفقد شيئًا من توازنه عياذًا بالله . وقال النبي ﷺ لما سأله سائل من أهل اليمن عن شراب يصنع من الذرة عندهم يقال له المِزْر قال : « **أمسكر هو** » ؟ قال : نعم . قال : « **كل مسكر حرام** » . ثم قال : « **إن على الله عهدًا لمن شرب الخمر أن يسقيه من طينة الخبال** » ، قيل : وما طينة الخبال يا رسول الله ؟ قال : « **عرق أهل النار أو عصارة أهل النار** » ، الحديث في ((**مسلم**)) ، عهد على الله أن يسقيه من طينة الخبال عياذًا

بالله . وقال عليه السلام : « لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » ، لا يعني كفره ؛ لكن إيمانه يضعف ويضعف ويضعف ضعفًا شديدًا ولا قوة إلا بالله على شربه هذا .

والخمر تعريفها: كل ما خامر العقل وغطاه على سبيل اللذة ، احترزا من البنج ، البنج يخامر العقل ويغطيه ؛ لكن ما فيه لذة ولا فيه طرب . والمخدرات – وقى الله البلاد والعباد منها – كالخمر ، بل أشد منه ، وإدمانها عياذًا بالله شديد ، الخمر قد يتركها صاحبها وإن كان إذا كان مدمن أيضًا يحتاج إلى وقت وإلى تدخل طبي أحيانًا حتى في الخمر ؛ لكن المخدرات عياذًا بالله تدخل في التركيبة النفسية والمزاجية ، والإنسان قد تنتهي به إلى الموت ، وهي سم زعاف وشر بليت به الأمة ، بل العالم كله ولا قوة إلا بالله ، الوعيد الوارد في الخمر ينطبق عليها لا شك .

الثاني : قاطع الرحم ، وهو الذي يقطع ما أمر الله به أن يوصل ، إذ أمره الله تعالى بصلة رحمه ؛ لكنه يقطع أرحامه ، ويقاطعهم ، ويعاديهم ، وربما تمر الأوقات الطويلة وهو لا يحدثهم ولا يكلمهم ، قال تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] .

وقال ﷺ : « **تعرض الأعمال على الله يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر الله لكل عبدٍ لا يشرك به إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقال : أنظِرَا هذين حتى يصطلحا** » ، لا يغفر لهم لا قوة إلا بالله بسبب الشحناء التي بينه وبين أخيه

المسلم ، كيف إذا كان من أقاربه وأرحامه ؟ فلا يجوز بحال قطع الرحم ، وفي الحديث « **لا يدخل الجنة قاطع** » ، وهذا من أحاديث الوعيد أيضًا .

وإذا كان قطيعة الرحم حرامًا فالصلة واجبة ؛ ولكن ما حد الصلة ؟ الجواب: حدها العرف ؛ لأن الشارع ما حد لها حدًّا ، يعني في زمن مضى لو تأخر الأخ عن أخيه يومين أو ثلاثة يعتبر متأخر ويسأل عنه ، ماذا حصل لأخي ؟ ما الذي أخره ؟ أما الآن لو يجلس كم ؟

الطالب: أسبوع ، أو شهر ؟

الشيخ: لا الأخ ما يقعد شهر ؛ لكن على كل حال تحديد مدة الشارع ما حدَّ شيئًا. وما حكم به الشارع ولم يحده – وهذه قاعدة – فالمرجع فيه إلى العرف ، فما عده الناس قطيعةً فهو قطيعة ، وما عداها فلا .

الثالث : مصدق بالسحر ، والمصدق بالسحر المقر له – عياذًا بالله – حتى ولو كان فيه شرك هذا يعتبر شركًا بالله عز وجل كفرًا بالله عز وجل .

لكن أين التنجيم في الحديث ؟ الجواب: في قوله: (مصدق بالسحر) ، مر بنا في حديث ابن عباس « **من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاده** » ، فالمصدق بالتنجيم من جنس المصدق بالسحر .

هل يوجد في هذا الزمن تنجيم ؟

كل شيء موجود ، بعضه ما يستخدمه الشباب أحيانًا من باب اللعب ، ينظرون إلى الأبراج ، أبراج الشمس وعددها اثنا عشر برجًا ، الشهور الشمسية (الحمل ، والثور ، والجوزة ، والسرطان إلى آخره) ، فيقول أحدهم – كانت في الماضي تأتي في مجلات أجنبية – ومن باب الدعابة بين الشباب يقول : أنت ما طالعك ؟

يقول : طالعه الحمل ، ثم يرى الذي فيه ، يأتي لك كذا ، ويحصل كذا ، ويحصل كذا ، الإنسان الضعيف ربما لو قيلت له هذه الأمور يتأثر بها ولا قوة إلا بالله ، فيقع في هذا الشر وهذا الأمر وهو لا يشعر ، ولهذا لا يجوز النظر فيها حتى من باب المزاح ، يعني إن نظر فيها ربما يجر إلى اعتقادها .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : الحكمة في خلق النجوم) .

(**قال قتادة : خلق الله هذه النجوم لثلاث**) ما هي ؟ (**زينة للسماء ، ورجومًا للشياطين**) الدليل ؟ ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٥] .

(**وعلامات يُهتدى بها**) ، والدليل ﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ .

قال رحمه الله : (**الثانية : الردُّ على من زعم غير ذلك .**

الثالثة : ذكر الخلاف في تعلم المنازل .

الرابعة : الوعيد فيمن صدَّق بشيء من السحر ، ولو عَرَفَ أنه باطل) .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

(**باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**

وقول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٢]) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء**) .

الاستسقاء : طلب السقيا .

والأنواء - كما مر بنا - هي منازل القمر ، وعددها ثمانية وعشرون منزلاً .

والنوء أو منزل القمر يستمر ثلاثة عشر يومًا ، ثم يسقط من جهة الغرب ، يعني يغرب عند الفجر ، ويظهر رقيبُهُ النوء الآخر من جهة الشرق ، ولهذا سمي نوءًا ، من قولهم : نَاءَ يَنُوءُ بمعنى نهض وقام ، كأنه كان يرقبه ، فلما غاب نهض وقام ، وكان العرب يعتقدون أنه عند سقوط النوء وظهور رقيبه ينزل المطر ، ولهذا كانوا يستسقون بالأنواء .

وقيل في تسميتها أنواء : من الآناء ، والآناء هي آناء الليل والنهار ، يعني أوقاته وساعاته ، فهي أنواء لها أوقات معينة .

ذُكر أن القمر ينزل في هذه المنازل في كل ليلة منزل ، ثمانٍ وعشرين ليلة في كل ليلة ينزل في منزل ، ثم بعد ذلك يصير كما يقولون : محاق ليلة التاسع والعشرين والثلاثين إذا كان الشهر كاملاً .

وأما الشمس فتنزل في كل منزل ثلاثة عشر يومًا ؛ لأن هذه الأنواء الثمانية والعشرين مدة كل نوء ثلاثة عشر يومًا إلا نوء الجبهة فهو أربعة عشر نوء . لو ضربنا ثلاثة عشر في ثمان وعشرين تطلع ثلاثمائة وأربعة وستين ، زائد الجبهة أربعة عشر يوم تصير ثلاثمائة وخمس وستين ، وهذه أيام السنة الشمسية ، عندنا سنة قمرية وسنة شمسية . والسنة القمرية ثلاثمائة وأربع وخمسين يوم ، والسنة الشمسية ثلاثمائة وخمس وستين يوم . ولو سألك شخص عن عمرك وأردت أن تقلل عمرك تعطيه بالسنة الشمسية ، كل مائة سنة تزيد القمرية ثلاث سنوات على الشمسية ، ولهذا قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ [الكهف : ٢٥] ، قال بعض المفسرين - وإن كان القول فيه بُعد - قالوا : إن التسعة هذا باعتبار السنة الشمسية ، هي ثلاثمائة وتسع سنوات ، وتكون الشمسية أقل ، يعني لو نظرت في ورقة التقويم ستجد أننا في سنة ألف وأربعمائة واثنين هجرية شمسية ، مكتوب عندك في الورقة (هـ ش) ، ومعنى (هـ ش) هجري شمسي ، على كل حال ما يعني الدخول في هذه التفاصيل ؛ لكن الشمس كما ذُكر تجلس ثلاثة عشر يوم في كل نوء ، يغيب النوء ثم ينهض رقيبه وينوء رقيبه ، فيعتقدون أنه بغياب نوء وطلوع نوء ينزل المطر ، فجاء الإسلام بإبطال هذه العادات ، حيث ينسبون نزول المطر إلى الأنواء .

حكم الاستسقاء بالأنواء كحكم التنجيم : قد يكون كفرًا ، وقد يكون شركًا أصغرًا :

- فيكون كفرًا:

- إذا اعتقد أن النوء هو المستقل بإنزال المطر ، ولا علاقة للمطر بالله عز وجل ، ولكنه لا ينزل عياذًا بالله ، فهذا لا شك كفر .
- **الثاني** : إذا دعا النوء من دون الله أو دعاه مع الله عز وجل ، فهذا أيضًا شركٌ .

فالأول شركٌ في الربوبية ، والثاني شركٌ في الألوهية .

- أما إذا اعتقد أن النوء سبب فإن هذا من شرك الأسباب كما مر بنا حيث اعتقد سببًا لم يثبت أنه سبب ، لا في الشرع ولا في القدر ، فيكون شركًا أصغر .

(**وقول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾**) ، بعد قوله عز وجل : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ [الواقعة : ٧٥] ، إلى أن قال : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٨١ ، ٨٢] .

(**﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾**) وتأتي هذه الآية في آخر الباب . (**﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾**) ، أي شكركم لله عز وجل على النعمة ، قيل : نعمة العلم والقرآن ، أو نعمة المطر .

(**﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾**) شكركم على هذه النعمة (**﴿ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾**) :

- بدلاً من أن تشكروا الله عز وجل على هذه النعمة تكذبون بكتاب الله عز وجل .
- أو تكذبون بإنكار هذه النعمة وجحودها .

ثم قال : (**وعن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة »**) .

(**وعن أبي مالك الأشعري**) واسمه الحارث ، قال الحافظ : وفي الصحابة اثنان بهذا الاسم أبي مالك الأشعري وهم الأشعريون رهط أبي موسى الأشعري رضي الله عنهم أجمعين .

(**قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع »**) كما في الكلام السابق ذِكر هذا العدد لا يدل على الحصر ، وإنما هو حصرٌ تقريبي لتقريب العلم إلى الأذهان ، وسهولة ضبطه .

(**« في أمتي »**) في مجموع الأمة ، ولا يلزم أن تكون هذه الخصال موجودة في الأمة كلها ، قد يوجد من الأمة من لا توجد عنده هذه الخصال ، أو بعض هذه الخصال ؛ لكنها موجودة في مجموع الأمة . وبيَّن النبي ﷺ وجودها للتحذير منها ، وأن الناس يستمرون في اعتقادها وتكون موجودة عندهم ولا ينكرونها ، فبيَّنها النبي ﷺ حتى يحذرها الناس ، وإذا وُجدت بادروا إلى إنكارها وتعليم الناس أنها مخالفة للشرع .

الأولى : (**« الفخر بالأحساب »**) ، الفخر أي التعاظم بالأحساب والأحساب جمع حَسَبٍ ، وذلك أن الواحد منهم يحسب مآثر آبائه وأعمالهم ، يعني يعدها عدًّا حسبًا ، وجمع الحَسَب أحسابًا ، فيتفاخر بعد مناقبهم ومآثرهم ، وهذا الفخر من أعمال الجاهلية . قال ﷺ في حديث أبي هريرة عند أبي داود « **إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقي أو فاجر شقي ، الناس**

بنو آدم وآدم من تراب ، لَيَنْتَهِيَنَّ رجال عن فخرهم بأقوام إنما هم من فحم جهنم ، أو ليَكُونُنَّ أهون على الله من الجُعلان الذي يدفع بأنفه الأذى » ، يفتخرون بأقوام هم من فحم جهنم ، فلا يجوز للإنسان أن يفتخر على الناس ويتعاظم على الناس بذكر مآثر أهله ، أو بلده ، أو بقبيلته ، أو ما أشبه ذلك .

وينشأ عن هذا الفخر أمر ثانٍ وهو : **الطعن في الأنساب** ، تجد دائمًا الذي يفتخر ، يفتخر بحسبه ويطعن في أنساب الآخرين ، يقول : هذا الرجل ليس من هذه الفئة ، ليس من هذه القبيلة ، أو يذكر ما في آبائه من عيوب وما أشبه ذلك ، وفي الحديث المخرج في ((**مسلم**)) كما سيأتينا « **ثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت** » . الفخر في الإسلام إنما هو بانتماء الإنسان إلى دينه ، هذا هو الفخر ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ ، لماذا جعلناكم شعوبًا وقبائل ؟ ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات : ١٣] تعرف أن فلان من آل فلان من بني فلان ، لا ليتعاظم ويتفاخر بفئته أو قبيلته أو ما أشبه ذلك ، ثم بيَّن عز وجل الميزان الصحيح الذي يحصل به التفاضل ، وهو ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أحمر ولا أسود إلا بالتقوى ، فالتفاضل إنما هو في تقوى الله عز وجل ، ليس بأشياء لا علاقة للإنسان فيها ، الإنسان يفتخر بآبائه ، ما الذي يحملك على أن تفتخر بأشياء ما عملتها ولا قمت بها ، هذا إن كان صحيحًا ، وإنما يعتز الإنسان بدينه .

أبي الإسلام لا أب لي سواه ❊❊ إذا افتخروا بقيس أو تميم

البيت ينسب لسلمان الفارسي ، إذا افتخروا بقبائلهم أنا أفتخر بالإسلام ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقين : ٨] .

الثالث : الاستسقاء بالأنواء كما مر بنا ، وهو طلب المطر من الأنواء .

الرابع : النياحة على الميت ، والنياحة النياحة رفع الصوت على الميت قصدًا ، بصوت يشبه نوح الحمام ، والنياحة في النساء ، ما عرفت النياحة في الرجال . وكانوا يرون لها شأنًا في الجاهلية ، وكانت المرأة تذهب للنساء لتنوح معهن وكأنها تعينهن على هذا الأمر . والنياحة لا تزيد الإنسان إلا شدة وحزنًا ولا قوة إلا بالله ، ثم هي تسخط على قدر الله عز وجل ، وربما تهيج أحزان الآخرين أيضًا ، ولن ترد غائبًا ، الميت مات وانتقل إلى رحمة ربه هذا الذي يرجى له . وهذه النياحة وهذا الصياح وهذا العويل لن يرد فائتًا ، ولن يعيد غائبًا .

خرج وفاء بن عقيل رحمه الله وهو من الفقهاء المشهورين في جنازة ولده عقيل وكان طالب علم ، فلما كانوا يدفنونه صاح رجل وقال : يا أيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه ، كلام ! ، يريد أن يحيه الله عز وجل ويميت واحد منهم مكانه ، هذه الكلمة قيلت لحي ، قالها إخوة يوسف لعزيز مصر لأخيهم ، وهم لا يشعرون أن العزيز أخوهم يوسف عليه السلام . فقال ابن عقيل : يا هذا إن القرآن ما أنزل لتهيج الأحزان ؛ ولكن أنزل لتسكين الأحزان ، فالنياحة:

أولا : تزيد الإنسان شدةً وحزنًا .

الأمر الثاني : وتهيج أحزان الآخرين .

الأمر الثالث : فيه تسخط من قدر الله عز وجل .

الأمر الرابع : لا ترد غائبًا فما الفائدة منها إذًا ؟

الندب هو تعداد محاسن الميت ، كأن تقول المرأة : واكسياه ، وامطعماه ، واغوثاه ، وما أشبه ذلك ، قالت أم عطية رضي الله عنها : أخذ علينا رسول الله ﷺ أن لا ننوح .

ثم قال : (« **والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**») .

إذا لم تتب تقام يوم القيامة من قبرها وعليها سربال من قطران ، والسربال ثوب تلبسه من قطران ، والقطران:

- قيل : النحاس المذاب .
- وقيل : بل هو مادة معروف تدهن بها الإبل المعروف ، وهو سريع الاشتعال يقولون .

(**ودرع من جرب**) ، والدرع أيضًا ثوب أو قميص المرأة تلبسه ويكون من جرب ، المرض المعروف الذي يصيب الإبل ؛ لأن هذه المرأة لما لم تكتسي بالصبر كُسيت بما كسيت به بسربال من قطران ودرع من جرب .

والحديث يدل على تحريم هذه الأشياء الأربعة المذكورة في هذا الحديث .

والشاهد منه قوله : (« **والاستسقاء بالنجوم** ») .

(**ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال : صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف أقبل على الناس فقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته .**

فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب . وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا . فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب) .

(**ولهما عن زيد بن خالد**) الجهني رضي الله عنه (**قال : صلى لنا**) أي بنا (**رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحدَيْبِيَة**) ويقال : الحُدَيْبِيَّة ، والأول أشهر . والحديبية مكان ، وقيل : شجرة حَدْبَاء سمي بها المكان ، وهي المكان الذي حصل فيه الصلح بين النبي ﷺ وبين أهل مكة ، جزء منها في الحرم ، وجزء منها خارج الحرم في الحل ، قيل : وتسمى الآن الشميسي ، الآن يمكن دخلت في البيوت ، امتدت مكة واتسعت .

قال : (**على إثر سماء كانت من الليل**) ، إثر بالكسر يعني عقب ، عقب سماء ، وبالفتح الأثر أثر الشيء ما ينتج عنه .

إذًا الفرق بين إِثْر وأَثَر على إثْر يعني عقب مطر ، والسماء المطر ، والأثر هو ما ينتج عن الشيء ، أثر الشيء ما ينتج عنه .

والسماء هنا يراد به المطر .

إذا نزل السماء بأرض قوم ** رعيناه وإن كانوا غضابا

إذا نزل السماء يعني المطر ، وأطلق المحل وأريد الحال ، أطلق المحل وهو السماء لأن المطر ينزل من السماء وأريد الحال به وهو المطر .

(**فلما انصرف**) يعني انصرف من الصلاة وتوجه إليهم سألهم هذا السؤال (« **هل تدرون ماذا قال ربكم** » **؟**) .

وفيه : إلقاء العلم بطريق سؤال ، وكثيرًا ما يطرح النبي ﷺ عليهم مسائل العلم عن طريق سؤال ، تذكرون شيء مر بنا ، « **يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد** » سأل سؤال .

قال : (« **هل تدرون ماذا قال ربكم** » ؟ **قالوا : الله ورسوله أعلم**) .

وفيه : الأدب ، أدب طالب العلم إذا سئل عن مسألة لا يعلمها أن يقول : الله أعلم . وإذا سلك الإنسان هذا المسلك فإن الله تعالى يفتح عليه ويعينه ؛ لأنه عندما يُسْأل عن مسألة ويقول : لا أعلم ، سيذهب ويبحث عن هذه المسألة ، ثم يفيد السائل بعد ذلك ، ومع الوقت يستزيد علما ، يحصل العلم ؛ لكن إذا كان كل ما سئل عن مسألة إن كان يعرفها أجاب ، وإن كان لا يعرفها حاد عن الجواب وجاء بجواب على غير السؤال ، أو أجاب خطأً عياذًا بالله فمثل هذا يحرم العلم ولا قوة إلا بالله . فالمنبغي لطالب العلم أن يلزم الأدب ، الأدب مع الله عز وجل حتى لا يقول على الله بغير علم ، مسائل كبيرة .

قد يقول قائل : أنا أنحرج أن أظهر أمام الناس بأني لا أعرف .

لا تقل هذا ، بهذا يداري الإنسان الناس ولا يراقب ربه ولا قوة إلا بالله .

وقد سئل مالك عن مسائل عديدة في بعضها سئل عن أربعين مسألة فقال في ست وثلاثين : لا أدري .

حتى قال السائل : أنت مالك إمام دار الهجرة وتقول : لا أدري . قال : اذهب وصح في أزقة المدينة وقل إن مالكًا يقول : لا أدري .

لا يعنيه كلام الناس بقدر ما يعنيه مراقبة ربه سبحانه وبحمده .

« **أتدرون ماذا قال ربكم** » ؟

أولاً : الربوبية أقسام ربوبية عامة ، وربوبية خاصة :

- **ربوبية عامة :** لكل الخلق ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] جميع الناس ، وربوبيتهم بالخلق والملك والتدبير والرزق .

- **والربوبية الثانية الربوبية** الخاصة ، الربوبية الخاصة ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ ، وأدعية القرآن كثيرة ، وربوبيته لعباده المؤمنين بالخلق كما مر والرزق والتدبير إلى آخره ، وأيضًا بالتوفيق لكل خير ، والحفظ من كل شر ، هذا مقتضى الربوبية الخاصة .

العبودية أيضًا تنقسم إلى عبودية عامة ، وعبودية خاصة :

- عبودية عامة لكل الخلق ، مثل ((**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**)) عبودية عامة هنا ، فيها المؤمن وفيها الكافر ، قال تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] . الجميع .

- وعبودية خاصة للمؤمنين ، عبودية المؤمن لربه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . اللهم اجعلنا منهم جميعًا ، هذه عبودية خاصة .

((**قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته . فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب**)) ، قال : مطرنا ، وهذا المطر فضل الله ورحمته ، فهذا مؤمن بالله عز وجل ، حيث نسب المطر إلى فضل ربه ورحمته سبحانه وبحمده ، والمطر لا شك رحمة من الله عز وجل ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الروم : ٤٦] . وهذا الذي ينبغي للإنسان أن يقوله عندما ينزل المطر ، يقول مطرنا بفضل الله ورحمته ،

ويقول : اللهم صيِّبًا نافعًا . هذا التوحيد ، لا ينسب الخير إلى غير من بيده الخير ، ينسبه إلى الكواكب أو ينسبه إلى أشياء لا علاقة لها به بوجه من الوجوه .

(**« وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا »**) الباء هنا سببية ، يعني مطرنا بسبب نوء كذا وكذا .

(**« فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب »**) والكفر هنا كفر نعمة ، وليس الكفر المخرج من الملة .

والدليل قوله : (**« مطرنا »**) ، فهو لم يقل : أمطرنا النوء أو الكوكب ، لا ، وإنما قال : (**« مطرنا »**) ، فالمطر من الله عز وجل ؛ لكن بنوء كذا وكذا ، يعني بسبب نوء كذا وكذا ، فالقائل معتقد أن المطر من الله عز وجل ؛ لكنه أثبت سببًا لم يثبته الله عز وجل ، وبالتالي اعتبر قوله هذا كفرًا بالله عز وجل .

وفيه : أن المسلم أن قد يكون فيه خصال من الكفر ، خصال من اليهود ، من النصارى ، من الوثنيين إلى آخره ولا يكون كافرًا ، وسيأتينا « **ثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في الأنساب ، والنياحة على الميت** » ، وهذه ليست كفرًا ، ومع ذلك سماها النبي ﷺ كفر . وقوله : « **سباب المسلم فسوق وقتاله كفر** » ، مع قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ [الحجرات : ٩] . فقد يقوم بالإنسان خصلة من خصال الكفر ؛ لكنه لا يكون كافرًا .

وقد يقوم بالكافر خصلة من خصال الإيمان ولا يكون مؤمن ، مثل إماطة الأذى عن الطريق ، النبي ﷺ بين أن إماطة الأذى من شعب الإيمان « **الإيمان بضع وسبعون أو ستون شعبة ، فأعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى** » ، فلو أن كافرًا يميط الأذى عن الطريق ، وهو موجود عندهم يميط الأذى ، كل ما

شاف أذى أزاله عن الطريق ، هذه خصلة من خصال الإيمان بلا شك ؛ لكن لا يكون بها مؤمنًا ، لأن الإيمان هو التصديق المستلزم للانقياد والإذعان ، ليس حتى مجرد التصديق ، وهذا قامت به خصلة ، لا فيه تصديق ولا فيه إذعان ولا فيه شيء .

(« مطرنا ») الأولى أن الإنسان إذا نزل المطر أن يقول : مطرت السماء مطرت السماء ، والدليل حديث مشهور ، حديث أبي سعيد في الاعتكاف لما اعتكفوا العشر الأول ثم الوسطى ثم أخبر النبي ﷺ أنها في العشرة الأخيرة قال : « **فمطرت السماء تلك الليلة** » ولم يقل : أمطرت ، ولم يرد في القرآن أمطر إلا في الأذى كما في قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾. بعض الناس يقول : لا تقول حتى مطر ، لا ، كلمة مطر ليس فيها إشكال ، وهذا الحديث عندنا (« **مطرنا بفضل الله** ») ومطرنا بالمطر ؛ لكن الإمطار هو الذي ينبغي للإنسان أن يستعمله ؛ لأن الغالب أنه يعني ورد في العذاب .

الفقهاء رحمهم الله تعالى ذكروا ما يقال عند نزول المطر ، فذكروا أن السنة أن يقول الإنسان ما ورد (« **مطرنا بفضل الله ورحمته** ») ، قالوا : ويحرم أن يقول : مطرنا بنوء كذا . كما في الحديث هنا ، ويباح في نوء كذا ، والفرق أن (في) للظرفية ، يعني أن هذا النوء مجرد وقت وليس بسبب ، وينبغي هجر مثل هذه الألفاظ حتى لو قيل بإباحتها .

الشافعي رحمه الله قال : وغيرها أحب إلي ، يعني ما أجاز مطرنا بنوء ، قال : إذا كان قصده الظرف أو الوقت قال : وغيره أحب إليّ ، لأن انتشار هذه الكلمات بين الناس والعامة ما يعرفون معاني الحروف ، ما يعرف الفرق بين

الباء وفي ، مع أن (في) تأتي أحيانًا للسببية « دخلت امرأة النار في هرة » يعني سبب هرة .

المقصود : هجر الألفاظ التي تكون المخالفة فيها واضحة ، لا إشكال في هذا ، والألفاظ التي يمكن أن تجر أيضًا إلى الوقوع فيما فيه مخالفة .

الطالب : ما حكم قول مطر الوسم ؟

الشيخ: إذا قال : مطر الوسم ، مطر المربعانية ، مطر كذا . ما فيه إشكال ، هذا وقت ؛ لأن هنا ذكر الوقت ، يعني نزل المطر في الموسم ، هذا تحديد لوقته فقط .

قال رحمه الله : (**ولهما من حديث ابن عباس بمعناه ، وفيه قال بعضهم : لقد صدق نوء كذا . فأنزل الله هذه الآيات ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٥ – ٨٢]**) .

(**ولهما**) عن ابن عباس ، والحديث قال العلماء : من أفراد مسلم . وليس في البخاري .

(**من حديث ابن عباس**) قال : مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « **أصبح من الناس مؤمن وكافر** » ، قالوا : هذا رحمة الله ، ومنهم من قال : (**لقد صدق نوء كذا**) ، فنزلت الآيات ، ومعناه قريب من معنى حديث زيد بن خالد .

قال تعالى : (**﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾**) ، اختلف العلماء كثيرًا بهذا الحرف (لا) :

- فقال بعضهم : هذا حرف نفي ، وهو على بابه ، يعني ﴿ لا أقسم بمواقع النجوم ﴾، ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد : ١] ، ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة : ١] ؛ لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن يُقسم عليه فلا حاجة للقسم ؛ ولكن يضعف هذا القول ويرده قوله في هذه الآيات (﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ ﴾) فقد بيَّن الله تعالى أن هذا قسم لا إشكال في هذا ، والقول بأنه ليس بقسم قولٌ ضعيف .
- **والقول الثاني :** أن (لا) نافية ، ومدخولها محذوف تقديره لا صحة لما قلتم في القرآن إنه سحر ، أو شعر أو كهانة (﴿ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾) ، وهذا يختاره ابن كثير رحمه الله في كل ما ورد من هذا القبيل . وهذا ورد في السور المكية في عدة سور ، ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴾ [التكوير : ١٥] ، ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴾ [الانشقاق : ١٦] إلى آخره فابن كثير يرى أن (لا) نافية صحيح ؛ لكن محذوفها مقدر لا صحة لما زعمتم أقسم ، فيوافق البقية في أن الأسلوب أسلوب قسم لا إشكال في هذا .
- وقيل : إن (لا) زائدة ، وإذا قال العلماء : إن (لا) زائدة فليس معناه أن وجودها كعدمها ، بل هي – وهذه كلمة يقولها الشيخ محمد بن عثيمين دائمًا – يقول : زائدة زائدة ، زادت في اللفظ فزادت في المعنى .
- وقيل : إنها أداة تنبيه ، (لا) أداة تنبيه .

(﴿ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾) مواقع النجوم هنا اختلف في النجوم هنا :

- **والقول المشهور :** أنها النجوم المعروفة .
- **والقول الثاني ينسب إلى ابن عباس :** أنها نجوم القرآن ، حيث نزل القرآن منجمًا .

لكن المشهور (﴿ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾) مواقعها يعني مساقطها مغاربها ومطالعها .

(﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾) وجواب القسم قوله تعالى (﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾) القرآن مصدر:

- بمعنى اسم المفعول ، القرآن بمعنى مقروء .
- وقيل : بمعنى اسم الفاعل ، بمعنى قارئ ، أي جامع ؛ لأنه جامع لكل خير ، للمعاني العظيمة وللحكم والأحكام والأسرار العظيمة ، (﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾).

تخلل الكرم هذا القرآن من كل جهة :

- **فأولاً :** هو نزل به من الرب الكريم .
- ونزل به جبريل الكريم ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ ، ٢٠] .
- ونزل على النبي الكريم ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ﴾ [الحاقة : ٤٠ ، ٤١] .
- ثم هو في ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣ - ١٤] .
- ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٤ - ١٦] .

فاكتنفه الكرم من كل جهة ، فهو الكتاب الكريم بلا شك . وإذا كان الكرم اكتنف القرآن من كل هذه الجهات فماذا بقي ؟ أنا وأنت ، هل تكون كريم مع كتاب الله عز وجل تقرؤه تفقه ، تعمل به ، تؤدي ما يفتحه الله عليك وما يعينك عليه من حقوقه ، أم تكون بخيلاً مع كتاب الله عز وجل ، وإذا كنت بخيلاً مع كتاب الله فالكريم لا يبقى عند بخيل ، أرأيتم كريمًا يطرق بيت بخيل ؟ لا يمكن ، فإن القرآن يترحل عنك يذهب إلى من يعرف له قدره ومكانته وشرفه ، فكونوا كرماء مع هذا الكتاب الكريم .

كان العرب يطلقون الكرم على كرم المال بسبب ما كانوا يعيشونه من فاقة وفقر ، وإلا فالكرم وصف كبير ، فيطلق أحيانًا على :

١. كرم الذات ، يقال : هذا شيء كريم في ذاته ، قال ﷺ : « **إياك وكرائم أموالهم** » . وهي المواشي ، نفائس المواشي .

٢. ويطلق أحيانًا على كرم الصفات .

٣. يطلق على العطاء .

فهو جملة من الصفات إذا اجتمعت في شيء قيل : إنه كريم . ولا ريب أن القرآن كريم في ذاته ، وكريم في صفاته وفي نواله وعطائه وما ينال المسلم منه من الأجر والعلم والفضل والبركات التي لا تنتهي .

(﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴾) ، واختلف في الكتاب المكنون:

- فقيل : اللوح المحفوظ . وحينئذٍ تكون الآية كقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١ ، ٢٢] .

- وقيل : الكتاب المكنون الصحف التي بأيدي الملائكة . فتكون هذه الآية مثل قوله تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ * مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ﴾ . ويدل عليه قوله : (﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾) ، مال ابن القيم إلى هذا القول رحمه الله تعالى ، وأن الكتاب المكنون الصحف التي بأيدي الملائكة .

(﴿ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾) تمر علينا هذه الآية ونقرأها وهي آية عظيمة ، فيها بيان شرف هذا القرآن وعلو قدره ، وأنه بلغ من الشرف بحيث كان منزلاً من رب العامين سبحانه وبحمده ، فقف عند هذه الآية عندما تمر عليك ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢] ، نزل من عند ربنا سبحانه وبحمده ، فهذا يتطلب منك أن تعرف لهذا القرآن شرفه بمعرفة مصدره الذي جاء منه .

(﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴾) أي بهذا القرآن أنتم مدهنون ، تداهنونهم وتمالِؤونهم ، (﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾) تجعلون شكركم لنعمة الله عليكم بالعلم أو بالمطر أنكم تكذبون . وقيل : تجعلون حظكم ونصيبكم من هذا العلم وهذا القرآن أنكم تكذبون به .

في قول الله عز وجل : (﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾) إذا قيل : إن النجوم هنا هي نجوم المعروفة ، فذكر القرآن بعدها يدل على أوجه من الشبه ، فالنجوم:

١. يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ، والقرآن يهتدى به بلا شك ، فهو أعظم سبب للهداية .

٢. وأيضًا النجوم زينة ظاهرة للسماء ، وآيات القرآن زينة باطنة ، الزينة الباطنة التي تكون في القلوب هي التي عليها المعوَّل ﴿ وَلَكِنَّ اللهَ حَبَّبَ

إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : ٧] ، فهذه الآيات زينة في القلوب .

٣. النجوم رجوم للشياطين ، وآيات القرآن أيضًا رجوم لشياطين الإنس والجن .

٤. النجوم آيات ربنا المشاهدة الكونية ، والقرآن آياته المتلوة السمعية .

ولهذا أقسم عز وجل بالنجوم على كرم هذا القرآن وشرفه وعلو قدره ، جعلنا الله وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته .

قال رحمه الله :

(**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية الواقعة .

الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية .

الثالثة : ذكر الكفر في بعضها .

الرابعة : أن من الكفر ما لا يُخرج من الملة .

الخامسة : قوله : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » . بسبب نزول النعمة .

السادسة : التفطن للإيمان في هذا الموضع .

السابعة : التفطن للكفر في هذا الموضع .

الثامنة : التفطن لقوله : لقد صدق نوء كذا وكذا .

التاسعة : إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها ، لقوله : « أتدرون ماذا قال ربكم » ؟

العاشرة : وعيد النائحة) .

كون هذه الخصال الأربعة من أمر الجاهلية يقتضي البعد عنها ، لأنه كما قال شيخ الإسلام يعني ما كان من دينهم وأفعالهم فهو مذموم .

قد يقول قائل : الجاهلية فيهم موحدون وإن كانوا يُعَدَّون ، وفيها شعراء ، وفيها خطباء ، وفيها وفيها . نقول : وإن كان ، فالشرك فيها ضارب أطنابه في كل مكان ، والشرك هو رأس الجهل ، إلى جانب ما فيها من أنواع من الجهل ما تحصى ، وقد سماها ربنا الجاهلية ؛ لأن فيه بعض الناس يقول : لماذا تسموهم جاهلية ؟ قال تعالى : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ، وقال ﷺ : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية** » ، فسماها ربنا جاهلية ، وسماها رسوله ﷺ جاهلية ، فكل ما كان من اعتقاداتهم الباطلة وأعمالهم الباطلة فإنه مذموم ؛ لأنه موسوم بالجهل .

وفق الله الجميع للخير

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٦٥]** .

وقوله : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٢٤]) .

قال رحمه الله : (**باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾**) . هذا شروع من المؤلف في الموضوعات التي هي من أعمال القلوب كالمحبة ، والخوف ، والتوكل ، والرجاء ، وما أشبه ذلك .

وذكر المحبة أولاً ويذكر بعدها باب الخوف ؛ لأن العبادة تدور على هذين الركنين الركينين :

١ . المحبة .

٢ . والتذلل لله عز وجل .

ولهذا يقال في تعريفها – تعريف العبادة – : اسم يجمع غاية المحبة وكماله ، وغاية الذل وكماله . فالحب دون ذل ليس بعبادة ، والذل دون محبة ليس بعبادة ، والعبادة اجتماع الأمرين ، كما قال ابن القيم :

وعبادة الرحمن غاية حبه *** مع ذل عابده هما قطبان

ويقال في تعريف العبادة – يعني بمعنى آخر – : التذلل لله تعالى محبةً وتعظيمًا .

المحبة هي أصل كل عمل ، فالمحبة كما يقول شيخ الإسلام : هي التي تحرك الإنسان :

- فمن أحب الله عز وجل تحرك وتوجه إلى ربه تذللاً وتألهًا وعبادةً وتعظيمًا وطاعة .
- ومن أحب محمدًا ﷺ أيضًا تحرك وتوجه إلى اتباعه عليه الصلاة والسلام مع محبته بالقلب وباللسان .
- ومن أحب الدنيا تحرك إليها ، وصارت حركاته كلها في طلب الدنيا .
- ومن أحب العلم تحرك وسعى إلى العلم ، وصار العلم لذته وسلوته وغايته ، فهو لا يأنس إلا به ، ولا يتلذذ إلا به .

لما كانت المحبة هي الأصل في دين الإسلام ، وبكمالها يكمل إيمانه وبنقصها ينقص توحيده عقد المؤلف رحمه الله تعالى لها هذا الباب ، وصدره بالآيتين قوله تعالى : (﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾) هذه الآية ذكرت بعد الآية التي قبلها والتي تضمنت ثمانية من الأدلة الكبار الدالة على وحدانيته سبحانه وبحمده ، وقبل هذه الآية ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١٦٤] ، لو تأملتها لوجدت أنها اشتملت على قرابة الثمانية أدلة ، وقبلها ذكر الآية الدالة على وحدانيته ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] ، فما مناسبة هذه الآيات بعضها إلى بعض ؟

نأخذ ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ ، ما المناسبة ؟

الجواب: لما ذكر وحدانيته عز وجل ذكر الأدلة الدالة عليها .

والعجيب أن هذه الأدلة يقر بها المشركون ، هم مقرون بأنه الخالق ، والرازق ، والمالك ، والمدبر ، ومنزل المطر ، ففيه بيان للتلازم بين الألوهية وبين الربوبية.

ثم قال : (﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) ما مناسبة الآية الأخيرة للآية التي قبلها ؟

الجواب: أنه مع وضوح الحق بأدلته الجلية البينة الواضحة مع ذلك يُوجد من الناس من يتخذ من دون الله أندادًا ، وبعض الناس وليس الناس كلهم ، ولهذا قال : (﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾) ، أي يجعلوا لله سبحانه وتعالى نِدًّا ، والند هو المثيل والنظير والشبيه المناوئ يقولون .

(﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ﴾) ، أي يحبون هذه الأنداد كمحبتهم لله عز وجل ، إذًا هم يحبون الله ؛ ولكن هذه المحبة لن تنفعهم ، لأنهم لم يُخْلِصُوا هذه العبادة لله عز وجل ، بل أشركوا معه غيره ، وأحبوا معه الأنداد ، فلما ساوَوْهُ بآلهتهم وأندادهم كانوا بذلك مشركين ، كما قال عز وجل عنهم بعد أن دخلوا النار وصاروا يختصمون فيها : ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٨] ، أي نسويكم برب العالمين في المحبة .

(﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾) من هؤلاء المشركين لآلتهم ،أولله عزوجل . فالمؤمن يحب ربه عز وجل أعظم من محبة المشرك لآلهتهم ، فالمشرك

يحب هذه الآلهة ، فإن وجد ما يزعمه نفعًا استمر في عبادتها ، وإذا لم يجد فيها نفعًا تركها وعدل عنها إلى غيرها . وأما المؤمن فإنه يحب ربه تألهًا ، وتذللاً ، وتعبدًا ، وتعظيمًا له سبحانه وبحمده ، (﴿ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾) لو يرى هؤلاء الظالمون ويعلموا حين معاينتهم العذاب أن القوة لله جميعًا ، وأنه تعالى شديد العذاب ، لو علموا ذلك وسيرونه عيانًا ، فلو علموه وأيقنوا به ما عبدوا معه غيره ، واتخذوا أندادًا معه سبحانه وبحمده .

ثم قال عز وجل : (﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾) ، بعد قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ﴾ ، لا توالوهم إذ كانوا كفارًا ، ولا تحبوهم حتى ولو كانوا أقرب الناس إليكم ؛ لأنكم إن كنتم تحبون الله فمن لازم محبته عز وجل أن تحبوه وتحبوا ما يحب من الأشخاص والأعمال والأزمنة والأمكنة ، أما أن يدعي محبة الله ويحب أعداءه فأين هذا من المحبة .

أتحب أعداء الحبيب وتدعي** حبًّا له ما ذاك في إمكان

لا يمكن أن يدعي محبة الله عز وجل وهو يحب أعداء الله سبحانه وبحمده .

ثم قال : (﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ ﴾) هؤلاء الذين تحبونهم (﴿ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾) التي تنتمون إليها (﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾) اكتسبتموها (﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾) أي نقصها ورخصها ، (﴿ وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾) لزينتها وزخرفتها (﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾) إن كنتم تقدمون محبة الدنيا على محبة الله ورسوله (﴿ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا

﴾) انتظروا ما يحل بكم ، وفي هذا وعيد أكيد ، وتحذير شديد في تقديم محبة الله عز وجل .

وعلامة ذلك لو كان الإنسان بين أمرين :

١. بين شيء تهواه نفسه ، وتميل إليه ؛ لكن يشغله عن محبة ربه سبحانه وبحمده .

٢. أو شيء يحبه الله عز وجل ؛ لكن ربما يفوت عليه بعض الأمور التي تميل إليها نفسه .

فإن قدم محبة الله على ما تهواه نفسه ، فذاك علامة على محبته لله عز وجل ، وإن كانت الأخرى كان ذلك علامة على تقديمه محبته على محبة الله عز وجل ، فيقع عليه هذا الوعيد المذكور في الآية (﴿ فَتَرَبَّصُوا ﴾) وانتظروا وارتقبوا ما يحل بكم ، فإنه تعالى لا يهدي القوم الفاسقين الخارجين عن طاعته .

أقسام المحبة :

- **أعظمها – لا شك –** : محبة الله عز وجل ، وهي المحبة المقتضية للتذلل والخضوع ، وهذه المحبة – كما ذُكر – هي الركن الأول من أركان العبادة . فيحب الله عز وجل تذللاً وتألهًا وتعظيمًا له سبحانه وبحمده ، وصرف هذه المحبة لغير الله يُعتبر شركًا كما في الآية الأولى .

ما سوى هذه المحبة أنواع ، منها :

- المحبة في الله ولله – كما سيأتينا – ، وهذه تابعة لمحبة الله عز وجل ، فمن أحب الله كما ذُكر أحب ما يحبه الله عز وجل من الأشخاص ، أو الأعمال ، أو الأزمنة ، أو الأمكنة وما أشبه ذلك .

- **المحبة الثانية :** محبة طبيعية ، مثل محبة الجائع للأكل ، والعطشان للشرب ، وما أشبه ذلك ، هذه مباحة .
- هناك محبة إشفاق ورحمة كمحبة الوالد لولده .
- هناك العكس محبة إجلال وتوقير محبة الولد لوالده .
- هناك محبة أُنْس محبة الأصدقاء ، محبة المشتركين بعمل ، أو مهنة ، أو كذا بعضهم لبعض.

هذه أنواع من المحاب تعتبر مباحة .

لكن قد يَقْترن بها ما بسببه تكون مأمورًا بها أو منهيًّا عنها ؛ لأن المباح عندما يتحدث عنه كمباح يُنظر إليه في حد ذاته ، أما باعتباره كونه وسيلة إلى غيره ، فإنه يأخذ حكم ما جُعل وسيلة له ، فإذا كان المباح وسيلة إلى واجب فحكمه واجب ، وإذا كان وسيلة للحرام يكون محرم ، وهكذا .

ذُكر أن ركني العبادة : المحبة ، والخوف .

فبالمحبة يكون امتثال الأمر ، وبالتذلل والخوف يكون اجتناب النهي .

وبالتالي يُوفق العبد إلى امتثال أوامر الله سبحانه وتعالى محبة له ، واجتناب نواهيه تذللاً وخضوعًا له .

قال رحمه الله : (**وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » . أخرجاه**) .

(**« لا يؤمن أحدكم »**) هذا نفي للإيمان الكامل الواجب ، نفي لكمال الإيمان الواجب ، فلا يؤمن أحدٌ الإيمان الكامل حتى يحب النبي ﷺ أعظم من محبته لنفسه وولده والناس أجمعين .

وفي الحديث بدأ أول شيء بالولد ، ثم الوالد ثم الناس أجمعين ، وما ذكر النفس هنا . والنفس وردت في حديث عمر رضي الله عنه المخرج في ((**الصحيح**)) قال : يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي . قال : « **لا ، والذي نفسي بيده يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك** » ، قال : فالآن يا رسول الله ، والله إنك لأحبُّ إلي من كل شيء حتى من نفسي ، قال : « **الآن يا عمر** » . وسأل رجل النبي ﷺ فقال : متى الساعة يا رسول الله ؟ قال : « **ما أعددتَ لها** » ؟ قال : ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكني أحب الله ورسوله ، فقال : « **أنت مع من أحببت** » ، قال أنس : فقلنا : يا رسول الله ونحن كذلك ؟ قال : « **نعم** » ، قال : ففرحنا فرحًا شديدًا . « **أنت مع من أحببت** » ، إذا أحببت الله ورسوله فأنت مع من أحببت مع الله عز وجل ومع الرسول ؛ لكن ما تكون المحبة باللسان فقط ، ولكن تكون باللسان نطقًا ، وبالقلب إقرارًا واعترافًا وإيمانًا ، وبالجوارح عملاً .

فلا يؤمن الشخص الإيمان الكامل حتى يجمع هذه الأمور الثلاثة : يكون النبي ﷺ أحب إليه من ولده ، ومن والده ، ومن الناس أجمعين .

قال رحمه الله : (**ولهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكْرَه أن يقذف في النار » . وفي رواية : « لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى » إلى آخره**) .

(**ولهما عنه**) عن أنس رضي الله عنه (**قال رسول الله ﷺ : « ثلاث »**) وذِكْرُ العدد هنا أيضًا لا يراد به الحصر وإنما يراد به التقريب ، (**« من كُنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان »**) ، إذًا للإيمان حلاوة ، حلاوة متضمنة للذة والفرح كما يقول شيخ الإسلام ، وهي تابعة للمحبة ، بتكميل الأولى وتفريعها في الثانية ، ودفع ضدها في الثالثة كما يقول رحمه الله ، فالإيمان له حلاوة وله لذة ، وهذه الحلاوة فيها فرح ، والناس ينشدون الفرح ، وينشدون اللذة في كل اتجاه ، وأكثر الناس يخطئونها ولا يبحثون عنها في مواطنها ومظانها .

والفرح الحقيقي هو : فرح القلوب ولذتها ، وهذا يكون بطاعة الله عز وجل ، ولذة مناجاته ، وبهذه الأمور التي ذكر النبي ﷺ . ولما ذكر الله القرآن في قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ ﴾ [يونس : ٥٧] . قال في آخر الآية : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ [يونس : ٥٨] ، في كتاب الله فرح ، من أحب القرآن تحرك قلبه للقرآن وجد فيه الفرح واللذة والحلاوة ، وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد : ٣٦] . هذا الفرح المحمود الذي ينبغي أن يتسامى إليه الإنسان ، أما الفرح بحطام الدنيا وشؤونها فإنه عياذًا بالله قد يكون استدراج ، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] فالفرح فرحان :

١ . فرح بطر ، كالمذكور في هذه الآية .

٢ . وفرح محمود ، كالمذكور في الآية السابقة .

ولما خرج عمر يَسم إبل صدقة وكان معه مولى له غلام فهالته لما رآها ، فقال الغلام : هذا فضل الله ورحمته ، قال عمر: كذبتَ ، فضل الله ورحمته القرآن ، وذكر الآية ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ .

الإيمان:

- فيه حلاوة كما في الحديث ، وفي الحديث الآخر « **ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا ، وبالإسلام دينًا ، وبمحمد ﷺ نبيًا** » .
- وبالإيمان الأمان والسكينة والطمأنينة ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .
- وبالإيمان الحياة الطيبة ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ وهذا في الدنيا ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] وهذا في الآخرة .
- وبالإيمان ينال الإنسان أعظم نعيم ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ [الكهف : ١٠٧] اللهم اجعلنا جميعًا منهم .

وبفقد الإيمان عياذًا بالله ما يكون حال الإنسان ؟ يسلب الأمن ، يسلب الطمأنينة ، يضيع ، يتخبط في الظلمات ، ثم يوم القيامة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾ وهذا في الدنيا ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ [طه : ١٢٤ - ١٢٦] .

فواجب على الإنسان أن يحرص على الإيمان ، وأن يوفي أركانه ، وأن يسأل ربه الثبات عليه إلى أن يلقاه .

الخصلة الأولى : ((**« أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما »**)) ، يحب الله عز وجل أعظم محبة ، ويحب رسوله ﷺ أعظم محبة ، فإن قلت : فلماذا عطف الرسول على الرب عز وجل بالواو ولم يقل : بـ (ثم) الدالة على الترتيب ؟

قيل : إن محبة الرسول من محبة الله عز وجل ، ولهذا عطف النبي ﷺ على الله عز وجل بالواو .

قال : ((**« أحبَّ إليه مما سواهما »**)) ، لا يعدل بشيء ، أي شيء كائنًا من كان محبة الله عز وجل ومحبة رسوله ﷺ ، وكما مر من لازم ذلك أن يحب ما يحبه الله وما يحبه رسوله ﷺ .

قد أعاد النبي ﷺ الضمير إلى الله بلفظ التثنية ((**« أحبَّ إليه مما سواهما »**)) ، وقد أنكر على من صنع ذلك في حديث عدي بن حاتم أن خطيبًا خطب بين يدي النبي ﷺ ، الحديث في ((**مسلم**)) قال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى . فقال النبي ﷺ : « **بئس الخطيب أنت ، قل ومن يعص الله ورسوله** » ، فأنكر عليه الجمع بين الرب عز وجل وبين رسوله بضمير التثنية ، فما الجمع بين الحديثين ؟

الجواب: جمعوا بينهما بأوجه من الجمع :

- بعضهم يقول : مقام الخطبة يقتضي البسط ، بسط الحديث ، وإيضاح ما يقصده الخطيب ، بخلاف غيره الذي يقتضي الاقتصار .

- وقيل : إن النبي ﷺ إنما أنكر عليه من باب الأدب مع الله عز وجل ، وهو ﷺ عندما قال : (« **أحبَّ إليه مما سواهما** ») ، قال ذلك ليدل على الجواز .
- وقيل : بل هو خاص به ﷺ ، يعني قوله : (« **أحبَّ إليه مما سواهما** ») ، هذا من خصوصيته ؛ لأنه ﷺ معصوم أن يقع في الشرك بخلاف غيره .
- وقيل : إن قوله « **قل ومن يعص الله ورسوله** » ، ناقل عن الأصل ، وقوله : (« **أحبَّ إليه مما سواهما** ») . مبقٍ على الأصل . **والقاعدة في الترجيح بين الأدلة :** أنه إذا تعارض دليلان أحدهما ناقل عن الأصل ، والآخر مبقٍ عليه قدم الناقل عن الأصل ، لأن فيه زيادة علم ، وقوله : (« **مما سواهما** ») ، هذا مبقٍ على الأصل ، والأصل هو الجمع بينهما حتى أنكر النبي ﷺ على هذا الخطيب ، فكان إنكاره ناقلاً لهذا الحكم عن الأصل ، فقدم على النص المبقي عليه ، والله أعلم .

(« **وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله** ») ، وهذا فرع عن محبة الله عز وجل ، أن يحب المرء لا لمجرد القرابة ، ولا لمصلحة ، وإنما يحبه أولاً وقبل كل شيء لله مع أنه قد يحبه لقرابته وهذه محبة طبيعية ؛ لكن أكمل منها أن يحبه لله عز وجل وفي الله عز وجل .

المحبة في الله محبة جليلة عظيمة ، قد ورد فيها من النصوص ما يدل على تأكدها وعظيم قدرها ومكانتها عند الله عز وجل ، فأصحابها هم المستحقون لمحبة الله عز وجل .

في حديث أبي ليث الخولاني قال : دخلت جامع دمشق ، فإذا فتى براق الثنايا إذ اختلف الناس أسندوا إليه ، وصدروا عنه وعن رأيه ، فقلت : من هذا ؟ قالوا : معاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه . قال : فلما كان من الغد هجّرت – أي تقدمت وبكرت – فوجدته قد سبقني للتهجير ، فوجدته يصلي ، فلما فرغ من صلاته أتيته إليه من قبل وجهه فقلت له : والله إني لأحبك في الله . قال : آلله ؟ قلت : آلله ، قال : آلله ؟ قلت : آلله ، قال : فأخذ بحبوة ثوبي وقال : أبشر ، فإني سمعت النبي ﷺ يقول : « **قال الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين فيَّ ، المتجالسين فيَّ ، المتباذلين فيَّ المتزاورين فيَّ** » .

« **وجبت محبتي** » وجبت محبة الله ، أوجبها ربنا على نفسه سبحانه وبحمده على من جمع هذه الأوصاف ، ومن أشرفها وأعظمها المحبة في الله وما يتبعها من المجالسة والبذل والتزاور . ومما أُعِدَّ لهم أيضًا أنهم ينالون فضلاً وقدرًا عند الله عز وجل ، فيظلهم الله تعالى بظله يوم لا ظل إلا ظله ، في الحديث المخرج عند ((مسلم)) يقول الله تعالى : « **أين المتحابون في جلالي ؟ اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي** » . وفي حديث السبعة المشهور الذين يظلهم الله في ظله ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منه ، قال : « **ورجلان تحابا في الله ، اجتمعا عليه ثم افترقا** » .

والمقصود : أن هذه عبادة جليلة ، ينبغي للناس أن يحرصوا عليها ويحيوها كما كانت في عهد المصطفى صلوات ربي وسلمه عليه .

يقول ابن عمر كلامًا معناها: مر علينا زمان ما كان أحدنا يرى أنه أحق بدرهمه أو ديناره من أخيه ، هذا معنى قوله عز وجل في الحديث القدسي : « **المتباذلين**

فيَّ » ، يعني وصلت المحبة إلى أنه يرى أن أخاه له حق فيما في يده ، أو فيما عنده ، وهذا قدر رفيع ومنزلة عالية ، وأدركنا الناس وهم محافظون على هذه السنة ، وترى أثر المحبة فيما بينهم ، وربما عرّفوا الرجل بقولهم : هذا محب ، إذا قلت : هذا من ؟ يعني هل تعرف هذا الإنسان أو كذا ؟ ، قال : هذا محب ، محب في الله .

وكانوا يسافرون ، وأذكر أني زرت أحد الإخوان يرحمه الله وكان إمام مسجد ، وكان يأتي إلى مسجده وقد ارتحل عن الحي وبقي يصلي في مسجده ، يأتي يمكن الساعة العاشرة ضحًى ليصلي الظهر ، يجلس في المسجد وهو من العبَّاد المعروفين رحمه الله ، أتيت في يوم لزيارته فلم أجده ، وكان معي بعض الإخوة فاتصل بسائقه قال : نحن الآن في بلدة خارج الرياض أظنها (البَرَّة) أو (الرغبة) ، تبعد تقريبًا مائة وثلاثين أو خمسين ، قلت : لماذا ذهبتم إليها ؟ قال : ذهب الشيخ لزيارة أخٍ له في الله . ولا يخفاكم الحديث الرجل الذي زار أخًا له في الله « **فأرصد الله في مدرجته ملك لما أتى قال : أين تذهب ؟ قال : أريد أخًا لي في هذه القرية ؟ قال : ألك نعمة تَرُبُّهَا إليه ؟ قال : لا ، ولكني أحبه في الله . قال : فإني رسول الله إليك أن الله يحبك كما أحببته فيه** » . المحبة في الله عظيمة ، فلا تشغلنا الأغراض والمقاصد والأهداف ، وسيأتي في كلام ابن عباس ما يدل على أن هذا الوضع يتغير ، وتغير منذ أزمنة ؛ لكنه موجود ويتأكد أن يكون موجودًا بين طلاب العلم وأن يشيعوه بين الناس ويدعوا الناس ويرغبوهم فيه .

بين المسلمين ألفة لا توجد في الدنيا ، يغبطهم ويحسدهم غيرهم ، حيث تجد المسلم في أقصى المشرق ينظر إلى المسلم في أقصى المغرب على أنه أخوه ،

هذه الأخوة غرسها ربنا عز وجل بين الناس في قوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] أخوة تفوق أخوة النسب إذا لم يكن في النسب دين ، والله المستعان . ولهذا مر بنا قول نوح عليه السلام لما سأل ربه : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ [هود : ٤٥] . فقال الله له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : ٤٦] ، ليس نسبًا كما زعم البعض ، بل هو من ابنه نسبًا بنص القرآن ؛ ولكن ليس من أهلك لأنه خالفك ، وإلا فقد قال الله : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ [هود : ٤٢] ، هذا نص أنه ابنه من النسب ؛ لأن البعض مع الأسف قال : هذا ولد زنا ، وهذا قول قديم لبعض المفسرين ، لكنه قول مردود بنص القرآن .

المقصود : أن الإخوة في الله عظيمة ، والمحبة محبة في الله محبة عظيمة ، فليحرص المسلم عليها ، وليجاهد نفسه عليها ، وإذا أحببت إنسانًا في الله فينبغي أن تخبره بذلك ، قال ﷺ : « **إذا أحب الرجل أخاه في الله فليخبره** » الحديث في ((**مسلم**)) يقول : إني أحبك في الله ، وهو يدعوا له ويقول : أحبك الله الذي أحببتني فيه .

قال : (« **وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يَكْرَه أن يقذف في النار** ») ، إذ تذوق هذه الحلاوة فهو يكره أن يعود إلى الكفر ، أو يعود للمعاصي إن كان الله مَنَّ عليه بالتوبة ، كان مسلم فمن الله عليه بالتوبة وتذوق حلاوة الإيمان وقتها لا يمكن أن يعود للمعصية .

هذه الأمور في البدايات تحتاج إلى جهاد وجهاد وجهاد ، وابتلاء واختبار من الله عز وجل ، هل طالبها جادٌّ في طلبها مجتهد في طلبها ؟ فإذا ثبته الله عز وجل ووجد الحلاوة ما يعدل بها شيئًا .

وكنت قلت لكم وأقول دائمًا : شيئان في الدنيا فيهما حلاوة ولذة لا يدانيها لذة ، والله ما تدانيها أي لذة في الدنيا ، وهما :

١ . العبادة .

٢ . والعلم .

والعلم عبادة لا شك ؛ لكن من تذوق حلاوة العبادة هذا يجاهد نفسه لو يترك شيئًا منها ، لو أتى له شغل أو شيء تجده يجاهد في أن يحد من هذا العمل الذي أشغله عن هذه العبادة . وكانوا إذا أذن الفجر ولم يقوموا الليل يظل بعض نهاره وهو حزين ، سمعت بعضهم لم أستيقظ إلا أذان الفجر ، يحس أنه فقد شيء فقد لذة ، وكذلك طلب العلم ؛ لكن هذه الأمور ترى ما ، يعني طلب العلم في أوله شاق ولا شك ، الإنسان يأتي إلى شيء لا يعرفه يحتاج إلى أن يحفظ ، يحتاج إلى أن يقرأ ، يحتاج إلى أن يسهر ، فيتعب ويكل ويمل ، وكثير من الناس يقطع الطريق في أوله ، في وسطه ، ويمكن حتى وقد قارب نهايته .

الطالب: هل ينافي محبة الله الإفراط في المباحات ؟

الشيخ: على كل حال اللهو ما ألهى عن طاعة الله عز وجل والآخرة ، وقد يكون الشيء مباحًا في الأصل ؛ لكن الإنسان يأخذ من المباح بقدر ، بحيث لا يطغى على ما هو أهم منه ، والوقت نفيس وغالي لا يذهب في فضول المباحات . ولهذا من خطوات الشيطان والتي مرت بنا ، أولها أول ما يأتي للإنسان بالشرك ، فإذا عجز أتى بالبدعة ، فهي أحب إليه من المعصية ، فإذا عجز أتى بالكبائر ، كبائر الذنوب ، فإذا عجز أتى بالصغائر ، فإذا عجز أتى بفضول المباحات ، فإذا عجز أشغله بالمفضول عن الفاضل .

أولها : الشرك ، ثم البدعة ، ثم الكبيرة ، ثم الصغائر ، ثم فضول المباحات يشغله بالمباحات ، يأتي ويذهب دَوْرِيَّات واستراحات أشياء مباحة ما فيها شيء ؛ لكن الوقت ، ما هكذا تنفق الأوقات الثمينة الغالية ، وأخيرًا يشغله بالمفضول عن الفاضل ، وهذه يبتلى بها كثير من الإخوان ، يعمل في أشياء فاضلة يرجوا خيرها وهو على خير ؛ لكنه أُشغل عن ما هو أفضل منه .

قال رحمه الله : (**عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنالُ وِلاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان ، وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ذلك لا يجدي على أهله شيئًا . رواه ابن جرير .**

وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ [البقرة : ١٦٦] . قال : المودة) .

قال ابن عباس : (**من أحب في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في الله ، وعادى في الله ، فإنما تنالُ وِلاية الله**) يعني محبة الله (**بذلك**) وهذا كما ذُكر ، أن من أحب في الله أحبه الله عز وجل ، وإذا أحب في الله فمن لازم ذلك أن يبغض في الله ، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه الله ، ويوالي ما يواليه الله ويعادي من يعاديه الله ، هنا تنال ولاية الله سبحانه وتعالى ومحبته .

ونعلم أن الولاية نوعان عامة وخاصة :

- فولاية عامة للخلق كلهم ، المسلم والكافر ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦٢] ، ولاية في الخلق والتدبير ، والرزق وما أشبه ذلك .
- وولاية خاصة بالمؤمن ، وهي ولاية التوفيق والإعانة والتسديد ، إلى جانب ما ذكر .

وهناك من المؤمن لربه عز وجل قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة : ٥٦] ، من يتول الله ، يتولى ربه محبة وتألهًا وتعظيمًا .

يقول ابن عباس : (**وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ذلك لا يجدي على أهله شيئًا**) ابن عباس يحكي الواقع القديم ، يعني في زمانه ، ولا شك أن الناس يتغيرون ، قال أنس : لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه ، قاله رسول الله ﷺ ، والحديث المشهور « **خير الناس قرني ثم الذين يلونهم** » ، ثم ، ثم . يحصل نقص في الناس لا شك ، فعامة مؤاخاة الناس في وقت ابن عباس (عامة) لا يعني كل مؤاخاة الناس لا ، وهنا يتبين من تمسك بشرع الله وحرص على اقتفاء آثار رسول الله ﷺ ، فظهرت محبته لربه تألهًا وتعظيمًا ، ومحبته لرسول الله ﷺ لقلبه وبلسانه وباتباعه لهديه ، ولما ادعى أقوام محبة الله أنزل الله آية المحنة وهي ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] هاتوا البرهان والدليل على محبتكم لله عز وجل ، فإن كان الدليل موجودًا فأبشروا ، ﴿ فَاتَّبِعُونِي ﴾ ماذا ؟ ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللهُ ﴾ .

والتغيُّر لا شك حصل في الناس ، حذيفة أيضًا يقول في الحديث وحديثه في ((**الصحيح**)) : (وقد أتى علي زمان) يتكلم عن رفع الأمانة ، حديث رفع الأمانة . يقول : (وقد أتى عليَّ زمان ما كنت أبالي من أبايع ، إن كان مسلمًا رده إسلامه ، وإن كان غيره رده سعيه ، أما الآن فلا أكاد أبايع إلا فلانًا وفلانًا) دنيا ، لاحظوا حديث حذيفة يدل على أن الدنيا أثرت في الناس ، حتى ضعفت الأمانة والأمان فيهم .

وأثر ابن عباس هذا يدل على أن الدنيا أثرت في الناس حتى صارت عامة مؤاخاتهم عليها وهذا ملاحظ في كثير من الناس ؛ لكن مع ذلك الخير موجود وإن حرصنا عليه وعملنا على توعية الناس له يعمل طلاب العلم على توعية الناس وحظهم عليه فلعل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا وعليكم وعلى الناس جميعًا بالهداية وبالتوفيق لما يحبه الله عز وجل وما يحبه رسوله ﷺ .

ثم أورد كلام ابن عباس (﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾) أي المودة ، هذه المودة التي كانت في الدنيا أين يكون مآلها يوم القيامة تتقطع وتنتهي ، ويتبرأ كل صاحب من صاحبه وكل صديق من صديقه ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] ، تبقى أثر خلتهم ، ولهذا في حديث السبعة كما ذُكر رجلان تحابا في الله يظلهم الله تعالى في ظله ، آثار هذه المحبة كانت في الدنيا إلفًا وراحةً ومحبةً وفي الآخرة حصلت هذه الآثار العظيمة .

اللهم إنا نسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عملٍ يبلغنا إلى حبك ، اللهم اجعلنا من المتحابين بجلالك وعظمتك

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية البقرة .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : وجوب محبته ﷺ وتقديمها على النفس والأهل والمال .

الرابعة : أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

الخامسة : أن للإيمان حلاوة ، قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها .

السادسة : أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها) .

ما هي الأعمال الأربعة ؟

١ . أحب في الله .

٢ . وأبغض في الله .

٣. ووالى في الله .

٤ . وأعطى في الله أيضًا ومنع لله في حديث أبي أمامة « **من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان** » .

قال رحمه الله : (**السابعة : فهم الصحابي للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا .**

الثامنة : تفسير ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴾ .

التاسعة : أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا .

العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية أحبَّ إليه من دينه .

الحادية عشرة : أن من اتخذ نِدًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر) .

وفقكم الله وأعانكم وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥]**) .

(**باب قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾**) . علاقة هذه الآية بالآيات قبلها ، الآيات قبلها في ذكر ما حصل في غزوة أحد ، وأن المسلمين أصيبوا في غزوة أحد ، ورجع المشركون ثم لام بعضهم بعضًا أنهم لم يستأصلوا المسلمين ، ولم يقتلوا محمدًا ، فَهَمُّوا أن يرجعوا ، وحَمَّلوا بعض من مر بهم من بعض قبائل العرب رسالة إلى النبي ﷺ أنا راجعون .

فأمر النبي ﷺ بالنفير وخرج الصحابة رغم ما فيهم من جراح ، حتى إن أحدهم كان يحمل أخًا له لا يستطيع أن يمشي ، فيما يعرف بغزوة حمراء الأسد ، ثم إن الله تعالى ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، فتقهقروا ورجعوا وخذلوا .

قال الله عز وجل بعد ذلك : (**﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾**) ، بعد قوله : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ

وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ - ١٧٥] .

ومعنى (﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾) ، أي يخوفكم بأوليائه .

قال تعالى : (﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾) لا تخافوا الشيطان وأولياء الشيطان ، وإنما يجب أن يكون الخوف لله عز وجل . فالخوف من العبادات القلبية ، ومن أعمال القلوب ، وهو من مقامات التوحيد العظيمة ، ولهذا عقد له المؤلف رحمه الله تعالى هذا الباب .

أمر الله سبحانه وتعالى بالخوف ورغَّب فيه ، وأمر بإفراده بالخوف والآيات في هذا مشهورة ، كما في قوله عز وجل :

١ . ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾ [البقرة : ١٥٠] .

٢ . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] .

٣ . وقال : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾ [البقرة : ٤٠] .

٤ . وقال : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] .

والآيات في هذا مشهورة .

أمر بالخوف في آيات ، وبالخشية في آيات أخر ، قالوا : والخشية أخص من الخوف ، قالوا : الخشية لا تكون إلا مع العلم بالْمَخْشِيّ ، لهذا قال عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] لما عرفوا الله عز وجل بأسمائه وصفاته عظمت خشيتهم .

والخشية - يقول العلماء - : هي أصل العلم ، وهي غايته وزبدته ، فعلم لا يورث صاحبه خشية هذا لا شك علمٌ قاصر .

أيضًا الخشية تكون مع تعظيم المخشي ، بخلاف الخوف ، الخوف لا يلزم منه العلم ، بل قد يكون الخائف جاهلاً بمن يخافه ، ولا يلزم منه أيضًا التعظيم ، بل قد يكون لضعف الخائف نفسه .

وعلى كل حال فالله سبحانه وتعالى نهى عن الخوف من غيره ، ونهى عن الخشية من غيره ، ولكن هذا من باب الفروق اللطيفة بين الألفاظ .

إذا كان الخوف من العبادات الجليلة ومن مقامات التوحيد العظيمة فهو عبادة لا يجوز أن تُصرف إلا لله عز وجل .

وهناك أنواع من الخوف غير ما ذكر ، منها :

١ . خوف السر ، وذلك بأن يخاف الشخص خوفًا داخليًّا ، الخوف بداخله من مخوفٍ يعتقد أنه ربما يضره بمرض ، أو فقر ، أو قتل ، أو ما أشبه ذلك بمشيئته وقدرته ، سواء اعتقد ذلك استقلالاً – يعني أن هذا المخوف بزعمه يفعله مستقلاً – أو اعتقد أن ذلك كرامة له من الله عز وجل ، وهذا الخوف هو الذي يقع فيه المشركون ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ﴾ [الأنعام : ٨٠] . وقال قوم هود لهود عليه السلام : ﴿ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ﴾ [هود : ٥٤ ، ٥٥] . أنتم وآلهتكم اعملوا ما تشاءون . وقال نوح عليه السلام : ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ [يونس : ٧١] . وقال عز وجل لمحمد

ﷺ : ﴿ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ * إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٥ ، ١٩٦] .

هذا النوع من الخوف يقع فيه القبوريون ، تجدهم يخافون من الأموات ، يخافون من الولي ، من السيد ، بل قد يبلغ الأمر ببعضهم إلى أن يخاف من هؤلاء أكثر من خوفه من الله عز وجل ، وقد يعظمه أكثر من تعظيم الله عز وجل ، ولهذا يُطْلَب من الواحد منهم أن يحلف بالله فيحلف كاذبًا ولا يبالي ؛ لكن لا يمكن أن يحلف بمن يُعَظِّم وهو كاذب . وهذه ثمرة الغلو ولا قوة إلا بالله ، وصل بهم الأمر إلى أن يُعَظِّمُوا الموتى أعظم من تعظيم الله عز وجل .

٢. هناك خوف طبيعي يوجد لدى كل الناس حتى الأنبياء ، قال الله عن موسى عليه السلام : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ ﴾ [طه : ٦٧ ، ٦٨] ، ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ [طه : ٤٥] ، لكن هذا الخوف الطبيعي إن أدى إلى أن يترك الإنسان واجبًا أو يفعل محرمًا فإنه يصبح محرمًا لا شك .

فإذًا عندنا خوف يعتبر شركًا وهو خوف السر ، وخوف محرم الذي يؤدي إلى أن يترك الإنسان الواجب ، أو يفعل محرما خوفًا من أحد من البشر .

٣. هناك نوع من الخوف الْمُتَوَهَّم ، يتوهم الإنسان شيئًا لا حقيقة له ويخاف منه ، وهذا النوع إذا استمر مع الإنسان وتمادى فيه فإنه لا شك يضره ضررًا عظيمًا .

المقصود : أن المسلم يغرس في قلبه الخوف من الله ، وإذا خاف من الله خاف منه كل شيء ، وإذا خاف من غير الله خاف من كل شيء ، كما يقول بعض أهل العلم .

لكن هل يُغَلِّب الخوف أم يُغَلِّب الرجاء ، أو يكون بينهما كجناحي طائر ؟ أقوال لأهل العلم في هذه المسألة :

- **فقيل :** بتغليب جانب الخوف على الرجاء . وهذا مُشكل وقد يؤدي إلى اليأس من رحمة الله عز وجل .
- **وقيل :** بتغليب الرجاء ، وهذا مشكل أيضًا ؛ لأنه قد يُوقع في الأمن من عقوبة الله عز وجل كما سيأتي في باب القادم .
- **وقيل :** بل يكون بينهما كجناحي طائر ، كما يقول الإمام أحمد ، الطائر له جناحان لا يطير إلا بهما ، فلو انكسر أحدهما لا يطير ، كذلك الموحد لا يتم توحيده إلا بأن يكون بين الرجاء وبين الخوف لا يُغَلِّب أحدهم على الآخر . **قال بعض أهل العلم :** لكن يُغَلِّب الرجاء عند الموت ، عند الموت يُغَلِّب الرجاء وحسن الظن بالله عز وجل .
- **وقيل :** بل في الطاعة يُغَلِّب جانب الرجاء ، وفي فعل المعصية يُغَلِّب جانب الخوف ؛ لأنه إذا غَلَّب الخوف في المعصية لم يقع فيها ؛ لكن لو غَلَّب الرجاء في المعصية عياذًا بالله تمادى في المعاصي ولم يبالِ ، كما قال بعضهم : فأكثر ما استطعت من الخطايا إذا كان القدوم على كريم .

الطالب: ما حكم من يخاف من الظلام ، أو يستوحش إذا صار لوحده ؟

الشيخ: هذا يختلف فيه الناس خوف طبيعي ؛ لكن ما ينبغي للإنسان ، قد يتحول إلى توهم ، وإلا الظلام ما يضره ، وفي أيام مضت قبل وجود الكهرباء ما كان الأطفال يخافون من الظلام ؛ لكن مع وجود الأنوار صار الظلام مخيف ، وماذا في الظلام !

(وقوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة : ١٨]) .

قال عز وجل : (﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾) ..(﴿ إِنَّمَا ﴾) هذا الأسلوب يسمى حصر ، ومعناه إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه ، يعني إثبات عمارة المساجد فيمن وصفوا بهذه الأوصاف . وعمارة المساجد على نوعين :

- عمارة حسية ، وهي عظيمة ، حتى قال عليه السلام : « **من بنى لله مسجدًا ولو كمفحص قطاة بنى الله بيتًا في الجنة** » ، ومفحص القطاة عشُّها الذي تضع فيه البيض ؛ لكن هل في مسجد مثل عش القطاة ؟ لا ؛ ولكن معناه لو ساهم في المسجد بشيء قليل ، هذا نوع من العمارة ، ولا شك هو عظيم .

لكن أعظم منه :

- العمارة المعنوية ، وهي عمارتها بما بنيت من أجله ، وإنما بنيت لإقامة ذكر الله عز وجل ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ﴾ [النور : ٣٦ ، ٣٧] . الآية .

إنما يعمر مساجد الله من وصفوا بهذه الأوصاف :

الوصف الأول : (﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾) ، والإيمان معناه التصديق مع التذلل والانقياد والخضوع والإذعان لله عز وجل . لا يكفي التصديق ، يأتي أحد يقول : أنا مصدق أن محمدًا رسول الله ، ولا ينقاد ولا يخضع ، هذا لا يكون إيمان .

(﴿ مَنْ آمَنَ بِاللهِ ﴾) والإيمان بالله – كما مر بنا في التفسير – الإيمان بوجوده ، بربوبيته ، بألوهيته ، بأسمائه وصفاته سبحانه وبحمده .

(﴿ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾) والإيمان باليوم الآخر وهو يوم القيامة ؛ لأنه آخر يومٍ فلا يوم بعده . ويلاحظ أن الله عز وجل يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به في مواضع عديدة دون بقية أركان الإيمان ، لأن الإيمان باليوم الآخر منشط للعمل ، باعث للعمل . إذا علم الإنسان أن هناك يومًا آخرا لا يوم بعده ، وسيحاسب فيه عن مثاقيل الذر من الخير والشر ، فإن هذا لا شك يقوي همته ، وينشط عزيمته للعمل وللاستعداد لهذا اليوم .

الوصف الثاني : (﴿ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ ﴾) ، وتذكر الصلاة دائمًا بلفظ الإقامة ، ﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الحج : ٤١] ، ﴿ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ ﴾ [الحج : ٣٥] ، ﴿ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ وليس يؤدون الصلاة ، حتى تؤدى قامة مستقيمة تامة بكل ما شرع فيها ، الشروط ، وأركان ، وواجبات ، وسنن .

الوصف الثالث : (﴿ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾) أدى الزكاة وأعطاها مستحقيها .

الوصف الرابع : (﴿ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ ﴾) وهذا هو الشاهد ، لم يخش إلا الله عز وجل ، لم يخش غيره .

ومر بنا أن الخوف من غير الله إذا كان خوف سر بحيث يخاف من هذا المخوف أن يفعل به ما يشاء بمحض قدرته ومشيئته ، لأن هذا الخوف خطير وشرك بالله عز وجل ، يقول ابن القيم :

يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ** ويحبه كمحبة الديان

يدعو غير الله ، يرجو غير الله ، يخاف غير الله ، يحب غير الله ، يتوكل على غير الله ، يصرف أنواع العبادة لغير الله عز وجل .

فأفرد الله عز وجل هنا بالخشية ، قال تعالى في جزء من وصف بهذه الأوصاف (﴿ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾) وعسى من الله واجبة ؛ ولكن ذكر هذا الأمر بهذا الفعل الذي قد يفهم منه الرجاء بالنسبة للمخلوقين من أجل عدم غرور الإنسان ، قد يأتي الإنسان ويقول : هو يعمل وصلى وزكى وكذا وكذا ، فهو إذًا من المهتدين ، لا ، لا يغتر ؛ لكن يرجو الله عز وجل .

والآية دلت على وجوب إفراد الله سبحانه وتعالى بالخشية ، وأن من أتى بهذه الصفة مع صفاته السابقة عسى أن يكون من المهتدين .

قال رحمه الله : (**وقوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [العنكبوت : ١٠ ، ١١]**) .

(﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ ﴾) من الناس من يقول : آمنا بالله .

(﴿ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ ﴾) ابتلي وامتحن ، وتأملوا أول السورة ، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١ ، ٢] معنى يفتنون يعني يبتلون ويختبرن .

هنا قال : (﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ ﴾) ابتلي وامتحن ، (﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ ﴾) يعني جعل أليم عذاب الناس كعذاب الله عز وجل ، فنكص على عقبيه بسبب ما تعرض له من الابتلاء والامتحان ، كما قال عز وجل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

والفتنة في القرآن تطلق على معانٍ :

- **منها** : الاختبار ، كما في أول السورة .
- **ومنها** : الشرك ، ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] الشرك والصد عن دين الله .
- **ومنها** : العذاب ، ولعل هذه الآية من هذا القبيل ، (﴿ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ ﴾) يعني جعل عذاب الناس لهم ، (﴿ كَعَذَابِ اللهِ ﴾) .

(﴿ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾) وهذه الصفات لأناس من المنافقين أو مرضى القلوب ، إذا جاء نصر قالوا : (﴿ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾) .

﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ١٤١] الآية ، ﴿ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ

فَضْلٌ مِنَ اللهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٧٢ ، ٧٣] .

فهؤلاء إن أصيبوا بفتنة نكصوا ، وإن حصل للمسلمين ظفر وغنيمة تمنوا أن لو كانوا منهم .

(﴿ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴾) بلى هو أعلم بما تخفيه الصدور .

ثم قال : (﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾) ، هذه من ثمرات الامتحان ، وهو عالم بحال هؤلاء قبل امتحانهم ، فما فائدة ذكر العلم إذًا بعد الامتحان ؟ يراد بهذا العلم علم الظهور الذي تقوم به الحجة ، ويراد به أيضًا علم المجازاة الذي يترتب عليه الجزاء .

قال رحمه الله : (**عن أبي سعيد رضي الله عنهما مرفوعًا : « إن من ضعف اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، إن رزق الله لا يَجُرُّه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره »**) .

أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه وأرضاه ، أبوه مالك بن سنان ، الذي مص الدم من رسول الله ﷺ في غزوة أحد ، فهو وأبوه صحابيان جليلان .

قال رسول الله ﷺ : (**« إن من ضُعف اليقين »**) ، أو (**« ضَعف اليقين »**) .

لغتان :

١ . **الضُّعف لغة** : قريش .

٢. **والضَّعف لغة :** تميم .

وقد قرئ هذا الحرف بالقراءتين في قوله عز وجل : ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ﴾ [الروم : ٥٤] .

(**« إن من ضُعف اليقين »**) ، اليقين المراد به الإيمان كله ، وربما أطلق على العلم .

واليقين ثلاث درجات مرتبة وهي :

١. علم اليقين .

٢. عين اليقين .

٣. حق اليقين .

علم اليقين يكون بالخبر ، يأتي إنسان يخبرك بخبر ، وثاني وثالث وخامس حتى تتيقن من صحة الخبر .

وأما عين اليقين فيكون بالنظر ، ما احتجت فيه إلى الخبر وإنما شاهدته بعينك .

وحق اليقين يكون بالذوق ، بحيث يذوقه في قلبه ، يذوق حلاوته ، مثال : « **ثلاث من كن فيه وجد فيهن حلاوة الإيمان** » .

شيخ الإسلام مثل بالعسل ، يأتي الشخص ويخبرك وثاني وثالث ، وكلهم عندهم خبرة بالعسل ، فتتيقن أن هذا العسل جيد ، ثم يؤتى إليك به فتنظر إليه وأنت صاحب الخبرة فتقول : هذا هو العسل . ثم تذوقه تذوق حلاوته فحينها بلغت حق اليقين .

وهذه الأقسام ذكرت في القرآن:

- في سورة التكاثر: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٥]

- ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر : ٧] ،
- وفي الحاقة قال : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ [الحاقة : ٥١] .

(« **إن من ضُعف اليقين أن تُرْضِيَ الناس بسخط الله** ») عياذًا بالله من ذلك ، يسعى إلى كسب الناس وإن أسخط الله عز وجل كما سيأتي في حديث عائشة ، فصار رضا الناس عنده مقدمًا على رضا الله عز وجل .

الثاني : (« **وأن تحمدهم على رزق الله** ») ، رزقٌ ساقه الله لك فتحمد الناس عليه ، وتلتفت إلى سبب ذلك الرزق دون النظر إلى من يسره وسببه سبحانه وبحمده ، يعني يلتفت إلى هذا السبب ، وإلا فحمد الناس دون الالتفات إلى هذا السبب لا بأس به ، وقد قال ﷺ : « **من لم يشكر الناس لم يشكر الله** » . فكون الإنسان يشكر الناس لا بأس بهذا ؛ لكن دون أن يعتمد ويلتفت إلى السبب الذي يناجيه شكره .

(« **وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله** ») تذم الناس على شيء لم يقدره الله لك ، وهذه مسألة كبيرة حقيقة ، وقَلَّ من يسلم منها ، يذهب الإنسان إلى مسؤول له بحاجة فلا يقضي حاجته فيخرج وقد غضب عليه ويتكلم فيه ويذمه ويلومه ، ولو راجع نفسه واستحضر أن هذا الأمر ما قُدِّر ولو قُدِّر لجرى على يده ولو امتنع ، فإذًا لماذا يذمه على أمرٍ لم ييسره الله تعالى له ؟ فكان الواجب أن يرضى بما قسم الله عز وجل ، ولا يلوم الناس على أمر لم يُقَدَّر له .

(« **إن رزق الله لا يَجُرُّه حرص حريص ، ولا يرده كراهية كاره** ») أما حرص الإنسان على الرزق فلن يأتي به الحرص .

(« ولا يرده كراهية كاره ») ليس لأحد أن يمنع الرزق وقد قدره الله ، فلا يمكن ، ﴿ مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [فاطر : ٢] .

هذا الحديث كما تلاحظون معانيه جميلة ؛ لكنه حديث ضعيف ، فيه محمد بن مروان السُّدي الصغير ، وسمي الصغير لأن فيه كبير ، جده إسماعيل بن عبد الرحمن السدي المعروف بالتفسير ، وله علل أخر غير السدي .

لكن المعاني الموجودة فيه حقيقة معاني جيدة ؛ ولكن هو على كل حال ضعيف ، وحديث عائشة الآتي هو حديث صحيح فيه ما يدل على بعض ما تضمنه هذا الحديث .

قال رحمه الله : (**وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من التمس رِضَا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس ، ومن التمس رِضَا الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس » . رواه ابن حبان في صحيحه**) .

سبب الحديث أن معاوية رضي الله عنه كتب إلى عائشة أوصيني ولا تكثري ، فذكرت له هذا الكلام الوجيز البليغ العظيم ، قال ﷺ : (**« من التمس رِضَا الله بسخط الناس »**) ، وفي بعض الروايات « **كفاه الله مؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس** » ، واللفظ الذي عندنا (**« من التمس رِضَا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس »**) ، فلما قدم رضا الله على رضا الناس رضي الله عنه ، وإذا رضي الله عنه رضي الناس ولا بد ، وفي الحديث « **إذا أحب الله عبدًا دعا جبريل فقال : إني أحبه . فيحبه جبريل ، ثم ينادي في**

السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يلقى له القبول » . من أحبه الله – نسأل الله الكريم من فضله – لا بد أن يحبه أهل السماء وأهل الأرض ، ومن رضي الله تعالى عنه رضي عنه أهل السماء والأرض .

(**« ومن التمس رِضَا الناس بسخط الله »**) نعوذ بالله ، غايته رضا الناس ولو أسخط الله عز وجل ، فما العاقبة والعقوبة ؟ (**« سخط الله عليه »**) وإذا سخط الله عليه أسخط عليه الناس ، وهذا يدل على خطورة العقوبة ، وأن الإنسان قد يعاقب ، وأعظم العقوبات عقوبات القلوب ، أن يبتلى الإنسان في قلبه ، أن يصاب بقلبه ولا قوة إلا بالله . قال تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ٧٧] . وقال عن بني إسرائيل : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة : ١٣] . ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ ﴾ لما نقضوا الميثاق الذي بينهم وبين الله عز وجل وقعوا في المعاصي لعنهم الله ، وعاقبهم بقسوة القلوب ، والناس كل الناس بينهم وبين الله تعالى عهد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وأن يطيعوه لا يعصوه سبحانه وبحمده . فمن عصى الله عز وجل فقد أخل بذلك العهد ، وإذا أخل بذلك العهد فقد عرض نفسه للعقوبة ، وقد تكون العقوبة في القلب لا قوة إلا بالله ، ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] أصيبوا بسبب الذنوب للتولي ولا قوة إلا بالله .

والمقصود : أن الإنسان يجب عليه أن يطيع الله عز وجل ، ويقدم طاعة الله على طاعة كل أحد ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، حتى ولو كان الوالدان ؟ نعم حتى ولو كان الوالدان ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ

لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ لكن ؟ ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] تبقى المصاحبة لكن في الدنيا ، فالوالدان على كل حال لهما حق ؛ لكن إن أمرا بمعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ؛ لكن هل يعني هذا أن الإنسان يجفوهما ويعُقُّهما ؟ لا ، بل يصاحبهما في الدنيا معروفًا .

الرضا هنا يكون في الواجبات ويكون أيضًا في المستحبات ، فالإنسان يؤدي السنة حتى ولو سخط عليه من سخط ؛ لكني لا أظن أن أحدًا لا يرغب من إنسان أن يؤدي سنة خاصة إذا كان له عليه كلام ، كوالد أو شبهه ، اللهم إلا إذا كان يحتاجه في أمر ، إذا احتاج إليك الوالد أو الوالدة في أمر وقلت : لا ، أصلي السنة . أيهما أولى ؟ طاعة الوالدين لا شك ، والسنة تؤدى في وقتها أو حتى بعد وقتها .

هناك مسألة كبيرة وهي المصالح عندما تتزاحم على الإنسان فيقدم أعلاها ، والمفاسد يرتكب أخفها وأدناها .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية آل عمران .

الثانية : تفسير آية براءة .

الثالثة : تفسير آية العنكبوت .

الرابعة : أن اليقين يَضْعُف وَيَقْوَى .

الخامسة : علامة ضعفه ومن ذلك هذه الثلاث .

السادسة : أن إخلاص الخوف لله من الفرائض .

السابعة : ذكر ثواب من فعله .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه) .

(**ذكر ثواب من فعله**) في قوله : (« **رضي الله عنه وأرضى عنه الناس** ») .

وذكر عقابه في قوله : (« **سخط الله عليه وأسخط عليه الناس** ») .

بارك الله فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة : ٢٣]** .

وقوله : **﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢]** .

وقوله : **﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤]** .

وقوله : **﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٤]**) .

(**باب قول الله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾**) ، سبق أن ذُكر عند الحديث في باب المحبة في باب قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا ﴾ [البقرة : ١٦٥] أن المؤلف رحمه الله شرع في هذه الأبواب بالكلام عن العبادات القلبية ، عن أعمال القلوب ، فذكر المحبة ، ثم ذكر الخوف وبينهما علاقة عظيمة ، وهذا تصرف من المؤلف تصرف حسن رحمه الله ، ذكر المحبة ثم ذكر الخوف لأنهما ركنا عبادة .

وعبادة الرحمن غاية حبه ** مع ذل عابده هما قطبان

ثم يتحدث عن التوكل أيضًا ، والتوكل من العبادات القلبية العظيمة ، ولا يقوم به على وجه التحقيق إلا خواص الموحدين .

فما هو التوكل ؟

التوكل هو : الاعتماد على الله عز وجل بجلب نفعٍ ، أو دفع ضر ، مع فعل الأسباب والثقة به عز وجل :

- الاعتماد على الله لا على غيره في جلب نفعٍ ، أو دفع ضر ؛ لأن الإنسان في أموره وأحواله دائمًا يسعى إلى نفعٍ يريده أو ضرٍّ يدفعه ، فهو في هذا كله معتمد على ربه عز وجل في جلب النفع ودفع الضر .
- مع فعل الأسباب ، بدليل أن إمام المتوكلين صلوات ربي وسلامه عليه كان يفعل الأسباب :

١ . فقد أخذ هاديًا يدله في طريق مكة ، ابن أريقط وكان كافرًا .

٢ . وظَاهر بين درعين في غزوة أحد .

٣ . وحفر الخندق .

٤ . وكان يأخذ الزاد في سفره صلوات ربي وسلامه عليه.

فهو كان يفعل الأسباب عليه الصلاة والسلام .

لأن الناس في هذا الباب لا يخلون من ثلاثة أحوال :

- **الأمر الأول :** من يغلوا في الأسباب ، ويلتفت إلى الأسباب ، وهذا قدحٌ في كفاية الرب عز وجل ، والله تعالى يقول : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

- ومن الناس من يُعَطِّل الأسباب أن تكون أسبابًا ولا يفعل الأسباب ، وهذا قدحٌ في حكمة الله عز وجل .

فالأول : قدحٌ في دينه .

والثانية : قدحٌ في حكمة الله وقدحٌ في عقل أيضًا ؛ لأنه يلغي شيئًا اتفق الناس عليه .

- والوسط في ذلك أن يفعل الأسباب ويلتفت قلبه ويتوجه قلبه إلى ربه عز وجل . فهو يذهب إلى الطبيب ويعلم أن الطبيب سبب ، ويأخذ الدواء ويعلم أن الدواء سبب ، قد يحصل به المقصود وقد لا يحصل به ، وقد يحصل به عكس المقصود ، كم من إنسان دخل المستشفى يمشي على قدميه ، ثم توفي ، كان يطمع في شفاء ، أسباب ؛ لكن لا يلتفت الإنسان إليها ، وإنما يتوجه قلبه إلى من بيده كفايته سبحانه وبحمده.

- مع الثقة بالله عز وجل ، يكون واثقًا بربه سبحانه وبحمده ، وتفريغ القلب مما سوى الله عز وجل .

فالتوكل في هذا عبادة عظيمة جليلة من العبادات التي يجب على المسلم أن يحرص عليها ، ولهذه العبادة آثار على سلوك الإنسان ، فإن الإنسان كلما كان متوكلاً على الله كلما كان قوي الثقة به سبحانه وبحمده ، كلما كان مقدمًا في أعماله ، لا يكون عنده تردد أو ضعف ، يمضي متوكلاً على ربه سبحانه وتعالى مراعيًا فعل الأسباب . وقد مر بنا أن من صفات السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة أنهم على ربهم يتوكلون ، بعد أن ذكر صفات أخر تدخل في التوكل أيضًا لا

يسترقون ، لا يكتوون ، لا يتطيرون ، إنما تركوا هذه الأشياء لماذا ؟ توكلاً على الله عز وجل .

يقول العلماء : الاستعانة بالله نصف الدين ، أخذوه من قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] .

النصف الأول : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ .

والنصف الثاني : ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ويفرقون بين التوكل وبين الاستعانة بفروق لطيفة :

١. أن التوكل عملٌ قلبي ، يكون في القلب ، وأما الاستعانة فتكون في القلب وتكون في اللسان تقول : أعني يا فلان .

٢. أن التوكل ينبغي أن لا يكون إلا بالله عز وجل . فلا يقول الإنسان : توكلت على الله ثم عليك يا فلان . فضلاً على أن يقول : توكلت عليك فقط . وهذه وإن كان العامي قد لا يقصد بها المراد منها ؛ لكن ما ينبغي تعويد العامة عليها ، لأن التوكل:

☒ أولاً عبادة قلبية .

☒ **وثانيًا :** فيه تفويض الأمر ، كل الأمر . فلا ينبغي أن يكون للإنسان نصيبٌ منه ، بل يكون كله لله عز وجل .

إذًا يقال في الفرق الثاني : أن التوكل ينبغي أن لا يكون إلا بالله عز وجل ، وأما الاستعانة فتكون بالله وتكون بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق ، إذا كان حيًّا حاضرًا قادرًا .

وعليه فأيهما أعم من الآخر ؟ الجواب: الاستعانة أعم من التوكل .

قيل : والتوكل ثمرة الاستعانة ، فإن الإنسان كلما استعان بالله عز وجل وقويت استعانته بالله أثمر ذلك توكلاً عليه سبحانه وبحمده .

ومن لطيف كلام شيخ الإسلام رحمه الله قال : لا يمكن لمعطل ولا لقدري أن يتوكل على الله . لاحظوا العلاقة بين توحيد الألوهية والربوبية والأسماء والصفات :

- لماذا المعطل لا يتوكل على الله ؟ لأن التوكل لا يكون إلا على كامل الصفات ، لله المثل الأعلى حتى في أمور الدنيا ، الناس في العادة ما يعتمدون إلا على شخص قادر قوي ، يعني لديه صفات جيدة ، فكيف لهذا المعطل أن يتوكل على الله وهو ينفي صفاته سبحانه وبحمده ؟ ومن هنا تبينت قيمة الإيمان بتوحيد الأسماء والصفات .
- الثاني : القدري لا يتوكل على الله ، لماذا ؟ ينفي القدر ، وأن الله عز وجل لا علاقة له بفعله ، وإنما هو الذي يخلق أفعاله ، عندهم العبد هو الذي يخلق فعله ، والله سبحانه وتعالى لا يشاء الفعل ولا يخلقه ، وإذا كان هو الذي يخلق فعله فكيف له أن يتوكل على الله عز وجل ؟

حكم التوكل ، يقسمون التوكل إلى قسمين :

القسم الأول : أن يتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل . كأن يتوكل على صنم ، أو على مقبور وميت في أمر ما يقدر عليه إلا الله عز وجل ، فهذا يعتبر شركًا أكبر ، وهؤلاء لا قدرة لهم على شيء فكيف يتوكلون عليه ؟

القسم الثاني : أن يتوكل على مخلوق في سبب ظاهر ، سبب عادي ظاهر . كالتوكل على المخلوق في رزق على سبيل المثال ، التوكل على وظيفة ، يلتفت قلبه إلى هذا السبب ، فهذا من قبيل الشرك الخفي ، أو الشرك الأصغر .

قال تعالى : (﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾) في الآية تقديم ما حقه التأخير ، وهو قوله : (﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾) ، **والقاعدة في تقديم ما حقه التأخير :** أنه يفيد الحصر والاختصاص ، يعني وعلى الله فتوكلوا لا على غيره .

وفيها : الأمر بالتوكل (﴿ فَتَوَكَّلُوا ﴾) فدل على أن التوكل عبادة .

وفيها : تعليق الإيمان على التوكل ، فدل على انتفاء الإيمان بانتفاء التوكل ، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى .

(**وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ ﴾**) اللهم اجعلنا منهم ، ذكر لهم خمس صفات :

- **الصفة الأولى :** (﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾) ، (﴿ وَجِلَتْ ﴾) خشيت قلوبهم وخافت وخشعت وتذللت لله عز وجل ، وهذا من أعمال القلب .
- **الصفة الثانية :** (﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾) والتلاوة بمعنى القراءة هنا ، والتلاوة كما مر بنا كثيرًا تنقسم إلى قسمين :

١ . تلاوة لفظية كما في الآية .

٢ . وتلاوة حكمية ، وهي الاتباع .

فهؤلاء يزيد إيمانهم إذا تليت عليهم آيات الله عز وجل .

ودل على أن قراءة القرآن من أعظم أسباب زيادة الإيمان ، ومن أعظم أسباب الثبات على الإيمان ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

- **الصفة الثالثة :** (﴿ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾) لا على غيرهم ، والتوكل من أعمال القلوب .

- **الصفة الرابعة :** ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ ، فهم مقيمون لصلاتهم محافظون عليها ، وإقامة الصلاة من أعمال الجوارح .

- **الصفة الخامسة والأخيرة :** ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ مر بنا (من) في قوله (مِمَّا) للتبعيض ، ما أراد منهم إلا قليل ، ووعدهم عليه بالكثير . ﴿ رَزَقْنَاهُمْ ﴾ فيها أيضًا أن الله أضاف الرزق لنفسه ، فهو يطلب منهم أن ينفقوا من رزقهم الذي زرقهم إياه . وقوله : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ ، حذف المتعلق ، فحذف المنفق والمنفق عليه ليدل على العموم .

هل يعني أن من لم يتصف بهذه الصفات لا يكون مؤمنًا ؟ لا ؛ لأن هذه الصفات من صفات الكُمَّل من المؤمنين :

- فإن الإيمان يكون كاملاً ، وهذا ما يعبر عنه العلماء بقولهم : الإيمان المطلق .

- ومنهم من يقول : أن به إيمان ؛ لكن إيمانه فيه نقص ، وهذا ما يعبر عنه أهل العلم بقولهم : مطلق الإيمان .

فما الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان ؟

مطلق الإيمان : أن يكون إيمانه فيه نقص .

والإيمان المطلق : يكون الإيمان كاملاً .

أين بقية شعائر الدين وشرائعه الصيام والزكاة ؟ لم تذكر ، ولكن ما ذُكر يدل عليها ، (﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾) إيمانًا بكل ما يُقرأ عليهم من كتاب الله عز وجل .

وقوله عز وجل : (﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾) .

معنى (حسبك) كافيك .

(﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ ﴾) يعني الله تعالى كافيك ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ ، فلا تخف منهم ، فإن الله سبحانه وتعالى كافيك .

(﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾) أي حسب من اتبعك من المؤمنين ، فهو حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين .

وأما ما يذكره البعض من أن قوله : (﴿ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾) ، أي حسبك المؤمنون ، قال ابن القيم : هذا خطأ :

- **أولاً :** لأن الله تعالى حسبه ، والله تعالى كافيه كما مر في الآية السابقة ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ .
- **وثانيًا :** أتباعه المؤمنون نَسَبُوا الحَسْب إليه بخاصة ، في قوله عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ﴾ [التوبة : ٥٨ ، ٥٩] أي الله كافينا ﴿ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ

وَرَسُولُهُ ﴾ ، فنسبوا الإتيان إلى الله ورسوله ، ونسبوا الحسب إلى الله بخاصة .

فإذا كان أتباعه ينسبون الحَسْبَ إلى الله خاصة ، فهل يقال : إن أتباعه حسب له أيضًا ؟ الجواب: لا ، لا يمكن .

قوله تعالى : (﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾) ، بعد قوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] . :

- ذكر الله سبحانه وتعالى التوكل مع الإيمان كما في الآية الأولى .
- وذكر معه الإسلام ، كما في قول موسى عليه السلام : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٨٤] .
- وذكره مع العبادة ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود : ١٢٣] .
- وذكره مع التقوى كما في هذه الآية ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ، ثم قال : (﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾) .
- ذكره مع الإنابة ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .
- ذكره مع الهداية - كل الكلام هذا ذكره الشيخ سليمان رحمه الله - ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥ ، ٦] ، فذكر الاستعانة وذكر الهداية ، مما يدل على أن التوكل أصلٌ للأعمال كلها ، أصلٌ في الإيمان ، أصل في الإسلام ، أصل في التقوى ، في العبادة ، في كل شيء .

قالوا : (﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾) . معنى (﴿ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾) أي أن الله تعالى كافيه ، وإذا كان الله كافيه فماذا يريد بعد ذلك ؟ لزمه أن لا يتوكل إلا على ربه سبحانه وبحمده .

وفي الآية : أن فعل السبب من التوكل لقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ ، بل التوكل يقول أهل العلم هو من الأسباب نفسها ، فسبب والكفاية هو التوكل على الله عز وجل ، فدل على دخول الأسباب في حقيقة التوكل .

قال رحمه الله : (**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له : ﴿ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ . رواه البخاري والنسائي**) .

(**وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حسبنا الله ونعم الوكيل**) ، معنى حسبنا أي الله كافيه ، ونعم الوكيل ، نعم الوكيل سبحانه وبحمده ، نعم المتوَكَّلُ عليه في كل الأمور ، ونعم المتوَكِّلُ في كل الأمور سبحانه وبحمده .

يقول ابن عباس : (**قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار**) ، في أثر أن جبريل أتى إبراهيم عندما قُذف بالمنجانيق إلى النار فقال : ألك حاجة ؟ قال : « **أما إليك فلا ، وأما إلى الله فنعم** » . وقال : « **حسبنا الله ونعم الوكيل** » . فلما قال إبراهيم هذه الكلمة كفاه الله عز وجل ، فقال للنار : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] . نبه بعض أهل العلم على مسألتين في هذه الكلمة :

- **المسألة الأولى :** أن ما يقال أن جبريل جاء إلى إبراهيم وقال له : سل الله ، فقال : « علمه بحالي يكفي عن سؤالي » . ورَدَّ هذا الكلام الشيخ

محمد رحمه الله ، رَدَّ هذا الكلام ، هذا كلام باطل ، ولو كان صحيحًا ما احتاج إنسان أن يدعوا الله عز وجل ، لأن كل أحد يقول : علمه بحالي يكفي عن سؤالي ، وبالتالي يعطل الدعاء الذي هو أجل العبادات عياذًا بالله .

- **المسألة الثانية :** في قوله عز وجل : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾، قالوا : إن كل نار على وجه الأرض انطفأت ، وهذا كلام غير صحيح ؛ فإن قوله : ﴿ يَا نَارُ ﴾ ، نكرة مقصودة ، والنكرة المقصودة يقولون : كالعلم في تعيين مدلولها .

وقالها محمد ﷺ كما في غزوة حمراء الأسد عندما قالوا له : إن الناس قد جمعوا لكم . كما في الآية ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ ﴾ [آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤] هذه الثمرة ، لم يمسهم السوء ، ولم ينالهم أذى لَمَّا وثقوا بربهم وتوكلوا عليه ، واستشعروا كفايته لهم سبحانه وبحمده .

قال رحمه الله :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف : ٩٩] .**

وقوله : ﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦]) .

قال رحمه الله : (**باب قول الله تعالى : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾**) .

المكر معناه : التوصل إلى الإيقاع بالخصم بالطرق الخفية .

والمكر صفة تضاف إلى الرب عز وجل على وجه المقابلة ، لا تضاف إليه مطلقًا ، فلا يقال : من صفاته المكر ، وإنما يقال : من صفاته مكره بالماكرين . والدليل ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] .

ونظير المكر :

- الكيد ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ ، ١٦] .
- **أيضًا :** السخرية ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] .
- الاستهزاء كما في قوله : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٥] بعد قوله : ﴿ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ .
- **الخامس :** الخداع : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٢] .
- **ومنه :** الملل « **إن الله لا يمل حتى تملوا** » . والله أعلم .

(**﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾**) كيف يأمن الإنسان ؟

علامة أمنه من مكر ربه : إقامته على معصيته مع توفر نعمته .

يعني علامة أمن الإنسان من مكر الله أن يقيم على المعاصي مع توفر النعم ، كما يقال : النعم تزيد والشكر ينقص ، والمعاصي تكثر .

قال ﷺ في حديث عقبة : « **إذا رأيتم الله يعطي العبد ما يحب من الدنيا على معاصيه ما يحب فاعلم أنما ذلك منه استدراج** » . **ومعنى الاستدراج :** يدنيه من العذاب درجة درجة ، يملي له ويمهله ، ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ . فيستدرج العبد من حيث لا يشعر ، وفي الحديث تلا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا

مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] .

فمكر الله للعبد إذًا هو استدراجه بالنعم ، بحيث يظن أنه يُنْعَمُ عليه ، ولا يدري الغافل الجاهل المسكين أنه يُمْهَلُ ويُسْتَدرج ، ثم يسلب هذه النعم ، وأعظمها نعمة الإيمان ، الخطر من أن يسلب نعمة الإيمان ولا قوة إلا بالله .

قد ذكر الله تعالى هذه الآية بعد قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۞ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦ – ٩٩] ، ينظرون إلى النعم فيرونها نعمًا ، وهي في الحقيقة استدراج في طياته النقم ، عياذًا بالله .

ورد في بعض معاني الاستدراج:

- يدنيه من العذاب درجة درجة .
- وروي « **أبتليهم بالنعم وأسلبهم الشكر** » ، النعم تزيد والشكر – عياذًا بالله – ينقص .

فإن النعم الموجودة بين أيدي الناس لا تخلو من ثلاث حالات :

- **الحال الأولى :** أن تكون نعمة من الله ، وهذا إذا شُكر المنعم بها سبحانه.
- **الحال الثانية :** أن تكون استدراج ، كما مر .

- **الحال الثالثة :** أن تكون طيبات العبد في الآخرة عُجِّلَت له في الدنيا ، ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

والآية وإن كانت في الكافر إلا أن المسلم يخشى على نفسه ، ولهذا لما قُدّم لعبد الرحمن بن عوف طعامه وهو صائم ذكر إخوانه السابقين المهاجرين الأولين ، وذكر مصعب بن عمير ، والذي قتل يوم قتل في غزوة أحد ، فلما أرادوا أن يكفنوه وكان صاحب اللواء - رضي الله عنه وأرضاه - فلما أرادوا أن يكفنوه كان عليه بُرد إن غُطِّي به رأسه بدت رجلاه ، وإن غُطَّت رجلاه بدا رأسه . يعني ثوبه لم يكفه كفنًا فقال عليه السلام « **غطوا رأسه واجعلوا على رجليه من الإزخر** » . وكان في مكة من أشد فتيان أهل مكة ترفًا ونعمة قبل إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ، فلما تذكر عبد الرحمن إخوانه السابقين بكى رضي الله عنه وأرضاه ، حتى حُمل الطعام من بين يديه وهو صائم ، وقال رضي الله عنه : نخشى أن تكون طيباتنا عجلت لنا ، يخاف أن تكون هذه طيباتنا ، وهي طيبات عظيمة ، انظروا مع أن الرجل رضي الله عنه مبشر بالجنة ، ومع ذلك يخاف هذا الخوف ، والله المستعان .

(﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾) لا يأمن المكر إلا الخاسر عياذًا بالله .

وقوله عز وجل : (﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾) ، هذا قول إبراهيم عليه السلام لما قالت له الملائكة : ﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ ، ما أحسن صنيع

المؤلف ، ذكر آية في الأمن من مكر الله ، وآية في القنوط ، وكلاهما ثَلْمٌ في عقيدة الإنسان :

- **فالأول** – وهو الأمن – ثَلْمٌ في الخوف ، الآمن ما يخاف ، غلا في باب الرجاء – عياذًا بالله – حتى أمن من عقوبة الله تعالى ومكره .
- **والثاني :** الآيس ثَلْمٌ في باب الرجاء .

والإنسان قد يكون آمنًا من مكر الله مقيمًا على معاصيه ، وقد يكون آيسًا من روح الله ، وقد يجمع الأمرين جميعًا .

وهذا من المكر الشديد من الشيطان بالإنسان ، يقع في المعاصي ، ويسرف على نفسه بالذنوب ، ثم يأتيه الشيطان ليوقعه فيما هو أشد من الذنب الذي ارتكبه ويوسوس له ويقول له : ذنبك هذا كيف يغفر الله لك ؟ كيف يغفر الله لك وقد فعلت وفعلت وفعلت ؟ فيقع في اليأس من رحمة الله ، وبالتالي لا ما يتوب ، يستمر في المعاصي ، يقع في الأمن ولا قوة إلا بالله من عقوبة الله ومكره .

يقول العلماء : القنوط أشد اليأس ، هو من اليأس ؛ لكنه أشده ، كالاستغاثة هي من الدعاء ؛ لكنها لا تكون إلا من المكروب ، وأما الدعاء فيكون من المكروب وغيره ، كذلك القنوط أشد اليأس .

يقول بعض أهل العلم : وإن كان ظاهر القرآن أن اليأس أشده ، في قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] ، وقال في القنوط : (﴿ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾) ، لكن قد يقال أن الضلال هنا أعم ، يطلق أيضًا على الكفر .

قال رحمه الله : (**وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر ؟ فقال : « الشرك بالله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله »**) .

(**وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر ؟**)

، والكبائر جمع كبيرة ، والكبيرة:

- يقول شيخ الإسلام : ما ترتب عليه عقوبة في الدنيا وفي الآخرة .

ما لم يُرَتَّب عليه عقوبة فهو من قبيل الصغائر .

- بعضهم يقول : ما رُتِّب عليه حدٌّ في الدنيا ووعيد في الآخرة .
- وبعضهم يقول : ما ختم بلعنة ، أو غضب ، أو حدٍّ في الدنيا وعقوبة في الآخرة .

وهؤلاء كلهم يتفقون على أن الكبائر محدودة .

وبعضهم يقول : إنها معدودة ، ويعدها إلى سبع ، وإلى سبعين ، وإلى أكثر .

قال : (**الشرك بالله**) ، ولا شك أن الشرك بالله هو أكبر الكبائر ، فهو الذنب الذي لا يغفر ولا قوة إلا بالله ، حتى الشرك الأصغر أكبر من من حيث الجنس لا من حيث الأفراد ، يعني بعض أفراده قد يكون بعض الكبائر أشد منه ؛ لكن من حيث الجنس كونه شركًا بالله عز وجل يكون أشد منه .

وسبق تعريف الشرك وهو عبادة غير الله معه ، تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله ، صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، إلى آخره .

الثاني : (واليأس من روح الله) ، اليأس من رحمة الله عز وجل ،كما قال يعقوب لبنيه : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

والثالث : (**والأمن من مكر الله**) ، كما مر بنا .

ودل هذا الحديث على أن اليأس والأمن أنهما جميعًا من كبائر الذنوب ، وهما من الذنوب القلبية اليأس والأمن ، يكون في القلب ولا قوة إلا بالله ، ينشأ عنه سلوك في الظاهر على كل حال .

والحديث حسنه الشارح الشيخ سليمان رحمه الله ، وابن كثير يميل إلى أنه موقوف ، والشيخ ابن باز يقول : الموقوف في هذا له حكم الرفع .

والحديث الذي بعده والذي قال عنه ابن كثير : صحيح بلا شك يشهد له .

قال رحمه الله : (**وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : أكبر الكبائر الإشراك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله . رواه عبد الرازق**) .

يقول : (**أكبر الكبائر الإشراك بالله**) لا شك الإشراك بالله هو أكبر الكبائر . وأيضًا الأمن من مكر الله ، بحيث يقيم الإنسان على معصيته تعالى مع توفر نعمه عليه .

الثالث كما مر : القنوط من رحمة الله ، يقنط من رحمة الله عز وجل ، ويرى أن الله تعالى لن يرحمه .

والرابع : اليأس من روحه ، اليأس من روح الله .

والفرق بين القنوط واليأس أن القنوط هو أشد اليأس .

ويفرقون بين الرحمة والرَّوْح : أن الرحمة أعم في جلب كل النفع ودفع كل ضر ، والروح بمعنى الرحمة ؛ لكن غالبًا يقال هو في الخلاص من الشدائد التي يمر بها الإنسان ، كما في قول يعقوب عليه السلام : ﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ

إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، في معرض أمره أولاده أن يبحثوا عن أخيهم ، وأن لا ييأسوا من روح الله أن يفرج عنهم هذه الكربة .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : أن التوكل من الفرائض .

الثانية : أنه من شروط الإيمان .

الثالثة : تفسير آية الأنفال .

الرابعة : تفسير الآية في آخرها .

الخامسة : تفسير آية الطلاق .

السادسة : عِظَمُ شأن هذه الكلمة ، وأنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد)

.

مسائل باب (**الأمن من مكر الله**)

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية الأعراف .

الثانية : تفسير آية الحجر .

الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله .

الرابعة : شدة الوعيد في القنوط) .

وفقكم الله

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين .

قال المصنف رحمه الله تعالى :

(**باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله**

وقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : ١١]) .

(**باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله**) ، والصبر من أعمال القلوب ، وأقوال اللسان ، والجوارح ، يعني كف اللسان وكف الجوارح عما هو منافٍ للصبر .

والصبر في اللغة : الحبس ، ولهذا يقال : قتل فلان صبراً ، يعني حبس وقُيِّد ثم قدم للقتل ، ولم يكن قتله في ساحات الوغى .

وفي الاصطلاح : حبس النفس عن الجزع ، واللسان عن التشكي والتسخط ، والجوارح عن ضرب الخدود وشق الجيوب :

- حبس النفس عن الجزع ، ما يجزع من قدر الله.
- واللسان عن التشكي والتسخط ، لا يتسخط من قدر الله ولا يشتكي على الناس .
- والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ، كما سيأتي .

قال يعقوب عليه السلام لما جاءه بنوه وقد أخفوا أخاهم : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف : ١٨] ، والصبر الجميل هو الذي لا يكون فيه تسخط على الخالق ، ولا شكوى على المخلوق .

وكثيرًا ما يجمع الله تعالى بين الصبر والتوكل:

- كهذه الآية ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ ﴾ .
- وقوله : ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .
- وقوله : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] ، يعني مستعينًا بالله ، متوكلاً عليه .

ويجمع الله أيضًا بين الصبر وبين التقوى في آياتٍ عديدة :

- كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .
- وقال : ﴿ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ﴾ [آل عمران : ١٢٥] .
- وقال في آخرها : ﴿ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٦] .
- وقال يوسف لإخوته بعد أن عرفوه : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

والجمع بينهما يشير إلى العلاقة الوثيقة بينهما ، وأن من الأسباب المعينة على الصبر تقوى الله عز وجل .

مناسبة الباب لكتاب التوحيد واضحة ، فإنه من بديع حكمة الله ولطفه أن ابتلى الناس بالأوامر والنواهي وبالأقدار :

- بالأوامر هل يصبرون عليها ؟
- وبالنواهي هل يصبرون عنها ؟
- وبالأقدار هل يصبرون عليها .

وفيه : أن الصبر ثلاثة أنواع ، هي :

١. صبر على المأمور .

٢. وصبرٌ عن المحظور .

٣. وصبرٌ عن المقدور .

وإن شئت قل : صبر على الطاعة ، وعن المعصية ، وعلى الأقدار المؤلمة .

فإن التكاليف الشرعية ابتلاء من الله عز وجل ، في حديث عياض بن حمار المخرج في ((**الصحيح**)) عند مسلم ، قال تعالى : « **إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك** » . لكن لما كان حال الناس أنهم لا يكثرون التسخط إلا على المقدور عقد المؤلف له هذا الباب ، فهذا الباب إذًا يعنى بنوع من أنواع الصبر وهو الصبر على المقدور ، بين المؤلف رحمه الله تعالى أن الله تعالى يبتلي العباد بالأوامر والنواهي والأقدار تسلية لهم حتى يتضرعوا بالصبر ويفوزوا من الله سبحانه وتعالى بعظيم الأجر .

فوائد الصبر :

للصبر فوائد ذكر الله منها في سورة البقرة – مرت بنا في التفسير – عدة فوائد:

الفائدة الأولى في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[البقرة : ١٥٣] ، إذا كان الله معهم فلن يضيرهم شيء.

الفائدة الثانية قال بعدها : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، أمر من الله لنبيه أن يبشر الصابرين ، وهذه بشارة من الله عز وجل ، ولم يذكر المبشَّر به وحذف المتعلق يدل على العموم ، يدل على عموم البشارة ، ومما أعد الله تعالى لهم من عظيم الأجر أن جعل الصبر من أعظم أسباب الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] ، ﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الفرقان : ٧٥] ، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ٢٣ ، ٢٤] .

الفائدة الثالثة والرابعة والخامسة : ما ذكرها عز وجل بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ بعدها ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ثم ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦ ، ١٥٧] ، هذه ثلاث فوائد .

والصلاة من الله معناها : الثناء من الله على عبد في الملأ الأعلى . وأما الصلاة من غيره تعالى من الملائكة وغيرهم فمعناها الدعاء ، ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ منه سبحانه وبحمده ، ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ على الصراط المستقيم .

معنى ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ ، ﴿ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ نحن عبيده وهو سيدنا ومليكنا والسيد يفعل بعبيده ما يشاء ، و﴿ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ نرجع إليه فيجازي الصابرين أعظم الجزاء كما سمعتم في الآيات .

نحتاج إلى هذه الفوائد إذا أراد الإنسان أن يسلي أحدًا أو يطمنه يذكر له مثل هذه الفوائد ، مع الصابرين وبشر الصابرين ، ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ كم صارت الفوائد ؟ الجواب: خمس .

السادسة : أن الله تعالى يحبهم ، ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، وإذا أحبهم الله عز وجل فماذا يريدون بعد ذلك ؟

الفائدة السابعة : أن الله عز وجل يوفيهم بسبب صبرهم أعظم الأجر جزاءً وأجرًا لا يحد ولا يعد ولا يحسب ، والدليل ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] .

هذه سبع فوائد ، ومنها البشارة بالجنة كما ذكر ، يعني تدخل في قوله : ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ .

أحوال الناس ومقاماتهم عند المصائب :

بما أن المؤلف يتحدث عن الصبر على الأقدار ، فما أقسام الناس وأحوالهم عند الابتلاء بالمصائب :

يقسم العلماء الناس عند المصائب إلى أربعة أقسام :

المرتبة الأولى أو القسم الأول : من يجزع عياذًا بالله ، ويتسخط ، وهذا مع أنه مخالف للشرع فهو مخالف للعقل أيضًا ، لأنه لن يغير من الأمر شيئًا ، عياذاً بالله يضيف إلى مصيبة بدنه مصيبة في دينه ، فلن يؤخر ولن يقدم شيئًا ، بل يزيده الجزع ولا قوة إلا بالله أذًى وضيق .

المقام الثاني مقام الصبر : وهو واجب .

المقام الثالث : مقام الرضا ، يعني ليس صابرًا فقط وإنما راضي ، لا شك أنه في المرتبة الأعلى ويتدرج . واختلف في الرضا:

- فقيل : إنه واجب ، يقوله ابن عقيل أبو الوفاء رحمه الله .
- **والقول الثاني :** أنه مستحب ، اختيار ابن القيم وشيخ الإسلام ،وقالوا: إن الله عز وجل لم يأمر بالرضا مثل ما أمر بالصبر ، ولكنه أثنى على الراضين.

ما الفرق بين الرضا والصبر ؟

فرق بعض أهل العلم بينهما:

- بأن الراضي لا يتمنى زوال ما أصابه ، بخلاف الصابر .
- وقد يقال أيضًا من الفرق بينهما أن الصابر عنده شيء من القلق والانزعاج ما عنده تسخط ، لكن معه شيء من الضيق بخلاف الراضي ، ولهذا تجد بعض من يبتلى بالأمراض نسأل الله أن يحفظنا وإياكم بحفظه بعضهم تأتي إليه ما شاء الله ، وكأنه من أحسن الناس صحة ، يحمد ربه ويتشكر ، والبعض تجده في ضيق لكنه صابر على كل حال . فالرضا لا شك عظيم .

[**المقام الرابع**] فوق الرضا الشكر ، شكر الله على المصيبة ، كل ما تذكر آثارها والنعم الحاصلة بسببها كل ما ازداد شكره ، فإن في المصائب نعم كما يقول شيخ الإسلام ، من هذه النعم :

١. أنها سبب لتكفير الذنوب ، هذه النعمة الأولى كما قال ﷺ : « **ما يصيب المسلم من وصب ولا نصب ولا همٍّ ولا حزنٍ ، ولا أذى ، ولا غمٍّ حتى**

الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها خطاياه » ، متفق عليه ، والوصب الوجع والمرض الدائم . والفرق الهم والحزن والغم :

- الهم من المستقبل ،
- والحزن ماضي ،
- والغم الشيء الحاضر .

قال ﷺ في الحديث المخرج في ((**البخاري**)) : « **من يرد الله به خيرًا يصب منه** » . وقال : « **لا يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في ماله ونفسه وولده حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة** » . في رواية « **حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة** » . هذه نعمة أن تكون هذه الأمور العارضة التي تعرض للناس سببًا لتطهير العبد ، وتمحيصه من الذنوب والسيئات .

٢. **الثاني** : لما تدعوا إليه من الصبر ، والصبر مر بكم آثاره وفؤاده العظيمة .

٣. **والثالث** : ما ينشأ عنها من الإنابة إلى الله عز وجل ، والتوبة ، والاستغفار ، تجد بعض الناس في حال العافية عنده تساهل وتهاون ربما كسل في العبادات ، فإذا ألم به أمر أقبل على ربه ، ودعا دعاءً لم يكن يدعوا به في حال الصحة ، يتضرع ويلح في الدعاء ويجتهد في الدعاء ، ويقبل على ربه سبحانه وبحمده بأنواع الطاعات ، ويتقرب إليه بأنواع القربات ؛ لأنه تجلى له ضعفه بعين اليقين ، قبلها لا العافية تلهي وربما تطغي ، الله يجعلنا وإياكم في عافية .

قال عمر وهذه كلمة احفظها عن أمير المؤمنين يحتاج الإنسان إليها كما قلت لكم ، قال : (ما أصبت من مصيبة إلا وكان لله عليَّ بها أربع نعم : إذ

لم تكن في ديني ، وإذ لم تكن أشد منها ، وإذ وفقت للصبر عليها ، وإذ أرجو ثوابها) . ما أصبت من مصيبة إلا وكان لله علي فيها أربع نعم .

- **الأولى :** إذ لم تكن في ديني ، سلم الدين ، الدين رأس المال ، البدن سيبلى ويفنى والله المستعان .
- وإذ لم تكن أشد منها ، الإنسان ينظر إلى من هو أدنى منه ، لا ينظر إلى من هو أعلى منه ، يعني بعض الناس إذا ذهب المستشفى قال : أنا طيب . إذا رأى الناس وما يعرض لهم من الآفات والأمراض .
- **الثالثة :** وإذ وفقت للصبر عليها ،
- وإذ أرجو ثوابها .

قد يقول قائل : ما الحكمة من كونه سبحانه وتعالى يبتلي عباده بالمصائب ؟ وفي الحديث « **أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل** » ، يبتلى الإنسان على قدر دينه ، فإذا كان صلبًا في دينه اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقة هُوِّن عليه البلاء ، وما يزال البلاء – كما مر – بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة ، فما الحكمة من كونه تعالى يبتلي أحبابه ؟ من الحكم أن الإنسان لا يخلو من الذنوب ، والذنوب هي أعظم أسباب المصائب ، الدليل ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى : ٣٠] ، فيقضي الله سبحانه وتعالى على عباده بعضًا من المصائب لتكون سبب لتكفير ما ألموا به من الذنوب . قال أهل العلم : فإن الله تعالى لم يرضَ بالدنيا أن تكون دارًا لمجازاة أحبابه ، ولا أن تكون دارًا لمعاقبة أعدائه ، بل يدخر العقوبة لهم في الآخرة كما

سيأتينا ، وأما أحبابه فيعجل لهم العقوبة في الدنيا ، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة .

(وقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾) قال علقمة : هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم .

(﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ ﴾) ويصبر لما عرض له وأصابه (﴿ يَهْدِ ﴾) الله تعالى (﴿ قَلْبَهُ ﴾) أي يهديه إلى اليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، كما قال عليه السلام لابن عباس : « **واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك** » . فدل على أن الصبر من أعظم أسباب هداية القلوب ، ودلت الآية على دخول الأعمال في مسمى الإيمان ، ودلت الآية أيضًا على أن من ثواب الحسنة الحسنة مثلها ، كما تقول الحسنة : أختي أختي . ما معنى أختي أختي ، السيئة تقول : أختي أختي . والحسنة تقول : أختي أختي . معناها أن الإنسان إذا عمل حسنة فمن فضل الله عز وجل أن يقدر له حسنة ثانية وهكذا ، تستمر الحسنات كل حسنة تنتج حسنة ، وأما إذا عمل سيئة فمن عدل الله أن يقدر عليه سيئة بعدها ، وهذا معنى قولهم : الحسنة تقول : أختي أختي .

وفيه : الإيمان بقدر الله عز وجل .

(وفي ((صحيح مسلم)) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اثنان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت ») .

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **ثنتان في الناس** » ، وكما مر بنا أن ذكر الأعداد ثنتان وثلاث وأربع وخمس وست وسبع ترد كثير في

النصوص ، فهل يراد بها الحصر ؟ الجواب: لا ، وإنما يراد بها حصر العلم لأجل تقريبه.

« **هما بهم كفر** » ، تنكير الكفر هنا يدل على أنه كفر أصغر وليس الكفر الأكبر ، كما قال ﷺ : « **قتال المسلم فسوق ، وسبابه كفر** » ، وقال : « **لا ترجعوا من بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض** » . وأما إذا عُرِّف فإنه يراد به الكفر الأكبر ، بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة قال : « **الكفر** » ، يستدل من يستدل بهذا الحديث على أن ترك الصلاة تهاونًا يعتبر يعتبر كفرًا بالله عز وجل .

الخصلة الثانية : النياحة على الميت ، والنياحة هي رفع الصوت على الميت بالندب عليه وذكر شمائله وفضائله ، بصوت يشبه نوح الحمام . والنياحة تقريبًا خاصة بالنساء ، لم تكن النياحة معروفة عند العرب في الرجال ، ومر بنا إشارة إلى هذا في حديث سابق في قوله ﷺ : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية** » ، وذكر منها النائحة .

ومناسبة الحديث للباب أن النياحة منافية للصبر ، إذًا النياحة رفع الصوت بالبكاء على الميت وعد شمائله ، كقول النائحة : وا كاسياه ، وا عضداه ، وا مطعماه ، وما أشبه ذلك . أما الندب اليسير الذي لا يكون معه نوح ولا رفع صوت فلا بأس به ، قد دخل أبو بكر كما تقول عائشة على النبي ﷺ بعد وفاته وضع فمه بين عينيه ويديه على صدغيه وقال : وا نبياه وا خليلاه وا صفياه ، اللهم صل عليه وسلم . وقالت فاطمة رضي الله عنها : واكرباه أباه ، قال النبي ﷺ : « **ليس على أبيك كرب بعد اليوم** » ، وقالت : يا أبتاه أجاب ربًّا دعاه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، يعني مثل هذا الندب اليسير لا بأس به .

وأما البكاء بذرف الدمع دون أن يكون معه صياح أو صوت فهذا حسن مستحب يقول شيخ الإسلام ، والدليل أن النبي ﷺ لما مات إبراهيم قال : « **إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع وإنا على فراقك يا إبراهيم محزنون** » ، وقال أنس : شهدت بنتًا للنبي ﷺ تدفن فرأيت عينيه تذرفان ، ولما رفع إليه الصبي لما دعته إحدى بناته ، رفع إليه صبي وروحه تقعقع ذرفت عينه ثم أتبعها أخرى ، فقال عبد الرحمن بن عوف : ما هذا يا رسول الله ؟ قال : « **هذه رحمة جعلها الله في قلوب من يشاء من عباده ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** » ، أو كما قال ﷺ .

(**ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »**) .

(**ولهما**) أي البخاري ومسلم (**عن ابن مسعود مرفوعًا**) إلى النبي ﷺ (**« ليس منا »**) ، وهذه الصيغة تعتبر من أحاديث الوعيد .

« **ليس منا**» «**ثلاثة لا يدخلون الجنة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم** » ، إلى آخره وللسلف فيها مسالك :

- مسلك مشهور وهو رأي سفيان الثوري وأحمد بن حنبل رحمه الله : تركها وإجراؤها على ظاهرها وعدم تفسيرها للناس لتكون أوقع وأبلغ في الزجر ، لأنها لو فسرت لعامة الناس قالوا : أمرها سهل .
- وبعض أهل العلم يرى أنه لا بد من تفسيرها حتى لا يبقى شيء في الشريعة مجهولاً ، ويكون قوله : (**« ليس منا »**) ، يعني ليس من أهل سنتنا

ولا طريقتنا ، يعني ليس بالمؤمن كامل الإيمان والذي يعمل بمقتضيات الإيمان وواجبات الإيمان ، وإن كان لا يخرج عن الشرع .

أما الخوارج فيستدلون بهذه الأحاديث على كفر من اتصف بهذه الصفات ، (« **ليس منا** ») أي ليس مسلمًا .

- وهناك من العلماء – وهذا مسلك ثالث لعلماء السنة – من يفرق بين الناس فيقول : تجرى على ظاهرها دون تفسير عند عامة الناس ، وأما بين طلاب العلم فلا بد من إيضاحها وتفسيرها ، وهذا قول حسن يعني يجمع بين القولين .

(« **ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية** »)

وكانوا يضربون خدودهم ، ويشقون جيوبهم ، ويمزقون شعورهم ، لاسيما الناس ، ويدعون بدعوى الجاهلية .

وفي الحديث المخرج في ((**الصحيحين**)) « أنا **بريء من الحالقة والصالقة والشاقة** » . الحالقة هي من تحلق رأسها عند المصيبة ، والصالقة ترفع صوت عند المصيبة ، والشاقة تشق ثوبها عند المصيبة .

وقوله : (« **ودعا بدعوى الجاهلية** ») دعوى الجاهلية الندب ، والنياحة ، والدعوى بالويل والثبور ، أو الدعاء للعصبيات والقبليات وما أشبه ذلك ، أقوال يذكرها أهل العلم ، ولا بأس أن يحمل الحديث عليها جميعًا ، وبهذا يربي الإسلام الناس على الصبر عند المصائب ، وتحمل ما يعرض على الناس في هذه الدنيا من محن وكبد ، فإن الله سبحانه وتعالى أجرى لحكمته أن يبتلي الناس كما مر بنا ، الأوامر والنواهي والمصائب ، حتى قال عز وجل : ﴿ لَقَدْ

خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ [البلد : ٤] ، وما أحسن ما قال الحسن البصري رحمه الله في معنى الكبد هنا ، قال : مضائق الدنيا وشدائد الآخرة . الكبد ما هو ؟ مضائق الدنيا وهذه عابرة ، وأما الأشد شدائد الآخرة ؛ لكن من أراد من ربه أن يعرفه في هذه المضائق والشدائد فليتعرف إلى ربه في حال رخائه وعافيته .

وفي وصية النبي ﷺ لابن عباس « **يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، تعرف إلى الله بالرخاء يعرفك في الشدة** » ، وذلك أن الإنسان كما مر في حالة الرخاء يسهو ويلهو ، وقد لا ينشط في تعرفه إلى ربه سبحانه وتعالى ؛ لكن في حال الشدة حتى الكافر يعرف ربه ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] ، والمقصود أنه ينبغي للإنسان أن تكون صلته بربه وثيقة ، وتعرُّفه لربه دائمًا وأبدًا ، حتى إذا جاءت مضائق الدنيا وشدائد الآخرة عرفه ربه ففرج عنه الكربات ، ونفس عنه الهموم والغموم ، ويسر له كل عسير .

(**وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة »**) .

عن أنس رضي الله عنه قال ﷺ : (« **إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا** ») ، كما في الحديث المخرج في ((**البخاري**)) « **من يرد الله به خيرًا يصب منه** » ، فإن المصائب علامة أن الله أراد بهذا العبد خيرًا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] ، الآية فيها لفتة جميلة ، وهي قوله ﴿ لَنَا ﴾ ولم يقل علينا ، هذه المصيبة لك يا عبد الله ، لك إن أنت

صبرت أجرها وثوابها وفوائدها عليك أيضًا في أوبتك وتوبتك ورجوعك إلى ربك سبحانه وبحمده .

(« **عجل له العقوبة** ») العقوبة هي المجازاة بالذنب ، وسميت عقوبة لأنها تعقب الذنب ، يعني تأتي عقبه .

والعقوبات قد تكون بالبدن ، وقد تكون بالمال ، يعني قد تكون بالنفس نفس الإنسان ، وقد تكون بماله ، وقد تكون بأهله ، وقد تكون بدينه ، وهذه أشدها ولا قوة إلا بالله أن يعاقب الإنسان بدينه ، قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٠٠] .

﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الباء هنا سببية ، أصبناهم بسبب الذنوب ، ثم يطبع على قلوبهم ولا قوة إلا بالله .

وقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ ، ٧٦] قال بعدها ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٧] والباء سببية ، أي بسبب إخلافهم وعدهم لربهم ، وبسبب ما كسبوا من الذنوب عاقبهم الله وأعقبهم ماذا نفاقًا في قلوبهم . قال أهل العلم : وخِفَّتُ المعاصي على الإنسان عقوبة له . كونه لا يبالي بالمعاصي هذه عقوبة ولا قوة إلا بالله ، ارتكب معصية فعوقب ، فارتكب ثانية فعوقب ، فارتكب ثالثة فخَفَّتُ عليه فعوقب بخفة المعاصي ولا قوة إلا بالله وصار لا يعبأ بها ولا يبالي بها .

(« **وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة** ») أمسك عنه بذنبه بحيث لا يعاقبه بالدنيا ، (« **حتى يوافى به يوم القيامة** ») يأتي بذنوبه وخطاياه والمعاصي ، ولهذا يمهل الله سبحانه وتعالى لهم ﴿ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٥] حتى يأتوا يوم القيامة بذنوبهم وسيئاتهم وآثامهم ، وحتى تكون العقوبة عليهم أشد وأنكى ، خلاف المؤمن الذي قد يعاقبه في دنياه لأجل تكفير ذنوبه وخطاياه .

وفي قوله ﷺ : (« **وإذا أراد بعبده الشر** ») ، الشر ليس مرادًا لذاته ، فليس الشر في إرادته عز وجل وإنما في المراد ، وليس في القضاء وإنما في المقضي ، وليس في القدر وإنما في المقدور ، ولهذا قالت الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] ، أن الشر قد يكون في المرادات ، يعني في المراد وفي المقضي . وأما قضاؤه سبحانه وبحمده فكله خير بلا شك ، ولهذا قال ﷺ : « **والشر ليس إليك** » .

(**وقال ﷺ : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضى ، ومن سخط فله السخط » . حسنه الترمذي**) .

قال ﷺ : (« **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء** ») ، لم يذكر المؤلف هنا الراوي ؛ لأن راوي هذا الحديث وسنده هو راوي الحديث المتقدم وسنده أيضًا ، راويه أنس رضي الله عنه ، قال : (« **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء** ») ، يعني كل ما كان البلاء عظيمًا كان الجزاء عظيمًا ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] . وقال : ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١١] ، والآيات في هذا معروفة .

(« **وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم** ») فالابتلاء علامة أن الله أراد بعبده الخير ، وأراد له الخير ، وأراد أن يوافي يوم القيامة ويلقى ربه وليس عليه خطيئة ، بخلاف الكافر الذي أمسك عليه بذنبه حتى يوافي يوم القيامة بذنوبه كاملة ، فيعاقب عليها جميعها .

(« **فمن رضي فله الرضى** ») والجزاء من جنس العمل ، رضي بقدر الله ، رضي الله سبحانه وتعالى عنه ، حصل له الفوز العظيم والفضل الكبير ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

(« **ومن سخط فله السخط** ») إذا تسخط من قدر الله وجزع من قضاء الله فله السخط ، له السخط من الله عز وجل ولم يزده تسخطه هذا إلا أذى وضيقًا وكبدًا ونكدًا .

(**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية التغابن .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

الثالثة : الطعن في النسب .

الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية .

الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .

السادسة : إرادة الله به الشر .

السابعة : علامة حب الله للعبد .

الثامنة : تحريم السخط .

التاسعة : ثواب الرضى بالبلاء) .

من علامة إرادة الله بعبده الخير غير هذا الموضوع ما هو ؟ التفقه في الدين ، كما في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) « **من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين** » ، فهذا الطريق الذي أنتم فيه طريق خير فالزموه ، ولا تحيدوا عنه ولا تشغلكم عنه الدنيا وأعباؤها ومشاغلها ، « **من يرد الله به خيرًا** » المقصود أن الإنسان يتمسك بهذا الطريق ، فهو علامة أن الله أراد به خيرا ، وسينتهي به هذا الطريق إلى خير ، إلى الجنة ، « **من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة** » ، فهذا طريق الجنة .

وإذا وجد منكم فتور وضعف في الهمة فقولوا للنفس هذا طريق الجنة ، لا مكان للفتور ، والمقصود بالفتور الفتور الدائم ، وأما الفتور العارض فهو من طبيعة النفس البشرية .

الطالب: ما صحة الحديث (حتى الحيتان تستغفر لطالب العلم) ؟

الشيخ: هذا حديث أبي الدرداء ، هذا كالشمس ، وذكر فيه خصال عديدة في فضل العلم ، وذكرها لرجل جاء إليه وهو في الشام قال : جئتَ لتجارة لعمل ؟ قال : لا ، لطلب العلم ، فأورد عليه هذا الحديث ، وهذا الحديث شرحه ابن رجب شرحًا ضافيًا كافيًا جميلاً ، ارجعوا إليه فإن قراءة كلام العلماء عن العلم وهم أهل الخبرة في هذا لا شك ينشط قلوبنا ويعيننا في الاستمرار على هذا الطريق .

وفقكم الله وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في الرياء**

يقول المؤلف : (**باب ما جاء في الرياء**) .

مناسبة هذا الباب للتوحيد واضحة ، هو من الشرك الأصغر كما مر بنا قول النبي ﷺ « **أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر** » ، فسئل عنه فقال : « **الرياء** » ، يقول الله تعالى للذين يراءون يوم القيامة : « **اذهبوا إلى ما كنتم تراءون فانظروا هل تجدون عندهم جزاء** » . أو كما قال ﷺ .

ووجه كونه شركا لأنه منافٍ للإخلاص ، إخلاص النية لله عز وجل ، والعمل الصالح له ركنان عظيمان ، هما :

١ . الإخلاص لله عز وجل.

٢ . والمتابعة لما ورد في الكتاب والسنة.

وقد دل على المسألتين حديثان جليلان ، هما :

١ . حديث عمر « **إنما الأعمال بالنيات** » هذا للإخلاص ، بل حديث عمر يدل عليهما « **فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله** » . إلى الله إخلاصًا ، وإلى الرسول اتباع .

٢ . والمتابعة حديث « **من عمل عملاً ليس علي أمرنا** » .

فلما كان خلوص العمل وإخلاصه شرطٌ في صحته كان ما يشوبه من الرياء والسمعة مضادًّا له وبالتالي مضادًّا لكمال التوحيد ، ولا نقول للتوحيد ، لأن الرياء شرك أصغر ، لا ينافي التوحيد كله ، وإنما ينافي كماله .

الإخلاص عظيم ، وتتبع آيات القرآن تجد أن الله سبحانه وتعالى يأمر به ويرغب فيه ويحث عليه ﴿ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] ، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

والإخلاص هو أصل دين الإسلام ، وهو عظيم ، وهو عزيز ، فإن بعض السلف يقول : (وددت أني أعلم أن الله تقبل مني سجدة) ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وبعضهم يقول : (وددت أني أعمل عملاً لا يعلم به الكتبة) ، حتى الكتبة لا يعلمونه . ولهذا كان من دواعي الإخلاص إخفاء العمل ، كان إخفاء الأعمال أفضل :

- فالصدقة إذا كانت خفية أفضل من المعلنة ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .
- والصلاة ويعُنَى بها النوافل ومنها الرواتب أفضل في البيت قال ﷺ : « **أفضل صلاة الرجل في بيته إلا المكتوبة** » لأجل الإخلاص ، لأنها أدل على الإخلاص .
- وقراءة القرآن أيضًا دون أن يجهر الإنسان به أمام الناس أفضل قال ﷺ : « **الذي يجهر بالقرآن كالذي يجهر بالصدقة ، والذي يسر بالقرآن كالذي يسر بالصدقة** » .

وقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠]) .

قال تعالى : (﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾) ، (قُلْ) أي قل يا محمد ، وقيل مرار وتكرار : القرآن كله أُمر النبي ﷺ أن يقوله

للناس ، فما معنى أن تخص بعض الآيات ؟ الجواب: زيادة اهتمام بلا شك ، ولهذا كل ما مر بك (قل) قف عندها وتأمل فالأمر مهم ، وإلا فالقرآن كله بهذه المثابة .

(﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾) النبي ﷺ يقول : أنا بشر مثلكم ، يأكل ويشرب ، ويتزوج ، ويتعرض لما يتعرض له البشر من الأمراض ؛ لكن الفارق بينه وبينهم ما يوحى إليه ، النبوة ، هذا المقام العالي الشريف ، لا شك اخُتص به صلوات ربي وسلامه عليه ، لهذا كان أفضل البشر .

والذي يوحى إليه أشياء كثيرة ؛ لكن هنا ذكر التوحيد (﴿ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾) ، وإلا فيوحى إليه الأمر بالصلاة والصيام والزكاة وإلى آخره ؛ لكن تخصيص الوحي هنا بألوهيته يدل على عظم المقام .

(﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾) ، (يرجو) لها معنيان :

١ . لها معنى يعني يطمع ويؤمل في لقاء ربه .

٢ . ولها معنى ثاني يحمله العلماء أحيانًا عليه وهو : الخوف ، يخاف لقاء ربه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴾ [النبأ : ٢٧] .

(﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو ﴾) يطمع ويخشى أيضًا ويخاف لقاء ربه .

وفيه : إثبات القيامة .

وفيه - كما يقول شيخ الإسلام - : إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة (﴿ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾) .

(﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾) في هذا الآية إشارة إلى ركني العمل الصالح :

- الأول في قوله : (﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾) ، إشارة إلى أن العمل لا بد أن يكون صوابًا ، وإنما يكون صواب إذا كان على وفق الكتاب والسنة .

- وفي قوله : (﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾) ، إشارة إلى الركن الثاني وهو الإخلاص ، (﴿ وَلَا يُشْرِكْ ﴾) فإن الشرك منافٍ للإخلاص .

وقوله : (﴿ وَلَا يُشْرِكْ ﴾) هذا النهي يدل على عموم الشرك ، ومن هنا حملت الآية على الشرك الأكبر والشرك الأصغر .

وقال : (﴿ أَحَدًا ﴾) نكرة في سياق النهي فتدل على العموم ، فلا يشرك بالله أحدًا كائنًا ما كان ، ملكًا مقربًا ، أو نبيًّا مرسلاً ، أو وليًّا أو صالحًا أو غيره .

(**وعن أبي هريرة مرفوعًا قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه » ، رواه مسلم**) .

قال : (**وعن أبي هريرة مرفوعًا**) أي مرفوعًا إلى النبي ﷺ ، المرفوع تعريفه: ما أضيف إلى النبي ﷺ من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ أو وصف .

(**قال الله تعالى**) وهذا اللون من الأحاديث يسمى بالحديث القدسي .

(« **أنا أغنى الشركاء عن الشرك** ») ، وقوله : (« **أغنى** ») ، أفعل تفضيل ، يقول أهل العلم كثيرًا : أفعل التفضيل هنا ليست على بابها ؛ لأن الشركاء ليس فيهم غنى ؛ لأن أفعل التفضيل تعريفها هي ما يصاغ من الفعل الثلاثي على وزن أفعل للدلالة على أن شيئين اشتركا في وصف ؛ لكن أحدهما أفضل من الآخر . وهنا الشريك لا غنى فيه ، وهذا يرد ومر بنا في التفسير كثيرًا ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، لا خير في النار ولا في أهلها ، فيراد به تفضيلهم والمبالغة في وصف ما هم عليه من الخير .

(«من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه ») ، تركت العامل ، وأيضًا تركته وشركه .

ودل على أن الشرك يحبط العمل ، والدليل من القرآن على أن الشرك يحبط العمل :

١. ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] وحاشاه ﷺ أن يشرك .

٢. ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] .

٣. ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

ومنه الرياء هنا ؛ لأن المرائي أشرك مع الله عز وجل ، فلم يكن عمله خالصًا لوجه الله عز وجل ، وإنما أشرك مع الله غيره وصار قلبه بعمله هذا يلتفت إلى أمرٍ من الأمور .

حكم العمل إذا خالطه الرياء :

العمل إذا خالطه الرياء لا يخلو من أحوال :

فإما أن يكون الرياء محضًا ، أي يعني خالصًا عياذًا بالله ، ليس في قلبه ذرة إخلاص ، وهذا لا يكاد يحصل من المسلم ، وإنما يحصل من المنافقين ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [النساء : ١٤٢] ، ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ [التوبة : ٥٤] . **المقصود** : أنهم يراؤون الناس يقوم يصلي وهو كسول ، وهدفه في الصلاة هو أن يراه الناس ، ولهذا يتخلفون عن صلاة العشاء وصلاة الفجر ، « **أثقل الصلاة على**

المنافقين صلاة العشاء والفجر » ، يتخلفون عنهما حيث لا يراهم أحد ، وهم إنما يصلون رياءً . هذا لا يكاد يحصل من المسلم في الصلاة ، في الصيام ؛ لكن قد يحصل منه في الصدقة ، قد يتصدق صدقة يقصد بها الرياء المحض ، وهذا قد يحصل في بعض الأعمال الظاهرة .

الثاني : إذا كان الرياء عارضًا ، وأصل العمل لله عز وجل ؛ لكن عرض الرياء ، فإن عرض الرياء ودافعه وزال عنه فهل يضره ؟ لا يضره ، قال ﷺ : « **إن الله عفى عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمله** » . هذا يكون من حديث النفس يعرض ويزول ويهجم على النفس ولا يكاد يسلم منه أحد ، ولهذا ماذا قال النبي ﷺ في الرياء بالنسبة للصحابة قال : « **أخوف ما أخاف عليكم الرياء الشرك الأصغر** » . فخافه خوفًا شديدًا وخافه على من ؟ على خير الأمة الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

الأمر الثالث : أن يعرض وأصل عمله لله ؛ لكن يسترسل معه ، عرض له واستمر معه ، مع أن أصل العمل لله عز وجل ، فاختلف العلماء رحمهم الله تعالى هل يبطل العمل أو لا يبطله ، وقبل اختلافهم هذا ينقسم إلى قسمين ، وهو ما إذا كان أصل العمل لله وعرض له الرياء واسترسل معه ، فقسموا العمل إلى قسمين:

- قسم ينبني آخره على أوله ، مثل الصلاة ، ركعة ، ركعتين ما فيها شيء ، ثلاثة ما فيها شيء ، ثم عرض له الرياء في الرابعة ، فهل تبطل الصلاة كلها ، أو يحصل فيها من النقص بقدر ما حصل فيها من الرياء ؟ خلاف بين أهل العلم رحمهم الله تعالى:

- فبعضهم يقول : بالبطلان (« تركته وشركه ») انتهى .
- وبعضهم يقول : لا . كالإمام أحمد وابن جرير .

هذا في العمل الذي ينبني آخره على أوله .

- لكن إذا كان العمل لا ينبني آخره على أوله ، وكان في أوله مخلصًا وفي آخره مرائيًا مثل الصدقة ، تصدق مرة مرتين ثلاث مخلص لله عز وجل ولم يره أحد ، ثم في الرابعة والخامسة رأى واحد فجاءه الشيطان قذف في روعه الرياء ، فهل تبطل الصدقات كلها ؟ الجواب: الصدقات الأُوَل لا تبطل ، لأنه لم يكن فيها رياء ، ثم هي منفصلة أولها عن آخرها .

إذًا عندما نسأل ما حكم الرياء ؟ نقول : شرك أصغر .

لكن حكم العمل الذي قارنه الرياء:

١. إذا كان الرياء محضًا فالعمل باطل .

٢. وإن كان العمل لله ؛ لكن عرض له الرياء:

- فإن دافعه لم يضره .
- وإن استرسل معه فإن كان آخره ينبني على أوله فمحل خلاف قيل : يبطل . وقيل : لا يبطل .

٣. وإن كان لا ينبني فلا يبطل منه ما كان فيه مخلصًا وما لم يدخله الرياء .

وفي الحديث المخرج في ((مسلم)) « **من سمَّع سمع الله به ومن يرائي يرائي الله به** » ، يعني من سمَّع الناس وراءى الناس كشف الله ستره ، وأظهر خبره وفضحه ، وأظهر ما في سريرته ، يعلم الشخص الذي يقصد الناس ولا قوة إلا بالله . لهذا ينبغي للإنسان دائمًا أن يحرص على الإخلاص كإخفاء العمل كما

ذُكر والدعاء ، وكان من دعاء عمر دعوة لعلكم تحفظونها واحفظوها (اللهم اجعل عملي كله صالحًا واجعله لوجهك خالصًا) ، كان الشيخ ابن باز يكثر من دعوة (رب زدني علمًا ، وارزقني البصيرة في الدين ، والإخلاص في القول والعمل) .

إذا وفق الإنسان للإخلاص أعانه الله ووفقه ونمى عمله وزكى ، أما إذا شاب عمله ما شاب من الرياء وما أشبه فإنه ولا قوة إلا بالله يعمل ولا يربح .

والمرائي لا عقل له ، لأنه لا يأخذ على عمله ثمنًا ، بل يأخذ كلمة وكلمتين يقولها بعض الناس ، ثم إذا فُضح وظهر أمره انقلب مدح الناس له ذمًا .

ولكن ما حكم ما يحصل من ثناء الناس على الشخص إذا عمل عملاً ولم يقصد ذلك ؟ الجواب: لا شيء فيه ، في حديث أبي ذر المخرج في ((**الصحيح**)) أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يعمل العمل يحمده الناس عليه فقال : « **تلك عاجل بشرى المؤمن** » ، يعمل العمل يحمده الناس عليه ويرتاح لمثل هذا ، هذا لا بأس به .

أقسام الناس من حيث الإخلاص وعدمه :

قسم العلماء الناس إلى ثلاثة أقسام :

- منهم من ظاهره خير من باطنه ، وهذا عياذًا بالله لا خير فيه ، كالمنافق مثلاً ، المنافق ظاهره الإسلام وباطنه الكفر .
- من باطنه خير من ظاهره ، وهذا أفضل الأقسام ، وهذا يسمى الصدق في الإخلاص ، ظاهره طيب ؛ لكن الباطن أطيب ، وهذا تجده في بعض الناس ، ولهذا إياكم أن تتكلموا في الناس ، بعض الناس إذا جلس قال:

فلان غني وما رأيناه ينفق . وتسمع عن بعض الأغنياء أشياء ما يسمع بها عموم الناس من أعمال الخير والصدقات والإحسان ، وما كُلِّف الإنسان بلحوم الناس وأعراضهم . ذُكر عند الربيع بن خيثم رجل ذكروه بكلام تكلموا فيه ، قال : (ما رضيت عن نفسي حتى أتفرغ عن ذمها إلى ذم الناس) ، إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد ولم يخافوه في ذنوبهم . كلمة جميلة ، يقول : أنا ما رضيت عن نفسي ، يعني رأيت واحد يتكلم في الناس ويلمزهم ويعيبهم اسأله هذا السؤال هل أنت راضٍ عن نفسك ؟ لن يقول : نعم ، أبدًا ، إذا كنت لست راضيًا عن نفسك فاشتغل بعيبك عن عيب الناس ، طوبى لمن شغله عيبه عن الناس ، ثم يقول رحمه الله : (إن الناس خافوا الله في ذنوب العباد) ، لأنك لست مسؤولاً عن ذنوب العباد حتى تتكلم في أعراضهم ، وإذا كنت تريد له الخير وتحبه فاذهب إليه وانصحه فيما بينك وبينه ، (وأَمِنوا الله على ذنوبهم) ذنوبهم لا يشعرون بها ولا قوة إلا بالله .

- **المرتبة الثالثة** : المساواة ، وهذا هو الإخلاص ، المساواة كون ظاهر الإنسان مثل باطنه هذه حقيقة الإخلاص .

قال رحمه الله : (**وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا : « ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل » رواه أحمد**) .

(« **ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي** ») هم يتكلمون في المسيح الدجال فقال ثمة شيء أشد خوفًا عليكم من المسيح الدجال ، قال : (« **الشرك الخفي** ») ، وسمي الرياء شركًا خفيًّا لأن الإنسان يخفيه ، الإنسان يظهر الإخلاص ويخفي قصده الرياء ، يعني هو يتظاهر بأن عمله هذا لله عز وجل ، ولكن في نفسه شيء خفي عياذًا بالله ، وهو أن يراه الناس ، أو يسمع كلامهم وما أشبه ذلك .

تقسيم الشرك:

- والمشهور تقسيم الشرك إلى أكبر وأصغر .
- وبعضهم يقسمه إلى أكبر وأصغر وخفي .
- وبعضهم يقسمه إلى ظاهر وخفي ، والأكبر يكون ظاهرًا وخفيًّا ، والأصغر يكون ظاهرًا وخفي .

هي مصطلحات على كل حال ، ولا مشاحاة في الاصطلاح .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية الكهف .

الثانية : هذا الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله .

الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك ، وهو كمال الغنى .

الرابعة : أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء .

الخامسة : خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء .

كثيرًا ما يخاف النبي ﷺ علينا من أمور ، فإذا خاف علينا هذا الأمر فالواجب علينا أن نخاف منه ، بل قال في الحديث المتقدم : « **أخوف ما أخاف** » ، يعني

أشد خوف أخافه ، ثمة شيء آخر خافه علينا وهو الدنيا ، « **إنما أخشى عليكم ما يفتح من زهرة الحياة الدنيا** » ، ونحن أمِنَّا من الدنيا وأمِنَّا في ظلالها الوارف والله المستعان ، ونسأل الله الحفظ والسلام . في رواية قال : « **والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوا فيها** » .

المقصود : أنه ﷺ إذا خشي علينا شيئًا فالواجب أن نخشاه علينا ؛ لأنه إنما خشيه لخطر ه لا شك .

السادسة : أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله ؛ لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه) .

قال رحمه الله :

(باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا

(باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا) ظن بعض الناس أن هذا الباب تكرار كما يقول الشيخ سليمان ، وهذا ليس تكرارًا بلا شك ؛ ولكن هذا الباب أعم من الباب السابق ؛ لأن المرائي أيضًا يريد الدنيا ، وإن كان لم يحصل من الدنيا إلا على مجرد كلام قيل فيه . وتعجب حقيقة من المرائي أن يترك النظر إلى ربه عز وجل ويتقرب إليه ، وينظر إلى حال الناس ، فحاله كحال إنسان دخل على ملك وعنده عبيد ، فذهب ينظر إلى العبيد ويرائيهم ويلتمس رضاهم ويترك الملك ، هل يفعل هذا عاقل ؟ ما يمكن فما بال الإنسان إذًا يرائي الناس ويترك مراقبة ملك الملوك ربنا سبحانه وبحمده .

قال : (**باب من الشرك : إرادة الإنسان بعمله الدنيا**) ، إذًا هذا الباب أعم من سابقه .

(**باب من الشرك**) هل إرادة الإنسان بعمله الدنيا من الشرك الأكبر أو الأصغر ؟ الجواب: هذا يختلف :

- فإن أراد بدخوله الإسلام الدنيا كحال المنافقين الذين دخلوا الإسلام نفاقًا ورياءً فهؤلاء لا شك في كفرهم .
- أما إذا لم يكن هدفه بعمله بدخوله الإسلام الدنيا لكنه مسلم في ظاهره وفي باطنه ؛ لكن لديه ميل إلى الدنيا ، ربما يغلب ميله على الدنيا على إرادة الخير والأجر ، هذا من قبيل الشرك الأصغر .

وقد سئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه عن هذه المسألة ، وذكر أن الناس أقسام فيها ، ذكر منهم:

- من يعمل الأعمال الصالحة الصلاة والصيام وشبهها ، وقصده حفظ نفسه وماله وولده فهذا لا يؤجر ، هو لا يقصد الأجر والثواب وإنما يقصد أثر ذلك .
- أما إذا كان يقصد هذا وذاك ، الإنسان يعمل عمل يبتغي به وجه الله عز وجل ؛ لكن أيضًا يشوبه شيء من مقاصد الدنيا ، فهذا:
  - إن غلبت نيته ابتغاء وجه الله على مقاصده الدنيوية هذا لا يضره ولا يؤثر فيه ، كما قال عز وجل بالنسبة للحجاج : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة : ١٩٨] ،

الحاج يذهب للحج ويذهب للتجارة ، والتجارة لا شك مقصد له ؛ لكن كان قصده الحج لا شك هو الأصل وهو الغالب .

- أما إذا كان قصده الدنيا هو الغالب فلا شك أنه لا يؤجر على هذا العمل وهو على خطر .

- ذكر أيضًا رحمه الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب لما سئل عن المسألة ، ذكر منهم من يعمل لأجل المال يعني يريد مالاً ، وهذا يبتلى به الناس ، يعمل عملاً صالحًا لأجل المال ، الكلام فيه كما تقدم إن غلب قصده المال فليس له أجر على عمله هذا ، وإن كان قصده العمل الصالح دخل هذا الأمر تبعًا وضمنًا ، فلا شيء فيه مع أنه لو لم يدخل فيه لكان خيرًا ، ولهذا قال ﷺ في الحديث المخرج عند ((**مسلم**)) « **إن الغزاة إذا غنموا تعجلوا ثلثي أجلهم ، وإذا لم يغنموا تم لهم أجرهم** » ، لهذا ينبغي أن يكون للإنسان أعمال يمحض فيها الإخلاص ، لا يقصد فيها شيء من شؤون الدنيا وأمورها .
- ذكر من الأقسام من يعمل رياء وقد مر الكلام عليه .
- وذكر أيضًا من الأقسام الكافر ، يعمل العمل الصالح ، وهل يمكن للكافر أن يعمل عمل صالح ؟ نعم ، وكم من أعمالٍ صالحة كان مشركو مكة يعملونها إلى حد أنهم كانوا يعتكفون ، كما في حديث عمر في ((**الصحيحين**)) نذرت أن أعتكف ليلة في الجاهلة في المسجد الحرام ، لما سأل النبي ﷺ ، ومع ذلك لم تغنِ عنهم أعمالهم شيئًا ، والسبب هو الشرك الذي جاء عليها فأبطلها جميعها .

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ١٥]) . الآيتين .

قال تعالى : (﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ﴾) ، يعني نوف إليهم ثواب أعمالهم ، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يُعَجِّل للكافر ثواب عمله ، قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ [الأحقاف : ٢٠] ، الكافر يطعمه الله طعمة في الدنيا كما ورد في الحديث حتى يأتي يوم القيامة وليس له عمل ، عندما يعمل الكافر أعمال صالحة يثيبه الله عليها في الدنيا ، يأتي يوم القيامة وليس له عمل يجازى عليه بالخير ، (﴿ وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ﴾) وهذا يدل على أن هؤلاء كفار .

وقوله : (﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ ﴾) ، هذه الآية مقيدة بقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ [الإسراء : ١٨] ، فيعجل الله له ما يشاء ، ليس معناه أنه يعجل له كل شيء ، واختلف في الآية ، وظاهر الآية أنها في الكفار ، وإن حملها بعض أهل العلم على المسلم الذي عنده شيء من المعاصي .

(﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا ﴾) ، قوله : (﴿ فِيهَا ﴾) ، إن قلنا : المتعلق بالجار (صَنَعُوا) فالمراد به الدنيا ، وإن قيل : متعلق بقوله : (حَبِطَ) . فالمراد به الآخرة ، وعلى كل حال المعنيان متلازمان ، إن حبط في الدنيا فهو حابط في الآخرة .

ثم قال : (﴿ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾) ، المقصود أن كفرهم أتى على جميع أعمالهم بالحبوط والبطلان . والفرق بين الحبوط والبطلان :

- الشيخ قدس الله روحه في ((**الفتاوى**)) قال : لا يظهر له فرق بينهما .
- بعضهم يحاول أن يجد فروق ، أو يبحث عن فرق بينهما ، فيفرق بين الحبوط وبين البطلان ، وأن البطلان أعم ؛ لأن الحبوط في الأعمال بخاصة ، وأما البطلان فهو في الأعمال وفي غيرها كقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ﴾ [ص : ٢٧] .

وأيضًا يفرقون بين الصنع والعمل ، فالعمل أعم من الصنع (﴿ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾) ، فالعمل أعم من الصنع .

المقصود : أن عملهم باطل وحابط بسبب كفرهم .

قال رحمه الله : (في ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ، تعس عبد الخميلة ، إن أُعطِي رضي ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع ») .

(في ((الصحيح))) يعني في ((**البخاري**)) عن النبي ﷺ أنه قال : (« تعس عبد الدينار ») ، وتعس بمعنى هلك وشقي .

(« تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة ») الخميصة كساء غليظ له أعلام ، يعني فيه خطوط وفيه نقوش .

(« تعس عبد الخميلة ») والخميلة كساء له خُمُل ، والخمل نحن نسميها الهدب.

(« **تعس وانتكس** »):

- قيل : انتكس يعني تعس مرة ثانية .
- وقيل : تعس انكب على وجهه ، وانتكس انقلب على قفاه .

(« **وإذا شيك فلا انتقش** »):

- إن كان هذا الكلام خبرًا فمعناه أنه بلغ به من الترف بحيث لو أصابته الشوكة ما استطاع أن ينقشها ، (« **وإذا شيك** ») يعني أصابته شوكة ، (« **فلا انتقش** ») يعني ما يستطيع أن يخرجها ، أن ينقشها ، هذا إن كان خبر .
- وإن كان دعاء فالمراد دعاء عليه بمثل هذا .

(« **طوبى** ») طوبى :

- قيل : شجرة في الجنة ، وقد روي فيها أحاديث .
- وقيل : بل طوبى الحياة والعِيشة الطيبة ، مؤنث من الطيب ومذكره أطيب. والحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحًا ، قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] الله أكبر الحياة الطيبة في الإيمان بالله عز وجل والعمل الصالح ، الحياة الطيبة في الدنيا ، والجزاء بأحسن العمل في الآخرة ، فالمؤمن في حياة طيبة دائمًا وأبدًا في دنياه وآخرته .

(« **طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه** ») لما ذكر عبد الدنيا ، عبد الدرهم وعبد الدينار ، ذكر مثالاً لعبد الله عز وجل الذي يحب ما يحب الله ، ويرضيه ما يرضي الله ، يوالي من يوالي الله ويعادي من يعادي الله ، ذكر له مثالاً بهذا المجاهد في

سبيل الله ، (« **آخذًا بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه** ») معنى أشعث يعني رأسه ثائرًا شَعِثًا ، (« **مغبرة قدماه** ») قدماه يعلوها الغبار ، (« **إن كان في الحراسة كان في الحراسة ، وإن كان في الساقة كان في الساقة** ») رجل يسمع ويطيع إن قيل : اجلس في الحراسة جلس ، إن قيل : في الساقة – وهي مؤخر الجيش – والعمل فيها لا شك أشد كان فيها .

(« **إن استأذن لم يؤذن له** ») ليس له قيمة عند الناس ، (« **وإن شفع** ») عند ذي الشأن (« **لم يشفع** ») لم تقبل شفاعته ؛ لأنه مغمور ليس له ظهور ، ومع ذلك قال النبي ﷺ في حقه : (« **طوبى** ») . طوبى له .

وفي الحديث المخرج في ((مسلم)) « **رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره** » . رأسه مدفوع بالأبواب لا يسمح له حتى بالدخول ، ومع ذلك لو أقسم على الله لأبره الله عز وجل ، ما هي بالمظاهر ولا بالأشكال ؛ ولكنها بالمعاني والحقائق وما يكون عليه الإنسان في نفسه وفي قلبه ، في إيمانه وثقته بربه سبحانه وبحمده ، هذا مثلٌ لأهل الدنيا الذين آثروا الدنيا وقدموها على الآخرة ، ومن يؤثر الدنيا قاصرٌ في فكره ونظره وفي عقله :

- قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٧] ، وصف هذه الدنيا بأنها عاجلة ، وما أسرع ما تمر أيامها وأعوامها العاجلة .
- وقال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ ﴾ كما مر بنا ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ﴾ إذا كانت هذه إرادته فلن يأتيه إلا ما قسمه الله سبحانه وتعالى له .

- وقال : ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴾ [القيامة : ٢٠ ، ٢١] .
- وقال : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٧] . هذا الذي مُتِّع في الدنيا ، وفُتِحت له خيراتها يأتيه بعد ذلك ما يأتيه في الدنيا يأتيه مرض ، ثم يتمنى أن لو كان لا يملك من الدنيا شيئًا حتى تعود عليه صحته ، أو يموت ويترك هذه الدنيا لمن وراءه ويقدم هو على حسابها وجزائها وعذابها ولا قوة إلا بالله .
- قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] .
- وقال : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧] .

المقصود : أن الإنسان يتأمل في الدنيا ويفكر فيها ، ولا تكن غايته ، الدنيا فيها أشياء جميلة لا شك ، وأجمل ما فيها هو أنتم بصدده ، طلب العلم والعبادة ، وإنفاق ما يكون في يد الإنسان من خيراتها في طرق الخير .

ما يذم المال بذاته ، وإنما يذم بما يعمل به صاحبه ، وإلا فقد قال فيه النبي ﷺ : « **فنعم هو صاحب المؤمن ، ما أطعم منه اليتيم والمسكين وابن السبيل ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة** » . وأحسن ما في الدنيا أنها مزرعة تزرع فيها الأعمال الصالحة ، وغدًا توفى

النفوس ما كسبت ، ويحصد الزارعون ما زرعوا ، إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساؤوا فبئس ما صنعوا .

فتأملوا في الدنيا وفكروا في صنيعها في أهلها الأولين والموجودين في هذا الزمان ، وربكم أمركم بذلك ﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [البقرة : ٢١٩ ، ٢٢٠] ، حتى إذا عرفت الدنيا أعطيتها شيئًا مما تستحق ، وحتى إذا عرف العبد الآخرة أعطاها ما يفتح الله عليه وما يعينه عليه من الإيمان والعمل الصالح .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة) .

ما ذكر الشيخ الحكم ، لأن الحكم يختلف ، فقد يكون شرك أكبر كما ذكر ، وقد يكون شركًا أصغر ، وقد لا يعاقب عليه .

(**الثانية : تفسير آية هود .**

الثالثة : تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة .

الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي ، وإن لم يعط سخط .

هذه الصفة إن أعطي رضي صفة المنافقين ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ [التوبة : ٥٨ ، ٥٩] ، فلا ينبغي للإنسان أن يكون هكذا إن أعطي شيئًا رضي وارتاح ، وإذا لم يعط ، إن أعطيت فإنما أعطيت ما قسم لك ، وإن حرمت فإنما حرمت ما لم يقسم لك .

(الخامسة : قوله : « تعس وانتكس » .

السادسة : قوله : « وإذا شيك فلا انتفش » .

السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات) .

(« وإذا شيك ») إذا كان خبر معناه أنه بلغ به الترف أمرًا لا يستطيع أن ينقش الشوكة إذا أصابته .

وأما إذا كان دعاء فهو دعاء عليه حتى لو أصابه هذا الشيء السهل اليسير ما يستطيع أن يزيله عنه .

أحسنتم وأحسن الله إليكم ، وفق الله الجميع للخير ، ورزقنا وإياكم الإنابة إليه ، ورزقنا جميعًا العلم النافع والعمل الصالح

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال المؤلف رحمه الله :

(باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

وقال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول الله ﷺ ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر ؟

وقال أحمد بن حنبل : عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] .

أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) .

قال رحمه الله : **(باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابًا من دون الله) .**

المؤلف في هذا الباب يريد أن يتحدث عن التحليل والتحريم ، وأن التحليل والتحريم من خصائص الرب عز وجل ، فليس لأحدٍ أن يقول : هذا حلالٌ وهذا حرام . قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] .

فالتحليل والتحريم والطاعة المطلقة فيه لا تكون إلا لله عز وجل ، فدل على أن هذا الأمر عبادة لله سبحانه وبحمده ، فلا يشرك فيها أحد ، وطاعة المصطفى ﷺ في هذا الباب إنما هي ماذا ؟ طاعة لله عز وجل ، ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : ٨٠] .

(**باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله**) ، أيهما أشد تحريم الحلال أو تحليل الحرام ؟

تحريم الحلال ، العلماء يقولون : تحريم الحلال أشد . لماذا ؟

لأن الأصل في الأشياء ما هو ؟ الأصل فيها الحِل ، فكون الإنسان يحرم ما أحل الله عز وجل لا شك تعدي على حق من حقوق الله سبحانه وتعالى ، وكذلك تحليل الحرام أمره كبير وخطير ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

وقد ذكر بعض أهل العلم أن المحرمات في هذه الآية مرتبة :

١ . ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ .

٢ . وأشد منها البغي ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ .

والإثم فيما بين الإنسان وبين ربه ، والبغي فيما بينه وبين الناس ، وهذا أعم من الفواحش .

٣. وأعلى منها ﴿ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ .

٤ . وأشد من ذلك ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

قد يقول قائل : أوليس الشرك أشد من القول على الله بغير علم ؟

الشرك قولٌ على الله بغير علم فيكون داخلاً فيه ، فيكون قوله على الله بغير علم أشدَّ هذه الأمور ، ومنها القول عليه سبحانه وبحمده في التحليل وفي التحريم ؛ لكن هذا يختلف .

١. فمن أطاع العلماء أو الأمراء في تبديل دين الله بتحريم الحلال وتحليل الحرام عالمًا راضيًا ساخطًا على شرع الله عز وجل فما حكم هذا ؟

تبديل ، كفر لا شك .

من يحلل ويحرم ويغير بذلك دين الله عز وجل وهو عالم ليس جاهلاً يُعذر بالجهل ؛ لكنه عالم وراضي ليس مكرهًا ، معظمًا لمن يطيعه ، ساخطًا على شرع ربه ، فإن هذا يعتبر كفرًا بالله عز وجل ؛ لأن التحليل والتحريم – كما مر – من خصائص ربنا عز وجل ، والطاعة المطلقة فيه لا تكون إلا له .

الأمر الثاني : يطيع في التحليل والتحريم عملاً ، وأما اعتقاده فراسخ أن الحلال ما أحله الله والحرام ما حرمه الله ؛ لكن يطيعهم لهوى ، هوًى في نفسه ، فهذا له نصيب من الفسق ، له نصيب من الفسق ؛ لكن ما يصل إلى درجة الكفر بالله عز وجل .

الأمر الثالث : أن يطيعهم تقليدًا يقلدهم ، فإن كان مثله يمكن معرفة الحق بدليله ، فإنه آثم بهذا الأمر ، ولا يجوز له أن يقدم قول أحد على كلام الله وكلام رسوله ﷺ كائنًا من كان .

ولهذا كان الأئمة رحمهم الله يحضون ويحثون الناس على أن يأخذوا بالدليل ، ما دام أن الإنسان له نظرٌ في الدليل ، كلهم رحمهم الله يحضون الناس على ذلك .

أبو حنيفة رحمه الله يقول : لا يحل لأحدٍ أن يأخذ بقولي حتى ينظر من أين أخذته .

الشافعي رحمه الله سأله رجل فقال : قال رسول الله ﷺ . قال : تقول بهذا يا أبا عبد الله ؟ فتغير لونه وغضب ، وقال له : رُح ، أتراني خرجت من الكنيسة ، ترى في وسطي زنَّارًا ! أقول قال رسول الله ﷺ وتقول ما تقول أنت ؟ نعم على العين والرأس ، نعم على العين والرأس .

والإمام أحمد قال ما هو مثبت عندكم هنا : عجبت لأناس عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان .

سفيان الإمام رحمه الله ، سفيان الثوري إمام رحمه الله ، ومع ذلك ينكر على من يذهب مذهبه فيأخذ بقوله دون النظر في الدليل ، وتأملوا في قول الإمام أحمد : عجبت لأناس عرفوا الإسناد . هذا فيمن لديه قدرة على النظر في الأدلة ، روايةً ودراية .

ومالك رحمه الله يقول كلمته المشهورة : كلٌّ يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر . وأشار إلى النبي ﷺ .

قال أبو حنيفة الإمام ** لا ينبغي لمن له إسلام

أخذٌ بأقوالي حتى تعرضا ** على الكتاب والحديث المرتضى

ومالك إمام دار الهجرة ** قال وقد أشار نحو الحجرة

كل كلام منه ذو قبول ** ومنه مردودٌ سوى الرسول

والشافعي قال إن رأيتم ** قولي مخالفًا لما رويتم

من الحديث فاضربوا الجدار ** بقولي المخالف الأخبار

وأحمد قال لهم لا تكتبوا ❊❊ ما قلته بل أصل ذلك اطلبوا

دينك لا تقلد الرجالا ❊❊ بل اتبع أولاهمُ مقالا

لكن هذا الكلام لا يقال إلا طالب علم عنده نظر في الأدلة ، ومعرفة وقدرة على الاستنباط ، فلا يجوز لمثل هذا أن يرد قول النبي ﷺ بحجة أن الاجتهاد انقطع ، يقول : خلاص انتهى الاجتهاد ، أو أن ذلك العالم أعلم بهذه المسألة مني ، أو أن للاجتهاد شروطًا .

يقول الشيخ سليمان رحمه الله في ((**التيسير**)) : لعلها لا توجد في أبي بكر وعمر . يعني هذه الشروط التي وضعت للاجتهاد .

ثم استدرك رحمه الله وقال : إن أريد بهذا الاجتهاد المطلق . يعني معنى كلامه لا بأس ؛ لكن أن تُجعل شرطًا للعمل بالكتاب والسنة ؟ لا ، ولا يقول بهذا حتى أهل العلم ، فلم يجعلوا شرطًا للعمل بالكتاب والسنة أن يكون الإنسان مجتهدًا اجتهادًا مطلقًا ، لا ؛ لكن إن كان عنده نظر في الأدلة والتمييز بين صحيحها وسقيمها ، والقدرة على الفهم والاستنباط ، فإنه لا شك يأخذ بالدليل .

أما إذا كان ما يستطيع فماذا يعمل ؟ قال العلماء : فرضه التقليد ، لقوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

فالأقسام إذًا من حيث الحكم كم هي ؟ ثلاثة :

١ . من بدل دين الله عز وجل بالتحليل والتحريم ، عالمًا راضيًا ، فهذا كفر .

الثاني : من غيَّر وبدل لهوًى ؛ لكن في قرارة نفسه معتقد أن التحليل والتحريم من خصائص الرب سبحانه وبحمده ، فهذا لا شك مرتكب إثمًا وفاعلٌ محرم ، وله نصيب من الفسق .

والثالث : من يُقلد ، وذكر التفسير فيه .

(**قال ابن عباس : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله ﷺ ، وتقولون قال أبو بكر وعمر**) ؟ ابن عباس رضي الله عنهما قال هذا الكلام وهو يتكلم عن متعة الحج .

وكان ابن عباس يرى وجوب المتعة ، أن الإنسان يجب عليه أن يتمتع ، وإلى قول ابن عباس مال ابن القيم رحمه الله حيث يقول : وأنا إلى قول ابن عباس أميل مني إلى قول شيخنا . يعني شيخ الإسلام .

شيخ الإسلام يرى رأي عامة أهل العلم أن المتعة سنة وليست بواجبة .

كأن بعضهم ، يعني أورد على ابن عباس أن أبا بكر وعمر يريان الإفراد ، أن الإفراد أفضل من المتعة .

والشيخان رضي الله عنهما وأرضاهما يريان الإفراد لماذا ؟

حتى لا يُهجر البيت ، تظنون الناس مثل الآن ؟ إذا كان الإنسان يريد أن يذهب إلى مكة من الرياض يحتاج إلى يمكن عشرين يوم أو أكثر على الراحلة ، كم سرعة البعير ؟ متوسط أربعين كيلو ساعة أو في اليوم ؟ في اليوم ، الإبل محملة سرعتها قرابة أربعين كيلو ، الناس اليوم في نعمة عظيمة ، ولهذا من يذهب إلى مكة في ذاك الزمان ليعتمر فقط ، وكانوا يحرصون إذا حج أن يتمتع ،

فكان أبو بكر وعمر يريان الإفراد ليكثر زُوَّار البيت ، وحتى لا يهجر بيت الله عز وجل .

وهذا مذهب مالك - بالمناسبة - رحمة الله أن الإفراد أفضل .

ولشيخ الإسلام تفصيل رحمه الله تعالى في أيهما أفضل التمتع أو القران أو الإفراد ؟

المشهور في مذهب أحمد أن التمتع هو ماذا ؟ هو الأفضل .

فابن عباس يقول : (**يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول قال رسول الله ﷺ ، وتقولون قال أبو بكر وعمر**) ؟ أتردون سنة رسول الله وكلام رسول الله ؟

وإذا كان هو يرى الوجوب ابن عباس .

....

كان بعض أهل العلم ينسب إليهما أنه الأفضل ، والأدلة على التمتع كثيرة حتى في كتاب الله ﴿ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، ﴿ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ فالتمتع في مذهب الإمام أحمد - كما ذكر - هو الأفضل .

المقصود : أن ابن عباس ينكر إنكار شديد على من عارض السنة بقول أفضل الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم ، ومن قال فيهم النبي ﷺ : « **اقتدوا بالذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر** » . ومن قال فيهم : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي** » . لكن لا تخالفوا سنة النبي ﷺ بقول أحد .

وإذا كان رفع الصوت عند النبي ﷺ بالكلام ، إذا كان رفع الصوت قد يؤدي إلى حبوط العمل كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] . ما معنى ﴿ أَنْ تَحْبَطَ ﴾ ؟ لئلا تحبط أعمالكم ، إذا كان رفع الصوت حسًّا ، والجهر عنده كما يجهر بعضهم لبعض قد يؤدي إلى حبوط الأعمال فكيف إذًا برد سنته ؟ ولهذا بالغ ابن عباس في إنكار هذا الأمر رضي الله عنه .

قال الإمام أحمد : (**عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾**) . يقول الفضل بن زياد عن الإمام أحمد : نظرت في القرآن فإذا طاعة النبي ﷺ في ثلاث وثلاثين آية .

ثم قال : الفتنة ، أو ما الفتنة إلا الشرك .

والفتنة في القرآن وردت على معانٍ :

١ . الشرك ، كما في هذه الآية كما يقول الإمام أحمد ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة : ١٩١] .

الثاني : الابتلاء والامتحان وهذا كثير ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٢] ، ﴿ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ يعني لا يختبرون .

والثالث : العذاب ، كما قال عز وجل : ﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الذاريات : ١٤] أي ذوقوا عذابكم ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [البروج : ١٠] يعني عذبوهم .

الفتنة هنا كما يقول الإمام أحمد : الشرك .

(﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة : الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) ، إذا رد بعض قول النبي ﷺ يحصل في قلبه زيغ عياذًا بالله فيهلك من أجل ذلك .

والآيات يستدل بها الأصوليون على أن الأمر عند الإطلاق يقتضي ماذا ؟ الوجوب ، لقوله : (﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾) .

قال رحمه الله : (عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣١] ، الآية قال : فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : « أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه » ؟ فقلت : بلى . قال : « فتلك عبادتهم » . رواه أحمد والترمذي وحسنه) .

عدي بن حاتم أبوه معروف حاتم الطائي المعروف في الجاهلية ، ومعروف بالكرم ، حتى صار يضرب به المثل في الكرم ، قدم على النبي ﷺ وكان نصرانيًّا .

العرب في الجاهلية تخطفتهم الأمم ، كانوا في الأصل على دين أبيهم إبراهيم ، ثم غُيِّر دين إبراهيم .

فالعرب الذين يقطنون شمال الجزيرة العربية تأثروا بمن ؟ بالروم بالنصارى ، فكان منهم نصارى ، القبائل التي تقع شمال الجزيرة نصارى .

والعرب الذين في شرق الجزيرة في مناطق الخليل وحولها تأثروا بمن ؟ بفارس ، وكانوا مجوس .

ومن هم في وسط الجزيرة وفي الحجاز هؤلاء دب فيهم ماذا ؟ الشرك والوثنية عبادة غير الله عز وجل .

عدي بن حاتم وفد على النبي ﷺ فرآه ، وبمجرد أن رآه وقع في نفسه أنه نبي ، يقول : خرج فتَبِعَتْهُ امرأة فكلمته في حاجة قضى حاجتها ، ثم تبعته جارية فكلمته ، ثم دخل وَوُضِعَت له وسادة من ليف ، لما رأى ما هو عليه صلوات الله وسلامه عليه من الإعراض عن الدنيا وقع في نفسه أن الرجل ليس واليًا ولا ملكًا ، ثم قرأ عليه النبي ﷺ هذه الآية (﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ ﴾) .

(﴿ اتَّخَذُوا ﴾) جعلوا ، والأحبار العلماء ، والرهبان العباد .

(﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾) اتخذوه ربًّا ، (﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) فما أمروا بعبادة المسيح ، ولا باتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا .

فلما قرأ عليه هذه الآية قال : (**إنا لسنا نعبدهم**) . ما نعبدهم ، فقال عليه السلام : (« **أوليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه** » **؟ فقلت : بلى . قال :** « **فتلك عبادتهم** ») .

قال : قلت يا رسول الله فإني حنيفي مسلم . قال : فسر النبي ﷺ .

الهداية إذا أدركت الإنسان ، أسلم وامتد عمره ، توفي سنة ثمان وستين ، وعمره عشرون ومائة ، وقد حسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ، حصل في قومه نوع ردة ، ولكنه ثبت على الإسلام رضي الله عنه وأرضاه .

(﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ ﴾) معنى أرباب يعني مُشَرِّعِين ، يُحلون ويُحرمون من تلقاء أنفسهم .

وفيه : خطورة هذا الأمر ، وأن التحليل والتحريم حق ربنا ، والطاعة فيه المطلقة عبادة ، وإذ كانت عبادة فلا تكون إلا لله عز وجل فصرفها لغيره يعتبر شركًا .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية النور) .

ما هي آية النور ؟ (﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ** ﴾) .

(**الثانية : تفسير آية براءة**) .

(﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ** ﴾) .

(**الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي**) .

معنى العبادة هنا ما هو ؟ الطاعة في التحليل والتحريم .

....

سواء قال : أنا أجعل هذا الحرام حلالاً ، أو يعتقده حتى وإن لم يغير الصورة .

قال رحمه الله : (**الرابعة : تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر ، وتمثيل أحمد بسفيان .**

الخامسة : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال) .

هذه فائدة لطيفة ، قال : تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صارت عبادة الرهبان أفضل الأعمال وتسمى الولاية .

يقال عن هذا ولي ، وإذا أمعنت وتأملت وإذا هو لا قوة إلا بالله عدو وليس وليًّا .

سمعت الشيخ ابن باز يُسْأل عن مسائل تعجب والله يشيب لها القلب أن توجد بين المسلمين ، يقال عن هذا الشخص : ولي . وهو ولا قوة إلا بالله عنده خلل عظيم ، يعني يُسْأَل في إحدى البلاد العربية يقولون : هذا إمام يصلي بنا ، يصوم يوم ويفطر يوم ، وكذا وكذا وأثنى عليه ؛ لكنه يغيب عنَّا أحيانًا ويخلو ، ثم يخرج ويعتقد ولا قوة إلا بالله أنه يتصرف في الكون ، وأنه يوحى إليه ، عقائد ولا قوة إلا بالله لعلها ما توجد في كثير من الملل الكفرية ، ويصلي بالناس .

ومن يسأل هذه أسئلة ، سمعت شيخ عن ولي وأن امرأة زوجها لا يُنجب له ، وكانت تأتي إليه فأنجبت منه أربعة أولاد ، ويقال عنه إنه ولي .

أصبح أن الأمر وسيلة للعبث في عقول الناس ، مصداق ما قال ربنا عز وجل في آية التوبة يعني بعد هذه الآية بقليل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] . ما يمكن أكل الأموال إلا بالصد ، أمران متلازمان ؛ لكن أن يسلك بهم منهج الحق ويأكل أموالهم هذا لا يمكن .

قال رحمه الله : (**تَغَيُّر الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ، وتسميتها ولاية ، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه ، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من ليس من الصالحين ، وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين**) .

على كل حال المعبود سواء كان من الصالحين ، الشيخ ما يريد التفريق في هذا ؛ لكن كيف ساءت لأحوال ، يعني كانوا في الماضي يعبدون الصالحين ،

يعني تغيرت الأحوال إلى أن صاروا يعبدون من ليس من الصالحين ، ويقلدون ويتبعون من هو من الجاهلين .

(باب قول الله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] الآيات .

وقوله : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة : ١١] .

وقوله : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

وقوله : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠]) .

هذا الباب يتحدث فيه المؤلف عن التحاكم إلى شرع الله ، إذ كان التحليل والتحريم من خصائص الرب سبحانه وبحمده ، فإن الواجب على الناس أن يتحاكموا إلى الله سبحانه وتعالى وإلى رسوله .

الباب الأول فيه ذكر شيء من معنى شهادة أن لا إله إلا الله ، إذ التحليل والتحريم من خصائص الربوبية .

وهذا الباب فيه شيء من معنى شهادة أن محمدًا رسول الله ، فيه تحاكم إلى الله عز وجل ، إلى كتابه ، وإلى الرسول ﷺ إلى شخصه في حياته وإلى سنته بعد مامته ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء : ٥٩] . النداء بوصف الإيمان

والذي فيه الإغراء والحث على العمل ، ولأن مقتضى الإيمان العمل بما يكون بعده ، وما يكون بعده طاعة الله ، وطاعة رسوله ﷺ ، وطاعة ولي الأمر .

وأولوا الأمر هنا هم : الأمراء والعلماء .

فالأمراء هم أولوا الأمر للناس في دنياهم ، والعلماء هم أولوا الأمر للناس في دينهم .

والآية دليل على ما هو أصل من أصول أهل السنة والجماعة ، وهو طاعة ولاة الأمر في طاعة الله عز وجل ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ ﴾ . ولم يقل وأطيعوا أولي الأمر ؛ لأن طاعة أولي الأمر ليست طاعة مستقلة ، بل هي تابعة لماذا ؟ لطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ .

﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ﴾ إذا اختلفتم فتحاكموا إلى كتاب الله وإلى الرسول ﷺ وسنته بعد موته ، ﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أحسن مآلاً وعاقبة .

ثم قال : (﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ ﴾) .

سبب نزولها ما أشار إليه المؤلف بعد ذلك من قول الشعبي : كان بين رجل من اليهود ورجل من المنافقين خصومة ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد . لعلمه أنه لا يأخذ الرِّشْوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى كعب الأحبار . ثم اتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة ، قيل : اسمه أبو بَرزة الأسلمي ، وليس الصحابي رضي الله عن أبي بَرزة ، فنزلت الآية .

قد وصفهم الله تعالى بأربعة صفات في هذه الآيات هؤلاء .

الوصف الأول : زعمهم الإيمان بالله ورسوله وهم لا يرضون بالتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

الثاني : أن لهم طواغيت ورؤوس ، يقدمون حكمهم على حكم الله وحكم رسوله ﷺ .

الثالث : إذا دُعوا إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أعرضوا وصدوا ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٦١] .

الرابع : أنهم يزعمون أنهم ما أرادوا بهذا إلا عملاً صالحًا ، أو عملاً حسنًا وتوفيقًا . نوفق بين الخصوم ، نذهب إلى هؤلاء وإلى هؤلاء توفيقًا بين الخصوم ، فوصفهم الله بهذه الصفات الأربعة .

(﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾) ، فدل على أن التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله تحاكم إلى ماذا ؟ إلى الطاغوت .

(﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴾) يُعرضون عنك إذا دُعوا إلى الكتاب والسنة .

(﴿ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾) ، أصابتهم مصيبة وهتك سترهم وكشف خبرهم ، فجاءوا يحلفون كعادتهم عند النبي ﷺ ما أردنا إلا إحسانًا وتوفيقًا .

(﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾) أمر النبي ﷺ بثلاثة أمور :

الأمر الأول : أعرض عنهم ، يعني يُعرض عنهم عن معاقبتهم لا يبالي بهم ولا يأبه بهم .

٢. ومع ذلك يعظهم (﴿ وَعِظْهُمْ ﴾) .

والثالث : (﴿ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾) .

واختلف في قوله : (﴿ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾) . هل هو متعلق بقوله : (﴿ بَلِيغًا ﴾) . أو متعلق بقوله : (﴿ وَقُلْ لَهُمْ ﴾) . ما الفرق ؟

إذا قلنا متعلق بقوله : (قل) . وهو الأقرب ، يعني قل لهم في أنفسهم خاليًا بهم .

وإذا قيل : متعلق بـ (﴿ بَلِيغًا ﴾) فقل لهم قولاً بليغًا بالغًا من أنفسهم مبلغًا ، بحيث يأثر بهم .

والقول البليغ – كما يقول أهل العلم – : له ثلاث صفات :

الصفة الأولى : بليغ في لفظه ، يعني كلماته رصينة .

الثاني : بليغ في معناه .

الثالث : بليغ في كيفية إلقائه ، وهذه مهمة ، هذه هي الحكمة .

المقصود : أن هذه الصفات صفات من ؟ صفات المنافقين الذين يرفضون التحاكم إلى كتاب الله تعالى وإلى سنة رسوله ﷺ .

ثم قال في الآية الثانية : (﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾) . قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ﴾ [البقرة : ١٢] .

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ ﴾ أُكِّدت بعدة مؤكدات ، يظهرون الإصلاح وهم في الحقيقة مفسدون .

في الآية الأخرى : (﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾) ، فدل على أن انتشار المعاصي والذنوب هو من أسباب الفساد والإفساد ، قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

ظهر الفساد في أحوال الناس ، في مكاسبهم ، في معيشهم ، وسبب ذلك ما هو ؟ سبب ذلك شُؤم المعاصي والذنوب والآثام ولا قوة إلا بالله ، ومن ذلك الحكم بغير شرع الله عز وجل ، الحكم بغير شرع الله فسادٌ وإفسادٌ في الأمر .

وقال : (﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾) . دل على أن ما عدا حكم الله فهو حكم جهلي ، وأن الحكم حكمه سبحانه وبحمده .

ثم قال : (﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا ﴾) . قال العلماء : كلما ظهر حُسن حكم لله للعبد دل ذلك على ماذا ؟ يقينه وإيمانه بالله عز وجل .

والمقصود : أن الباب يدل على وجوب التحاكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، ﴿ الظَّالِمُونَ ﴾ ، ﴿ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

واختلف في الحكم بغير الله عز وجل ؟

فقيل : هو كفر مطلقًا .

وقيل : إنما يكون كفرًا إذا اعتقد جوازه ، أو اعتقد أنه أحسن من حكم الله عز وجل .

قال رحمه الله : (**عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به ».**

قال النووي : حديث صحيح ، رويناه في كتاب ((الحجة)) بإسناد صحيح)

.

النووي صحح هذا الحديث كتاب ((**الحجة في بيان المحجة**)) لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي رحمه الله ، والكتاب على أصول أهل السنة والجماعة ؛ لكن ابن رجب في ((**جامع العلوم والحكم**)) كأنه يقول رحمه الله يقول : يعني تصحيحه بعيد من وجوه . وذكر عدة أوجه .

الشيخ ابن باز يقول : هذا الحديث ضعيف ؛ لكن معناه لا شك صحيح .

((**« لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به »**)) ، الأصل في الهوى يطلق على ماذا ؟ الميل إلى خلاف الحق ، هذا الأصل فيه .

وقد يطلق على الميل والمحبة ، قال : سمعت النبي ﷺ يسأل أو يقول في الهوى شيئًا . يقوله أحد التابعين لصفوان بن عسال رضي الله عنه وأرضاه ، يعني الهوى في المحبة ، الهوى المحبة .

((**« لا يؤمن أحدكم حتى يكون »**)) ميله ومحبته وهواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ

.

فمن أحب الله ورسوله أحب ما أحبه الله ورسوله ، وكره ما كرهه الله ورسوله ، ورضي بما رضي به الله ورسوله ﷺ ، وسخط ما يُسخط الله تعالى ورسوله .

فإن وقوع الإنسان في المعاصي نقصٌ في ماذا ؟ في محبته لله ورسوله ، لا يقال كون الإنسان عاصي فهو لا يحب الله ، لا .

وقد جيء برجل يجلد في الخمر فقال أحد الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يجلد في الخمر . قال : « **لا تلعنه** » . انظروا العواطف تضبط بحدود الشرع ، « **فإني علمته يحب الله ورسوله** » مع أنه يشرب الخمر .

لكن لا شك أن وقوع الإنسان في المعاصي نقصٌ في محبته ، إذ لو أحب الله محبةً كاملةً أحب ما يحب الله ، وأبغض ما يبغض الله عز وجل .

« **ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء** » يعني محبة الله أصل ، لكنها تفرعت وامتدت إلى محبة من يحب الله ورسوله ، ومحبة ما يحبه الله تعالى ورسوله .

المقصود : أنه لا يؤمن الإنسان الإيمان الواجب حتى يكون ميله وهواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ .

ثم ذكر المؤلف الأثرين .

(وقال الشعبي : كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة ، فقال اليهودي : نتحاكم إلى محمد . عرف أنه لا يأخذ الرشوة ، وقال المنافق : نتحاكم إلى اليهود . لعلمه أنهم يأخذون الرشوة ، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه ، فنزلت : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ الآية .

وقيل : نزلت في رجلين اختصما ، فقال أحدهما : نترافع إلى النبي ﷺ . وقال الآخر : إلى كعب بن الأشرف . ثم ترافعا إلى عمر ، فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ : أكذلك ؟ قال : نعم . فضربه بالسيف فقتله) .

هذا الأثر الأخير روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفيه ضعف في طرقه ؛ لكنه مشهور ، وأثر الشعبي السابق يدل على ما دل عليه .

بعضهم يرى أن هذا الأثر الأخير حتى في متنه شيء ، فإن عمر لم يكن ليفتئت على رسول الله ﷺ ويقتل رجلاً دون علم النبي ﷺ .

ولهذا يمر في الأحاديث الصحيحة كثيرة ألا أقتله يا رسول الله ؟

قالها عمر في حق من ؟ حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه الصحابي البدري ، لما كتب المشركين ، وأخبرهم بعزم النبي ﷺ على فتح مكة .

قاله خالد في شأن ذي الخويصرة لما اعترض على النبي ﷺ وقال : ألا أقتله يا رسول الله ؟ فقال : « **لا ، لعله أن يكون يصلي** » . لعله يصلي ، قال : كم من مصلي يقول بلسانه ما ليس في قلبه . قال ﷺ : « **ما أمرت أن أشق صدور الناس ولا أن أبقر بطونهم** » . ليس لنا إلا الظاهر ، اللهم صل عليه وسلم .

في سيرته وفي هديه دروس ، وهنا تبدو أهمية العلم في تقييد العواطف واندفاع الإنسان أحيانًا بعزم عاطفته ، إذا لم تكن هذه العواطف مقيدة بقال الله وقال رسوله ، قد تكون مزلة قدم يزل بها صاحبها ، والله المستعان .

وما أحسن أن يكون الأصلان بين ناظريك .

ما هما الأصلان ؟ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

ولهذا اقرءوا القرآن واحفظوه وتدبروه وتأملوه وانظروا في معناه ، وتأملوا في السنة ، فإن النبي ﷺ لما دعا لابن عباس ماذا قال ؟ « **اللهم فقهه في الدين وعلمه** » ؟ التأويل هذه في غير ((**الصحيح**)) ، الذي في ((**الصحيح**)) « **علمه**

الكتاب » . وفي رواية « **الحكمة** » ، يعني علمه القرآن وعلمه السنة وفقّهه ، فجمع بين الفقه وبين ما شاء الله العلم بكتاب الله ، والعلم بسنة رسوله ﷺ .

وفق الله الجميع للخير

ورزقنا وإياكم العلم النافع ، والعمل الصالح

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**

وقول الله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : ٣٠] الآية .

وفي ((صحيح البخاري)) قال علي : حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولهُ ؟

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات - استنكارًا لذلك - فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه . انتهى) .

قال رحمه الله : (**باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات**) ، يتحدث المؤلف ويشير إلى هذا التوحيد العظيم ، وهو توحيد الأسماء والصفات .

وإن كان الكتاب في الجملة الكلام فيه عن توحيد الإلهية ؛ لكن المؤلف أشار إلى هذا للعلاقة بين أنواع التوحيد .

وأنتم تعلمون أن التوحيد ثلاثة :

١ . توحيد ربوبية .

٢ . والألوهية

٣. والأسماء والصفات .

وإن شئت فقل :

- توحيد في المعرفة والإثبات - وهذا يشمل الربوبية والأسماء والصفات-.
- وتوحيدٌ في القصد والطلب ، وهذا توحيد الإلهية .

هذه الأنواع من التوحيد بينها علاقة وثيقة .

فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسيلتان إلى توحيد الألوهية ، ودليلان وبرهانان قاطعان على توحيد الألوهية ، فإن من أقر بتوحيد الربوبية لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية وإلا كان متناقض . ولهذا ربنا عز وجل يستدل على المشركين دائمًا بهذا التوحيد ، يستدل عليهم بما أقروا به على ما أنكروه ، ويبين تناقضهم في هذا الأمر ، كذلك توحيد الأسماء والصفات وسيلة إلى توحيد الألوهية ، فإن من أعظم ما يُعْرف الله تعالى به أن يُعْرف بأسمائه وصفاته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، ثم قال بعدها : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، فذكر بعضًا من صفاته الدالة على قوته وعظمته ، وأن من عَرَف الله تعالى وقوته وعظمته قَدَرَه سبحانه وبحمده ، ومن لا فلا . وقال ﷺ : « **إن لله تعالى تسعةً وتسعين اسمًا ، مائة إلا واحد من أحصاها دخل الجنة** » ، الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة ، ومعنى إحصائها ؟

١. حَفِظَ ألفاظها .

٢. فَهِم ما يفتحه الله عليه من معانيها ، وإلا الإحاطة بمعانيها متعذر .

٣. تَعبَّد الله بمقتضاها .

٤. سأل الله بها .

لأن الله عز وجل يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وقوله : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ يشمل نوعي الدعاء :

١. دعاء المسألة .

٢. ودعاء العبادة .

دعاء المسألة : أن يتوسل الإنسان إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى ، والتوسل إليه بالأسماء الحسنى من أعظم الوسائل ، وينبغي هنا أن يتوسل إلى الله بالاسم الموافق لحاجته ، يقول : يا غفور اغفر لي ، يا رحمن ارحمني ، يا علام الغيوب علمني ، يا رزاق ارزقني ، وما أشبه ذلك .

الثاني : دعاء العبادة وهو عظيم ، وهو أن يتعبد الله بما تقتضيه هذه الأسماء ، وذلك أن كل اسم من أسماء الله له عبودية ، فكون الإنسان يتعرض ويتعبد الله بما تقتضيه هذه الأسماء هذا لا شك من دعاء الله بأسمائه ، وهذا أمر جليل عظيم ، وبه يتفاوت الناس تفاوتًا عظيمًا ، خذ مثلاً:

- يتعرض لاسم الرحيم ، اسم الرحيم يتضمن صفة الرحمة ، وكيف يتعبد الله بهذا الاسم ؟ يتعرض لرحمته بأسبابها ، أسباب الرحمة ، يحرص على رحمة الله سبحانه وتعالى بمعرفة الأسباب المؤدية إلى رحمته سبحانه وبحمده ، كذا المغفرة .

- العلم مثلاً هو سبحانه وتعالى عليم ، وسميع ، وبصير ، كيف يتعبد الله بهذه الأسماء ؟ بمراقبة الله عز وجل ، يعلم أن الله سبحانه وتعالى عليم سميع بصير فيراقب الله سبحانه وتعالى في السر والعلن .
- الحكيم هذا الاسم العظيم ، يَعرف الإنسان معنى الحكيم ، فإن معنى الحكيم يشتمل على:
    - الحكمة ، والحكمة وضع الشيء في موضعه .
    - وأيضًا يدل على معنى الحاكم ، فهو الحاكم على كل شيء سبحانه وبحمده .

كيف يتعبد الله بهذا الاسم ؟ يرى أن كل ما يقضيه الله تعالى ويدبره في هذا العالم ، في الكون كله إلى ما يقضيه الله تعالى عليه هو بنفسه بمقتضى حكمته سبحانه وبحمده ، فإذا عرض له أمر من أمور الدنيا ، أو أصابه أمر من خطوبها ، يستحضر هذا الاسم ، ويعلم أن الله تعالى حكيم ، وأنه قضى عليه هذا الأمر بحكمته ، فيعين هذا على الرضا والتسليم والصبر وانتظار الفرج ، فيرضى ويطمئن ويسكن قلبه وتسكن نفسه ، وهكذا .

لكن هذا الأمر عظيم يحتاج من الإنسان إلى أن يفهمه ، ويستعين بالله سبحانه وتعالى على تطبيقه ، أن يتعبد الله بما تقتضيه هذه الأسماء هذا أمر كبير وأمر عظيم ، وينبغي أن نربي أبناءنا وإخواننا والناس على هذا ، وأدركنا عوام الموحدين ، وأقول : عوام ، عوام الموحدين ترى فيهم أثر هذا التوحيد جليًّا واضحًا ، الواحد منهم تجده مريض على فراشه ربما سنوات ، وتسأله فيقول : من عرف الله – مثل عند العامة ، هذا المثل ما ينبغي أن ينسى – من عرف الله

هانت مصيبته . كان هذا المثل يجري على ألسنة الناس كثيرًا ، تسأله عن صحته يقول : أنا والله كذا وكذا ، أخبار لا شكوى ، ما معنى أخبار لا شكوى ؟ يعني أنا أخبرك ؛ لكني ما أشتكي إليك . وقد سمعت رجلاً من العوام ، عاميٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، حتى القرآن ما كان يقرأه يرحمه الله ؛ ولكنه كان موحدًا ، فسألته عن صحته وكان تنقل به المرض قال : أنا طيب ، أنا آكل وأشرب وأنام ؛ لكني ما أحرك حتى رأسي ، هكذا يقول ، ثم قال كلمة والله إني أغبطه بها يرحمه الله قال : إلا إن الحكيم قال أقعد وقعدت ، بالعامية هكذا ، إلا أن الحكيم قال ، هو لو قال : إلا إن ربي قال لي أقعد وقعدت ، هذه كلمة يقولها كل إنسان ؛ لكن هذا العامي يختار اسم الحكيم ، وهو مطمئن ما كأنه مريض رحمه الله ، يستحضر هذا المعنى أن ما أصابني إنما هو بحكمة من الله عز وجل ، تكفير سيئات ، ورفع درجات ، أمور تخفى على الإنسان الضعيف .

المقصود : أن توحيد الأسماء والصفات توحيد عظيم .

وإذا مرت بك آية من كتاب الله وخُتمت باسم من أسمائه عز وجل فانظر إلى علاقة الاسم بالآية ، هناك ارتباط وثيق بين معنى الآية وبين الاسم ، وإذا مر بك اسمان من أسماء الله عز وجل ، فتأمل العلاقة بينهم ، مثل العزيز الحكيم ، الغفور الرحيم وهكذا ، وفي كتاب الله من الأسماء الحسنى ما لو تأمله الإنسان ونظر فيه وأمعنه وحفظه وفهمه وتعبد الله بمقتضاه لأثرى قلبه بالإيمان واليقين والتقى لرب العالمين .

آخر سورة الحشر ثلاثة آيات فيها أربعة عشر اسمًا ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر : ٢٢] .

وفي سورة الحج في سبع آيات ، وردت على نسق واحد ، كل آية ختمت باسمين من أسماء الله عز وجل ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ [الحج : ٦٠] وعد بعدها ست آيات ، كل آية ختمت باسمين ، ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ ﴾ يعني قد تقول : إن الله لقوي عزيز ، يناسب النصر ؛ لكن الله قال : ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ ففيها حثٌّ على العفو والمغفرة والإحسان ، الآية في مجال العقوبة بين الناس ، يعني إنسان اعتدي عليه فالعدل أن يعاقب ، والفضل أن يعفو ، والظلم أن يزيد ويتجاوز .

هذا الباب باب كبير على كل حال ، والشيخ رحمه الله اكتفى بالإشارة إليه ، وما يورد من الآيات في كثير من الأبواب فيها لا شك إشارة إلى هذا الباب ؛ لكن هذا العلم أُلِّفت فيه كتب وحصل الخلاف فيه في الأمة على نطاق كبير جدًّا . والمنهج كما تعرفون ، منهج سلف الأمة فيه واضح ، وهو التزام كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في هذا التوحيد العظيم ، فيثبتون ما أثبته الله لنفسه ، وما أثبته له رسوله من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تمثيل ولا تكييف ، وينفون ما نفاه الله عن نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله مع اعتقادهم ثبوت كمال ضده لله عز وجل ، هذا منهج واضح بين جلي .

وننظر ماذا قال بعد ذلك ؟ (﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾) قريش لا يكفرون بالله عز وجل ، والعرب بعامة مشركون ، وهم في شركهم يعتقدون أنهم يتوسلون إلى الله عز وجل ، حتى قالوا في أصنامهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، فهم يرون أن عبادة الأصنام توسل واستشفاع بهم إلى الله

عز وجل ﴿ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] ، ومع ذلك قال الله : (﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾) ، يكفرون باسم الرحمن ، في صلح الحديبة لما أراد النبي ﷺ أن يتكتب الصلح قال : « **اكتب باسم الله الرحمن الرحيم** » ، قالوا : لا ، ما نعرف إلا رحمن اليمامة ، ورحمن اليمامة مسيلمة قبحه الله سمى نفسه بهذا الاسم ، قال النبي ﷺ : « **اكتب باسمك اللهم** » ، اسم الرحمن موجود بين العرب في الجاهلية لكن قريش أنفسهم أنكروه ، فقال الله : (﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾) ، دل على أن من جحد اسمًا من أسماء الله فهو كافر .

ويجب أن نفرق هنا بين الجاحد وبين التأويل :

- الجاحد يقول مثلاً : ليس الرحمن من أسماء الله ، فتقول : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] ، قال : ليس الرحمن من أسماء الله ، العزيز ليس من أسماء الله ، الحكيم ليس من أسماء الله ، وتورد له الآيات التي فيها ذكر هذه الأسماء ومع ذلك لا يرْعَوي ، هذا يعتبر مُكذب لكتاب الله عز وجل ، هذا جاحد ، ومنكر ، ومكذب لكتاب الله عز وجل ، فهذا لا شك في كفره .
- وأما ما وقعت فيه الأمة وانتشر بينهم وهو التأويل ، تأويل الصفات ، اليدين إلى القوة ، والنزول إلى نزول الأمر ، والاستواء إلى الهيمنة أو ظهور نوره على العرش أو الاستيلاء وما أشبه ذلك ، فهذا يقول فيه أهل العلم : إن كان التأويل له مساغًا في اللغة فإنه لا يكون كفرا ، أما إذا لم يكن له مساغ في اللغة فهو من الجحود بلا شك .

(**وفي ((صحيح البخاري)) قال علي : حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولهُ**) ؟

قال علي رضي الله عنه والأثر في ((**صحيح البخاري**)) : (**حدِّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولهُ**) ، وفي ((**البخاري**)) أتحبون أن يكذب الله ورسوله .

(**حدِّثوا الناس بما يعرفون**) ليس المعنى أن تحدثهم بشيء يعرفونه سلفًا ، ولكن بما يمكن أن يعرفوه ، وبما يمكن أن تبلغه وتستوعبه عقولهم ، لا تحدثوهم بشيء غريب لا يقبلونه فلا يكتفون بتكذيبك ، وإنما يكذبون الله ورسوله .

ومن البلاغة كما يقول أهلها : أن يكون الكلام مناسبًا لحال المخاطب . فتُكلم كل إنسان بما يمكن ، يعني حتى في الأمور العادية ، يعني بعض الناس يحب نقل الأخبار الغريبة ، مجرد أن يسمع خبراً غريبًا ينقله ، تجد الناس وإن لم يردوا عليه كلامه ما يعبؤون به ولا بأخباره ، ويقولون : ينبغي للإنسان أن يحترم عقله بين الناس . والألسنة كما قلنا : مغارف القلوب ومغارف العقول . فإذا سمعت خبر غريب ، أو قصة غريبة لا تحرص أن تقول هذا للناس ، الناس لن يُكذبوا صاحب القصة الذي أخبرك بها ، وإنما يكذبونك أنت ، هذا في الأمور العادية فكيف بالأمور التي لو حَدَّث بها الإنسان استطال الناس على شرع الله عز وجل ؟ وكثيرًا ما يلجأ بعض الإخوة في الوعظ إلى قصص غريبة جدًّا ربما حتى لا تقبها العقول ، وقصدهم بذلك ترغيب الناس ، والناس بطبيعتهم يميلون للقصص ، فيقول : أنا أذكر هذه القصص من باب التأثير على الناس ، نقول :

وإن كان ، ففي كتاب الله عز وجل وفيما صح من سنة رسول الله ما يكفي وما يغني عن هذه الأمور ؛ لكن لو كانت القصة متأكد منها ، أو شهدتها أنت ، وهي أيضًا ليست غريبة ، حتى لو رأيتها أنت وفيها غرابة احرص على أنك لا تقولها . اثنان قدما قديمًا من الخارج ، ورأوا في الخارج أشياء ما هي موجودة في بلادنا ، الكلام هذا قديم جدًّا ، فكان أحدهم يمشي يقول : أنا رأيت حديد يطير ، وحديد يتكلم ، وحديد كذا ، قال : رأيت طيارات وسيارات ، قالوا : حديد يطير وحديد يمشي وحديد يتكلم ، فلان في عقله شيء ، ذهبوا إلى رفيقه ، وكان رفيقه نبيه ، وسألوه قالوا : رفيقك فلان يقول كذا وكذا ، قال : ما أدري ، ما أدري عن شيء. كون الإنسان لا يدري أحسن من أن يدعي أنه يدري ثم يستخف الناس به وبما يقوله ، فحدثوا الناس بما يعرفونه ، يعني بما تستوعبه عقولهم .

(**أتريدون أن يُكذَّب اللهُ ورسولهُ**) ؟ هذا في مجال الشرع ، وقريبًا من هذا يقول ابن مسعود رضي الله عنه : ما أنت محدثًا قومًا حديثًا لم تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة ، لا قوة إلا بالله ، ولهذا كره الأئمة التحديث ببعض المسائل عند العامة .

وفي هذه الأزمنة تنتشر في وسائل التواصل أشياء عجيبة وغريبة ، وفتاوى عجيبة ، شوشت على الناس كثيرًا ، كثير من العامة من أهل الخير يقول : سمعنا أحدًا يقول كذا ، وسمعنا أحدًا يقول كذا . ينبغي أن لا يحرص الإنسان على المسائل المغمورة والأشياء الغريبة ، وإنما يأخذ بالمسائل الواضحة والمسائل المشهورة بين أهل العلم .

قال رحمه الله : (**وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه رأى رجلاً انتفض لمَّا سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات – استنكارًا لذلك – فقال : ما فَرَقُ هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه . انتهى**) .

يقول : روى عبد الرزاق ، الإمام عبد الرزاق الصنعاني ، وهو شيخ للإمام أحمد ، رحل إليه الإمام أحمد وروى عنه ، (**عن معمر**) وهو شيخ عبد الرزاق بن راشد الأزدي سكن اليمن ، وتوفي بعد الخمسين ومائة ، ربما أربع وخمسين ، (**عن ابن طاووس**) عبد الله بن طاووس وكان ثقة عابدًا – عبد الله هذا – (**عن أبيه**) عن طاووس أبيه أيضًا طاووس اليماني وهو صاحب ابن عباس رضي الله عنهم أجمعين ، (**عن ابن عباس رضي الله عنه أنه رأى رجلاً انتفض لمَّا سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات**) ، انتفض هذا الرجل كون عقله لم يستوعب ما سمع ، سمع شيئًا لم يبلغه أو ما أشبه ذلك .

فقال ابن عباس : (**ما فَرَقُ هؤلاء**) ؟ (ما) هنا يحتمل أن تكون استفهامية ، استفهام للإنكار .

والفَرَق معناه الخوف .

وفي لفظ (ما فَرَّق هؤلاء) ، يعني ما فرقوا بين الحق والباطل ، وتكون (ما) نافية على هذا .

(**يجدون رقة عند محكمه ، ويهلكون عند متشابهه**) وهو يشير هنا الحَبْر رضي الله عنهما إلى قول الله عز وجل : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا

تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : ٧] ، هؤلاء الزائغون الذين يتبعون المتشابه ، يجدون رقة عند المحكم ، ويهلكون عند المتشابه .

والمتشابه كما تعرفون كذا المحكم:

- منه ما هو عام .
- ومنه ما هو خاص .

فالإحكام العام: المذكور في قوله عز وجل : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : ١] ، القرآن كله محكم ، بمعنى أنه متقن ، لا اختلاف فيه ولا تناقض ، عدلٌ في أحكامه ، صدق في أخباره .

وكله متشابه: وهذا التشابه العام أيضًا ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ [الزمر : ٢٣] ، ومعنى كونه متشابهًا أي متشابهًا في الكمال وفي الجودة ، في بيانه ، وفصاحته ، وفي حكمه وأحكامه ، هذا تشابه العام .

ومن التشابه والإحكام ما يكون خاصًّا: وهو المذكور في قوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ ، ﴿ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ المحكمات هن أصل الكتاب الذي يُرجع إليه عند الاختلاف ، والإحكام حينئذٍ والتشابه من حيث المعنى ، فحيث كان المعنى ظاهرًا جليًّا بَيِّنًا فهو محكم ، وحيث كان اللفظ محتملاً يحتمل أكثر من معنى ، ويحتمل ما ليس مقصودًا أيضًا فهو من قبيل المتشابه .

فوجد الزائغون حاجتهم في المتشابه عياذًا بالله ، فأخذوا المشتبهات وتركوا المحكمات ، لماذا ؟ ﴿ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ﴾ يعني ابتغاء فتنة أقوامهم وأتباعهم

ليوهموهم أنهم يأخذون بالكتاب وبالسنة قال الله وقال الرسول ، وهم إنما أخذوا بالمتشابه ، وأنت ترى وتسمع هذا في أهل البدع جليًّا واضحًا ، يستدل على بدعته ببعض الآيات التي الاحتمال فيها بعيد جدًّا ، ويترك الآيات التي هي كالشمس في دلالاتها ، فلو رد المتشابه إلى المحكم أَحْكَم ، وصار القرآن كله عنده ماذا محكمًا ؛ لكنه ترك المحكمات وأخذ بالمتشابهات لأنه زائغ ، ولهذا يقول العلماء : ينبغي للإنسان أن ينظر في الدليل قبل أن يحكم ، حتى يكون الحكم تابعا للدليل . أما إذا أخذ بالحكم قبل الدليل فتجده يبحث عن الدليل الذي يتفق مع هذا الحكم الذي أخذ به ، ولهذا احرصوا دائمًا على أن الإنسان إذا أخذ حكمًا يكون معه دليل ، الناس يفرحون إذا قلت : قال الله ، حتى العوام ، إذا أوردت الحكم بدليله العامي ينشرح صدره ، ويعرف أنك تتكلم عن علم ، ثم أيضًا إذا واجهت إنسانًا يقول ويقول وأقمت عليه الدليل ، فإنك تخصمه بقول الله تعالى وبقول رسوله ﷺ .

قال رحمه الله : (**ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾**) .

إذًا قريش يكفرون باسم الرحمن ولا يكفرون بالله ، وهم على كل حال كفار ؛ لكن قضية إيمانهم بأن الله سبحانه وتعالى موجود لا شك هذا معروف ، وإيمانهم بتوحيد الربوبية أيضًا معروف .

أما توحيد الأسماء والصفات العرب كانوا فيه مضطربين ، فبعضهم ينكر بعض الأسماء مثل قريش ، وبعضهم يقر بها .

والزهيري ماذا يقول ؟

ولا تكتمن الله ما في قلوبكم ** ليخفى فمهما يكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ** ليوم الحساب أو يعجل فينقم

فهو مقر بعلم الله عز وجل ، ومقر أيضًا بالبعث ، ولهذا قال ولده كعب رضي الله عنه وقد أسلم : لو أدرك أبي الإسلام لأسلم .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : عدم الإيمان بشيء من الأسماء والصفات) .

يعني بيان ذلك ، أو بحث هذا الموضوع .

(**الثانية : تفسير آية الرعد .**

الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع .

الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ، ولو لم يتعمد المنكر)

.

البخاري له ترجمة في هذا الباب قال : باب من ترك الاختيار مخافة أن يَقْصُر فهم بعض الناس فيقع في فيما هو أشد أو كلامًا نحو هذا .

يعني الإنسان يترك أحيانًا بعض المسائل مخافة أن يقصر فهم الإنسان عنها فيهلك ولا قوة إلا بالله ، ويكذب الله ورسوله .

قال رحمه الله : (**الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك ، وأنه أهلكه**) .

هل معنى ذلك أنه يترك التحديث مطلقًا ، أو أن طالب العلم يحدثهم شيئًا فشيئًا ؟ على كل حال لكل مقام مقال .

فيحدث طلاب العلم بما يناسبهم ، ويحدث العوام بما يناسبهم ، ولا يعني هذا ترك شرع الله من أجل أن أناسًا سوف يستنكرونه ؛ ولكن يُعَلَّمُون بالتدريج شيئًا فشيئًا إن كان لهم فائدة في أن يتعلموا هذا الأمر ، وإلا لا حاجة أن يذكر بينهم .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ [النحل : ٨٣] الآية .

قال مجاهد ما معناه : هو قول الرجل : هذا مالي ورثته عن آبائي .

وقال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا .

وقال ابن قتيبة : يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا) .

(**باب قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾**) ، المؤلف رحمه الله في هذا الباب وأبواب بعده يتحدث عن ما يجب أن يكون عليه المسلم وهو التأدب مع الله عز وجل ، وأن الألفاظ الشركية الخفية تجري على ألسنة الناس ، وإذا قالها الإنسان فإنه يقع في نوع من أنواع الشرك كما ذَكر في هذه الآثار التي أوردها عن بعض السلف ، وكما يأتي في الباب الذي بعده .

قال تعالى : (**﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾**) ، هذه الآية في سورة النحل وتسمى سورة النِّعَم ، تأمل السورة وانظر ماذا فيها ؟ ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ ﴾ [النحل : ٧٠] ، ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ ﴾ [النحل : ٧٨] سردٌ لنعم الله سبحانه وتعالى على العباد ، حتى قال فيها : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل : ٥٣] ، ﴿ مِنْ نِعْمَةٍ ﴾ نكرة في سياق النفي وقد جُرَّت بـ (من) ، والنكرة

إذا جرت بـ (من) تكون نصًّا في العموم ، يعني ما تقبل تخصيص أبدًا ، لا يمكن أن تخصص منها شيء ، كل النعم فهي من الله عز وجل .

المؤلف في هذا الباب قدس الله روحه :

- يريد أن يغرس في قلب المؤمن أن ما به من النعم فهي من الله عز وجل ، فهو لا يزال شاكرًا لله عز وجل ، مثنيًا عليه في كل أموره وأحواله .
- ثم يريد أن يبين أيضًا البُعد عن بعض الألفاظ التي يقولها بعض الناس ، والتي قد تُخِلُّ بتحقيق توحيده ، فإن من تحقيق التوحيد الاحتراز عن مثل هذه الألفاظ .

قال تعالى : (﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ﴾) ويعرفون أنها من الله ، فإن المشركين في الجاهلية معترفون بأن رزقهم من الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] . إذا كنتم مُقِرِّين بهذه الأمور كلها وجب عليكم أن تتقوا الله عز وجل للتلازم بينها ؛ لأن من أقر بها لزمه أن يقر بتقوى الله وعبادته سبحانه وبحمده .

الشاهد : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ ، فهم يعرفون نعمة الله ولكنهم ينكرونها ، بمعنى أنهم يجحدون النعمة :

- فربما أضاف النعمة لغير الله عز وجل ، كما قال قارون لما قال له قومه : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۞ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۞ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [

القصص : ٧٦ – ٧٨] . يقول : هذا المال إنما جاء بسبب معرفته بوجوه المكاسب وطرق التجارة وما أشبه ذلك ، فأضاف النعمة إلى نفسه .

- ربما يعرف النعمة ويعترف بها ؛ لكن يضعها في غير ما يحب الله عز وجل ، وهذا أيضًا من عدم شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه .

ولهذا كان هذا الباب له صلة بتوحيد الربوبية وبتوحيد الألوهية :

- **فوجه صلته بتوحيد الربوبية** من حيث إضافة النعم إلى الله عز وجل .
- **ووجه صلته بتوحيد الألوهية** الشكر ، فإن الشكر نوع من العبادة ، فمن شكر الله عبده ، ومن لم يشكر الله عز وجل وجحد نعم الله عز وجل فلم يعبده .

ولهذا يقول العلماء في تعريف الشكر ، وهذا تعريف الشيخ محمد رحمه شيخ يعتني بالتعريف عناية جيدة يقول في تعريف الشكر : القيام بطاعة الله عز وجل ، نطقًا باللسان ، واعترافًا بالقلب ، وعملاً بالجوارح .

معناه أن الشكر له أركان ثلاثة ، و هي :

١. اللسان .

٢. والقلب .

٣. والجوارح .

كما قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ** يدي ولساني والضمير المحجب

يدي يشير بهذا إلى الجوارح ليس اليد فقط ، ولساني والضمير المحجب

فيشكر الله عز وجل بالاعتراف ، ويشكره تعالى بنسبتها إليه ، إذ ليس كل من اعترف بالنعمة نسبها إلى الله عز وجل ، فقد يعترف بها في قلبه ويجحد بلسانه ، ويضعها فيما يحب الله عز وجل ، وهذه أركان للشكر ثلاثة ، وهي :

١. الاعتراف بالنعمة .

٢. نسبتها إلى الله عز وجل .

٣. وضعها فيما يحب ربنا عز وجل .

أما كون الشكر باللسان فدليله:

- الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **إن الله ليرضى عن العبد يأكل أكلته فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها** » .

وأما العمل:

- قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] .
- وقال تعالى في آية البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] .
- وقال في آية المؤمنون : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

العلاقة بين الآيتين ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ ، وهناك قال : ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ ، أن الشكر المذكور في آية البقرة هو بالعمل المذكور في آية المؤمنون .

مهما شكر الإنسان فلن يحصي ثناءً على الله عز وجل ، وفي الدعاء المأثور « **اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وبك منك ، لا**

أُحصي ثناءً عليك » ، لأن نِعم الله لا تُعد ولا تحصى ، وإذا كانت لا تحصى فالثناء عليه أيضًا لا يحصى .

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ❊❊ علي في مثلها يجب الشكر

فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله ❊❊ وإن طالت الأيام واتصل العمر

ومعنى هذا البيت :

الشكر نفسه نعمة ، والنعمة تحتاج شكر ، ثم الشكر نعمة واحتاج إلى شكر ، وهلم، يتسلسل ، فإذًا لا يمكن للإنسان أن يحصي ثناءً على ربه سبحانه وبحمده .

ذكر هنا بعض المقالات المأثورة عن السلف حول تفسير هذه الآية .

الأثر الأول : أثر مجاهد بن جبر .

وأود عندما تمر بنا هذه الأسماء الجميلة ، هؤلاء أعلام ، أعلام السنة ، أعلام السلف والتابعين رحمهم الله ورضي عنهم ، ارجعوا إلى التراجم ترجع إلى التراجم ، ما شاء الله في جيبك ، في لحظة ترجع إلى الترجمة ، إما إلى ((**البداية**)) كما قلت لكم لابن كثير ، أو ((**السير**)) للذهبي رحمه الله .

فمجاهد ابن جبر رحمه الله ورضي عنه صاحب ابن عباس ، والذي قال : عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات ، أُوقفه عند كل آية ، وأسأله عنها . ولهذا روي عن بعض السلف إذا جاء التفسير عن مجاهد فحسبك به .

وماذا يقول مجاهد هنا ؟ (**قول الرجل : هذا مالي ورثته عن آبائي**) ، هذا الكلام يحتاج إلى تفصيل :

- فإن قاله هذا الرجل مخبراً لا متناسيًا فضل ربه وإحسانه حكم هذا جائز ، يعني أحد معه كتاب فقيل له : من أين لك هذا الكتاب ؟ فقال : والله هذا الكتاب ورثته عن أبي رحمه الله ، فلا بأس به ، ما دام المقصود الخبر .
- أما إذا قاله مضيفًا إلى هذا السبب متناسيًا المسبِّب لهذا السبب ، فهذا الذي عناه مجاهد رحمه الله ، وهذا نوعٌ من الشرك الأصغر .

وكان يُفترض أن يحمد الله عز وجل إذ أنعم عليه وعلى آبائه ، أنعم الله على آبائه فملكوا هذا المال ثم ورثه عنهم ، فالنعمة على الآباء وعلى الأبناء والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء ، ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ﴾ فدل على أن النعمة على الآباء نعمة على الأبناء أيضًا . أما إذا قال هذا الكلام : ورثته عن آبائي ، غافلاً ومتناسيًا المنعِم والمتفضل فهذا كلامٌ خطير ، وسيأتينا إن شاء الله في قصة الثلاثة الأقرع والأبرص والأعمى ، وكيف أن الأقرع والأبرص لما جاءه الملك في صورته سابقًا يسأله شيئًا مما أعطاه الله قال : كأني أعرفك ، ألم تكن كذا وكذا وكذا ؟ قال : إنما ورثت هذا كابرًا عن كابر . هذا الجحود .

والناس في علاقتهم ببعض :

- منهم من يعترف بمعروف غيره وإحسانه ، وهذا المتعين ، وقد ورد في ((السنن)) عن أبي داود « **من أُبلي فذكره فقد شكره ، ومن كتمه فقد كفره** » ، يعني من أُنعم عليه بنعمة فذكرها مثنيًا على من اسدى إليه فقد شكر .

- وإن كتمها – **النوع الثاني** – : يكتم ثناء الناس إليه ومعروفهم ، وإذا سئل كتم ذلك .
- وقد توجد فئة من الناس تقلب القضية ، لا يعترف بمعروف هذا الشخص ، يكون هو المحسن ، وهذا أعوذ بالله ما يحصل إلا من لئيم .

المقصود : أن الإنسان دائمًا يستحضر نعمة الله سبحانه وتعالى عليه ، وهذا لا شك من كمال توحيده .

(**قال عون بن عبد الله : يقولون : لولا فلان لم يكن كذا**) .

(**قال عون بن عبد الله**) عون هو: عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي ، عبد الله بن مسعود عم أبيه ، عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعتبة أخو عروة ، وعبد الله بن مسعود ، وأيضًا مسلم رضي الله عنهم وأرضاهم جميعًا من الصحابة .

وعون هذا ثقةٌ عالمٌ عابد ، توفي قريب من العشرين ومائة ، وله أخ ، هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، وعبيد الله أحد فقهاء المدينة السبعة ، لهذا أقول لكم : عندما تمر هذه الأسماء ارجعوا إليها .

الشباب دائمًا يقولون : نريد ونريد كذا وكذا . هؤلاء سلفنا وقدوتنا ، هؤلاء أعلام أهل السنة ، عبيد الله بن عبد الله أحد فقهاء المدينة السبعة .

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر ** روايتهم في العلم ليست بخارجة

فقل هم عبيد الله عروة قاسم ** سعيد أبو بكر سليمان خارجة

من هؤلاء السبعة ؟:

١ . عبيد الله هذا أخو عون .

٢. وعروة بن الزبير .

٣. والقاسم بن محمد بن أبي بكر .

٤. وسعيد بن المسيب .

٥. وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

٦. وسليمان بن يسار ، وكان مولى أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها ، وأخوه عطاء أيضًا من ثقات التابعين عطاء بن يسار .

٧. وخارجة بن زيد بن ثابت الصحابي ، والده زيد بن ثابت رضي الله عنه وأرضاه .

يقول عون بن عبد الله : (**يقولون : لولا فلان لم يكن كذا**) ، الشيخ سليمان يقول نصه لفظه ، والأثر عند ابن جرير وابن أبي حاتم والمنذر : (لولا فلان لم يصبني كذا ، أو لأصبت كذا) . هذا أيضًا من الذهول عن النعمة ، ومثل هذا يقال فيه ما قيل:

- إذا أضاف الأمر إلى السبب دون المسبِّب له وهو الله عز وجل ففيه محظور .
- أما إذا قالها مستشعرًا المسبب له وهو الله عز وجل فقال بعض أهل العلم بجوازه .

لكن مثل هذه الألفاظ هي من قبيل الأمور الخفية التي تتسلل إلى القلب ، وسيأتينا في أثر ابن عباس (الشرك أخفى من دبيب النمل أو النملة على صفاة سوداء في ظلمات الليل) نملة وسوداء وصفاة وليل ، تدب فيه هذه النملة هل يشعر بها أحد ؟ لا يشعر بها أحد ، كذلك الشرك الخفي يدب إلى الإنسان دبيب النملة ، وقد لا

يشعر به . ولهذا تجد الشرك الأصغر كثيرًا ما يكون في الألفاظ التي تجري على ألسنة الناس ، قال ﷺ : « **لولا أنا** » في أبي طالب « **لكن في الدرك الأسفل من النار** » ، « **لولا أنا** » ، ابن القيم يقول في الصحابة رضي الله عنهم :

ولولاهم كادت تميد بأهلها ** ولكن رواسيها وأوتادها هُمُ

ولولاهم كانت ظلامًا بأهلها ** ولكن هُمُ فيها بذور وأنجمُ

(لولا هم): فعندما يذكر الإنسان هذا الأمر ملتفتًا قلبه إلى المتسبب به يكون لا بأس بهذا .

ولعله مر بنا الحديث عن الأسباب ، أو قول أهل العلم :

- إن من اعتقد سببًا لم يثبت لا شرعًا ولا حسًّا فإنه يكون من الشرك الأصغر ، إلا إذا كان هذا السبب وهميًّا خفيًّا ، كمن يتعلقون بالأموات ، ويعتقد أن هذا الميت المدفون من سنين متطاولة سببٌ يحصل له به تفريج كربات ، ويحصل له به سعة في الرزق وما أشبه ذلك ، فإن هذا لا شك من الشرك الأكبر ، حتى لو سموه سببًا ، فهو سببٌ وهميٌّ باطل .
- أما السبب الشرعي أو السبب الحسي فلا إشكال فيه ، كالأدوية مثلاً هذه أسباب حسية ؛ لكن الإنسان عندما يستعمل الدواء ما يقول : لولا الدواء لاستفحل بي المرض ، ما ينبغي هذا ؛ لأنه يُخشى من دبيب النمل ، أن يتسلل إليه الشرك الخفي كدبيب النمل الذي لا يشعر به .

الطالب: بعض الناس يقول عن الدواء : (وحدة بوحدة).

الشيخ: على كل حال إذا نظر إلى السبب دون المسبب هنا الإشكال ؛ لكن إذا نظر إلى السبب وقلبه متعلق بربه سبحانه وتعالى فيرجع أن لا بأس بهذا مع الحذر من مثل هذا .

قال : (**وقال ابن قتيبة : يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا**) .

ابن قتيبة عندما يذكره أهل السنة يعرفون قدره وشأنه رحمه الله تعالى ، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينَوَرِي ، ولد سنة مائتين وثلاثة عشر ، توفي ست وسبعين ، يعني ثلاث وستين سنة رحمه الله ، أديب ، وخطيب ، ومحدِّث ، ومؤرِّخ ، وله في الأدب كتب ((**عيون الأخبار**)) ، ((**أدب الكاتب**)) ، وقد عُرف رحمه الله بالذَّبِّ عن السنة والدفاع عنها ، ويقولون : هو عند أهل السنة كالجاحظ عند المعتزلة ، الجاحظ عند المعتزلة أديبهم ؛ لكن عند أهل السنة ابن قتيبة أديب ومحدث .

يقول ابن قتيبة رحمه الله: (**يقولون : هذا بشفاعة آلهتنا**) ، وهذا ما يقوله إلا المشركون ، وهذا كفر بواح ، قالوا : (**آلهتنا**) ، أقروا أن لهم آلهة سوى الله عز وجل . لكن كيف يقولون : (**هذا بشفاعة آلهتنا**) ، وهم يعتقدون أن الرزق من الله ؟ يقولون : نعم ، الرزق من الله لكن جاءهم بشفاعة الآلهة ، لأن هذه الآلهة وسيلة كما قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] ، ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ [يونس : ١٨] . إذًا المشركون في الجاهلية لا يعتقدون أن الآلهة تنفع وتضر ، إذًا لماذا يعبدونها ؟ الجواب: لأنها تشفع لهم في زعمهم إلى الله عز وجل ، وهذا

ما وقع فيه عُبَّاد القبور ، كل شيء جعلوه للقبور الدعاء والاستغاثة والاستعانة والذبح وكل شيء ، ويقولون : هذه وسيلة ، نحن ما نعبدهم لكنها وسيلة .

هذه المقالات لهؤلاء الأعيان والأعلام من السلف هل فيها اختلاف ؟ يعني قول مجاهد وقول عون بن عبد الله هل فيها اختلاف ؟ الجواب: لا ، فهو تفسير للآية بذكر بعض الأمثلة فيكون من قبيل اختلاف التنوع .

قال رحمه الله : (**وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه « أن الله تعالى قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر » . الحديث وقد تقدم - : وهذا كثير في الكتاب والسنة ، يَذُم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به**) .

شيخ الإسلام رحمه الله ذكر حديث زيد بن خالد قد مر بنا ، صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف قال : « **أتدرون ماذا قال ربكم** » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . - مر بنا الحديث - قال : « **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب** » . ومر بنا أن مثل هذا المقال من الشرك الأصغر ، أنه قال : « مطرنا بنوء » ، والباء سببية ، ما يقولون مَطَرَنا النَّوْء ، لا ؛ لكنهم يرون أن النوء سبب ولم يجعل الله تعالى النوء سببًا ، فأثبتوا سببًا لم يثبت شرعًا ، ولا قدرًا فكان من قبيل الشرك .

يقول شيخ الإسلام : (من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به) . فإضافة النعمة إلى غير الله عز وجل باعتبار أنه سبب دون المسبب لها وهو الله عز وجل ، هذا نوع شرك أصغر ، فتحقيق التوحيد إذًا إضافة النعمة إلى الله عز وجل ، هذا من الله .

وإن أردت أن تذكر السبب فالأولى أن يقول : هذا من الله (ثم) ، لأنها تدل على الترتيب مع التراخي ، ولا يعطف على الله عز وجل بالواو كما سيأتينا إن شاء الله .

أو يضيفه إلى السبب فقط متناسيًا المسبب به سبحانه .

قال رحمه الله : (**قال بعض السلف : هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقًا . ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير**) .

الشيخ رحمه الله يذكر جملة من الأمثلة ، وقال بعض السلف : (**هو كقولهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقًا**) ، يعني كانوا على سفينة ، وكانت الرحلة طيبة فقال بعضهم : (**كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقًا**) ، لا شك أن الريح تعين في جر السفينة ، هذا في السفن الشراعية القديمة لا شك ؛ وكذلك في السفن الحديثة تستفيد من الريح ، إذا كانت الريح عكس اتجاه الباخرة أو السفينة ، تتعثر كثيرًا وتنقص سرعتها ، وإذا كانت الريح معها تساعدها بلا شك .

المقصود : أن هؤلاء أضافوا راحتهم في رحلتهم إلى الريح وإلى الملاح قائد السفينة أو ربان السفينة ، وهذا إن قصدوا أن الريح من الله عز وجل ومن تيسيره وتسهيله ، هي أمور خفية لها علاقة بالقلوب ، فإذا قالوا : والله ريح الطيبة والملاح جيد ، وما شاء الله سارت السفينة بسلام ، أو ركبنا السيارة الجو كان ملائم ، والسائق حاذق وكذا ، لكنه في قلبه وفي ضميره أن الكل بتدبير الله عز وجل ، قد يقال هذا من باب الإخبار ؛ لكن يبقى الإشكال هنا فيما إذا ذكر السبب دون المسبب ، غافلاً ذاهلاً ناسيًا إلى آخره ، فهنا الإشكال وهنا يخشى على الإنسان أن يدب إليه الشرك الأصغر دبًّا خفيًّا دون أن يشعر به .

ومراد الشيخ بهذا إضافة النعم على المتفضل بها وهو الله عز وجل ، ومقابلتها بالشكر ، فإن الله سبحانه وتعالى آذن للشاكرين بالمزيد لا باستمرار النعم فقط في قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] . ولما جيء بعرش بقليس عند سليمان قال : ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] .

فهذه النعم ابتلاء وامتحان واختبار ، هل يقابلها العبد بالشكر ؟ أو يقابلها ولا قوة إلا بالله بالجحود ، أو يضيفها إلى غير الله عز وجل ، فلنحرص دائمًا على شكر الله على نعمه .

ومن أعظم النعم : ما أنتم بصدده طلب العلم :

- قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل : ١٥] .
- وقال عز وجل : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

فاستحضر هذه المنة والنعمة من الله عز وجل أن جعلك في هذا الطريق ، فهو طريق الجنة المفضي إلى الجنة ، ما معنى هذا ؟ هي جنة الدنيا ، طلب العلم ، في أول الأمر يكون فيه مشقة وقراءة وفهم وحفظ وكذا ؛ لكن بعدها يجد الإنسان أن هذه جنة الدنيا ، المفضي إلى الجنة « **من سلك طريقًا يلتمس به سهل الله به طريقًا**

إلى الجنة » ، فإذا وهن منك العزم وضعفت منك النفس ، فذكرها أن هذا طريق الجنة فلا محيد ولا محيص عنه ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح والدعوة إليه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها) .

ما معنى وإنكارها ؟ يعني حكم إنكارها ، والألفاظ التي قد تشعر بشيء من عدم الشكر .

قال رحمه الله : (**الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة .**

الثالثة : تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة .

الرابعة : اجتماع الضدين في القلب) .

(**الضدين في القلب**) يعرف النعمة وينكرها ، معترف لكنه ينكر ، فقد يعترف في قلبه وينكر اللسان :

- قال تعالى عن أهل مكة قريش : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، فاجتمع الإنكار والجحود .
- وقال عن فرعون موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، تعرف في نفسك وتعلم أن هذا من الله .
- وقال عن قومه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ﴾ [النمل : ١٤] ، جحود يقين ، فاجتمع الضدان .

وفقكم الله وأعانكم وبارك فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢]**) .

(**باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**) ، ما يزال المؤلف يتكلم عن الألفاظ التي تصدر من الناس ، والتي قد يكون فيها خدش لتوحيد الشخص .

في الباب السابق كانت الألفاظ حول النعمة ونسبتها إلى الله عز وجل ، وهذا الباب أورد فيه المؤلف يعني جملة من المسائل .

ومراده رحمه الله ما أراد في الباب السابق التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ التي تصدر من الإنسان والتي قد تكون من قبيل الألفاظ الشركية ، وذلك أن تحقيق التوحيد لا يتم إلا بالاحتراز من هذه الألفاظ .

وأورد هذه الآية (**﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾**) مع أن هذه الآية في الشرك الأكبر ، ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أنتم تعلمون أن الذي جعل الأرض فراش ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ، هو الله عز وجل وأنتم تقرون بهذا ، فلماذا إذًا تجعلون له أندادًا ؟ وهذا استدلال

بالربوبية على توحيد الألوهية ، إذ أقررتم بهذا الأمر يلزمكم أن تقروا بأن الله هو المعبود وحده ، فشرككم بالله لا شك تناقض منكم .

هذه الآية كما تلحظون في الشرك الأكبر ؛ لكن العلماء رحمهم الله يستدلون بما نزل في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر . ومر بنا حذيفة لما قطع خيطًا كان على إنسان وتلا قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ، مع أن الآية في الشرك الأكبر ؛ لكنهم يستدلون به على الشرك الأصغر أيضًا .

الأنداد كما مر بنا جمع ند ، والند هو الشبيه ، والنظير المناوئ يقولون ، مناوئ يعني معارض ، مخالف ، معادي .

(**قال ابن عباس في الآية : الأنداد هو الشرك ، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن تقول : والله وحياتك يا فلانة ، وحياتي . وتقول : لولا كُليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص . وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت . وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانًا . هذا كله به شرك . رواه ابن أبي حاتم**) .

يقول ابن عباس رضي الله عنهما : (**الأنداد هو الشرك**) ، شركٌ خفي ، وصفه ابن عباس بأنه أخفى من دبيب نملة سوداء ، (**على صفاة سوداء في ظلمة الليل**) وأنى لك أن ترى هذه النملة . وقد حذر منه النبي ﷺ في حديث أبي موسى المخرج في ((**المسند**)) أن النبي ﷺ خطبنا فقال : « **اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل** » ، فقال له من شاء الله أن يقول: كيف نتقيه يا رسول الله وهو أخفى من دبيب النمل ؟ قال : « **أن تقولوا اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك**

بك شيئًا نعلمه ، ونستغفرك مما لا نعلمه » ، النبي ﷺ شبهه بالنمل قال : « **أخفى من دبيب النمل** » ، ومعنى كونه أخفى من النملة ، النملة سوداء في صفاة سوداء في ظلمة ليل أنت لا تراها ، ما وجه الشبه بينها وبين الشرك الخفي ؟ يتسلل إليك وأنت ما تشعر . كلمة يقولها إنسان على لسانه ، وتعرفون آفات اللسان ، وقد يقول الإنسان كلمة يكون بها هلاكه ولا قوة إلا بالله ، (قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته) عندما قالها غَيْرَة ، نهى رجل ثم نهاه ثم قال : والله لا يغفر الله لك . وفي الحديث الآخر : « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يتبين فيها يهوي بها في جهنم سبعين خريفًا** » .

وآفات اللسان المتعلقة بالشرك أيضًا أمرها كبير . ولهذا يحرص الإنسان أن يتجنبها ويدعوا بهذا الدعاء ، وقد أرشد النبي ﷺ أبا بكر في حديث آخر أيضًا إلى مثل هذا الدعاء ، يعني يكون من أدعيتك (اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا لا أعلمه ، وأستغفرك مما لا أعلم) .

(**أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل**) وذكر ابن عباس رضي الله عنهم عدة أمثلة :

- **المثال الأول** : (**والله وحياتك يا فلانة ، وحياتي**) ، هذا قسم بغير الله وسيأتي في الحديث الذي بعده .
- وقول : (**وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص** .
- **وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت**) . وسيأتي له باب مستقل .

- (**وقول الرجل : لولا الله وفلان ، لا تجعل فيها فلانًا . هذا كله به شرك**)

.

إذًا نأخذ (لولا) هذه تقريبًا يعني ذكرت في هذا الأثر وإلا البقية ستأتي ، وقد مر بنا كلمة (لولا):

- أن الإنسان إذا قالها مخبرًا عن السبب لا معتمدًا على السبب أنه لا بأس ، ولكن ما ينبغي أيضًا ؛ لأن الشرك الخفي يتسلل دون أن يشعر به الإنسان ؛ لكن إن قالها ما ينكر عليه ، قد قالها رسول الله ﷺ .
- والكمال في هذا أن يقول الإنسان : لولا الله لحصل كذا وكذا .
- **المرتبة الثانية :** لولا الله ثم فلان ، هذا أيضًا لا بأس به . وإن كان (ثم) حرف عطف ، وحروف العطف كما تعرفون تقتضي التشريك في الحكم ؛ لكن هنا ترتيب ، وترتيب مع تراخي مع بُعد ، فلا بأس .
- **الرابعة :** أن يقول (**لولا الله وفلان**) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، قال ابن عباس : (**هذا كله به شرك**) ، يعني جاء بالواو العاطفة الدالة على التسوية ، ومعروف أن فيها تشريك وتسوية أيضًا ، المعروف أن (الواو) تدل على التشريك في الحكم مع التسوية فيه ، بخلاف (ثُمَّ) فهذا نوع شرك أصغر ، لكن لو اعتقد أن هذا المذكور الذي ذكره مساوٍ لله ، أو أن قدرته فوق قدرة الله ، وهذا ما شاء الله ما يكاد يحصل في ذهن المسلم ، لكن لو فُرِضَ أنه حصل فيكون شرك أكبر ولا قوة إلا بالله . لكنه جاء (بالواو) هنا العاطفة الدالة على التسوية ؛ لكنه لا يعتقد أن هذا الشخص قدرته مساوية لقدرة الله عز وجل .

إذًا عندنا عدة ألفاظ :

١. أن يقول : لولا فلان ، وهذه فيها تفصيل الذي ذُكر .

٢. أن يقول : لولا الله ، وهذا الكمال .

٣. يقول : لولا الله ثم فلان ، وهذا جائز .

٤. أن يقول : لولا الله وفلان ، وهذا الذي نص عليه ابن عباس (**لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص**) ، لولا فلان لم يكن كذا ، وما أشبه ذلك .

قوله : (**لا تجعل فيها فلانًا**) ، تابعة لما قبلها ، يعني قل : لولا الله فقط .

قال رحمه الله : (**وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف بغير الله قد كفر أو أشرك » . رواه الترمذي وحسنه ، وصححه الحاكم**) .

يقول : (**وعن عمر**) ، يقول الشيخ سليمان في الشرح وغيره : صوابه عن ابن عمر .

ولهذا الحديث قصة ، وهي أن ابن عمر سمع رجلاً يحلف بالكعبة (لا والكعبة) ، فقال له منكرًا عليه وأورد الدليل قول النبي ﷺ : (**« من حلف بغير الله قد كفر أو أشرك »**) . روي بـ (أو) ، وروي بـ (الواو) أيضًا . الحلف بغير الله عز وجل لا يجوز بالإجماع يقوله ابن عبد البر رحمه الله تعالى ، يقول : لا يجوز بالإجماع ، والأدلة فيه مستفيضة منها :

١. هذا الحديث ، وهو حديث صحيح .

٢. منها حديث حذيفة « **من حلف بالأمانة فليس منا** » عند أبي داود .

والعجيب أن أناسًا يحلفون بالأمانة يقولون : (بالأمانة) ، أما لو قال: (أمانة) ما يكون قصده الحلف .

وتعريف الحلف: توكيد للمحلوف عليه بذكر مُعَظَّم .

وحروفه كما تعرفون ثلاثة :

١. (الواو) .

٢. و(الباء) .

٣. (والتاء) .

والله ، وبالله ، وتالله .

وأوسعها الباء ، لأنها تذكر مع الظاهر والمضمر ، تقول : والله ، وتقول : الله ربي أقسم به . ويذكر معها متعلقها الفعل ، تقول : أقسم بالله .

وتدخل على لفظ الجلالة (الله) وغيره ، تقول : أقسم بالله ، وأقسم بربي ، وأقسم بالخالق ، وما أشبه ذلك ، فهي أوسع الحروف .

أما أن يؤكد الإنسان الكلام بكلامٍ ليست فيه هذه الحروف فلا يكون حلفًا إلا إذا نوى ، كأن يقول : حلفت عليك ، مع أن هذه حقيقةً الظاهر فيها إرادة اليمين ؛ لكن ثمة جمل أحيانًا فيها معنى التوكيد ، لكن ليست بالأحرف ، يقول أهل العلم : لا تكون يمينًا إلا إذا اقترنت بالحرف .

الحلف بغير الله شرك أصغر ، لكن لو أعتقد أن محلوفه مساوٍ لله عز وجل ، أو أعظم من الله عز وجل فلا ريب أن هذا شركٌ أكبر ، أن يعظم المخلوق كتعظيم الخالق أو أكثر من تعظيم الخالق ؛ لكن هل هذا يقع ؟ الجواب: يقع عند كثير من أهل البدع إذا طلبت منه أن يحلف بالله يحلف ولا يبالي ، وقد

يحلف كاذبًا ، وإذا طلبت منه أن يحلف بإمامٍ أو سيد أو ولي أو ما أشبه ذلك لا يمكن أن يحلف ، لأنه يخاف من سر هذا المدفون لا قوة إلا بالله .

الطالب: بعض الناس يحلف بالله على شيء وإذا أراد أن يؤكد يحلف بأولاده ؟

الشيخ: كأنه أشد ، هذه مشكلة ، يعني كأنه لا قوة إلا بالله الحلف بأولاده أشد من الحلف بالله . والناس يحتاجون توعية في هذا الأمر ، ترك الناس هكذا مشكلة وهؤلاء عوام ، فلا بد من تبصيرهم بهذا الأمر ، وقد ذكر بعض الإخوة أن في قضايا حصلت ويحلف يحلف يحلف فإذا قلت له : احلف بكذا ، توقف ولم يحلف ، تقول له مثلاً : احلف بأولادك ، مع أن هذا ، لكن بعض الناس يقول : أنا أقول له ليتبين الحق ويظهر الحق الذي عنده ، نقول : لا ، لا تكلفه أن يشرك ، لكن لو طُلب منه ذلك ولا قوة إلا بالله وأبى أن يحلف فالمسألة كبيرة ، معناه أن تعظيم هؤلاء عنده أعظم من الرب ، قد يكون الحامل له على أولاده الخوف عليهم ، أنه لو حلف بهم ربما يصيبهم شيء ، وليس أنه يعظمهم فوق تعظيم الله عز وجل . لكن في المقبورين وقد سمعت قصص كثيرة من أناس باشروا مسائل من هذا القبيل ، يرفض أن يحلف بالميت ، ويحلف بالله ولا يبالي .

ورد عن النبي ﷺ في حديث أبي طلحة لما جاء رجل أعرابي من أهل نجد نسمع دوي صوته ، ثائر الشعر ، ولا ندري ما يقول فدنا من النبي ﷺ فإذا هو يسأله عن الإسلام ، فسأله عن الصلاة قال : « **خمس صلوات** » ، قال : هل علي غيرها ؟ قال : « **لا** » ، وسأله عن الصيام ، فقال : « **رمضان** » ، والزكاة ، ثم أدبر وهو يقول : والله لا أزيد على ذلك ولا أنقص ، فقال النبي ﷺ : « **أفلح وأبيه إن**

صدق » . وفي حديث آخر أيضًا سُئل النبي ﷺ عن أعظم الصدقة أجرًا قال : « **أما وأبيك لتنبأنه ، أن تَصَدَّق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر** » ، الحديث « **أما وأبيك** » ، فيستدل به بعضهم على أن الحلف مكروه ، وهذا باطل ، كيف يقول النبي ﷺ : (**« من حلف بغير الله قد كفر »**) .

وفي ((**الصحيح**)) أن النبي ﷺ انتهى إلى عمر وهو يحلف بأبيه ، فقال ﷺ : « **إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت** » . وفي حديث ابن عمر « **إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم** » ، قال : وكانت قريش تحلف بآبائهم فقال عليه السلام : « **لا تحلفوا بآبائكم** » ، فكيف يقال مع هذا : إن هذا الحديث يدل على الكراهة . يعني مراده أن هذا الحديث صرف النهي الوارد في الحديث عن التحريم إلى الكراهة ، الحديث فيه شرك ، ولا يكون شيء من الشرك مكروهًا بحال من الأحوال ، فكيف يجاب عن هذا الحديث « **أفلح وأبيه** » ؟ أجيب عنه بعدة أجوبة :

- بعضهم يقول : هذا تصحيف ، وأصل الكلمة والله ولكن هذا يرده قوله : « **أما وأبيك** » . يقول : تصحيف (أما وأبيه) أصلها (أما والله) .
- وبعضهم يقول : هذه اللفظة ليست ثابتة وإن كان الحديث في مسلم لأن راوي الحديث وهو إسماعيل بن جعفر وردت عنه بغير هذه الزيادة .
- وبعضهم يقول : هذا مما يجري على الألسنة ، وهذا شائع بين الناس وبين المنتسبين من أهل العلم ، يقول : هذا جاري على ألسنة الناس لا يقصدون به الحلف ، كالحلف بالحياة بالشرف وبالنبي سائرة على ألسنة الناس ، وهذا يميل إليه النووي رحمه الله ، ولكن يجاب عن هذا بأن النبي

ﷺ سمع سعد بن أبي وقاص يحلف باللات والعزى ، فقال النبي ﷺ : « **قل أشهد أن لا إله إلا اله ، وانفث على يسارك وتعوذ بالله ولا تعد** » ، وهل قالها سعدٌ معتقدًا لها ؟ لا ، حاشا ، وإنما جرت على لسانه كما كانوا يتعودون في الجاهلية . وقال عليه الصلاة والسلام في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **من حلف فقال بحلفه واللات والعزى فليقل لا إله إلا الله** » ، يعني كالكفارة لها ، وهذا يجيب به أهل العلم على ما ذكره النووي رحمه الله تعالى من أنه لا يصح أن يقال : إن هذا مما يجري على الألسنة . ثم يترك الناس هكذا ، مع أن النووي ما يعتقد الجواز رحمه الله لكن يقولون : هذا يجري على الألسنة ، وبالتالي لا يُحكم بأنه شرك ؛ ولكن هذه الأحاديث تدل على أنه حتى ولو جرى على الألسنة فإنه من قبيل الشرك ولهذا قال عليه السلام : « **فليقل لا إله إلا الله** » ، من قال : واللات والعزى ، وقال لسعد : « **قل أشهد أن لا إله إلا الله وانفث على يسارك** » . يعني هذا من الشيطان .

- **من الأجوبة** أن هذا كان سائغًا في أول الأمر وهو الحلف بالأب ، قول النبي ﷺ : « **وأبيه** » ، أو « **أبيك** » . كان هذا في أول الأمر ثم نسخ ، ولهذا نهى النبي ﷺ نهى عن هذا اللفظ بعينه ، قال : « **لا تحلفوا بآبائكم** » .

فإذًا عندنا تعارض بين الحديثين « **أما وأبيك** » ، و « **أفلح وأبيه** » ، ثم يقول : « **لا تحلفوا بآبائكم** » ، ولا يمكن الجمع بينهما ، إلا على القول بأنه مما يجري على الألسنة وقد تبين ضعفه ، فلن يبقى إلا أن يقال بالنسخ ، قال السهيلي رحمه الله : وعليه أكثر الشراح . القول بالنسخ .

إذًا عندنا عدة إجابات ، لأن هذا يثار إذا رأيت أحد يحلف وعنده شيء من علم يورد عليك هذا الحديث ، والحقيقة أشهر الإجابات جوابان :

الجواب الأول : أنه مما يجري على الألسنة وقد تبين ضعفه بالأدلة الدالة على النهي عنه حتى ولو جرى على الألسنة .

والثاني : أن هذا كان في أول الأمر ثم نسخ بعد ذلك .

(**وقال ابن مسعود : لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**) .

يقول ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه ، عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي الصحابي الجليل ، يقول أحد الصحابة يمكن أظنه أبو موسى لما جاءوا إلى المدينة بقينا فترة نظن أن ابن مسعود من أهل بيت رسول الله ، لكثرة ما يدخل عليه . وقال : أخذت من في النبي سبعين سورة ، أخذها من النبي ﷺ وقال : « **من أراد أن يأخذ القرآن غضًّا كما أُنزل فليقرؤوه بقراءة ابن أم عبد** » ، وقال فيه وقد ضحك الصحابة من دقة ساقيه وهو يجني الأراك قال : « **لهما في الميزان أثقل من جبل أحد** » . وحديث « **كُنَيِّفٌ مُلِءَ علمًا** » ، ولهذا تجد له كلمات فائقة رضي الله عنه وأرضاه ، مثل هذه الكلمة هذه ، قال : (**لأن أحلف بالله كاذبًا أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**) . ويعقد هنا مقارنتين :

المقارنة الأولى : بين حسنة التوحيد وحسنة الصدق .

المقارنة الثانية : بين سيئة الكذب وسيئة الشرك .

تأملوها .

الأولى : حسنة التوحيد وهي الحلف بالله ، والثانية حسنة الصدق حلف بغير الله لكنه صادق .

الثانية : سيئة الشرك وهي الحلف بغير الله وسيئة الكذب ، فأيهما أشد ، أي السيئتين أشد ؟ الشرك لا شك أشد من سيئة الكذب ولو أن الكذب سيئة لكن الشرك أشد منه .

وأيُّ الحسنتين أعظم ؟ حسنة التوحيد أعظم من الصدق .

(**لأن أَحلف بالله كاذبًا**) عندنا حسنة وسيئة ، الحسنة هي التوحيد ، والسيئة هي الكذب ، (**أحبُّ إليَّ من أن أحلف بغيره صادقًا**) عندنا أيضًا حسنة وسيئة ، السيئة الشرك ، والحسنة الصدق ، وفي الحديث فوائد .

هذه المقارنة استفيد منها فوائد ، منها :

١. أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر .

هل هذا بإطلاق ؟ يأتي واحد قال : لولا الله وفلان . وواحد قتل ؟ لا ، من حيث الجنس ، العلماء عندما يقولون : الشرك الأصغر أكبر من الكبائر يعني من حيث جنسه ، أما من حيث الأفراد فقد يوجد من الكبائر ما هو أشد من بعض أفراد الشرك الأصغر .

٢. ومنها : القاعدة الكبيرة الشهيرة وهي دفع أشد الضررين بارتكاب أخفهما . أخذناها من قوله: (أحلف بالله كاذبًا) ، هذا ضرر لا شك ، الكذب ضرر لكنه أهون من أن يحلف بغير الله حتى ولو كان صادقًا .

ويأتي في مسائل الشيخ أيضًا الإشارة إلى أنه أشد من اليمين الغموس .

قال رحمه الله : (**وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء فلان . ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان » . رواه أبو داود بسند صحيح**) .

هذا سيأتي إن شاء الله يعني نظيره في الباب الذي بعد الباب الذي بعده ، في قول الرجل : ما شاء الله وشئت ، والكمال أن يقول : ما شاء الله وحده ، وإن احتاج قال : ما شاء الله ثم شئت ، أما أن يقول ما شاء الله وشاء فهذا تشريك بالمشيئة .

(**وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك . ويُجَوِّزُ أن يقول : بالله ثم بك . قال : ويقول : لولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا ولولا الله وفلان**) .

لولا الله وفلان هذه مرت بنا ، وأعوذ بالله وبك هذه نظير ما تقدم ، والكمال أن يقول : أعوذ بالله وحده ، أو أعوذ بالله ثم بك ، أما أن يقول : أعوذ بالله وبك ، فهذا تشريك بالله عز وجل ، فيه نوع تسوية فيجب التحرز منه .

لكن التعوذ أو الاستعاذة مر بنا في باب (من الشرك الاستعاذة بغير الله) أن الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه جائزة ، ولهذا قال عليه السلام في حديث الفتن : « **فمن وجد فيه ملاذًا فليعذ به** » ، قال : يعذ به .

فدل على أن الاستعاذة إذا لم يكن فيها محظور وفيما يستطيع الإنسان كأن تقول : أعذني يا فلان من كذا وكذا ، شيء يقدر عليه فلا بأس به .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد .

الثانية : أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر .

الثالثة : أن الحلف بغير الله شرك .

الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغموس) .

اختلف في اليمين الغموس :

- فقيل : اليمين الغموس هي يحلف بالله وهو كاذب .
- **والقول الثاني :** هي اليمين التي يقتطع بها مال امرئ مسلم .

وقد ورد في ((**الصحيح**)) أن أعرابيًّا سأل النبي ﷺ عن الكبائر فقال : « **الإشراك بالله** » ، قال : ثم ماذا ؟ قال : « **عقوق الوالدين** » ، قال : ثم ماذا ؟ قال : « **يمين الغموس** » ، قال : وما اليمين الغموس ؟ قال : « **هي اليمين الكاذبة التي يقتطع فيها مال امرئ مسلم** » . فدل على أن اليمين الغموس هي التي يقتطع فيها المال ، لا مجرد الكذب في اليمين ، والمسألة محل خلاف .

(الخامسة : الفرق بين (الواو) و(ثم) في اللفظ) .

لا شك ، (الواو) للجمع مطلق الجمع ، و(ثم) للترتيب مع التراخي .

والفاء للترتيب باتصال ** وثم للترتيب بانفصال

يعني ترتيب مع شيء من البعد والتراخي .

بارك الله فيكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله**

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بالله فليصدق ، ومن حُلِف له بالله فليْرض ، ومن لم يرض فليس من الله »

رواه ابن ماجة بسند حسن) .

هذا الباب تابع للباب قبله ، فبعد أن قرر المؤلف رحمه الله تعالى أن الحلف لا يكون إلا بالله عز وجل ، والحديث في الباب السابق عن الحالف ، أورد هذا الحديث والذي فيه الكلام عن المحلوف له .

والحلف تعظيم لله عز وجل .

وإذا كان الإنسان بيْن أن يحلف بالله ، أو يحلف بالنبي ، والنبي له القدر وله المكانة صلوات ربي وسلامه عليه ؛ لكن لا يجوز أن يصل بتعظيم أفضل الرسل وأكرم الخلق على الله أن يصل بتعظيمه إلى تعظيم الله ، وأن يسوي بينه وبين الله عز وجل في التعظيم ، فلا يجعل نفسه بين الخيارين يحلف بالله أو يحلف بالنبي ، لا ، وإنما يحلف بالله إذ الحلف تعظيم ، والله أولى وأعظم وأحق أن يُعَظَّم سبحانه وبحمده مع ما للنبي ﷺ من العظمة والقدر والمكانة والمنزلة .

ثم هنا مسألة وهي : الإكثار من الحلف ، الإكثار من الحلف وسيأتينا إن شاء الله في الرجل الذي يجعل الله بضاعته « **لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمنيه** » ، وأنه من الثلاثة الذين لا يكلمهم الله إلى آخر الحديث ، فإن الإكثار من الحلف دليل على ضعف تعظيم الله .

وما أَكْثر ما يُكْثِر الناس من الحلف ، حتى إنك تسمع بعض الناس يقول : والله وبالله وتالله . لا إله إلا الله ، ثلاثة أيمان على أمر بسيط سهل ، لا يحتاج إلى حلف .

فالإكثار من الحلف ، بل والحلف على أمرٍ لا يستحق الحلف كله ضعفٌ في تعظيم الله عز وجل :

- فمن يُعَظِّم الله لا يحلف إلا على الأمور المهمة .
- ومن يعظم الله لا يكثر من الأيمان .
- ومن يعظم الله لا يحلف إلا بالله عز وجل .

ثم أورد الحديث (**« لا تحلفوا بآبائكم »**) قد مر بنا ، (**« من حلف بالله فليصدق »**) ، الصدق هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب ضده . والصدق واجب وإن لم يحلف ، قال ﷺ : « **عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا** » ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وتمام الصدق في ثلاثة أمور ، هي :

١. في قوله .

٢. وفعله .

٣. وفي إرادته ومقصده .

تجتمع هذه الأنواع الثلاثة ، فلعل الله أن يكتب العبد في الصادقين .

- ولما ذكر الله الصادقين والصادقات قال : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ، في جملة أوصاف اتصف بها الرجال والنساء .

- ولما ذكر أهل الجنة وأوصافهم قال : ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧] .

- وقال عز وجل : ﴿ قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة : ١١٩] .

فيتأكد على المسلم ، بل يجب عليه أن يتحرى الصدق في كل أحواله وأموره ، وأن يتجنب الكذب حتى في الأمور اليسيرة ، لما قالت امرأة لصبي : تعال أعطك ، قال : « **ماذا تعطيه** » ؟ قالت : أعطيه تمرة ، قال : « **أما لو لم تعطه كتبت عليك كذبة** » .

هذه الأمور يتهاون الناس بها ويتساهلون وقد يحلفون عليها مع أنها ما حلفت ؛ لكنها وعدته ، فلو لم تفِ لاعتبرت كذبة .

فإذا كان الصدق واجبًا وإن لم يكن معه يمين فكيف إذا كان معه يمين ، فيجب عليه أن يصدق ؛ لأنه إن لم يصدق جمع عياذًا بين الكذب على الناس والكذب أيضًا في يمينه .

ثم قال : (« **ومن حُلِف له بالله فليْرض ، ومن لم يرض فليس من الله** ») ، وقوله : (« **فليس من الله** ») من أحاديث الوعيد التي تُجرى على ظاهرها ولا تفسر عند العامة ؛ لكن عند طلاب العلم لا بد من إيضاحها .

فقوله : (« **فليس من الله** ») ، العلماء يقولون : قد برأ الله منه ، يعني برأ الله منه ؛ لكن لا يقال : إنه يكون كافر ، عياذًا بالله كما يقول الخوارج ، لا .

فالمتعين على الإنسان وهذا من باب تعظيم الله عز وجل - وذُكر منذ قليل - الحلف بالله تعظيم ، وعدم الإكثار يعتبر تعظيم ، وعدم الحلف بغيره يعتبر تعظيمًا ، والرضا بالحلف به أيضًا يعتبر تعظيمًا لله عز وجل .

قوله : (« **ومن حُلِف له بالله فليْرض** ») ، حمله بعض أهل العلم على اليمين في الخصومة ، على اليمين في الدعاوى عند القضاة ، تعرفون أن طريق الحكم في القضاء (البينة على المدعي واليمين على من أنكر) كما في الحديث ، فإذا جاء خصمان عند القاضي قال المدعي : لك بينة ؟ فإن أثبت بينته سمع وحكم بمقتضى ما يسمع من البينة .

لو حلف المنكر مع البينة هل نقول : يجب أن ترضى بها ؟ الجواب: لا ؛ لأن هذه اليمين مخالفة لحكم شرعي ، قد لا يلتفت إليها ولا يلزم أن يقول : اترك بينتك وارضَ بيمنه . لكن إذا قال المدعي : ليس عندي بينة ، حينئذٍ يخبره بأن له

اليمين على المنكر ، فيطلب من المنكر أن يحلف ، فإذا حلف وجب عليه الرضا ، تعظيمًا لله عز وجل .

هذا من الناحية الشرعية ؛ لكن من الناحية الحسية لو أنه قال : هذا فاجر ، كاذب ، أعرف أنه يكذب ، أنا واثق تمام الثقة أنه كاذب ، يقال : من الناحية الحسية ما يلزمك أن ترضى ؛ لكن من جهة الشرع يلزمه أن يرضى بذلك . ولهذا في قضية عبد الله بن سهل في القسامة لما قُتل واتهم اليهود بقتله في خيبر ، وجاء أخوه عبد الرحمن ومحيصة وحويصة ابنا مسعود أبناء عمه إلى النبي ﷺ قال ﷺ : « **تحلفون وتستحقون دم صاحبكم** »؟ قالوا : كيف نحلف ولم نرَ ولم نشهد ، قال : « **فتبرؤكم يهود بأيمان خمسين منهم** » ، قالوا : قوم كفار ! ، لم يرضوا بخمسين يمين ، لماذا ؟ قالوا : لأنهم قوم كفار ، مع أن الكافر تقبل يمينه في باب الدعاوى ومع ذلك قالوا : ما نقبل يمينه ، ولم ينكر عليهم النبي ﷺ ذلك .

المقصود : أن من الناحية الشرعية إذا حلف المنكر وجب على المدعي أن يرضى ويسلم بالحكم ؛ لكن من الناحية الحسية له الحق حتى من البداية أن يرفض يمينه .

ولهذا الفقهاء رحمهم الله يقولون : ما يحلف حتى يطالب المدعي بالحلف ، على القول المشهور في مذهب الإمام أحمد ، فلو حلف دون طلب المدعي يقولون ما يعتد بيمنه ، أحيانًا المدعي يقول : لا أنا ما أصدقه ولا أريد يمينه ، وتبقى المسألة معلقة ولم يتمكن من أخذ حقه .

المقصود : أن بعض أهل العلم حملوا الرضا باليمين في باب الخصومات .

ذكر الشيخ سليمان وجده الشيخ محمد بن عبد الوهاب قدس الله أرواحهم ، ونور أضرحتهم ، قال : حدثت عنه – أي عن الشيخ محمد بن عبدالوهاب – أنه قال : هي في الخصومات .

هنا قول ثاني يقول : بل هي عامة في الخصومات وفي غير الخصومات ، إنسان حلف لك بالله ترضى بيمينه . وقد ثبت في البخاري أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً يسرق فقال له : سرقت . قال : لا والله الذي لا إله إلا الله . قال : آمنت بالله وكذبت عيني ، مع أن أول الحديث رآه يسرق ، قال : يسرق . يعني أثبت السرقة ؛ لكن لأن الله عز وجل في قلب عيسى وعقيدة عيسى أجل وأعظم من أن يحلف به كاذبًا . دار الأمر بين أمرين :

١ . إما أن يصدق عينيه .

٢ . وإما أن يصدق الحالف بالله تعظيمًا لله عز وجل .

فآثر أن يصدق الحالف بالله ولهذا قال : آمنت بالله وكذبت عيني .

قالوا : ونظير هذا قسم إبليس لآدم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] . أقسم أنه ناصحٌ له ، وأنهما إن أكلا من الشجرة صارا ملكين ، أو صارا من الخالدين في الجنة ، طمع الأبوان وصدقا إبليس ظنًّا أن أحدًا لا يحلف بالله كاذب ، وهذا الذي يظهر والذي ظنه عيسى عليه السلام ، فدل على أن الرضا بالحلف – مع أن هذه ليس في خصومة ، قول عيسى عليه السلام ليس في خصومة ، المتهم ما وصل إلى القاضي – دل على أن الرضا بالحلف يكون في الخصومة ويكون في غيرها ، وأن الأمر عام يشملها ويشمل غيرها .

إذًا مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد ما هي ؟

أن من تعظيم الله عز وجل الرضا بالحلف به ، حتى لو ظننت أن هذا الذي حلف كاذب ؛ لكن من الناحية الشرعية تعظيمًا لله ترضى ، وإن كنت ربما لا تصدقه حسًّا وفي نفسك أنه غير صادق .

وكذلك بلا شك الصدق في الحلف ، فإذا كان الحلف فقط بالله دون غيره تعظيم ، فإذا كان مع الصدق لا شك هذا يكون تعظيم لله عز وجل .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء .

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى .

الثالثة : وعيد من لم يرض) .

يمكن إضافة مسألة أخرى وهي : أمر الحالف بالصدق .

قال رحمه الله :

(**باب قول ما شاء الله وشئت**

عن قتيلة أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال : إنكم تشركون ، تقولون : ما شاء الله وشئت . وتقولون : والكعبة . فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا : ورب الكعبة . وأن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت . رواه النسائي وصححه) .

(**باب قول ما شاء الله وشئت**) أيضًا هذه من الألفاظ التي تدرج على الألسنة أحيانًا ، وفيها تشريك بالمشيئة بمشيئة الله عز وجل ، وربنا يقول : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ ، فمشيئة العبد تابعة لمشيئة الله لا أنها مع مشيئة الله عز وجل .

(**عن قتيلة**) بنت صيفي الجهنية ، وقيل : الأنصارية .

(**أن يهوديًّا**) قيل هو حبر من أحبارهم .

جاء إلى النبي ﷺ وقال : (**إنكم تشركون**) ، لاحظوا هذا اليهودي يعرف الشرك الأصغر ، ومع ذلك لم يؤمن بمحمد ﷺ ، وسيأتينا كلام المؤلف رحمه الله في المسائل ، فهم الإنسان المسألة إذا كان له هوى ، يعني هو أراد أن يقول : أنتم أيها المسلمون تقولون وتقولون ، وأنتم تشركون ، ثم ذكر مثالين للشرك :

الأول : ما شاء الله وشئت ، يعني الناس يقولون لك : يا محمد ما شاء الله وشئت . فشركوا بينك وبين الله عز وجل في المشيئة .

الثاني : والكعبة ، يعني حلف بغير الله .

فأمرهم النبي ﷺ أن يقولوا : ما شاء الله ثم شئت ، وأن يقولوا : ورب الكعبة . نهاهم ثم ذكر لهم البديل ، وهذه طريقة في شرعنا أن الله عز وجل إذا منع شيئًا

أتى بما يحل محله ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾ [البقرة : ١٠٦] ، ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ﴾ [النحل : ١٠١] . وهذا المنبغي للإنسان حتى في أموره وأحواله ، حتى في علاقاته مع أولاده ، إذا نهاهم عن شيء يفتح باب ثاني ، فإنه إن لم يفتح لم ينتهوا عن الأمر الأول ، سيجدوا صعوبة في ترك الأمر الأول الذي كان يريد أن ينهاهم عنه .

ما شاء الله وحده ، ما شاء الله وشئت ، ما شاء الله ثم شئت ، ما ترتيبها ؟:

١. أكملها : ما شاء الله وحده بلا شك ، وسيأتي لها مثال .

٢. ثم ما شاء الله ثم شئت .

٣. والأخير المنهي عنها : ما شاء الله وشئت .

قد يقول قائل كما ذكرنا منذ قليل : أن (ثم) و(الواو) كليهما حرف عطف ، وكلاهما يقتضي التشريك ؟

فيقال : (ثم) للترتيب ومع التراخي ، وأما (الواو) قد تكون للترتيب وقد لا تكون بحسب السياق ؛ لكن ليس الكلام فيها مطلقًا أن يقال : إنها للترتيب .

ذكروا قولاً لبعض من تقدم نسب إلى أبي جعفر الداودي الجواز بمثل ما شاء الله وشئت مع أن الأحاديث فيها واضحة وبينة ، ويستدل بمثل قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] ، وبمثل قوله عز وجل : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٧٤] ، وبقوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : ٥٩] ، هنا عطف الرسول على الله عز وجل بلفظ الواو ، فما الجواب ؟

أجاب العلماء عن هذا بجوابين :

- **الجواب الأول :** أن هذا كلام ربنا ، وربنا يقول ما شاء ، كما أنه يحلف بما شاء ، فكما أن المخلوق منهيٌّ أن يحلف بغير الله من المخلوقات فإن الله يحلف بما شاء من مخلوقاته ، والحلف بآياته ومخلوقاته تعظيمٌ لها ومن ثَمَّ تعظيم لمن خلقها سبحانه وبحمده . وتعرفون الأمثلة على ذلك سورة الشمس فيها أحد عشر قسمًا ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴾ وَالنَّهَارِ إذا جلاها * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ، إما أن تكن (ما) موصولة والذي بناها هو ربنا ، أو تكون مصدرية أي وبنائي لها ، ﴿ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴾ أي بسطها ، هذه تسع ، ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ صارت أحد عشر قسمًا . يقسم ربنا عز وجل بهذه المخلوقات والآيات العظيمة له سبحانه وبحمده . فنقول : إذا كان يقسم بما يشاء ثم نُهي الناس أن يحلفوا بغيره حتى بأكرم الخلق رسول الله ﷺ فكذلك يقول ربنا عز وجل : ﴿ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ ، ﴿ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ . وينهى الناس أن يقولوا ذلك . إن الذي يخشى من الناس هو التشريك ، يخشى منهم أن يقع في نفوسهم شيء من التشريك بين الله تعالى وبين خلقه في مسألة المشيئة .
- ثم يقال أيضًا : إن قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ . الإتيان نوعان :
  - شرعي .
  - وقدري كوني .

فالقدري إلى الله ، والشرعي إلى النبي ﷺ .

- ثم إن هذا الفعل ليس من واحد ، بل هو متعدد ومتغاير ، ﴿ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ بالإسلام ﴿ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ بالعتق ، فالفعل هنا مختلف ومتغاير ، فلا يمكن أن تقيس عليه قول ما شاء الله وشئت وهي مشيئة ، هي مشيئة واحدة ، والمشيئة في هذا الأمر إنما هي لربنا عز وجل ، ولكن للعبد مشيئة ولهذا ساغ أن يقال: ثم شئت .

المقصود : أن قول الإنسان فيها يخشى عليه من التشريك ، وأما قول ربنا عز وجل فهو يقول ما شاء سبحانه وبحمده .

ثم لا يمكن أن تعطل هذه النصوص ويستدل عليها بمثل هذه الأدلة التي يمكن أن توجه بتوجيه يمكن فيه الجمع بينها وبين ما ورد من النهي عن مثل هذه الكلمة .

الطالب: هل يقال إن قول: (ما شاء الله وشئت) مثل ما مر بنا من قوله (أفلح وأبيه) وأنها نسخت ؟

الشيخ: لا، « **أفلح وأبيه** » قالها رسول الله ﷺ ، أما هذه فهي من الألفاظ الجارية على ألسنة الناس ، فلا يمكن أن يقال هذا كان سائغًا شرعًا الحلف بغير الله كان سائغ ، لكن كونه يصدر من النبي ﷺ لا يمكن أن يقع في نفس أحد أنه يعظم أبا ذلك الأعرابي بحال من الأحوال .

قال رحمه الله : (**وله أيضًا عن ابن عباس أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتني لله ندًّا ؟ بل ما شاء الله وحده »**) .

رجل قال للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت . فقال النبي ﷺ :« **أجعلتني لله عِدْلاً** » ، هذا الذي في النسائي ، وورد « **نِدًّا** » عند ابن مردويه وغيره .

« **أجعلتني لله عِدْلاً** » ، أو « **نِدًّا ؟ بل ما شاء الله وحده** » ، ولم يقل : ما شاء الله ثم شئت ، لا ، مع أن هذا كان سائغ ، وقد أمر بها ﷺ ؛ لكن لما تعلق الأمر به وهو أعظم الخلق تعظيمًا لربه سبحانه وبحمده أرشد إلى الصيغة التي هي الأولى والآكد والأعظم في هذا الباب ، وهي أن يقال : ما شاء الله وحده .

قال رحمه الله : (**ولابن ماجة عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال : رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود ، فقلت : إنكم لأنتم القوم ، لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد .**

ثم مررت بنفر من النصارى فقلت : إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله . قالوا : وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : « هل أخبرت بها أحدًا » ؟ قلت : نعم . قال : فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد ، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله وحده ») .

قال : (**ولابن ماجة**) ، ابن ماجة الإمام المشهور صاحب السنن رحمه الله ، وماجة والده يزيد . وعند المحدثين الأوائل لا تنطق هذه الكلمة بالتاء ، حتى في الوصل لا تقول : رواه ابن ماجةَ . وجوز جمع من المحدثين لاسيما في هذا العصر أن تنطق لأنها أصبحت كالعلم .

(**عن الطفيل**) بن حارث بن سخبرة (**أخي عائشة لأمها**) رضي الله عنه ، قيل : ليس له إلا هذا الحديث .

رأى رؤيا في المنام مر على نفرٍ من اليهود قال : (**إنكم لأنتم القوم**) ، يعني مدح لليهود أهل الكتاب (**لولا أنكم تقولون : عزير ابن الله**) ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] . ثم أتى على نفر من النصارى قال : (**إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله**) ، قال اليهود له : (**وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشاء محمد**) ، أنتم أيضًا تعظمون نبيكم وتُشَرِّكُونه مع الله بالمشيئة ، والنصارى قالوا الكلام ذاته ، وهذه رؤيا .

يقول : (**فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته ، قال : « هل أخبرت بها أحدًا » ؟ قلت : نعم**) . قال : فقام فحمد الله وأثنى عليه . **والحمد هو :** وصف المحمود بالكمال مع المحبة ، بخلاف المدح ، فالمدح ذكر محاسنه ولا يلزم من ذلك المحبة .

(**وأثنى عليه**) ، **الثناء هو :** تكرار المدح .

ثم خطب الناس ، والخطبة لا تكون إلا في أمر ذي شأن ، سميت خطبة من الخَطْب ، ما تكون إلا في أمر له شأن وخطْب .

وقال : (**« أما بعد »**) كثير من الناس الآن يقولون : وبعد ، والذي ورد في النصوص في أحاديث كثيرة أما بعد .

(**« فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا »**) في رواية الإمام أحمد الطبراني « **كان يمنعني الحياء** » . والحياء هنا المراد به يستحي من ربه أن ينكر شيئًا لم يأمره ربه بإنكاره ، وهذا يدل على أن

هذه الكلمة من الشرك الأصغر ، لو كانت شركا أكبرا ما كان يمنعه الحياء من إنكارها أبدًا ، ولهذا ما أن بعث محمد ﷺ حتى نهى الناس عن الشرك الأكبر ، بدأ بالأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك الأكبر مباشرة . أما الشرك الأصغر وشرك الوسائل والألفاظ والشرك الخفي فكان النهي عنها بالتدريج ، وحسب الوقائع .

ثم نهاهم النبي ﷺ أن يقولوا هذه الكلمة ، وأرشدهم أن يقولوا : (**« ما شاء الله وحده »**) ، لماذا لم يقل : ما شاء الله ثم شئت ؟ الجواب: لأنه يريد الدرجة الكاملة صلوات ربي وسلامه عليه . الحديث الأول لما لم يكن الأمر يتعلق به مباشرة قال : « **قولوا ما شاء الله ثم شئت** » ، الكلام عام لأي أحد ، لكن في الحديث الثاني والحديث الأخير في الحديثين كليهما أمرهم أن يقولوا : « **ما شاء الله وحده** » ، وهذا من تعظيمه لله عز وجل ، وهذا الذي ينبغي للموحد أن يعظم الله عز وجل حتى في هذه الألفاظ التي قد يقول : هذه ألفاظ يسيرة وسهلة وكذا ، لا ، ولهذا من ضوابط الشرك الأصغر ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر . فالشرك وإن كان أصغر لكن قد يكون وسيلة إلى الأكبر ، يعني الحلف بغير الله عز وجل شرك أصغر ؛ لكن إذا وصل الأمر بالحالف إلى أن يُعظِّم المخلوق أكثر من الله ، ويأبى أن يحلف بالمخلوق كاذبا ويحلف بالله كاذبا ولا يبالي حينها الأمر وصل إلى الشرك الأكبر ، والذي أوصله هو الشرك الأصغر ، يعني التساهل في هذا الأمر أدى إلى الوقوع في الشرك الأكبر . أيضا الصلاة عند القبر ، النبي ﷺ نهى أن يصلى عند القبر وأن يقعد عليه ، الصلاة في المقبرة عمومًا نهي عنها ، لو صلى إنسان في المقبرة في مكان في المقبرة والذي يسأل عنه أحيانًا يقول : أنا أتيت متأخر أشهد دفن ميت سأصلي في ناحية ليس فيها قبور ، يقال : لا يجوز

الصلاة في المقبرة حتى في المكان الذي لا يقبر فيه لا لأنها شرك أكبر ؛ لكنها وسيلة ، كذلك دعاء الله عند القبر ، يقول لك : أنا أدعو ربي في هذا المكان وأجد قلبي يحضر وأجد خشوع وأجد كذا ، يأتون بمبررات أحيانًا ، فيقال : لا ، اليوم تدعو عند القبر ، وغدًا ولا قوة إلا بالله ربما تتوسل بصاحب القبر ، ثم في النهاية يدعو صاحب القبر ، خطوات الشيطان ، خطوة خطوة ، لا يأتي دفعة واحدة ، يتدرج بالإنسان إلى أن يصل فيه إلى ما يريد منه .

هذه من ضوابط الشرك الأصغر أنها وسيلة للشرك الأكبر ، وقد مر بنا تعريف الشرك الأصغر : ما أتى في النصوص أنه شرك ولم يصل إلى حد الأكبر ؛ لكن التساهل فيه لا شك أنه يؤدي إلى ما هو أشد منه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : معرفة اليهود بالشرك الأصغر .

الثانية : فهم الإنسان إذا كان له هوى) .

هذه لطيفة جدًّا نحتاج إليها كثيرًا ، الإنسان إذا صار له هوى في شيء يعرفه ، بدافع من هواه ، لو كان له هوى وفهم فإننا نأخذ بفهمه الصحيح ، الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها عمل بها . أبو هريرة أخذها من الشيطان ، في قضية التمر ، لما أمسكه في المرة الثالثة قال : دعني فإني أعلمك كلمات ، إذا آويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لا يزال عليك من الله حافظ . عنده خبرة الشيطان بهذا ، يدري أنه إذا جاء عند إنسان وقرأ آية الكرسي ما يقدر يقترب منه ، فالنبي ﷺ قال : « **صدقك وهو كذوب** » ، يعني خذ بما صدق حتى ولو كان له هوى ، وهو له هوى في هذه القضية ، فهو لم يعلم أبا هريرة لله ، وإنما علمه لأجل أن

يخلي سبيله ، في المرة الأولى والثانية ذكر حاجة ومساكين وفقراء ، فتركه أبو هريرة ، لكن في الثالثة وصل إلى التعليم .

الطالب: هل الشيطان يأكل التمر ؟

الشيخ : هذا الذي يظهر ، يقول أُبَي : كانت لي سهوة فيها تمر ، وكان ينقص ، فترصد له فجاء شيطان بصورة قالوا : غلام له شعر ، أو كذا ، فهم لا شك يأكلون ويشربون ، ولهذا النبي ﷺ ماذا قال في العظم ؟ قال : « **طعام إخوانكم من الجن** » .

قال رحمه الله : (**الثالثة : قوله ﷺ : « أجعلتني لله ندًّا » ؟ فكيف بمن قال : يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك . والبيتين بعد**) .

النبي ﷺ أنكر هذه الكلمة لما وُجِّهت إليه مباشرة ، وأرشد إلى الطريق الأمثل فيها ، فكيف بمن خطب النبي ﷺ وقال :

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ** سواك عند نزول الحادث العمم

إن لم تكن في مقامي آخذًا بيدي ** فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ** ومن علومك علم اللوح والقلم

إذا الدنيا والآخرة من جود النبي ﷺ وربنا يقول : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ [الليل : ١٣] ، قال : ﴿ لَنَا ﴾ ، وتقديم الخبر يدل على الحصر ، وهذا الذي ركز في الفطر ؛ لكن نعوذ بالله ، حتى قال في بعضها :

ما سامني الدهر يومًا فاستجرت به ** إلا ونلت جوارًا منه لم يضم

ولا التمست غنى الدارين من يده ** إلا استلمت من خير مستلم

لما سامني الدهر فاستجرت به ، والله تعالى يقول لرسوله : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ [الجن : ٢٢ ، ٢٣] ، لكن غايتي ومهمتي تبليغ الرسالة ، ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ ﴾ كائن من كان ، فسبحان الله تسمع كلامًا مثل هذا ، دعاء واستغاثة ، وهذه أبيات من البردة مشهورة للبوصيري .

الشيخ سليمان أورد بيتا أيضًا قال :

هذه علتي وأنت طبيبي ** ليس يخفى عليك في القلب داء

فليس يخفى على النبي ﷺ في قلوب الناس شيء .

وهذا الغلو الذي حذر منه ، مر بنا « **لا تطروني** » ، « **إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو** ». وللمصطفى القدر الأعلى ، والمحبة التي تفوق محبة المال والنفس والأهل والولد ، وكل ما على وجه الأرض . لكن علامة المحبة هي ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾ [آل عمران : ٣١] . أي أمارة محبة الله اتباع المصطفى ﷺ ، وأمارة محبته أيضًا الاتباع ، أما أن ندعي محبته والاتباع في واد ، والشخص في واد آخر ولا قوة إلا بالله ، فإن الصدق فيما يدعي ، الألفاظ والكلام سهل ، لكن العلم والاتباع هو المحك .

قال رحمه الله :

(**الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر**) .

(**الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي**) .

الرؤيا الصالحة بالنسبة للأنبياء لا شك رؤيا الأنبياء وحي ، ولهذا لما رأى إبراهيم أنه يذبح ولده إسماعيل قال : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، فباشر الذبح عليهم الصلاة والسلام .

(**السادسة : أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام**) .

كما حصل هنا ، نهاهم النبي ﷺ بسبب رؤيا ، وكما في الأذان لما رأى عبد الله ابن زيد الأذان وأخبر به النبي ﷺ ، قال : « **ألقه على بلال** » ، فقد تكون الرؤيا سببًا لتشريع بعض الأحكام ؛ لكن بالنسبة لنا نحن لا يعمل بها الإنسان ولا يعتبرها حكم ، لكن الرؤيا الصالحة لا شك من المبشرات ، وفي الحديث « **لم يبقَ من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو ترى له** » ، يقول أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف رحمه الله ويعده بعضهم في فقهاء المدينة السبعة يقول : كنت أرى الرؤيا فتَمرضني أو تُمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول : كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت النبي ﷺ يقول : « **الرؤيا الحسنة من الله ، فإذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث بها من يحب ، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله منها ولا يحدث بها أحدًا فإنها لا تضره** » . كثير من الناس الآن إذا رأى له رؤيا مزعجة يقلق ويتعب ويضيق صدره ، كما قال أبو سلمة يمرض ، قال : الرؤيا تمرضني . وأبو قتادة الصحابي الجليل يقول : تمرضني أيضًا . حتى سمع هذا الحديث ، انظروا تعظيمهم للاتباع وللسنة فزال عنه ما يجده من الخوف من هذه الأضغاث والأحلام والأغلاط . قال رجل للنبي ﷺ : إني رأيت كأن رأسي قطع فجعلت أشتد سعيًا في طلبه ، قال : « **علام يتحدث أحدكم بتلاعب الشيطان في رأسه** » . ويقال كما في حديث أبي هريرة الرؤيا ثلاث : رؤيا تخويف

أو تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث الناس ، ناس يتحدثون وناموا فرأوا ما تحدثوا به ، ورؤيا صالحة لا تخرج الرؤى عن هذه الثلاث .

١ . إما رؤيا صالحة .

٢. أو مجرد أحاديث تحدث بها الناس وتكلموا بها .

٣. أو تحزين من الشيطان .

وأكثر ما يقلق الناس اليوم هذا النوع إذا رأوا رؤيا مزعجة خافوا وقلقوا ولو طبق السنة لارتاح ، ينفث عن يساره ، يتعوذ ، ينام على الشق الآخر ، في رواية « **فليصل** » ، ثم يترك هذا الأمر .

أما كونه يبحث عن معبرين وأناس لا يحسنون التعبير أحيانًا ، وأناس ثم قد يعبرها بشيء يزيده إزعاجًا ، أنت بين أمرين :

١ . رؤيا صالحة ، حدث بها من تحب .

٢ . رؤيا تكرهها تعوذ بالله منها ولا تضرك .

وفي الحديث « **الحلم على رجل طائر ما لم يعبر ، فإذا عبرت وقعت** » ، الإنسان يبحث عن معبرين يمكن يراه لأجل أن يسمع التعبير إن كانت صالحة فتحدث بها وافرح بها وحدث بها غيرك ، وإلا فاسكت عنها واكتمها وتعوذ بالله منها فإنها لا تضرك ، كلام رسول الله .

وفقكم الله وأعانكم

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

(باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

وفي ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار » .

وفي رواية : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر ») .

هذا الباب أيضًا عقده المؤلف رحمه الله للنهي عن بعض ما يرد على الألسنة ، وهو : سب الدهر .

فإن الإنسان إذا جاء الأمر على خلاف ما يريد ربما يسب الوقت ، يسب الدهر ، ربما يستخدم كلمات نابية ، وهذا موجود على الألسنة ، يلعن الوقت ، يلعن هالساعة ، يلعن هالحال يلعن كذا ، وربما قال : يا خيبة الدهر . وما أشبه ذلك .

وهذا لا شك فيها مخالفة ، والإنسان فيها إما أن يكون :

١ . سابًّا لله .

٢ . وواقعًا في الشرك .

لا بد من أحد الأمرين ، كيف يكون ساب لله ؟

الدهر لا يقدم ولا يؤخر ، وإنما المدبر والمصرف له هو الله عز وجل .

وقد يقع في الشرك إذا اعتقد أو ظن أن الدهر ينفع ويضر ، فهو لن يخلو من أحد الأمرين ، ولهذا نهى النبي ﷺ .

يختلف سب الدهر من حيث الحكم :

١. فأحيانًا لا يكون سبًّا ، وهو ما إذا قال الكلام على وجه الإخبار لا على وجه الإنشاء ، مثل قوله عز وجل عن لوط عليه السلام لما جاءه الأضياف وهم الملائكة ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ [هود : ٧٨] قال : ﴿ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ [هود : ٧٧] .

وقال عز وجل : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ ﴾ [فصلت : ١٦] .

ومثل قول الناس : هذا يوم أسود . هذه موجودة نهار أسود ، يعني يصف الوقت أو يخبر عن الوقت ، هو لا يسبه ، فمثل هذه الكلمات دارجة على الألسنة ولا بأس بها .

الثاني : أن يسب الدهر ؛ لأنه محلٌّ للحوادث ، يعني سبه وكأن هذا الدهر ، بل الدهر محل الحوادث ، إنما تجري الحوادث في الدهر فيسبه لأجل هذا ، وهذا محرم ، ولا يجوز حتى ولو كان الدهر محلاً للحوادث ، فلا علاقة له بالحوادث .

الثالث : أن يسبه معتقدًا أنه فاعلٌ مختار ، ونافعٌ وضار ، فهذا شرك بالله عز وجل .

وهذا يقوله المشركون الدهريون يسمون ، والفلاسفة أيضًا الذين يعتقدون أن الدهر يفعل شيئًا وإلا فمشركو العرب في الجملة لم يكونوا يعتقدون هذا ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ﴾ [يونس : ٣١] . هم يعتقدون أن المدبر هو الله وليس الدهر ؛ لكن من الكفرة من هم دهريون وكذا الفلاسفة أيضًا منهم من يعتقد أن الدهر يحصل الفعل منه وليس به ، هذا لا شك كفرٌ بالله عز وجل .

وساب الدهر يقع في محاذير .

أولاً : أنه سبَّ من لا يُسَب ، وليس محلاً للسب ، وليس أهلاً أن يسب ، فالدهر كله خاضع لله عز وجل ، متذلل له والله تعالى يتصرف به ، فكيف إذًا يُسَب ؟ يقول ابن القيم : فسابه هو الذي يستحق السب وليس الدهر .

ثم من يسبه قد يظن أن فيه شيئًا من النفع والضر ؛ لأن الإنسان إذا دخل في هذه الأمور يستهويه الشيطان ويستدرجه ، يسبه في الأول لا يعتقد أنه ينفع ويضر ، ثم يتدرج به شيئًا فشيء ، حتى يظن أن ما يصيبه من محن الدهر إنما هي منه ، ثم قد يؤدي به في النهاية إلى أن يسب المتصرف به ، وهو الله عز وجل .

يقع في ألسنة الشعراء شيء من التساهل في هذا ، ولا يظن أنهم يعتقدون النافع والضار لا ، هذا بعيد على المسلم ، ابن المعتز الشاعر المشهور يقول :

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحدًا ** فأنت والد سوء تأكل الولد

هل الدهر يبقي على أحد ؟ ابن المعتز له أبيات جميلة جدًّا في العقيدة ، لعلكم تذكرونها .

فواعجبًا كيف يعصى الإله ** أم كيف يجحده الجاحد

ولله في كل تحريكة ** وتسكينة أبدًا شاهد

وفي كل شيء له آية ** تدل على أنه واحد

هذا البيت أشهر الأبيات :

وفي كل شيء له آية ** تدل على أنه واحد

ما يظن أبدًا أنه يعتقد في الدهر شيء ؛ لكن هذا يجري على الألسنة من باب التأذي يعني بما يناله وما يحصل له ، هناك شك أن هذا فيه ضعف في التوحيد .

أبو الحسن التهامي له قصيدة جميلة جدًّا سمعتموها لعلكم ، وهي قصيدة باكية في رثاء ولده ، مطلعها :

حكم المنية في البرية جاري ** ما هذه الدنيا بدار قرار

بينا يُرى الإنسان فيها مخبراً ** حتى يرى خبراً من الأخبار

ومُحَمِّلُ الأيام ضد طباعها ** متلمس في الماء جذوة نار

الأيام ليس لها طباع ، إلى أن يقول :

ليس الزمان وإن حرصت مسالمًا ** خلق الزمان عداوة الأحرار

الزمان يعادي ويصادق يكون لها مبالغات تجري على ألسنتهم ؛ لكن مثل الكلام هذا الموحد يتوقعه ويحذره ويبتعد عنه ، هو يرى أن الزمان محل للحوادث لا علاقة له فيها ، ولهذا لا يتألم منه ولا يتأذى منه ولا يسبه بحال .

في الحديث يقول ﷺ : ((**يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر**)) . ((**يؤذيني**)) سبق أن ذكر ومر بنا في ((**التفسير**)) أيضًا أن الله عز وجل يؤذيه من عصاه ومن كفر به ؛ لكن هل يلزم من الأذية الضرر ؟ لا .

ما الدليل على الأذى ؟ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [الأحزاب : ٥٧] .

أما الضرر في قوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا ﴾ [آل عمران : ١٧٦] .

والحديث « **إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني** » ، فلا ملازمة بين الأذى وبين الضرر .

(**« يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر ، وأنا الدهر »**) ، ما معنى قوله : (**« وأنا الدهر »**) ؟

فسرها عز وجل في هذا الحديث القدسي (**« بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار»**) .

وليس معناه أن الدهر من أسمائه عز وجل ، لا ، كما ذكر ذلك ابن حزم رحمه الله ، ابن حزم يرى أن الدهر من أسماء الله ، وهذا بعيد كل البعد .

أولاً : لأن أسماء الله حسنى قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . والدهر أيُّ حسن في هذا الاسم ؟

٢. وأيضًا أسماؤه سبحانه وتعالى لها معاني جلية واضحة عظيمة ، وهذا اسم جامد .

ولو كان الدهر من أسماء الله لكان قول المشركين في الآية : (**﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾**) . ربما يقول قائل : كان قولهم ماذا ؟ صحيح ، (**﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾**) الدهر من أسماء الله ، ولا يقول بهذا ابن حزم رحمه الله أبدًا ؛ لكن هذا هذا يلزم على كلامه رحمه الله .

إذًا معنى قوله عز وجل : (« **وأنا الدهر** ») . يعني يصرفه ، يدبره ، بيده الأمر فيه سبحانه وبحمده .

وفي رواية « **بيدي الليل والنهار ، أُجِدُّهُ وَأُبْلِيه وأذهب بالملوك** » .

فالمقصود : أن إضافة الدهر إليه سبحانه وبحمده يراد بها أنه الحاكم فيه ، والمتصرف فيه .

في الآية في قوله عز وجل : (﴿ **وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ﴾) . بعد قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾ .

ما هي إلا أرحام تدفع – كما يقولون – وأرض تبلع ، ولا بعث ولا نشور .

قالوا : (﴿ **وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ** ﴾) . قال الله : (﴿ **وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ** ﴾) . يظنون وأباطيل وأكاذيب يقولونها عن جهل لا علم لهم فيها .

في رواية عند مسلم قال : « **لا تسبوا الدهر ، فإن الله هو الدهر** » . كما تقدم ، والحديث يدل على تحريم سب الدهر ، وإذا وصل الأمر إلى أن يعتقد أن الدهر ينفع ويضر ، فإن هذا كما قيل يبعد عن المسلم أن يعتقده .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن سب الدهر .

الثانية : تسميته أذًى الله .

الثالثة : التأمل في قوله : « فإن الله هو الدهر » .

الرابعة : أنه قد يكون سابًّا ، ولو لم يقصده بقلبه) .

النبي ﷺ في الحديث قال : (« يسب الدهر ») . حتى وإن لم يقصده في قلبه ، يعني بعض الناس أحيانًا يعني به خير ، ثم يعرض للشيء فتغلبه الحماقة فيقول كلمة ، وزلات اللسان خطيرة ، قال كلمة أوبقت دنياه وآخرته ، وهو إنما قالها عن غيرة .

ولهذا الواجب على الإنسان : أن يُمسك لسانه عند الغضب ، حتى لا يوقعه الشيطان في زلة ولا قوة إلا بالله توبق دنياه وآخرته .

قال المؤلف رحمه الله :

(باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله » .

قال سفيان : مثل شاهان شاه .

وفي رواية : « أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه » .

قوله : « أخنع » . يعني أوضع) .

هذا أيضًا مما يجري على الألسنة ، وربما على ألسنة طلاب العلم ، وهو قولهم : فلان قاضي القضاة . يعني أعلم القضاة ، وأقضى القضاة ، ليس معناه أنه يقضي بينهم ، لا ، القضاة يقضون بين الناس ، فإذا تسمى ورضي بهذه التسمية لنفسه فهو المقصود هنا .

أما إذا سُمِّي ولم يرضَ بذلك فلا شيء يلحقه ، وهذا الوصف وُجد في المشرق منذ القدم ، ولكن يقول الشيخ سليمان رحمه الله يقول : سلم منه أهل المغرب ، فكبير القضاة عندهم يسمى قاضي الجماعة .

أجاز بعضهم هذا الوصف قاضي القضاة مستدلاً بما روي عنه ﷺ أنه قال : « **أقضاهم علي** » . عن الصحابة ، وما ثبت عن عمر في ((**الصحيح**)) أنه قال : أقضانا علي ، وأقرأنا أُبي .

واستدل على جواز إطلاق مثل هذا اللفظ .

هنا مشكلة دائمًا يقررها العلماء وهي : أن الإنسان يستدل قبل أن يحكم ؛ لكن إذا حكم ثم استدل فربما ولا قوة إلا بالله يغلبه تقليد والعصبية وكذا إلى أن يصر على ذلك الحكم ويذهب يلتمس له دليلاً ، ولو أن يُميل الدليل ويُنَزِّلَه على ما يرى ، وإلا فقوله : أقضاهم علي ، أو أقضانا علي . قول عمر ، هم يتكلمون عن أنفسهم ، الكلام في التفضيل موجه إلى علي في الأخص ، ليس قاضي القضاة ، القضاة هنا (أل) هنا ما هي ؟ استغراقية ، يعني قاضي كل القضاة ، وإنما الذي يقضي بالحق ويحكم به ربنا عز وجل .

ولهذا المؤلف رحمه الله لم يذكر حديثًا في هذا اللفظ ، لأنه ما كان موجود ، لم يكن موجودًا عندهم مثل هذا المصطلح .

وإنما الموجود مثل ملك الأملاك ، شاهان شاه ، هذا عند العجم أيضًا ، قال فيها النبي ﷺ ما قال ؛ لكن يقاس عليه قاضي القضاة .

المبالغة في الأوصاف وفي الأسماء وفي الألقاب ما تنبغي ، ما كنا نعرف مثل هذه المبالغات ، حتى بعضها قد لا يكون ممنوعًا ؛ لكن فيما مضى ما كنت تعرف من المشايخ يستخدمون بعض الألفاظ أو بعض المصطلحات .

ومثله قولهم : فلان سيد الناس . ليس سيدًا أبدًا ، وإنما سيد الناس من ؟ سيد الناس رسول الله « **أنا سيد ولد آدم** » كما قال عليه الصلاة والسلام ، فهو في هذا المعنى .

(« **إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى** ») يعني تسمَّى بنفسه أو سُمِّي فرضي (« **ملك الأملاك ، لا مالك إلا الله** ») .

عندنا ملك ومالك ، وهما قراءتان سبعيتان في الفاتحة .

١. (**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**) وهذه قراءة الجمهور .

٢. ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] .

قالوا في الفرق بينهما :

١. بأن مَالِك اسم فَاعِل من المِلْك بالكسر ، وهو يطلق على مُلك الأعيان ، يعني هذا مالك بيته ، مالك سيارته ، مالك كذا كذا كذا .

٢. وأما الْمَلِك فهو من الْمُلْك ، ويطلق على المعاني ، يطلق على ماذا ؟ على المعاني .

هذا من الفروق اللطيفة التي يذكرونها بين المالك والملك .

إذًا في فرق من حيث الاشتقاق ، وفرق من حيث الإطلاق .

قال : (**مثل شاهان شاه**) . شاهان شاه يعني ملك الملوك ، وإنما ملك الملوك ربنا سبحانه وبحمده .

والملك من أسمائه سبحانه وبحمده ، وملك الملوك لا يتسمَّى به أحد .

وأما الملك فيتسمى به ، ما الدليل ؟ ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، ﴿ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

لكن المحظور أن يقال : هذا ملك الملوك . ليس ملكًا للناس ، لا ، بل ملك الملوك .

وكل هذا من التعاظم تعاظمهم في أنفسهم ، وغلو من حولهم حيث يطلقون عليهم مثل هذه الأوصاف ، فهو وإن سمي ملك الملوك فهو ماذا ؟ (**« إن أخنع اسم عند الله »**) ، ومعنى أخنع يعني أغيظ ، وأوضع ، وأخبث عند الله عز وجل .

هو عند نفسه ملك الملوك وشاهان شاه وعند من حوله بهذا الوصف ؛ لكنه عند الله عز وجل أوضع وأغيظ .

الحديث يدل على تحريم التسمي بهذه الأسماء .

إذًا عندنا هنا ثلاثة أسماء :

واحد منها ورد بالنص وهو ملك الأملاك .

والآخران وردا بالقياس عليه ، إذ لا فرق شاهان شاه مثله ؛ لكن للغة الأعجم ، وكذلك قاضي القضاة ، إذ هو في معناه .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن التسمي بملك الأملاك .

الثانية : إن ما في معناه مثله ، كما قال سفيان .

الثالثة : التفطن للتغليط في هذا ونحوه ، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه .

الرابعة : التفطن أن هذا لأجل الله تعالى سبحانه) .

لأجل الله عز وجل ، يعني النهي عن هذا الاسم لأجل أن هذا الوصف لله سبحانه وتعالى لا يشركه فيه أحد .

قال رحمه الله :

(**باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك**) .

هذه أبواب قصيرة جدًّا ، وبعدها إجازة إن شاء الله ستتوقف خلال الأسبوع القادم والذي يليه ، وتكون البداية في بداية أسبوع دوام العمل ، يمكن يكون يوافق يوم عشرين أظن الأربعاء إذا كان العمل يبدأ يوم الأحد .

((**التفسير**)) يوم السبت بعده ، و((**التوحيد**)) في نفس الأسبوع الذي يُبدأ فيه بالعمل ، يوافق عشرين إن شاء الله ، وهذه الأبواب سهلة .

لا تبخل على نفسك بالعلم ، قال الله وقال الرسول ، ما أحلى أن تزكوا قلوبكم بهذه النصوص .

الإنسان إذا كبرت سنه يقرع أنامل الندم ، ما يندم طالب العلم الكبير إلا على الشباب الذي ضاع في التقصير ؛ لأنه يرى كان في الماضي يقرأ ويحفظ ؛ لكن أحيانًا يمنعه الكسل ، وأحيانًا مشاغل والأعذار في هذا الزمان ؛ لكن كون الإنسان يرتب وقته ويجاهد نفسه ويستعين بربه ، العلم يحتاج إلى إخلاص ، ومن الإخلاص فيه الجِدُّ فيه ، الجِدّ يدل على إخلاص الشخص .

(**باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك**) الواجب احترام أسماء الله ، وتعظيم أسماء الله عز وجل ، ولهذا نهي عن ملك الأملاك ، وقاضي

القضاة ، وما أشبه ذلك احترامًا لأسماء الله سبحانه وبحمده ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ فوصف أسماؤه بأنها ماذا ؟ بأنها حسنى ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [طه : ٨] ، ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الحشر : ٢٤] .

فأسماؤه سبحانه وتعالى حُسْنَى ، حُسْنَى صيغة تفضيل هي أحسن الأسماء ، وإذ كانت بهذه المثابة فالواجب احترامها ، وأن لا تبتذل ، ويسمى بها أحد الناس .

ومر بنا معنى قوله : ﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ . أن هذا يشمل دعاء المسألة ودعاءة العبادة .

دعاء المسألة يتوسل بها .

ودعاء العبادة يتعبد الله ويتعرض لمقتضيات هذه الأسماء إلى الله عز وجل ، وهذا عظيم هذا المعنى .

وأذكركم بأن سبق أن ذُكر من قوله ﷺ في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة** » .

ومعنى إحصائها :

١. ضبط ألفاظها .

٢. وفهم معانيها .

٣. ثم الثالث ما ذكر ، أن يتعبد الله سبحانه وتعالى بمقتضاها .

وليس إحصاؤها مجرد الحفظ كما يظن من يظن ، لا ، إنما إحصاؤها بهذه الأمور الثلاثة .

قال : (**وتغيير الاسم لأجل ذلك**) . يغير الاسم ، والنبي ﷺ غير بعض الأسماء .

١. إما احترامًا لأسماء الله عز وجل كما سيأتي في الحديث .

٢. أو أن فيه بعضها تزكية ، تزكية للنفس .

فغير اسم برة إلى اسم زينب ، وأراد أن يغير اسم حزن جد سعيد بن المسيب .

سعيد من كبار التابعين أبوه وجده صحابيين ، سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي القرشي .

فقال : هذا اسم سمانيه أبي ، أو كذا . يقول سعيد رحمه الله : فما زالت الحزونة فينا حتى اليوم .

والحُزُونة ما هي ؟ ليس الحُزُن ، لا ، الحزونة يعني الصلابة ، والشدة ، والصلف .

يقال : هذا حَزَن من الأرض يعني الصلب من الأرض .

والاسم قد يتأثر به صاحبه ، وإن كان التأثر باللقب أكثر ، ولهذا من حقوق الولد على والديه اختيار الاسم المناسب لهما أو له ؟ إن حصل لهما وله لا شك طيب ، وهذا الغالب ، وإلا ينظر في الاسم المناسب له ، لأنه هو الذي سيحمل هذا الاسم .

وقيل :

وقلَّ أن أبصرت عيناك ذا لقبٍ ** إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

ثم قال : (**عن أبي شريح أنه كان يُكْنَى أبا الحكم ، فقال له النبي ﷺ : « إن الله هو الحَكم ، وإليه الحُكم » . فقال : إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني ، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين . فقال : « ما أحسن هذا ، فما لك من الولد » ؟ قلت : شريح ومسلم وعبد الله . قال : « فمن أكبرهم » ؟ قلت : شريح . قال : « فأنت أبو شريح » . رواه أبو داود وغيره**) .

ما أحسن هذه الكنية ، سيظل يحملها ويفرح بها ؛ لأن من أطلقها عليه رسول الله ﷺ .

(**عن أبي شريح**) واسمه هانئ بن يزيد الكِندي ، وهو غير أبو شريح الخزاعي خويلد بن عمرو رضي الله عنهم أجمعين .

قد قدم مع قومه وافدين إلى النبي ﷺ فسمعهم النبي يدعونه أبا الحكم ، فدعاه وسأله .

(**أنه كان يُكْنَى**) ما الكنية ؟ هي ما صُدِّرَ بأبٍ أو أمٍّ أو ابن ، كابن عمر وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم ، هذا يسمى ماذا ؟ كنية .

والإنسان يكنى بولده الكبير ، هذا الذي أمر به النبي ﷺ أبا الحكم قبل أن يغير كنيته ، فإن لم يكن له ولد ؟ يُكنى بابنته الكبيرة ، لا مانع أن يُكنى بابنته .

١. وقد يُكنى الإنسان بصفة من الصفات ، أبو المكارم ، أبو الفضائل وما أشبه ذلك .

٢. وقد يكنى بشيء يلابسه تذكرون لهذا مثال ؟ أبو هريرة ، لماذا كني بهذه الكنية ؟

قيل : كان يعني عنده هرة ، فسماه النبي ﷺ أبا هريرة أو أبا هر .

٣. وقد تكون الكنية اسمًا تصبح علم، مثل أبي بكر، وليس أبو بكر الصديق، أبو بكر الصديق اسمه قيل عبد الله بن أبي قحافة ؛ لكن أبو بكر في بعض الجهات يسمون باسم مشهور عنده، وليس كنية .

المقصود : أن هانئ هنا رضي الله عنه كان يُكنى بأبي الحكم، فسأله النبي ﷺ، كلامه وتربية وتوجيه، ما قال : غيره . مباشرة، سأل عن سبب التسمية، وكثيرًا ما يعمد النبي ﷺ إلى هذه الطريقة، وهي من تَأَنِّيه صلوات ربي وسلامه عليه .

دخل رجل المسجد وهو يخطب يوم الجمعة وجلس، ماذا قال له ؟ « **أصليت يا فلان** » والرجل الذي كان يختم بأصحابه يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص : ١] ماذا قال ؟ « **سلوه لأي شيء يصنع ذلك** » ؟ ما تكلم معه وأمره، أو نهاه مباشرة .

وكثيرًا ما يقول في تعليمه : أتدري ما كذا وكذا، أيُّ آية أعظم في كتاب الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم – أُبي – قال : « **أيُّ آية أعظم في كتاب الله** » . قلت : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ . إلى آخره، « **أتدري ما حق الله على العباد » ؟** مر بنا « **وما حق العباد على الله** » ؟ وكان رديفه على حمار صلوات الله وسلامه عليه، سأله ثلاث مرات، يسأل ثم يسكت، ثم يسأل ثم يسكت.

فالسؤال فيه إعداد للذهن وتهيئة للنفس لتقبل ما يُلقى من العلم، هذه إذا كان في العلم .

وفيه معرفة حال الشخص الذي لوحظ منه شيء حتى يُتأكد من ذلك الأمر الذي حمله على ذلك، قد يكون مصيبًا أحيانًا، وأنت تظن أنه مخطئ .

قد تلحظ على الإنسان في الصلاة شيئًا ، فالمستعجل يبادر بالإنكار ، والمتأني يسأل ، يعني واحد يضع يده على الأرض مرفقه ، والسنة ما هي ؟ رفع المرفقين ، « **اعتدلوا في السجود ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب** » .

ثم ترى واحد يضع يده تلتفت عليه تقول : هذا خلاف السنة وما ينبغي . ثم يقول : والله أنا في يدي كذا وكذا وكذا . ماذا لو سألته ؟ وهذا الأحسن ، حتى ولو كان الرجل صدر منه هذا الفعل عن جهل ، يكون السؤال مقدمة للتعليم كما كان النبي ﷺ يفعل ، أما أن تنكر مباشرة أو تُعَلِمَه مباشرة إذا أخبرك يقع في نفسك لو أني سألته لكان أفضل .

اللهم اجعل اجتماعنا هذا اجتماعًا مرحومًا ، وتفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا ، ولا تجعل فينا ولا منا شقيًّا ولا مطرودًا ولا محرومًا .

سأله النبي ﷺ فأخبره أن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوا إلي فكمت بينهم فرضي كلا الفريقين ، قال النبي ﷺ : (**« ما أحسن هذا »**) . ما أحسن أن تصلح بين الناس وتفض النزاع ، ويرضى كلا الطرفين ، لأنك في كثير من الأحيان الحكم قد يرضى به طرف ولا يرضى به الطرف الآخر ، مع أن المؤكد على الإنسان إذا حكم عليه بحكم شرعي أن يرضى أن هذا حكم الشرع .

قال : (**« فما لك من الولد »**) ؟ قال : (**شريح ومسلم وعبد الله . قال : « فمن أكبرهم »**) ؟ قال : (**شريح**) . وهذا يدل على أن الواو ليست للترتيب ، كيف ؟ لو كان للترتيب لقال : أنت أبو شريح . أول واحد ؛ لكن احتمال كبير أن يكون هو الأخير .

والواو عند الأصوليين لا تقتضي الترتيب ولا تنافيه إلا بدليل ، لا بد من دليل يدل على أنها لهذا أو لهذا ، ولهذا في قوله عز وجل : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] . الواو للترتيب قطعًا ، لم ؟ لأنه لما ذبح أبو بردة قبل الصلاة قال : « **شاته كشاة لحم** » . فدل على أنها ما تجزئ إلا بعد الصلاة .

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، في السعي يبدأ بماذا ؟ بالصفا ، الدليل ؟ « نبدأ بما بدأ الله به » .

فلا بد من دليل يدل على أنها لهذا أو لهذا .

المقصود : (**« فمن أكبرهم »**) ؟ قال : (**شريح . قال : « فأنت أبو شريح »**) .

وفيه : أن الكنية تكون بالولد الأكبر .

وفيه : اعتبار للكبير وتهيئة له أن يكون بعد أبيه في رعايته إخوانه ، وأن يتحمل مسؤولياته بعد رحيل أبيه .

الشيخ ابن باز الله يرحمه كأنه ضعف متن الحديث ، وذكر أن في الصحابة من اسمه الحكم ، الحكم بن عمر الغفاري ، والحكم بن حزن الكلفي ، حتى قال الحافظ في ((**الإصابة**)) : في الصحابة ثلاثون رجلاً اسمهم الحكم لم يغيرهم النبي ﷺ .

وفي حكيم بن حزام الصحابي المشهور حكيم .

وهذا الحديث في نهي عن التسمي بالحكم ، والله تعالى قال : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٣٥] . سماه حكمًا .

وقد جوز الحديث ابن مفلح رحمه الله ، وصححه الشيخ ناصر رحمهم الله جميعًا .

كيف نجمع بين هذه الأدلة ، النبي ﷺ ما غير ثلاثين اسم الحكم ، وقال لأبي شريح ، أو غير اسم أبي شريح ؟

وهل يجوز التسمي بأسماء الله ؟ هذه المسألة الكبيرة فيها، هناك أسماء لا يجوز أن تسميه بها بحال، مثل : الله ، الرحمن ، الخلاق أو الخالق ، الرزاق ، هذه لا يجوز التسمي بها .

هناك الكثير من الأسماء سمي بها حتى في كتاب الله عز وجل، مثل العزيز ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ [يوسف: ٥١]، مثل الملك كما ذكر منذ قليل ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾، ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾.

فكيف يجمع بين التسمي بأسماء الله عز وجل والنهي عن التسمي بها في نصوص أخرى؟

هناك جمع حسن لبعض أهل العلم بعد أن تستثنى الأسماء السابقة التي لا يجوز التسمي بها بحال دون أن يكون هناك أي تفصيل؛ لكن بقية الأسماء قالوا: إن كان المراد بالتسمية مجرد العلمية فلا بأس.

أما إذا لمح فيها الوصف سميت لأجل الوصف فإنه ينهى عن ذلك.

فتقول لهذا: الحكم. لأنه يحكم بين الناس، لا ينهى، ويسمى الحكم لمجرد العلمية فلا بأس بهذا.

وهذا الجمع لا بأس به، جمع حسن لا شك.

قال رحمه الله: (**فيه مسائل:**

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية).

نسأل الله أن يوفقنا وإياكم للعلم النافع والعمل الصالح، والدعوة إليه، وأن يكلل مسعانا وإياكم بالتوفيق والنجاح

درس ٤١

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول**) .

ما يزال المؤلف يتحدث عن بعض الكلمات التي يتهاون بها الناس وهي من قبيل الشرك .

فإما أن تكون :

- من قبيل الشرك الأصغر ، كما مر بنا في الحلف بغير الله ، وقول ما شاء الله وشئت ، وما أشبه ذلك .
- وإما أن تكون من قبيل الكفر بالله عز وجل .

والإنسان قد يتساهل ببعض الكلام ، ويقول الكلمة لا يفكر بمعناها ولا بعاقبتها ، وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) قال ﷺ : « **إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله تعالى بها درجات ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي بها بالاً يهوي بها في نار جهنم** » .

وفي ((**الصحيح**)) أيضًا « **إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها ، يزل بها إلى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب** » .

يتساهل الناس في بعض الكلمات ويقولونها أحيانًا على سبيل الدعابة ، ولا يدري ما عاقبة هذه الكلمة وما عقوبتها ، ولهذا عقد المؤلف رحمه الله تعالى

هذا الباب تحذيرًا من مثل هذه الألفاظ الخطيرة التي قد يخرج بها الإنسان من الدين وهو لا يشعر .

فقال : (**باب من هزل بشيء فيه ذكر الله**)، ولم يقل : من استهزأ بالله ، أو برسوله ، أو بآياته كما هو نص الآية لأن الحكم في الاستهزاء بالله ورسوله واضح ؛ لكن الإنسان قد يستهزئ بأشياء أحيانًا فيها ذكر لله عز وجل ، أو فيها ذكرٌ لآياته ، أو فيها ذكرٌ للنبي ﷺ فتكون سخريته بها واستهزاؤه بها استهزاءً بالله عز وجل . والسخرية ما تصدر إلا من إنسان لا قوة إلا بالله بذيء اللسان قليل الأدب ، حتى وإن سخر بالناس في أشخاصهم ، فإن هذا محرم ولا يجوز . وقد يسخر من إنسان هو عند الله خيرٌ منه ، والدليل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١١] ، ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ هذه السخرية محرمة وإن لم تكن بالقرآن ، أو بالنبي ﷺ ، أو بآيات الله عز وجل . وأدهى منها وأشد : أن يسخر بشخص لتدينه لا للدين ، يسخر من تدينه ، إما بملبسه ، بهيئته ، فيسخر به من هذه الناحية ، فهذا النوع لا شك أمره خطير وذنبه كبير ، ويُعَلَّم مثل هذا الساب أن هذا الذي تسخر به هو من سنة المصطفى ﷺ ، فسخريتك فيه في النهاية سخرية بالسنة وبالنبي ﷺ ، فإذا عُلِّمَ وعاد وسخر فلم يسخر بتدين الرجل ، وإنما سخر بدينه وهذا هو الأشد والأضر ، السخرية بالدين ولا قوة إلا بالله ، هذه ما تكاد تحصل من مسلم أن يسخر بالدين نفسه ، أما أن يسخر بدين الشخص يعني بتدينه فهذه ترد على الألسنة ، وهذه من

صفات الكفار ، كما قال عز وجل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : ٢٩ – ٣١] ، يتفكهون بالاستهزاء والسخرية بالمؤمنين ، وقال تعالى : ﴿ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٠ ، ١١١] ، بعد أن ذكر عقوبتهم الشديدة ، وأيضًا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾ [الكهف : ١٠٦] . هذا استهزاء بالآيات واستهزاء بالرسل ولا قوة إلا بالله ، وهؤلاء الذين ذكر جزاؤهم في الآية ، وهذا ما يصدر إلا من كافر ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ [الزمر : ٥٦] .

المقصود : أن هذا الأمر خطير ويحصل تساهل فيه كثير ، يسخر بلحية هذا ، يسخر بثوب هذا ، يسخر بكذا وبكذا وبكذا :

- فإن كانت السخرية بالشخص فهذا محرم ولا إشكال فيه .
- وإن كانت بالتدين فأمره شديد .
- وبعد أن يُعَلَّم ويعلم أن هذا دين ينتقل إلى الأمر الثالث وهو السخرية بالدين .

وقول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٥–٦٧]

قال المصنف رحمه الله : (**عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غزوة تبوك : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء**) .

ذكر المؤلف الأثر الذي عزاه لابن عمر ومحمد بن كعب القرظي ، وزيد بن أسلم ، وقتادة بن دعامة السدوسي رحمهم الله ورضي عنهم ، قال : (**دخل حديث بعضهم في بعض**) ، يعني ذكر مجمل ما ورد في رواياتهم . وأثر ابن عمر رضي الله عنهما رواه ابن جرير في تفسيره وله شاهد قال العلماء : حسن عند ابن أبي حاتم رحمه الله .

وفيه : بيان سبب نزول هذه الآيات .

قال تعالى قبلها : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾ .

﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا ﴾ وقد يستهزئون سرًّا ، وقد يستهزئون علانية .

وكم حصل من المنافقين من السخرية والاستهزاء والعبارات التي تفيض عن قلوبهم المملوءة بالكفر والبغض للنبي ﷺ ، ولأصحابه وللدين الذي جاء به ؛ لأن ما تضمره الصدور فالله أعلم بها ، ويوشك أن يفضحهم الله عز وجل .

ولهذا تسمى سورة التوبة الفاضحة ، لما قيل لابن عباس : التوبة . قال : التوبة ! هذه الفاضحة ، ما زال الله يقول : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ حتى خشينا على أنفسنا معنى كلامه رضي الله عنه .

وتأملوا قول الله عز وجل : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴾ ، ما يحذرونه وما يكتمونه فالله تعالى سوف يخرجه ، ونظير هذا آية مرت بنا ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٢] فمهما كتم المغرض في صدره فإن الله سبحانه وتعالى يفضحه ، ومن أَسَرَّ سريرة – كما قيل – أظهرها الله على قسمات وجهه وفلتات لسانه .

قال ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة رحمهم الله : (**أنه قال رجل**) ، القائل رجل والخطاب في الآية لجماعة (**﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ﴾**) ؛ لأن الرجل قال هذا الكلام وعنده حضور ، وإذا سمع الإنسان منكرًا ورضي به فإنه مشارك في الإثم ، والراضي بالذنب كفاعله ؛ لكن إن كَرِهَ فالواجب أن ينكر مثل هذا الكلام ، لأن هذا كلام في غاية الضرر ومنتهى الخطر.

(**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء**) يعني بالقراء النبي ﷺ وأصحابه ، وفيه استهزاء بالنبي ﷺ ، واستهزاء بالقرآن ، واستهزاء بمن أنزل القرآن ؛ لأنه لم يستهزئ بالقراء لذواتهم وأشخاصهم وأعيانهم ، لا ، إنما لكونهم قراء .

والقراء جمع قارئ ، والقارئ عند الصحابة هو العالم ، القارئ العالم .

قراءة القرآن عندهم قراءة اللفظ وفهم المعنى والعمل به ، هذه حقوق القرآن الثلاثة الكبيرة والتي ترجع إليها عامة الحقوق ، والتي ذكرها أبو عبد الرحمن السلمي وابن مسعود أيضًا فيما ورد عنه في قوله : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا ، القرآن حفظًا ، والعلم فهمًا ، والعمل تطبيق ، جمع الأمور الثلاثة ، هذا هو القارئ .

وهذه القراءة التي ينتفع بها صاحبها ، والتي يعصمه الله تعالى بها من الزلل ، وإلا فكم من قارئ للقرآن يقرأ بلسانه ولا يتجاوز القرآن حلقه .

ولما قال رجل لابن مسعود : قرأتُ المفصل في ركعة ، قال هذًّا كهذ الشعر ، إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ولكن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع . ابن مسعود ما جاء بهذا الكلام من عنده ، لا ، أخذه من المشكاة ، مشكاة النبوة ، قول النبي ﷺ : « **يخرج فيكم أناسٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » ، ينظر في النصل فلا يرى شيئًا ، وينظر في القِدْح فلا يرى شيئًا ، وينظر في الريش فلا يرى شيئًا ، ويتمارى في الفُوق ، ما أحلى كلام رسول الله . عندما لا يجاوز القرآن الحناجر فصاحبه على خطر ، خطر من أمرين ، المسلم بينهما على خطر ، وهما :

١. الإفراط .

٢. أو التفريط .

فقد يقع في التفريط وينتكس عياذًا بالله ، ثم ولا قوة إلا بالله تعود قراءته للقرآن أذًى عليه وعلى الأمة ، ويوظف قراءته ولا قوة إلا بالله في التشكيك في الدين وفي إثارة الشبهات . وقد يقع أيضًا في الإفراط وفي الغلو ، فيمرق من الدين كما قال النبي ﷺ : « **كما يمرق السهم من الرمية** » ، ووجه التشبيه:

١. هل السهم إذا مرق يرجع إلى القوس ؟ الجواب: لا .

٢. ويمرق أيضًا كما يمرق من الرمية ، يعني يضرب الرمية بسرعة ويخرج منها ، حتى إن صاحبه ينظر فيه فلا يرى فيه أثرًا للدم كأنه ما أصاب الصيد ، ينظر في النصل الذي وراء السهم ما يرى شيء ، ينظر في القدح

الذي هو السهم نفسه ما يرى شيء ، ينزل وينظر في الريش الذي يكون في أسفل السهم ما يرى شيء ، حتى يتمارى في الفُوق ، يشك في الفوق يعني في المكان الذي يوضع فيه السهم من القوس.

ما هذه قراءة ، لهذا ينصح دائمًا الشباب الذين يقرؤون القرآن أن اعتنوا بأن يصل القرآن إلى قلوبكم ، ما لم يصل إلى قلبك يظل في الحلق ، وتجدهم يعتنون بالأصوات وبحسن القراءة وبكذا وبكذا وبكذا ، ويغفلون عن ما هو أكثر وهو تأثيره على قلبه وتأثيره على حياته وتأثيره على عمله . وهذا الخلل وقع في الأمة منذ القدم لو قرأتم بعض كلمات الحسن البصري وهو يشتكي من عصره وحال القراء في زمانه لعجبتم .

والمنهج السوي هو ما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وابن مسعود أيضًا فيما صح عنه رضي الله عنه وأرضاه ، المنهج كما ذكر تعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا .

قال : (**ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا**) ، يعني أوسع بطونًا (**ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء**) وصدق القائل : رمتني بدائها وانسلت . هذه صفات المنافقين ، هذه صفاتهم :

- آية المنافق ثلاث أول شيء « **إذا حدث كذب** » ثم يتهم الصحابة بالكذب .
- في الجبن يضربون الأمثلة في خورهم وجبنهم ، ماذا فعل ابن سلول في غزوة أحد ؟ نكص على عقبيه ومعه أكثر من ثلاثمائة شخص .

- أما أرغب البطون فغايتهم هذه الدنيا ، وما الغاية في الدنيا ؟ همه بطنه وشهواته ولا قوة إلا بالله .

(**فقال له عوف بن مالك : كذبت ، ولكنك منافق ، لأخبرن رسول الله ﷺ**) .

قال له عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه : (**كذبت**) يعني القائل (**ولكنك منافق**) ، واختلف في القائل :

- فقيل وديعة بن ثابت .
- وقيل زيد بن وديعة .

وكان معهم مخشي بن حمير الأشجعي ، لم يقل ولكنه كان معه وكان يستمع . النبي ﷺ لما جاءه الخبر من السماء قبل الخبر من الأرض ، الله أكبر ما أعظم ربي ، سعة علمه وقدرته ، ارتحل ، وإذا حصل شيء من هذا عَجَّل الرحيل عليه الصلاة والسلام ، لماذا ؟ الجواب: قطعًا للإشاعة ، حتى لا يكثر الكلام بين الناس ، وحتى لا تثار فتنة ، كما قال عز وجل : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٤٧] . هناك من الناس من يؤثر فيه مثل هذا الكلام ويتأثر ، علمه ضعيف ، بل قد يكون إيمانه حتى ضعيف ، ويتأثر بمثل هذا الكلام .

وحدث أيضًا أن ابن سلول في غزوة المريسيع غزوة بني المصطلق لما لقاه النبي ﷺ رجع ، اختصم أو اقتتل رجلان جهني وأنصاري على الماء فقال ابن سلول معنفًا قومه لِمَ لَمْ ينصروا الأنصاري ، ثم قال : نعوذ بالله ما نحن محمد إلا كما يقول القائل : سمن كلبك يأكلك . ثم قال : لا تنفقوا على من عند

رسول الله حتى ينفضوا ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وهو والله الأذل والأحقر .

لما بلغ النبي ﷺ هذا كلام دارت فتنة تأتي الفتنة ولا قوة إلا بالله والعصبية فآذن بالرحيل ، أمر الناس أن ترتحل ، حتى يشغلهم الرحيل عن تناقل مثل هذا الكلام السافل .

جاء عوف إلى النبي ﷺ فوجد الوحي قد سبقه .

قال رحمه الله : (**فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه . فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق . قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ ، وإن الحجارة تنكب رجليه ، وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . فيقول له رسول الله ﷺ : ﴿ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ . ما يلتفت إليه وما يزيده عليه**) .

جاء هذا الرجل يعتذر للنبي ﷺ كعادتهم ، وإذا قرأت التوبة وجدت فيها أحوالهم وأخبارهم ، فهم يكذبون ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، وهم يعتذرون كما قال عز وجل: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ [التوبة : ٩٤] ، وكم قال ربنا : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ ، ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ ﴾ ، وكونهم يحلفون اتهام منهم لأنفسهم ، لأنه يعرف أنه لن يصدَّق إلا بالحلف ، وإلا فالصادق يخبر بخبره ولا يحتاج أن يحلف .

قال : (إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق) كلامنا هذا مجرد حديث نسلي به أنفسنا ، ونزيل فيه عنا تعب الطريق وعناءه .

يقول ابن عمر : (كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ) ، النِّسْعَة هي الحبل الذي يشد به الرحل ، والرحل يسمونه الناس الشداد ، ويسمى هذا الحبل أو هذه النسعة يسمونه الناس وهي تسمية في اللغة أيضًا البطان ، سمي البطان لأنه يلي بطن البعير ، يُلف من تحت بطن البعير ، ويلف بالأشداد يتعلق هذا بالبطان أو النسعة وهو يقول هذا الكلام هذا العذر ، والنبي ﷺ يقول : (﴿ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) .

وقوله : (﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) ، يحتمل أمرين :

- **الأمر الأول :** بعد ما تظهرونه من الإيمان المخالف لما في قلوبكم من الكفر ، وهذا هو النفاق ؛ لأن المنافق من يظهر الإيمان ويبطن الكفر .

وسمي المنافق منافقا أخذًا يقولون من نافقاء اليربوع . اليربوع : الجربوع يسمونه العامة ما يزال بهذا الاسم . ونافقاءه : جحره ، فإن الله تعالى ألهم هذه الدويبة الصغيرة أن تحفر لها جحر في البر ثم يحفر له مخارج ، بعض المخارج وتكون خفية ما تكون مكشوفة على سطح الأرض ، يحفر حتى إذا بقيت قشرة خفيفة تركها ، ويعد هذا مخارج طوارئ إذا داهمه شيء من فم الجحر ضرب برأسه هذه الفتحة وخرج ، فله مخارج وللمنافق مخارج وله وجوه ولا قوة إلا بالله ، يتكلم بهذا ويتكلم بهذا ويتكلم مع هذا ، لهذا سمي منافقًا .

إذًا قوله : (﴿ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) ، بعد ما تظهرون من الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ﴾ [البقرة : ١٤] ، فهم يتظاهرون بالإيمان ، لأنهم منافقون ، والآية في المنافقين وسياق الآية السابق واللاحق في المنافق ، والمنافق ما يقال : إنه مؤمن ، لا ؛ لكنه يزعم أنه مؤمن (﴿ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) يزعمون أنهم مؤمنون ، فبين الله سبحانه وتعالى أنه ظهر خزيهم وبان أمرهم للناس ، وإلا فأمرهم يخفى على الناس . (﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾) ، ثم قال بعدها : ﴿ الْمُنَافِقُونَ ﴾ ، مما يدل على أن الآيات في المنافقين .

- بعض أهل العلم يقول : الآية قد تكون في أناس ضعفاء الإيمان وإن لم يكونوا منافقين ، لقوله : (﴿ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾) ، المنافق لا يكون مؤمنًا ؛ لكن هؤلاء أناس عندهم إيمان ضعيف ، فحصل منهم ما حصل بسبب ضعف إيمانهم ؛ لكن كما ذكر سياق أوله وآخره يدل على أن هؤلاء كانوا منافقين .

﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ ، ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ ﴾ الطائفة قد تطلق على الواحد . والذي عفي عنه هو مخْشِي بن حُمَيِّر ، قال : يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي ، فغير اسمه إلى عبد الرحمن ودعا الله أن يقتل في سبيل الله ولا يُعلم مقتله ولا من قتله ، ففقد في اليمامة ولم يعثر له على أثر .

وأما البقية ولا قوة إلا بالله فقد قال تعالى : ﴿ **نُعَذِّبْ طَائِفَةً** ﴾ ، وأيُّ عذاب أشد من الحكم عليهم بالكفر الذي لا أوبة ولا توبة بعده ، مع ما يأتيهم من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى وهي العظيمة : أن من هزل بهذا فإنه كفر) .

المؤلف رحمه الله ذكر في عنوان الترجمة (**باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول**) ولم يبين الحكم أن المراد به أن من هزل بذلك فإنه يكون كافرًا .

طيب يقول قائل : ما الدليل ؟ الجواب: (﴿ **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ** ﴾) ، قالوا : هذا بإجماع العلماء ، أن من استهزأ سخر بدين الله عز وجل أنه كافر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] .

فيجب أن يُتَنَبَّه لهذا الأمر وأن يُحَذَّر كثير من الناشئة من التساهل في مثل هذه الأمور ، وأكثر من يلقيها يلقيها هكذا تَنَدُّرًا ربما ، وربما لا يتبين له الأمر ، ولكن مع ذلك فالأمر خطير حتى ولو قاله مازحًا أو متندرًا فإنه فهو على خطر ولا قوة إلا بالله .

(**الثانية : أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان**) .

فيمن فعل هذا كائنًا من كان ، ولهذا كان من قال المقالة منافق ، وحضره من حضره ممن ليس منافقًا ، ولكن لما سكت ولم ينكر عليه ولا قوة إلا بالله شمل هذا الأمر لاسيما إذا كان راضي بهذا الأمر .

قال رحمه الله : (**الثالثة : الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله ﷺ**).

الفرق بين النميمة والنصيحة : النميمة نقل الكلام على وجه الإفساد .

وأما النصيحة لا ، نقل الكلام نصحًا لله ولرسوله .

والنميمة محرمة لا شك ، ومر بنا أنها من أنواع السحر كما سيأتي في المراجعة ، الدرس القادم إن شاء الله ، ألا أخبركم ما العضه ؟ هي النميمة . وذنبها خطير ، قال النبي ﷺ : « **لا يدخل الجنة قتات** » ، والقتات النمام ، وقال : « **إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة** » ، هو الذي ينقل الكلام على وجه الإفساد ، وهذه يتساهل بها بعض الناس وتحصل يأتي لشخص ويقول : فلان يقول كذا وكذا ، ينقل إليه الكلام ؛ لكن عوفًا رضي الله عنه وزيد بن أرقم في قضية ابن سلول ما نقلوا هذا إلا نصحًا لله وللرسول . لكن المنافقين عندما ينقل الكلام يأتون ويحلفون ولا يقرون حتى كما حصل من ابن سلول ، أن هناك فرقًا بين النميمة وبين ما لا يقصد به الإفساد بين الناس .

ذكر النووي رحمه الله مسائل عديدة يمكن ست مسائل مما لا يدخل تحت النميمة - نأتي بها في الدرس القادم - مسائل ذكرها النووي تستثنى ، يعني لا تكون من قبيل النميمة .

قال رحمه الله : (**الرابعة : الفرق بين العفو الذي يحبه الله ، وبين الغلظة على أعداء الله**) .

(**الفرق بين العفو الذي يحبه الله**) فإن الله تعالى عفو يحب العفو ، في الدعاء اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني ، لكن في بعض المواطن ما يحصل العفو .

الله تعالى لما ذكر المتقين كما مر بنا أهل الجنات نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ، ذكر من صفاتهم ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] ، والعلاقة بينهم ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ كظموا الغيظ ، بل زادوا على الكظم فعفوا ، بل زادوا عن العفو فأحسنوا إلى من أساء إليهم ، وهذا فيه تدرج من الأدنى إلى الأعلى .

لكن مناسبة ذكر الإحسان بعد العفو : أن العفو لا يمدح إلا إذا كان فيه إحسان ، أما إذا ما فيه إحسان فما يحسن العفو بل الرضا ، إذا كان هذا الشخص لو عفي عنه لربما زاد شرًّا وجرمًا فهذا ما يحسن العفو عنه ، وهنا قال عز وجل : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ ففرق عز وجل بين العفو وبين الغلظة على أعداء الله المنافقين ، والنبي ﷺ أيضًا لم يلتفت إليه ، ولم يزد على قوله : (**﴿ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾**) ، والرجل يعتذر ومع ذلك ما قبل عذره .

الطالب: أحسن الله إليكم ، هل يصح الاستدلال في هذا المقام وأن العفو يمدح إذا كان معه إصلاح بقوله تعالى : (فمن عفا وأصلح) ؟

الشيخ: لا شك ، العفو يمدح إذا فيه إصلاح ، أما إذا كان فيه إساءة لا ، والآية ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] :

- فذكر العدل وهو ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ ﴾ .
- وذكر الفضل ثانيًا وهو ﴿ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ .
- وذكر الظلم ثالثًا ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ .

هذه مراتب :

١. إما ظلم ولا قوة إلا بالله .

٢. وإما عدل .

والعدل كما يقول العلماء في قاعدة : العدل واجب ، والفضل مسنون .

قال رحمه الله : (**الخامسة : أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل**) .

كما ذكر هنا (**من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل**) فإنه قبل عذر مخشي بن حمير ، قال : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ ﴾ ، ولم يقبل غيره .

اختلف هل قبل عذر مخشي وحده أو معه شخص آخر .

المقصود : أنه تعالى قبل عذر من يعلم بحاله ويعلم ما في قلبه ولم يقبل عذر طائفة أخرى لأنه أعلم بما في دواخل نفوسهم .

لهذا يتأكد على الإنسان أن يعتني بقلبه وبما يكون في قلبه ، فإنه أحيانًا ترى من الإنسان تقصيرًا في ظاهره لكن في قلبه شيء من الانكسار بين يدي الله والتذلل بين يديه ، ومعالجته نفسه في رجوعه وتوبته إلى ربه عز وجل .

وقد يكون الإنسان في ظاهره صالح لكن فيه الشيء من التعالي على الناس ولهذا العلماء رحمهم الله يعني في كلمة مشهورة عن بعض السلف يقول : انكسار العاصي خيرٌ من صولة المطيع .

ومعناها أن المطيع قد يكون في صولته شيء من التعالي على الناس وهذا يحصل ولا قوة إلا بالله ، ولهذا ما أحسن الرفق في الأمور كلها في الدعوة إلى الله ، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى لا يقع الإنسان في هذا الأمر ، ثم يحصل ما يحصل ولا قوة إلا بالله . لشيخ الإسلام كلام نفيس رحمه الله ، وما أكثر كلامه النفيس في ((**الحموية**)) لما ذكر المتكلمين قال : لنا فيهم نظران :

- نظرٌ من جهة الشرع نؤدبهم ونمنعهم من نشر مذاهبهم .
- ونظرٌ من جهة القدر نرحمهم ، ونسأل الله لهم العافية ، ونحمد الله إذ عافانا مما ابتلاهم به ، يرحمهم .

ولما جيء بالرجل يجلد في الخمر في عهد النبي ﷺ لعنه أحد الصحابة ، قال : لعنه الله ما أكثر ما يجلد في الخمر ، ماذا قال عليه السلام ؟ « **لا تلعنه فإني علمته يحب الله ورسوله** » ، يعني فيه شيء من المحبة في قلبه ، والصدق في قلبه ، فأعمال القلوب عظيمة .

فالواجب على الإنسان أن يعتني بها وأن يحرص عليها ، وأن لا يكون منه تطاول على الناس ، فقلبك ليس في يدك حتى يتطاول الإنسان على الناس حتى على العصاة ، نعم يمنعون من نشر معاصيهم ويؤدبون وتقام الحدود ، لا ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ ﴾ [النور : ٢] ، نعم لا

تأخذكم رأفة في دين الله ؛ لكن في قدر الله لا بأس أن تأخذك رأفة ورحمة له ، وأن تدعوا له إذا رأيت منه شيئًا من التقصير .

أحسن الله إليكم ووفقكم وبارك فيكم وسدد خطاكم ، ورزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح

٤٢ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [الشورى : ٥٠] .

قال مجاهد : هذا بعملي ، وأنا محقوق به .

وقال ابن عباس : يريد من عندي .

وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٨] .

قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب .

وقال آخرون : على علم من الله أني له أهل . وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف) .

المؤلف رحمه الله في هذا الباب يذكر صنفين من الناس ينسبون ما بأيديهم من رزق الله عز وجل إلى غير الله عز وجل .

الصنف الأول : ينسبه إلى غير الله ، لا ينسبه لله أبدًا ، وهو قول مجاهد : (هذا بعملي ، وأنا محقوق به) . قال ابن عباس : هذا من عندي . يعني ليس من عند الله ، وهذا معنى قوله عز وجل : (﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾) ، ثم يقول : (﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾) ، ثم يبالغ

ولا قوة إلا بالله في كفره وطغيانه وكبريائه (﴿ وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ﴾) ، إن رَجَعت وبعثت – وقال هذا شاكًا – لي عند ربي الجنة ، فنسب ما بيده إلى نفسه ، لم ينسبه إلى الله عز وجل ، وهذا نوع إشراك بتوحيد الربوبية ، الرزق بيد الله عز وجل ، فهو الخالق المالك المدبر الرازق سبحانه وبحمده ، فكونه يعزو الرزق إلى نفسه لديه خلل في توحيد الربوبية ، وإذا اختل عنده توحيد الربوبية لزم من هذا ولا قوة إلا بالله الخلل في تألهه وعبادته ربه سبحانه وبحمده .

الصنف الثاني : أضاف الرزق إلى نفسه على وجه الاستحقاق ، مثل قارون قال له قومه : ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصص : ٧٦ – ٧٨] ، قال : ﴿ أُوتِيتُهُ ﴾ ، ولم ينكر أن هذا الرزق أوتيه وإن لم ينسبه إلى الله سبحانه وتعالى ظاهرًا ؛ لكن ظاهر السياق أنه لم ينسبه إلى نفسه ، إنما نسبه إلى نفسه استحقاقًا ، ﴿ أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ، ومعنى قوله : ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ :

- على علم مني بوجوه المكاسب ، وهذا قد يبتلى به التاجر أحيانًا ، لديَّ مهارة ، لدي قدرات ، لدي كذا وكذا وكذا ، وبسببها حصل ما بيده من الدنيا ، وهو لا يدري المسكين أن قدراته ومهارته تلك قد تُتْلِفُ جميع ماله كما يحصل .

- وقيل : ﴿ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ، أي (**على علم من الله أني له أهل**) ، وهذا فيه تعالي على الله عز وجل ، أن الله عز وجل ما أعطاني هذا الشيء بمحض فضله وإحسانه ، وإنما أعطانيه لأني مستحق له ولأني أهلٌ له . ولهذا قال : (**وهذا معنى قول مجاهد : أوتيته على شرف**) ، كبر ولا قوة إلا بالله ، يتكبر على الحق ولا يخضع للحق ، ولا يتواضع للخلق ، والكبر داء وبال . وكثيرًا ما يذكر الله سبحانه وتعالى الكبر كصفة للكفار ، وكسبب عظيم من أسباب دخولهم النار ولا قوة إلا بالله .

ولما نصحوه وقالوا له : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ ، خذ حظك من الدنيا ، ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ الكاف هنا للتعليل ، وليست للتشبيه ، أحسن كإحسان الله إليك ، لا ، وأين إحسان الإنسان إلى الفقراء من إحسان الله إليه سبحانه وبحمده ؟ لكن أَحْسِن لأن الله تعالى أحسن إليك ، أي شكرًا لله عز وجل على ما أَوْلَاك من هذه النعمة ؛ لكن الطغيان يُعمي ويُصم ولا قوة إلا بالله ، فكان جوابه ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ، علمٍ مني بوجوه المكاسب أو علم من الله أني له أهل .

تذكرون أنه مر بنا باب شبيه بهذا الباب ، وهو قول الله تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا ﴾ [النحل : ٨٣] .

قول مجاهد : هذا مالي ورثته عن آبائي .

قول عمر عبد الله : لولا فلان لم يكن كذا .

قول ابن قتيبة : هذا بشفاعة آلهتنا .

وهذا ليس تكرارا ، هناك نُسِبَ الرزق إلى غير الله عز وجل ، ما نسبه إلى نفسه ، لا ، قال : هذا مالي ورثته عن آبائي ، وقيل : وقتها إنما كان ذلك نوع شرك أصغر وهو من شرك الأسباب ، لأنه أضافه إلى سبب متناسيًا المسبب له ، وهو الله سبحانه وتعالى .

لكن هنا أضافه إما إلى نفسه ، وإما إلى الله عز وجل ، فكانت الأقسام ثلاثة أيضًا :

١. إضافته إلى غير الله كما في الباب السابق .

٢. إضافته إلى النفس .

٣. أو إضافته إلى الله عز وجل ؛ لكن مع العُجْب والغرور واعتقاد أن الله تعالى ما أعطاه هذا الرزق تفضلاً منه وإحسان .

وفيه : وجوب شكر الله على نعمه ، وأن المسلم يعتقد أن ما بيده هو محض فضل الله سبحانه وتعالى ومنته عليه ، وأنه إن شكر الله عز وجل فقد آذن الله بالمزيد للشاكرين ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

الشكر هو: القيام بطاعة الله اعترافًا بالقلب ، ونطقًا باللسان ، وعملاً بالجوارح . وإن شئت فقل : الشكر هو وصف المحمود بالكمال مع التذلل والخضوع . قالوا : وللشكر أركان ، فمنها :

- الاعتراف بالنعمة .
- **الثاني :** نسبتها إلى المنعم عز وجل .
- **الثالث :** بذلها فيما يحب .

فمن لم يعترف بالنعمة لا يكون شاكرًا ، ومن اعترف بالنعمة قال : هذه نعمة لكنه لم ينسبها إلى الله عز وجل ، أو نسبها إلى الله معتقدًا أنه أهل كما مر بنا لم يكن شاكرًا لها ، وإن بذل نعم الله في معاصي الله عز وجل لم يكن أيضًا شاكرًا .

الطالب: أحسن الله إليكم أليست دلالة الآية ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ على قول قتادة أظهر ، لأنه قال عندي ولم يقل عند الله ؟

الشيخ : على القول الثاني : على علم ليس مني ، وإنما من الله عز وجل أني أهلٌ له ، فلم يكن بمهارتي ، لكنه من الله لكن بشرف أعطانيه بشرف ، وليس منة منه وإحسان . فالاستدلال في كلمة ﴿ عَلَى عِلْمٍ ﴾ .

(وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عنني الذي قد قذرني الناس به، قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر- شك إسحاق - فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال:

الغنم، فأعطي شاة والدا، فأنتج هذان وولّد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال- بعيرا أتبلغ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا، - فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قاله لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » أخرجاه) .

قال ﷺ في حديث أبي هريرة : (إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص) ، معروف الأبرص من ابتلي بالبرص المؤدي إلى تغير الجلد أو بعضه ، (وأقرع) والأقرع ابتلي بالقرع في شعره ، كان القرع في الماضي مرض يصاب به الناس قروح وجروح تكون في الرأس يتساقط معها الشعر ويؤدي إلى صلع في الرأس كله ، (وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم) ، ومعنى (يبتليهم) أي يختبرهم . **وفيه** : أن

الابتلاء كما يكون بالشر يكون بالخير ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] ، نبلوكم فتنة واختبارًا وامتحانًا . وقال سليمان عليه السلام وقد رأى عرش بلقيس بين يديه وأتاه به من أتاه قبل أن يرتد إليه طرفه قال : ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل : ٤٠] ، فما يكون في يدك من الخير هو اختبار وامتحان ، قد تكون شاكرًا ، أو يكون الإنسان جاحدًا ولا قوة إلا بالله .

والإنسان أمام الدنيا في فتنة واختبار ، نحن نقول في ورد مع الأسف يقال في آخر الصلاة وبالتالي يقوله الإنسان سردًا ما يتمعن فيه : أعوذ بالله من جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، فتنة الدنيا فتنة الحياة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا ﴾ لماذا ؟ ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٧] ، وقال : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [طه : ١٣١] ، تأملوا هناك قال : ﴿ زِينَةً ﴾ ، وهنا قال : ﴿ زَهْرَةَ ﴾ ، والزهرة والزينة لا شك تفتن ، الإنسان أمامها في اختبار وامتحان وابتلاء .

قال : (**فبعث إليهم ملكًا**) ملك مأخوذ من الألوكة ، والألوكة هي الرسالة ، قالوا: وفيه إعلال بالقلب وبالنقل ، أصله مَأْلَك ، نُقِلت الهمزة بعد اللام فصارت مَلْأَك نقلت حركة الهمزة إلى اللام وحذفت الهمزة تخفيفًا فقيل : ملك ، ولهذا جمع ملك ملائكة ، تعود الهمزة في الجمع ، أرسل إليهم ملكًا .

هذا الملك بعثه بصورة رجل ، الملائكة ما يأتون بصورهم ، وليس في طاقة البشر أن يروهم بصورهم التي خلقهم الله تعالى عليها ، وكان جبريل إذا أتى

النبي ﷺ يأتيه بصورة دحية بن خليفة الكلبي ، وكان من أجمل العرب رضي الله عنه .

(**فأتى الأبرص فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال : أيُّ شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به . قال : فمسحه فذهب عنه قذره ، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا**) .

وفيه : قدرة الله عز وجل ، مجرد أن مسحه ذهب عنه هذا الأذى هذا المرض ، الذي لا يكاد يعالج حتى وقتنا هذا ، والله المستعان .

(**قال : فأيُّ المال أحب إليك ؟ قال : الإبل أو البقر « شك إسحاق**) : إسحاق هذا هو إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، كما في رواية مسلم ، إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة ، وطلحة رضي الله عنه وأرضاه جده .

(« **فأعطي ناقة عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها** ») ، والبركة إذا نزلت في الشيء كثر ونمى ، فالقليل يكثر ويبارك فيه ، وإذا نُزِعت من الشيء ولا قوة إلا بالله قَلَّ ، وربما نزل فيه الفشل ، فالبركة إن نزلت في قليل كثرته ، وإن عدمت من كثير قللته .

قال : (« **فأتى الأعمى فقال : أيُّ شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلي بصري فأبصر به الناس . فمسحه فرد الله إليه بصره** ») هناك فمسحه فذهب عنه الذي قذره ، وهذا كله من الله عز وجل وبإذن الله عز وجل .

(« **قال : فأيُّ المال أحب إليك ؟ قال : الغنم . فأعطي شاة والدًا ، فَأُنْتِجَ هذان وَوَلَّد هذا** ») ، أنتج هذان وولد هذا ، المُنْتِج أو الناتج أو المولد هو من يتولى هذه المواشي ويتولى إنتاجه .

والفعل أُنْتِجَ ليس مبني للمجهول بل مبني للمعلوم ، مع أن صورته مبني من المجهول ، قال ﷺ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنْتَج البهيمة بهمية جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء إلا أنكم أنتم تجدعونها** » ، معنى تنتج البهمية تلد ، فالفعل إذًا تُنْتَج مبني للمعلوم . وفي الحديث أيضًا نهى عن بيع حبل الحبلة ، كان بيعًا يتبايعه الجاهلية ، كان الرجل يبتاع الجزور إلى أن تُنْتَج الناقة ثم تُنْتَج التي في بطنها . معنى تُنْتَج تلد . ومنه فعل عُنِي ، يقول : عُنِي زيد بكذا ، إعراب زيد فاعل ، مع أن شكل فعل عُنِيَ مبني للمجهول . ومنه أيضًا « **ولا تُصَرُّ الإبل والغنم** » ، في التصرية وهي ربط أخلاف البهائم عند بيعها ليجتمع فيها اللبن ، فيتوهم المشتري أنها كثيرة اللبن ، وكان هذا يُفعل . فقوله : « **ولا تُصَرُّ** » أيضًا مبني للمعلوم .

قال : (**«فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم . قال : ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته »**) والفرق بين الصورة والهيئة أن:

- **الصورة :** في الجسم ، أبرص يعني جاءه في صورته مصاب بالبرص .
- **والهيئة :** بشكله في ثيابه ، وما أشبه ذلك .

(**فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري**)

والمسكين هو : الفقير الذي أسكنه الفقر .

وإذا ذكر وحده شمل المسكين والفقير جميعًا ، وإذا جُمع مع الفقير فهو أحسن ، لهذا بدأ الله بالفقير ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، وقال : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف : ٧٩] ، لهم سفينة ،

فإذا جمع مع الفقير فهو أحسن حالاً منه ، أما إذا أفرد فمعناهما واحد ، فهما من جملة الألفاظ التي إذا اجتمعت افترقت ، وإذا افترقت اجتمعت .

(« **فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن** ») .

(« **فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك** ») ، ما قال : وبك .

وفيه : الأدب مع الله عز وجل ، لا بلاغ لي إلا بالله ثم بك ، والمبلغ هو الله عز وجل ، فجاء بـ (ثم) الدالة على الترتيب والتراخي .

(« **أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيرًا أتبلغ به في سفري** ») .

ذكَّره بحاله الأولى يستدر عطفه عله أن يشفق عليه ، وقال : أسألك بعيرًا ، البعير هو الواحد من الإبل ، ويشمل الذكر والأنثى ، هذا في اللغة .

لكن في العرف ذكر فقط ، في العرف يطلق على الذكر فقط ، عرف الناس ، لكن في اللغة يطلق على الذكر وعلى الأنثى فيقال : هذا بعير وهذه بعيرٌ .

انتبه لا تقل عند راعي إبل عن الناقة هذه بعير ، لا ، ولهذا لو وجد إنسان وصية مكتوبة في هذا الزمن أوصى ببعير هل يُخرج ناقة ؟ لا ، بل يرجع إلى عرف الناس اليوم . الشاة كذلك يراد بها الواحدة من الغنم من الضأن أو المعز هكذا في اللغة ، في اللغة العربية تشمل الضأن والمعز ، فتقول للعنز : شاة ، والتيس شاة ، والخروف ، هذا في اللغة . أما العرف فهي أنثى الضأن ، أنثى الضأن يمسونها الناس نعجة ، وهي في اللغة نعجة ، فينبغي التنبه للعرف .

والعرف في الشرع له اعتبار ❊❊ لذا عليه الحكم قد يدار

والمعروف عرفًا – كما يقول العلماء – كالمشروط شرطًا .

قال : (« **أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيرًا أتبلغ به في سفري . فقال : الحقوق كثيرة** »)، هذا إنكار النعمة ، ينكر ولا قوة إلا بالله نعمة الله عليه ، ولا يشكر الله على هذه النعمة ، واعتذر منه بهذا العذر الذي ليس بعذر قال : (« **الحقوق كثيرة** ») ، عندي التزامات مما يقوله الناس اليوم ، مع أنه عنده وادي من الإبل .

فقال له : (« **كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله عز وجل المال ؟**

فقال : إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ») .

هنا أنكر نعمة الله عز وجل ، هذا إنكار صريح للنعمة يقول : (« **ورثت هذا المال كابرًا عن كابر** ») ، ورثته عن آبائي وأجدادي ، هو يعرف أنه كاذب .

وفيه : أن الإرث موجود في الأمم السابقة .

(« **فقال : إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت** ») .

دعا عليه ؛ لكن هذه الدعوة معلقة بشرط إن كنت كاذبًا ، مع أنه يعرف أنه كاذب ، ولكن يقولون هذا من باب التنزل مع الخصم ، فعلق الدعاء عليه بكذبه ، وهذا قوله عز وجل : ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور : ٩] .

قال : (« **وأتى الأقرع في صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا . فقال : إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنت** ») .

في قولهم كل واحد يتمنى زوال الحال التي هو عليها (الأبرص ، سأله قال : جلد حسن ، لون حسن ، يذهب عني الذي قذر الناس فيه . الأقرع قال : شعر حسن . والأعمى قال : يرد الله بصري) ، استدل العلماء بهذا على أن الرضا ليس بواجب ولكنه مستحب ، قد مر بنا أن مقامات الناس عند المصائب أربعة ، هي:

١. الصبر .

٢. والشكر .

٣. والجزع .

الجزع محرم ولا يجوز ، ولا يرد شيئًا ، وإنما ولا قوة إلا بالله يبتلى صاحبه بالقلق وبالضجر خطر عليه في معتقده .

والصبر واجب ، والرضا مستحب .

والفرق بين الرضا والصبر : أن الراضي قيل لا يتمنى زوال الحال التي هو عليها ، مع أن هذا تمنى ، فدل على أن الرضا ليس بواجب ، ولو كان الرضا واجبا ما تمنى زوال الحال التي هو عليها ، ولو رضي بها ، فأُخذ منه أن الرضى مستحب .

لكن مر بنا قول النبي ﷺ : « **إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السخط** » ، ظاهره أن الرضا واجب ، فأجاب عنه العلماء:

- بعضهم حمل الرضا على الصبر .
- وبعضهم حمل الرضا « **فمن رضي** » على أصل القضاء وليس على المقضي . حمله على الرضا على أصل القضاء على قدر الله عز وجل ،

ولكن ليس على المقضي ، فمن رضي يعني رضي بأصل القضاء ، وهذا موجود ولله الحمد لدى عامة المسلمين ؛ لكن المقضي نفسه المقدر هذا لا يلزم الرضا به ، وإن رضي فلا شك أعلى مقامًا ممن لم يرضَ .

وأعلى من الرضا الشكر ، وهذا تراه على بعض الناس ما شاء الله ، يبتلى بأمور الكبار مصائب فتجده يشكر الله عز وجل على هذا الأمر ، وهذا من توفيق الله عز وجل له ؛ لأن جزعه وعدم صبره ، بل وحتى عدم رضاه ما يرد من الأمر شيء .

وأذكر أن رجلاً من الأخيار يرحمه الله توفي له ولد في حادث كان قادمًا من الحج ، خرجوا من الخط وناموا فخرج عليهم صاحب سيارة فدهسه من بينهم وليس له إلا هو ، وهو شاب في ريعان الشباب ، فذهبنا لتعزيته كان الإنسان يعني يُعِد كلامًا يقوله له ، فلما أتيته ما شاء الله وكأنه هو الذي يعزي الناس ، وهو يقول رحمه الله : الحمد لله ، مات وقد قدم من الحج ، كيف ولو جاء من بلاد عرفت بالفساد وعرفت بكذا وكذا وكذا ، وهذا الذي يسلي الإنسان ويعزيه .

المقصود : أن بعض الناس ما شاء الله يفتح الله تعالى عليه ويرضى بقضاء الله عليه ، بل يكون شاكرًا .

وقد ذَكَر لي أحد الإخوة ممن ابتلوا بهذا المرض الخطير لما أخبره الطبيب قال : ذهبتُ فسجدتُ لله عز وجل .

الناس فيها خير ، مقامات عالية ورفيعة ، ولهذا الإنسان يسأل ربه ، وأنت تقولوا دبر كل صلاة اللهم أعني على ذكرك وشكرك حسن عبادتك .

وشكر الله سبحانه وتعالى على النعم على حسبها :

١. فالشكر على المال بإنفاقه في أوجه الخير .

٢. والشكر على البدن نعمة البدن والصحة بمساعدة الناس وإعانتهم ، تعين الرجل على دابته فتحمل متاعه له عليها وترفعه عليها صدقة .

٣. والشكر على نعمة الجاه بالشفاعة ، الشفاعة للناس .

٤. والشكر على نعمة العلم بتعليمه ، وهذا الذي نريده ، نقول دائمًا : اطلبوا العلم وفي نيتكم أن تعلموا ، هذا المنهج ، هذا منهج الكتاب والسنة ، والدليل ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

ومر بنا في ((**التفسير**)) كيف أن الله قَدَّم التعليم ﴿ تُعَلِّمُونَ ﴾ على الدراسة مع أن التعليم متأخر ، إشارة إلى الاهتمام به ، وأن الإنسان لا يزال دارسًا حتى ولو كان معلم . والدليل من السنة قول النبي ﷺ في الأرض الطيبة التي قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير « **ذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه الله ما بعثني الله به فعلم وعلَّم** » في رواية « **فنفعه الله ونفع به** » .

هذا المنهج عليه الأمة لقرون متطاولة ، هذا منهجهم ، يتعلم اللاحق من السابق ، ثم يصبح اللاحق سابقًا فيتعلم عليه من يأتي بعده ، وهكذا قبل أن تأتي المدارس ، وفي المدارس خير لكن ما في شك أن التعليم مهم حقيقة وضرورة . والعامة والله يحبون في كل بلاد المسلمين يحبون من يعلمهم ، إذا علموا منه الصدق والإخلاص ، فأضمروا هذه النية في قلوبكم ، فإنما الأعمال نية طيبة أضمرها الإنسان في قلبه وهو في أول الطريق في منتصف الطريق يعينه الله وييسر أمره ، ويثبته على هذا الطريق حتى يصل منه إلى ما يوفقه الله تعالى إليه .

اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا ، وزدنا ورزقنا علمًا ينفعنا ، اللهم وكما جمعتنا في هذا المكان المبارك فاجمعنا في الدنيا على محبتك وفي الآخرة في دار كرامتك ، ووالدينا ووالديكم والمسلمين أجمعين ومشايخنا .

الطالب: ألا يمكن أن نقول أن الأعمى كان راضيا فسأل الملك من باب الأخذ بالأسباب؟

الشيخ: إذا قلنا : إن الرضا كون الإنسان لا يتمنى زوال الحال التي هو عليها ، فكلهم اتفقوا على هذا ، بعضهم يقول هذا الرضا .

وبعضهم يقول : الرضا لا ينافي أن يتمنى الإنسان زوال الحال ، لكن يكون منشرح ، يعني يكون منشرح الصدر ليس عنده ضجر ولا قلق ، ولكن يتمنى أن لو رَدَّه الله إلى ما كان عليه أو أحسن مما كان عليه .

الطالب: أقصد أن التداوي لا ينافي الأخذ بالأسباب ؟

الشيخ: لا أبدًا ، النبي ﷺ قال : « **تداووا** » ، وأمر بالتداوي وأرسل الطبيب إلى بعض أصحابه ، فالأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل .

(« **قال وأتى الأعمى في صورته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري ، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري .**

فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ») .

قال : (« **قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري** ») إشارة إلى أنه ما أعطى هذا الشيء بمجرد الكرم فقط ، الكرم لا شك نعمة من الله عز وجل ، إذا كان

الإنسان سخي النفس يبذل وينفق ويتصدق ويعطي لكنه هنا ذكر أنه إنما يعطيه شكرًا لله على هذه النعمة ، (**« كنت أعمى فرد الله إلي بصري »**) ، فقير فأعطاني هذا المال ، (**« فخذ ما شئت »**) ما قال : خذ الشاة فقط ، خذ ما شئت .

وفيه : أن هذا الأعمى كان رجلا زاهدًا وإلا لأعطاه شاة واحدة .

(**« فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أَجْهَدُكَ اليوم بشيء أخذته لله »**)

(أَجْهَدُكَ) الفرق بين الجُهْدُ والجَهْد تقول : بذلت جُهدي ، يعني طاقتي ووسعي . وتقول : عملت هذا العمل حتى بلغ مني الجَهْد ، يعني التعب والمشقة .

فإن كان قوله : (**« لا أَجْهَدُك »**) يعني لا أشق عليك ، لا أكلفك ، أكلف عليك شيئًا تأخذه فالأمر إليك ، فخذ ما شئت ودع ما شئت .

(**« فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك » أخرجاه**) .

الشيخ ابن باز رحمه الله يقول : والظاهر أنهم ردوا إلى الحال التي كانوا عليها عياذًا بالله ، لأنه دعا عليهم (إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت) .

وفيه : أن الشكر من أسباب البركة في المال ، فهذا الأعمى لما كان شاكرًا بورك له في ماله ، بقي عنده ماله ، والأَوَّلان لما لم يكونا شاكرين دعا عليهما ، والظاهر وقوع هذه الدعوة ونزول هذه العقوبة عليهم .

وفي الحديث من الفوائد أيضًا وهي فائدة في الأصول : أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يأت شرعنا بخلافه :

- شرع من قبلنا إن خالفه شرعنا لا شك خذ بشرعنا واتركه .
- وإن وافقه شرعنا أُخذ به .

- وإن لم يخالفه ولم يوافقه فقيل : هو شرعٌ لنا .

وما في هذه القصة من الفوائد والعبر هي وإن كانت في شرع من قبلنا إلا أنها شرع لنا ، على كل حال فالباب كله يدور على شكر الله سبحانه وتعالى على نعمه .

والشكر - كما مر - يكون باللسان : « إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها » .

ويكون بالقلب : بالاعتراف بالمنة والنعمة لله عز وجل ونسبتها إليه .

ويكون بالجوارح : في بذلها في محاب الله عز وجل وطاعته سبحانه وبحمده.

وقد قيل :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ** يدي ولساني والضمير المحجبا

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الآية .

الثانية : ما معنى : ﴿ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴾ .

الثالثة : ما معنى : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ .

الرابعة : ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة) .

فيها عبر من يتأمل فيها وينظر :

١. وأن الإنسان يتأكد عليه دائمًا أن يكون شاكرًا لله ، الشاكر يشكر على القليل والجاحد يجحد الكثر .

٢. وأن الإنسان لا ينظر إلى هذه الدنيا وما عنده من الأموال ، فإنه إن نظر إلى هذا فربما يزدري نعمة الله عليه ولا يشكر الله عز وجل ، ولكن ينظر إلى من هو أدنى وأقرب منه ، فهو أجدر أن لا يزدري نعمة الله تعالى عليه .

والشكر عظيم ، ولهذا كان في الناس قليل ﴿ وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين .

وفقكم الله وبارك فيكم

٤٣ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٠] .

قال ابن حزم : اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبَّدٍ لغير الله كعبد عمرو ، وعبد الكعبة ، وما أشبه ذلك ، حاشا عبد المطلب) .

حاشا تأتي حرف جر ، وتأتي استثناء ، فإن كانت معها (ما) ما حاشا فهي استثناء ؛ لكن إن لم تكن يصلح أن تكون حرف جر .

(باب قول الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾)

،

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا ﴾ .

مناسبة هذا الباب للباب الذي قبله هو شبيه به ، الحديث في الباب السابق عن الشكر ، شكر الله على نعمه ، وهذا فيه إشارة أيضًا إلى شكر العبد ربه في إعطائه الولد الصالح في بدنه وفي دينه أيضًا .

قال عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ ، الآيات اختلف في سياق هذه الآيات على ثلاثة أقوال :

القول الأول : أنها في جنسٍ من بني آدم وليست في آدم ، ومن أولها ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ إلى آخره ، صاحب هذا القول عَدَّ هذه الآيات ومعناها في جنس بني آدم ، قال الشيخ سليمان : (قالوا هذا قول مبتدع) ، ما يقول به أحد من السلف رحمهم الله .

القول الثاني : أن الآيات كلها في آدم وحواء ، أما أول الآية فواضح ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ نفس واحدة آدم ، ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ حواء . المشهور أن حواء خلقت من ضلع آدم ، هذا القول المشهور عند جماهير أهل العلم ، وإن كان بعضهم لا يميل إلى هذا الرأي ؛ لكن القول المشهور أنها خلقت من ضلعه . فالآيات كلها في آدم وحواء ، وقد يورد بعض أهل العلم على هذا القول بعض الإشكالات ، كقوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ﴾ . إلى آخره .

القول الثالث : أن أول الآيات في آدم وحواء ، وبقيتها في نوعٍ من الذرية وليس فيهما ، ففيها انتقال من العين إلى النوع وليس الجنس ، انتقال من العين إلى النوع . ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢ ، ١٣] . ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ ﴾ الإنسان الذي خلق من طين هو آدم . ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ الضمير في ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ يرجع إلى الذرية ، ولا يمكن أن يرجع إلى آدم ، مع أنك لو

تأخذ بظاهر السياق قلت : الضمير يعود إلى أقرب مذكور ، ﴿ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ أي جعلنا ذلك الإنسان ، فهنا انتقال من العين إلى النوع ، وهكذا في هذه الآية فأولها في آدم وحواء ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا ﴾ إلى آخره ، وبقيتها في نوع من الذرية ، وهذا القول يميل إليه جمع من المحققين من المفسرين .

والقول الأول أيضًا عليه جمعٌ من أهل العلم .

والمؤلف رحمه الله تعالى أورد الآيات وأورد أثر ابن عباس وظاهر هذا القول أن الآية كلها في آدم وحواء ، وأورد قول قتادة أيضًا قال : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته . ظاهره أيضًا أنه يميل إلى هذا القول .

لكن أصحاب القول الثالث والذي مقتضاه أن أول الآيات في آدم وحواء وآخرها في نوع من الذرية استدلوا على الكلام هذا بجملة أدلة ، منها :

١ . قالوا : لم يرد دليل صحيحٌ يدل على ما ذهب إليه أصحاب القول الآخر ، وجملة ما ورد آثار موقوفة عن بعض الصحابة وأكثرها مما أخذ عن بني إسرائيل . وفي حديث من الروايات الحسنة عن سمرة عند أحمد والترمذي رحمهم الله كذا الحاكم قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال : سمه عبد الحارث فإنه يعيش ، سمه عبد الحارث فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث فعاش ، قال : فكان من وحي الشيطان وأمره . والحديث ورد مرفوعًا وورد موقوفًا ، وفيه كلام كثير ، وكلام المحققين من أهل العلم أن هذا الكلام يَقْرب أن يكون مما أُخذ عن بني إسرائيل عمن أسلم منهم كعب بن الأحبار وغيره .

٢. قالوا أيضًا : مقتضى هذا القول هو أن السياق كله في آدم وحواء أن يكون آدم وقع في الشرك فتعالى الله عما يشركون ، والأنبياء معصومون من الشرك بلا شك ، ثم إنه لم يرد أن آدم تاب مع أنه لما أكل من الشجرة تلقى كلمات من الله عز وجل فتاب وأناب إلى الله واعترف بظلمه نفسه ، فيقتضي أن يكون مات على هذا الأمر ولا مُشْكِل .

٣. قالوا أيضًا : إن يوم القيامة عندما يجمع الله الناس على صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر يبلغ منهم الأمر مبلغًا ، حتى يقول بعضهم البعض : ألا ترون من يشفع لكم . يذهبون أولَّ ما يذهبون إلى آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيديه وأسجد لك الملائكة ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا تشفع لنا ؟ فيقول : إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبل مثله ولن يغضب بعد مثله ، وإنه نهاني عن الأكل من الشجرة فأكلت منها ، اذهبوا إلى غيري . مع أن الله قد غفر له ، ومع ذلك قد ذكر هذه الخطيئة التي وقعت منه ، ولم يذكر هذا الفعل الذي حصل .

٤. وأيضًا في الأثر المذكور عندنا لما جاء إليهما إبليس قال : إني صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة ، لتطيعاني وكذا وكذا . يعني كيف هو يستدرجهم إلى أن يطيعاه ويقول : أنا صاحبكم . ويذكرهم بما حصل منه ، وبما حصل عليهم بعد الأكل من الشجرة بسبب وساوسه ، وما حصل منهم .

٥. ثم أيضًا يعني قوله : لتطيعاني ، أو لأجعلن له قرني أَيِّل أو أُيَّل ، فيخرج من بطنك الأيِّل أو الأُيَّل وهو ذكر الأوعال ، فيخرج من بطنك فيشقه ، إن

اعتقد أنه يقدر فهو اعتراف بأنه يخلق ، وهذا لا يكون أبدًا حتى من المشركين ، وإن لم يعترف بذلك ولم يصدقاه فكيف يطيعانه ؟

إلى آخر ما يذكر من الأوجه ، وفيها أوجه حسنة تدل على ما ذهب إليه هؤلاء .

﴿ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قال قتادة : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته . والطاعة ليس بالضرورة أن تكون شركًا ، ونحن أمرنا بطاعة النبي ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ، وطاعته طاعة لله عز وجل ؛ لكن قد يكون في الطاعة شيء من الشرك ، فكل من عصى الله عز وجل فإنه مطيع للشيطان ومطيع للهوى ، كما أورد معناه عن شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

ويتدرج الشيطان بالإنسان في طاعته في المعاصي حتى ربما يوقعه بالشرك بالله عز وجل .

وأورد كلام أبي محمد بن حزم رحمه الله : (**اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبِّدٍ لغير الله كعبد عمرو ، وعبد الكعبة**) ، وعبد شمس ، وعبد النبي ، وعبد الحسين ، وعبد المسيح وما أشبه ذلك (**حاشا عبد المطلب**) ، يعني ما عداعبدالمطلب ، ففي التسمية فيه خلاف :

- فمنهم من أجازه ، واستدل :

١ . بقول النبي ﷺ : « **أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب** » .

٢. وقالوا أيضًا : إن في الصحابة رجلاً اسمه عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، والده ابن عم النبي ﷺ ، قالوا : ولم يغيره النبي ﷺ ، فدل على جواز التسمي به .

ويجاب:

١. بأن قوله ﷺ : « **أنا ابن عبد المطلب** » ، هذا من باب الإخبار ، والنبي ﷺ ما غَيَّر الأسر ، ما غيَّر بني عبد مناف أو بني عبد الشمس ، إذا ذكروا هذا من باب الإخبار ، فهذا من باب الإخبار وليس من باب التسمي والإنشاء أبدًا .

٢. وأما عبد المطلب فقد ذكر ابن عبدالبر أن النبي ﷺ كان يناديه بالمطلب ، فقد ذكر العلماء أن الزبير وهو الزبير بن بكار رحمه الله وهو أعلم الناس بنسب قريش ذكر أن اسمه المطلب. **والمطلب هو :** أخو هاشم ، وهم أربعة أخوة : هاشم ، والمطلب ، ونوفل ، وعبد شمس ، هؤلاء أولاد عبد مناف . عبد المطلب جد النبي ﷺ جاء به عمه المطلب عبد المطلب بن هاشم ، عمه المطلب جاء به من أخواله في المدينة وكان أَثَّر فيه السفر فكان فيه سمرة ، فلما رآه الناس قالوا : هذا عبد المطلب ، وإلا فاسمه شيبة ، عبد المطلب اسمه شيبة ، فظنوه عبدًا لعمه المطلب فقالوا : هذا عبد المطلب ، فغلب عليه هذا الوصف وهذا اللقب .

- **المقصود :** أن التسمي والتعبد أو التعبيد لغير الله عز وجل لا يجوز ، سواء كان عبد المطلب أو غيره .

وإذا قيل : يجوز عبد المطلب ، ولا يجوز عبد النبي ولا عبد علي ولا عبد المسيح ، كيف يجوز أن يسمى بعبد المطلب ولا يسمى بعبد النبي ؟

الجواب: اتفق العلماء على تحريم كل اسم مُعبد ، يعني معنى كلام ابن حزم رحمه الله أن عبد النبي ، وعبد المسيح ، وعبد علي وغيرها اتفق العلماء على تحريمها ، هؤلاء لو جاز ذلك كانوا أولى من المطلب ، أن يقال : عبد المطلب .

فالصحيح أنه لا يجوز التسمية ، وأن من سمي بهذا الاسم يجب عليه أن يغير اسمه .

والتسمية بعبد النبي تكون أكثر ما تكون في القدامى ، يمكن الآن ، هي قليلة ، قليلة جدًّا وإلا ما يجوز على كل حال ، ولو غيَّره إلى عبد رب النبي إذا كان يحب مثل هذا ، عبد رب النبي أو غيَّره إلى عبد الله عز وجل ، فهذا الواجب .

الطالب : فإن لم يغيره فهل يجوز لي أن أناديه بهذا الاسم ؟

الشيخ : لا ، إذا ناديته قل عبد رب النبي ، النبي ﷺ جاءه وفد ومعه شخص اسمه عبد الحَجَر ، فقال : « **ما اسمك** » ؟ قال : عبد الحجر . قال : « **فأنت عبد الله** » . الإنسان يتعبد لله عز وجل ولا أحد يأنف أن يسمى عبدالله ، يعني لو واحد اسمه عبد النبي ، قلت له : يا عبد الله يزعل ؟ أبدًا ، التعبد لله ، كلٌّ يعتز به ويفتخر به ، فهؤلاء لو غَيَّروا أسماءهم إلى أن يُعَبِّدوا ويتَعَبَّدُوا الله عز وجل لكان خيرًا .

قال رحمه الله : (**وعن ابن عباس رضي عنهما في الآية قال : لما تغشاها آدم حملت فأتاهما إبليس فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعانِّي**

، أو لأجعلن له قرني أيِّل ، فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما ، سمياه عبد الحارث . فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا) .

قيل : إن الحارث – ورد عن سعيد بن جبير رحمه الله – أن الحارث اسم لإبليس عندما كان مع الملائكة ، والله أعلم .

قال : (سمياه عبد الحارث . فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتًا ، ثم حملت فأتاهما فقال مثل قوله ، فأبيا أن يطيعاه ، فخرج ميتًا . ثم حملت فأتاهما فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث ، فذلك قوله : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ . رواه ابن أبي حاتم) .

ابن أبي حاتم رحمه الله هو : عبد الرحمن بن محمد بن إدريس الحنظلي ، هو وأبوه إمامان عالمان رحمهم الله ، أبو حاتم رحمه الله ، وليس أبا حاتم ابن حبان ، أبو حاتم ابن حبان البستي صاحب ((**الصحيح**)) ليس هذا هو .

كنت أقول لإخواني : اقرؤوا في التراجم ، اقرؤوا في ((**البداية**)) تاريخ ابن كثير ، كتاباته جميلة جدًّا ، يكتب عن أقرانه وأمثاله رحمهم الله .

تراجم هؤلاء العلماء ، قراءة التراجم فيها فوائد ،

الطالب : الاقتداء .

الشيخ : الشباب يقول : نحن نريد قدوات ، كل الأمة قدوات ما شاء الله ، من قدوتهم جميعًا رسول الله ﷺ إلى العلماء الربانيين ولله الحمد موجودين ؛ لكن عندما تقرأ لهؤلاء تعرف قدرهم وتعرف مكانتهم وتعرف كيف وصلوا إلى ما وصلوا إليه ، في ((**السير**)) للذهبي أيضًا ، ((**السير**)) كتاب جليل الحقيقة ، يترجم للرجال ويذكر كثير من الآثار التي وردت عنهم ، اقرؤوه ، القراءة تثري

القلب ، ثم يدين الإنسان نفسه وينظر إلى جهده فيرى أنه جهد ضعيف ضئيل ، فلعله أن ينشط اقتداءً بهؤلاء .

هذا الأثر الذي ذكره ابن عباس هو من الآثار الإسرائيلية ؛ ولكن مثل هذه الآثار تلحظ أنها تتمشى مع ظاهر الآية . ولهذا قال بعض أهل العلم بما يقتضي هذا الأثر ؛ لكن هنا يحتاجون أن يجيبوا عن قوله : (﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) . ومن أوجه الرد التي قيل بها في ترجيح قول الثالث : أن الله عز وجل قال : (﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) بصيغة الجمع ؛ لكن هذا قد يجاب عليه حتى بمثل قوله عز وجل : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ [ص : ٢١] . وقال : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ ﴾ [النمل : ٧٨] ، جمع فيخبر عن الاثنين بالجمع ؛ لكن (﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾) نسبتهما للشرك هنا محل إشكال .

ولهذا قال قتادة رحمه الله هذا القول : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته . وليس الشرك شرك عبادة ، ولكنه في الطاعة ، وشرك الطاعة المعصية لا شك ، لكن يتدرج الشيطان بالإنسان فيه شيئًا فشيئًا إلى أن يوقعه في شرك العبادة .

قال رحمه الله : (**وله بسند صحيح عن قتادة قال : شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته » .**

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله : ﴿ لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا ﴾ قال : أشفقا أن لا يكون إنسانًا) .

أي أشفقا أن لا يكون إنسان ، (﴿ صَالِحًا ﴾) يعني صالحًا في بدنه ، وصالحًا في دينه ، وهذا لا شك أمر عظيم .

(وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما .

فيه مسائل :

الأولى : تحريم كل اسم مُعَبَّدٍ لغير الله .

الثانية : تفسير الآية .

الثالثة : أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تُقصد حقيقتها) .

فلو قصدت حقيقتها فإنه يكون شركًا بالله عز وجل ، لو قصد أنه عبد للحارث عبودية تَألُّه لكان شركًا أكبر ، فهذا شرك وإن لم تُقصد الحقيقة لكنه شركٌ في الطاعة كما ذكر قتادة هنا على هذا القول .

قال رحمه الله : (الرابعة : أن هبة الله للرجل البنتَ السوية من النعم) .

(البنتَ) نصبها المصدر (هبة) ، المصدر ينصب ، والفعل ينصب وهذا واضح ، واسم الفاعل أيضًا ينصب ، فتقول : أكرم زيدٌ عمرًا . عمرًا مفعول للفعل أكرم ، وتقول : أنا مُكْرِمٌ عمرًا ، عمرًا مفعول لاسم الفاعل مُكْرِم ، وتقول : عَجِبْتُ من إكرام زيدٍ عمرًا ، عمرًا مفعول بالمصدر إكرام ، فكل هذه الثلاثة تقع على الاسم فيعرب مفعولاً به .

إعطاء الله البنت السوية من النعم لا شك ، بعض الناس لا قوة إلا بالله يُخشى أن تكون من آثار الجاهلية إذا جاءه بنت ربما يضيق ، ومن يعرف ربه لا يضيق بمثل هذه الأمور ، فكم من بنت خير من أولاد ، وهذا واقع ملاحظ .

ربنا عز وجل لما ذكر هبته الناس للأولاد في قوله : ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ [

الشورى : ٤٩] . بدأ بالإناث ، قالوا : وفيه يمن المرأة التي تتبكر بأنثى ، الشاب لما يتزوج امرأة وتأتي له ببنت فيدل على يمنها ؛ لأن الله بدأ بها .

الطالب : ما مناسبة هذه المسألة للباب ، ما فيه ذكر البنت ؟

الشيخ : لأنه قال : طلب صالحًا ، فإذا لم يكن صالحًا في بدنه أو كان مشوه أو كذا ، فكونه يأتيه بنت لا شك نعمة من الله عليه ، يعني هذا الذي انزعج لما جاءه بنت لو جاءه ولد مشوه مثلاً أيهما أحسن في نظره هو ؟ لا شك البنت .

فمجيء البنت نعمة من الله عز وجل بغض النظر عن المقارنة بينها وبين المشوه ، لا ما فيه مقارنة ، ولكن قد تكون البنت أحيانًا خيرًا من الولد .

الطالب : حكم التسمي بعبد الإله ؟

الشيخ : الإله من أسماء الله عز وجل ، وإن لم يرد سيأتي إن شاء الله في الذي بعده .

قال رحمه الله : (**الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة**) .

على قول قتادة رحمه الله ، الشرك في الطاعة معصية ، ولكن الشيطان يتدرج فيه بالإنسان ، وأما الشرك في العبادة .

قال رحمه الله : (**باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .**

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾ يشركون) .

الشيخ سليمان رحمه الله في ((**التيسير**)) ذكر أن الأثر الذي رواه ابن أبي حاتم عن قتادة وليس ابن عباس .

قال رحمه الله : (**وعنه : سموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز .**

وعن الأعمش : يدخلون فيها ما ليس منها) .

(**باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾**) ، هذا باب جليل عظيم باختصاره .

والمؤلف رحمه الله أشار فيه إلى توحيد الأسماء والصفات ، كما أشار إلى هذا في بعض الأبواب التي مرت بنا .

تعلمون أن أنواع التوحيد الثلاثة : الربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات . بينها علاقة وثيقة ، وأن توحيد الربوبية والأسماء والصفات وسيلة إلى ماذا ؟ توحيد الربوبية ، فمن اعترف بأن الله هو الخالق الرازق المالك المدبر يلزمه أن يؤلّه ربه ويوحده ، ويفرده بالعبادة .

ومن عرف الله عز وجل بأسمائه وصفاته فلا بد أن يعبده ، لهذا كان أشرف العلوم العلم بالله بأسمائه وصفاته لأن شرف العلم من مشرف المعلوم ، والمعلوم بهذا ربنا عز وجل .

قال رحمه الله : (**باب قول الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾**) ، أسماؤه تعالى كلها حسنى ، كما قال عز وجل : ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الحشر : ٢٤] .

وقال : ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [طه : ٨] ، وحسنى فُعْلى من الأحسن ، والأحسن أفعل تفضيل ، فالحسنى البالغة من الحسن غايته ، فجميع أسماء الله عز وجل حسنى ، قال : (﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾) .

وقدم الخبر هنا وهو لفظ الجلالة (﴿ وَلِلَّهِ ﴾) ، **والقاعدة :** أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر . **والمراد :** حصر الأسماء الحسنى له سبحانه وبحمده ، وأما غيره فله الأسماء ، لكنها لا تكون ولن تكون بالغة في الحسن ما بلغت أسماء ربي عز وجل .

ثم قال : (﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾) ، وهذا يشمل نوعي الدعاء ، وهما :

١ . دعاء العبادة .

٢ . والمسألة .

أما دعاء المسألة فالمعنى : أنك تدعوا الله عز وجل متوسلاً إليه بأسمائه الحسنى ، وهذا أعظم ما يتوسل به إلى الله عز وجل ، ولهذا كانت أدعية القرآن كلها رب ، توسلاً بالربوبية الخاصة . وذلك أن الربوبية نوعان ، هما :

١ . عامة لكل البشر ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ كل الخلق .

٢ . وخاصة بالأنبياء وأتباع الأنبياء .

فهو توسل إلى الله بربوبيته الخاصة لعبده أن يجيب دعاءه .

وقالوا : والأولى أن يتوسل إلى الله بالاسم المناسب لحاجة الإنسان ، فتقول وأنت تريد المغفرة : اللهم يا غفور ، الرحمة يا رحمن ارحمني ، العلم يا عليم يا علام الغيوب علمني ، وما أشبه ذلك .

وهذا النوع من التوسل عظيم ، قد سمع النبي ﷺ رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا لا إله إلا أنت الأحد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوًا أحد ، قال : « **لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى** » . وسمع رجلاً يقول : اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان – في رواية – الحنان ، بديع السماوات والأرض ، الحي القيوم ، إلى آخره ، قال أيضًا مثل ما قال : « **سأل الله باسمه الأعظم** » .

وقال : « **أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام** » ، ومعنى ألظوا يعني أكثروا وألزموا في دعائكم هذا الاسم ذا الجلال والإكرام ، هذا ما يتعلق بدعاء المسألة .

الدعاء الثاني دعاء العبادة ومعنى (﴿ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾) عبادةً **معناها** : أن يتعرض لله عز وجل بما تقتضيه هذه الأسماء ، يتعبد الله عز وجل بما تقتضيه هذه الأسماء ، وهذا أمر عظيم كبير . قالوا : ولكل اسم عبودية :

- فاسم السميع والبصير والعليم والرقيب كيف تدعوا الله بها دعاء عبادة ؟ بالمراقبة ، أي تراقب الله عز وجل ، تعلم أنه سميع ، وأنه رقيب ، وأنه مطلعٌ عليك عالم بك ما يخفى عليه ما بك من خافية ، وهذا أعظم ما يُوعظ به العبد ، أن يستشعر أن الله عز وجل يراقبه ، ويعلم بحاله .
- وفي اسم الرحيم ، الرحمن ، الودود ، تتعرض لرحمته سبحانه وتعالى بفعل أسبابها .
- وباسم القوي ، المتين ، العزيز ، الجبار ، تتعرض إلى الله باللجوء إليه ، الاعتصام به ، الثقة به ، التقَوِّي به سبحانه وبحمده .

- في اعتقادك أن الله معك حيثما كنت معية خاصة بالمؤمن ، فذلك يكسبك الطمأنينة والسكينة ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

وكل هذه آثار الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته .

(﴿ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾) اتركوا هؤلاء الذي يلحدون في أسماء الله عز وجل .

والإلحاد في أسماء الله : الميل بها عن الحق الواجب بها ، وهو أنواع :

١. إما بتعطيلها كما يفعل المعطلة .

٢. وإما بتمثيلها بالمخلوقين كما يفعل المشبهة .

٣. وإما بأن يسمي الله بما لم يسمِّ به نفسه ، كتسمية الفلاسفة له علة فاعلة ، وتسمية النصارى له أبًا ، وما أشبه ذلك .

٤. وإما باشتقاقه - كما في الأثر المذكور عندنا - اشتقاق أسماء للأصنام من أسمائه سبحانه وبحمده ، كل هذا من الإلحاد في أسمائه عز وجل .

(﴿ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾) وهذا وعيدٌ وتهديد ، وجيء بالسين الدالة على التحقق والقرب إشارة إلى الوعيد المتحقق والقريب بمن ألحد بأسماء ربنا عز وجل .

ثبت في ((**الصحيحين**)) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **إن لله تعالى تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدة من أحصاها دخل الجنة** » ، تسعة وتسعين اسمًا ، في رواية في غير ((**الصحيحين**)) عند الترمذي وغيره عدوا هذه الأسماء ؛ لكن العلماء يرون أن عدها مدرج ، وأن الزيادة هي من رواية الوليد

بن مسلم عالم الشام وهو ثقة ، لكنهم قالوا : إنه أدرجها من كلام شيوخه رحمه الله تعالى ، وليست من قبيل المرفوع .

والمعروف أن أسماء الله تزيد على تسعة وتسعين والدليل دعاء الهم المشهور – كفانا الله وإياكم شر الهم – « **نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك** » ، فثمة أسماء استأثر الله بها لا نعلمها ، ومعنى إحصاء أسماء الله عز وجل :

١. إحصاؤها لفظًا .

٢. فهم ما يفتحه الله لك ، أما إحصاؤها معنًى فهذا لا يمكن .

٣. ما ذكر منذ قليل أن يتعبد الله عز وجل بمقتضاها .

فيحفظ هذه الأسماء ، ويفهم شيئًا من معانيها ما يفتحه الله عليه من معانيها ، ثم يتعبد الله تعالى بها دعاء مسألة ودعاء عبادة ، فمن حصل منه ذلك الأمر فجزاؤه « **من أحصاها دخل الجنة** » .

اللهم انفعنا بما علمتنا ، وعلمنا ما ينفعنا ، وزدنا علمًا ينفعنا وتنفع به يا أرحم الراحمين ، اللهم اجعلنا من أهل جناتك جنات الفردوس ، ووالدينا ووالديهم وإخواننا المسلمين .

هنا مباحث في الأسماء الحسنى :

المبحث الأول : هل الأسماء أعلام أم أوصاف ؟

- من حيث دلالتها على صفات الرب عز وجل فهي أعلام .
- ومن حيث ما تتضمنه من المعاني فهي أوصاف .

لأن الواجب إثبات الاسم وإثبات ما تضمنه من الصفة ، وإثبات الحكم أو الأثر ، فتثبت اسم السميع مثلاً ، وما تضمنه من الصفة وهو صفة السمع ، وما يترتب عليه من الأثر وهو كونه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء لا يخفى عليه خافية من خلقه ، وهكذا في عموم الأسماء .

الثاني : هل الأسماء مترادفة أو متباينة ؟

نفس الكلام السابق :

- من حيث الدلالة على ذات الرب عز وجل فهي مترادفة .
- ومن حيث ما تتضمنه من المعاني فهي متباينة .

السميع غير العليم غير الحكيم ، هذا من حيث المعنى ؛ لكن من حيث دلالتها على ذات الرب تعتبر مترادفة .

الأمر الثالث : هل الاسم غير المسمى أو هو المسمى ؟

قالوا :

- من حيث اللفظ يعني من حيث اللفظ الاسم غير المسمى .
- لكن من حيث المعنى السميع هو الله عز وجل ، من حيث المعنى الاسم هو المسمى ؛ لكن من حيث اللفظ لا الاسم غير المسمى .

المبحث الرابع : أسماء الله توقيفية .

معنى توقيفية يعني يجب الوقوف فيها على ما ورد في الكتاب والسنة ، فليس لأحدٍ أن يسمي الله تعالى بما لم يسم به نفسه ، ولهذا كانت جادة أهل السنة يسمون الله بما سمى به نفسه بكتابه وبما سماه به رسوله ﷺ ، من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، وكذا ما تضمنه من الصفات .

لكن ما يتعلق بالإخبار عن الله عز وجل ، إخبار عن الله عز وجل فبابه أوسع ، لهذا يقولون : باب الصفات أوسع من باب الأسماء ، وباب الأخبار أوسع كالمتكلم مثلاً ، والمريد ، والفعال والصانع ،والقديم والموجود وما أشبه ذلك ؛ هذه ليست أسماء لله عز وجل . لكن عندما يقول الإنسان : ربنا الموجود مراده الإخبار عن الله عز وجل ، هذه ليست توقيفية وبابها أوسع ؛ لكن عند إطلاقها على الله عز وجل يُلاحظ فيها أن يطلقها الإنسان بما يليق به سبحانه وبحمده لأنها تحتمل يعني خذ الصانع مثلاً ، الصانع يحتمل كذا وكذا ، فإذا أُطلق على الله عز وجل فيقال : الصانع الذي أتقن كل شيء وهكذا ، كما قال الله ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] ،الفعال تقول : الفعال لما يريد وما أشبه ذلك .

هنا مسألة أيضًا وهي : أن الله عز وجل يحب أن يرى ما هو من مقتضى أسمائه ، وموجبها في عباده ، يحب أن يرى شيئًا من معاني أسمائه ، ومقتضياتها وموجباتها في عباده ، على ما يليق بهم ، فهو كريم يحب الكرم ، وعليم يحب العلم ، وتواب يحب التوابين ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ، ومحسن يحب الإحسان والمحسنين ، ورحيم يحب من عباده الرحماء ، وحليم يحب الحلم « **إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة** » وهكذا . فهو سبحانه وتعالى يحب أن يرى ما هو من مقتضى أسمائه وسبحانه وتعالى في خلقه ، ويبغض ما هو ضد ذلك ، فهو سبحانه وتعالى يبغضها لا شك .

المقصود : أن معرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته علمٌ جليل عظيم ، لهذا قال ربنا عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] . وفي ((**مسلم**)) لما جاء حبر من أحبار اليهود وقال : يا محمد إننا نجد أن الله يضع السماوات على أصبع ، والأراضين على أصبع ، والماء والثرى على أصبع ، والجبال والشجر على أصبع وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن فيقول : أنا الملك . فتبسم النبي ﷺ تصديقًا لقول الحبر ، وقرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

فمن يعتقد أن الأرض قبضة ربه والسماوات مطويات بيمينه يطويها كطي السجل للكتب ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] يعني كما تطوى الورقة على المكتوب فيها ، يطويها ربنا عز وجل يعرف عظمة الله عز وجل ، وهذا لا شك يقوي إيمانه ويقينه وثقته بربه سبحانه وبحمده .

ولهذا كان توحيد الأسماء والصفات عظيم في عمارة القلوب ، وفي زيادة الإيمان وهو من أَجَلِّ وأعظم أسباب زيادة إيمان العبد .

وقد ذكر الله جملة من الأسماء الحسنى في كتابه ، فمثلاً في آخر سورة الحشر ذكر أربعة عشر اسمًا ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢] ، هذه أربعة .

﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ﴾ ، ﴿ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ إلى آخره .

وفي سورة الحج ذكر عز وجل أيضًا أربعة عشر اسمًا في نظامٍ ونسقٍ جميل بديع ، سبع آيات لم يفصل بينها فاصل ، كل آية تختم باسمين من أسمائه عز وجل ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحج : ٥٩ – ٦٤] .

وفي التفسير للأسماء مقام ، ومكانة ومنزلة في فهم كتاب الله عز وجل .

فعندما تقرأ الآية وتختم باسم من أسمائه تعالى قف وتأمل العلاقة بين الاسم وبين الآية ، وتأمل العلاقة بين الاسمين ، يعني خذوا مثلاً ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللهُ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ كيف عفو غفور والمقام مقام نصر وتأييد ؟ قد يقول قائل :لماذا لم يقل قوي عزيز .

الجواب: أن في ذلك حثا على العفو ، ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ فأنتم لكم أن تعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وهذا مقام العدل ، لكن الأكمل منه أنكم تعفون ، وهذا مقام الفضل ولهذا ختمت بهذه الخاتمة اللطيفة .

وذكروا أن أعرابيًّا كان نائمًا في المسجد وكان الأصمعي يقرأ قول الله عز وجل : والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله

غفور رحيم . فرفع رأسه وقال : ليست الآية هكذا ، قال : أتقرأ القرآن ؟ قال : لا ، فنظر وإذا الآية ﴿ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ قال : عز فحكم ، لا يناسب القطع ذكر المغفرة والرحمة ، بل ذكر العزة والحكمة ، وتأملوها كثيرًا عندما تمر بكم في التفسير فهي غذاء .

التأمل في القرآن كله غذاء للقلوب ؛ لأن في كتاب ربنا الحياة ، الحياة الحقيقية في كتاب الله عز وجل وسنة الرسول ، والسير على نهج الكتاب والسنة هذه الحياة ، ولهذا وصف ربنا القرآن بأنه الروح قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ﴾ [الشورى : ٥٢] . وفي الدعاء المذكور « **أن تجعل القرآن ربيع قلبي** » . فاقرؤوا القرآن وتدبروه ولاسيما في أسماء الله وصفاته أيضًا ، وهو يتدبر في كل شيء على كل حال ليجد فيه الإنسان غُنيته ، وبغيته ، وراحته ولذته .

الطالب : هل يدخل من يؤوِّل الصفات في قوله تعالى (إن الذين يلحدون في).

الشيخ : لا شك التأويل كما ذكر ، العلماء ذكروا أنواع الإلحاد أربعة ، أشير إليها منذ قليل :

١. إلحاد المعطلة .

٢. وإلحاد الممثلة .

٣. وإلحاد الفلاسفة .

٤. وإلحاد المشركين .

المعطلة عطلوا ، ولهذا قال العلماء : المعطل يعبد عدمًا ، والممثل يعبد صنمًا ، الممثل مثلوا وإن كان التمثيل وجد في أول الأمر وقد يكون ما في شيء ينقطع لكن وجد في الروافض ووجد في بعض الطوائف داود الجواربي وهشام بن الحكم الرافضي كانوا من رؤوس أهل التمثيل المتقدمين . وإلحاد الفلاسفة وإلحاد المشركين كما مر بنا في الآثار ، في **الأثر الأول :** أثر مجاهد وابن عباس قال : يشركون فيها . فالمشرك ملحد بلا شك ، وملحد بأسماء الله عز وجل ، حتى ولو كان الملحد يعترف . المشركون يعترفون بأسماء الله في الجملة ببعضها ، يعترف باسم الله ، يعترف باسم العزيز ، ولهذا أخذوا العُزة منه ، واسم المنان إلى آخره ، لكنهم أشركوا فيها ، أشركوا بأسماء الله عز وجل ، وسموا آلهتهم بها ، فعبدوا مع الله غيره ، فألحدوا في أسماء الله عز وجل .

الطالب : ومن يثبت سبع صفات ويؤولون الباقي؟

الشيخ : الإلحاد يكون حتى في الصغائر . الإلحاد يكون عياذًا بالله كفر ويكون في المعاصي ، وربنا عز وجل قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] ، حتى في الصغائر ، يقال عنها نوع إلحاد ، لأن الإلحاد معناه الميل عن الحق .

ولهذا سمي اللحد لحدًا ؛ لأنه مائل عن سمت القبر ، فالإلحاد ميل ، فكل معصية تعتبر نوع من الإلحاد ، لكن ما يطلق على أصحاب هذا الوصف ، يقال : هذا ألحد في أسماء الله عز وجل ، هذا ألحد في كذا وكذا ، لكن الوصف مطلق هذا ملحد لا يكون إلا على الزنادقة والكفرة عياذًا بالله .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل:**

الأولى : إثبات الأسماء .

الثانية : كونها حسنى .

الثالثة : الأمر بدعائه بها .

الرابعة : ترك من عارض من الجاهلين الملحدين .

الخامسة : تفسير الإلحاد فيها .

السادسة : وعيد من ألحد)

بارك الله فيكم ، وفقكم الله

٤٤ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب لا يقال السلام على الله**

في ((الصحيح)) عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا : السلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان . فقال النبي ﷺ : « لا تقولوا السلام على الله ، فإن الله هو السلام ») .

(**باب لا يقال السلام على الله**) صلة هذا الباب بما قبله - بالأسماء والصفات - أن من اسم الله تعالى السلام ، والسلام هو السالم من النقائص والعيوب ، من له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، وله المثل الأعلى في السماوات والأرض ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] . **والمثل الأعلى هو :** الوصف الأكمل أن ما كان من صفة كمال فلله تعالى أكملها وأجلها وأعظمها .

هذا الباب يتحدث فيه المؤلف عن هذه المسألة ومراده تحقيق التوحيد فيما يتعلق في الألفاظ ، قدس الله روحه ونور ضريحه ، لو تأملت في الكتاب وجدت في الكتاب ترتيب جميل ، يعني:

- بدأ في التوحيد في عدة أبواب ، كتاب التوحيد ، فضل التوحيد ، تحقيق التوحيد ، تفسير التوحيد ، الدعاء إلى التوحيد.
- ثم انتقل منه إلى الضد وهو الشرك ، وبضدها تتبين الأشياء وبدأ بالشرك الأكبر:
  - لخطره وعظيم ضرره.
  - ولأن النبي ﷺ بدأ أول ما بدأ بالأمر بـ (لا إله إلا الله) ، والنهي عن الشرك ، بدأ بالتوحيد والنهي عن الشرك الأكبر ، مجرد أن بُعث صار يحذرهم ويدعوهم إلى أن يُقِرُّوا بتوحيد الله عز وجل وإلى أن ينبذوا الشرك .
- ثم ذكر المؤلف بعد ذلك أبوابًا تتعلق بشرك الألفاظ ، الحلف بغير الله ، قول ما شاء الله وشئت وما أشبه ذلك . وهذه المسائل لم يذكرها النبي ﷺ دفعة واحدة ، وإنما نَبَّهَ عليها بوجود أسبابها ، لما سمع عمر يحلف بأبيه قال : « **لا تحلفوا بآبائكم** » ، لما قال رجل : ما شاء الله وشئت ، قال : « **أجعلتني لله ندًّا** » ، وينهى عنها حسب مقتضيات الأحوال ، وحسب الأسباب الداعية إليها .
- ثم الآن يتكلم عن مسائل هي من تحقيق التوحيد لكنها تتعلق بالألفاظ ، مثل ما ذكر هنا رحمه الله (**لا يقال السلام على الله**) .

(**لا يقال السلام على الله**): **أولاً** السلام ، هذه الكلمة تحتمل أمورًا ثلاثة :

١. تحتمل التحية .

٢. وتحتمل أيضًا السلامة من النقائص والعيوب .

٣. **ثالثًا :** وهي اسم من أسماء الله عز وجل ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ ﴾ [الحشر : ٢٣] ، فهي من أسماء الله تعالى الحسنى ، فلا يقال : السلام على الله ، وكان الصحابة يقولون في صلاتهم ، ابن مسعود رضي الله عنه يقول : كنا إذا صلينا مع النبي ﷺ قلنا : السلام على الله ، السلام على جبرائيل ، السلام على ميكائيل ، السلام على فلان وفلان ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل علينا وقال : « **إن الله هو السلام** » ، يعني لا تقولوا : السلام على الله ، لأن الله هو السلام ، « **ولكن قولوا : التحيات لله ، والصلوات والطيبات السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، فإنكم إذا قلتم ذلك أصبتم كل عبد صالح في السماء والأرض ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، ثم ليتخير من الكلام ما شاء** » .

المقصود : أنه نهاهم أن يقولوا : السلام على الله ، لماذا ؟:

١. لأن الله هو السلام .

٢. ولأنه عز وجل يُدْعى ولا يُدعى له ، عندما يقول قائل : السلام على الله ، كأنه يدعوا لله بالسلامة ، وهذا لا يجوز بحال من الأحوال ، فهو تعالى يُدعى ولا يُدعى له .

٣. ولأن الدعاء بالسلامة يوهم اتصاف المدعو له بها وبضدها ، يعني يمكن يتعرض لعدم السلامة ، وحاشاه عز وجل أن يتصف بالضد ، فهو السلام

سبحانه وبحمده ، وهو السلام ومنه السلام ، ولهذا يقول المصلي: اللهم أنت السلام ومنك السلام .

بعض المصلين إذا سمعتم يقول :

- اللهم أنت السلام وعليك السلام ، هذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ .
- وبعضهم – وهذا أكثر يقول – : اللهم أنت السلام وإليك السلام ، وقوله (إليك السلام) تحتمل إليك السلام يعني منتهى السلامة إليك ، وهذا حسن ، وتحتمل أيضًا إليك السلام يعني عليك السلام ، احتمال وارد من هذه الكلمة ، ولهذا ينبه على هذه الكلمة ما دام أنها تحتمل خلاف المراد ، وما دام أنها خلاف النص أيضًا فينبه العامي عندما يقول مثل هذا الكلام.

اختلف في معنى السلام في التحية التحية السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، على قولين :

- **فقيل :** السلام هنا هو ربنا عز وجل ، والمعنى اسم السلام عليكم ، يعني بركة اسم ربنا عز وجل عليكم حالَّةٌ بكم ونازلة عليكم . واستدل من يقول بهذا القول بما ورد أنه ﷺ سلم عليه رجل فلم يرد عليه ، قد قدم من ناحية بئر جمل الحديث المشهور ، حتى عمد إلى جدار فتيمم ثم رد عليه ، وقال : « **إني كرهت أن أذكر الله على غير طهارة** » ، وقالوا : هذا يدل على أن السلام هو من أسماء الله عز وجل .
- **القول الثاني :** أن السلام معناه السلامة ، وأَيَّدوا قولهم هذا أولاً بالعطف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، سلامٌ عليكم ورحمةٌ عليكم من الله وبركاتٌ عليكم أيضًا ، فالرحمة منه ، والبركة منه ، والسلامة منه . **أيضًا**

قالوا : وقد ورد هذا اللفظ منكَّر في سلام الملائكة على إبراهيم ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ [هود : ٦٩] ، والمنكر لا يطلق على ربنا عز وجل ؛ لأن المنكر نكرة ، يدل على شيء غير معين ، ولا يكون هذا لله عز وجل ، بل هو السلام المستغْرِقُ ذلك الاسم له جميعًا صفات الكمال المنزه عن جميع صفات النقائص والعيوب، وهذا القول ليس ببعيد ، فيكون المقصود بقوله : السلام يعني السلامة ؛ لكن ذُكر اسم الله عز وجل السلام هنا توسلاً ، يعني توسلاً بذكر اسمه سبحانه وتعالى في حصول السلامة على المسَلَّم عليه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير السلام .

الثانية : أنه تحية .

الثالثة : أنها لا تصلح لله .

الرابعة : العلة في ذلك .

الخامسة : تعليمهم التحية التي تَصْلُح لله) .

هكذا الشرع دائمًا إذا نهى عن شيء فتح للناس بابًا آخر ، أما أن تُغلق الأبواب ولا يفتح للناس شيء ، ينهون عن شيء ثم يتركون هكذا ، لا ، بل ينهى عن شيء ويذكر البديل له ، ولهذا لم ينهَ النبي ﷺ عن هذا حتى سمع من الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

قال رحمه الله :

(**باب قول اللهم اغفر لي إن شئت**

في ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، لِيَعْزِمِ المسألة ، فإن الله لا مُكْرِهَ له » .

ولمسلم : « وَلْيُعْظِمِ الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه » .

(وليعظِّم) الشيخ سليمان في الشرح قال بالتشديد ، وهو في كذلك في صحيح مسلم.

قوله في حديث ابن مسعود السابق : (**في ((الصحيح))**) في ((**الصحيحين**)) ، وهنا أيضًا قوله : (**في ((الصحيح))**) الحديث في ((**الصحيحين**)) .

(**باب قول اللهم اغفر لي إن شئت**) ، المغفرة ما هي – هذه مرت بنا كثير في ((**التفسير**)) ؟ الستر والتجاوز ، أخذت من المغفر والذي فيه ستر ووقاية .

اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت غالبًا في القرآن يذكر اسم الغفور قبل الرحيم ، والمغفرة قبل الرحمة .

والمغفرة تخلية والرحمة تحلية .

والمغفرة لما مضى ، والرحمة لما يستقبل بحيث يرحمه فيعصمه عن الذنوب التي غفرها له .

ودعاء الإنسان دائرًا بين هذين الأمرين ، وهما :

١. طلب المرغوب .

٢. والنجاة من المرهوب .

قال تعالى : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : ١٦] ، فهم بين خوف من ذنوبهم ومعاصيهم وآثارها وعقوباتها ، وبين طمع في رحمة ربهم وفضله وبره وإحسانه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] .

وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وذكر الشيخ رحمه الله المغفرة والرحمة وذكر المشيئة معها لا يعني التخصيص لكن ذكره على سبيل التمثيل ، وإلا لو قال : اللهم وفقني إن شئت ، اللهم ارزقني إن شئت ، أيضًا داخل تحت هذا .

قال ﷺ في حديث أبي هريرة هذا : (**« لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، لِيَعْزِم المسألة ، فإن الله لا مكره له »**) ، هذه رواية البخاري .

والثاني : رواية مسلم (**« لِيَعْزِم المسألة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه »**) .

فقول : اللهم اغفر لي إن شئت ، ورد النهي عنه ، قال العلماء : والنهي الأصل فيه التحريم .

وذكر في الحديث علتين للنهي هما :

- **أولاً قوله :** (**« فإن الله لا مكره له »**) ، لأن من يقول : اللهم اغفر لي إن شئت . كان في ذهنه أو في ظنه أن وراء الله مكره ، يكرهه على الشيء ، فهو يقول : إن شئت .

- **والثاني :** أنه لا يتعاظمه شيء ، كأنه يقول : أنا أسأل ربي ، وهذا الشيء عظيم ولكن أقول إن شئت يا ربي ، ولهذا قال : (« لِيَعْزِمِ المسألة ») . ولهذا الذي ينبغي للإنسان أن يجتهد في الدعاء ، ويلح في الطلب ، ويعظم الرغبة ، ويطلب من ربه عز وجل كل شيء ، فهو تعالى أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، يعرض كرمه وفضله وإحسانه وجهده على عباده . من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له ، فيسأل الإنسان ربه ويعلم الرغبة ، ولهذا قال عليه السلام : « **إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ووسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقها عرش الرحمن** » ، لا يقول الإنسان : أنا كذا أنا كذا .
- **الأمر الثالث :** أن من يقول هذا الكلام ويستثني بذكر المشيئة صنيعه هذا يدل على فتور في الرغبة ، عدم حرص على ما يطلب ، اللهم اغفر لي إن شئت يا رب اغفر لي ، فكأن رغبته ضعيفة في حصول مطلوبه ، وهذا ما ينبغي ، ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] . فيدعوا الإنسان ربه متضرعًا مُلِحًّا مجتهدًا .

الطالب : هل الأمر الثالث مستفاد من قوله (وليعظم الرغبة) ؟

الشيخ : يمكن يستفاد من قوله : وليعظم المسألة والرغبة ، لأن من لا يعظمها قد يكون سبب عدم إعظامه لها لديه شيء من الفتور في هذا الأمر . ولأنه قد يكون عنده تردد في أن الله يجيب دعوته أو لا يجيب ، فيتأكد على الإنسان أن يدعوا لله وهو موقن بالإجابة ، لقوله ﷺ : « **ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة** » . ولن يضيع عنده دعاء أبدًا ، فإما أن يجيب طلبته ، وإما أن يصرف عنه من الشر

مثله ، وإما أن يدخرها له يوم القيامة ؛ لكن الإنسان الضعيف المسكين يريد حاجته التي يريد ، وقد يكون غيرها أهم منها ، فما يقول الإنسان : أنا دعوت سنتين ثلاثة ، يقول كثير من الناس هكذا : أنا دعوت لي أربع سنين ، خمس سنين ، وأنا أدعوا ما استجيبت دعوتي ، لا تقل : ما استجيبت دعوتي ، أنت لا تعلم فلا تتهم الله عز وجل ، اتهم نفسك ، اتهم نفسك وتقصيرك وإهمالك ، لأن الشيء ما يحصل إلا بوجود أسبابه وانتفاء موانعه ، وُجِدَ منك السبب وهو الدعاء ؛ لكن قد تكون هناك موانع منعت الإجابة ، وذكر رجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له ، يعني كيف يستجاب له ؟

والحديث كما يقول أهل العلم : ليس فيه أنه لا يستجاب له ؛ لكن فيه شيء من استبعاد أن تستجاب دعوته ، ولكن قد يستجيب الله سبحانه وتعالى له وهو المستجيب من الكافر إذا دعاه وتضرع إليه وأخلص في دعوته سبحانه وبحمده .

والمقصود : أن الإنسان يدعوا ويجتهد ويستمر ولو طيلة عمره في طلب حاجة له ، فهو غانم ورابح بكل حال ، إن حصلت دعوته في الدنيا وإلا فقد تكون الإجابة يوم القيامة ويكون أحوج إليها مما لو أعطيها في الدنيا .

وليستشعر اسم الله الحكيم ، حكيم يضع الأشياء في مواضعها ، ماذا عندك أنت أيها الإنسان من الحكمة ؟ قد يكون من حكمته أن يجيب دعوتك ، وقد يكون من حكمته عز وجل أن لا يجيبها ، وأن لا يكون الخير لك في حصول ما تريد ، كما قال عز وجل : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ

تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، عسى أن يحب الإنسان شيئًا وهو شر له فيصرفه الله عنه رحمة به ، فالحكيم يقضي بحكمته سبحانه وبحمده .

ورد عنه ﷺ في الدعاء للمريض أنه قال لمريض عاده : « **لا بأس عليك ، طهور إن شاء الله** » ، هنا النبي ﷺ ذكر المشيئة :

- **أولاً قالوا :** هذا من باب الخبر وليس من باب الإنشاء ، وإن كان في الحقيقة الخبر معناه الإنشاء ، وقد يكون الخبر هنا أبلغ ، يعني كأن الأمر حاصل ، كأنه تطهير بهذا المرض واقع ، فجاء بصيغة الخبر ، فيقال هذا خبر والخبر تذكر فيه المشيئة .
- **أو يقال :** ذكر المشيئة هنا للتبرك ، التبرك بذكر المشيئة ، كما في قوله عز وجل : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ ﴾ [الفتح : ٢٧] ، وقد شاء الله ذلك سبحانه وبحمده ، فذكر المشيئة هنا يقول أهل العلم : يراد بها التبرك ، ﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] وهم داخلون ، فالمراد هنا التبرك بذكر المشيئة . لو نزلنا لواقع الناس ، نجد أن الناس كثيرا ما يذكرون المشيئة في دعائهم ، وهذا مما جد ، عرفنا في الزمن الماضي الناس وحتى العامة منهم ما يذكر الواحد منهم المشيئة في دعائه أبدًا ، واليوم لا يكاد يدعوا داعي إلا يقول : الله يوفقك إن شاء الله ، الله يغفر لك إن شاء الله ، الله يرحمك إن شاء الله ، وقد يقول : أنا ليس مرادي ، أو ليس ذكر المشيئة هنا صادر عن فتور في رغبتي ، لا أنا راغب وحريص ، ولكن أريد بها التبرك . التبرك وارد ، أن يكون المراد بها التبرك ، لكن لما كانت هذه الكلمة توهم شيئًا فالأولى هجرها ، لأن النبي

ﷺ قال : « **لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت** » ، حتى لو قال واحد : أنا أقول : إن شئت والله لا أذكر هذا إلا تبركًا بذكر مشيئة ربي ، نقول : وإن كان النبي ﷺ ما قال إن قصد كذا ولا إن قصد كذا . لكن يقال هذا في النصوص التي ورد فيها ذكر المشيئة ، يجاب بمثل هذا .

ورد في القرآن تعليق إجابته الدعاء بالمشيئة ، في مثل قوله عز وجل : ﴿ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام : ٤١] . ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ❊ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ ﴾ ، نقول : لا ريب أن ما يمضيه ربنا ويقضيه هو بمشيئته ؛ لكن بالنسبة لك أنت أيها العبد إنما تذكر المشيئة وتَرِد عليك هذه الاحتمالات ، أما الله عز وجل فإنه تعالى يذكر أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه بمشيئته سبحانه وبحمده ، فيكشفه وإن شاء ولا يكشفه إن شاء حسب حكمته سبحانه وبحمده . أما أن يقول العبد : اللهم اغفر لي إن شئت لأنك لن تغفر لي إلا بمشيئتك ، هذا يمكن ، قال : اللهم اغفر لي إن شئت ، وهو لا يعلم مشيئة ربه سبحانه وبحمده ؛ لكن قوله : إن شئت . فيه المحاذير التي ذكرت ، وفيه شيء من عدم إحسان الظن حتى بربه سبحانه وبحمده ، أما ربنا فهو يغفر لمن شاء ، ويعذب من شاء ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ ، فهو يغفر لمن يشاء برحمته ، ولا يغفر لمن شاء بحكمته سبحانه وبحمده .

قال المؤلف رحمه الله تعالى : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن الاستثناء في الدعاء) .

(اللهم اغفر إن شئت) هل هو استثناء أو شرط ؟ ، (إن) شرطية ، لكن يقولون : كل شرط استثناء ، كل شرط يعتبر استثناء تقول : أكرم زيد إن جاء ، يعني أكرمه إلا أن لا يجيء ، ومنه قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير لما قالت : إني أريد الحج وأجدني شاكية ، قال : « **حجي واشترطي فإن لك على ربك ما استثنيت** » ، فجعل الشرط استثناء ، وهذا من حيث الدليل . حتى من حيث اللغة الشرط استثناء كما ذكر ، تقول : أكرم زيدًا إن أكرمك ، حولها لاستثناء أكرم زيدًا إلا أن لا يكرمك ، فالشرط استثناء .

(**الثانية : بيان العلة في ذلك**) .

(**بيان العلة في ذلك**) ، وهي قوله : (« **فإن الله لا مكره له** ») . وقوله : (« **فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه** ») .

في رواية لمسلم « **فإن الله صانع ما شاء لا مكره له** » .

(**الثالثة قوله : « ليعزم المسألة »**) .

أن الإنسان عندما يدعوا يدعوا بعزم ، واجتهاد ، وبإلحاح وبإخلاص ، ويدعوا وهو موقن بأن الله تعالى لن يرد يديه صفرًا ، كما ورد في الحديث .

(**الرابعة : إعظام الرغبة**) .

يعظم الرغبة ولا يقول : أنا وأنا وأنا . بعض الناس ربما يكون عندي شيء من التقصير ، ويأتيه الشيطان من هذا الجانب ، فيوقعه في شيء من القنوت واليأس ولا قوة إلا بالله ، كما مر بنا ، ويوقعه في شيء أشد من الأمر الذي أوقعه فيه ، وقع في ذنوب ومعاصي وآثام ؛ لكن القنوط واليأس ضلال وكفر كما ورد في الآيات ، ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾ [الحجر : ٥٦] ،

﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

وإذا وقع في القنوت أبعد عن التوبة ، وكل هذا من كيد الشيطان حتى لا يتوب هذا المذنب ، وربنا يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] . فيأتيه الشيطان يقول : أنت يُغفر لك وقد فعلت وفعلت وفعلت وفعلت ؟ فيقع في هذه المحاذير ، ثم لا يدعوا الله عز وجل ، ويقول : أنا أدعوا الله ، وهل سيستجيب لي ربي ؟ وهل سيغفر لي ويتوب علي ؟ فيحجب عنه بابًا عظيمًا من أبواب الرحمة ، فلا يدعوا ربه ، يأثم من رحمته ولا قوة إلا بالله .

(**الخامسة : التعليل لهذا الأمر**) .

(**التعليل لهذا الأمر**) كما ذكر .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

وجزاكم الله خيرًا

٤٥ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(بابٌ لا يقول عبدي وأمتي

في ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وَضِّئ ربك . وليقل : سيدي ومولاي . ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي . وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي ») .

أيضًا هذا من الألفاظ التي ترد على الألسنة ، والتي هَجْرُهَا من تكميل التوحيد وتحقيقه .

لا يقل السيد : عبدي وأمتي ، ولا يقل المملوك : ربي وربتي ، والحكمة في النهي :

١. لما فيه من الاستطالة ، استطالة المالك على المملوك عندما يقول : أنت عبدي .

٢. ولما فيه من إيهام المشاركة في العبودية ، والتي هي حقٌّ لله عز وجل .

٣. ولما فيها من التعظيم الذي لا يليق إلا بالله عز وجل ، لهذا نهي عنها .

وظاهر النهي كما يقول ابن مفلح رحمه الله : التحريم ، وإن كان يحتمل الكراهة .

ومن قال إنه للتحريم أخذ بظاهر النص (**« ولا يقل أحدكم : عبدي وأمتي »**) ؛ لأن النهي عند الإطلاق يدل على التحريم .

ومن قال بالكراهة ، أو اعتبر هذا من باب الأدب نظر إلى نصوصٍ وردت في الشرع أُطلقت فيها مثل هذه الألفاظ:

- في قوله عز وجل : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ [النور : ٣٢] ، والمراد بالعباد هنا المملوكين ، وذُكروا بوصفهم ، بوصف العبد والأَمة ، ﴿ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ﴾ ، هذا في قول السيد .
- وأما في قول المملوك لمالكه : ربي ، أو ربتي . فبمثل قول يوسف عليه السلام لصاحبي السجن : ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف : ٤٢] . وإن كان لقائل يقول : هذا في شرع من قبلنا . فإذا قيل بهذا فلا احتجاج به ولكن على القول أنه مما ورد في الشرع ولم ينكر يقال : إن مثل هذه النصوص صَرفت النهي عن التحريم إلى الكراهة ، أو إلى الأدب .

ثم المعنيون بهذا النهي ثلاثة هم :

١ . السيد ، وهذا في قوله : لا يقل عبدي وأمتي .

٢ . المملوك ، وهذا في قوله : (**« وليقل : سيدي ومولاي »**) .

٣ . المتكلم طرف ثالث ، وهذا في قوله : (**« أطعم ربك ، وَضِّئ ربك »**) .

فنهي الثلاثة كلهم أن يقولوا مثل هذه الكلمات والتي في بعضها شيء من الاستطالة وفي بعضها شيء من التذلل والخضوع الذي لا يكون إلا لله عز وجل .

تلحظون أن الحديث (**« لا يقل أحدكم : أطعم ربك ، وَضِّئ ربك . وليقل : سيدي ومولاي »**) كأن في الكلام طيًّا ، يعني كأن في كلام محذوف ، لا يقل أحدكم : أطعم ربك وضِّئ ربك ولا يقل أحدكم : ربي ، وليقل سيدي ومولاي . لأن في الكلام التفات ، فكلام الأول للمتكلم ، الطرف الثالث ، والعبارة الثانية للعبد ، فلا بد من مقدَّر حتى يفصل بين الجملتين .

(**« وليقل : سيدي ومولاي »**) هذا مثل ما قيل منذ قليل إن الشارع إذا نهى عن شيء أوجد المخرج ، ﴿ لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] لا يقل ربي وليقل : سيدي ومولاي .

والسيد يطلق على ثلاثة :

١. فيطلق على الزوج ، فزوج المرأة سيدها ، الدليل ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ [يوسف : ٢٥] .

٢. ويطلق على المالك كما في هذا الحديث .

٣. ويطلق على الكبير في قومه المطاع فيهم ، قال النبي ﷺ لما جيء بسعد بن معاذ وهو مريض ، قال : « **قوموا إلى سيدكم** » .

فيطلق على أحد المعاني الثلاث .

لكن كيف نجمع بين قوله : (**« وليقل : سيدي »**) . ومعنى قول النبي ﷺ : « **السيد الله** » ؟ وسيأتينا إن شاء الله في حديث عبد الله بن الشخير لما قدم في وفد بني عامر ، فقالوا للنبي ﷺ : أنت سيدنا . فقال : « **السيد الله** » ؟

يقال : لا اختلاف ، أما السيد المعرف بالألف واللام الدالة على الاستغراق فلا يكون إلا لله عز وجل . فلا يقال : فلان السيد ، لا ، ولكن أن يقول المملوك

لمالكه : سيدي ، أو تقول المرأة لزوجها ، أو يقال للأمير ، قد يقال لا بأس بهذا ، وأنه ما تنبغي المواجهة بمثل هذا ؛ لأن النبي قالوا : أنت سيدنا ، ولم يقولوا له : أنت السيد . ومع ذلك قال : « **قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان** » .

قوله : (**« ومولاي »**): أما ولاية الله عز وجل فهي الولاية العظيمة والله مولانا ، وولايته نوعان ، هما:

١ . عامة .

٢ . وخاصة .

العامة لكل الخلق ، ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ٦٢] .

والولاية الخاصة إنما هي للرسل وأتباعهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ [محمد : ١١] .

قد يقول قائل : كيف الكافرين لا مولى لهم ، ثم في آية أخرى ثم ردوا جميعًا إلى الله مولاهم الحق ؟

نقول : لا خلاف ، الولاية المنفية هنا خاصة ، أما المثبتة للكفار فهي الولاية العامة ، هذا بالنسبة لولاية ربنا عز وجل .

لكن السيد مولى ، وكلمة مولى تطلق على معانٍ ، قيل إنها تطلق على قرابة ستة عشر معنى ، منها :

١ . المولى من أعلى وهو المالك .

٢ . ومنها المولى من أسفل وهو المملوك .

٣ . ومنها المولى بمعنى الناصر وهكذا .

ليقل مولاي فلا بأس أن يقول لمالكه : يا مولاي ، لكن ورد في ((**صحيح مسلم**)) « **ولا مولاي فإن مولاكم الله** » زيادة ، وهذه الزيادة كأن بعض أهل العلم تكلم فيها ، وحكم عليها بالشذوذ لمحالفتها هذه الرواية المشهورة ، وقد اختلفت الرواية فيها عن الأعمش رحمه الله تعالى ، فروى عنه جملة من الرواة الثقات هذا اللفظ ، ولهذا حكم العلماء عن اللفظ الأخير بأنه لفظٌ شاذ .

إذًا:

- لا يقول المالك : عبدي وأمتي ، لِمَا ذكر من الاستطالة والإذلال للمولى ، لكن يقول فتاي وفتاتي أو غلامي .
- ولا يقول المملوك : ربي ، وربتي ، ولكن يقول : سيدي ، ومولاي ، أو سيدي وسيدتي إلى آخره .

الإسلام تأملوا كيف لَطَف بالمملوكين حتى بالألفاظ ، ولهذا كان المماليك في الصدر الأول عندما كانوا يعاملون معاملة حسنة كانوا نجوم في جبين هذه الأمة ، والبعض منهم أئمة وعلماء كبار :

- فعكرمة مولى ابن عباس لذا أخذ عن ابن عباس علمه .
- ونافع مولى ابن عمر رضي الله عنهم وأرضاهم .
- وسليمان بن يسار وأخوه عطاء ، وسليمان من فقهاء المدينة السبعة ، وأخوه عطاء من الثقات أيضًا مولى ميمونة أم المؤمنين بنت الحارث .
- وسيرين وأولاده الستة ومنهم محمد بن سيرين التابعي الشهير وأخوه أنس أيضًا ، ويحيى ومعبد وحفصة وكريمة ، وحفصة اختلف في أفضل التابعيات ، والخلاف بين حفصة بنت سيرين وبين عمرة بنت عبد

الرحمن ، يعني وصل الأمر بها إلى أن تكون أفضل التابعيات ، وأبوها سيرين وقع في السبي . أنس لما حضرته الوفاة أوصى أن يغسله محمد بن سيرين مع أنه كثير الأولاد أنس رضي الله عنه ، نسله كثير ومع ذلك وصى مولاه ، فكان لهم مكانةٌ ومنزلةٌ وقدر ، وعُني بهم الصحابة وربَّوهم ، ولم يهينوهم ولم يذلوهم ، بل كما تلحظون نهى النبي ﷺ عن إذلالهم حتى في الألفاظ ، وهذا يدل على رعاية هذا الشرع الحكيم ، واهتمامه بهم .

وإذ شَرَع الرق أوجد له مدخلاً واحدًا وهو الجهاد ، وأما مخارج العتق فكثيرة ، عامة الكفارات فيها العتق ، وعتق التبرر قربة من أفضل القرب ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١ – ١٣] . « **ومن أعتق عبدًا أعتق الله بكل عضو منه عضوًا منه من النار** » ، فكان لهم شأن ومكانة في هذا الدين الحنيف .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن قول عبدي وأمتي .

الثانية : لا يقول العبد لسيده : ربي . ولا يقال له : أطعم ربك .

الثالثة : تعليم الأول قول فتاي ، وفتاتي ، وغلامي .

الرابعة : تعليم الثاني قول سيدي ومولاي .

الخامسة : التنبيه للمراد ، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ) .

قال رحمه الله :

(**بابٌ لا يرد من سأل بالله**

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من سأل بالله فأعطوه ، ومن استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن دعاكم فأجيبوه ، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُروا أنكم قد كافأتموه » . رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح) .

عندكم « **من سأل بالله** » قبل « **من استعاذ بالله** » ؟

الطالب : بعض النسخ (من سأل بالله) قبل (من استعاذ بالله) ، وبعضها (من استعاذ بالله) قبل (من سأل بالله).

الشيخ : لفظه في سنن أبي داود « **من استعاذكم بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه** » .

قال : (**بابٌ لا يرد من سأل بالله**) ، وهذا الباب أيضًا من تحقيق التوحيد وتعظيم الرب سبحانه وبحمده ، حتى إن من سأل به لا يرد سؤاله .

قال ﷺ في حديث ابن عمر : « **من استعاذ** » أو « **استعاذكم بالله فأعيذوه** » ، استعاذ بالله قال : أعوذ بالله منك ، فيجب على الإنسان أن يعيذه ، ولما دخل النبي ﷺ على عمرة بنت الجون وقالت : أعوذ بالله منك ، قال : « **لقد عذت بمعَاذ** » ، في رواية « **بعظيم ، الحقي بأهلك** » ، وتركها ﷺ لما استعاذت بالله منه . لما أراد عثمان أن يولي ابن عمه القضاء قال : أعوذ بالله من ذلك ، تركه رضي الله عنه وأرضاه .

الشيخ : « **من استعاذ** » ، حتى نسخ التوحيد تقديم (من استعاذ) ، لكن يبدوا بلفظ (من استعاذ بالله) .

قال : (« **من سأل بالله فأعطوه** ») ، سألكم بالله فأعطوه ، وهذا الشاهد من الحديث من سألكم بالله فأعطوه ، وهنا مسألتان :

المسألة الأولى : ما يتعلق بالسائل ، فهل له أن يسأل الناس ويقول : أسألهم بالله ؟

قال العلماء : يكره ذلك ، يكره للإنسان أن يسأل الناس بالله عز وجل لما فيه من التشديد على الناس ، الإنسان لا شك يحرج عندما يسأله شخص بالله عز وجل .

المسألة الثانية : بالنسبة للمسؤول المعروف من كلام الفقهاء أنه تستحب إجابته ، ولا تجب .

وبعض أهل العلم يُفَصِّل ، فيقول :

١. إن سأل إثمًا ، أو قطيعة رحم أو محرمًا فلا تجوز إجابته ، تحرم إجابته حتى ولو سأل بالله عز وجل .

٢. وإن سأل حقًّا أو شيئًا له فيه حقٌّ فإن سؤاله بالله يزيد ذلك الحق توكيدًا ، ويزيد الوجوب وجوبًا فتجب إجابته .

٣. وإن سأل شيئًا يضر المسؤول إجابته فلا يلزم أن يجيبه .

وشيخ الإسلام يقول : هذا من معين يسأل شيئًا معينًا ، أما سائل يمشي على الناس ويقول : أسألكم بالله تعطوني ، أسألكم كل واحد يقول : أعطوه أعطوه

فلا ، مثل هذا لا يجاب ؛ لكن شخص سأل شيئًا معينًا ، وسأله شخصًا معينًا فهذا تنبغي إجابته بل يَرى بعض أهل العلم أنه تجب إجابته تعظيمًا لله عز وجل .

وتذكرون شيء مر بنا مثال لهذا وهو حديث الثلاثة عندما أتاهم ملك بعد ذلك وقال : أسألك بالذي أعطاك الجلد الحسن ، واللون الحسن ، والشعر الحسن ، كل واحد يقول له : أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا .

سيأتينا إن شاء الله في آخر الكتاب (باب لا يستشفع بالله على أحد) ، فلا يجوز أن تقول : أستشفع بالله عليك ، فما الفرق ؟

هنا عندما سأل بالله هل يُفهم أن المسؤول به وهو ربنا عز وجل أقل مرتبة من المسؤول هل يفهم ذلك ؟ أبدًا ، بل يُفهم أن المسؤول به أعظم ، وكأن لسان حاله يقول : أسألك بالله الذي تُعظمه أن تعطيني كذا وكذا إعظامًا لله عز وجل ، فليس فيه محظور ، بخلاف الشفاعة ، فالشافع قد يكون أعظم من المشفوع عنده وقد يكون مثله ، وقد يكون أقل . أنت تأتي إلى شخص تقول : اشفع لي عند فلان قريبك ، وهو أقل منه ، ما يلزم من الشفاعة أن يكون أعلى مرتبة من المشفوع عنده خلف السؤال به .

ثم قال : (« **ومن دعاكم فأجيبوه** ») ، أخذ الظاهرية بظاهر اللفظ ، وقالوا : تجب إجابة كل دعوة ، سواء كانت دعوة عرس أو غيرها . وفي الحديث المخرج في (**الصحيح**) « **حق المسلم على المسلم ست** » وذكر منها « **وإذا دعاك فأجب** » . لكن المشهور من كلام أهل العلم أن الدعوة المتعينة إجابتها هي وليمة العرس ، لقوله ﷺ : « **شر الطعام طعام الوليمة** » ، إلى أن قال : « **ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله** » . وهذا إذا دعاه أول مرة ، يمكن يكون

عنده وليمة وليمتين ثلاثة ، إذا كان في أول مرة وعيَّنه لم تكن دعوة جفلى وكان الداعي مسلم ، وليس فيها منكر ، ولم يكن عليه مشقة ، أما من كان عليه مشقة فالمشقة تجلب التيسير .

والظاهر أن إجابة الدعوة عمومًا سواء كانت عرسًا أو غير عرس من الأمور التي تطيب خاطر الداعي .

ثم قال بعد ذلك : (**« ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه »**) ، إذا صنع لك إنسان معروف أيًّا كان فكافئه ، ولهذا قال ﷺ : « **تهادَوْا وتحابوا** » ما قال : أهدوا ، تهادوا ، ولأن الإنسان بعدم المكافئة يكون في قلبه شيء من تذلل لهذا الذي أسدى إليه ذلك المعروف ، وقلب الموحد ينبغي أن يكون خاليًا من أي خضوع أو تذلل إلا لربه سبحانه وبحمده .

فإذا لم يجد الإنسان ما يكافئه فماذا يعمل ؟ يدعوا له ، وأحاله في مكافئته إلى أكرم الأكرمين رب العالمين سبحانه وبحمده . وروي أنه قال ﷺ : « **من قال لأخيه جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء** » ، لكن الحديث فيه ضعف لكن يدعوا له بأي دعوة .

والباب على كل حال عقده المؤلف ، والشاهد منه قوله : (**« من سألكم بالله فأعطوه »**) .

الطالب: كنا ونحن صقار نقرأ الحديث (تهادوا تحابوا) نقرأه (تَهَدَّوا).

الشيخ: يعني يتهاوشون ، هذا فيه تناقض يتهاوشون يتحابون ، من المسائل التي يقع فيها الإنسان في صغره خاصة إذا بدأ في العلم عندما كنا مبتدئين في الطلب كنا نقرأ الحديث لا يَرِد الدعاء بين الأذان والإقامة ، لا يَرِد الدعاء ، قُلب

الحديث رأسًا على عقب لا قوة إلا بالله ؛ لأن ما في فرق في الكتابة إلا بالشدة والذي ما يعرف ، يقع طالب العلم في بداياته في أوهام ، وربما يحفظ الشيء خطأً ، ولهذا العلماء دائمًا يحثون على القراءة على طلاب العلم ، حتى لا يقع الإنسان في أخطاء في سن الحفظ والتحصيل ثم ترسخ في ذهنه ، الخطأ إذا كان قديم من الصعب أن يغيره ، ولهذا قالوا : لا تأخذ الحديث عن صحفي ، ولا القرآن عن مصحفي ، معنى مصحفي يعني واحد قرأ القرآن من المصحف ما قرأه على أحد .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : إعاذة من استعاذ بالله .

الثانية : إعطاء من سأل بالله .

الثالثة : إجابة الدعوة .

الرابعة : المكافأة على الصنيعة .

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه .

السادسة : قوله : « حتى تُرَوْا أنكم قد كافأتموه ») .

في بعض النسخ (حتى ترون) وفي بعضها (حتى تَرَوا) بالفتح ، فما الفرق ؟

رأى :

- تكون علمية .
- وتكون للظن.
- وتكون بصرية.

هنا (تُروا) للظن إذا بنيت لما لم يسم فاعله ، يعني حتى يكفي الظن ، حتى تظن أنك كافأته .

وإذا قلت : حتى (تَرَوْا) تكون معناها تعلموا ذلك .

لكن فيه نسخة قديمة (حتى ترون) وهذا خطأ ، لأن حتى ينصب الفعل المضارع بـ (أن) مضمرة بعدها ، وحتى هذه عجيبة .

١. تأتي ابتدائية .

٢. وتأتي حرف جر .

٣. وتأتي حرف عطف .

٤. وتأتي للتعليل .

٥. وتأتي غائية .

حتى قال الأخفش أموت وفي نفسي شيء من حتى ، كأنه لم يستكمل البحث فيها .

« **حتى** » هنا هل هي غائية أو تعليلية ؟

الجواب: غائية ، مثل قوله عز وجل : ﴿ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴾ [الكهف : ٩١] ، إلى أن يرجع .

وقد تأتي للتعليل مثل ﴿ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا ﴾ [المنافقون : ٧] ، أي لأجل أن ينفضوا .

وهناك مثل مشهور عند المعربين أيام الطلب والدراسة : أكلت السمك حتى رأسَها ، ورأسُها ، ورأسِها :

- حتى رأسَها عطف .

- وحتى رأسِها حرف جر .
- وحتى رأسُها ابتدائية .

وإذا قلت : حتى رأسِها ، يعني ما أكلت الرأس ، إلى الرأس والرأس ما أكلتها .

وإذا كانت حرف عطف أكل حتى الرأس ، اللغة جميلة والنحو .

والابتدائية حتى رأسُها ، يعني رأسها مبتدأ وخبرها مقدر حتى رأسها أكلته .

الطالب : هل حتى تنصب بذاتها ؟

الشيخ : هم يقولون الفعل المضارع منصوب بـ(أن) مضمرة بعدها .

الاهتمام بالنحو ضرورة ومهم ، طالب العلم لا بد أن يكون له دراية ومعرفة به ، كان المشايخ وهذا الكلام قلناه مرارًا وتكرارًا ما يحبون اللحان أبدًا ، وابن الوردي يقول :

جمل المنطقة بالنحو فمن ** يحرم الإعراب بالنطق اختبل

يعني اختبل في كلامه ، ما اختبل في عقله ، حقيقة الاهتمام بالنحو وما يراد من النحو إلا أصوله وأساسياته ، التعمق للمتخصصين ، والله المستعان .

قال رحمه الله :

(**باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة**

عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة » .

رواه أبو داود) .

قوله : (**لا يُسأل بوجه الله**) :

- قيل : لا يسأل الله تعالى بوجهه إلا الجنة .
- وقيل : لا يسأل أحد بوجه الله ، وإنما الذي يُسأل بوجه الله هو ربنا عز وجل ، والسؤال للجنة .
- قيل : وليس المراد الحصر بهذا ، وإنما المراد سؤال الجنة وما هو من لوازمها . والمراد تحصيل الأشياء العظيمة أو دفعها ، ولهذا ورد في الحديث المخرج في الصحيح ((**صحيح البخاري**)) من حديث جابر في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾ . قال : « **أعوذ بوجهك** » ، ﴿ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ قال : « **أعوذ بوجهك** » ، ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ قال : « **هذا أهون** » أو « **أيسر** » . الشاهد قوله : « **أعوذ بوجهك** » ، فاستعاذ بوجهه تعالى من عذاب يأتي من فوق أو من أسفل عياذاً بالله ، فيفهم من هذا أنه لا يسأل بوجه الله عز وجل إلا الأمور العظيمة تحصيلاً أو دفعًا ، ومنه سؤال الجنة التي هي غاية المطالب وأعلى المنازل .

والحديث فيه كلام ، الشيخ ابن باز يقول : فيه لين ، ولكن ورد ما يشهد له .

والمقصود : أن وجه الله عظيم سبحانه وبحمده ، فلا يتوسل به في طلب مآرب الدنيا وغاياتها ، وإنما يسأل به ما هو أهم الأمور وأعظمها .

والحديث يدل على إثبات صفة الوجه لله عز وجل كما يليق بجلاله وعظمته ، ويقال في هذه الصفة ما ورد في الميزان ، والميزان كلام مالك رحمه الله في الاستواء ، الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، قال العلماء : وهذا ميزان لكل الصفات ، فهي غير مجهولة المعنى ، وغير معقولة الكيفية ، والإيمان بثبوتها واجب ، والسؤال عن كيفيتها بدعة . ويقال : الوجه غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه يعني الكيفية بدعة ، ولهذا استعاذ النبي ﷺ به .

والمحرفة يقولون : الوجه الثواب ، والثواب مخلوق وهل تجوز الاستعاذة بمخلوق ؟ الجواب: لا تجوز بحال .

وقد بين النبي ﷺ أن للوجه سُبُحات في حديث أبي موسى المخرج في ((**مسلم**)) قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات « **إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره** » ، سبحانه وبحمده .

وسبحات الوجه يعني نور الوجه وبهاؤه ، أفيكون هذا للثواب ؟ ما يمكن .

لكن الموحد ولله الحمد مطمئن القلب ، معتمد على ما قال الله تعالى وقال رسوله ﷺ ، لم ينهج التأويل والتحريف والتبديل والتغيير ، وسار على طريقة اطمأن فيها قلبه وارتاحت فيها نفسه من الشكوك ، لأن مثل هذه التأويلات ما

يقتنع بها صاحبها ولا يقتنع بها غيره ، تجد هذا يقول تأويلاً وذاك يقول تأويلاً . يعني الاستواء بعضهم يقول : الاستيلاء ، وبعضهم يقول : الهيمنة ، وبعضهم يقول : ظهر نوره على العرش وكذا وكذا .

والسلف قالوا هذه الكلمة الكبيرة العظيمة : الاستواء غير مجهول ، ربنا خاطبنا بكلام عربي واضح بين جلي . ولا نفهم من معناه إلا ما نفهم من اللسان العربي المبين الذي نزل به هذا القرآن الكريم . أما أن يُعدل عنه ويؤتى بهذه التحريفات وهذه التأويلات المفضية إلى الشكوك والشبهات ، فالواجب البعد عنها والحذر منها والسير على هذا النهج . نهج السلف يمتثل في كلمتين في نصوص الصفات : أمروها كما جاءت بلا كيف ، ورد عن الليث وورد عن الزهري والأوزاعي أئمة السلف كلهم .

لما بدأ الناس يتكلمون في كل شيء ، أول ما تكلموا وخرجت الفرقة في الأمة ولم يكن في عهد محمد ﷺ فرقة ولا اختلاف ، ولا في عهد أبي بكر ولا عمر ، الناس كانوا أمة واحدة كما أمرهم ربنا ، ولما حصلت الفرقة:

- تكلموا في الأشخاص أول ما تكلموا ، بدأوا يتكلمون في عثمان ويتكلمون في علي .
- ثم بعد ذلك انتقلوا من الكلام في الأشخاص إلى الكلام في أفعال الرب عز وجل في الخوض في القدر ، هذا ينفي كالقدرية ، وهذا يغلو كالجبرية .
- ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الكلام في ذات الرب عز وجل ، الخوض في صفاته سبحانه ، ولهذا لما سأل هذا الرجل مالك رحمه الله وقال :

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] كيف استوى ؟ أطرق مالك وعلته الرحضاء رحم الله مالك رحمة واسعة ، هل علته الرحضاء لأنه أحرج ، ما يعرف الجواب ؟ لا والله ، مالك لا يحرج أمام الناس أن يسأل ولا يعرف الجواب ، وهو الذي يقول للسائل وقد سأله مسائل ولم يجب إلا على القليل منها قال : اذهب . قال : أنت مالك إمام دار الهجرة تقول : لا أدري ، قال : اذهب وصح في أزقة المدينة وقل إن مالكًا يقول لا أدري . فلا يعنيهم هذا أن يقول الناس فيهم ما يقولون ، وإنما سمع كلامًا استغربه واستنكره وارتعد منه حتى علاه العرق لهول ما سَمِع ، وكان لا يُسمع مثل هذا الكلام ، ولهذا طرد السائل ، أمره فأخرج رحمه الله رحمة واسعة .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب .

الثانية : إثبات صفة الوجه) .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

وجزاكم الله خيرًا

٤٦ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في اللو**

وقول الله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وقوله : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران : ١٦٨]) .

قال المؤلف رحمه الله : (**باب ما جاء في اللو**) ، ما يزال يتكلم عن الألفاظ التي يتكلم بها الناس ، والتي قد يكون فيها خللٌ في تحقيق التوحيد .

وهذه الكلمة فيها خلل في تحقيق توحيد الربوبية ؛ لأن قائلها قد يكون معترضًا على القدر ، وإذا اعترض على قدر الله عز وجل فقد أخل ولا شك بربوبيته وتعظيمه لربه سبحانه وبحمده .

هذه الكلمة من حيث اللغة الأصل أنها حرف امتناع لامتناع .

عندنا ثلاثة حروف:

١ . حرف امتناع لامتناع ، تقول : لو جاء زيد لأكرمته ، امتنع الإكرام لامتناع المجيء ، ولهذا يعربونها فيقولون : حرف امتناع لامتناع ، يعني يمتنع جوابها لامتناع شرطها ، وهي أداة شرط غير جازمة .

٢. و(لولا) حرف امتناع لوجود ، يقولون :

لولا المشقة ساد الناس كلهم ** الجود يُفقر والإقدام قتَّال

لولا المشقة موجودة ساد الناس ، امتنعت السيادة لوجود المشقة .

٣. (لَمَّا) ، لما جاء زيد أكرمته ؟ هذا الحرف (لَمَّا) هو ظرف متضمن معنى الشرط ، وهو أيضًا حرف وجود لوجود ، لما جاء زيدٌ أكرمته ، وجد الإكرام لوجود المجيء .

الآن في كل ما سمعتم أن (لو) حرف ، فكيف أدخل عليها المؤلف (أل) وجرت بـ(في) ؟ ومعروف أن الجر و(أل) من علامات الأسماء ، فحرف الجر لا يدخل على فعل ، ما يمكن أن تقول : في أكل ، لكن تقول : في الدار رجل ، ابن مالك يقول :

بالجر والتنوين والندا وأل ** ومسند للاسم تمييز حصل

هذا الحرف لما أُسند إليه عومل معاملة الاسم تقول مثلاً : (من) حرف جر ، كيف نعربها ؟ (من) مبتدأ ، هي حرف جر كيف جعلتها مبتدأ ؟ الجواب: يعني كأنك تقول : كلمة (من) ، أو لفظ (من) حرف جر لأنك أسندت إليها الخبر فعوملت معاملة الأسماء ، كذلك (لو) هنا ، يعني باب ما جاء في هذا اللفظ ، أو في هذه الكلمة .

و(لو) هذه جوابها إما :

١. أن يكون مثبتًا .

٢. أو منفيًا .

فإن كان مثبتًا دخلت (اللام) في جوابها ، وقد لا تدخل ، والأول الأكثر ، تقول : لو جاء زيدٌ لأكرمته ، وتقول : لو جاء زيد أكرمته ، يصح هذا وهذا ، وهذان في القرآن في آيتين متجاورتين ، ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ❁ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ❁ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ❁ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ❁ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ❁ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ❁ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ❁ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٧٠] ، فلم تأتِ مع اللام هنا ، فدل على جواز الأمرين ، لكن مجيئها يكون هو الكثير ، هذا إذا كان جوابها مثبت .

أما إذا جوابها منفي بالعكس ، قال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ ﴾ [التوبة : ٤٧] ، الأكثر حذف اللام ، ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ ، ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ [آل عمران : ١٥٧] .

ولك أن تقول : لو جاء زيدٌ لما عاتبته ، كما قال بعضهم :

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ❁❁ ولكن لا خيار مع الليالي

لما افترقنا ، على كل حال هذا بحث لغوي ، هو موجود في الآيات عندنا هنا ؛ لكن الأهم من هذا كلمة (اللو) ماذا يراد بها ؟

الحكم فيها يختلف ، وذلك أن قائلها لا يخلو من أحوال :

- **الحال الأولى:** أن يقولها معترضًا على قدر الله عز وجل ، لا شك أن هذا أمر كبير وعظيم ، ولديه خللٌ في توحيد الربوبية ، لأن الإيمان بالقدر من أفراد توحيد الربوبية ، مثاله قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا

غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ . إذا ضربوا في الأرض للتجارة يقولون : لو ما سافروا للتجارة أو ما ذهبوا للغزو ما ماتوا وما قتلوا ، ما ماتوا ضربًا في الأرض ، ولا قتلوا في الغزو ، هذا اعتراض على القدر ، أحد يقول : لو مسافر كان ما حصل له مشكلة أو حادث أو كذا . هذا اعتراض على القدر .

- **الحال الثانية** : أن يكون الاعتراض على الشرع والخطب فيه شديد ، والجرم فيه كبير ، قد يصل ولا قوة إلا بالله إلى المروق من الدين ، كقوله عز وجل : (**﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ﴾**) .

لماذا كان هذا اعتراض على الشرع وليس على القدر ؟ لأنهم اعترضوا على الجهاد في سبيل الله ، اعتراضوا على الجهاد برمته ، فاعتراضهم هنا اعتراض على شرع الله عز وجل ، الآية الأولى التي ذكرها المؤلف ﴿ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ تحتمل الأمرين :

- تحتمل الاعتراض على الشرع ، والمعنى: (لو كانوا عندنا ولم يؤمروا بالجهاد ولم يخرجوا للجهاد ما قتلوا) فهذا اعتراض على الشرع .
- وتحتمل الاعتراض على القدر ، يعني لو أُخِذَ برأينا ولم نخرج إلى أحد وبقينا في المدينة ما حصل الذي حصل وهذا يكون اعتراض على القدر ، ما اعترضوا على الشرع وعلى الجهاد ، لا ، لكن اعترضوا على عدم الأخذ برأيهم .

فتحتمل الأمرين كما قيل ، وعلى كل حال فهذه المقولات في مجملها غالب من قال بها المنافقون ، فهي في الغالب لا تصدر إلا من منافق ، أن يعترض على قدر الله أو يعترض على شرع الله عز وجل ما يصدر هذا من مسلم موحد .

- **الحال الثالثة** : أن يقولها تحسرًا ، خذ المثال الذي في الحديث قول النبي ﷺ : (**« وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا كان كذا وكذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »**) ، يقولها متحسرا ، لو أني فعلت كذا وكذا ما حصل كذا وكذا ، لو أني لم أذهب إلى هذا المكان ما حصلت هذه المسألة وهذه المشكلة وكذا وكذا ، لا يقول هذا الكلام ولكن يقل - الله أكبر ما أرحب هذا الدين وما أحسنه- (**ولكن يقل : قدَر الله ، وما شاء فعل**) ، يعني واحد مشى مع خط مثلاً قال : لو أني لم أذهب مع هذا الطريق مع هذا الشارع ما حصل لي هذا الحادث ، ويقعد يتحسر ويضيق صدره ويأتيه الشيطان من هذه الأمور ؛ لكن لو أنه إذ حصل له هذا الأمر قال : قدَرُ الله وما شاء الله فعل ، انتهى ، تزول عنه كل هذه الخطرات والنزغات من الشيطان .

- **الحال الرابعة** : أن يقولها متمنيًا ، وهذه حسب المُتَمَنَّى إن كان المُتَمَنَّى خير فلا بأس بها ، وإن كان متمنًّى بها شرًّا فهي شرٌّ ، في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه قال ﷺ : « **إنما الدنيا لأربع : عبد آتاه الله مالاً وعلمًا فهو يتقي به ربه ويصل به رحمه ويعلم أن لله فيه حقًّا فهو بأرفع المنازل** » ، أو « **بأعلى المنازل ، وعبدٍ آتاه الله علمًا ولم يؤته مالاً فهو**

يقول لو أني لي مثل مال فلان فعلت به مثل فعله فهو بنيه فأجرهما سواء » ، إذًا هذا الذي تمنى هذا المال لينفق منه وقال : لو أن عندي مال ، ما حكم التمني ؟ في خير ، بل قال عليه السلام : « **أجرهما سواء** » ، وأجرهما قال العلماء : في النية وليس في العمل . يعني نية هذا ، الأول أنفق بنية فجمع بين النية الطيبة والنفقة ، وهذا نوى ولكنه لم ينفق فأجرهما في النية سواء . « **وعبدٍ آتاه الله مالاً ولم يؤته علمًا فهو يخبط بماله لا يتقي به ربه ولا يصل به رحمه ، ولا يرى أن لله تعالى حقًّا فيه فهو بأخبث المنازل** » ، **والرابع** : « **لم يأته الله مالاً ولا علمًا فهو يقول : لو أني لي مالاً فعلت به مثل فلان ، فهو بنيته فوزرهما سواء** » ، كلهم قالوا : (لو) الثاني والرابع ، لكن الثاني تمنيه طيب وهو مأجور على هذه النية ، وأما الرابع فتمنيه رديء فهو مأزور على هذه النية .

إذًا قائلها لا يخلو من هذه الأحوال الأربعة :

١. الاعتراض على القدر .

٢. الاعتراض على الشرع .

٣. والتحسر .

٤. والتمني .

هذا إذا قالها عن الماضي ، أما إذا قالها في المستقبل يعني قال لك أحد : لو أتيتني غدًا حصل كذا وكذا وأعطيتك كذا وكذا ، أو أكرمتك أو ما أشبه ذلك ، فهذا ما في إشكال ، وكأن فيه حثًّا وترغيبًا ، كأن فيها معنى التحضيض ، كأن فيها لولا أتيتني يا فلان ، وحمل عليها بعض أهل العلم قول النبي ﷺ : « **لو**

استقبلت من أمري ما استدبرت ، ما أهديت ولجعلتها عمرة» ، لما أمر النبي ﷺ أن يتحللوا من كان قارنًا أو مفردًا ولم يسق الهدي أمرهم أن يجعلوا نسكهم عمرةً ، فيفسخوا الحج إلى عمرة ويكونوا متمتعين ؛ لكنه لم يفعل عليه الصلاة والسلام هو لكنه بين السبب ، « **ولولا أن معي الهدي لأحللت** »، وقال : « **لو استقبلت من أمري ما استدبرت** » ، وبعض أهل العلم قال : هذا على سبيل التمني ، النبي ﷺ يتمنى أنه لم يسق الهدي وبالتالي يتحلل معهم ، لكن أجيب بأن النبي ﷺ لا يتمنى شيئًا أقره الله تعالى عليه واختاره له ، اختار له هذا النسك ما يمتنى غيره ، ولهذا حملها على المستقبل أقرب ، « **لو استقبلت** » يعني لو مستقبلاً من أمري ما استدبرت ما فعلت هذا ، وما سقت الهدي وجعلتها عمرة ، والله أعلم .

قال رحمه الله : (**في ((الصحيح)) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنني فعلت لكان كذا وكذا . ولكن قل : قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان »**) .

ما إعراب (لو) في قوله (« **فإن لو** ») ؟ اسم (إن) لكن كيف يقال اسم إن وهي حرف؟ الجواب: لأنه أسند إليها ، جملة تفتح خبر ، فـ (لو) أسند إليها فأخذ حكم الاسم ، يعني فإن كلمة (لو) أو لفظ (لو) .

قال : (**في ((الصحيح))**) ، يعني في ((**صحيح مسلم**)) هذا حديث جليل عظيم ، يحتاج إليه كل إنسان في تحصيل مطلوبه وفي فوات مرهوبه ، في أول

الحديث قال النبي ﷺ : « **المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » : المؤمن القوي يعني القوي بإيمانه لا بجسمه وعضلاته ، الإيمان المثمر للأعمال الصالحة .

« **المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف** » ، في الحديث إثبات صفة المحبة لله عز وجل ، وهي من الصفات الفعلية .

وفيه : أن المؤمن حتى ولو كان في إيمانه ضعف فيه خير ، قال : « **المؤمن القوي أحب من المؤمن الضعيف وفي كل خير** » ففيه خير ، وقد يدركه الله بهذا الخير المُكْتَنّ في قلبه فيفتح الله عليه ويمن عليه ويهديه ، وكم من إنسان كان عنده من التقصير والإهمال ما عنده ثم أدركه الله سبحانه وتعالى وفتح عليه من الخير والبركة والعلم ما فتح الله عليه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى ﴾ أسرى كفار ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧٠] ، يعني حتى الكافر قد يكون في قلبه شيء من الميل إلى الخير ؛ لكنه غير ظاهر والشر عليه غالب ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٣] .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام : « **المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله** » ، المؤمن القوي ، مما يدل على أن الله عز وجل يحب أن يرى موجب صفاته ومقتضاها في خلقه ، كيف هذا ؟ :

- فهو قويٌّ يحب القوي .
- وهو عفو يحب العفو ، وفي الدعاء اللهم إنك عفو تحب العفو .
- وهو وترٌ يحب الوتر « **إن الله وتر يحب الوتر** » .

- وهو محسن يحب الإحسان « **إن الله محسن يحب الإحسان** » ، وقال تعالى : ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .
- وهو صبور يحب الصبر ، قال تعالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله عز وجل .
- وهو حليم يحب العلم ، وعليم يحب العلم ، وما أشبه ذلك .

وإذا كان يحب هذه الصفات فهو يكره أضدادها .

(**« احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن »**) هذه أسس النجاح في كل الأمور ، في دينك وفي أيضًا دنياك ، فالحرص وحده لا يكفي ، بل لا بد مع الحرص من العمل ، (ولا تعجز) ، والحرص والعمل لا يكفي فلا بد معهما من الاستعانة بالله عز وجل ، فإذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة حريص على العمل وقد باشر العمل واستعان بالله عز وجل فإن أدرك مطلوبه فذاك ، وإن فات مطلوبه لم يندم . وإنما يندم من فات مطلوبه إذا قصر في شيء من هذه الأمور ، قال : (**« احرص على ما ينفعك »**) .

الأمور يقول أهل العلم ثلاثة :

١. إما نافع .

٢. أو ضارٌّ .

٣. أو لا نافع ولا ضار .

كلام الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله يقول : النافع اعمله ، والضار اجتنبه ، والذي لا ينفع ولا يضر قال كلمة كبيرة ما تصدر إلا من علماء جعلوا أوقاتهم

كلها في العلم وطلبه وتحصيله وتعليمه والدعوة إليه ، قال : فالعاقل يشح بوقته عنه . والذي يشح العاقل بوقته عنه هو الذي لا يضر ولا ينفع ، هو فضول المباحات . هذه الفضول التي تهدر بها الأوقات ، كم من الساعات تذهب في الفضول ، أوقات ، وكم من السهر في الليل والساعات يقضيها الساهرون في أمور الحمد لله ليست حرام ويزينون لأنفسهم لكن الوقت أغلى من أن يهدر في هذه التوافه . والوقت – كما قيل – من ذهب ما لم تستفد منه ذهب ، بل والله أغلى من الذهب ، الذهب يمكن أن يذهب عنك ويأتيك ، وأما الوقت ما مضى فات ، والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها ، بل اللحظة التي أنت فيها هي التي بين يديك ، أما الماضي انتهى والمستقبل غيب لا يعلمه إلا الله عز وجل .

فإهدار الأوقات بفضول المباحات هذا من الشيطان ؛ لأن الشيطان إذا عجز عن الإنسان في المعاصي أتاه في التوسع في المباحات ، إضاعة الأوقات ، ولك أن تقارن بين نظر الكثير من الناس في الجوالات ونظرهم في كتاب الله عز وجل الله المستعان ، لا مقارنة ، ساعات تذهب في فضول المباحات إن شاء الله ، الذي يظن فيه الخير يرى أشياء ممتعة وأشياء مسلية ويسلو بها ، حتى تأخذ لُبَّه وتأسر عقله ، حتى ربما أصيب بالإدمان ولا قوة إلا بالله ، فصار عقله رهينة هذا الجهاز ، وكتاب الله الذي فيه الشفاء والنور وفيه الهدى والخير وفيه البركات التي لا تنقضي الله المستعان ، ربما يمر على الإنسان أيامًا ما نظر فيه ، مع أنه يقدر ينظر حتى في الجوال ، مع أنه ما يُحبّذ حقيقة أن اتخذ هذا عادة لكن عند الحاجة ، أما عند عدم الحاجة فالنظر في كتاب الله هو الأصل (أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء حزني ، وذهاب همي) ، النظر في هذه

الأجهزة له مساوئ لاسيما على الصغار ، وله أضرار ، ولك أن تسمع صياح الأطفال كيف يصيح حتى يُمَكَّن من هذا الجهاز .

المقصود : أن الإنسان إذا جمع الله له هذه الأمور الثلاثة فالغالب أنه يصل إلى مراده ، وإن لم يصل فقد أدى ما عليه ، وبالتالي إذا نابه أمرٌ وفاته مطلوبه يستسلم لقدر الله عز وجل ويرضى ويُسَلِّم ويقول : قدر الله وما شاء الله وفعل .

وتأملوا الحرص ، بعض الناس عنده حرص على طلب العلم لكن ما يكفيه ، أبدًا ما يكفيه فلا بد من الثلاثة .

(**« احرص »**) وهذا شيء في النفس .

(**« واستعن بالله »**) وهذا فضل من المولى يسأل منه ، إذ الأمر بيده « **من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين** » ، واعمل أنت ، ولهذا كان النبي يستعيذ كثيرًا من الكسل والعجز .

ما الفرق بين الكسل والعجز ؟

الكسل يستطيع أن يعمل ولكن فيه وهن في نفسه ، والعجز قد لا يتمكن منه ، والإنسان بين الأمرين بين كسل الشباب وعجز المشيب ، والله المستعان .

اللهم إنا نسألك العلم النافع ، والعمل الصالح والدعوة إليك على سبيل محمد ﷺ ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم ارزقنا البصيرة في الدين والإخلاص في القول والعمل ، اللهم إذ جمعتنا في هذا المكان المبارك على محبتك ، وعلى طلب العلم فاجمعنا بدار كرامتك يا أرحم الراحمين .

(« **وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أنني فعلت لكان كذا وكذا** ») الأمور الماضية إما مصائب وإما معايب ، إما مصائب حصلت للإنسان دون قدرته ولم تكن في إمكانه ، وإما عيوب معايب وذنوب اقترفها ، فبالنسبة للمصائب التي لا قدرة له فيها يقول قَدَرُ الله وما شاء فعل ، يؤمن بقدر الله ، يستسلم لقدر الله عز وجل ، فينشرح صدره ويطمئن خاطره ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] . وأما المعايب والذنوب والمعاصي فالواجب عليه الإقلاع عنها ، يجب عليه أن يقلع عنها ، ولا يقل وهو مستمر على المعصية قدَر الله وما شاء فعل ، فيحتج بالقدر على المعصية ، ولما جيء بالسارق إلى عمر فقال : سرقت ؟ قال : نعم سرقت بقضاء الله وقدره ، قال : ونحن نقطع يدك بقضاء الله وقدره . ولما قال المشركون : ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ ، قال الله : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٤٨] ، ما قالوا هذا اعترافًا بالقدر ، إنما قالوه احتجاجًا بالقدر ، والاحتجاج بالقدر على المعايب والذنوب ما يجوز بحال من الأحوال ؛ لكن على المصائب إذا وقعت وليست بإمكان الإنسان فإنه يحتج بها ويطمئن القلب وترتاح نفسه .

ولما حاج موسى آدم عليهما السلام وقال : أخرجتنا وبنيك من الجنة ، قال : كيف تلومني على شيء كتبه الله عليَّ قبل أن أخلق بأربعين سنة ، في بعض ألفاظه ، فاحتج آدم بالقدر ، قال عليه الصلاة السلام : « **فحج آدم موسى** » ، هذا الحديث ، أولاً لا يُسَلِّم به القدرية نفاة القدر أبدًا ، لأن الحديث صريح في إثبات

القدر ، وأن ما فعله آدم كان مكتوبًا عليه ؛ لكن لماذا احتج آدم بالقدر وحج موسى ؟ أجاب العلماء عن هذا بجوابين :

- **الجواب الأول :** أن هذا احتجاج بالقدر على المصائب ، تمامًا كما مر ، ذهبت عند أحد وحصل مثلاً خدش في سيارته ، وقلت له : سلامات يا فلان ، قال : قدَر الله وما شاء فعل ، هذا طيب ويرتاح ويطمئن قلبه ، أمور لا قدرة للإنسان فيها ، وهذا التخريج لشيخ الإسلام .
- وابن القيم رحمه الله له تخريج آخر وهو جواز الاحتجاج بالقدر على المعايب إذا تاب الإنسان منها ، يعني رجل كان في أول الأمر يسرق ويعمل أشياء وكذا ، ثم مَنَّ الله عليه بالهداية وجاء شخص وقال : أنت وكنت ، قال : هذا أمر كتب علي والحمد لله الذي مَنَّ عليّ بالهداية ، هذا لا بأس ، هذا يجوز ؛ لأنه لم يحتج بالقدر مبررًا للفعل ، لا ، أما إذا قاله وهو مكبٌّ على ذنبه فكما سمعتم قول الله عز وجل في المشركين فلا يجوز بحالٍ من الأحوال .

قَدَرُ الله أو قَدَّر الله ؟

كان أهل العلم يميلون إلى التخفيف قَدَر الله ، يعني هذا مقدور الله ؛ لأن قول قَدَّر يعني تقدير ، هذا تقدير الله ، وهو يتحدث عن أمر واقع ، يعني هذا مقدور الله الذي قَدَره الله تعالى وقضاه ، فهو المقضي والمقدر وليس التقدير مع أن الأمرين متلازمان ، فيلزم من التقدير وقوع المقدور ، لكن يقول : قَدَر الله وما شاء فعل ، ويأتي في هذا في باب الإيمان بالقضاء إيضاح أكثر .

الطالب : ما المراد بالعجز المنهي عنه هل هو عدم الإرادة وعدم انبعاث النفس للعمل ، لأن العجز معذور صاحبه ؟

الشيخ : العجز المعذور صاحبه عذر ، « **صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع على جنب** » لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها ، إذا كان إنسان عاجز ولا يستطيع فهذا معذور ، وقد يعطيه الله ما يعطي القادر ، « **إذا مرض العبد وسافر كتب له ما يعمل صحيحًا مقيمًا** » . والعجز الآخر كونه يعجز عن الشيء لكن يستطيعه بنوع كُلفة ، له كلفة ومشقة . قوله : (لا تعجز) النبي ﷺ نهى عن العجز ، ما ينهى عن العجز الذي لا يستطيعه الإنسان ؛ لكن كون الإنسان يترك الشيء وهو في مقدوره بحجة عجزه عنه أو ثقله عليه أو ما أشبه ذلك ، وقوله : (**« ولا تعجزن »**) قريب لمعنى الكسل ، ولهذا قال ﷺ فيما روي عنه : « **الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها** » ، هذا قادر ؛ لكن لكسله يرى الأمور الصغيرة كبار ، تأتي لواحد ما يصلي في المسجد كأن الصلاة عنده في المسجد أمر لا يطاق ولا قوة إلا بالله ، فيتعاجز عن هذا العمل .

المقصود : أن هذا العاجز لديه قدرة ؛ لكنه يتعاجز ويتثاقل ويتكاسل على هذا العمل .

(**« فإن لو تفتح عمل الشيطان »**) لو تفتح عمل الشيطان ، لوم النفس ضيق الصدر ، التحسر ، بل حتى لوم القدر ، وربما الاعتراض على القدر ، وكل هذه من أعمال الشيطان ، وأما قوله : (**« قَدَّر الله وما شاء فعل »**) ، فإن فيها الطمأنينة والراحة ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .

الثانية : النهي الصريح عن قول (لو) إذا أصابك شيء .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن) .

طريقة عظيمة في الشرع ، أغلق بابٌ وفتح باب آخر ، (قدر الله وما شاء فعل) ، لا تقل (لو) ، (لو) تسبب لك ضيق وتفتح لك وساوس الشيطان وخطراته ؛ لكن (قدَر الله وما شاء فعل) ، تطمئن وترتاح فيها ، وهذا ولله الحمد من سماحة هذه الشريعة ويسرها وسعتها .

قال رحمه الله : (الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله .

الطالب : في الحديث (احرص على ما ينفعك) فهل معناه أن الإنسان يحرص على ما ينفعه هو فقط ؟

الشيخ : هو على كل حال هناك أمور ينتفع بها كل الناس وثمة أمور ربما إذا سعى فيها شخص ينتفع بها أو إن سعى بها آخر ربما لا ينتفع بها ، الناس دراجات ويختلفون ؛ لكن الكلام هنا في الأمور النافعة بصفة عامة والتي ينتفع بها عموم الناس ؛ لكن ثمة أشياء صحيح أنت تستفيد منها والثاني ربما لا يخرج منها بكبير فائدة .

السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز) .

قال رحمه الله :

(**باب النهي عن سب الريح**).

سب الريح النهي عنه ؛ لأن الريح ليست فاعلة وهذا لا يظنه مسلم ، وإنما هي مدبرة ومسخرة ، وسبها عياذًا بالله ربما يتوجه إلى من يتصرف بها ، وهذا الباب شبيه بباب مر بنا ، وهو سب الدهر ، حتى إن بعض أهل العلم قال : لو المؤلف وضع هذا إلى جانب سب الدهر من حيث الترتيب لكان مناسبًا .

ليس من سب الريح وصفها والإخبار عنها ، هذه الريح شديدة ، هذه ريح عاصفة ، هذه ريح فيها أتربة فيها غبار فيها كذا ، لا ؛ لأن هذا من الإخبار عن الواقع ، وقد أهبر الله عز وجل عن الريح التي أرسلها إلى عاد فقال عز وجل : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴾ [الذاريات : ٤١] ، عقيم لا تسوق سحابًا ولا تلقح شجرًا ولا نفع فيها ، وأما الرياح الطيبة ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر : ٢٢] ، تلقح السحاب وتلقح الأشجار ، وقال عز وجل : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة : ٦] ، وما أشبه ذلك ، هذا ليس من قبيل السب .

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أُمرت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به » . صححه الترمذي)

((**لا تسبوا الريح ، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا : اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح ، وخير ما فيها**)) في رواية « **خير ما أُمرت أو أرسلت به** » .

((**ونعوذ بك من شر هذه الريح ، وشر ما فيها ، وشر ما أمرت به**)) ، وكان ﷺ والحديث في ((**البخاري**)) إذا عصفت الريح تقول عائشة قال : « **اللهم إنا نسألك خير هذه الريح ، وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أرسلت به** » ، وكان إذا تخيلت السماء تغير لونه ﷺ ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فعرفت عائشة ذلك منه فسألته قال : « يا عائشة لعله كما قال الله عن عاد : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ » . [الأحقاف : ٢٤] ، يعني ظنوه سحاب ، فإذا هو عذاب ولا قوة إلا بالله .

المقصود : أنه لا يجوز سب الريح .

وهل يجري على ألسنة الناس سب الريح ؟

يمكن ، لو جاءت الريح وطيرت غترته أو شماغه ربما يسبها ، بل ربما يلعن ولا قوة إلا بالله بعض الجهال .

المقصود : أنه لا يجوز سبها بحال ، فإن سبها ربما يتوجه إلى المتصرف بها .

الريح والرياح :

- الغالب في الريح أنها تطلق على العذاب .
- والرياح تطلق على الرياح التي فيها خير .

وتأمل هذا في القرآن فالرياح:

- يقول عز وجل : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ .
- ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [فاطر : ٩] .

- ﴿ اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم : ٤٨] وما أشبه ذلك .

أما الريح :

- فوردت في قصة عاد في إطلاق الريح عليها ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ [القمر : ١٨ ، ١٩] .

هذا إذا كانت الريح في البر . أما إذا كانت في البحار فأيهما أحسن الرياح أم الريح ؟ الجواب: الريح ، ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ [يونس : ٢٢] ، ريح طيبة في البحر ، والسبب لأن السفينة لما تأتيها رياح من يمين ويسار وأمام وخلف ماذا يحصل بها ؟ تضطرب السفينة وربما تغرق ، لكن عندما تكون الريح واحدة وفي مسارها تدفعها لا شك تكون ريح واحدة فهي التي تكون طيبة بالنسبة للسفينة .

وقد يظن الظان أن السفن الحديثة والتي تسير بالآلات الضخمة لا تحتاج إلى الريح ، قد سألت أحد الإخوة الذين كانوا يعملون في البحار قال : لا ، بل نحتاج إلى الريح وسرعة السفينة ، حتى السفن الحربية وحتى غيرها يقيسون مسافتها بالعقدة ، يقولون : إذا كانت الريح في الاتجاه تزيد سرعة ، وإذا كانت معاكسة فتؤثر عليها في سرعة سيرها رغم وجود الأجهزة الضخمة جدًّا ، فما يزال لا شك يحتاج إلى الريح . وفي الدعاء المأثور « **اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا** » .

الطالب : والرياح تؤثر في الطائرة مثل السفينة .

الشيخ : الطائرة إذا سلمت من المطبات الهوائية فقط ، المطبات هي التي تؤذي الطائرة وتؤذي ؛ لكن إذا كانت الريح معاكسة لها ما أدري إن كانت تؤثر في سرعتها.

والرياح قد تدمر هذه الأجهزة ، إذا كانت الريح شديدة توقف حركة الطيران ، فالرياح تؤثر بلا شك .

الطالب : لي صديق حفظه الله من سقوط طائرة ، يقول كنت في الطائرة أنا الوحيد المسلم ، يقول استعنت بالله وجلست أقرأ ما أحفظ من القرآن وقبل أن ترتطم الطائرة بالبحر اشتغل المحرك وسلمنا الله ، وجلسنا في الجزيرة أسبوعين ... وبعض الركاب جائتهم أمراض نفسية يقول سلمت أنا وسبعة أشخاص ، يقول بعد ما أصلحوا الطائرة قالوا تركب معنا قلت أنا سأركب معكم قالوا أنت صاحي أو مريض ما تخاف .

الشيخ : الثقة في الله عز وجل عظيمة ، ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ يطمئن القلب ، إذا قوي الإيمان بالله . يذكر لي أحد الإخوة في بعض الدول الأجنبية يقول : أنتم ، لأحد الإخوة المسلمين من العرب المقيمين فيها ، قال : أنتم يا العرب عندكم شيء جميل ، يقول : قلت له ما هي ؟ قال : إذا جاءكم شيء تقولون قضاء وقدر ، سيأتينا إن شاء الله الإيمان بالقدر في طمأنينة نص كلام ربنا ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] ، الإيمان بالقدر فيه طمأنينة وفيه راحة ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإيمان الكمال ، واليقين التام ، والعفو والعافية .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : النهي عن سب الريح .

الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره .

الثالثة : الإرشاد إلى أنها مأمورة .

الرابعة : أنها قد تؤمر بخير ، وقد تؤمر بشر) .

لا شك ، وإذا كانت مأمورة فالجأ إلى من بيده الأمر سبحانه وبحمده ، حتى المشركون إذا ركبوا في البحر وعصفت بهم الرياح أو الريح دعوا الله الذي في السماوات ، ولكن المسلم يعرف ربه في كل وقت وحين ، ويتعرف إلى الله في حال رخائه « **تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة** » .

وفقكم الله

٤٧ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

(باب قول الله تعالى : ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [الفتح : ٦]) .

هذا باب كبير وعظيم ، ويتضمن ما يجب أن يكون عليه الموحد ، من حسن ظنه بربه سبحانه وبحمده ، سواءً فيما يفعله به ، أو ما يتعلق بغيره .

والظن:

١. الأصل الاستعمال الغالب إطلاقه على الاحتمال الراجح ، تقول : ظننت كذا يعني أن هذا احتمال راجح مع وجود احتمال آخر مرجوح.

٢. وقد يطلق على اليقين وهو في القرآن في مواضع عديدة ، كقوله عز وجل : ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [المطففين : ٤ ، ٥] ، ﴿ أَلَا يَظُنُّ ﴾ يعني يستيقن ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] من هم ؟ الجواب: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٤٦] يعني (يوقنون) .

٣. وقد يطلق الظن على التهمة ، ظن زيدٌ بكذا أو بفلان أو بكذا يتهمه .

٤ . بل قد يطلق على أكذب الحديث ، قال النبي ﷺ : « **إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث** » .

المراد هنا : ما يظنه الإنسان بربه سبحانه وبحمده سواء في قرارة نفسه ، إذ الظن الأصل أنه في النفس وفي القلب ، أو فيما يظهر عليه مما يتكلم به .

ثم إن حُسن الظن بالله عز وجل ناشئٌ عن معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وهو ثمرةٌ من ثمرات توحيد الأسماء والصفات ، وتوحيد الأسماء والصفات توحيد عظيم ، أدخل علماء الكلام فيه من الخلل ما أدخلوا ، مما اقتبسوه من فلسفة اليونان ، وأشغلوا الأمة حتى علماء السلف في الرد عليهم وتزييف باطلهم ، فشُغِل الناس بالرد عليهم عن التأمل في هذا التوحيد العظيم .

وقد سبق أن ذُكر أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسيلتان إلى توحيد الألوهية ، فكلما كان الإنسان أكثر معرفة بربه سبحانه وبحمده سواءً ما يتعلق بأفعاله وهذا من الربوبية أو بأسمائه وصفاته ، كلما كان أكثر تعبُّدًا لله عز وجل ، وأكثر تحقيقًا لإيمانه وعبوديته لربه سبحانه وبحمده .

فإذا عرف الإنسان كما سيذكر ابن القيم في قوله : (من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده أحسن الظن بربه سبحانه وبحمده) .

والمشركون إنما أساءوا الظن بالله عز وجل كما ذكر الله في هذه الآية (﴿ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾) إنما ظنوا ذلك الظن السيء بالله عز وجل لخلل وُجد عندهم ، وظنهم ذلك يتضمن عدم الإقرار بقدر الله عز وجل والتسليم لحكمته ، وظنهم أن الله تعالى لا ينصر دينه ، وأنه سيخذل نبيه كما يذكر ابن القيم رحمه الله ، قال تعالى : ﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ

وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ [الفتح : ١٢] ، بعد أن زعموا أنهم إنما تخلفوا عن النبي ﷺ يوم ذهب إلى مكة في عمرة الحديبية زاعمين أنهم شغلوا ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ [الفتح : ١١] . فبيَّن الله عز وجل أن سبب تخاذلهم وقعودهم هو ظنهم السيء أن الله سبحانه وتعالى لا ينصر دينه ، ولا ينصر نبيه ، وأن أمر هذا النبي سينتهي ويضمحل . هذا الخلل الذي حصل عندهم هو الذي أوقعهم في سوء الظن بالله عز وجل ، مع عدم إيمانهم بقضاء الله تعالى وقدره ، وكذا تسليمهم بحكمته البالغة سبحانه وبحمده . فمن آمن بقدر الله ، وأقر بحكمة الله عز وجل فإن هذا من أعظم الأمور المعينة على حسن الظن بالله عز وجل ، أن ما أصابه بقدر الله فيُسَلِّم ، وأن ما أصابه لحكمة أرادها الله عز وجل فيرضى ويُسَلِّم ؛ لكن إن كان عنده خلل بالقدر ، أو خلل بالحكمة أورثه ذلك عدم حسن ظن بالله سبحانه وبحمده ولهذا عقد المؤلف هذا الباب الكبير العظيم في ((**كتاب التوحيد**)) ، وقصده الرد على القدرية والجبرية :

القدرية: نفاة القدر أن الله لا علاقة له بفعل العبد .

والجبرية: من الأشعرية وغيرهم القائلين بعدم تعليل أفعال الله تعالى بالحكمة ، أفعال الله عندهم غير معللة بالحكمة ، وكم في كتاب الله من الحكم ، وكم سمى الله نفسه في القرآن بالحكيم ، فاسمه الحكيم وصفته الحكمة ، قالوا : إذا أثبتنا الحكمة لزم من ذلك أن يكون له غرض ، وهذا يؤدي إلى أن ينتفع أو يكون منتفعًا بهذا الأمر ، وهو منزه عن هذا ، فبهذه الشبهة العقلية نفوا الحكمة عن الله

سبحانه وبحمده . والأدلة في القرآن أكثر من أن تحصر ، وأشهر من أن تذكر ، كل حكم عُلِّل باللام فهو دليل على الحكمة :

- خذوا الآية التي معنا هذه ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ .
- وفي آية مضت مر في ((**التفسير**)) في قوله عز وجل : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ أكملوا ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤ ، ١٤١] ، كل هذه حكم من أجلها حصل ما حصل في غزوة أحد .

فكل حكم يأتي بعده تعليل ، سواء كان :

١. (باللام) وهو كثير في القرآن .

٢. أو كان بأي أداة من أدوات التعليل مثل (من أجل) ، ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [المائدة : ٣٢] .

٣. أو (إنَّ) .

٤. أو (الباء السببية) أو ما أشبه ذلك.

كل هذه أدلة تدل على أن أفعاله سبحانه وتعالى في غاية الإحكام ، فإن أفعاله عز وجل دائرة بين العدل والحكمة ، وبين الفضل والرحمة . إن أصابك خير فذاك

فضله ورحمته سبحانه وبحمده ، إن أصاب الإنسان أمر من الأمور فذاك عدله ، وتلك حكمته سبحانه وبحمده .

والمقصود : أن الإيمان بالقضاء والقدر والحكمة من الأمور التي تقوي ثقة الإنسان بربه سبحانه وبحمده .

أقسام الظن بالله عز وجل ، يقسم العلماء الظن بالله إلى قسمين :

١ . أن يظن بالله خيرًا .

٢ . أو يظن به سوءًا ، كما ذكر الله عن المشركين .

ثم الظن به سبحانه وبحمده إن كان خيرًا أو سوءًا متعلقه إما أن يكون في نفسك أنت أيها الإنسان ، أو يكون في غيرك ، ما يفعله الله تعالى بك وما يتعلق بك الواجب أن يظن الإنسان به خيرًا بالله ظنًّا حسنًا إن كان خيرا فذاك فضله ، وإن كان سوى ذلك فذاك عدله وحكمته .

كذلك ما يجريه الله عز وجل في هذا الكون برمته أيضًا هو مقتضى حكمته سبحانه وبحمده ، ولهذا تجد ولله الحمد المؤمن بصفات ربنا تجده مطمئنًا ، تجده واثقًا بالله عز وجل ، متعلقًا بقلبه بربه سبحانه وبحمده . طمأنينة القلب مطلوبة وهي مطلب لكل إنسان :

- حتى إبراهيم قال ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] ، لما قال : ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى ﴾ .

- وحواري عيسى عليه السلام لما قال لهم عندما طلبوا المائدة ماذا قالوا ؟ طلبوا أن ينزل عليهم مائدة قالوا : ﴿ وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا

وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة : ١١٣] . قالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ .

فالطمأنينة يطلبها الإنسان ، ومن أعظمها معرفة ربه بأسمائه تعالى وصفاته ، فيزداد الإنسان ثقة وطمأنينة وتعلقًا وإيمانًا بربه سبحانه .

ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله كلمة عظيمة قال : لا يمكن لقدري ولا لمعطل أن يتوكل على الله:

- كيف يتوكل على الله وهو يرى أن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله ، وأن لا علاقة لله عز وجل بأفعاله ؟ إذًا لماذا يتوكل على الله ؟ على هذا يتوكل على نفسه ولا قوة إلا بالله .
- وأما المعطل فلأنه عطَّل الرب سبحانه وتعالى عن صفات الكمال ، فكيف يعتمد المسلم على من ليس له صفات ؟ يعني لله المثل الأعلى في الناس فيما بينهم لو أن شخصًا ليس فيه من صفات الهمة والنشاط والعمل شيء هل يعتمد عليه ؟ لا يعتمد . بينما يوكِّل الناس من يرون أنه أهل ، لله المثل الأعلى .

ولهذا لما ضعف هذا الجانب عندهم بسبب ما أدخلوه على الناس ، بل وحتى على العامة بسبب تعطيل صفات الله عز وجل ضعفت ثقة الناس بربهم سبحانه وتعالى ، فذهبوا يلتمسون هنا وهناك ، ويتعلقون بكل شيء ، يتعلقون بالأموات وبالمقبورين حيث لم تربَّى قلوبهم على الثقة بربهم سبحانه وبحمده .

وحسن الظن بالله عز وجل له فوائد كبيرة وعظيمة :

- **منها :** تكميل توحيد الربوبية ، فإن من يحسن الظن بربه يظن أن كل ما يفعله ربنا عز وجل في نفسه أو غيره مقتضى الحكمة أو الفضل والرحمة .
- **والثاني :** تكميل توحيد الأسماء والصفات ، فإن من أعظم أسباب حُسن الظن كما ذُكر معرفة العبد بربه سبحانه وبحمده .
- **ومنها :** الطمأنينة ، طمأنينة الإنسان ، يطمئن إذا أحسن الظن بالله عز وجل اطمأن قلبه وارتاحت نفسه ، ونظر إلى صفات ربه كما ذُكر وتعبد الله بمقتضى هذه الصفات ، فإن لكل صفة كما مر بنا عبودية ، ما ييأس من رحمة ربه أبدًا ، ويظل قلبه متعلقًا بربه تذللاً وخضوعًا ومحبة ورجاءً وخوفًا وتوكلاً ورغبًا ورهبًا ، فيطمئن قلبه وترتاح نفسه . أما إذا ضعف هذا الجانب عنده تجده في قلق وفي اضطراب ، تجده يبحث عن الرزق ، يبحث عن عمل ، يبحث عن وظيفة ، تجده في هم وقلق وأغلقت أمامه الأبواب ، وكلما سلك طريقا أغلق الباب ولو سار بحسن ظن اطمأن قلبه ، وعلم أن رزقه سوف يأتي ، والمهم أن يفعل السبب ؛ لأنه استشعر أن ربه تعالى هو الرزاق ، وتعبَّد الله بهذا الاسم ، فراح يبحث عن الرزق ، « ولو أنكم توكلتم على الله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا وتروح بطانًا ».
- **ومن فوائده :** الثقة بالله عز وجل ، تجده عظيم الثقة بالله عز وجل ، وكل هذه أمور بعضها مرتبط ببعض . النبي ﷺ زار رجل مريض قال : « **لا بأس طهور إن شاء الله** » ، قال : كلا ، بل حُمَّى تفور ، على شيخ كبير تزيره القبور ، ولا قوة إلا بالله ، النبي ﷺ يدعوا له ويقول : طهور وتكفير ، قال ﷺ : « **فنعم إذًا** » . إذا كان هذا ظنك بالله عز وجل فنعم ، وربما يحصل له

ما ظنه ، ولهذا قال ﷺ في الحديث القدسي المخرج في ((**الصحيح**)) : « **أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني** » . « **أنا عند ظن عبدي بي** » ، يعني إن ظن بي خيرًا فليبشر ، وإن ظن بي سوى ذلك فعليه ما ظن ولا قوة إلا بالله . « **وأنا معه حين يذكرني** » ، لاحظوا ذكر المعية مع حسن الظن بالله عز وجل ، فإذا كان الله مع عبده وهذه معية خاصة ، فماذا يحصل ؟ لو استشعر الإنسان حسن ظنه بربه ومعية ربه سبحانه وتعالى له يحصل له الطمأنينة ، يطمئن ويرتاح ؛ لأن ربنا :

١. يقول عن نبيه ﷺ وهو يخاطب أبو بكر ماذا يقول ؟ ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] .

٢. ويقول عن موسى وقد اشتكى بنو إسرائيل أن فرعون مدركهم لا محالة ، ماذا قال موسى ؟ ﴿ كَلَّا ﴾ لماذا ؟ ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

والله تعالى مع المؤمن بإيمانه ، مع المحسن بإحسانه ، كل ما وجدت هذه المعاني في العبد فالله سبحانه وتعالى معه ، وحينئذٍ يحسن ظنه بربه سبحانه وبحمده ، ولهذا من أعظم أسباب حسن الظن ملازمة الإنسان ذكر الله عز وجل ، ذَكَر الله الله سبحانه وتعالى معه ، حتى قال في تتمة الحديث : « **فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه** » ، وهذه ما شاء الله زائدة على مجرد الطمأنينة بذكر الله عز وجل ، لكن إذا أحسن الإنسان الظن بالله عز وجل لا بد مع حسن الظن من فعل الأسباب ، يعني يأتي الشيطان للإنسان أحيانًا ويقول له : هذا شيء مكتوب لماذا تفعل الأسباب ؟ فيقال: لا ،

سيد الأولين والآخرين ، وأعظم المؤمنين بتوحيد رب العالمين يفعل الأسباب ، حفر الخندق يوم جاء الأحزاب وهذا سبب ، ظاهر بين درعين عليه الصلاة والسلام وهذا سبب ، دخل مكة وعلى رأسه مِغْفَر ما رمى المغفر وقال : المكتوب مكتوب ، الإنسان يفعل الأسباب ويمضي متوكلاً على ربه سبحانه وبحمده ، فإنه إن أحسن الظن بالله وترك الأسباب هذا من التمني على الله وليس من حسن الظن به .

وقد روي عنه ﷺ أنه قال : « **الكيِّسُ من دان نفسه وعمل لما بعد الموت** » ، معنى (دان نفسه) أي حاسب نفسه ، (وعمل لما بعد الموت) يعني حاسب النفس ثم أثمرت هذه المحاسبة عملاً يعمله لما بعد الموت .

والعاجز هو (من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني).

الأول كيس لأنه يحاسب نفسه ويفعل الأسباب ، وهذا أتبع نفسه هواها بطَّال كسول ، خمول ، ومع ذلك يتمنى على الله الألماني . ومر بنا قول النبي ﷺ : « **تغدوا خماصًا وتروح بطانًا** » ، يعني حتى الطير أفقه من بعض الناس ، لأنها تأخذ بالأسباب ، يذهب يطير ويأتي يمشي ، ويبني عُش ويكَوِّن أسرة سبحان الله ، يفعل كل الأسباب ، ويأتيه رزقه ، يأتيه رزقه لأن الله تكفل بالرزق لكل أحد ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] ؛ لكن الإنسان يسعى ويفعل الأسباب ويأتيه ما قُسم له .

يقع الناس في مخالفات أحيانًا وترد على الألسنة بعض الكلمات التي قد يكون فيها خلل في هذا الجانب ، تجد مثلاً إنسان حصل له مشكلة ، قال : والله فلان ما يستاهل ، كلمة (يستاهل) معناها بالفصحى (ما يستحق) ، يعني ليس

أهلاً ، ربنا سبحانه وتعالى هو الذي قضى عليه هذا الأمر ، أو يكون الإنسان ما شاء الله حصل له شيء طيب ، قالوا : فلان يستاهل ، كل هذه ألفاظ يجب توقِّيها ، ويخشى على قائلها إذا كان (ما يستاهل) يخشى عليه من الاعتراض على القدر ، وإن كان هذا غالبًا ما يطرأ على بال الناس ، إنما يقوله تعاطفا مع هذا الشخص الذي حصل له هذا الأمر .

من ذلك الحسد كفانا الله وإياكم الحسد ، الحسد هو تمني زوال النعمة من الغير . لكن شيخ الإسلام له تعريف أشمل من هذا وهو مر بنا في ((**التفسير**)) : كراهية النعمة على الغير وإن لم يتمنى زوالها . يعني بعض الناس يرى غيره يفوقه في أمر فيكره هذا الشيء ، على التعريف الأول هذا ما يعتبر حساد لأنه ما تمنى زوالها ، وعلى قول شيخ الإسلام هذا يعتبر حسد . فالحاسد أولاً معترض على قدر الله عز وجل ، الله تعالى قضى له هذا الأمر فكيف يتمنى الإنسان زواله . وأيضًا فيه سوء ظن بالله عز وجل ، وأنه كان ينبغي أن يعطي هذا ولا يعطي هذا ، وكأن خزائن السماوات والأرض بيده ولا قوة إلا بالله .

المقصود : أن الإنسان يجاهد نفسه ويحرص غاية الحرص على حسن الظن بربه سبحانه وبحمده ، ويكون هذا بمعرفته سبحانه وبحمده بأسمائه وصفاته ، وبأفعاله .

الشيخ عبد الرحمن السعدي الله يرحمه في التفسير ، وهو حقيقة تفسيره من التفاسير القليلة التي عُرضت فيها أسماء الرب عز وجل وصفاته من خلال كتاب الله عز وجل ، يتكلم عن هذه المسألة كثيرًا ، ويربط الأسماء بالآيات التي وردت فيها ، ويذكر العلاقات بين الأسماء أيضًا والصفات التي تتضمنها هذه

الأسماء ، وما تورثه للناظر فيها والمعتقد لها من تعظيمٍ للرب سبحانه وتعالى ، فإن من عرف الله عز وجل عظَّمه وقَدَرَه ، ولهذا قال ربنا عز وجل : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، ماذا قال بعدها : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، فلو عرفوا عظمته سبحانه وبحمده وكيف أن السماوات يطويها كما يطوي السجل على الكتاب ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] كما تطوى الورقة على المكتوب فيها ، ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ الأراضون السبع ﴿ قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ سبحانه وبحمده ، فمن استشعر هذا الأمر وآمن بهذا الأمر ، واعتقد هذا الأمر عرف ربه سبحانه وبحمده ، ما راح يتأول ويصرف الألفاظ عن ظاهرها ، ويقول هذا كذا وهذا كذا ، ويحيد عن المعنى الظاهر الجلي البين ما يكون عنده تعظيم لربه سبحانه وبحمده .

والمقصود : أن الإنسان ينظر ويتأمل فيما يكون سببًا لثقته بربه وتوكله عليه سبحانه وبحمده .

(**قال ابن القيم رحمه الله في الآية الأولى : فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل**) .

الآية الأولى قوله تعالى : (**﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ﴾**) ، لاحظوا أول الآية ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ الآية ، انظر إلى الفرق بينهما:

- الطائفة الأولى وهم الذين أحسنوا الظن بالله عز وجل ، ماذا حصل لهم في مقام الخوف ؟ أمنة ونعاس ، حتى إن السيف – يقول الزبير – يسقط

من يده رضي الله عنه وأرضاه . والأمنة في وقت الخوف دليل على الطمأنينة ، القلب مطمئن ومرتاح .

- ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ لم يهتموا بما أصاب رسول الله ولا بما أصاب المسلمين ، ﴿ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ .

ما هو هذا الظن ؟:

(**فُسِّر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله ، وأن أمره سيضمحل ، وفُسِّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته ، ففُسِّر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله**) .

هذه الأمور الثلاثة كما مر بنا هي التي يتضمنها ظن الجاهلية ، ظن المشركين ، الأمور الثلاثة :

- **الأول**: (**بإنكار الحكمة**) .
- **الثاني** : (**وإنكار القدر**) .
- **الثالث** : (**وإنكار أن يتم أمر رسوله**) .

فأوقعهم ذلك بسوء الظن ، إذاً هذه الأمور اعتقادها والإيمان بها من أعظم الأسباب لحسن الظن بالله عز وجل .

ولعلي ذكرت لكم مرة قصة الرجل الذي زرته وهو مريض ، قد كبرت سنه واشتد به المرض حتى إنه يقول لي وأنا أسأله كيف أنت ؟ يقول : أنا طيب آكل وأشرب وأنام ، إلا أني ما أستطيع أن أحرك رأسي ، ما يحرك حتى رأسه . ثم قال كلمة عظيمة وهو عامي ما يقرأ القرآن قال : إلا أن الحكيم قال لي اجلس وجلست . يعني هو لو قال لي : إلا أن الله قال اجلس وجلست ، أو إلا أن ربي قال لي ، هذه

يمكن يقولها الإنسان ؛ لكن هذا عامي ، ومع ذلك اختار اسم الحكيم ، بعض الإخوان لما ذكرت قال : يقصد الحكيم الطبيب ، لأنه في بعض الناس في بعض البلاد العربية يسمون الطبيب حكيم ، قال : قصده الطبيب ، قلت : أين الطبيب ، لا يعرف حكيم ولا طبيب ، إنما يعرف ربه سبحانه وبحمده .

ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، اللهم انفعنا بما علمتنا وعلمنا ما ينفعنا وزدنا علمًا ينفعنا ، اللهم اجعل اجتماعنا هذا اجتماعًا مرحومًا وتفرقنا من بعده تفرقًا معصومًا ، ولا تجعل فينا ولا منا شقيًّا ولا مطرودًا ولا محرومًا .

المقصود : أن هذه كلمة يقولها عامي عجيبة ، وهذه ثمرة التربية على التوحيد ، هؤلاء أناس ربوهم أهل العلم رحمهم الله على توحيد الله والثقة والإيمان به . ذكر لي والدي رحمه الله أنهم زاروا أحد طلاب العلم الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن شيخ الإسلام محمد بن عبد الله الوهاب قدس الله روحه ، قال : وكان مريضًا على فراشه وكنا نقول الدعاء المأثور لا بأس طهور إن شاء الله ، فقال : ما هو إلا لقاء ربي فمرحبًا بلقاء ربي . الله أكبر ، يفرحون بالموت ، لأنه سيلقى لقاء ربه ، ما هو إلا لقاء ربي فمرحبًا بلقاء ربي ، والأمثلة على هذا كثيرة من العوام ، من عوام الموحدين ، وهذا الذي نقوله ، نقول : دائمًا على الإنسان أن يربي نفسه وأهل بيته وطلاب العلم أيضًا أن يعنوا بهذا الجانب يعنوا بالتوحيد عناية كبيرة ، كما عني به المصطفى ﷺ عشر سنين ، وهو ما يدعوا إلا إلى لا إله إلا الله ، تحقيقها وتطبيقها والعمل بها .

وهو في السكرات يقول : « **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** » ، يخشى أن تسري هذه البلية في الأمة فيعود الناس إلى القبور ويعظمونها ، ويتعلقون بأهلها ، فيضعف عندهم التعلق بربهم ، وتعظيم ربهم سبحانه وبحمده .

(**ففُسِّر بإنكار الحكمة ، وإنكار القدر ، وإنكار أن يتم أمر رسوله ، وأن يظهره الله على الدين كله .**

وهذا هو ظن السَّوْء الذي ظنه المشركون والمنافقون في سورة الفتح ، وإنما كان هذا الظن السوء لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه ، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق .

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستمرة) .

وفي نسخ (**مستقرة**) .

(**يضمحل معها الحق ، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره ، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد ، بل زعم أن ذلك لمشيئةٍ مجردة ، فذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .**

فأكثر الناس يظنون بالله ظن السَّوْء فيما يختص به ، وفيما يفعله بغيرهم ، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده .

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا ، وليتب إلى الله ، ويستغفره من ظنه بربه ظن السَّوْء ، ولو فَتَّشْتَ من فَتَّشْتَ لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له) .

ما يخلو من عنده شيء في هذا الأمر ما يخلو من لوم القدر والتعنت ، والتعنت عليه ، ولهذا سوء الظن له مساوئ ؛ لأنه خلل ولا قوة إلا بالله بالإيمان بقضاء الله تعالى وقدره ، بل هو خلل في الإيمان بالربوبية وبأسماء الله وصفاته وجهل ، جهل ذريع بالله عز وجل .

(**ولو فَتَّشْتَ من فَتَّشْتَ لرأيت عنده تعنتًا على القدر وملامة له ، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا ، فمستقل ومستكثر**) .

أما المؤمن بالقدر فلا يقول : ينبغي أن يكون كذا . ولكن يقول قَدَرُ الله وما شاء فعل ، فهو يشكر ربه على السراء ، ويصبر ويحمده على الضراء ، ويعرف أن ما جاءه من خير فهو محض فضله ورحمته ، وما بدا له من ضد ذلك فهو مقتضى حكمته ، فهو تعالى حكيم . ومن أنت أيها الإنسان حتى يكون عندك لوم لقدر الله سبحانه وبحمده ، وأنت تكره شيئًا أحيانًا وهو خير لك ، وتحب شيئًا أحيانًا وهو شرٌّ لك ، فالعالم بالعواقب الحكيم بأفعاله سبحانه وتعالى وبخلقه هو الذي يجب على الإنسان أن يثق به ويحسن الظن به ويعلق قلبه به سبحانه وبحمده .

(**وفَتِّش نفسك هل أنت سالم ؟ فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة ، وإلا فإني لا إخالُكَ ناجيًا**) . انتهى كلامه رحمه .

(**وفَتِّش نفسك**) الإنسان يفتش نفسه ، الكيس من دان نفسه ، ينظر هل هو سالم من هذه الآفة .

والمقصود : أن الإنسان دائمًا يكون بين ما ذكر المصطفى ﷺ « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، إن أصابته ضراء صبر وكان خيرًا له ، وإن أصابته**

سراء شكر وكان خيرًا له » ، ولهذا هو دائمًا بين الصبر وبين الشكر ، ولهذا يقول ربنا في غير ما آية : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ .

ومما يعينه على الصبر حسن الظن بالله المبني على معرفة الله عز وجل بأسمائه وصفاته ، وأفعاله الدائرة بين الحكمة والعدل ، والرحمة والفضل كما مر بنا .

اللهم ارزقنا حسن الظن بك يا أرحم الراحمين

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

٤٨ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

(**باب ما جاء في منكري القدر**

وقال ابن عمر : والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر .

ثم استدل بقول النبي ﷺ : « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » . رواه مسلم) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في منكري القدر**) .

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد : أن الإيمان بالقدر له علاقة وثيقة بتوحيد الربوبية ، وله صلة بتوحيد الأسماء والصفات ، فمن آمن بقدر الله واستسلم لذلك خاضعًا طائعًا كان ذلك دليلاً على إيمانه وتوحيده لربه بأفعاله سبحانه وبحمده ، وأنتم تعرفون توحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله ، الخلق والرزق والإحياء والإماتة والتدبير وما أشبه ذلك .

والقدر معناه : التقدير السابق الذي سبق في الأزل . وربما يطلق على المقدور أو المقدَّر كما مر بنا في الذي ينبغي للإنسان أن يقوله إذا عرض له عارض: قدَر الله وما شاء فعل ، يعني هذا الذي أصابني هو قدر الله ، فالقدر يطلق على المقدور ، ويطلق على التقدير السابق .

الإيمان بالقدر هو أحد أركان الإيمان الستة كما ذكر في حديث جبريل لما سأل النبي ﷺ ، وابن عمر رضي الله عنهما قال هذا الكلام جوابًا لسؤال ، فقد روى مسلم في صحيحه عن يحيى بن معمر قال : انطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري إلى مكة حاجين أو معتمرين ، فقلنا : لو وافقنا أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء ، وكان القول بالقدر قد ظهر بالبصرة ، وأول من قال به أو أظهره معبد الجهني .

قال : فوفق لنا عبد الله بن عمر داخل المسجد الحرام فاكتنفته أنا وأخي – يقول يحيى – وظننت أن أخي سيكل السؤال إلي ، فقلت له : إنه ظهر قِبَلنا أناسٌ يتقفرون العلم – يعني يطلبونه ويبحثون عنه – ويزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف .

ومعنى أنف يعني مستأنف ، لم يقع بقدر الله عز وجل .

فقال عبد الله بن عمر : إذا رأيتهم فأخبرهم أني بريء منهم وأنهم مني برآء ، والذي نفس ابن عمر بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبله الله حتى يؤمن بالقدر ، ثم ساق حديث أبيه المعروف لديكم بحديث جبريل لما سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فأجابه عن الإيمان بقوله : « **أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وتؤمن بالقدر خيره وشره** » ، فعد أركان الإيمان ، وعددها ستة أركان ، **سادسها :** الإيمان بالقدر خيره وشره .

فدلَّ على أن الإيمان بالقدر ركن ركين من أركان الإيمان ، وأن جحوده على الإطلاق كفرٌ بالله عز وجل ، وتكذيبٌ بركن من أركان الإسلام . ولهذا قال عبد

الله ابن عباس الحبر رضي الله عنه وأرضاه قال : القدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده .

قال : (القدر نظام التوحيد): والنظام هو السلك الذي تنظم فيه المسبحة ، هذا يسمى نظام .

يعني أن التوحيد نظم في هذا النظام ، وهذا النظام هو القدر ، فمن كذب بالقدر انفرط هذا النظام ، وخرج ما فيه من العقود ، وهذا يدل على عظم هذا الركن وأهميته .

لما ظهر القدرية وقالوا بمقولتهم الفاسدة تلك ظهر مقابلهم طائفة أخرى كرد فعل لقولهم وهم الجبرية ، وهكذا أول ما بدأت الطوائف ، تخرج طائفة وتكون هذه الطائفة متطرفة غالية مما يؤدي إلى وجود أخرى تقابلها وتكون أيضًا مفرطة في الجانب الآخر .

فخذوا مثلاً أول طائفة خرجت هم الخوارج ، كان أول خارجي خرج في عهد النبي ﷺ عندما قال لأكرم الخلق صلوات ربي وسلام قال له : اتق الله ، ثم قال له : اعدل ، ثم تكاثروا وكما أخرج المصطفى ﷺ « **يخرج من ضئضئ هذا الرجل** » ، يعني من شاكلته « **أناس تحقرون صلاتكم عند صلاتهم ، وصيامكم عند صيامهم ، وقراءتكم عند قراءتهم** » . خرج من ضئضئه يعني من شكله أناس ، ثم تآمروا على عثمان واجتمعوا عليه ، وهم قرابة ألفي رجل دخلوا المدينة ، وأكثرهم لا يظن أن الأمور ستتفاقهم وتصل إلى هذا الحد . وهذه حال الغوغاء إذا دخلوا في أمر أكثرهم يظن أن هذه أمور بسيطة ستنتهي إلى ما يحلم به ، ثم تنتهي إلى أمور مزعجة مقلقة ، فيتمنى كثير منهم أن لم يكن له في هذا الأمر يد

ولا كلمة ، ولكن بعد ماذا ؟ قتلوا عثمان رضي الله عنه زاعمين الإصلاح ، فأفسدوا في الإسلام فسادًا عريضًا ، ما تزال الأمة تتجرعه إلى يومنا ، ثم قتلوا علي رضي الله عنه .

المقصود : أنهم لما خرجوا وكانوا غلاة في فكرهم خرج في مقابلهم المرجئة ، والذين لديهم تساهل ، وكما يقال : تمييع لكثير من مسائل الدين، حتى الإيمان قالوا : الإيمان إقرار القلب ، وإقرار القلب لا يتفاوت ، فالمؤمن كامل الإيمان عندهم مثل الفاجر والفاسق والعاصي إلى آخره .

وخرجت القدرية وغلوا في نفي القدر ، ورد نصوص القرآن التي هي كالشمس ؛ لأن القدرية هم ينقسمون إلى قسمين :

١. غلاة .

٢. وغير غلاة ، يعني بالنسبة لهم غير غلاة ، وإلا مذهبهم فيه غلو بلا شك .

أما الغلاة وهم الأوائل فأنكروا مراتب القدر الأربعة ، ومراتب القدر هي :

١. العلم .

٢. الكتابة .

٣. الخلق .

٤. والمشيئة .

جمعها بعضهم في بيت :

علم كتابة مولانا مشيئته ** وخلقه وهو إيجاد وتكوين

هذه مراتب القدر .

أنكروا العلم وأدلته في القرآن أكثر من أن تحصى .

وأنكروا الكتابة وأدلته في القرآن أيضًا مشهودة مشهورة .

وأنكروا الخلق والمشيئة .

لكن هذا القول قول في غاية الغلو والتطرف والإفراط ، ولهذا لم يصمد هذا القول ، ولم يستطع أصحابه أن يبنوا لهم مذهبًا أو طريقةً .

جاء بعدهم من هو أقل منهم غلوًّا فأقروا بالعلم والكتابة فقط ، وأنكروا الخلق والمشيئة ، فتناقضوا . ولهذا قال الشافعي كلمته المشهورة : ناظروهم بالعلم فإن أقروا به خصموا وإن أنكروه كفروا وصاروا مثل أسلافهم الذين ينكرون العلم .

كيف يناظرون بالعلم ؟ يقال لهذا القدري الذي يثبت العلم والكتابة ، وينكر الخلق والمشيئة هل جاء هذا الأمر على وفق علم الله تعالى وكتابته ؟

- فإن قال : نعم ، فقد خصم ، لأنه ما دام أنه يأتي على وفق علم الله وكتابته فلا بد وأن يكون شاءه وخلقه سبحانه وبحمده .
- وإن قال : لا ، لم يأتِ على وفق علم الله وكتابته ، يكون بذلك قد أنكر العلم والكتابة ، فيقع فيما وقع فيه أسلافه ، وأسلافه كفرهم السلف .

أما هؤلاء المتأخرون وهم المعتزلة ومن نحى نحوهم هؤلاء يبدعهم السلف ، وقولهم لا شك بدعة وضلالة كبيرة .

لما قالوا هذه المقولات الفاسدة وُجد مقابلهم من يقول بالجبر ، وأن الإنسان مجبور على عمله ، وأنه لا اختيار له .

وانقسموا أيضًا إلى قسمين :

١ . غلاة .

٢. وغير غلاة .

فالغلاة منهم يقولون : إن الإنسان مجبور على أعماله ، وأنه كالريشة في مهب الريح ، ليس له أيُّ اختيار ، أين نصوص القرآن الدالة على أن للإنسان مشيئة واختيار وإرادة ؟ وهي نصوص كثيرة ، ولهذا لم يصمد على هذا المنهج كثيرًا ، وهذا هو منهج الجبرية .

جاء بعدهم أناس أقل منهم غلوًّا في هذا الباب وقالوا : إن الإنسان مجبور ؛ لكنه مجبر من الباطن مختار من الظاهر ، يعني في باطنه مجبر وفي ظاهره له اختيار ، وهذا مذهب الأشعرية ، ثم أوجدوا المقولة المشهورة والتي يقرر العلماء أنها لا تعقل ولا تتصور ، وهي مسألة الكسب ، أن للإنسان كسبًا ، وإن كان لا يُنسب إليه فعله ، الفعل لا ينسب إليه ، ولكن يُنسب إليه الكسب ، وكان هذا تناقضًا وكلامًا ما يتصوره عقل .

والمتوسطون حقيقة بين القدرية والجبرية هم أهل السنة والجماعة ، الذين أثبتوا القدر بمراتبه الأربعة ، فأثبتوا العلم لله عز وجل ، وأن الله عز وجل عالمٌ بما كان وبما يكون ، وبما لا يكون لو كان كيف يكون ، يعني بالمستحيل .

ولهذا يقولون صفة العلم من الصفات الواسعة جدًّا ، فهو تعالى عالم بما كان ، وعالم ما يكون ، وعالم بالشيء الذي لا يكون لو أنه صار ماذا يكون ، كقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] ، وهذا مستحيل لا يكون أبدًا ، ومع ذلك بيَّن الله عاقبة الأمر ، وأنه لو كان فيه آلهةٌ لاختل نظام الكون ولفسد الكون برمته .

ثم أثبتوا المرتبة الثانية وهي الكتابة ، والمراد أن الله سبحانه وتعالى كتب في اللوح المحفوظ مقادير كل شيء كما سيأتينا إن شاء الله في حديث عبادة .

وهاتان المرتبتان أدلتهما في القرآن معروفة ومشهورة ، جمعهم الله تعالى في بعض آيٍ من كتابه العزيز ، كقوله عز وجل : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . دليل الكتابة قوله تعالى ﴿ كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ ، وأما العلم فمن أول الآية إلى آخرها . وقوله أيضًا في سورة الحج : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] . وقوله في الكتاب : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] .

وأثبت أيضًا أهل السنة المرتبة الثالثة وهي المشيئة ، وأدلتها في القرآن مشهودة مشهورة ، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] ، **وفي هذه الآية فائدة لطيفة وهي :** أن مشيئته سبحانه وبحمده متصلة بالحكمة ، خلاف ما يقوله بعض أهل الطوائف ، قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وأثبتوا أيضًا الخلق ، ومعنى الخلق الإيجاد ، إيجاد الشيء وتكوينه . وأثبتوا أن الله عز وجل خالق كل شيء وربه ومليكه سبحانه وبحمده ، وأنه خالق الأعيان يعني الذوات ، وخالق صفاتها وما يقوم بها ، ومن صفاتها أفعال العباد ،

وأن الله خالق العباد وخالقٌ أفعالهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ، كل شيء أوجده ربنا عز وجل فإنما أوجده بقدر سبحانه وبحمده .

وجه كونه تعالى خالقًا لأفعال العباد أن فعل العبد يكون بأمرين :

١. الإرادة الجازمة .

٢. والقدرة التامة .

والله تعالى هو الذي خلق لهم هذه القدرة وهذه الإرادة ، فإذا كان تعالى هو الذي خلقها وفعله يصدر عنها يكون بذلك قد خلق أفعال العباد سبحانه وبحمده .

هذا مجمل مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو أن الله سبحانه وتعالى خالق كل شيء ومليكه ، دخل في ذلك كما قلنا الأعيان وصفاتها ، وأنه سبحانه وتعالى علم ما كان وما يكون ، وما لا يكون لو كان كيف يكون ، وأنه كتب ذلك في اللوح المحفوظ ، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ومن اعتقد هذا الاعتقاد اطمأن قلبه وارتاحت نفسه ، ونأى بنفسه عن الجدل العقيم الذي لا فائدة منه ، بل فيه غاية الضرر .

وقد خرج النبي ﷺ كما في حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو بن العاص على الصحابة وهم يتكلمون في القدر وهذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية ، قال : كأنما يفقأُ في وجهه حب الرمان . يعني من شدة الغضب ، قال : « **بهذا أمرتم** » أو « **لهذا خلقتم أن تَضْرِبُوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا إلى ما أُمرتم به فامتثلوه ، وما نهيتم عنه فاجتنبوه** » ، هذا منهج الإسلام ، وهذا

المنهج الذي يطمئن به قلب العبد ، وهو المنهج القائم على الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، بحيث لا يعرض أمور الشرع وأحكامه على عقله ، فما قبله عقله قبله ، وما لم يقبله لم يقبله ، أو راح يبحث ويسائل ويناقش قال تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

ولهذا كان السلف في مناظراتهم يقيمون الدليل على المناظر فإذا قبله فذاك ، وإذا لم يقبله تركوه ، يتركونه لأنه ما دام أنه لم يقبل الدليل فهو معاند مغالط ، وهو في الحقيقة إذا عرض عليه الدليل الواضح من الكتاب أو السنة ورفضه ما عاد يجادلك ، وإنما يجادل الله عز وجل ، فمثل هذا ما يُتمادى معه ، لهذا تجد أن هذه الحوارات الطويلة ما تنتهي بنتيجة أبدًا ، وإنما تكون فرصة لأصحابها في بث شبهاتهم وأهوائهم وآرائهم .

والعجيب أن العرب في الجاهلية فيهم الإيمان بالقدر ، والعرب في جاهليتهم كان دين إبراهيم موجودًا فيهم مفرقًا مبثوثًا ؛ لكن الذي أخل به هو الشرك ، لما وقعوا في الشرك ما نفعهم ما عندهم من دين إبراهيم ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

عنترة يقول :

يا عَبْلُ أين من المنية مهربٌ ** إن كان ربي في السماء قضاها

انظروا يعني أولاً هو مؤمن بالقدر ، والشيء الثاني العلو (إن كان ربي في السماء) . وهو شاعر جاهلي ، وتجد كثيرًا من المنتسبين إلى الإسلام الإيمان بالقدر مهزوز ، والإيمان بالعلو معدوم ، والله المستعان .

والمقصود : أن الإيمان بالقدر يريح النفس . ولهذا يعدون فوائد للإيمان بالقدر :

- **منها :** صدق التوكل على الله عز وجل . العلاقة بين الإيمان بالقدر حسن الظن ، التوكل على الله ، أمور يقوي بعضها بعضًا لدى المسلم ، فالمؤمن بقضاء الله وقدره يمضي متوكلاً على الله عز وجل ، يفعل الأسباب لا شك ؛ لكن يُقدم ويعزم . ولهذا يغبطنا غيرنا في الإيمان بالقدر ، ذكر لي أحد الإخوان قال : كان - يمكن ذكرته مرة - رجل من المسلمين في إحدى البلاد الأجنبية ، يقول له واحد منهم: أنتم عندكم شيء جميل . قال : ما هو ؟ قال : إذا أصابكم شيء قلتم قضاء وقدر، نعم ما عندهم الشيء هذا ، إذا أصابه شيء يصاب بالهلع ويصاب بالقلق والضجر وربما ينتحر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولهذا قال شيخ الإسلام كلمة جميلة لعلها مرت علينا قال : لا يمكن لقدري ولا معطل أن يتوكل على الله . فالقدري ما يتوكل على الله لأنه يكذب بالقدر ويخلق فعله ، ومادام يخلق فعله يتوكل على نفسه ، لن يتوكل على الله عز وجل . والمعطل لا يتوكل على الله حق توكله لأنهم عطلوا الصفات ، أيتوكل على من ليس له صفات؟ الجواب: لا ، وهذه وجوه العلاقة يعني بين أنواع التوحيد ، القدر من الربوبية ، والتعطيل من الأسماء والصفات ، والتوكل من توحيد الألوهية ، فلما حصل الخلل في الربوبية وفي الأسماء والصفات حصل الخلل في توحيد الألوهية أيضًا .

- **منها أيضًا :** الطمأنينة ، طمأنينة القلب ، يعلم أن هذا الأمر قد قضاه الله عليه فيطمئن قلبه ، لاسيما إذا استشعر أيضًا أن ما يقضيه الله تعالى له خير ، وأن ما يقضيه الله تعالى هو بمقتضى حكمته ورحمته ، إذ أفعاله تعالى دائرة بين العدل والحكمة وبين الفضل والرحمة . إن أصابك خير هذا فضل ربي ورحمته ، إن عرض للإنسان ضد ذلك ، ذلك عدله وتلك حكمته سبحانه وبحمده . فإذا استشعر الإنسان هذه المعاني يطمئن قلبه وترتاح نفسه ، وتلحظ هذا في المسلمين ولله الحمد المنة ، لذا تجد عندهم الطمأنينة وقد تحصل لهم من الحوادث التي تهز الدنيا ، ومع ذلك ترى منهم الصبر والثقة بالله والتعلق به سبحانه وبحمده ؛ لكن هذا يتفاوت حسب توحيد الإنسان .
- **الفائدة الثالثة :** عدم العجب بالنفس وبالعمل ، وهذه مهمة ؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فإذا عمل الإنسان عمل طيب جاء الشيطان قال : أنت وأنت . فأوقعه في الرياء فحبط العمل ولا قوة إلا بالله . فإذا وُفقت لعمل طيب وربما اطلع عليه بعض الناس وأنت ما تريد أيضًا ، فاستشعر واستحضر الإيمان بالقضاء والقدر ، وأن هذا الأمر ما فعلته إلا بتقدير وتدبير من العلي الكبير سبحانه وبحمده ، ما فعلته من نفسك ، والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا ، فيزول العُجب عن الإنسان والرياء يزول عنه أيضًا . ومن لطيف ما ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله لما تكلم عن شكر الله على النعم ذكر من فوائد الشكر إزالة العجب بالنفس وبالعمل ، لأن الإنسان يشكر ربه على هذا الأمر

فكيف يعجب بنفسه ، ما يمكن ، ما دام أنه أسند الأمر إلى ربه وشكر سبحانه وبحمده ما يكون عنده شيء من العجب ، وقد ذكر الله هاتين الفائدتين في آية ، مسألة الطمأنينة وعدم العجب قال الله عز وجل: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ قال بعدها : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ ، ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا ﴾ لا تحزنوا ، بل اطمأنوا ، ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ لا تعجبوا وتفرحوا فرح أشر وبطر ، وإلا فالإنسان قد يفرح بالعمل الصالح أنه وُفِّقَ إليه ويرتاح له ؛ لكن إذا كان هذا الفرح صادرًا عن كبر وعن عجب بالنفس هذا الذي يذم .

- **ومن فوائده أيضًا :** أن الإنسان يفعل الأسباب ، ولا بد لمن آمن بقدر الله تعالى أن يفعل الأسباب، ولهذا يقولون في تعريف التوكل : صدق الاعتماد على الله في جلب نفع أو دفع ضر مع الثقة به وعمل الأسباب . أما أن يجلس ولا يعمل الأسباب فهذا ليس توكلاً ، بل هو عجز ، فلا يجعل عجزه توكلاً ولا توكله عجزًا ، وكذلك القدر ، الإيمان بالقدر لا بد معه من فعل الأسباب ، وإمام الموحدين صلوات ربي وسلامه عليه كان يفعل الأسباب ، حفر الخندق ، ظاهر بين درعين ، يلبس المغفر لما دخل مكة وما أشبه ذلك ؛ لأن بعض الناس يقولون : خلاص قضاء وقدر إذًا لا أفعل الأسباب ، لا ليس صحيح ، ولهذا قال ربنا : ﴿ وَتَزَوَّدُوا ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، في السفر ما تقول : سأسافر ولا أحتاج آخذ زاد ، تزودوا فإن خير الزاد التقوى .

- **من الفوائد أيضًا :** تكميل توحيد الربوبية ؛ لأن الإيمان بالقدر من أفراد توحيد الربوبية ، إذ صلته بقدر الله تعالى وفعله وخلقه أفعال العباد ، وله صلة بالأسماء والصفات ، لأن صلته بالعلم هذا صلة بالأسماء والصفات ، ففيه تكميل لنوعي التوحيد ، وتكميل للإيمان بالله عز وجل ، إذ الإيمان بالقدر ركن ركين من أركان الإيمان .

في الحديث قال : « **وأن تؤمن بالقدر خيره وشره** » ، أثبت الشر هنا ، وفي الدعاء المأثور « **وقني شر ما قضيت** » ، وفي الدعاء المخرج في ((**الصحيح**)) يعني بعضه في ((**صحيح مسلم**)) في دعاء الاستفتاح « **والشر ليس إليك** » ، يقول : فكيف نجمع بينهما ؟

نقول : وأما قدره عز وجل فكله خير ، وإنما الشر في المفعولات وفي المقدور وفي المقضي قد يكون فيه شر ، وإن لم يكن شرًّا محضًا ، ولهذا قد يصيب الإنسان شيءٌ يكرهه ويرى أنه قد أصيب بشيء فيه إزعاج له ، ثم يفتح الله سبحانه وتعالى عليه من إقباله على ربه ودعائه وتضرعه ما يفتح فيتبين له أن هذا الأمر كان خيرًا .

(وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه : يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . فقال : رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » . يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من مات على غير هذا فليس مني ») .

الحديث عند أبي داود والترمذي وأحمد رحمهم الله تعالى أجمعين . وهذه وصية عظيمة من عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، يوصي بها ابنه الوليد بن عبادة ، فماذا قال له في هذه الوصية ؟

قال : (**يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان**) ، يدل على أن الإيمان له طعم وله حلاوة ، « **ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان** » .

(**إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**) ، وهذا هو القدر ، ما أصابك سبق في اللوح المحفوظ أنه يصبك ولم يخطئك ، وما أخطأك سبق أيضًا في تقدير الله عز وجل أنه يخطئك فلن يصيبك .

وهذه الوصية ذكرها النبي ﷺ في بعض وصاياه لابن عباس في حديثه المشهور « **يا غلام احفظ الله يحفظك** » ، قال في آخره : « **واعلم أن ما أصابك** » ، في بعض رواياته « **لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك** » ، وقال في بعضها : « **واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف** » . وهذا يغرس في قلب المؤمن القوة ، أن الناس لو اجتمعوا على أن يضروه لن يضروه إلا بشيء كتبه الله ، وكذلك لو اجتمعوا على أن ينفعوه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فإذا هو استشعر واستحضر هذه المعاني لا شك يطمئن قلبه ، وترتاح نفسه ، ويعلم أن ما أصابه كان له ولم يكن عليه ، كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ [التوبة : ٥١] . ما كتب الله لنا ، لن

يصيب الإنسان إلا شيء كتبه الله سبحانه وتعالى له ؛ لأنه بين أن يشكر على السراء ويصبر على الضراء ، وفي كلٍّ خير له .

قال سمعت النبي ﷺ يقول : (« إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب . فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ») .

يقول : (« إن أول ما خلق الله القلمَ ») أو (« القلمُ ») روايتان .

(« إن أول ما خلق الله القلمَ ») (إنَّ) حرف توكيد ونصب واسمها ضمير الشأن محذوف ، و(أول) ظرف بمعنى حين ، (« إن أول ما خلق الله القلمَ فقال له : اكتب) الفاء قيل : زائدة لتحسين اللفظ ، وجملة قال هي الخبر.

والمعنى : أن الله عز وجل قال للقلم أول ما خلقه : (اكتب) ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة ، هذا توجيه رواية النصب .

الرواية الثانية بالرفع (« إن أول ما خلق الله القلمُ ») (إنَّ) حرف توكيد ونصب (أول) اسمها و(القلم) خبرها ، وفي هذه الرواية إشكال ، وهو أن أول المخلوقات هو القلم ، فمعناه أننا نعرف متى بدأ الله يخلق ، وهذا إشكال ، والله تعالى ما زال في الأزل الذي لا ابتداء له وهو يخلق . وخَلْقُ القلم كان قبل خَلْق السماوات بخمسين ألف سنة كما في حديث عبد الله بن عمر « **قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء** » .

فإذا كان القلم خُلق قبل السماوات بخمسين ، وإذا كان القلم أول المخلوقات كان معناه أن لخلق الله وقت وبداية ، وبدايتها كما ذُكر في الحديث قبل خلق السماوات والأرض بخمسين سنة ، وهذا إشكال كما ذُكر فإنه تعالى ما زال ولا يزال ولن يزل يخلق خلقًا عظيمًا سبحانه وبحمده ، فما الجواب ؟

- أما الرواية الأولى فلا إشكال فيها ، ليس فيها إشكال (**« إن أول ما خلق الله القلمَ »**) ليس معناه أن القلم أول المخلوقات ، ولكن معناه أن الله تعالى لما خلق القلم قال له : اكتب .

- لكن رواية الرفع يرد علينا هذا الإشكال ، وقد أجاب العلماء عنه ولله الحمد ، قالوا : إن أول ما خلق الله القلمُ ، يعني أن القلم هو أول المخلوقات مما نشاهده من هذا العالم ، فهو قبل خلق السماوات وما فيها ، وقبل خلق الأراضين وما عليها ، يعني مما يشاهد ، أما ما لا نشاهده ولا نعلمه من خلقه عز وجل فليس القلم قبله .

ولهذا اختلف العلماء رحمهم الله تعالى بين القلم والعرش أيهما خلق أولاً ؟

- فقال بعض أهل العلم : القلم أول ، هذا قول ابن جرير وابن الجوزي رحمهم الله .

- **والقول الثاني وهو قول جماهير أهل العلم :** أن العرش قبل ، والدليل: « **قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء** » يعني عندما قدر كان عرشه على الماء سبحانه وبحمده ، فدل على أن خلق العرش قبل خلق القلم .

ولهذا ابن القيم رحمه الله يقول :

والناس مختلفون في القلم الذي ** كُتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أم هو بعده ** قولان عند أبي العلا الهمذاني

والحق أن العرش قبل لأنه ** حال الكتابة كان ذا أركان

فالمقصود : أن العرش والماء أيضًا قبل خلق القلم ، والدليل على الماء: « **وكان عرشه على الماء** » ، فالعرش والماء خلقهما بظاهر حديث عبد الله بن عمر هذا كان قبل خلق القلم .

الرواية الثانية (**وفي رواية لأحمد : إن أول ما خلق الله تعالى القلم ، فقال له : « اكتب » . فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة .**

وفي رواية لابن وهب قال : قال رسول الله ﷺ : « فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار ») .

هذه الرواية لابن وهب وهو الإمام عبد الله بن وهب المصري رحمه الله رحمة واسعة ، قيل : هذه طرف من حديث عبادة أيضًا هذه الرواية ، قد رواها ابن أبي عاصم في كتاب ((**السنة**)) ، قال : ((**« فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار »**)) ، من لم يؤمن بالقدر أخل بالإيمان ، الإيمان أركانه ستة ، من أخل بواحد منها هذا لا يكون مؤمنًا .

(**وفي ((المسند)) و((السنن)) عن ابن الديلمي قال : أتيت أُبي بن كعب فقلت في نفسي شيء من القدر ، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي .**

فقال : لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار .

قال : فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت ، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ . حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه) .

ابن الديلمي رحمه الله يقول وقع في نفسه شيء من القدر ، هكذا الإنسان الذي يتعمق في مثل هذه الأمور ويبحث عنها ، ويخرج عن النصوص الجلية الواضحة البينة ، ربما تحصل عنده مثل هذه الإشكالات ، وهؤلاء الذين وقعوا في القدر نفيًا أو غلوًّا في الإثبات إنما وقعوا بسبب هذه الشبهات ، سماع الشبهات والانسياق وراءها ما ينتهي بصاحبه إلى خير ، ولهذا خرج النبي ﷺ عليهم مغضبًا لما سمعهم يتكلمون في القدر ؛ لأن القدر كما ورد عن بعض السلف سر الله سبحانه وتعالى ، قالوا : والقدر سر الله المكتوم .

ولهذا الذي يحتج بالقدر على ذنبه كما مر بنا احتجاجه غير مقبول شرعًا ولا عقلاً ، يعني ما الذي يدريك هذا السارق الذي سرق وقال : أنا سرقت بقدر الله . ما الذي يدريك قبل أن تسرق أن الله قدر عليك أن تسرق لولا أن لك اختيار ؟ ، فأنت أتيت باختيارك ، لِمَ لَمْ تُقَدِّر أن الله عز وجل عصمك من هذا الأمر ، تأتي لواحد تقول له صلي يا فلان ، قال : إن كان الله كاتب لي أن أصلي سأصلي ، وجلس ، فقل له : يا أخي القدر هو سر الله المكتوم الذي أخفاه ولم يطلع عليه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تطلع عليه أنت ، يعني كأنك أنت اطلعت على القدر ، وأن الله قدَّر عليك أن لا تصلي ، فلماذا لا تقدِّر أن الله قدَّر لك أن تصلي وتقوم وتتوضأ وتصلي مع الناس . وأنكر الله – كما ذكرنا في الدرس الماضي – على الذين يحتجون بالقدر في قوله عز وجل : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] . فبيَّن كذبهم فيما زعموه من الاحتجاج وأن مرادهم هو مجرد تبرير المعصية التي وقعوا فيها .

ابن الديلمي حصلت عنده هذه الشبهة فذهب يسأل أصحاب رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وأرضاه .

وفيه : أن الإنسان إذا حصل له شيء يسأل ، كما قال تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وروي عنه ﷺ أنه قال : « **ألا سألوا إذا لم يعلموا ، فإنما شفاء العيّ السؤال** » . جاء وسأل أبي فأعطاه مجمل ما مر بنا بالأحاديث السابقة :

- وأول عبارة قالها أُبي (**لو أنفقت**) وهذا مر علينا في كلام ابن عمر (**والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد**) إلى آخره .
- **الثاني قوله :** (**وتعلم أن ما أصابك**) ، أيضًا ورد في حديث عبادة .
- **الثالث قوله :** (**ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار**) ، أيضًا مر في أثر ابن وهب رحمه الله تعالى .

وفيه فائدة عظيمة يحتاج بها في هذا الزمن ، وهي : أن الإنسان لا يقر قراره ولا تسكن نفسه ولا يطمئن قلبه إلا بالاستسلام لله عز وجل ، فلا يعارض ، ولا يخالف ، ولا يكابر ، ولا يعاند ، ولا يقل لم ؟ وكيف ؟ والنص بين يديه ، فما جاء عن الله فعلى العين والرأس ، وما جاء عن رسوله فعلى العين والرأس ، ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ لم ؟ ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران : ٧] ، ما دام أنه من عند ربنا آمنا به ، لن يكون الحق في غيره أبدًا ، إذ جاء من الله عز وجل أو جاء من رسوله ﷺ .

وهذه الجادة إذا سلكها المسلم ارتاح ويطمئن وتسكن نفسه ، ويحفظه الله عز وجل من القيل والقال ، وشبهات الناس وأقاويلهم التي لا تنتهي ، والله المستعان .

ومر قول ربنا عز وجل : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ ﴾ ، معنى وجهي: وجهتي ونيتي وقصدي ، ومنه وجهي تابع له ، يعني وجهتي وقصدي أسلمتها واستسلمت لربي عز وجل ، وإذ كان من ربي فعلى العين والرأس ، ولا بد أن يكون الحق ، ولهذا الإنسان يطمئن حتى وإن لم يفهم ، وإن لم تتبن له الحكمة ، أو ما فهم المسألة ، ما دام أنها من عند الله فأنا مؤمن بما جاء عن الله عز وجل .

وعن بعض السلف : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله على مراد الله ، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ .

أما أن يعرض النصوص على عقله ويصادم النص بالعقل فأول من فعل هذا إبليس عندما أمره ربه بالسجود فقال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ ، ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء : ٦١] فعارض النص بالعقل الفاسد والقياس الفاسد ، ولهذا يقرر العلماء رحمهم أن القياس إذا صادم النص فهو فاسد الاعتبار ، ما يعتبر ولا ينظر إليه .

وهذه بلية بُلي الناس بها في هذه الأزمنة ، وهي عرض النصوص على عقولهم ، فإن قبلته فذاك ، وإن لم تقبله فأقنعه ، يريد إقناعه ، طيب هذا النص ، أين الإيمان ؟ أين الإسلام ؟ أين الاستسلام لله عز وجل ؟

ولهذا يجب غرس هذا المبدأ في نفوس أطفالنا وعقولهم ؛ لأنهم أصبحوا يواجهون شبهات حقيرة ؛ لكن لأنهم صغار لا يعرفون شيئًا ترد عليهم مثل هذه الأمور وتؤثر عليهم ، فإذا كان رُبِّي على هذه المسألة أن هذا من الله ، وإذ كان من الله آمنا به كل من عند ربنا ، وهذه طريقة الراسخين في المتشابه ، طريقتهم في المتشابه ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ، في النهاية لا بد أن يكون حقًّا ، إن عرفناه فذاك ، وإن لم نعرفه فنتهم عقولنا ، لا نتهم كتاب ربنا وسنة محمد ﷺ .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : بيان كيفية الإيمان به .

الثانية : إحباط عمل من لم يؤمن به .

الثالثة : الإخبار أن أحدًا لن يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به .

الرابعة : ذكر أول ما خلق الله .

الخامسة أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة .

السادسة : براءته ﷺ ممن لم يؤمن به .

السابعة : عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء .

الثامنة : أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته ، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط) .

هذه طريقتهم ، مر بنا قول مالك للرجل الذي سأله وكان معه معن بن عيسى قال : خرجت ومعي مالك متكئًا على يدي ، فعرض له رجل يقال له ابن الجويري ، وكان يرمى بشيء من الإرجاء ، فاستوقف مالك وقال اسمع مني يا عبد الله ، فقال له مالك رحمه الله: إن غلبتني أتبعك ؟ قال : نعم . قال : فإن جاء

رجل وغلبنا جميعًا نتبعه ؟ ثم قال : إن الله تعالى بعث محمدًا بدين واحد ، وأراك تنتقل من دين إلى دين . أراك تتنتقل ، كل واحد يقنعك سوف تتبعه ، بل اتبع كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، ففيهما السلامة والأمان والطمأنينة .

وفقكم الله وبارك فيكم

٤٩ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا والحاضرين .

قال المؤلف رحمه الله :

(**باب ما جاء في المصورين**

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » . أخرجاه) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في المصورين**) ، إلى هنا انتهى الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب من كتابه التيسير ، ((**تيسير العزيز الحميد**)) ولم يتمه قدس الله روحه ونوَّر ضريحه ، وهو كتاب حافل ، ما يستغنى عنه طالب علم في العقيدة ، وأُكمل الكتاب من كتاب ((**فتح المجيد**)) وهو لحفيد الشيخ الثاني والمجدد الثاني الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحهم أجمعين .

قال رحمه الله : (**المصورين**) جمع مصوِّر ، والمصوِّر من التصوير ، والتصوير مصدر صوَّر يصوِّرُ تصويرًا ، وهو تشكيل الشيء على هيئة الصورة .

عقد المؤلف رحمه الله هذا الباب لأن له علاقة بتوحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات جميعًا :

- أما علاقته بتوحيد الربوبية فلما فيه من المضاهاة لخلق الله تعالى كما سيأتي في الحديث « **أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله** » . والخلق أحد أفراد توحيد الربوبية العظيمة ، وتوحيد الربوبية هو توحيد الله بأفعاله من الخلق والملك والتدبير ، وهو الخالق سبحانه وبحمده ، وهذا المصوِّر يتشبه ويشَبِّهُ صنيعه بخلق الله عز وجل .
- وأما خلله بتوحيد الألوهية فلأن الصور المعظمة قد تُعبد مع تطاول الزمن ، ولهذا شاهد من أثر ابن عباس الذي مر بنا في ((**الصحيح**)) في وَد وسواع ويغوث ويعوق قال : أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان لقومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجالسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تُعبد ، يعني الأوائل ما عبدوها ، وقصدوا بها التذكر فقط ، يتذكرونهم ويتذكرون عباداتهم فينشطون للعبادة ، انظروا كيف يأتي الشيطان ، الشيطان له مداخل خبيثة على الإنسان ، أتاهم من باب الخير ، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عبدت الصور . فيه دليل آخر حديث أم حبيبة وأم سلمة ، لما ذكرتا وهما عند النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه عليه الصلاة والسلام كنيسة بأرض الحبشة وذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، رفع رأسه عليه الصلاة والسلام ، قال : « **أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوَّرُوا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله** » . صوروا الصور أدى الأمر إلى تعظيم هذه الصور وإلى عبادتها ، ومن هنا جاء الخلل بتوحيد الألوهية . وأيضًا هذا الوعيد الشديد- كما سيأتينا - في

المصورين ، والذين يتشبهون بصورهم بخلق الله عز وجل ، فكيف بمن يُشَبِّهُون الله عز وجل بخلقه ، فيدعون الأولياء مع الله ، وينذرون لهم ويذبحون لهم ، ويستغيثون بهم ، ويخافونهم كخوفهم من الله ، بل أشد من الله عز وجل ، فإذا كان هذا الوعيد جاء في المصورين فما الظن بمن يشبه الله سبحانه وتعالى بخلقه فيصرف لهم أشياء هي من خصائص الرب سبحانه وتعالى ؟

- وأما صلته بتوحيد الأسماء والصفات فلأن من أسماء الله المصور ، قال تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر : ٢٤] . لاحظوا ﴿ الْخَالِقُ ﴾ ثم ﴿ الْبَارِئُ ﴾ ثم ﴿ الْمُصَوِّرُ ﴾ ، خلق ثم برأ ثم صور ، والخلق المراد به التقدير ويراد به الإيجاد أيضًا . فالخلق هنا التقدير ، ثم بعد أن قدر برأ ، يعني نفذ أوجد ، وبعد الإيجاد صوَّر ، ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨] ، هذا المصور يسمي نفسه مصوِّر ، والمصوِّر من أسماء ربنا ، هو الذي صوَّر الخلق وخلقهم في أحسن تقويم ، ففيه خلل لا شك في توحيد الأسماء والصفات .

ما غرض المصوِّر ؟

١ . قد يكون غرضه خطيرًا جدًّا وهو إذا ما صوَّر تمثالاً يُعبد من دون الله عز وجل . فحكم هذا كفر لا شك ؛ لأنه رضًى بالكفر .

٢. وقد يصور لمضاهاة خلق الله عز وجل ، يضاهي خلق الله ، يشبه صنيعه بخلق الله عز وجل ، وهؤلاء أشار إليهم النبي ﷺ في الحديث الذي سيأتينا (« **أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله** ») .

٣. وقد يصور من باب التسلية ، أو العبث ، أو ما أشبه ذلك ، وهذا فيه نهايته يعتبر مضاهاةً لخلق الله عز وجل .

الشارع الحكيم عندما نهى عن الصور والتصاوير ، نهى عنه لحكمتين :

الأولى : لما فيه من مضاهاة خلق الله عز وجل ، وفي الحديث الذي عندنا (« **ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي** ») ، والحديث الذي بعده (« **الذين يضاهئون بخلق الله** ») .

الثاني : ولأنه وسيلة إلى الشرك كما وقع في وقوم نوح .

لهذا منع الشارع الحكيم هذا الأمر سدًّا للذريعة ، ولهذا سيأتينا في وصية علي رضي الله عنه لأبي هياج الأسدي حيان بن حصين قال : هل أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته. سيأتي ، مناسبة الجمع بينهما أن الأمرين كليهما يؤدي تعظيمهما إلى الشرك بالله عز وجل كما في حديث أم سلمة وأم حبيبة .

قال عليه الصلاة والسلام : (« **ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي** ») (**من**) اسم استفهام ، والمراد به النفي ، أي لا أحد أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، ومجيء النفي بصيغة الاستفهام أبلغ ، لأنه مشرب معنى التحدي ، لو كانت العبارة لا أحد أظلم منه ، أي ثبت الحكم ، وأنه من أظلم الناس ، أو أظلم الناس

؛ لكن لما قال : (« **ومن أظلم** ») ، من أظلم ممن ذهب يخلق كخلق الله عز وجل ؟ كأن فيه شيءٌ من التحدي والتعجيز .

قد يقول قائل : مثل هذه الصيغة ترد في القرآن في مواضع كثيرة ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ ﴾ [البقرة : ١١٤] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾ [البقرة : ١٤٠] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ وما أشبه ذلك ، ويفهم من الواحدة منها أنه لا أحد أظلم منه ، فكيف يتكرر ؟

أجيب عنها بجوابين :

- **الجواب الأول :** أن كل ما ذُكر في هذه الصيغ على حدٍّ سواء ، أنها متساوية ، وهذا الجواب فيه بُعد ، إذ لا يمكن أن يكون من كتم الشهادة مثل من كذب على الله ، افترى على الله كذب ، لا يمكن أن يتساويا .
- **لكن الجواب الثاني** – وهو مر علينا بالتفسير كثيرًا – وهو أن المراد هنا بنفي الظلم وأنه لا أحد أظلم منه ، أن هذا الأمر أمر نسبي ، يعني بالنسبة لهذا الباب المعين ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ [السجدة : ٢٢] لا أحد أظلم ممن وعظ بالقرآن وأعرض عنه ؛ لأن الإنسان قد يُذَكَّر بكلام الرسول ، بكلام الصحابة ، بكلام السلف إلى آخره ويُعرض فأيهم أشد ظلمًا ؟ من أعرض عن كتاب الله عز وجل ، وقولوا هذا في كتم الشهادة وفي غيرها . ويقال هنا : (« **ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي** ») ، أي لا أحد ذهب يضاهي أحدًا في شيء ، لا أحد أشد ظلمًا ممن يضاهي خلق الله عز وجل .

(« **فليخلقوا ذرة** ») تحداهم الله بأصغر مخلوق ، (« **أو ليخلقوا حبة** ») وهذا تعميم يشمل كل الحبوب ، (« **أو ليخلقوا شعيرة** ») ولن يستطيعوا ذلك ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ [الحج : ٧٣] إذا خطف الذباب منه شيء لا يمكن أن يستنقذه منه ، لا أن الذباب هرب أو كذا ؛ لكن لأن ما يأخذه الذباب وما يسلبه يتحلل مباشرة ، فلا يمكن أن يسترد منه .

وهكذا من يصور إنما ذهب يحاكي خلق الله عز وجل فلا أحد أظلم منه .

(**ولهما عن عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله »**) .

هذا طرف حديث عائشة من حديث لها ، وأن النبي ﷺ كان في سفر قالت : (**فسترت بقرام لي سهوة لي**) ، (**سهوة**) كالبيت الصغير أو الغرفة الصغيرة التي يوضع فيها بعض أشياء البيت كالمخزن الصغير ، وضعت عليها خرقة قطعة قماش فيها شيء من التصاوير ، فلما جاء النبي ﷺ هتكه وقال : (« **أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله** ») ، قالت عائشة : فجعلناه وسادة أو وسادتين .

(« **أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله** ») قد تقول : هل يعني هذا أنه أشد من الكبائر ؟ هنا يأتي أهل البدع يقول الخوارج والمعتزلة يكون مخلدًا في النار ، وأما المرجئة ولاحظوا أن سبحان الله هذه المذاهب المنحرفة هي ردود أفعال ، يعني جاءت القدرية ثم جاء في مقابلهم الجبرية ، وجاء الخوارج ، الخوارج ما عندهم إلا كفر ، ولا فيه رحمة ولا عواطف ولا

شيء ، ثم جاء بعدهم المرجئة . والمرجئة نصوص الوعيد عندهم ليست في المسلم وإنما هي في الكافر ، فيقولون : (« أشد الناس عذابًا يوم القيامة ») الكفار وليس بالمسلمين ، وأهل السنة ولله الحمد يتوسطون ، لا يمكن أن يكون المصور أشد مثلاً من القاتل أو من بعض الكبائر العاق لوالديه ، ولهذا أجابوا عن هذا الحديث (« أشد الناس عذابًا ») هذا مثل الذي يصنع تماثيل تعبد من دون الله عز وجل ، وكان هذا سائغًا يعني في ذاك الزمان ، فهو لا شك أشد الناس عذابًا وهو يستحق أن يُعذب أشد العذاب ، لأنه يصنع تماثيل أو صورًا يصورها ينحتها نحتًا فتُعبد من دون الله عز وجل ، والله أعلم .

(**ولهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مصور في النار يَجعل له بكل صورة صورها نفسًا يُعذب بها في جهنم »**) .

(« كل مصور في النار ») ، كل هذه من أشمل صيغ العموم ، كل مصور ، وهي مأخوذة من الإكليل لإحاطته بالرأس ، والإكليل التاج . وهي لشمولها وإحاطتها بكل ما تتناوله شُبِّهت بالإكليل ، (« كل مصور في النار يُجعل ») ، أو (« يَجعل له بكل صورة صورها نفسًا يُعذب بها في جهنم ») يُجعل في هذه الصورة نفسًا يعذب بها يوم القيامة تعذبه يوم القيامة في كل صورة صورها ولا قوة إلا بالله ، وهذه العقوبات كما تلحظون عقوبات شديدة لا شك تدل على شدة الأمر وعظيم خطره .

ثم التصوير أقسام لا شك :

- فمنه ما له ظل ، يعني جسم ، الصورة المجسمة ، فهذه محرمة ويكاد يكون تحريمها إجماعًا بين أهل العلم .
- **الثانية :** ما تكون رسمًا يرسمها بالقلم ، يخططها ويصورها وهذه محرمة أيضًا عند عامة أهل العلم ، وحديث عائشة الذي مر بنا رأى النبي ﷺ صورة على القرام على الكساء ، وفي حديث لها آخر في ((**الصحيحين**)) من حديث القاسم بن محمد عن عمته عائشة رضي الله عنها ، قالت : (اشتريت نمرقة فيها تصاوير) نمرقة يعني وسادة ، لما دخل النبي ﷺ وقف ، فرأت الكراهية في وجهه فقالت : أتوب إلى الله ورسوله ماذا فعلت ؟ قال : « **ما بال هذه النمرقة** » ؟ قالت : اشتريتها لك يا رسول الله ترتفق بها وتتوسد عليها ، فقال : « **إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال أحيوا ما خلقتم** » ، وقال : « **لا تدخل الملائكة فيه صورة** » . النمرقة يعني وسادة فيها صور ، وهذا يدل على أن الصور المرسومة صور لا إشكال فيها .
- **المسألة الثالثة** - يعني من الأشياء الحديثة التي حدثت - : التصوير بالأجهزة والكاميرات ، وهذه الكاميرات الحديثة التي تلتقط الصورة التقاطًا لا يصورها الإنسان اختلف فيها العلماء رحمهم الله تعالى ، هل هذا العمل تصوير أو ليس بتصوير ؟ مع أن الصورة المخرجة منها تعتبر صورة ؛ لكن هل صنيعه هذا تصوير يستحق في هذه العقوبات ؟:
  - بعض أهل العلم يقول : هذا ليس بتصوير ، وليس معنى هذا التوسع فيه وإباحته ، ليس بتصوير وإنما هو التقاط لهذه الصورة ،

وإلا فالصورة هي التي صورها الله عز وجل ، هذا يميل إليه بعض أهل العلم الشيخ محمد رحمه الله .

- وبعضهم يمنع هذا الأمر ، لا ريب أن الاحتياط في مسائل الخلاف مطلوب ، لاسيما عندما ينظر الإنسان إلى هذه العقوبات العظيمة الشديدة ، لا يقتحم الأمر ويعرض نفسه للعقوبة ويترخص بهذا الأمر مع أن له مندوحة عنه .

وأما الصور التي ليس لها مشهد ولا مظهر – كما يقول الشيخ محمد ، حتى اللجنة – ، هي صور متحركة وهي التي تكون في الأجهزة ، تلفاز وفيديو وما أشبه ذلك فهي خارجة عن الموضوع ، أي ما يعتبرونها من قبيل الصور ، أشياء متحركة وليست ثابتة ومثل صورة المرآة هي صورة لا يمكن أن نقول أنها داخلة في هذا الموضوع ، والله أعلم .

ولا شك أن احتياط الإنسان لدينه في الأمور التي فيها اشتباه مطلوب ، ومعلوم أن الخروج عن الخلاف أحوط للإنسان وأبرأ لذمته .

(**ولهما عنه مرفوعًا « من صوَّر صورة في الدنيا كُلِّف أن يَنْفُخَ فيها الروح وليس بنافخ »**) .

مجاهد رحمه الله له قول : أن جميع الصور حتى لغير ذوات الأرواح لا تجوز ، كون الإنسان يصور سيارات وطائرات وأشجار وما أشبه ذلك . ولكن عامة أهل العلم على خلافه والدليل هذا الحديث (**« كُلِّف أن يَنْفُخَ فيها الروح »**) يدل على أن التصوير المحرم إنما هو في ذوات الأرواح ، جُعل لهم في كل صورة نفسًا أيضًا أو يُجعل له نفس يعذب بها يوم القيامة .

قد جاء رجل لابن عباس يسأله ويقولون إنه رجل يأكل من عمل يده وأنه يعمل هذه التصاوير ، فأورد له قول النبي ﷺ فراب الرجل وارتعد قال : إن كنت فاعل فعليك بتصوير الشجر وما أشبه ذلك . بعض الناس لديه ميل لهذا الأمر يحب التصوير ، فإذا كان يحب هذا الأمر ويتسلى به فعليه بما لا روح فيه ، وما لا روح فيه لا يُعد ، فيستطيع أن ينمي موهبته ويسلي نفسه بالتشاغل في هذا الأمر ، والله المستعان .

(**ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي رضي الله عنه : ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**) .

(**ألا أبعثك**) فيه نقل العلم ، علي يقول لأبي هياج (**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها**) ، وطمسها يكون بإزالة الرأس ، في الحديث « **الصورة الرأس فإذا قطع فلا صورة** » ، وفيه « **اقطع رأس التمثال حتى يكون كهيئة الشجرة** » الحديث دليل على تصوير الشجرة .

المقصود : أنه إذا زال الرأس لا تعتبر رؤوسًا ، يطمس الرأس .

(**ولا قبرًا مشرفًا**) معنى مشرف مرتفع ، (**إلا سويته**) ويسويه بالأرض بحيث يكون مرتفع عن الأرض قدر شبر كما عليه قبر النبي ﷺ .

رأينا هذا من فعل الناس وكيف عظموا القبور ، حتى صارت مواقعها أعظم عند الجهال من بيوت الله عز وجل ، وحتى بنوا عليها المساجد ، حتى يدفن واحد منهم في المسجد ، وربما في قبلة المسجد ولا قوة إلا بالله ، وهي بيوت الله

وليست مقابر لأحد ، بنوا عليها وقد نهى النبي ﷺ أن يبنى على القبر وأن يجصص القبر ، وفي رواية الترمذي : وأن يكتب عليه .

واتخذوها عياذًا يرِدونها ، وطافوا بها كما يطاف ببيت الله العتيق ، وتحروا الدعاء عندها وآل الأمر إلى أن دعيت من دون الله عز وجل .

قد لعن رسول الله ﷺ من فعل ذلك ، من اتخذ القبور مساجد ، ونهى أن يتخذ قبره عيدًا صلوات ربي وسلامه عليه ، وخالف الناس في هذا مخالفات عظيمة والأدلة فيها كالشمس الساطعة في ضوء النهار ، ومنها هذا الحديث (**ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**) حتى لا يرفع القبر ويعلوا وتحصل به الفتنة ، فإن مما ابتليت به هذه الأمة وفتنت به فتنة الصالحين .

وقد مر بنا في حديث جندب أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول : « **ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك** » .

عدوا العقوبات الواردة في هذه الأحاديث التي أوردها المؤلف :

١ . (« **أشد الناس عذابًا يوم القيامة** ») .

٢ . (« **ومن أظلم** ») لا أحد أظلم منه .

٣ . (« **كل مصور في النار** ») .

٤ . وفي حديث آخر لعن المصورين عليه الصلاة والسلام .

فالعقوبات لا شك عظيمة وشديدة ، تساهل الناس في هذا الأمر ، في هذا الزمان كثيرًا بهذا الأمر ، الله المستعان .

ومؤكد على المسلم أن يحرص على البعد عن الموبقات وعن الوسائل المفضية إليها ، وقد يجره هذا إلى النظر في صور ولا قوة إلا بالله فاتنة ، وما يظهر في الأجهزة قد يقع في قلب الضعيف شهوة لهذا الأمر ، وإذا كان ربنا عز وجل قال : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ، بمجرد سماع صوت المرأة قد يطمع فيها من مريض القلب ، فكيف هذه الصور الفاتنة ولا قوة إلا بالله التي قد تؤثر على الإنسان حتى وإن كان بعيد على التأثر بمثل هذه الأمور .

فليحذر الإنسان على نفسه وقلبه لا شك أولى وأعظم فيجب عليه أن يحرص عليه .

(**فيه مسائل :**

الأولى : التغليظ الشديد في المصورين .

الثانية : التنبيه على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » .

الثالثة : التنبيه على قدرته ، وعجزهم بقوله : « فليخلقوا ذرة » ، « أو شعيرة »

الرابعة : التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا .

الخامسة : أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها في جهنم .

السادسة : أنه يُكلف أن يُنفخ فيها الروح .

السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت) .

(**الثانية : التنبيه على العلة ، وهو ترك الأدب مع الله**) ، ترك الأدب مع الله لمضاهاته خلق الله عز وجل ، وهذه علة .

وقد ذكر العلة الأولى : مضاهاته خلق الله عز وجل ، وتشبهه بخلق الله .

والثانية : ما قد تؤدي إليه من التعظيم المفضي إلى الشرك .

وأيضًا ما قد تؤدي إليه من الفتن لاسيما في هذا الزمن ، في الزمن الماضي التصوير باليد أو بكذا ، لكن في هذا الزمن تأتي صور ولا قوة إلا بالله في غاية الفتنة ، والتشاغل بها والنظر إليها قد يفتن الإنسان بسببها .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

٥٠ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في كثرة الحلف**

وقول الله تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩]) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في كثرة الحلف**) ، مراده رحمه الله بكثرة الحلف بالله عز وجل .

وأما الحلف بغير الله فقد مضى ، وتبين حكمه ، وأن الحكم شركٌ أصغر بنص كلام رسول الله ﷺ « **من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك** » .

لكن ذُكر هناك أن الحلف بغير الله إذا وصل الأمر فيه إلى أن الحالف يُعظم المحلوف به أعظم من الله عز وجل فإن هذا يصل إلى الشرك الأكبر ، وهذا قد يقع فيه الذين يتساهلون بالحلف بغير الله .

وتُذكرون في تعريف الشرك الأصغر قيل في بعض تعريفه : ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر . والحلف بغير الله وإن كان شركًا أصغر في الأصل إلا أنه وسيلة إلى الشرك الأكبر ، ويوجد في كثير ممن يحلفون بغير الله ممن يعظمون محلوفيهم أنهم يعظمونهم أكثر من الله عز وجل بحيث لو طلبت منه أن يحلف بالله كاذبًا حلف ولم يبالِ ، ولو طُلب منه أن يحلف كاذبًا بمن يعظمه لم يحلف ، فهو يعظمه أكثر ، ويرجوه أكثر ، ويخافه أيضًا ، يخافونهم ولا قوة إلا بالله ،

وصدق الله ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] .

قال تعالى : (﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾) ، هذه الآية كما تعرفون أو هذا الجزء من الآية هو تتمة آية وهي قوله عز وجل : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ .

فقسم اليمين إلى قسمين :

١ . لغو .

٢ . عقد .

أما اللغو فلا كفارة فيه، واللغو هو:

- الذي يجري على الألسنة ، قول عائشة : هو قول الرجل لا والله ، وبلى والله .
- **ومن اللغو أيضًا** : إذا حلف على أمر ماضٍ يظن صحته ، فتبين أنه بخلاف ذلك ، كقولك : والله لقد قدم زيدٌ من السفر ، ثم تبين أنه لم يقدم ، قالوا : هذا لغو ، لأن الحلف المنعقدة هي التي يعقدها على أمرٍ مستقبل ، وأما الحلف على أمر مستقبل يظن وقوعه ثم تبين أنه لم يقع ، كأن يقول : والله ليقدمن زيد غدًا ، فمحل خلاف ، فالمشهور في مذهب الإمام أحمد أنها يمين منعقدة ، وقيل : إنها من قبيل اللغو أيضًا .

الثاني : ﴿ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ ، أي عقدتموها ، وهي التي كما مر يقصد عقدها على أمرٍ مستقبل .

قال بعد ذلك : (﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾) ، ذكر العلماء أن اليمين لها ابتداء ، ووسط ، ونهاية .

فابتداؤها : العقد الحلف .

والوسط فيها : الحنث .

والنهاية : الكفارة .

فقوله : (﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾) ، أي في ابتدائها وفي وسطها وفي نهايتها:

- ففي ابتدائها احفظوا أيمانكم ، بحيث:
  - لا يحلف بغير الله هذا واحد .
  - **الثاني :** لا يُكثر من الحلف أيضًا ، فيحفظ يمينه من هذا كله ، ولأنه إذا أكثر من الحلف فإكثاره من الحلف:
    - يدل على تهاونه بالله عز وجل ، فالله تعالى عظيم ، والعظيم لا يُحلف به إلا على أمر عظيم ، ما يحلف به إلا عند خصومة ، أمر يتعلق في حقوق الغير ، أما أن يحلف بالله على كل أمر فهذا يدل على ضعف تعظيمه الله عز وجل ، وتهاونه في تعظيم ربه سبحانه وبحمده .
    - **ثانيًا :** ولأنه إذا أكثر الحلف فالغالب أنه لن يتمكن من التكفير ، يكفر مرة ومرتين ، كل يوم سيكفر ؟ ، فيتهاون بالحلف ثم يجره هذا إلى التهاون في التكفير إذا حنث .
- **وأما الوسط فهو :** الحِنْث ، ومعنى الحِنْث قالوا : أن يفعل ما حلف على تركه ، أو يترك ما حلف على فعله ، وسمي حِنْثًا من الحِنْث الذي هو

الذنب ، فالذنب حِنْث فكونه لا يَبَرُّ بيمينه ويحنث يكون عرَّض نفسه للذنب ولهذا لزمته الكفارة بعد ذلك ، فيمضي في يمينه إلا إذا كان المحلوف عليه إثمًا ، فحينئذٍ لا يتمادى في يمينه، أو كان المحلوف عليه مفضولاً ترك به شيئًا فاضلاً ، كما في قوله ﷺ : « **إذا حلف أحدكم على يمينه فرأى غيرها خيرًا منها فليأتِ الذي هو خير وليكفر عن يمينه** » .

والحنث تجري عليه الأحكام الخمسة قد يكون مباح ، قد يكون محرم ، قد يكون واجب ، يعني لو حلف شخصٌ على قطيعة رحم فحكم الحنث في حقه واجب ، يجب عليه أن يصل رحمه ويكفر .

- **الثالث :** نهايتها وهو الكفارة .

المقصود : أن الإنسان يحفظ يمينه في ابتدائها ، وفي توسطها ، وفي نهايتها .

قال رحمه الله : (**عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب » أخرجاه**) .

يذكر المؤلف رحمه الله بعض النصوص الدالة على عدم التهاون بهذا الأمر ، بحيث يجعل الله عز وجل بضاعة له ، إن باع حلف وإن اشترى حلف ، حتى يسوق بضاعته بهذا الحلف ، فأورد حديث أبي هريرة ، وهو قول النبي ﷺ : « **الحلف منفقة للسعلة ، ممحقة للبركة** » ، في رواية « **ممحقة للرزق** » .

« **الحلف** » يعني الحلف الكاذبة ، في رواية في الحديث « **اليمين الكاذبة** » ، لأن من يستخدم اليمين في تسويق سلعته الغالب أنه يكذب ، فهو يُرَغِّب الناس في الشراء بالحلف ، وإلا لو كان صادقًا عرف الناس صدقه ، وما احتاجوا منه أن يحلف . والكذب والكتمان في البيع يمحق بركته ، قال ﷺ : « **البيعان بالخيار**

ما لم يتفرقا ، فإن صدقا وبيّنا بورك لهما في بيعهما ، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » .

المقصود : أن الحلف سبب لِنَفَاق السلعة ، عندما يأتي شخص إلى بائع ويحلف الأيمان أن هذا السعر وأنه صادق وأن السلعة جيد ، يصدقه . وقد مر بنا قول النبي ﷺ : « **من حُلف له بالله فليرض** » ، فيصدقه ، ثم يشتري السلعة ، ثم يتبين له بعد ذلك أنه قد كذب عليه وأنه قد غشه . وهذا الجاهل الذي يُسَوِّق بضاعته بالحلف يظن أن هذا الحلف سيُؤدي إلى أن يقبل الناس عليه ويشتروا منه ويتحصل على مال كثير ، والناس يعرفون الشخص يتعاملون معه مرة ومرتين ، ثم بعد ذلك يتركونه ، فإذا هو صدق فالصدق منجاة ، وسبب لحصول البركة .

(**وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم : أُشَيْمِطٌ زان ، وعائل مستكبر ، ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه » . رواه الطبراني بسند صحيح**) .

عن سلمان قال ﷺ : (**« ثلاثة »**) ، هذا العدد مر بنا أن مثل هذه الأعداد لا يراد بها الحصر ، وإنما يراد بها حصر العلم لأجل ضبطه .

قد مر بنا أنه جاءت بعض النصوص بـ :

١ . (اثنين) ومر بنا قول النبي ﷺ : « **اثنتان بالناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت** » .

٢ . و(الثلاثة) كما في هذا الحديث وأحاديث كثيرة .

٣. و(الأربع) مرت بنا أيضًا حدثني النبي ﷺ بأربع كلمات ، وأيضًا قوله : « **أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن** » .

٤. و(الخمس) أيضًا مرت « **خمس من الفطرة** » ، « **اغتنم خمسًا قبل خمس** » .

٥. و(الست) وردت أيضًا في الحديث المخرج في ((**صحيح مسلم**)) « **بادروا بالأعمال ستًّا : الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخويصة أحدكم ، وأمر العامة** » :

- قيل في « **خويصة أحدكم** » : الموت ، « **وأمر العامة** » القيامة .
- وقيل قولٌ لطيف « **خويصة أحدكم** » أموره ومشاغله وأعماله التي لا تنتهي ، فبادروا قبل أن تبلوا بالمشاغل ، والله المستعان .

« **وأمر العامة** » قيل : الفتن ، ولا قوة إلا بالله والتي تعم وتطم .

٦. و(السبعة) « **بادروا بالأعمال سبعًا** » ، ومر علينا « **سبعة يظلهم الله في ظله** » ، ومر بنا في ((**التوحيد**)) « **اجتنبوا السبع الموبقات** » .

٧. و(العشر) « **عشر من الفطرة** » كما ورد « **خمس من الفطرة** » ، لاحظوا أن العدد يراد به تقريب العلم وضبطه .

قال : (**« ثلاثة لا يكلمهم الله »**) ، نفي الكلام لهم دليلٌ على إثباته لأوليائه وعباده المؤمنين كما قال : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٤] ، ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، « **ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه ترجمان** » .

(**« ولا يزكيهم »**) التزكية التطهير والتنقية .

قد يقول قائل : النبي ﷺ يقول : (« **ثلاثة لا يكلمهم الله** ») ، في أحاديث عديدة ؛ لكن ما الجواب عن قوله عز وجل لأهل النار : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] وهذا تكليم ؟

الجواب: إنما التكليم المنفي هنا يعني تكليم الرضا ، لا يكلمهم تكليم رضا ومحبة ، إنما كلمهم هنا تكليم زجر وتوبيخ .

الأول : (« **أُشَيْمِطٌ زان** ») وصُغِّر هنا تحقيرا له ، كبير السن ويقع عياذًا بالله وقد ضعف داعي المعصية عنده ، لكن الإنسان حفظكم الله إذا ابتلي بهذا الأمر في شبابه فربما تتعاقب عليه السيئات كل واحدة تقول : أختي أختي ، حتى ربما يبحث عياذًا بالله عن الفاحشة وإن لم يكن عنده طاقة لها من باب الابتلاء ولا قوة إلا بالله ، ويحال بينه وبين قلبه ، وصدق الله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : ٢٤] ، فإذا أبطأ الإنسان في التوبة وقد وقع في المعصية وتساهل وتهاون فقد يحال بينه وبين قلبه ، تجده يرغب ، يريد أن يصلي لكن يجد شيئًا يمنعه ولا قوة إلا بالله ، وهذا من شؤم المعاصي إذا استمر الإنسان عليها ولم يبادر بالتوبة إلى الله عز وجل منها .

ولهذا فرق الشارع الحكيم بين البكر وبين الثيب ، البكر يجلد مائة جلدة ويغرب سنة ، أما الثيب فيرجم ولا قوة إلا بالله .

الثاني : (« **وعائل مستكبر** ») ، لاحظوا التشابه بينهم ، هذا عياذًا بالله يبحث عن الفاحشة وقد ضعفت دواعيها عنده ومع ذلك يسعى إليها ويبحث عنها . وهذا أيضًا عائل فقير ومع ذلك يَستكبر ، كيف لو كان لديه سبب الكبر ، وهو

المال الذي يطغي ماذا سيصنع ؟ فداء الكبر بالنسبة له ضعيف جدًّا ومع ذلك يتكبر ، ودل على أن المعصية إذا وقعت من الإنسان مع ضعف دواعيها كانت العقوبة عليها أشد ، وكالسارق يسرق وهو غني ، يسرق وهو غني ولا قوة إلا بالله ، لرغبته في هذا العمل ما يحجز نفسه .

الثالث : (**« ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه »**) ، جعل ربه عز وجل وسيلة لتسويق سلعته لجني الأرباح منه ، فليس لديه تعظيمٌ لله عز وجل ، بل هو متهاون به إلى درجة أن جعله وسيلة للبحث عن المال عياذًا بالله . وفي حديث أبي ذر المخرج في ((**مسلم**)) « **ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : المسبل إزاره ، والمنان بما أعطى ، والمُنَفِّق سلعته باليمين الكاذبة** » ، « **والمُنَفِّق سلعته باليمين الكاذبة** » مثل هذا ، يسعى إلى نَفَاق بضاعته بالأيمان وهو كاذب فيها ، وهذا يكون يعني جمع عدة مساوئ :

الأمر الأول : أنها متهاون بتعظيم الله عز وجل .

الثاني : الكذب ، كذب على الناس .

الثالث : أنه يأكل أموال الناس بالباطل .

وهذا الحديث الذي أورده المؤلف قدس الله روحه عند الطبراني صححه أهل العلم ، وأصله في ((**مسلم**)) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « **ثلاث لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر** » .

« **شيخ زان** » مثل ((**« أُشَيْمِط زان »**)) ، وهذا لا يدل على التهاون بالزنا بالنسبة للشاب رجلٌ كان أو امرأة ، لا .

فيه إشارة إلى أن الإنسان إذا وقع في هذه الفاحشة في سن شبابه فربما كما ذكر يستمر عليها إلى أن يشيب ، وإلا فهذا الأشيمط لم يقع في الزنا وهو أشيمط ، لا أبدًا ، لكنه ألف هذه المعصية وأشربها قلبه ولا قوة إلا بالله .

قال رحمه الله : (**وفي ((الصحيح)) عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة ، « ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُسْتَشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمن »**) .

عن عمران بن حصين عمران وأبوه صحابيان جليلان لما أسلم حصين قال له النبي ﷺ قبل أن يُسلم : « **كم إلهًا تعبد** » ؟ قال : سبعة ، ستة في الأرض وواحد في السماء . قال : « **من تعده لرغبتك ورهبتك** » ؟ قال : الذي في السماء . قال : « **أسلم فإني أعلمك كلمات** » ، فأسلم رضي الله عنه ، فماذا علمه النبي ﷺ ؟ أول كلمة تقال لرجل أسلم بعد الشهادتين قال : « **قل اللهم ألهمني رشدي وقني شر نفسي** » ، إذا جمع الله للإنسان هاتين الخصلتين حسُنت حاله واستقام على شرع ربه:

- فألهمه الله تعالى الرشد ، والرشد وصف يطلق على كل خير .
- ووقاه شر نفسه ، فدل على عظم خطر النفس صاحبها إذا انساق وراءها ، وسار مع ما تهوى .

قال : (« **خير أمتي** ») ، وفي بعض الروايات « **خير الناس** » وفي بعضها « **خيركم قرني** » .

ما المراد بالقرن ؟ المشهور الآن أن القرن مائة سنة ، وهو العرف السائد الآن ، لكن القرن يقصد به الجيل ، أو الطائفة من الناس المتفقون على شيء ، إما سِن أو مِلة معينة ، فيقال عنهم قرن .

(« **خير أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . قال عمران : فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة**) ، والثابت في غير حديث عمران أنه ذكر قرنين ، انظروا إلى حديث ابن مسعود بعده (« **خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم** ») . ورد أيضًا في حديث عمر عند أحمد ذكر القرنين فقط ، فتكون القرون الموصوفة بالخيرية ثلاثة قرون .

القرن الأول وهو خيرها قال ﷺ والحديث عند البخاري : « **بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرن ، حتى كنت في القرن الذي كنت فيه** » ، « **بعثت من خير قرون بني آدم** » .

وفيه : تفضيل للقرن الذي هو فيه وقرن الصحابة ، وتفضيل له أيضًا صلوات ربي وسلامه عليه ؛ لأنه بعث من خير قرون قريش ، لو قلنا القرن الجيل أو الطائفة ، فهو ﷺ خيارٌ من خيارٍ من خيار ، اصطفى كنانة من العرب وقريش من كنانة ، وبني هاشم من قريش ، واصطفاه هو ﷺ من بني هاشم .

فالقرون المفضلة وهذا الذي اصطلح على تسميتها المفضلة ، والذي فضلها هو ربنا عز وجل على لسان رسوله ، « **خير الناس قرني** » ، وهي ثلاثة قرون ، وهي ما اصطلح على تسميته بعصر السلف الصالح ، إذا قيل : السلف ، فالمراد

بهم هذه القرون ، وخيرهم أصحاب محمد ﷺ ورضي عنهم ، وفضلهم كالشمس في رابعة النهار ، لا ينكره إلا من أعمى الله تعالى بصيرته ، والأدلة في القرآن على فضلهم أجلى وأشهر وأكثر من أن تذكر .

(« ثم الذين يلونهم ») وهم التابعون ، (« ثم الذين يلونهم ») وهم تابعوا التابعين .

قيل : إن آخر من مات من الصحابة أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي رضي الله عنه مات سنة عشرٍ ومائة ، عُمِّر رضي الله عنه .

فقرن الصحابة إلى مائة وعشرة ، ثم التابعون وآخر من مات منهم سنة ثمانين ومائة ، فقرنهم سبعون سنة ، بعضهم يقول : أبو الطفيل مات مائة وعشرين ، فيعد قرن التابعين ستين سنة ، وآخر من مات من تابعي التابعين سنة عشرين ومائتين ، فيكون قرنهم ثمانين ومائتين وعشرين أربعين ، يكون قرنه أربعين .

لماذا كان القرن الأخير هو أقلها ؟ بسبب تداخل القرون ، يعني بعض التابعين كثير من التابعين مات في قرن الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم .

وإنما كانت الخيرية لهذه القرون لأن أمر الدين كان ظاهرًا ، والبدع موجودة . متى وجدت البدع والمنكرات في العقائد ، متى وجدت ؟ من حين قتل عثمان رضي الله عنه ، خرجت الخوارج ثم المرجئة خرجوا كردة فعل ، خرج القدرية في زمن ابن عمر ، ثم خرجت الجبرية ، وخرجت الروافض ثم النواصب وهكذا ؛ لكن لم يكن لأهل البدع ظهور ، ولم يكن لهم شوكة ، وإنما صار لهم يعني شأن من الظهور للباطل بعد القرون المفضلة ، حين أقصى المأمون علماء السلف وقرب المعتزلة ، وظهر الاعتزال وانتشرت المقالات والآراء الفاسدة

وفشت بين الناس ؛ لكن الله تعالى يحمي دينه ويحفظه ، ويقيض له من العلماء من يحفظونه ويذبون عنه .

(« **ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يُسْتَشهدون** ») قومًا اسم (إنَّ) مؤخر ، لكن في بعض الروايات قومٌ وخرجوا لها تخريجات لغوية لا حاجة لها .

(« **يشهدون ولا يُسْتَشهدون** ») يعني يشهد لكنه لا يستشهدون ، واختلف في قوله : (**لا يستشهد**):

- فقيل : لا يطلب منه أداء الشهادة ، لقلة أمانته وعدم مبالاته بالشهادة لا يستشهد ولا يطلب منه أداؤها .
- وقيل : لا يطلب حتى تحملها منه .

إذًا هؤلاء (« **يشهدون ولا يُسْتَشهدون** ») ، وذُكروا في معرض الذم ، لكن يشكل على هذا حديث زيد بن خالد الثابت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « **خير الشهود الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسأل** » ، هنا مدح ، وقد جاء بها قبل أن يُسألها ، وفي حديث الباب ذُم حيث شهد ولم يطلب منه أن يشهد ، فكيف الجمع ؟

- قالوا : حديث زيد بن خالد هذا الذي مُدح إما أن يكون أدلى بشهادة لا يعلمها غيره ، يعني في أمر ما شهده إلا هو ، والناس أصحاب الحق لا يعلمون عنه حتى يطلبوا منه أن يشهد ، فشهد بها ، فهذا لا شك خير الشهود ، إذ لولا شهادته لضاع الحق .
- وقيل – أيضًا هذا توجيه آخر لحديث زيد – قيل : إن هذا في الشهادة بالحُسبة ، يعني في حق الله عز وجل .

الثاني : (**« ويخونون ولا يؤتمنون »**) ، الخيانة هي الغدر في مقام الائتمان ، يعني يؤتمن الإنسان على شيء فيخون فيه ، والخيانة مثلبة وصاحبها مذموم بكل حال .

وهل يسوغ للإنسان أن يخون من خانه ؟ لا ، قال ﷺ : « **أدي الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك** » . قال عز وجل : ﴿ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ ﴾ فماذا ؟ ﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ [الأنفال : ٧١] ، ولا يجوز أن يقال : خان الله من خانه .

قد يقول قائل : أليس يقال يمكر الماكرين ، ويخادع المخادعين إلى آخره ؟

قلنا : بلى ، لكن ذاك مدح وهذا ذمٌّ ، فالخيانة ذمٌّ بكل حال .

الثالث : (**« وينذرون ولا يوفون »**) ، والنذر هو التزام الإنسان شيئًا لم يلزمه في أصل الشرع ، يعني أوجبه على نفسه ، كأن يقول : عليَّ نذر أصوم غدًا يوم الخميس ، ما وجب الله عليه أن يصوم لكنه أوجب هذا على نفسه .

وتعرفون النذر منه:

١ . نذر الطاعة ، وعقده مكروه ، والوفاء به واجب .

٢ . ونذر المعصية لا يجوز . وهل فيه كفارة ؟ قولان لأهل العلم : هل يكفر ، أو لا يكفر .

٣. ونذر اللجاج والغضب ، وهو الذي يعلق نذره على أمرٍ يقصد المنع منه أو الحث ، يقول : هذا نذر أنك تسير عليّ اليوم ، ما قصد النذر وإنما قصد الحمل على هذا ، ومثل هذا إن لم يفي بالنذر يلزمه الكفارة .

٤ . **والرابع :** النذر المباح ، وهذا يخير بين فعله وبين الكفارة .

لكن هؤلاء في هذه الأزمنة والتي أشار النبي ﷺ إليها ينذرون ولا يوفون ، يعني ما يبالي بالنذر .

قال : (« وينذرون ») ، ما مناسبة الحديث للباب ؟ أين ذكر الحلف فيه ؟ الجواب: النذر ؛ لأن من النذر ما له حكم الحلف ، وهو نذر اللجاج والغضب كما يسمونه ، وقد روي فيه حديث « لا نذر في غضب وكفارته كفارة يمين » ؛ لكنه في معنى اليمين لأنه يقصد به معنى اليمين ، يمكن أن يقول وهو يبيع عليَّ النذر أن هذا بكذا وبكذا .

وفي معناه يمين الطلاق وهو كثير على ألسنة الناس عليَّ الحرام وعليَّ الطلاق وعليَّ كذا وكذا ، هو لا يقصد الطلاق ولا التحريم وإنما يقصد حمل المخاطب على إجابة دعوته ، يجعل بيته وأهله وأولاده من أجل يدعوا شخصًا لوليمة وما أشبه ذلك ، هذا أيضًا في معناه ، وكل إنسان يكثر من هذه الأشياء يدل على تهاونه بحدود الله عز وجل .

المقصود : أن الإنسان لا يُكثر لا من الحلف ولا من النذر ولا من التحريم أو الطلاق الذي يقصد به اليمين ، فكله داخل في هذا المعنى .

الرابع : (« ويظهر فيهم السِّمَن ») ، الغفلة وكثرة الشهوات والمطاعم والله المستعان ، وليس المقصود به ذم من يكون بهذه المثابة ، ولكن هذه سمة وظاهرة تكون في الناس بصفة عامة .

قال رحمه الله : (**وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته »**) .

قال : (**وفيه**) في الصحيحين أيضًا كحديث عمران ، أي ابن مسعود رضي الله عنه قال : (**« خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم »**) .

قد يقول قائل : أين الطريق إلى هذه الخيرية وقد انطوى زمانها ومضى أوانها ، فماذا نقول ؟

الجواب: نتأسى بهم ، الطريقة موجودة والنهج موجود فينظر الإنسان إلى ما كانوا عليه وإلى نهجهم فيقتدي بهم لعل الله سبحانه وتعالى أن يرحمه ويرحمنا وإياكم جميعًا ، ويرزقنا قفوا آثارهم والسير على نهجهم ، ولهذا قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وأرضاه ، وما أحلى كلامه ، قليل الألفاظ كثير المعاني كثير الفقه ، قال : (من كان مستنًّا فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أبر الناس قلوبًا ، وأعمقهم علمًا وأقلهم تكلفًا) ما أحلى هؤلاء الكلمات (أبر الناس قلوب وأعمقهم علم وأقلهم تكلم ، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ونصرة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم) .

هؤلاء السلف رضي الله عنهم وأرضاهم ، فخَلِيق بطلاب العلم أن ينهجوا هذا المنهج ، وأن يسلكوا هذا المسلك ، واقرؤوا عنهم ، ما أحسن قراءة سيرهم .

ابن كثير رحمه الله عندما يترجم عن أعيان السلف يتكلم بكلام الذي يحبهم ويميل إلى ما كانوا عليه يذكر أحوالهم وأوصافهم ، كذا الذهبي رحمهم الله تعالى أجمعين ، وعندما تقرأ سير هؤلاء تعرف القوم وتعرف نفسك ، تعرف نفسك وهمتك في طلب العلم ، وتعرف ما كان عليه هؤلاء ، فيجد الإنسان عند

ذاك نشاطًا وهمة أن يقفوا آثارهم ويسير على سننهم رحمهم الله تعالى رحمة واسعة .

قال : (« ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ») ، لم يذكر هنا إلا قرنين بعد قرنه ﷺ ، (« ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ») يعني تسبق شهادته يمينه ويمينه شهادته ، إما لقلة أمانته بحيث لا تقبل شهادته إلا بيمين ، ولا يمين إلا بالشهادة ، والمعروف الاكتفاء بأحدهما إلا في الأمور الكبيرة ، يعني في مثل اللعان يجمع بين الشهادة واليمين ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ ﴾ [النور : ٦] ، فجمع بين الشهادة واليمين فيقول : أشهد بالله ، هكذا ، وهكذا هؤلاء لضعف أمانتهم أو عدم مبالاتهم أيضًا باليمين أو الشهادة كأنهما يتسابقان تريد شهادة وتريد يمين ، فبسبب تساهله كأنهما يتسابقان أو لقلة الأمانة لا تقبل الشهادة إلا باليمين ، واليمين إلا بالشهادة .

قال رحمه الله : (**وقال إبراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**) .

(**كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد**) إبراهيم النخعي رحمه الله تعالى ، هؤلاء جملة من العلماء من قبيلة واحدة ولعلهم أيضًا من بيت واحد ، منهم إبراهيم النخعي الفقيه المعروف رحمه الله ، ومنهم علقمة صاحب ابن مسعود والذي يشبه بابن مسعود في سمته وهديه ، ومنهم عمه الأسود بن يزيد النخعي المخضرم أدرك عهد النبي ﷺ ولكنه لم يره ، ومنهم عبد الرحمن بن يزيد

النخعي أيضًا يعني جملة من هذه القبيلة أو من هذا البيت كان لهم شأن ومكانة في العلم رحمهم الله تعالى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قال : (**كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار**) ، إذا سمعوا الصغير يقول : أشهد ، أو يقول : عهدٌ بكذا وكذا ، يؤدبونهم ويضربونهم ، نحن الآن قد لا نسمع الشهادة ولا العهد من صغارنا ، ولكن نسمع كثيرًا منهم الحلف ، حتى إنك تسمع الطفل الصغير يقول : أقسم بآيات الله ، وكثير على ألسنة الصغار ، وثم يستمر حتى يكبر وهو يحلف ، تجده كبير ويحلف على أمور عادية جدًّا ، وكثرة الحلف في الأمور التافهة يدل كما ذكر على عدم تعظيم الله عز وجل ، وإذا سمعت أحدًا يحلف على أمر تافه قل له : يا أخي عظم الله عز وجل ، فالله عظيم لا يُحلف به إلا على أمر عظيم ، وكل هذا يعود إلى تعظيم الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، ما عظموه حق تعظيمه ، ولو عرفوه سبحانه وبحمده لعظموه حق تعظيمه ، ولما حلفوا باسمه في مسائل وأمور ما تستحق أن يُحلف عليها والله المستعان .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : الوصية بحفظ الأيمان .

الثانية : الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للبركة .

الثالثة : الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه .

الرابعة : التنبيه على أن الذنب يَعْظُم مع قلة الداعي) .

وهذه فائدة لطيفة : (**التنبيه على أن الذنب يَعْظُم مع قلة الداعي**) ، ما ذكر هنا مثال ، فكلما ضعف الداعي للذنب وفعله الإنسان فإنه يعظم هذا الذنب

حتى يكون أعظم من غيره وإلا فالزنا عياذًا بالله سواء كان كبير أو صغير جرمٌ وذنب كبير لكن حصوله من الأشيمط لا شك أشد والذنب منه أكبر .

قال رحمه الله : (**الخامسة : ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون .**

السادسة : ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة ، وذكر ما يحدث بعده) .

الشيخ رحمه الله قال : (« **يحلفون ولا يستحلفون** ») ، وفي الحديث (« **يشهدون ولا يُسْتَشهدون** ») ، ولأنه مع الشهادة غالبًا يحلف ويشهد هو لم يستشهد ولم يستحلف .

قال رحمه الله : (**السابعة : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون .**

الثامنة : كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد) .

وفقكم الله وبارك فيكم

٥١ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم أما بعد .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين .

قال المؤلف رحمه الله تعالى :

(**باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**

وقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١]) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه**) أي في تعظيم الله عز وجل وتعظيم ذمته وذمة رسوله بحيث لا تعطى من سألها – كما سيأتي في الحديث – .

والإنسان عندما يعظم الله عز وجل لا يُكثر الحلف به – كما مر – ولا يتساهل بذمته وذمة رسوله ، والذمة هي العهد ، بحيث يعطي ذمة الله من شاء من الناس ، بل يُعَظِّم الله عز وجل ، وإذا أراد أن يعطي أحدًا عهدًا فليعطهم عهده وذمته هو .

وهذا الباب كسابقه المقصود منه : تعظيم الله عز وجل ، والذي ينشأ عنه عبادته سبحانه وبحمده ، **فإن من ثمرات التوحيد :**

١ . تعظيم الله عز وجل .

٢ . ومعرفة قدره .

٣ . وعبادته حق عبادته ما استطاع العبد إلى ذلك سبيلاً .

قال : (**باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله**) ، الذمة العهد ، ولله تعالى عهدٌ على عباده ولهم عهدٌ عليه ، وللرسول ﷺ عهد على أمته ، ولهم عهدٌ عليه :

- فما عهد الله على العباد وما عهدهم عليه ؟ حديث معاذ كنت رديف النبي ﷺ على الحمار فقال : « **أتدري يا معاذ ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله** » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « **حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا** » ، هذا العهد ، هذا عهد الله علينا أن نعبده ولا نشرك به شيئًا ، وحقنا عليه أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا . ومر بنا في أكثر من مناسبة كيف أخذ الله العهد على الناس ، واختلف على قولين مشهورين :

  - **القول الأول** : ما روي في بعض الآثار أنه مسح ظهر آدم وأخرج ذريته أمثال الذر ، وأخذ عليهم العهد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحُمل على هذا قوله عز وجل : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، لكن يشكل على هذا أن الله قال : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ﴾ ، ولم يقل آدم .
  - **القول الثاني** – والذي يميل إليه المحققون من أهل العلم – : أن العهد الذي أخذه الله سبحانه وتعالى على الناس هو ما ركز وغرس فيهم من الفطر ، وما أقامه من الأدلة الكونية النفسية والأفقية الدالة على وحدانيته سبحانه وبحمده . فإن الإنسان لو تُرك على فطرته ولم تغير هذه الفطرة ماذا يحصل منه لو كبر ؟ الجواب: يعبد الله عز

وجل يكون على الإسلام ؛ لكن تأتي التربية « **فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » .

- وأما ذمة المصطفى ﷺ وعهده علينا فعهده علينا بالاتباع وترك الابتداع ، اتباع هديه عليه الصلاة والسلام ، والسير على سننه واقتفاء أثره ، وترك مخالفته ومعصيته من الإحداث في الدين ، وابتداع ما لم يسنه ﷺ . وأما حقنا عليه فهو البلاغ ، وقد بلغ البلاغ المبين صلوات ربي وسلامه عليه ، فأدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، ونصح الأمة وللأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، فجزاه الله خير ما جزى نبيًّا عن أمته .

قال تعالى : (﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ** ﴾) ، أوفوا أمرٌ بوفاء العهود عهد الله عز وجل ، والعهد يطلق على العقد ويطلق على اليمين ، وكانوا إذا تعاهدوا وتعاقدوا أضافوا اليمين إلى العهد توثيقًا له ، فيحلفون معه ، فقال الله عز وجل : (﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ** ﴾) ، وقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، ولهذا قال : (﴿ **وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا** ﴾) ، الأيمان العهود التي تكون مع العهد لا تنقضوها ، بعد أن أُكدت وثبتت مع العقود .

(﴿ **وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا** ﴾) أي رقيبًا متكفلاً بوفائكم بهذه العهود ، جعلتموه تعالى كفيلاً متكفلاً بالوفاء منكم بهذه العهود (﴿ **إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾) ، فأمر الله عز وجل بالوفاء بالعهود التي تكون بيننا وبينه ، وبيننا وبين الناس ، بل وبينك وبين أهلك كما قال عز وجل – وقد مر علينا – : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] ، والقعود هي العهود ، والعهود التي

بين العبد وبين ربه بعبادته وطاعته وترك معصيته ، وبينه وبين الرسول ﷺ باتباعه واقتفاء أثره ، وبينه وبين أهل بيته ، وبينه وبين الناس أجمعين .

(**وعن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميرا على جيشٍ أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا فقال : « اغزوا بسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا ولا تُمَثِّلُوا ولا تقتلوا وليدًا ، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال (أو خلال) فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين »**) .

يقول : (**كان**) بريدة بن حصيب الأسلمي رضي الله عنه وأرضاه ، (**كان النبي ﷺ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سرية**) ، والجيش أكثر من السرية ، يقولون السرية إذا كان العدد أربعمائة فأقل ، وما زاد فهو جيش .

(**إذا أَمَّر أميرًا**) إذا أمَّر عليهم أميرًا ، وكان الأمير في ذاك الزمان هو الذي يقودهم ويسوسهم ويفتيهم ويؤمهم في الصلاة ، يتولى جميع المهمات والأمور.

(**أوصاه بتقوى الله**): أوصاه بخاصة نفسه بتقوى الله عز وجل ، والتقوى هذه الكلمة الصغيرة في المبنى العظيمة في المعنى ينبغي لكل مسلم أن يستحضر المراد بها ، وتأملوا كم وردت في القرآن الكريم ، الأمر بها ، بيان صفات أهلها ، بيان جزاء أهلها في آيات كثيرة جدًّا .

التقوى هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية بامتثال أمره واجتناب نهيه .

ويستحسن أهل العلم تعريفًا للتقوى ورد عن طلق بن حبيب رحمه الله تعالى وهو : أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

يوصيه بتقوى الله عز وجل ، لأن هذه وصية الله عز وجل ووصية رسوله ﷺ .

أمَّا أنها وصية الله فلقوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ [النساء : ١٣١] ، ﴿ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ووصيناكم أيضًا بتقوى الله عز وجل . أمَّا وأنها وصية رسول الله ﷺ فهي لهذا الحديث ، وكذلك حديث ابن نجيح العرباض بن سارية وهو حديثٌ ينبغي للإنسان أن يجعله منهجًا له في هذه الحياة ، فيه السلامة من المزالق ومن البدع ومن الفتن ومن الخلافات التي تعج وتضج وتكثر ولا قوة إلا بالله ، لما وعظهم النبي ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون قلنا : يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا .

فوصاهم بثلاث وصايا :

الأولى : أوصيكم بتقوى الله ، وصدَّر الوصايا بها لأنها جماع الخير ، من اتقى الله التزم بكل ما يكون بعده ، « **أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة ، فإنه من يعيش منكن فسيرى اختلافًا كثيرًا** » . وقد رأى من عاش منهم رضي الله عنهم الاختلاف الكثير الذي حصل في الأمة ، ثم قال يبين سبيل النجاة والسلامة : « **فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة** » ، وفي رواية « **وكل ضلالة في**

النار » ، فأوصاهم بتقوى الله وأوصاهم بالسمع والطاعة ، وأوصاهم بلزوم السنة ، فلزوم السنة سلامة من البدع ، والسمع والطاعة سلامة من الفتن ، وتقوى الله امتثال للأوامر واجتناب للنواهي . ولما طلب أحد طلاب العلم من شيخ الإسلام أن يوصيه قال له كلمة لطيفة : (أوصيك بوصية الله تعالى) ، يستحسن العلماء هذه الكلمة منه رحمه الله ، كأنه يقول : أنا لا أوصيك ، وإنما الذي يوصيك ربنا عز وجل ، أوصيك بوصية الله عز وجل ، وهي التقوى .

وقد وصى النبي ﷺ معاذ لما بعثه لليمين قال : « **اتق حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحوها ، وخالق الناس بخلق حسن** » ، أوصاه أيضًا بمن معه خيرًا ، أوصاه بهم خيرًا يلطف بهم ويلاحظهم ، ولا يكلفهم من الأمور مشقًّا .

(**« اغزوا بسم الله »**) أي مستعينين بالله عز وجل ، لا تعجبوا بأنفسكم ، لا تغتروا بقوتكم ، لا تنخدعوا بكثرتكم ، وإنما مع فعل كل الأسباب استعينوا بالله عز وجل .

(**« في سبيل الله »**) هذا هو الجهاد ، ولما سئل النبي عن الرجل يقاتل حمية وشجاعة ليرى مكانه أيُّ ذلك في سبيل الله قال: « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** » ، وأضيف السبيل إلى الله لأمرين هما :

١. لأنه السبيل الموصل إليه سبحانه وبحمده .

٢. وأيضًا ولأنه هو الذي شرع .

وربما يضاف السبيل إلى المؤمنين ﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النساء : ١١٥] لأنهم الذين سلكوه .

(« **قاتلوا من كفر** ») (من) هنا اسم موصول بمعنى الذي ، وقد مر بنا أن الاسم الموصول مر بنا في ((**التفسير**)) قاعدتان فيه :

١ . العموم .

٢ . والتعليل .

وهنا يفيد العموم والتعليل ، (« **قاتلوا من كفر بالله** ») كل من كفر ، وإذا أردت أن تعرف أن الصيغة للعموم فثمة ميزان اعرضها عليه ، وهو:

١ . كلمة (كل) .

٢ . وأيضًا في ميزان دقيق جدًّا الاستثناء .

لكن (كل) ضعها خلاص ، قاتلوا كل من كفر ، خلاص الكلام المستقيم .

وفيها معنى التعليل فإنهم إنما قوتلوا لا لعصبية وحمية وعنصرية وإنما بسبب الكفر ، فلو أسلم حرم قتاله ، (عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها) كما قال النبي ﷺ ، وهذا العموم (« **قاتلوا من كفر بالله** ») ورد تخصيصه :

١ . استثني منه أهل العهد من لهم عهد .

٢ . واستثني منهم المرأة ، وقد رأى النبي ﷺ امرأة مقتولة في بعض مغازيها فأنكر ذلك.

٣. واستثني الصبيان.

٤ . الشيخ الكبير.

٥. الراهب في صومعته .

٦ . إلى آخر من ورد استثناؤه .

(« **اغزوا ولا تَغُلُّوا** ») والغلول هو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها .

(« ولا تَغْدِرُوا ») والغدر هو نقض العهد .

والعهود مع الكفار ثلاثة أنواع :

١. فإما أن يستقيموا .

٢. وإما أن ينقضوا .

٣. وإما أن يخاف منهم النقض .

فإن استقاموا الجواب من القرآن ﴿ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

وإن نقضوا الجواب من القرآن ﴿ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ﴾ [التوبة : ١٢].

وإن خيف منهم النقض انظروا إلى عظمة هذا الدين وإلى هذه الأنظمة ، أنظمة من الله عز وجل ليست من وضع البشر لها قدرها ومكانتها عند أهلها الملتزمين بها ، الجواب من القرآن إذا خيف ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] ، يعني انبذ إليهم عهدهم مستويًا علمك وعلمهم ، قل لا عهد بيننا وبينكم ، ولا تبغتهم بمجرد أنك تخاف من نقضهم إذ قد يخشى نقضهم ولا يحصل ذلك .

قال : (« ولا تُمَثِّلُوا ») ، والتمثيل التشبيه ، واختلف فيما إذا مَثَّلوا بقتلى المسلمين هل يمثل بقتلاهم أم لا ؟ وتعلمون أنه في غزوة أحد مثل المشركون بالمسلمين ، فمثل بأنس بن النضر عم أنس بن مالك حتى لم تعرفه أخته الربيع إلا ببنانه ، بالأصابع فقط ، مُثِّل بجسده كله ، ومثل بحمزة رضي الله عنه وأرضاه ، فهل إذا مثلوا يمثل بهم المسلمون ؟ خلاف بين أهل العلم :

- فبعض أهل العلم يقول : لا ، لأن النبي ﷺ يقول : (« **ولا تُمَثِّلُوا** ») .
- وبعضهم يقول : بلى ، يمثل بهم لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] .
- وبعض أهل العلم يقول : ينظر المصلحة في هذا ، والله أعلم .

(« **ولا تقتلوا وليدًا** ») لا يقتل الصغير ولا تقتل المرأة ، في كتاب كتبه أبو بكر رضي الله عنه كان يوصي من بعثه من الأمراء وكان يقول : (لا تقتلوا امرأة ، ولا صبيًّا ، ولا شيخًا كبيرًا ، ولا تقطعوا شجرًا مثمرًا ، ولا تخربوا عامرًا ، ولا تعقروا شاةً أو بعيرًا إلا لمأكلة ، ولا تغرِّقوا نخلاً ولا تحرقنه ، ولا تغلوا ولا تجبنوا) . هذه المثل وهذه القيم لا توجد إلا في هذا الدين العظيم ، ولها خاصية أن من يمتثلها ويطبقها إنما يمتثلها دينًا وقربة إلى الله عز وجل ، لا أنه يطبقها مراعاةً لقانون أو لحقوق إنسان أو ما أشبه ذلك ، بحيث يمكن يلتف ويحتال ، لا ، بل هو دين يدين الله ويقارب الله سبحانه وتعالى به .

(« **وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال** » **أو** « **خلال فأيتهن ما أجابوك** ») (ما) تأتي بعد (أي) الشرطية وتكون زائدة تفيد العموم كما قال عز وجل : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا ﴾ [الإسراء : ١١٠] .

(« **فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم** ») وهذه خصال مرتبة .

(« **ثم ادعهم إلى الإسلام** ») ، هذه رواية مسلم (« **ثم** ») ، ولكن أشكلت هذه حيث لم يتقدمها معطوف وإنما هي تفصيل وإيضاح الخلال ، والذي في أبي داود وفي كتاب ((**الأموال**)) لأبي عبيد دون ذكرها (ادعهم إلى الإسلام) دون (ثم)

، فيدعوهم أول ما يدعوهم إلى الإسلام ، وهذا لأن الغاية من الجهاد ما فيه خيرهم وسعادتهم ومصلحتهم في دنياهم وآخرتهم ، دعوتهم إلى الله عز وجل إلى أن يخلصهم من العبودية للشيطان ومن الكفر والزيغ والضلال ، ولكن مع ذلك ليس المقصود حملهم وقصرهم على الإسلام . ولهذا اختلف العلماء هل شرع الجهاد في الإسلام لحمل الناس على الإسلام أو لحماية الإسلام على قولين اختار شيخ الإسلام القول الثاني ، وأنه ليس المقصود أن نحمل الناس ونكرههم على الإسلام ، بدليل أنه طلب الجزية بعد ذلك ، ولو كان المقصود إلزامهم وحملهم على الإسلام ما طلبت منهم الجزية ولما خُيِّروا إلا بين الإسلام وبين القتال ، فهذا يدل على أن مقصود القتال في الإسلام هو حماية هذا الدين ، وإتاحة الفرصة له حتى يروه ويسمعوه ويدعون إليه دون أن يمنعهم من ذلك أحد .

(«ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ») : إذا أسلموا ادعهم إلى أن يهاجروا إلى الله ورسوله ، والذي يظهر أن هؤلاء كانوا بادية يسكنون في البداية ، يعني أمرهم النبي ﷺ أن يتحولوا إلى دار المهاجرين ، وكان التحول إلى دار المهاجرين في أول الأمر واجبًا ، فبعد أن يسلموا يأمرهم أن يتحولوا إلى دار المهاجرين .

(« وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين .

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى ، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين فإن هم أبوا فاسألهم الجزية ») .

إذًا يأمرهم بالهجرة ويخبرهم أنهم إن هاجروا فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وما للمهاجرين ؟ الجواب: لهم القدر والمكانة ، ولهم الفضيلة العظيمة ، فالمهاجرون أفضل الأمة ، وأفضل من الأنصار ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . فإن هم أبوا ذلك (« **فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين** ») كالأعراب الساكنة في البادية ، لن يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين .

والغنيمة هي : المال الذي يؤخذ من المشركين في الحرب .

والفيء هو : ما يكون في بيت مال المسلمين من جزية أو خراج أو شيء تركوه فزعًا دون قتال أو ما أشبه ذلك .

وقد ذكر لهم في هذا ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : أن يهاجروا .

المرتبة الثانية : أن يجاهدوا وإن لم يهاجروا .

المرتبة الثالثة : أن يبقوا في ديارهم دون أن يجاهدوا ودون أن يهاجروا لكنهم مسلمون .

فإذا هم فعلوا ذلك وهاجروا فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين ، وإن لم يفعلوا (« **فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين** ») ليس لهم في الغنيمة والفيء إلا أن يجاهدوا ، فإذا جاهدوا فلهم من الغنيمة قطعًا ، وهل لهم من الفيء إذا جاهدوا ؟ قيل : نعم لهم من الغنيمة ومن الفيء ، وهذا مشهور مذهب الإمام أحمد رحمه الله.

وإن لم يجاهدوا فلا حق لهم في الغنيمة لا شك ويعطون من الصدقة ، يقول النبي ﷺ يعني فقراءهم لما بعث معاذ إلى اليمن قال له : « **أعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم** » .

واختلف في الفيء إذا لم يهاجروا ولم يجاهدوا ولكنهم أسلموا هل يعطون منه ؟:

- فقيل : يعطون منه كما هو مشهور مذهب الإمام أحمد .
- وقيل : لا يعطون .

(« **فإن هم أبوا فاسألهم الجزية** ») يعني انتقل إلى الأمر الثاني ، فهي ثلاث خصال :

- الخصلة الأولى: الإسلام .
- **الخصلة الثانية :** الجزية .

والجزية هي : المال الذي يؤخذ من المشرك مقابل إقامته في بلاد المسلمين وحماية المسلمين له ، وهي تختلف :

- والمشهور في مذهب أحمد وأبي حنيفة أن الغني عليه ثمان وعشرون درهمًا ، والمتوسط أربع وعشرون ، والفقير اثنا عشر .

ويشترطون أيضًا في وجوب الجزية أنها تكون من رجل حر مكلف ، فالصغير لا جزية عليه والمرأة وكذا العبد .

واختلف العلماء في الجزية هل تؤخذ من كل مشرك ؟

والمشهور في مذهب الإمام أحمد والشافعي أنها تؤخذ من اليهودي والنصارى والمجوسي فقط ، ولا شك في أخذها من هؤلاء لورود النص فيهم ، قال تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . يعطوها ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ بحيث يأتي بها لا يرسلها ، أو ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ عن قوة منكم . وأما المجوس فقد استشار عمر الصحابة في المجوس فشهد عنده عبد الرحمن بن عوف أن النبي ﷺ أخذها من مجوس هجر ، ورد عنه ﷺ أنه قال : « **سنوا فيهم سنة أهل الكتاب** » .

واختلف فيمن عداهم من المشركين:

- فقيل : تؤخذ من كل مشرك من كل كافر كتابي أو غيره ، وهذا مذهب مالك دليله رحمه الله هذا الحديث ، لأن النبي ﷺ قال : (**« وإذا حاصرت أهل حصن من المشركين »**) ، ومما يستدل به مالك رحمه الله أخذها من المجوس ، فإن المجوس مشركون ، المجوس عبدة النار يعبدون النار . لكن الفقهاء يقولون إنما أخذت منهم لأن لهم شبهة كتاب ، لكن العلماء ردوا هذا وقالوا : أيُّ شبهة كتاب والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] ، فقط طائفتين لا ثالث لهما ، لهذا تجد الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، كلها في اليهود والنصارى إلا ما كان أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق .
- ومذهب أبي حنيفة تؤخذ من كل كافر إلا من مشركي العرب ، حيث لم يثبت أن النبي ﷺ أخذها من مشركي العرب ، والذي يظهر أن سورة التوبة

نزلت في السنة التاسعة وبعد أن دانت الجزيرة كلها للمسلمين وتبعت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ودخل الناس في دين الله أفواجًا .

(« **فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم** ») .

إذا أجابوا اقبل منهم وكف عنهم ولا يجوز قتالهم ، وقد وافقوا على دفع الجزية ، ليس المقصود في الإسلام القتل ، وإنما المقصود فيه إحياءهم بهذا الدين العظيم ، هذا هو المقصود ، ولهذا لو أسلموا هل تؤخذ منهم الجزية ؟ أبدًا ، فليس المال مقصودًا ، وليس القتل مقصودًا وإنما المقصود الدعوة إلى الله عز وجل ، ودعوتهم إلى هذا الدين الحنيف .

(« **فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم** ») .

هذه الخصلة الثالثة : إذا أبوا ، قالوا : لا إسلام ولا مال ولا جزية ، فحينها يستعين بالله عز وجل ويقاتلهم .

(« **وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه** ») .

قال : وإذا حاصرت أهل حصن فسألوك أن تنزلهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تفعل ، يعني أرادوا منك عهد الله وعهد رسوله ﷺ فلا تفعل ، ولكن اجعل لهم عهدك وعهد أصحابك ، لم ؟ (« **فإنكم إن تُخفروا** ») أو (« **أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه** ») .

الفعل (أَخْفر) و(خَفَر) الفرق بينهما قالوا : أَخْفر بمعنى غدر ، وخَفَر بمعنى أجار ، ومنه خفير المجير ، حتى تسير الظعينة يقول النبي ﷺ : « **بغير خفير** » ،

وكانوا إذا سافروا وعبروا المناطق والتي فيها قبائل لا بد أن يأخذوا منهم خفير ، وكان هذا موجود قبل وقت الملك عبد العزيز يرحمه الله وفي الفترات التي تعم فيها الفوضى ما يستطيع الإنسان أن يسافر ، ولا يسافر وحده حتى القافلة لا يسافروا حتى يأخذوا خفيرا يسمونها قديمًا رُفَق ، وبعضهم يسميهم مسَيِّر ، يعطونهم مبلغ من المال فيجتاز بهم حدود قبيلته ، فإذا دخلوا إلى حدود قبيلة ثانية أخذوا منهم خفيرًا ، وهكذا حتى يصلوا إلى أشرف البقاع إلى مكة حتى ، أو إلى البقعة التي يريدونها . وبعد الأمن ولله الحمد ذهبت كل هذه الأمور وسلم الناس منها ولله الحمد .

إذًا الفرق بين أخفر وخفر ، أخفر بمعنى غدر ، وخفر بمعنى أجار .

مثل الفرق بين قَسَطَ وأقْسَطَ ، أَقْسط بمعنى عدل وقَسَط بمعنى جار ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الجن : ١٥] ، القاسطون الجائرون الظالمون ، وهذه الهمزة يسمونها همزة السلب .

(« **فإنكم أن تخفروا** ») أو إن تخفروا ذمتكم أهون من أن تخفروا ذمة الله عز وجل ، هنا مفسدتان ، والقاعدة إذا اجتمعت مفسدتان دفع أشدهما بارتكاب أدناهما :

- المفسدة الكبرى هي خفر ذمة الله عز وجل ، أن يغدروا ويضيفوا هذا إلى ذمة الله عز وجل ورسوله .
- **والثانية :** خفر ذمتهم إن حصل غدر فهو يرجع إلى ذمتهم ، وهذه مفسدة ، لكن ارتكابها أهون من ارتكاب المفسدة التي أكبر منها .

((**« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم ؛ ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا »**)) .

((**« وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك »**)) وطلبوا منك ((**« أن تنزلهم على حكم الله »**)) قالوا أنزلنا على حكم الله قال : ((**« فلا تنزلهم »**)) ، على حكم الله ((**« ولكن أنزلهم على حكمك »**)) لم يقل حكمك وحكم أصحابك ، اللهم صل عليه وسلم ، الذمة تكون له ولأصحابه لكن الحكم لا يكون إلا للأمير ، لا يكون للرعية والأتباع والجند الذين معه ، الحكم له فقط ، ((**« أنزلهم على حكمك »**)) لماذا ؟ ((**« فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا »**)) قد تنزلهم على حكم الله ثم تخطئ فينسب الخطأ إلى حكم الله عز وجل .

واختلف في هذا هل هذا في وقت النبي ﷺ أم هو مستمر ؟

- قال بعض أهل العلم : هذا في وقت النبي ﷺ لا ننزلهم على حكم الله لأنه قد يتغير حكم الله فالوحي ما زال ينزل ربما يقع النسخ ، وأما بعد ذلك فإنا ننزلهم على حكم الله عز وجل .
- والقول الثاني : لا ننزلهم على حكم الله سواء كان في عهد النبي ﷺ أو بعده ، قالوا ولأن النبي ﷺ قال : ((**« فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا »**)) ، وهذا متوقع في عهد النبي ﷺ وبعد عهد النبي ﷺ وبعد انقطاع الوحي أن الإنسان قد ينزلهم على حكم الله ثم يخطئ حكم الله عز وجل .

إذًا لو طلب أن ينزل على حكم الله فهل يفعل ذلك ؟

- **على القول الأول** : نعم الوحي انقطع وحكم الله لن يتغير بعد ذلك ولن يحصل النسخ .

- **على القول الثاني :** لا ينزلهم للتعليل المذكور في الحديث .

ودل قوله : (**« فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله »**) ، على مسألة أصولية وهي هل كل مجتهد مصيب أم لا ؟ واختلف فيها على قولين :

- **القول الأول :** كل مجتهد مصيب ، والحق ما أدى إليه اجتهاده .
- **والقول الثاني :** ليس كل مجتهد مصيب ، بل فيهم مصيب وفيهم المخطئ ، وهذا القول يميل إليه أهل التحقيق كقوله ﷺ في حديث عمر بن العاص : « **إذا حكم الحاكم ثم اجتهد فأصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجرٌ** » .

وهل يسوغ للإنسان أن يقول : أخبرني عن حكم الله في هذه المسألة ؟ أفتني بحكم الله عز وجل ؟

- قالوا : إذا كان الأمر فيه نصٌّ فلا بأس ، كأن يقول شخصٌ : أخبرني عن حكم الله في الميتة ، هذا لا إشكال ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة : ٣] .
- أما الأمور التي ليس فيها نص فلا ينبغي أن يقال هذا .

وهذه مسألة ترد على الألسنة أحيانًا أفتني بحكم الله ، أفتني بكذا ، أفتني بكذا ، الأمور المنصوص عليها الأمر فيها واضح ، وأما غير المنصوص عليها فلا ينبغي إيراد مثل هذا الكلام .

النبي ﷺ قال : (**« قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغْدِرُوا »**) ، وقد ثبت في الصحيح في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم

غارون يعني غافلون ، وأيضًا لما أراد غزو أهل مكة عمى الأخبار عنهم فكيف نجمع بين هذا وهذا الحديث ؟

قال العلماء رحمهم الله في مسألة بني المصطلق كانت بلغتهم الدعوة ، والقوم إذا بلغتهم الدعوة فلا يتعين إبلاغهم بذلك ، بل إبلاغهم بذلك سنة وليس بواجب لكن إذا لم تبلغهم الدعوة فلا يجوز مباغتتهم بالقتال حتى يدعوا كما أخبر النبي ﷺ (« **فادعهم إلى ثلاث خصال » أو « خلال »**) ، بني المصطلق كانت بلغتهم الدعوة ، ولهذا باغتهم النبي ﷺ والنبي ﷺ قال : « **الحرب خدعة** » ، وهذا من الخدعة الجائزة ، فالقوم بلغتهم الدعوة ولكنهم ما استجابوا إليها ، وأما إذا لم تبلغهم فلا يجوز أن يُبْدَؤوا بالقتال ، والله أعلم .

قال المؤلف رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين .

الثانية : قوله : « اغزوا بسم الله في سبيل الله » .

الثالثة : قوله : « قاتلوا من كفر بالله » .

الرابعة : قوله : « استعن بالله وقاتلهم » .

الخامسة : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء .

السابعة : في كون الصحابي يحكم بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا) .

لأنه سيحكم ، وقد يوافق وقد لا يوافق ، إذا أنزله على حكمه سيجتهد في إصابة حكم الله عز وجل ، وقد يصيبه وقد لا يصيبه لكن لو حصل أمرٌ من الأمور لا ينسب الخطأ إلى حكم الله عز وجل وإنما ينسب الخطأ إلى حكمه هو ، والله أعلم .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

٥٢ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللحاضرين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب ما جاء في الإقسام على الله**

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحبطت عملك » . رواه مسلم) .

(**باب ما جاء في الإقسام على الله**) الإقسام على الله أن يقسم على الله أن يفعل أو لا يفعل ، كما في المثال الذي ورد في الحديث عندنا (« **قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان** ») والله لا يغفر الله لفلان ، والله لا يُدخل الله فلان الجنة .

وقد ترد على بعض الألسنة جهلاً بعظمة الرب عز وجل ، وإعجابًا وكبرًا واحتقارًا للناس ، يرى إنسان شخصًا يعظ إنسانًا يقول : يا أخي صلي ، قال : تريد هذا يصلي ؟ هذا والله ما يصلي أبد ، يقولها هكذا ، وقد يكون الدافع له الغيرة كما سيأتي ، أو يقول : والله يا فلان إنك ما تنجح ، أأنت تنجح ؟ وهذا يجري على الألسنة .

الإِقْسَام على الله عز وجل أقسام :

القسم الأول : أن يُقسم على شيء أخبر الله عنه ، نفيًا أو إثباتًا ، كأن يقول : والله لا يغفر الله لمشرك أبدًا ، وهذا ما في إشكال ، ما زاد أن أقسم على خبر معبرًا عن إيمانه ويقينه وتصديقه بخبر الله عز وجل لا أقل ولا أكثر ، والله

لينصرن الله عباده المؤمنين ، ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] لا إشكال في هذا .

الثاني : أن يُقسم على الله ثقة بالله ، وحسن ظن به سبحانه وبحمده ، فهذا أيضًا لا بأس به ، كقول أنس بن النضر رضي الله عنه وقد كسرت أخته الرُّبَيِّع سن جارية فأمر النبي ﷺ بالقصاص ، فقال : يا رسول الله تكسر سن الرُّبَيع ؟ – أخته – والله لا تكسر سن الرُّبَيع ، فقال عليه السلام : « **يا أنس كتاب الله القصاص** » ، ﴿ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ ﴾ [المائدة : ٤٥] ، فجاء أهل الجارية وتنازلوا فقال عليه السلام : « **إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره** » ، وقال ﷺ في الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) : « **رب أشعثَ مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبره** » ، أشعث ثائر الرأس ، مدفوع بالأبواب ليس له حظوة ولا قرب ، لو أقسم على الله لأبره الله عز وجل ولحقق ما أقسم عليه .

الثالث : أن يُقسم على الله عز وجل متعاليًا متكبرًا متجرئًا معجبًا بنفسه محتقرًا لعباد الله عز وجل كحال هذا الرجل . وهذا القِسْم هو القِسْم المحرم ، وإنما حُرِّم لما فيه من التأييس من رحمة الله عز وجل ، ولما فيه من احتقار عباد الله عز وجل ، والقلوب بيد مقلبها سبحانه وبحمده وليست بأيدي أصحابها ، يكون الإنسان أحيانًا مستقيمًا ورأى شخصًا غير مستقيم فيقول : والله الإنسان هذا ما يوفق ، قد تقع أحيانًا لاسيما عند الغيرة والغضب ، ثم تنقلب الأحوال فيستقيم هذا ، وتزل قدم هذا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كما قال أبو هريرة في تتمة الحديث : (**تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته**) ، وكان السلف رحمهم الله تعالى يحذرون من التعالي حتى على العصاة ، وأُثر

عن بعضهم التحذير من هذا الأمر ، أثر عن بعضهم: (انكسار العاصي خيرٌ من صولة المطيع) ، يعني انكسار العاصي بين يد الله وتذلله وخوفه ، خوفه رجاؤه أن يتوب الله عليه ، بعض الناس وقع في المعصية لكن قلبه يعتصر ويتمنى أن لو فتح الله عليه ورده ، وإن كان ربما لا يفعل الكثير من الأسباب لذلك . وبعض من هو في سبيل الاستقامة قد يكون عنده صولة وتعالي ثم يذهل الإنسان أن القلوب بيد الله عز وجل ، وأن الواجب على الإنسان أن يخشى على نفسه ما بقي له نفس . ومر بنا في قول ربنا عز وجل : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] . ما الآية التي بعدها ؟ ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران : ٨] هذا من قول الراسخين في العلم لما رأوا الزائغين وكيف أنهم يبحثون عن المتشابه ويتبعونه ويتركون المحكم من نصوص الكتاب والسنة ، خافوا على أنفسهم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ . المنبغي للمسلم أن يخاف على نفسه ويسأل ربه دائمًا الثبات والاستقامة على دين الله عز وجل ، وكان من أكثر أدعية المعصوم ﷺ « **يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك** » ، « **يا مصرف القلوب صرف قلبي** » ، « **يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك** » . فالقلب يتقلب ، وأحوال الإنسان تتغير ، فما لم يثبته الله عز وجل فهو على خطر ، وما يزال الأبرار والأخيار يخافون على أنفسهم حتى استقر بهم المقام في جنات النعيم نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم ، كانوا في الدنيا ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨ – ١٠] مع أنهم الأبرار

، الأبرار يشربون من كأس كلها أوصافهم ومع ذلك يخافون ﴿ يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ واستمروا بهذا الخوف وهم في دنياهم إلى أن دخلوا الجنة ، وقالوا وهم يتساءلون : ﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٦ - ٢٨] . فالمنة منة الله في ثباتهم واستقامتهم على الصراط المستقيم حتى أفضى بهم الأمر إلى جنات النعيم نسأل الله الكريم من فضله .

فإياكم والعجب فهو من الأدواء التي قد يبتلى بها الأخيار ، العُجب بالنفس إذا رأى الإنسان حاله ولله الحمد على سبيل الاستقامة ورأى أناسًا مقصرين قد تعجبه نفسه ، وقد يُعجب بعمله ، والعُجب داء ودواؤه الذي يستعين به الإنسان:

- الشكر ، شكر الله على نعمه قال تعالى : ﴿ بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٦] ، فإذا شكر الإنسان الله على نعمه زال عنه العجب ، ووجه ذلك إذا الإنسان شكر الله على نعمه يذهب العجب ، يرى منَّة الله عليه ، ما يرى منَّة لنفسه أدنى مِنَّة ، ما عملته من خير وما حصل لي من استقامة إنما هو مِنَّة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : ١٧] ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .
- **أيضًا أمر ثاني يذهبه العجب :** الإيمان بالقضاء والقدر ، الإيمان بالقدر ، ولهذا لما ذكر ربنا سبحانه وتعالى القدر في قوله : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ

فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد : ٢٢] ، ماذا قال بعدها ؟ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾ لا تحزن على الماضي ﴿ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] لا تفرحوا فرح عجب وبطر وأشر . ووجه كون الإيمان بالقدر من أسباب طرد العجب أن هذه الأعمال التي عملتها قدرها الله .

والله لولا الله ما اهتدينا ** ولا تصدقنا ولا صلينا

كان الصحابة يرجزون بهذه الأبيات .

فأنزلن سكينة علينا ** وثبت الأقدام إلى آخره

والله لولا الله ما اهتديتم ، ولا أتيتم لطلب العلم ، ولا عملت أي شيء ، ولكنه قدر الله وفضله ولطفه ومنته ونعمته .

كل هذه الأشياء تطرد العجب عن النفس ، يقول الشيخ حافظ الحكمي رحمه الله :

والعجب فاحذر إن العجب مجرفة ** أعمال صاحبها في سيله العرم

العجب يجرف الأعمال مثل السيل الذي يجرف ما يمر به ، إذاً هذا النوع من الإقسام على الله هو محظور ، والدافع له ما سمعتم .

(**عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان ، فقال الله عز وجل : من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحبطت عملك » . رواه مسلم**) .

(**« واللهِ »**) إعرابها الواو حرف قسم وجر ، ولفظ الجلالة ، ما نقول : الله ، لفظ الجلالة مقسم به مجرور .

وحروف القسم هي:

١. الواو .

٢. والباء .

٣. والتاء .

قد يقول الإنسان : والله ، وبالله وتالله .

يتساهل الناس في الحلف وسمعت من بعض الناس والله وبالله وتالله ، يا أخي واحدة تكفي ، وقد لا نكون محتاجين حتى لواحدة .

(**« قال رجل : واللهِ لا يغفر الله لفلان »**) وهذا جواب القسم .

والقسم له ثلاثة أركان :

١. أداة القسم .

٢. والمقسم به .

٣. والمقسم عليه ، ويسمى جواب القسم .

فأداة القسم هنا هي الواو .

المقسم به : لفظ الجلالة .

جواب القسم : (**« لا يغفر الله لفلان »**) .

ما معنى المغفرة الستر مع التجاوز ، وليس الستر فقط ، يقول تعالى لعبده وهو يكلمه في القيامة وقد غفر له : « **قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك الآن** » ، سترها وتجاوز عنها سبحانه وبحمده .

قال الله عز وجل : (**« من ذا الذي يتألى »**) معنى يتألى: يحلف ، والأَلِيَّة هي اليمين ، الأليَّة بالتشديد ، وجمعها ألايا .

قليل الألايا حافظ ليمينه ** وإذا بدرت منه الأَلِيَّة برت

قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ ﴾ [النور : ٢٢] ، يعني لا يحلف ، وقال : ﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ﴾ [البقرة : ٢٢٦] ، أي يحلف الرجل على ترك جماع امرأته .

وفرق بين الأَلِيَّة والأَلْيَة ، فالأَلْية هي العجيزة ، وهي من الحيوان مثلاً يعني ذيله ، أو نقول : ذِنِبْة الخروف أو كذا أو كذا ، قال ﷺ : « **لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس عند ذي الخلصة** » ، الحديث في الصحيح ، (أَلَيَات) جمع أَلْيَة بالتخفيف وليس بالتشديد . و (ذي الخلصة) هو صنم دوس في الجاهلية ، يعود عياذًا بالله في آخر الزمان وتطوف به النساء كما كن يطفن به في غابر الزمن .

قال تعالى : (**« من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له ، وأحبطت عملك »**) ، ولا قوة إلا بالله . ما العمل الذي أحبطه هذا العجب وهذه اليمين الصادرة عن عجب واحتقار ؟ هل هو كل عمل أو العمل الذي فخر به عليه ؟ يعني واحد مثلاً يصلي ، ومر على واحد وهو ينصح واحد قال : يا أخي أنت ما تصلي ولا تأتي المسجد قال : اتركه هذا ما يصلي أبد ، قلت له مرار ومرار ، هذا هو التألي . قال : (**« قد غفرت له ، وأحبطت عملك »**) ، هل حبطت صلاته فقط ؟ صلاة هذا الذي قال : والله ما يصلي ، أو حبطت جميع أعماله ؟ احتمال ، احتمال يحبط عمله الذي فخر به على أخيه ، أو أن تحبط جميع أعماله .

وسبب ذلك التعالي والفخر والكبر ، وعدم تعظيم الله عز وجل ، لأنه لا يحلف على الله من يعرف الله ، ومن يعرف عظمة الله عز وجل ، لا يمكن ، وكأنه يُحَجِّر على الله عز وجل ، هذا ورد في حديث أبي هريرة في رواية أبي داود « **كنت بي عالمًا أم على ما في يدي قادرًا** » ؟ يعني كنت عالمًا بي أني لا أغفر له ! أو على ما في يدي قادرًا بحيث تمنع ما يقدره الله عز وجل ويقضيه لعباده .

وهذه مسألة هل السيئات تبطل الحسنات ؟

أولاً : من المتفق عليه أن الحسنات يذهبن السيئات ، وهذا ما شاء الله نص في كلام الله عز وجل ، الدليل ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] . سبب نزولها أن رجلاً جاء للنبي ﷺ وذكر أنه أصاب من امرأة قبلة قال : « **هل صليت معنا** » ؟ قال : نعم ، ونزلت الآية ، قال : لي خاصة أم للناس عامة ؟ قال : « **بل لأمتي عامة** » ، فالحسنات تذهب السيئات .

لكن هل السيئات تذهب الحسنات ؟ لا يقال هذا الكلام على إطلاقه ، لأن هذا هو مذهب الخوارج وكذا المعتزلة . الخوارج القائلون بكفر مرتكب الكبيرة ، فإذا فعل الرجل كبيرة عند الخوارج أتت كبيرته على كل أعماله الصالحة وأبطلتها وأصبح كافرًا . وعند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين ، يعني خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر لكنهم يتفقون في النهاية على أنه مخلد في النار الخوارج والمعتزلة كلهم . فإذا قلنا بهذا القول على إطلاقه وقعنا في هذا الأمر . ولكن يقال فيه تفصيل : فقد تبطل السيئة الحسنة التي قارنتها فقط ، كما قال عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾ [البقرة :

٢٦٤] . قال : ﴿ لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ ﴾ ولم يقل أعمالكم ، فدل على أن المن بالصدقة والأذى فيها يبطل الصدقة فقط ، وكذا الرياء إذا راءى الإنسان بصدقة أو صلاة أو ما أشبه ذلك فلا يأتي الرياء على كل صلواته وصدقاته ، لكن يأتي على العمل الذي قارنه . ولهذا كان من الفروق بين الشرك الأكبر والأصغر : أن الشرك الأكبر يحبط جميع الأعمال ، بينما الأصغر يحبط العمل الذي قارنه فقط.

فإذًا نقول في السيئات : هل تبطل الحسنات ؟

أولاً : أما الشرك فلا إشكال ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر : ٦٥]، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٨] .

ثانيًا : هناك من السيئات ما يبطل الحسنات التي قارنته ، كما مر .

ثالثًا : وهناك من السيئات الكبار وإن لم تصل إلى درجة الشرك ما قد تؤدي إلى بطلان الأعمال كلها ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] ، ومعنى ﴿ أَنْ تَحْبَطَ ﴾ أي لئلا تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، فدل على أن رفع الصوت على النبي ﷺ قد يؤدي إلى بطلان العمل ، أمَّا وقد مات فلا يمكن رفع الصوت عليه ، ولكن يبقى رفع الصوت على هَديه وشرعته وسنته هذا لا شك كرفع الصوت عليه إن لم يكن أشد . ورد في رواية عن عكرمة بن عمار قال : دخلت مسجد المدينة – في غير الصحيح – فناداني شيخ لا أعرفه فقال لي : يا يمامي ، نسبة إلى اليمامة ، يعني رجل من أهل اليمامة عكرمة . قال : لا تقل لأحد أو لرجل والله لا يغفر الله

لك ولا يدخلك الجنة . فقلت : من أنت يرحمك الله – ما يعرفه – فقال : أبو هريرة ، فقلت : إن أحدنا يقول هذه الكلمة لبعض أهله لزوجه لخادمه فقال : سمعت النبي ﷺ يقول : « **إن رجلين من بني إسرائيل متحابين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر مقصر ، فجعل يقول له** » أي هذا المجتهد « **جعل يقول له : اقصر ، فقال : خل بيني وبين ربي ، ثم إنه وجده على أمر استعظمه فقال له : أقصر ، فقال : خل بيني وبين ربي أبعثت علي رقيبًا ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة** » فقال : « **فأرسل إليهم ملكًا فقبض أرواحهما ثم حضرا بين يدي الرب عز وجل فقال للمذنب : ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر** » والذي كان مجتهدًا « **أتحظر على عبدي رحمتي ؟ خذوه فاذهبوا به إلى النار** » ، قال أبو هريرة : والذي نفسي بيده تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته . كلمة واحدة فقط ، ولهذا يتأكد على طالب العلم أن يزن كلامه ، وأن لا يطلق للسانه العنان ، وأن يعرض الكلام على عقله قبل لسانه ، فإن أجازه العقل فليتكلم به وإلا فليمسك ، فإن الكلمة قبل أن تتكلم بها تملكها ، وإذا تكلمت قالوا ملكتك . وقيل : العاقل هو الذي يَسبق عقله لسانه ، والجاهل هو من يسبق لسانه عقله ، الإنسان يتكلم ثم إذا فكر بكلامه وإذا هو قد زل وأخطأ . وقيل أيضًا : الألسنة مغارف القلوب . اللسان لا يغرف من الجوف ، بل يغرف من قلب وعقل صاحبه ، لهذا يتأكد على الإنسان أن يكون عنده ميزان ، فإنه وكما قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٦ – ١٨] ، وقال : ﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ

عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار : ٩ – ١٢] .

هؤلاء يعلمون الأفعال ، وأولئك الأقوال ، كلاهما واحد عن اليمين وعن الشمال ، يكتب الأقوال ويعلم بالأفعال . فإذا كانت هذه الحال فالواجب على الإنسان أن يزن كلامه ، وأن لا يتكلم إلا بما هو مفيد ، قال ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت** » ، إما خير وإما سكوت .

والكلام ثلاثة :

١. كلامٌ مفيد ، تكلم به .

٢. وكلام ضارٌّ ، اتركه .

٣. وكلام لا يفيد ولا يضر .

قال العلماء : فالعاقل يشح بوقته عنه . الله أكبر .

المقصود : أن الإنسان لا يتكلم بكل كلام ، قالوا : العاقل يشح بوقته عنه . الله أكبر ، انظروا قيمة الأوقات ، عندهم لا تضيع أوقاتهم فيما لا يفيد .

والوقت عظيم ، وإذا ذهبت دقيقة أو دقيقتان فلا يمكن أن تعود ثانية ، ماذا وضعت فيها يا طالب العلم ؟ وماذا أودعت ؟

هذه الأمور ما يعرفها الإنسان إلا إذا كبرت سنه ، ورأى السنين الغالية مرت عليه فماذا فعل بها ، فاحرصوا بارك الله فيكم على اغتنام أوقاتكم فيما فيه فائدتكم من طلب علم ، وعمل خير ، وعبادة وما أشبه ذلك من الأعمال التي إذا تذكر الإنسان في آخر عمره توفيق الله له وإعانته عليها رأى أن هذا من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى عليه .

وأما إذا ذهبت السنين الغالية بالأعمال الرخيصة ، فضول المباحات يذهب ويأتي فلا ينبغي أن يضيع الغالي بالرخيص ، قال ﷺ : « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي بها بالاً يزل بها في نار جهنم أبعد ما بين المشرق والمغرب** » ، الحديث في الصحيحين ، في رواية : « **يهوي بها في جهنم سبعين خريفًا** » ، في رواية « **إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يتبين فيها ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه** » ، أو كما قال ﷺ ، ما يلقي لها بال وكم من الكلمات نقولها الواحد ما يلقي لها بال ولا يهتم لها . فإذا كانت هذه العقوبة الشديدة لكلمة ما ألقيت لها بالاً ، ولا اعتنيت بها قبل أن تتكلم بها فما الظن بالكلام الكثير الكثير الكثير ؟ والإنسان إذا كثر كلامه كثر سقطه كما يقولون ، كثرت أغلاطه وأخطاؤه .

فليحرص الإنسان على خزن لسانه وأن لا يتكلم إلا بما هو مفيد ، وأن لا يعمل إلا بالعمل الذي منه يستفيد ، وبه يفيد .

قال المصنف رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : التحذير من التألي على الله .

الثانية : كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله) .

هذا نص حديث ، وأيضًا .

(**الثالثة : أن الجنة مثل ذلك**) .

قال ﷺ : « **الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك** » ، الجنة قريبة ، كلمة واحدة يكتب الله تعالى له بها الرضا إلى يوم يلقاه ، وكلمة واحدة يُكتب عليه أو يَكتب الله عليه فيها سخطه إلى أن يلقاه ولا قوة إلا بالله ،

الجنة قريبة والنار قريبة فليحرص الإنسان على الأعمال العظيمة المفضية إلى الجنة ، وليحذر كل الحذر عن أي عمل يؤدي به إلى النار .

(**الرابعة : فيه شاهد لقوله : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة » . إلى آخره**) .

الحديث الذي ذكر ، الحديث فيه شاهد يعني هذا الرجل الذي تكلم بكلمة ما الدافع لهذه الكلمة عندما تكلم بها قال : والله لا يغفر الله لك ، ما الدافع ؟ الجواب: الدافع له الغيرة ، الرجل قالها غيرة ، والغيرة يجب ضبطها أن لا تتعدى الحدود الشرعية فإن الإنسان عند غيرته قد يدخل الشيطان إليه ولا قوة إلا بالله فيقول كلمة يزل بها لسانه فيهلك بها ، وهو إنما قالها عن غيرة .

ولهذا يجب على الإنسان أن لا يتكلم بكلام إلا ويصدر فيه عن شرع الله عز وجل ، في دعوته إلى الله ، في الأمر بالمعروف ، في النهي عن المنكر ، في فتاواه ، كل كلامه هو يتكلم عن هذا الدين العظيم ، هو ما يتكلم عن رأيه ووجهة نظره ، فإذا أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أو يدعوا إلى الله عز وجل يعرف ما الذي يأمر به ، يعرفه من حيث الحكم ويعرف من حيث الواقع أيضًا . وإذا أراد أن يدعوا إلى الله عز وجل يعرف أيضًا ما الذي يدعوا إليه ، وإذا جاءه الشيطان وحصل منهم انفعال فليكبح جماح هذا الانفعال ويتعوذ بالله من الشيطان ، فإن الشيطان يأتي للإنسان مع الغضب سريعًا وكم حصل بسبب الغضب من المآسي والمشاكل والطلاق والقتل ، كلها لا تأتي إلا عن غضب ، كذلك أيضًا إذا أمر الإنسان أو تكلم قد يتكلم أحيانًا بغضب فيؤدي إلى منكر أشد من المنكر الذي أنكره ، إذا لم يكن عنده حكمة في دعوته وفي أمره .

ولهذا هذا الرجل يعني كثَّر عليه ، أقصر أقصر أقصر ، ولهذا المنبغي في الدعوة إلى الله عز وجل أن لا يكثر الإنسان من الإلحاح على الشخص ، قد يكون عنده شخص في بيته أخ له أو ابن له لا يكثر من الإلحاح الدائم الدائم الدائم لكن بين وقت ووقت ، ولا يغفل ، ويلجأ إلى الله عز وجل في أن يعينه حتى يعترف بضعفه ، وأن ما يفعله سببه ، وأن السبب قد يحصل منه المراد ، وقد يحصل منه عكس المراد ، قد ينفعل الأب أحيانًا على ولده يتكلم عليه بكلام ينفعل الولد ويخرج من البيت ولا يرجع ، هذا يحصل. والسبب الانفعال والاندفاع في مثل هذه الأمور ، الحكمة مطلوبة في هذا الزمان وفي غير هذا الزمان ، وإن كان الأمر في هذا الزمان لا شك أشد ، تسمعون ما يتعلق مع الإنسان بأهله في بيته ، مع الناس ، وكم في القرآن من النصوص التي تربي وتُعلم ، حتى يقول ربنا لأكرم الخلق وأعلم وأنصح الخلق وأفصح الخلق ﷺ يقول له : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ﴾ [الشورى : ٤٨] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، تقتل نفسك غضبًا من أجلهم ، ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

المقصود : أن الإنسان في كل أعماله يسعى إلى أن يحسن لا إلى أن يسيء ، فقد تأمر شخصًا بخير ويجانبك الصواب فتحد في أمرك فيحصل العكس نعوذ بالله ، يأتي العكس .

لهذا يقول العلماء في البصيرة في الدعوة : اعرف حال الشخص الذي تدعوه ، قد يكون أحمق أهوج يسمع منك كلمة فيها شدة فيقابل الشدة بما هو أشد ، الله

يجعلنا بعافية تحصل أحيانًا كلمات عياذًا بالله من الشخص ثم يأتي واحد يقول : يا ليتني ما قلت بالأمس . لكم إذا تكلم الإنسان بكلام إن نفع وإلا فلا يضر ، هذا هو المطلوب والله المستعان .

(**الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه**) .

يعني هذا الرجل غفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه ، والسبب هو أن هذا الرجل الذي تألى على الله وأغلظ عليه الكلام ، ولهذا قال : خلي بيني وبين ربي أبعثت عليَّ رقيبًا ؟ هذه كلمة تنبئ عن عدم رضا ، اتركني ، يقول : خلي بيني وبين ربي ، يبدو أن هذا الرجل أيضًا عنده لديه ميل إلى أن الله سبحانه وتعالى يتداركه ويعفو عنه ويهديه ، خلي بيني وبين ربي اتركني .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

٥٣ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(**باب لا يستشفع بالله على خلقه**

عن جُبير بن مُطْعِم رضي الله عنه قال : جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله نُهِكت الأنفس ، وجَاع العيال ، وهَلكت الأموال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نَسْتَشْفِعُ بالله عليك ، وبك على الله . فقال النبي ﷺ : « سبحان الله ! سبحان الله » . فما زال يُسَبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه ، ثم قال : « ويحك أتدري ما الله ؟ إن شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يُسْتَشْفَع بالله على أحد من خلقه » . وذكر الحديث ، رواه أبو داود) .

هذا الحديث رواه أبو داود من حديث جبير بن محمد بن جبير بن مُطْعِم عن أبيه عن جده ، جُبير بن مُطْعِم رضي الله عنه وأرضاه .

قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله نُهكت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت الأموال فاستسق الله لنا ، فإنا نستشفع بك على الله وبالله عليك . فقال النبي ﷺ : « **ويحك ! أتدري ما تقول** » ؟ وسبح الله ، فما زال يسبح الله حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه .

ثم قال : « **ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد ، شأن الله أعظم من ذلك ، ويحك أتدري ما الله ؟ إن عرشه فوق سماواته لهكذا** » وقال بأصابعه مثل القبة

عليه « **لَيَئِطُّ به أَطِيطَ الرَّحْلِ بالرَّاكب**» ، أخرجه أبو داود قال الذهبي : بإسناد حسن عنده ، أي عند أبي داود . وضعفه جمع من أهل العلم ، وإن كان الحديث ضعيفًا في سنده إلا أن معناه صحيح ، فإنه لا يجوز أن يُجعل الله تعالى واسطة إلى الخلق يستشفع به إليهم ، حتى أكرم الخلق رسول الله ﷺ .

والشفاعة – مر بنا – أنها : التوسط بالغير لجلب نفعٍ أو دفع ضر ، والشفاعة:

❖ بين الخلق جائزة لا إشكال فيها ، قال تعالى : ﴿ مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا ﴾ [النساء : ٨٥] . وقال ﷺ وكان يأتيه الرجل في حاجة ، فيلتفت إلى أصحابه فيقول : « **اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب** » ، وفي رواية « **ما شاء** » . فشفاعة الخلق إلى الخلق إذا كانت شفاعة حسنة مشروعة لا شك ، وفيها فضل وخير .

❖ **الثاني :** الشفاعة بالخلق إلى الله عز وجل ، وهذه أيضًا جائزة ، ومنها طلب الدعاء ، فعندما يُطلب الدعاء من شخص إنما تُطلب منه الشفاعة ، إذ الدعاء شفاعة . **ووجه كونه شفاعة :** أن الداعي ضم نفسه إلى السائل الذي طَلب منه ، فأصبح شَفْعًا بعد أن كان الطالب واحدًا وترًا . وفي الحديث المخرج في ((**الصحيح**)) عن ابن عباس « **ما من مسلم يقوم على جنازته أربعون لا يشركون بالله شيئًا إلا شُفِّعُوا فيه** » ، يعني قبلت شفاعتهم . لكن العلماء رحمهم لا يحبذون للإنسان أن يُكثر من طلب الدعاء من الآخرين ، ويعتبرونه من المسألة ، والصحابة بايعوا النبي ﷺ على أن لا يسألوا أحدًا شيئًا . ولهذا شيخ الإسلام يرى أن الإنسان عندما يَطلب الدعاء من أخيه

يستحضر أنه يريد نفع أخيه ، وذلك بقول المَلَك له : ولك بمثلها ، عندما تطلب الدعاء من أحد أنت تريد منه أن يدعوا لك لا شك ، وتريد منه أيضًا أن ينتفع هو بهذه الدعوة بدعوة الملك له ، وإلا فالأصل أن طَلب الدعاء جائز ؛ لكن لا يتوسع فيه . والإنسان عندما يدعو ربه تضرعًا وخفية ، ويدعو من قلبه وقد مسته الحاجة فيما دعا إليه لا شك سيكون أكثر إلحاحًا من أي شخص يطلب منه أن يدعوا . الله سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه تضرعًا وخفية ، وإذا تضرع الإنسان في دعاءه وأخلص في دعائه فإن الله سبحانه وتعالى قريب مجيب ، يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، بل يجيب دعوة الكافر إذا أخلص في دعوته ، الدليل ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . والأصل في جواز طلب الدعاء من الغير قوله ﷺ في أويس القرني خير التابعين ، أويس كان به بياض وله أمٌّ كان بارًّا بها ، فإذا جاء فمروه أن يدعوا لكم أو كما قال ﷺ ، وكان عمر يسأل أمداد اليمن إذا جاءوا عنه ، حتى وَفد يوم من الأيام فطلب منهم عمر أن يدعوا له ، وقد روي أن النبي ﷺ قال لعمر وقد ذهب إلى مكة للعمرة : « **لا تنسنا يا أُخي من دعاءك** » ، لكن الحديث فيه مقال . وعلى كل حال فالأصل الجواز ؛ لكن ما ينبغي للإنسان أن يُكثر منه ، بل يدعو ربه ولا يجعل بينه وبين ربه واسطة بحالٍ من الأحوال . وإذا توسل إلى الله :

- فأعظم ما يتوسل به العبد إلى مولاه أن يدعوه بأسمائه وصفاته ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

- ويتوسل إليه أيضًا بالأعمال الصالحة ، كما في قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار .
- يتوسل إليه أيضًا بإيمانه به سبحانه وبحمده ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٦] .

المقصود : أنه يتوسل إلى الله بالتوسل الذي يوصله إلى مقصوده ، وإن طلب من أحدٍ أن يدعوا فلا بأس ؛ لكن لا ينبغي أن يكثر ، وإذا طلب يستحضر ما ذكر شيخ الإسلام وهو طلب نفع مَن طلب منه أن يدعوا له .

❖ **الأمر الثالث :** الاستشفاع بالله إلى الخلق ، هذا الذي أنكره النبي ﷺ ، وبيَّن أن شأن الله أعظم ، وسبح الله ، وتسبيح الله تنزيهه عما لا يليق به ، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق ، وكان ﷺ يسبح الله ويكبر الله في الأمور العظيمة سواء كانت مرغوبًا بها ، أو غير مرغوب بها ، ومر بنا قوله ﷺ عندما قال الصحابة له : اجعل لنا ذات أواط . قال : « **الله أكبر إنها السُّنن** » . ولما قال عليه الصلاة والسلام حديث المخرج في ((**الصحيح**)) « **أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة** » ، قال الراوي فكبرنا ، ثم قال : « **ثلث أهل الجنة** » ، قال : فكبرنا ، ثم قال : « **شطر أهل الجنة** » ، فكبرنا ، اللهم اجعلنا من أهل الجنة يا أرحم الراحمين .

ثم قال في كل مرة : (« **ويحك** ») وويحك أو ويحٌ هذه كلمة يقول بعض علماء العربية : تقال أحيانًا للترحم ويح فلان كذا وكذا ، وقد يفهم منها أيضًا الإنكار ، كما في هذا الحديث .

وبيَّن أنه لا يستشفع بالله على أحد ، وأن شأن الله عز وجل أعظم من ذلك ، وأن عرشه فوق سماواته مثل قبة ، وإنه لا يئط به أطيط الرحل بالراكب ، لكن بعض أهل العلم يقول : كل ما ورد في الأطيط ليس بثابت ، يعني لم يثبت به حديث .

المقصود : أنه لا يستشفع بالله على أحد تعظيمًا لله عز وجل .

فإن قيل : فما الجمع بين هذا الحديث وحديث مر بنا حديث ابن عمر « **من سألكم بالله فأعطوه** » ، فما الفرق بين رجلين أحدهما سأل بالله فيُعطى ، وآخر استشفع بالله فينكر عليه ؟

قال أهل العلم : السؤال بالله لا يقتضي أن مرتبة المسؤول به وهو الله أقل من مرتبة المسؤول أبدًا ، بل المسؤول به إنما سأل السائل به تعظيمًا لطلبته حيث توسل بالله عز وجل ، ففيه تعظيم لله عز وجل أنه يسأل بعظيم ، فإذًا يُعطى حاجته . وأما الاستشفاع بالله عز وجل فربما يكون بمن هو أقل درجة من المستشفع به ، وهذا ملاحظ ، يعني أنت تريد الشفاعة في أمر من أمور الدنيا وتستشفع بمن هو أقل وأقل مرتبة من مَن تطلب الشفاعة أو تطلب الحاجة منه ، فالاستشفاع قد يكون المستشفع به أدنى ، وفيه هذا المحظور لهذا أنكره النبي ﷺ .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : إنكاره على من قال : نستشفع بالله عليك .

الثانية : تغيره تغيُّرًا عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة .

الثالثة : أنه لم ينكر عليه قوله : نستشفع بك على الله .

الرابعة : التنبيه على تفسير (سبحان الله) .

الخامسة : أن المسلمين يسألونه الاستسقاء) .

يسألون النبي ﷺ الاستسقاء في حديث أنس المخرج في ((**الصحيحين**)) في الرجل الذي دخل واستقبل النبي ﷺ وطلب منه أن يستسقي فرفع يده وقال : « **اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا ، اللهم اسقنا** » ، الحديث المشهور ، فكانوا يطلبون منه الدعاء ﷺ ويطلبون منه الاستسقاء .

فطلب الدعاء والدعاء يُعتبر استشفاعًا بالنبي ﷺ ، وهذا في حياته أما بعد وفاته فلا يجوز طلب الدعاء منه ، فإن طلب الدعاء منه يصل إلى الشرك الأكبر ولا قوة إلا بالله .

الطالب : قوله (**نستشفع بك على الله**) ، ما يُتوهم أنه قد يكون توسلاً بذات النبي ﷺ ؟

الشيخ : لا ، لأنه قال قبلها : استسق لنا . فهو توسل بدعاء النبي ﷺ ، والتوسل بالدعاء لا إشكال فيه . وأما التوسل بالذات فالعلماء يمنعونه ؛ لأن التوسل بالذات وسيلة إلى دعاء الذات وهذا الذي حصل ، فالذين تساهلوا في هذا الأمر آل الأمر بهم أن يدعوا رسول الله ﷺ ، ويسألوه قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، وكتبهم مملوءة بمثل هذه الأمور .

حتى في وقت ذكرت لكم كلامًا ذكره بعض المؤلفين في كتابه ، وأراد أن يرد فيه على رجل كان ينهى عن هذا الأمر فقال : لو أن شخصًا يسبح بالبحر وخشي أن يغرق فقال : يا رسول الله ، سبحان الله ، يعني هو ينكر عليه أن يرى منع هذا

الشيء ، فقال له هذا الرجل : ﴿ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ﴾ . قال : طيب لو في رجل وقف على البحر وقال : غثني يا فلان ؟ قال : هذا حيٌّ حاضر قادر .

يقول المؤلف مؤلف كتاب في القواعد يقول : فسقط من عيني .

فأقول : سبحان الله كيف يصل الأمر بالإنسان يقرأ طالب العلم لديه علم ويقرأ قول ربنا عز وجل : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ ﴾ . ما يدعون الملائكة ولا عيسى ولا عزيرًا ولا أحدًا من الصالحين إنما يدعون الله عز وجل ، وهؤلاء حتى وهم في الضراء يدعون النبي ﷺ ويدعون الصالحين ، والله المستعان .

المقصود : أن التوسل بالذات لا شك في جوازه ؛ لكن المحظور التوسل بالذوات .

الطالب : التوسل بالذات ؟

الشيخ : التوسل بذوات الأشخاص هذا محظور ولا يجوز ، ووسيلة إلى دعاءهم من دون الله عز وجل ، كأن يقول : أسألك بفلان ، بحق فلان إلى آخره .

وأما التوسل بدعائهم ، والتوسل بدعائهم يقول : ادع لي . هذا هو التوسل ، هذا حصل من الصحابة في الاستسقاء أمر النبي ﷺ به الصحابة أن يأمروا أويسًا أن يدعوا لهم وما أشبه ذلك .

قال رحمه الله :

(**باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمى التوحيد وسده طرق الشرك**) .

قال رحمه الله : (**باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمى التوحيد وسده طرق الشرك**) تذكرون مر بنا باب شبيه بهذا ، وهو (باب ما جاء في حماية المصطفى جناب التوحيد) ، والفرق بين البابين:

- **أولاً** : الباب الذي مر بنا وتذكرون فيه حديث أبي هريرة « **لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا قبري عيدًا** » وحديث عدي بن حصين لما رأى رجلاً يأتي إلى فوجه عند قبر ثم يدعوا بها ، وأورد حديثًا أيضًا « **لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم** » إلى آخره ، قال العلماء : ذلك الباب في الوسائل الفعلية ، وهذا الباب في الوسائل القولية .
- ثم من الترجمة تلحظون الفرق ، هناك قال : (حماية المصطفى جناب التوحيد) ، وجناب الشيء وجانب الشيء جزءٌ منه . وهنا قال : (**حِمى التوحيد**) ، وحماه خارج عنه ، فهذا الباب قد يكون أبلغ من الباب السابق ، إذ فيه حماية التوحيد وأيضًا حماية حمى التوحيد ، وسده كل طريق يفضي إلى الشرك .

قال رحمه الله : (**عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال : انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا ، فقال : « السيد الله تبارك وتعالى » ، قلنا : وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طَوْلاً ، فقال : « قولوا بقولكم أو بعض قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان » ، رواه أبو داود بسند جيد**) .

عبد الله بن الشخِّير والد إمام من أئمة التابعين وهو مُطرِّف ، مطرف بن عبد الله الشخير رحمه الله ورضي عنه وعن أبيه .

يقول : (**انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا : أنت سيدنا . فقال : « السيد الله »**) ، مر بنا الكلام عن لفظ السيد ، وأن له ثلاثة إطلاقات :

- **الإطلاق الأول :** يطلق على الزوج ، قال تعالى : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ [يوسف : ٢٥] .
- **الثاني :** يطلق على كبير القوم ، قال ﷺ : « **قوموا إلى سيدكم** » ، في سعد بن معاذ .
- **والثالث :** يطلق على المولى ، يقال : هذا سيد فلان ، يعني مالكه .

هم قالوا للنبي ﷺ : (**« أنت سيدنا »**) ، من باب التوقير والتعزير له ﷺ ، (**فقال : « السيد الله »**) ، هذه الكلمة كلمة (**« السيد الله »**) يفهم منها أن السيد من أسماء الله عز وجل ، لكن ورد في السنة ما يدل على إطلاق السيد على البشر ، كقوله ﷺ : « **قوموا لسيدكم** » ، في سعد بن معاذ ، وقوله في الحسن بن علي وكان صغيرًا : « **إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » ، بل قال ﷺ : « **أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر** » . فما الجمع بين هذه الأحاديث ؟

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في إطلاق السيد على البشر ، فمنعه مالك رحمه الله ، وحجته (**« السيد الله »**) ، هذا الحديث .

وأجازه آخرون مستدلين بمثل ما ذُكر من الأحاديث .

والجمع بين هذه الأحاديث أن لا تعارض ، لا تعارض لا في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله ﷺ الصحيحة بحال من الأحوال ، لا يمكن أن تتعارض النصوص سواء من الكتاب أو السنة على وجهٍ لا يمكن فيه الجمع ولا النسخ ولا الترجيح . وإذا حصل اختلاف بين النصوص:

- فأول طريق يسلك هو الجمع ، وكان أول طريق لأن فيه إعمال الدليلين كليهما .
- فإن تعذر الجمع فالنسخ إذا توفرت شروطه .
- فإن تعذر النسخ أخذ بالراجح منهما .

وكلا الحديثين صحيح ، حديث « **السيد الله** » ، وحديث « **قوموا إلى سيدكم** » ، وحديث « **أنا سيد ولد آدم** » أيضًا وهو في ((**الصحيحين**)) ، فجمع العلماء رحمهم الله بينهما أن قول النبي ﷺ : « **السيد الله** » ، إنما قاله تواضعًا ، وقاله سدًّا للذريعة ، وخوفًا على الناس أن يستهويهم الشيطان ويستجريهم فيؤدي بهم إلى المبالغة في هذا الأمر وإلى الغلو فيه ، وقد حذر النبي ﷺ من الغلو مطلقًا ومن الغو فيه خاصة ، فقال : « **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله** » ، وكان أشرف أوصافه ﷺ وصفه بالعبودية وبالرسالة ، كما سيأتي .

فيقال إذًا : لو أن إنسانًا قال له شخص : يا سيدي أو سيدنا ، وسيدنا هذه مشكل لأن فيها جمع أيضا ، يعني كأنه سيد الناس ، فينبغي أن يقول كما قال النبي ﷺ : « **السيد الله** » ، لا أن هذا محرم ، ولكن:

١. من باب الأدب مع الله عز وجل إذ السيد الله عز وجل ، فيقال هذا من باب الأدب .

٢. ويقال أيضًا إذا خشي منه محظور كما قال عليه الصلاة والسلام : « **لا يستهوينكم الشيطان** » .

٣. ويقال هذا أيضًا – المنع منه – يقال إذا كان على سبيل المواجهة .

وإلا فالنبي ﷺ سيد الأولين والآخرين ؛ لكنه أنكره لأنهم واجهوه أولاً به ، وتواضعًا منه ، وخوفًا عليهم من الشيطان الذي يجري من ابن آدم مجرى الدم ، لهذا قال : « **السيد الله** » ، وإلا فيقال : اللهم صل وسلم على سيدنا ونبينا محمد ﷺ ، يقوله الإنسان في كلامه ويقوله في موعظته في خطبته إلا في الأشياء المشروعة ، والتي تشرع فيها الصلاة عليه بصيغةٍ وردت عنه عليه الصلاة والسلام ، فيتقيد بهذه الصيغة ، وهذا المنبغي فيما يشرع فيه الصلاة كالتشهد مثلاً والأذان والإقامة يعني إذا ذكر فيها النبي ﷺ فلا يزاد فيها بحالٍ من الأحوال ، وما أحسن هدي الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم عندما سألوا النبي ﷺ سأله بشير بن سعد والد النعمان رضي الله عنهم أجمعين ، قال : يا رسول الله أمرنا أن نصلي عليك فكيف نصلي عليك ؟ ما ذهبوا ينسجون من عباراتهم وكلامهم وهم كانوا أقدر الناس أن يقولوا أحسن الكلام في تعزير رسول الله وتوقيره وتبجيله عليه الصلاة والسلام ؛ لكنهم سألوه ماذا يقولون ، فلما أخبرهم التزموا به . وتجد عند كثير من الناس المنتسبين إلى طوائف من البدع صلوات خاصة بهم ، أين الصلوات الثابتة عن محمد ﷺ ألا تكفي ؟ وقد أكمل الله به الدين وأتم به النعمة ، ولن يكون كلام أحسن ولا أوفى ولا أبلغ من

كلامه ﷺ . ففي المواضع التي يشرع فيها الصلاة على النبي ﷺ يتقيد فيها بالوارد ، ولا يقول الإنسان في الصلاة : اللهم صل على سيدنا محمد ﷺ ، النبي ﷺ عندما علمهم علمهم الصلاة بهذه الصيغة فلا حاجة أن يزاد عليها ولا أن يضاف إليها ؛ لكن في غير المواضع التي لم يرد فيها نصٌّ بالصلاة عليه يقول الإنسان : اللهم صل وسلم على سيدنا ونبينا وحبيبنا ورسولنا ، فلا بأس فهو ولد سيد آدم ولا فخر كما قاله ﷺ .

وفيه إشارة إلى أنه : لا ينبغي للإنسان أن يذعن للمديح ، ولا يتوقعه من الناس ، ولا يرغب فيه ، قد قال النبي ﷺ لرجل يمدح رجلاً : « **ويلك قطعت عنق صاحبك** » ، وقال : « **إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب** » . الإنسان ضعيف ربما إذا مُدح تكبر عنده نفسه ، وتعجبه نفسه ويعجبه عمله ، فيكون مديح هذا الشخص سببًا لهلاكه ولا قوة إلا بالله .

المقصود : أن الإنسان لا ينبغي أن يحرص على هذا الأمر ، بل لو احتاج أن ينبه من يمدح إلى عدم المدح أو يأتي بكلام يتخلص فيه من هذا المديح لأن الشخص الذي يمدح يعني يبتلي هذا الإنسان ، والمحفوظ والمعصوم من حفظه الله تعالى وعصمه .

الطالب : إطلاق اللفظ معرفًا السيد فلان هل فيه محظور ؟

الشيخ : هذه الكلمة لها درجات :

- **منها :** إضافتها إلى الجمع سيدنا .
- **ومنها أيضًا :** السيد ، فإن الألف واللام تدل على الاستغراق واستغراق السيادة .

لكن في مثل محمد ﷺ نقول : سيدنا ولا إشكال في هذا لأنه سيد الجميع ، لكن في تخاطب الناس بعضهم مع بعض المواجهة أولاً لا تنبغي تأدبًا مع الله عز وجل لكن لو قيلت في غيبة الشخص هذا سيد بني فلان ، كبير بني فلان إلى آخره لا بأس بهذا إن شاء الله .

قال رحمه الله : (**وعن أنس رضي الله عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، يا خَيْرَنا وابن خَيْرِنا ، وسيدنا وابن سيدنا . فقال : « يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ، ما أُحب أن ترفعوني فوق منْزلتي التي أنزلني الله عز وجل » . رواه النسائي بسند جيد**) .

قال في الحديث السابق : (**وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طَوْلاً**) ، الطَّوْل هو السَّعة في العطاء ، في القدر ، في المكانة ، في المنزلة .

حديث أنس هذا أيضًا أن أناسًا قالوا للنبي ﷺ : أنت خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا ، قال : (**« يا أيها الناس ، قولوا بقولكم »**) ، في الحديث السابق (**« أو بعض قولكم »**) ، يلاحظ أنه لم ينهَ ولم يقر عليه الصلاة والسلام ، ما نهاهم ولا أقرهم ، لكن يفهم من قوله : (**« السيد الله »**) ، أن هذا الأمر غير مطلوب ، وغير مرغوب فيه ، وإنما لم يرغب النبي ﷺ فيه خوفًا عليهم من أن يستهويهم الشيطان ، فيترقى بهم في المديح درجة بعد أخرى حتى يصلوا فيه إلى الغلو ، والذين لم يلاحظوا هذه الأمور ولم يخشوا فيها وقعوا في محاذير شديدة ، وآل الأمر بهم إلى أن يغلوا بالنبي ﷺ ومر بنا أمثلة مثل قول البوصيري في بردته :

ما سامني الدهر يومًا فاستجرت به ** إلا ونلت جوارًا منه لم يضم

يعني النبي ﷺ

ولا التمست غنى الدارين من يده ❊❊ إلا استلمت الندى من خير مستلم

ماذا بقي لله عز وجل ؟ والله تعالى يقول للنبي ﷺ : ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن : ٢٢] ، وهنا يقول : ما سامني الدهر يومًا فاستجرت ، ويقول أيضًا : ولا التمست غنى الدارين من يده ، والله تعالى يقول : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾[الليل : ١٣] .

وغيره كثير عندما تأتي في قصائدهم تجد العجب العجاب ، وكأن لم يبقَ لله سبحانه وتعالى شيءٌ ، والنبي ﷺ أنكر هذه الكلمة ، وهي كلمة (سيدنا) مع أنها جائزة ، فهو سيد ولد آدم ولا إشكال ومع ذلك أنكرها أولاً تواضعًا منه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : (**« أنا محمد عبد الله ورسوله »**) ، اللهم صل عليه وسلم قمة التواضع ، (**« أنا محمد »**) في بعض الروايات (أنا محمد بن عبد الله).

(**« عبد الله ورسوله »**) ومر بنا في أكثر من مناسبة أن وصفه بالعبودية وبالرسالة هو أشرف أوصافه ، وكانت العبودية أشرف أوصافه:

- لأن الله عز وجل في غير ما موضع من كتابه ذكره بوصف بالعبودية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ ﴾ [الإسراء : ١] ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ ﴾ [النجم : ١٠] ، ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾ [الأنفال : ٤١] ، ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ﴾[البقرة : ٢٣] .

- ثم أيضًا وصف العبودية وصف عظيم للنبي ﷺ ، لأنه قامت به جميع معاني العبودية فيه عليه الصلاة والسلام ، وأخذ هذا العموم من الإضافة فهو عبد الله ورسوله ﴿ أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾ [الزمر : ٣٦] .

وكذلك وصف الرسالة وصف جليل شريف عظيم ، وفي وصفه بالعبودية والرسالة ردٌّ على المُفرِطين والمُفرِّطين ، ووجه ذلك:

- المُفْرِطِين الغلاة يقال لهم : هو عبد الله فلا ترفعوه فوق منزلته إلى منزلة الله

- المُفَرِّطِين في حقه ﷺ يقال لهم : هو رسول الله فاعرفوا له قدره ومكانته ومنزلته صلوات الله وسلامه عليه .

إذًا الوقوع في مثل هذه الأمور قد تكون في أولها سهلة ؛ لكن إذا كانت مدخلاً للشيطان فيغلق الباب ، سدًّا للذريعة ، لأن الشيطان يستجري الإنسان ويأتيه شيئًا فشيئًا ، وهنا يأتي الشيطان الإنسان من باب الخير لا من باب الشر ، يمدح النبي ﷺ ، يعظم النبي ﷺ فيظل يترقى ويترقى في هذا الباب إلى أن يصل الأمر به إلى الغلو ، وربما إلى المروق من الدين ولا قوة إلا بالله بسبب غلوه بالمصطفى ﷺ .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تحذير الناس من الغلو .

الثانية : ما ينبغي أن يقول من قيل له : أنت سيدنا) .

هذه حقيقة واقعة ، فبعض الناس قد يكون عنده تلطف في الكلام يقول لك : يا سيدي ، أو سيدنا أو كذا ، فتقول له : السيد الله .

قال رحمه الله : (**الثالثة : قوله : « لا يستجرينكم الشيطان » ، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق**) .

ودليل على أن الشيطان يدخل أحيانًا على الإنسان من باب الخير ، فيقول الإنسان أنا ماذا قلت ؟ أنا صليت على النبي ﷺ .

وتوسع الناس في ذلك حتى أدخلوه في الأذان وأدخلوه في أمور أخر ، يعني تجده يقول : أشهد أن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، وإذا قيل له قال : أنا ما قلت إلا خيرًا . ولكن ما قاله صحب محمد ولا قيل بين يدي محمد ﷺ حتى تأتي بخير لم يأتُوا به ، أو تأتي بشيء تزعم أنه فاتهم أو أنهم قصروا فيه حتى أتيت أنت لتكمله وتتمه .

المقصود : أن الواجب على الإنسان أن يقف عند النصوص ، وأن لا يزيد لاسيما في الأوراد وفي الأذكار على ما ورد عن المصطفى ﷺ ، يقتصر على الوارد ففي الوارد خيرٌ وكفاية .

قال رحمه الله : (**الرابعة : قوله : « ما أحب أن ترفعوني فوق منْزلتي »**) .

إنما نهاهم ﷺ خوفًا عليهم ، أن يرفعوه فوق منزلته إلى منزلة الله عز وجل ، فنهاهم عن ذلك سدًّا للذريعة ، وحسمًا لمادة الشرك .

والمجلون لله المعظمون له لهم أسوة برسول الله ﷺ ، فهم لا يرضون بالمديح وبالثناء ، لا يرضون أن يواجههم أحد به ، لأن إجلاله عز وجل يقوم على قطبي العبادة ، وهما :

١. المحبة لله .

٢. والتذلل له .

فمن تذلل لمولاه وأحبه سبحانه وبحمده ما يرضى لنفسه أن يبالغ في مديحه وفي الثناء عليه ، وأكرم الخلق رسول الله ﷺ لما قيلت له كلمة هي من الحق ، فهو سيد ولد آدم لا إشكال ، قال : (« السيد الله ») ، إجلالاً لله عز وجل أن يخاطب باسم من أسمائه سبحانه وبحمده ، مع أنه لا بأس أن يقال وأن يسمى به لكن ينهى عنه ، وينهى عنه أيضًا لأن كثيرين ممن يسمون أو يتسمون بهذه الأسماء ، أو يسمون بها بعض من يتعلقون بهم لهم في هذا مقصد ، وهو أن السيد عندهم هو المتصرف ، السيد الحاكم المتصرف في الكون ، وهذا يقع ولا قوة إلا بالله لدى كثيرين ممن يتعلقون بالمقبورين والموهومين الذين يتشبثون بهم ويصفونهم بهذه الأوصاف .

والمقصود : أن الموحد يُجِلُّ ربه ويعظمه سبحانه وبحمده ، ويجتنب كل ما من شأنه أن يوقع في الغلو ، وأن يكون مدخلاً للشيطان عليه .

وفقكم الله وبارك فيكم وأعانكم

الطالب : هل يجوز أن يقال عبد السيد ؟

الشيخ : إذا كان من أسماء الله ؛ لكن الإشكال أن فيه أناسٌ يقال لهم : السيد فلان والسيد فلان ، فيخشى أن يتبادر الذهن إلى هذا ، وأحب الأسماء إلى الله عبد الله ، وعبد الرحمن ؛ لكن في بعض البلاد السيد معروف ، السيد البدوي والسيد كذا والسيد كذا، فهذا فيه إشكال ، على كل حال ما دام الشيء قد يؤدي إلى محذور أو يوهم فالعدول عنه هو الأولى ؛ لكن السيد من أسماء الله .

الطالب : ولو وجد هل يقال له غير اسمك ؟

الشيخ : إذا كان يقصد أن السيد هو الله ، ومن حوله يعرفون أن السيد هو الله عز وجل .

الطالب : الآن مع التصوير والمجالس صار ينتشر المديح بشكل كبير ، بعضهم يقول : أن الحديث « **احثوا في وجوه المداحين التراب** » يقال : هذا هم الكذبة الذين يكذبون في المديح ، صار في توسع في المديح .

الشيخ : النبي ﷺ قال لرجل وهو يمدح شخصًا قال : « **قطعت عنق صاحبك** » ، والنبي ﷺ قال : « **إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب** » ، قد فعل هذا بعض الصحابة والمقداد في مجلس عثمان ، أظن لعله المقداد . **المقصود :** أن المدَّاح صيغة مبالغة ، يعني من يكثر في المدح ؛ لكن إذا عمل الإنسان عملاً وأثنى الناس على هذا العمل فهل من هذا القبيل ؟

الجواب: لا ، الصحابة سألوا النبي ﷺ عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس عليه فقال : « **تلك عاجل بشرى المؤمن** » ، لكنه لا يسعى إليه ولا يحرص عليه ، والله المستعان .

ذكر لنا بعض الإخوان قال : رأى شخص رؤيا في قرى نائية أن فلانًا من الأخيار المعروفين رحمه الله رحمة واسعة ، قال : بُنِيَ لفلان بيتٌ في الجنة . فجاء هذا الرجل وسأل قال : فلان من هو فلان ؟ قالوا : هو معروف ، رجل وموجود في الرياض من الأخيار والصالحين ، ممن حياتهم مع كتاب الله عز وجل . أحدهم قال : ففرحت بها ، فلما أتيت الرياض أتيت إليه وقلت له : رُئِيَت فيك رؤيا كذا كذا . قال : كنت أتوقع أنه سيفرح وأنه كذا ، قال : لكنه أعرض ،

فقلت : الله أكبر ، يخافون على أنفسهم ، يخشى أنه لو أخذ بهذه الرؤيا أن يقع في نفسه شيء من العجب بنفسه والعجب بعمله .

المقصود : أنهم ما كانوا يحرصون على هذا ، وأدركنا مشايخنا لا تسمع المدح في مجالسهم أبدًا ، واسمحوا لي كثر في زماننا هذا المديح من الشباب ، يأتون إلى الشخص فيمدحونه ، وما ينبغي هذا . حتى بعض الكلمات ولا كنا نسمع في وقت مشايخنا أن يأتي أحدٌ إليه ويقول : ادع لي يا فلان ، مع أنهم نصوا على جوازه . الشيخ عبد الرحمن في شرح هذا الباب نص على الجواز ، فلا بأس به ، والأصل جوازه لا شك ؛ لكن ما كانوا يرغبون في الأكثر من هذا ، وقد يعجب المسؤول بنفسه ، الإنسان مسكين ، إذا جاءه شخص وقال : ادع لي ، يعني كأن لك حظوة أو مكانة أو كذا ، فادع لي ، يا أُخَيَّ لو دعوت لك لن أكون مثلك وأنت صاحب الحاجة في إلحاحك ودعاءك ربك . بل لم نكن نسمع في وقت مشايخنا أن يقول لهم الطلاب : يا شيخي أو يا شيخنا ، ما كانت هذه تأتي على ألسنتهم ، نعم الشيخ فلان أو كذا أو كذا ، وهم يجلونهم ويقدرونهم لا شك ، ولهم مكانة ومنزلة عندهم لكن مثل هذه الكلمات هم يعلمون المشايخ ما يرغبون فيها ، ولهذا ما كانت ترد على ألسنتهم كثيرًا .

والمقصود : أن الإنسان يجتهد في إخلاص عمله لربه ، ولا يسعى أو يرغب في أن يسمع أي شيء يؤثر في إخلاصه ، والإخلاص عظيم ليس بالأمر سهل ، بعض السلف يقول : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص .

بعضهم يقول : وددت أني أعمل عمل لا تعمل به الكتبة ، حتى الكتبة لا يعلمون ، ومثل هذا الإطراء وهذا الكلام قد يؤثر في إخلاص الإنسان والله المستعان .

نسأل الله أن يرزقنا وإياكم البصيرة في الدين ، والإخلاص في القول والعمل ، ونسأله إذ جمعنا في هذا المكان المبارك أن لا يفرق هذا الجمع إلا بذنب مغفور ، وسعي مشكور ، وعمل صالح مبرور ، وإذ جمعنا فيه يجمعنا في الدنيا على محبته وفي الآخرة في دار كرامته

٥٤ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله :

(باب ما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧])

(**﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ ﴾**) يعني ما عظَّموه تعالى حق تعظيمه ، وقد ورد هذا المعنى في القرآن في مواضع :

١ . في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١] .

٢ . وفي سورة الحج في قوله : ﴿ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٧٤] .

٣. وهذه الآية .

وكل هذه الآيات دلت على أن القوم لم يعظِّمُوا الله تعالى حق تعظيمه .

في آية الأنعام لم يُعَظِّمُوه حيث لم يؤمنوا بكتابه المنزل على رسوله ، سواء كانوا اليهود في التوراة ، أو النصارى في الإنجيل ، أو مشركو العرب في حق محمد ﷺ ، ولهذا قال في الآية بعدها : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٩٢] ، فالإيمان بكتب الله من الإيمان بالله ، إذ هو تعظيم

لله عز وجل ، ومن لم يؤمن بكتب الله أو بواحد منها كان مُكَذِّبًا ، وإذا كان مُكَذِّبًا فأنى له أن يكون مُعَظِّمًا .

الآية الثانية آية الحج : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾ وليس هذا فقط ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] ، ﴿ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا ﴾ الذباب حقير ، ومع ذلك لن تستطيع آلهتهم ولا الكون كله أن يخلق هذا الذباب الحقير . ﴿ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا ﴾ لو سلب الذباب منهم شيئًا ما استطاعوا أن يستنقذوه منه ، فيتحدث المتخصصون بمثل هذه الأمور عن سرعة ذوبان ما يَأخذه الذباب في لُعابه ، مجرد أن يخطفه يتحلل ويذوب في لعابه ، فإذا كانت الآلهة من الضَّعف بهذه المثابة فكيف تُعبد مع الله عز وجل وهو تعالى خالق كل شيء ؟

وتأملوا أوائل سورة النحل والتي يسميها العلماء سورة النِّعَم ، وفي أولها سرد لمخلوقاته عز وجل ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٣] ، ثم ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ [النحل : ٤] ثم ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [النحل : ٥] ، ثم تكلم عنها ﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ ﴾ ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ ، ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ ، ﴿ سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ ، ﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ إلى أن قال : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] ، أين العقول ؟

إذا كان ربنا عز وجل هو الخالق لكل شيء ، فالواجب تعظيمه ، وتعظيمه يؤدي إلى توحيده وإفراده بالعبادة سبحانه وبحمده ؛ لكن القوم لم يَقْدُروا الله حق قدره ، ولهذا قال بعدها : ﴿ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، فلو علموا قوته وعرفوا عزته سبحانه وبحمده لعبدوه وقَدَرُوه سبحانه وبحمده وعظَّموه .

وهنا قال : (**﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾**) ، ثم قال : (**﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾**) ، الواو استئنافية ، الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة ، (**﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾**) ، قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، ومعنى ﴿ كَطَيِّ السِّجِلِّ ﴾ السجل الورقة التي يُكتب فيها ، كما يُطوى أو تُطوى هذه الورقة والتي فيها كتابة ، يطوي ربنا عز وجل سماواته ، وإيضاح معنى الآية في حديث ابن عمر المخرج في ((**مسلم**)) « **يطوي الله تعالى السماوات ويأخذهن بيمينه فيقول أنا الملك** » سيذكره المؤلف « **أين الجبارون أين المتكلمون ؟ ثم يطوي الأراضين ويأخذهن بيده الأخرى** » ، وفي رواية في ((**مسلم**)) « **فيأخذهن بشماله ويقول : أنا الملك ، أين الجبارون أين المتكلمون** » ؟ وأما أهل التعطيل فيقولون : (**﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ ﴾**) ، يعني في ملكه وفي تصرفه .

هذا الباب هو آخر باب في ((**كتاب التوحيد**)) ، وجملة ما ذكر فيه المؤلف مما يتعلق بصفات الرب سبحانه وبحمده .

وأشار هنا إلى شيء من الصفات في أول الباب وفي آخره إلى علوه سبحانه وتعالى بذاته فوق جميع مخلوقاته .

وصفاته عز وجل كلها عُلْيَا كاملة ، فهذا الباب تضمن علو الصفات وعلو الذات للرب سبحانه وبحمده ، فمن أقر بعلو صفاته وأن له صفات الكمال سبحانه وبحمده والتي لا يماثله فيها أحدٌ من خلقه ، وأقر بعلوه سبحانه وتعالى بذاته فإن هذا سوف يكون سببًا لتعظيمه ربه سبحانه وبحمده ، وبالتالي عبادته وتوحيده .

ويشير المؤلف هنا للعلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة ، فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسائل بالنسبة لتوحيد الألوهية.

توحيد الربوبية يرجع في الجملة إلى ثلاث إلى:

١. الخلق .

٢. والملك .

٣. والتدبير .

خلق كل شيء ، المالك لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، ويدخل في التدبير أمور كثيرة الإحياء ، والإماتة ، وإنزال المطر وما أشبه ذلك .

فإذا أقر العبد بهذا التوحيد لزمه أن يقر بتوحيد الألوهية كما ذكر ربنا ذلك في غير ما آية من كتابه ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان : ٢٥] ، وإذا قلتم هو الله الخالق لزمكم أن تقولوا هو الله المعبود وإلا كنتم متناقضين بها .

كذلك توحيد الأسماء والصفات له صلة بتوحيد الربوبية أيضًا ، لأن الرب لا يكون ربًّا إلا إذا كان كامل الصفات ، أما إذا سلبت صفات الرب سبحانه وبحمده فإن هذا يعود بالخلل إلى توحيد الألوهية . ولهذا دخل الخلل في توحيد الألوهية على الأمة من أمور كثيرة ، منها :

- الخلل في توحيد الأسماء والصفات ، وهذا الخلل بليت به الأمة بعد القرون المفضلة ، لما ظهر التعطيل وانتشرت مقالات أهل التأويل ، ونفيت صفات الرب سبحانه ، ولهذا شيخ الإسلام له كلمة أُعيدت مرارًا ، وهي قوله : (لا يمكن لمعطل ولا قدري أن يتوكل على الله) :
  - المعطل لا يتوكل على الله لأنه يعطل صفات الرب ، فكيف يتوكل على من ليس له صفات ، لله المثل الأعلى إنما يعتمد الناس بعضهم على بعض على من فيه صفات يعتمد عليه بسببها ، فإذا سلبتم الله كماله الواجب فكيف يحصل التوكل ؟
  - أما القدري فلا يمكن أن يتوكل على الله ، لأن القدري يخلق فعله لا علاقة لله في أفعاله ، فكيف يتوكل على الله وهو الذي يخلق أفعاله ؟ إذًا يتوكل على نفسه ولا قوة إلا بالله .

ومن هنا تتبين العلاقة بين أنواع التوحيد الثلاثة ، فتوحيد الأسماء والصفات من تمام توحيد الربوبية ، لأن الرب لا يكون ربًّا إلا إذا كان متصفًا بالكمال.

وأما العلاقة بتوحيد الألوهية فواضحة ، وتأملوا آيات القرآن وأحاديث المصطفى ﷺ ، آخر سورة الحشر ذكر الله أربعة عشر اسمًا ، في أولها ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر : ٢٢] قرر الألوهية أولاً ثم سرد بعدها صفاته

سبحانه وتعالى وأسمائه ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ - ٢٤] .

وآية الكرسي صدرها أولاً بـ ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، ثم بقية الآية فيها ما يدل على الربوبية وأكثر ما فيها أيضًا الدلالة على الأسماء والصفات ، فمن عرف الله بأسمائه عبده وعظَّمه ، ولهذا قال عليه السلام : « **إن لله تسعةً وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة** » ، أحصاها لفظًا ، وأحصى ما تيسر من معانيها ، وتعبد الله سبحانه وتعالى بها ، وهناك تتضح العلاقة بين توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الألوهية .

ومعنى تعبَّد الله بها أو دعا الله بها كما في الآية ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] يتضمن نوعي الدعاء وهما:

١. دعاء المسألة ، فيسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى ويسأله بالاسم المناسب لحاجته يا غفور اغفر لي ، يا رحمن ارحمني .

٢. دعاء العبادة بحيث يتعبد الله عز وجل بما تقتضيه هذه الأسماء ، فإن كل اسم له عبودية كما يقول العلماء ، فالسميع والبصير الإيمان بأن الله سميعٌ بصير عليم عبوديته بالنسبة لك مراقبة الله عز وجل ، وهذا الذي ينبغي أن نغرسه في نفوس الناشئة الأولاد والبنات ، معاني أسماء الرب سبحانه وبحمده ، ومنها ما يغرس في نفوسهم مراقبة الله عز وجل ،

حتى إذا خلا الإنسان بنفسه وربما كان معه الشيطان عياذًا بالله من ذلك يستحضر أن الله سبحانه وتعالى عالم به ، مطلع عليه ، فربما يكون هذا سببًا لحفظه .

قال المصنف رحمه الله : (**عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك . فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .**

وفي رواية ((لمسلم)) : والجبال والشجر على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الله .

وفي رواية ((للبخاري)) يجعل السماوات على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع . أخرجاه) .

(**جاء حَبْرٌ**) ، والحَبْرُ والحِبْرُ واحد الأحبار ، والأحبار هم العلماء الكبار ، (**إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنا نجد**) يعني في التوراة (**أن الله يجعل السماوات على إصبع**) .

إصبع فيها عشر لغات ، والأنملة تسع ، وجمعت في بيت :

وهمز أنملة ثلث وثالثه ❊❊ التسع في أصبع واختم بإصبوع

(وهمز أنملة ثلث) يعني فتحة وضمة وكسرة . (وثالثه) ، ثالث (أنملة) حرف الميم ، أنمُلة ، يعني أيضًا الميم ترد عليها الحركات الثلاث ، ثلاثة في ثلاثة

تساوي تسعة ، تقول : أَنْمُلة أَنْمَلة أَنمِلة ، أُنملَة أُنمِلة أُنمَلة ، إِنمِلة إِنمَلة إِنمُلة . صارت تسع ، الحرف الأول ثلاث حركات ، والحرف الثالث ثلاث حركات ، ومع كل حركة من الحرف الأول ثلاث حركات .

والإصبع نفس الشيء ، يعني همزة إصبع ثلثها ، والباء أيضًا ثلثها ؛ لكن زادوا لغة عاشرة وهي (اختم بإِصْبُوع) ، لكن قول الناس مِصْبِع هذه لهجة دارجة ، ما أدري ربما لها أصل ، وغالبًا الكلمات العامية إذا رَجعت في القواميس ، خاصة الكلمات العامية القديمة يندر أن تجد كلمة عامية إلا ولها أصل .

قال : (**إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء على إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول : أنا الملك**) ، في رواية مسلم (**ثم يهزهن**) ، البخاري اقتصر على ثلاث وهذا اختصار .

هنا مسألة وهي : أن اللفظ إذا تكرر منكرًا فإنه يتعدد ، وإذا تكرر معرفًا فإنه يتوحد ، إذا تكرر معرفًا توحد ، وإذا تكرر منكرًا تعدد مثال من القرآن لهذا ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] كم عسر ؟ واحد ، لأنه معرف فالثاني هو الأول ؛ لكن اليسر اثنين ، ولهذا روي عن ابن عباس أنه قال لن يغلب عسر يسرين – رضي الله عن ابن عباس لا قرأ بلاغتنا ولا نحونا لكن هم المصادر للغتنا ونحونا – كيف أخذ ابن عباس من هذه لن يغلب عسر يسرين ؟ لأن العسر معرف ، وإذا تعرف توحد صار واحد ، واليسر منكر وإذا تنكر فإنه يتعدد .

ما علاقة هذه القاعدة بموضوعنا ؟ الإصبع ، حيث تكررت الأصابع بلفظ التنكير ، فدل على أنها ليست واحدًا وإنما هي أصابع . هذا الأمر موجود عند بني إسرائيل في التوراة ، وموجود عندنا في سنة المصطفى ﷺ « **إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء** » ، وجادة أهل السنة والجماعة التي أثرت عن الأئمة كمالك والأوزاعي وسفيان وأئمة السلف والليث أمروها كما جاءت بلا كيف ، ما أحلى هذا الكلام كلام الأئمة الأعلام ، والذي يطمئن به القلب ويسلم فيه من المتاهات ومن الظلمات التي تنتهي بمن أقحم عقله ونفسه وفلسفةَ اليونان وغيرَها بصفات الرحمن سبحانه وبحمدها ، أمروها كما جاءت بلا كيف ، وذكرت الأصبع وذكرت اليد فنقول : نثبت هذه على أنها صفات لربنا سبحانه وتعالى لكن لا نكيف .

وما قاله مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء قال : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أُراك إلا مبتدعًا ، فأمر به فأخرج من درسه) . (ما أُراك) يعني أظنك ، إذا ضمت الهمزة في أُرى تكون بمعنى أظن ، أُرى هذا الشيء يعني أظنه .

هذه المقولة وردت عن شيخ مالك ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي يقول مالك : كانت أمي تعممني وهو صغير وترسله إلى ربيعة بن عبد الرحمن ، فأخذ العلم أول ما أخذ عن ربيعة ، ربيعة أيضًا قال نفس المقالة : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق) .

قالت هذه المقولة أيضًا أم سلمة رضي الله عنها قالت : (الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإقرار به إيمان ، والجحود أو جحوده كفران) ، أو كما قالت رضي الله عنها وأرضاها .

هذا الكلام الذي ذكره مالك هل هو خاص بالاستواء ؟ لا ، ولهذا قال العلماء : إن قول مالك هذا رحمه الله والأئمة قبله ميزانٌ لكل الصفات :

- معناها معلوم .
- والكيف غير معقول .
- والإيمان واجب.
- والسؤال عنه بدعة .

ولهذا لما سأل هذا الرجل مالكا أطرق حتى علته الرحضاء ، علاه العرق ، لا حرجًا من أنه لا يعرف الجواب ، لا وربي هؤلاء لا يعنيهم أن يعرف أو لا يعرف ، فمالك القائل لمن سأله عن مسائل وأجاب عن قليل قال : أنت مالك إمام دار الهجرة تقول كذا ؟ قال : اذهب وصح في أزقة المدينة وقل إن مالكًا يقول لا أدري . لا يهمهم قيلُ الناس وكلامُ الناس ، لكن عَلَتْه الرحضاء لأنه سمع كلامًا منكرًا ، مبتدعًا ما يليق بالرب سبحانه وتعالى ، ولأن الشيء إنما تدرك كيفيته بإحدى طرق ثلاث إما مشاهدته ، أو مشاهدة نظيره ، أو خبر صادق عنه .

الكيفيات عمومًا إنما تُدرك:

١ . بمشاهدة الشيء ، يعني لو رأيته بعينك يمكن تصف كيفيته .

٢ . مشاهدة نظيره ، رأيت شبيهًا له ، يمكن تقول هذا يشبه كذا .

٣. خبرٌ صادق عنه ، ورد خبرٌ أن كيفية هذا الشيء كذا وكذا.

وهل شيء من هذه الطرق موجود في صفات الرب عز وجل ؟ كلا ، فما شاهدناه ، ولا نظير له سبحانه وبحمده ، ولا جاء خبرٌ صادق عنها ، فكيف نقحم العقول في مثل هذه الأمور ؟ فليس لنا إلا التسليم بما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، بذلك تسلم القلوب ، وتصح العقول ، ويطمئن المسلم لأنه يصدر عن قال الله وقال رسوله .

العلم قال الله قال رسوله ** قال الصحابة هم العرفان

هذه مصادر العلم ، أما أن نأخذ علمنا من قيل وقال والفلسفة هذا الذي أضر بالأمة ، وأوقعها في هذه المخالفات العريضة التي ما زال كثيرٌ من الناس ولا قوة إلا بالله يتعرض لها ويدفع ثمنها .

عظم النبي ﷺ ربه ، تبسم عليه الصلاة والسلام ، ضحك وكان ﷺ لا يستجمع ضاحكًا بحيث ترى لهواته ، وإنما كان يتبسم حتى بدت أنيابه ، ثم قرأ الآية ، والعجب أن يمر هذا الحديث على بعض أهل العلم وله يد في الحديث أيضًا فيقول : إنما ضحك النبي ﷺ إنكارًا لقول الحبر . والله هذه عجيبة ، كيف يضحك النبي ﷺ لمنكر في صفات الرب عز وجل ؟ وهو عليه السلام إذا سمع مُنْكَرًا يقول « **سبحان** » ، « **الله أكبر** » يعظم الله عز وجل ، فهل يتبسم على مُنْكَر سمعه ؟ هذا عجيب ، ومع أن الحديث نص في أن ضحك النبي ﷺ كان تصديقًا لما قال الحبر .

قال رحمه الله : (**ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا : « يطوي الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟**

ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله ، ثم يقول : أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ») ؟

قال : (**« يطوي الله السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون »**) ؟ في ذلك الموقف لا أمر لأحد ، ولا ملك لأحد ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ، ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] ، ليس لأحدٍ أمر ، في الدنيا يأمر الإنسان وينهى ؛ لكن يوم القيامة لا أمر ولا نهي ، إنما الأمر لمن له الأمر سبحانه وبحمده ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٩] سبحانه وبحمده .

يطوي السماوات بيمينه ، يأخذهن بيمينه فيقول : « **أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون في الدنيا** » ؟ ويأخذ الأراضين يطويها أيضًا بيده الأخرى أو بشماله كما في الرواية الثانية ويقول : (**« أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون »**) ، وهذا الحديث أورده المؤلف كالإيضاح لمعنى الآية (**﴿ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾**) ، قبلها (**﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾**) ، فهذا الكون كله يطويه ربنا عز وجل ويجعله بيمينه وبيده الأخرى فما أعظم الله عز وجل ، ومن عرف الله بهذه الصفات الجليلة العظيمة الواردة في كتاب ربنا وسنة رسوله ﷺ ، لا شك أن من عرفه عظمه ، ومن عظمه قدره وعبده سبحانه وبحمده . أما إذا أتينا إلى النصوص بالتأويلات هناك ولا قوة إلا بالله يضعف تعظيم الله عز وجل ، ولهذا انتهى الأمر بمن خاض في هذه الأمور لاسيما الكبار منهم إلى القلق والحيرة والرجوع في النهاية إلى كتاب الله وسنة

رسوله ﷺ . ابو المعالي الجويني رحمه الله من المتكلمين الكبار لكنه في نهاية الأمر تبين له أن هذا الطريق الذي سلكه ليس هو الطريق ، وإنما الطريق الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولهذا ورد عنه قوله : لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ، وخضت بالذي نهوني عنه واليوم إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لابن الجويني وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي ، أو قال : على عقيدة عجائز نيسابور ، **عقيدة العجائز ما هي ؟** الجواب: هي الفطرة ، الكبار الذين ما لُوِّثت فطرهم ، هم على الفطرة ، فهو يريد أن يموت على عقيدتهم بعد هذا العلم الطويل الكثير يتمنى الإنسان أن يموت على عقيدة العجائز ؟ نعم ، لكن من سلك الطريق الأمثل والسبيل الأقوم في هذا الأمر العظيم ما يتمنى أن يموت على عقيدة العجائز ، بل يعرف ربه ، ويُعَظِّم ربه ويَقْدر ربه سبحانه وبحمده .

حديث عبد الله بن عمر يتضمن إثبات صفة اليد للرب سبحانه وبحمده ، واليد من صفات الرب عز وجل ، وهي من الصفات الذاتية ، قد دل على ثبوتها لربنا عز وجل الكتاب والسنة ، وفي السنة أحاديث مشهورة ومنها هذا الحديث الذي بين أيديكم ، وأما القرآن فمثل قوله عز وجل معنفًا إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] ، فمذهب أهل السنة والجماعة أنهما يدان حقيقيتان ، لا تماثلان أيدي المخلوقين .

وأما أهل التعطيل فأوَّلوهما كعادتهم فحيث أوَّلوا اليد إلى القوة وإلى النعمة ، وأجيب عليهم بأجوبة :

- من أشهرها هذه الآية لو تأملتموها ﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، دلالتها ظاهرة جدًّا في إثبات الصفة ، صفة اليد اللائقة بجلال الرب سبحانه وبحمده ، فلو كان المراد باليد القوة ماذا كان يقول إبليس ؟ لقال : وأنا أيضًا خلقتني بقوتك ، فلا مزية لآدم عليَّ ، اليد القوة ، خلقت آدم بقوتك وخلقتني بقوتك وخلقت الكون كله بقوتك ونعمتك وقدرتك إلى آخر ما يذكرون . لكن هل قال هذا إبليس ؟ أبدًا ، فلو كان المراد باليد القوة لاحتج إبليس على الله ولقال : أنا أيضًا خلقتني بقوتك ، لكنه لم يقل هذا .
- وفي حديث الشفاعة المخرج في الصحيح « **يأتون إلى آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده** » ، ما قالوا هذا لنوح أو إبراهيم أو كل الأنبياء إنما قالوه لآدم عليه السلام ، فدل على أن اليد هنا هي اليد الحقيقية .
- ثم هنا وصفت اليد كما عندكم بالهز ، وبالقبض ، وبالبسط ، وبالأصابع وما أشبه ذلك ، وهل تكون هذه الأمور للقوة ؟ لا يمكن أبدًا أن تكون هذه الأمور للقوة.

فدل هذا على أن المراد باليد اليد الحقيقية الثابتة له تعالى ، ونقول ما قال مالك في الميزان ، نقول اليد معلومة غير مجهولة ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وإنما وقع القوم في هذا التحريف حقيقة لأنهم شبهوا أولاً ، ولهذا يقول العلماء دائمًا : (كل معطل ممثل وكل ممثل معطل) ، هذا المعطل مثَّل لأنه

اعتقد أن إثبات صفات الرب في أول الأمر يستلزم التمثيل ، فأخذ ينفي الصفات فرارًا من التشبيه ، فمثل أولاً ثم عطل ثانيًا ، إذًا إنما عطل لأنه تصور أن صفات الرب مثل صفات المخلوقين ، فذهب ينفيها خوفًا من التمثيل ، فوقع في التعطيل ، ولو أنه استشعر واستحضر أن صفات الرب عظيمة كما هو عظيم سبحانه وبحمده ، وأن صفاته لا تماثل صفات المخلوقين بحالٍ من الأحوال ، كما أنه تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، فلا مثيل له في ذاته ، ولا مثيل له في صفاته ، ولو سلك هذا المنهج لسلمت له عقيدته ، وهي أغلى ما يملك الإنسان ولعرف ربه وعظَّم ربه وعبد ربه ووحد ربه . فلما حصل الخلل في هذه الأمور حصل الخلل في أمورٍ كثيرة ، فضعف تعظيم الله ، وضعفت مراقبة الله عز وجل ، والتجأ الناس إلى المقبورين وإلى الموتى يدعونهم ، ويذبحون لهم ، ويتوكلون عليهم ، ويستعينون بهم ، وينذرون لهم ، ولو عرفوا الله لعظموه ، ولو عظموه لقدروه وعبدوه، وأفردوه بالعبادة سبحانه وبحمده . فالخلل جاء من عدم تعظيم الرب سبحانه وتعالى ، فتعظيمه وسيلة لعبادته سبحانه وبحمده .

وفقنا الله وإياكم إلى عبادة ربنا وتعظيمه ، وإلى أن نقدره سبحانه وبحمده ، وإلى أن نعرفه سبحانه وبحمده بأسمائه وصفاته وبأفعاله .

وفقكم الله وبارك فيكم

ورزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح

٥٥ درس

شرح

كتاب التوحيد

التفريغ لم يراجع من الشيخ وفقه الله

نسخة (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اللهم اغفر لنا ولشيخنا وللمسلمين أجمعين .

قال المصنف رحمه الله : (**وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ما السماوات السبع والأراضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**) .

هذا الأثر موقوف عن ابن عباس ، قال الشيخ سليمان ابن الشيخ عبد الله بن عبد الوهاب قدس الله أرواحهم صاحب كتاب ((**التيسير**)) : إسناده لا بأس به ، صححه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى .

(**ما السماوات السبع والأراضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم**) ، الخردلة :

- قيل : الهباءة التي تطير في شعاع الشمس ، عندما تدخل الشمس من كوة .
- وقيل : بل هي حبة صغيرة من الحبوب ، ولعل هذا الأقرب ، تجدون عند العطارين نوع من الحبوب يسمى الخردل حبوب صغيرة جدًّا ، فلا يَبْعُد أن تكون هذه الحبة .

المقصود : أن السماوات والأراضين رغم عظمها في كف الرحمن لا تساوي خردلةً بالنسبة لنا ، وهذا يدل على تعظيمه وعظمته سبحانه وبحمده .

والأثر وإن كان موقوفًا إلا أن له حكم الرفع ، لا يقوله ابن عباس من عند نفسه ، والأثر في الجملة صحيح ، يقوله بعض أهل العلم .

قال رحمه الله : (**وقال ابن جرير : حدثني يونس قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثني أبي قال : قال رسول الله ﷺ : « ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرس »**) .

يقول ابن جرير عن يونس عن ابن وهب قال : أخبرني يونس أنبأنا ابن وهب عن ابن زيد) . من هو زيد هذا ومن هو ابنه ؟ زيد هذا إمام عالم فقيه قدوة ، زيد بن أسلم ، وأبوه أسلم مولى لعمر بن الخطاب اشتراه من مكة في خلافة أبي بكر ، وكان على قدر من العلم وحديثه في كتب الستة ، وابنه زيد هذا - كما ذُكر - إمام . وكان له مجلس في مسجد رسول الله ﷺ يحضره العلماء ، كان علي بن حسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين يجلس إليه فقيل له في ذلك ، يعني كيف تجلس وهذا مولى ؟ فقال : إنما يُجالس الرجل من ينفعه في دينه . الله أكبر ، لا ينظر إلى مال ، ولا إلى جاه ، ولا إلى حسب ولا إلى نسب ، إنما النظر والعبرة في من ينفعك في دينك ، إنما يجالس الرجل من ينفعه في دينه ، وهذه كلمة لها معنى ومغزى.

زيد له ثلاثة أولاد ، له :

١. أسامة .

٢. وعبد الله .

٣. وعبد الرحمن .

يقول ابن أبي حاتم رحمه الله : سألت الإمام أحمد عن ولد زيد من أحب إليك ؟ قال : أسامة . قلت : ثم أي ؟ قال : عبد الله . قلت : ثم أي ؟ قال : عبد

الرحمن . قال : وضَجَعَ فيه ، يعني كأنه ضعفه ، وعبد الرحمن له يد في التفسير معروف ، وممن لهم رواية في التفسير رحمه الله .

قال : (« **ما السماوات السبع في الكرسي** ») مخلوقات عظيمة ، أعظمها على الإطلاق العرش ، ثم الكرسي ، ثم السماوات السبع والأراضون السبع .

والكرسيُّ اختلف فيه :

- وأقوى وأقرب ما قيل فيه ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه : أن الكرسي موضع قدمي الرب عز وجل ، قال : والعرش لا يَقدر قدره إلا الله .
- وقيل : إنه العلم .
- وقيل : العرش .

لكن القول الأول هو الأشهر .

قال : (« **ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة** ») السماوات رغم عظمها كما سيأتي فهي عند الكرسي (« **كدراهم سبعة ألقيت في تُرس** ») ، والتُّرْسُ آلة يتترس بها المقاتل ، تكون معه في يده يضعها يتقي بها السهام . وهذا الأثر فيه نظر في ثبوته ، وفيه ابن زيد وهو عبد الرحمن ، وهو يضعف في الحديث رحمه الله .

قال : (**وقال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض »**) .

الحديث « **ما السماوات السبع والأراضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة** » ، **إذًا أعظم هذه المخلوقات** : العرش ، ثم الكرسي ، ثم السماوات

والأرض ، ونسبة السماء والأرض إلى الكرسي كنسبة الكرسي إلى العرش ، السماوات والأرض بالنسبة للكرسي كحلقة حديد ، بقدر ما يجمع الإنسان أصبعيه الإبهام والسبابة.

(ألقيت في فلاة) في صحراء ، فهي لا تساوي شيئا ، فالسماوات والأرض كالحلقة والكرسي كالفلاة ، ومع عِظم الكرسي إلا أنه بالنسبة للعرش مثل الحلقة بالنسبة للفلاة ، والعرش لا يَقدره إلا الله عز وجل .

والأثر يصححه أهل العلم ، هذا الحديث يصححونه .

قال رحمه الله : (**وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سماء خمسمائة عام ، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام ، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم »**) .

هذا الأثر عن ابن عباس يقول الشيخ ابن باز : صحيح جيد .

والأثر وإن كان موقوفًا إلا أنه لا يمكن أن يقوله ابن مسعود من تلقاء نفسه ، فله حكم الرفع .

يقول : (**« بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام »**) ، مسيرة خمسمائة سنة ، وبين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين الكرسي والماء خمسمائة سنة ، سيأتي في حديث ابن مسعود « **بين السماء السابعة والكرسي** » أيضًا « **خمسمائة عام ، والعرش فوق الماء ، والله فوق العرش لا يخفى عليه** » .

وفي الأثر إثبات صفتين جليلتين من صفات الرب سبحانه وبحمده ، وهما :

١. العلو .

٢. والاستواء .

ومر بنا أثر أم سلمة في الاستواء ، وأثر ربيعة بن عبد الرحمن ، وأثر مالك آثار متشابهة في أن الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة كما قال مالك رحمه الله تعالى .

وقد ورد الاستواء مضافًا إلى الله عز وجل في سبع آيات من محكم التنزيل .

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات هذه الصفة وأنها حقٌّ على حقيقتها ، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل .

وأما المؤولة المعطلة فأولوا هذه الصفة جريًا على العادة ، واختلفت التأويلات:

- فمنهم من قال : استولى ، هذه الكلمة من البشاعة بحيث ينفر منها الإنسان بمجرد أن يسمع ، كيف يقال عن الرب : استولى عليه ؟ وهي توحي بأنه إنما استولى عليه قهرًا ومغالبة ولا قوة إلا بالله .
- وبعضهم يقول : ظهور نوره على العرش ، وما أشبه ذلك من التأويلات التي لا مستند لها من سمع ولا عقل .

وأما العلو فمذهب أهل السنة والجماعة – وأعني به علو الذوات – أن الله بذاته فوق جميع مخلوقاته .

والعلو الثاني : علو الصفات ، وهو أن ما نسب من صفات الله عز وجل إلا وهي عليا كاملة ، سواء كانت من صفات المجد والقهر أو من صفات الجمال والقدر كما يقول العلماء ، وعلو الصفات يثبته عامة الناس ، وإنما الخلاف في

علو الذات ، مع أن الأدلة تضافرت وتواترت في إثبات هذه الصفة لله عز وجل ، فدل على إثباتها الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة ، ولو سألت طفلاً صغيرًا لم تلوث عقيدته بهذه الشبهات ، أو رجلاً أو امرأة كبيرة من عامة الناس وقلت له : أين ربك ؟ يقول : ربي في السماء ، جبلت الفطرة على هذا ، ولهذا لما سأل النبي ﷺ الجارية قال : « **أين الله** » ؟ قالت : في السماء ، وهي جارية راعية غنم ، ما قرأت ولا تعلمت .

أما أدلة القرآن فكثيرة ، حتى إن بعض العلماء ذكر أن أدلة العلو قرابة ألف دليل ، وأدلة القرآن كثيرة ، كذا السنة ، تارة بذكر العلو ، والصعود ، والعروج ، والاستواء ، ورفع الأشياء إليه ونزولها منه ، النصوص في هذا ما تخفى . وقد قال النبي ﷺ – الحديث مخرج في ((**الصحيح**)) – لما قَسم ذُهَيْبَة بين بعض العرب الذين لم يكن لهم سابقة في الجهاد وجد بعض الناس في نفسه شيئًا وقال : كنَّا والله أحق بها من هؤلاء ، وهذه ذُهَيْبَة بعث بها علي من اليمن إلى النبي ﷺ ، يقول الراوي : لم تُحَصَّل من ترابها ، قسمها بين زيد الخير والأقرع بن حابس وعيينة بن الحصن فقال بعض الناس : كنا أحق بها من هؤلاء ، فقال عليه السلام : « **ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساء** » ، « **أمين من في السماء** » من في السماء ربنا عز وجل ، معنى كونه في السماء يعني فوق السماء وعلى السماء . يقول الراوي : فقام رجل غائر العينين ، ناشز الوجنتين مشمر ، فقال : يا محمد اتق الله ، قال ﷺ : « **ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقي الله** » ؟ في رواية قال له : اعدل ، قال : « **من يعدل إذا لم أعدل** » ؟ فأدبر الرجل ، فقال خالد رضي الله عنه : ألا أقتله يا رسول الله ؟ قال : « **لا ،**

لعله أن يكون يصلي » ، قال خالد : كم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه ، قال : « **ما أمرت أن أشق صدور الناس ، ولا أن أبقر بطونهم** » ، فلما أدبر الرجل قال النبي ﷺ : « **يخرج من ضئضئ هذا** » يعني من شاكلته من جنسه « **أناس تحقرون صلاتكم عند صلاتهم ، وصيامكم عند صيامهم** » في رواية « **وقراءتكم عند قراءتهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** » ، في رواية قال : « **لأن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد وثمود** » يعني الخوارج ، فيهم جرأة ، فيهم جرأة على النبي ﷺ يقول له : اتق الله ؟ لا إله إلا الله ، وهو رجل من أغمار الناس وأجلافهم وجفاتهم ثم يقول : اعدل ؟ وقد خرج من ضئضئه مصداق ما أخبر به النبي ﷺ ، قتلوا عثمان وقتلوا علي رضي الله عنهم وأرضاهم ، وأوجدوا في الأمة جرحًا يدمى إلى يوم القيامة ، والله المستعان .

النبي ﷺ ورد عنه ما يدل على إثبات العلو:

- تارة بالقول كقوله : « **وأنا أمين من في السماء** » .
- وتارة بالفعل حينما أشار بأصبعه إلى السماء لما قال في خطبته بعرفة : « **إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون** » ؟ قالوا : نشهد أنك بلغت الرسالة ، بلغت وأديت ونصحت ، فرفع أصبعه إلى السماء ثم نكّسها عليهم وقال : « **اللهم قد بلغت ، اللهم فاشهد** » ، رفع أصبعه إلى السماء.
- وثبت عنه أيضًا ما يدل على العلو بالتقرير كما في حديث الجارية .

والنصوص كثيرة ، حتى إن فرعون لما أراد أن يطلب الله في زعمه الفاجر ماذا قال ؟ ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ [غافر : ٣٦ ، ٣٧] ، ففهم أن ربه في العلو ، قال العلماء : فمن

أثبت العلو فهو موسويٌّ ، ومن أنكر العلو فهو فرعوني ، لأن فرعون ينكر أن الله في السماء .

ولما نفى هؤلاء العلو ضاعوا:

- فمنهم من يقول : إن الله بذاته في كل مكان ، فأدى هذا إلى نشوء مذهب الحلولية القائلين بأن الله حالّ في كل مكان ، وهذه الظلمات ما تنتهي بأصحابها إلى خير أبدًا ، ويترقى الإنسان سبحان الله في الزيغ والانحراف درجة درجة ، حتى يخرج عن الدين ، ويخرج حتى عن أدنى بدهيات العقول ، حتى قالوا : إن الله متحد ليس حالا ، بل متحد في كل شيء ، وصار الكون عنده كله هو الله ، فأعادوا الشرك أشد مما كان في الجاهلية ، صار الإنسان يسجد للشجر وللحجر ، ولكل شيء ويقول : ما ثَمَّ إلا الله ، الله حال في هذا المكان ، أو موجود في هذا المكان . ولما كان أبو المعالي الجويني رحمه الله يتكلم ، وكان ممن خاض في علم الكلام ، وكان يقول : (كان الله ولا شيء ، وهو الآن على ما كان) يعني (كان الله ولا شيء) قبل العرش ، العرش مخلوق ، (وهو الآن على ما كان) يُعَرِّض بنفي الاستواء ، (فقال له أبو جعفر الهمداني : دعنا من ذكر العرش) يعني هذا الشيء مفروغ منه لا يقبل النقاش لأنه ثابت في كتاب الله عز وجل (وأخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في نفوسنا أو قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قط : يا رب إلا وجد من نفسه ضرورة بطلب العلو) ، لا يَلتفت يمنة ولا يسرة ، ويشير هنا إلى الفطرة ، أن الناس مجبولون ومفطرون على أن ربه فوق سماواته ، (فصرخ أبو المعالي ولطم رأسه وقال : حيرني الهمداني ، حيرني الهمداني) ، ولهذا هؤلاء الكبار رجعوا

، أو حاولوا أن يرجعوا رحمهم الله وعفا عنهم ، أبو المعالي هو القائل : (لقد خضت البحر الخضم وخليت الإسلام وعلومه ، وخضت بالذي نهوني عنه فاليوم إن لم يتداركني الله برحمته فالويل لابن الجويني ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي . أو قال : عقيدة عجائز نيسابوري) ، يعني على الفطرة بعد هذا العلم الكثير والذي يورث في صاحبه خشية الرب وتعظيمه عز وجل يريد أن يرجع إلى عقائد العجائز ، نعم هذا لمن دخل في هذه الأمور الموغلة في البُعد عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، ينتهي به الأمر إلى الاضطراب والقلق والحيرة ، والله المستعان . **والمقصود :** أن صفة العلو للرب سبحانه وتعالى فوق سماواته ثابتة بالتواتر في نصوص الكتاب والسنة .

- ومنهم من قال : إنه لا داخل العالم ولا خارجها ، ولا متصل ولا منفصل . حتى إن محمود بن سبكتكين رحمه الله قال لابن فورك : (لو أردنا تفسير المعدوم ما وجدنا أحسن منها) ، يعني أن هذه العقائد التي خرج فيها أهلها عن الجادة وعن نصوص الكتاب والسنة ربما تنتهي عياذاً بالله بأصحابها إلى نفي وجود الرب عز وجل ولا قوة إلا بالله.

والمقصود : أن النهج القويم والطريق المستقيم والسير على نهج الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة رحمهم الله تعالى .

قال في تخريجه أثر ابن مسعود : (**أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله ، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله .**

قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى . قال : وله طرق .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «هل تدرون كم بين السماء والأرض » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : « بينهما مسيرة خمسمائة سنة ، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وكِثَفُ كل سماء مسيرة خمسمائة سنة ، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ، والله تعالى فوق ذلك ، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم بني » أخرجه أبو داود وغيره) .

أثر العباس هذا اختلف في تصحيحه وتضعيفه ، الشيخ ابن باز رحمه الله يقول : فيه انقطاع إلا أنه ينجبر بأثر ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه ، حيث بيَّن النبي ﷺ أن بين السماء والسماء خمسمائة عام بين كل سماء وسماء .

قال : (« وكِثَفُ كل سماء »)، كثفها يعني غِلَظُها ، يعني غلظ السماء مسيرة خمسمائة عام ، ثم فوق ذلك كله العرش ، والله سبحانه وتعالى فوق عرشه كما دلت عليه نصوص الكتاب المستفيضة ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] سبحانه وبحمده .

فدل على إثبات صفة العلو له سبحانه وبحمده ، وإثبات صفة الاستواء ، والاستواء صفة فعل والعلو صفة ذات له سبحانه وبحمده .

الخاتمة

وبهذا الباب ينتهي ((**كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد**)) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب قدس الله روحه ، ونوَّر ضريحه ، وجزاه عنا وعن الإسلام والمسلمين أوفر الجزاء .

هذا الكتاب الذي نفع الله تعالى به الأمة ورد الناس إلى ما كان عليه السلف الصالح والأئمة ، وانمحت فيه ولله الحمد معالم البدع والمحدثات ، وعم فيه التوحيد الذي هو أعظم الأسباب لسلامة القلوب وصحتها ، فإن القلب والذي عليه مدار كل شيء القلب السليم والسالم من الشهوات ومن الشبهات ، فيحفظ الله صاحبه من الشبهات التي تقلق صاحبها وربما يزيغ ويزل وينحرف بسببها ، ويحفظه الله تعالى من الشهوات والتي ترضي صاحبها وتهلكه .

والمقصود : أن الناس انتفعوا ولله الحمد بهذا الكتاب نفعًا عظيمًا ، فلا تكاد تجد ولله الحمد أثرًا للشرك ، ولا تكاد تسمع حتى ممن سار على هذا النهج وهذه الطريقة ما تكاد تسمع كلمةً تلحظها عليه يزل بها لسانه ، أو يقع فيها بشيء من وسائل الشرك .

والسبب هو : الحرص على العقيدة ، والمحافظة عليها ، والحرص على سلامة التوحيد الذي هو الأصل وعليه مدار الأعمال ، والذي هو الركن الركين من أركان ودعائم هذا الدين .

ولهذا لما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : « **إنك تأتي قومٌ أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** » ، وفي رواية « **إلى أن**

يوحدوا الله » فلا ند ولا شريك ولا مثيل له سبحانه وبحمده ، بل يدعوا الناس إلى عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء مائلين عن الشرك إلى التوحيد .

والمطلوب منا : أن نحرص على تربية أبنائنا وبناتنا على توحيد الله عز وجل ، والذي فيه صحة قلوبهم ، وسلامة نفوسهم ، وحفظهم من مضلات الفتن ، الشهوات والشبهات والفتن الكبرى ولا قوة إلا بالله والعظمى ، فإذا صحت القلوب صحة الأعمال ، وإذا تسلل الخلل إلى القلب في المعتقد فما ينفع الإنسان أن يعمل شيئًا ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٥] .

ونسأل الله عز وجل أن يثبتنا وإياكم على الإسلام ، وأن يرزقنا وإياكم حسن المعتقد ، وسلامته وصحته ، وأن يجعلنا وإياكم هداة مهتدين مخلصين لربنا الدين ، وأن يرزقنا وإياكم البصيرة في الدين والاستقامة وعليه ، وأن يتوفنا وإياكم على الإسلام ، وأن يجمعنا وإياكم في دار كرامته وجنته إذ جمعنا في هذا المكان المبارك ، وصلَّ الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

قال رحمه الله : (**فيه مسائل :**

الأولى : تفسير قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

الثانية : أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ ولم ينكروها ولم يتأولوها .

الثالثة : أن الحَبر لما ذكر للنبي ﷺ صدَّقه ، ونزل القرآن بتقرير ذلك .

الرابعة : وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

الخامسة : التصريح بذكر اليدين ، وأن السماوات في اليد اليمنى ، والأرضين في الأخرى .

السادسة : التصريح بتسميتها الشمال) .

حتى قوله : يده الأخرى ، يدل على الشمال ، لأنها أخرى ، وإذا كانت أخرى فيصدق أن تكون هي الشمال والله أعلم ، وكأن الشيخ يميل إلى هذا رحمه الله .

(السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك .

الثامنة : قوله : كخردلة في كف أحدكم .

التاسعة : عِظَم الكرسي بالنسبة إلى السماء .

العاشرة : عِظَم العرش بالنسبة إلى الكرسي .

الحادية عشرة : أن العرش غير الكرسي والماء .

الثانية عشرة : كم بين كل سماء إلى سماء .

الثالثة عشرة : كم بين السماء السابعة والكرسي .

الرابعة عشرة : كم بين الكرسي والماء .

الخامسة عشرة : أن العرش فوق الماء .

السادسة عشرة : أن الله فوق العرش .

السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض) .

ومع هذا البُعد بين السماء والأرض إلا أنه ثبت عنه ﷺ أنه قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر والفجر فيَعْرُج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون : أتينا وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون** » ، رغم بُعد المسافة إلا أنهم يصلون إلى الرب

سبحانه وتعالى في وقت وجيز ، قال تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة : ٥] .

وقوله : ﴿ يَعْرُجُ ﴾ في الآية وفي الحديث يدل على إثبات صفة العلو لله عز وجل .

قال : (**الثامنة عشرة : كِثف كل سماء خمسمائة سنة**) .

معنى (**كِثف**) غلظ .

(**التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة ، والله أعلم .**

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين) .

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

الطالب : الآن الصواريخ هل تصل إلى السماء ؟

الشيخ : لا ، السماء حرست بحرس شديد ، ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن : ٨] ما يصلون حتى للكواكب ، بعض الكواكب الشمس كم بُعدها عن الأرض ؟ ولو اقترب إليها من اقترب لاحترق قبل أن يصل إلى بعض مسافتها ، والله المستعان .

وفقكم الله وبارك فيكم